الوعي الإسلامي
مجلة كويتية شهرية جامعة

وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية

مقالات حصرية نشرت في المجلة
لـ ٣٥١ عالماً من علماء الأمة الإسلامية وأعلامها
ما بين عامي ١٣٨٥هـ - ١٤٢٦هـ

الجزء الثاني

الإصدار الرابع عشر

الوعي الإسلامي

بسم الله الرحمن الرحيم



علماء وأعلام

كتبوا في

مجلة الوعي الإسلامي الكويتية



وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية

قطاع الشؤون الثقافية

أسست عام ١٣٨٥هـ - ١٩٦٥م

الوعي الإسلامي

AL-Waei AL-islami

مجلة كويتية شهرية جامعة

تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية - دولة الكويت

في مطلع كل شهر عربي

الإصدار الرابع عشر

الطبعة الأولى

١٤٣٢ هـ - ٢٠١١ م

الموقع على الإنترنت	www.alwaei.com
البريد الإلكتروني	info@alwaei.com

العنوان

ص.ب ٢٣٦٦٧ الصفاة ١٣٠٩٧ - الكويت

هاتف :٢٢٤٦٧١٣٢ - ٢٢٤٧٠١٥٦ - ١٨٤٤٠٤٤ - فاكس : ٢٢٤٧٣٧٠٩

١٧

الشيخ حسن خالد

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- الحج.

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

٢- حكم الإسلام في كتاب «نقد الفكر الديني».

العدد (٦٢) محرم (١٣٩١هـ) - أبريل (١٩٧٠م).

٣- الشخصية المسلمة ضمان للسلام.

العدد (٧٣) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م).

٤- الإسراء والمعراج.

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

٥- حديث عن لبنان.

العدد (١٦٢) جمادي الآخرة (١٣٩٨هـ) - مايو (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ

حسن خالد



● **مولده ونشأته**

هو الشيخ حسن بن سعد الدين خالد ، ولد في بيروت سنة ١٣٤٠هـ ١٩٢١م، وبدأ علومه الأولى في مدرسة الفاروق التابعة لجمعية المقاصد الخيرية في بيروت، ثم التحق بالكلية الشرعية في بيروت (أزهر لبنان) وبقي فيها حتى تخرج سنة ١٣٥٩هـ ١٩٤٠م.

● **عمله**

عمل خطيباً في بعض مساجد بيروت ثم أرسله مفتي لبنان مع بعض زملائه إلى الجامع الأزهر في مصر لمتابعة تخصصه العالي في العلوم الدينية فالتحق بكلية أصول الدين التي بقي فيها إلى أن تخرج سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٦م، ثم عُيّن كاتباً في المحكمة الشرعية في بيروت، ثم ترقى فيها إلى درجة رئيس قلم.

عُيِّن الشيخ حسن قاضياً في محكمة عكار الشرعية، ثم في محكمة شحيم، بالإضافة إلى ممارسته التدريس في أزهر لبنان، والخطابة في بعض مساجد بيروت.

بعد استقالة الشيخ محمد علايا من منصب الإفتاء، رشَّح الشيخ حسن خالد نفسه لهذا المنصب وتم انتخابه من قِبل الهيئة الناخبة مفتياً للجمهورية اللبنانية بالإجماع، وأصدرت الحكومة اللبنانية مرسوماً باعتماد هذا الانتخاب وقعه رئيس الجمهورية اللبنانية.

كان الشيخ رحمه الله يتمتع بثقافة دينية واسعة أهلته لها دراسته الأزهرية، ومن خلال هذه الأهلية قام بتأليف عدة كتب منها: «المواريث، الأحوال الشخصية

عند المسلمين، الشهيد، وله كتاب يتضمن البيانات والتصريحات الصادرة عن دار الفتوى خلال الحرب الأهلية في لبنان»، كما تم تعيين الشيخ عضواً في عدد من المؤسسات، منها رابطة العالم الإسلامي، والمجلس الأعلى العالمي للمساجد.

● **وفاته**

توفي رحمه الله في بيروت في ١١شوال سنة ١٤٠٩هـ الموافق ١٩/ ٥/ ١٩٨٩م إثر انفجار بجانب سيارته أثناء مرورها في الطريق، ودُفن بمقبرة الأوزاعي. رحمه الله رحمة واسعة.



الحج

العدد (٣٦) ذو الحجة (١٣٨٧هـ) - فبراير (١٩٦٨م).

الحج في اللغة القصد إلى عظيم. ثم خص بالقصد إلى مكة المشرفة للنسك. ويقال حججت بيت الله بمعنى قصدته لأفعال النسك. ويقال نسك وتنسك أي تعبد. ونسك نساكة صار ناسكاً. والنسك الذبيحة المتقرب بها. ثم توسع بها فصار اسماً للعبادة والطاعة. ومناسك الحج مواضع متعبداته.

والحج إلى بيت الله الحرام فرض عين إجماعاً، على كل مسلم حر بالغ عاقل مستطيع ذكراً أو أنثى. وهو أحد الأركان الخمسة في الإسلام لقوله ﷺ: «بني الإسلام على خمس شهادة أن لا إله إلا الله إلى قوله وحج البيت من استطاع إليه سبيلا».

والحج فرض على المسلم والمسلمة في العمر مرة وما زاد فهو نفل بدليل ما روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «خطبنا رسول الله ﷺ فقال: يا أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا. فقال رجل: أفي كل عام يا رسول الله؟ فسكت حتى قالها ثلاثاً. فقال النبي ﷺ: لو قلت نعم لوجبت. ولو وجبت لم تعملوا بها ولم تستطيعوا أن تعملوا بها. الحج مرة فمن زاد فهو تطوع».

والمراد بالبيت المسجد الحرام بدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران: ٩٦).

وهو أول بيت وضع للعبادة على الإطلاق وبإجماع العلماء بدليل النص القطعي. فهو سابق على المسجد الأقصى بعدة قرون. وهو كما قال المفسرون أقدم بيت وضع للعبادة. وليس ثمة أقدم منه.

وتحدثنا روايات عن وجود البيت من قبل آدم. ولكنا نمر عليها لنتحدث عما

تحدث عنه القرآن الكريم من بناء سيدنا إبراهيم له بمؤازرة ولده إسماعيل عليهما الصلاة والسلام ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

وقد اختلف العلماء في وقت ابتداء افتراض الحج والجمهور على أنه كان سنة ست للهجرة لأنه فيها نزل قوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ (البقرة: ١٩٦) ولا يعقل أن يأمر الله بإتمام شيء لم يكن مفروضاً. ويؤيد هذا ما ورد في قصة ضمام بن ثعلبة من ذكر الحج. وقد كان قدومه على ما ذكره الواقدي سنة خمس للهجرة.

ونقل النووي أنها كانت سنة تسع. وقد رجح هذا القول بعض العلماء. ولا يكون الحج فرضاً على المسلم إلا مع الاستطاعة بدليل قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ (آل عمران: ٩٧).

وقد ذهب الإمام مالك إلى اعتبار الاستطاعة بالبدن، وأوجب الحج على من قدر على المشي والكسب في الطريق.

وذهب الإمام الشافعي إلى اعتبار الاستطاعة بالمال. ولذلك فقد أوجب الاستنابة على المريض الذي لا يرجى برؤه إذا وجد أجرة من ينوب عنه، معتمداً في ذلك على جواب الرسول ﷺ على من سأله عن السبيل بقوله: «الزاد والراحة».

وذهب الإمام أبو حنيفة إلى اعتبار الاستطاعة بالصحة والمال معاً يؤيده في ذلك ما رواه عن ابن عباس أنه قال: السبيل أن يصح بدن العبد، ويكون له ثمن زاد وراحلة من غير أن يجحف به.

ويؤول الإمام أبو حنيفة ما وقع في الحديث الذي اعتمد عليه الإمام الشافعي بأن ما وقع فيه بيان لبعض شروط الاستطاعة، بدليل أنه لو فقد أمن الطريق لم يجب الحج عليه، والظاهر أنه ﷺ لم يتعرض لصحة البدن في الحديث كأحد مقومات الاستطاعة لظهور الأمر. يؤيد هذا أنه قد ورد في بعض الروايات عن الإمام علي كرم الله وجهه أن النبي ﷺ سئل عن السبيل، فقال: «أن تجد ظهر بعير». ولم يذكر الزاد.

● الاستطاعة للمرأة

ومن معاني الاستطاعة بالنسبة للمرأة أن يكون معها رحم محرم أو زوج.

والأئمة الأربعة متفقون على عدم اعتبار المرأة مستطيعة ما لم يكن معها زوج أو رحم محرم. غير أن الإمام مالك يزيد بأنه يجوز للمرأة أن تحج وتعتبر مستطيعة إذا كان لها رفقة مأمونون. كما أن الإمام الشافعي يعتبرها أيضاً مستطيعة ويوجب عليها الحج إذا كان معها نسوة موثوق بهن. أما إن وجدت امرأة واحدة فقط. أو لم تجد، وكانت الطريق مأمونة، فالحج غير واجب عليها ولا تعتبر مستطيعة. غير أنها إذا حجت جاز منها ذلك.

كل هذا في الحج الذي هو فريضة، أما حج النفل فلا يجوز من المرأة مطلقاً إلا إذا كان معها رحم محرم أو زوج.

وسبب هذا التصعيب في حق المرأة الأخبار الصحيحة الواردة بمنع المرأة من السفر منفردة والاختلاء بأجنبي. فقد ورد أن ابن عباس سمع النبي ﷺ يخطب يقول: «لا يخلون رجل بامرأة إلا ومعها ذو محرم. ولا تسافر المرأة إلا مع ذي محرم. فقام رجل فقال: يا رسول الله إن امرأتي خرجت حاجة وإني اكتتبت في غزوة كذا وكذا، فقال فانطلق فحج مع امرأتك» ومنها ما وقع عند الإمام الدارقطني بلفظ «لا تحجن امرأة إلا ومعها زوج».

• سفر المرأة للخارج!!

ومن استعراض رأي الفقهاء هذا والأخبار الواردة في الموضوع نجد مقدار تشدد الإسلام في موضوع سفر المرأة، وبالأخص إذا كان مسافة ثلاثة أيام مشياً. ونرى بالضرورة أنه ينبغي أن يلتفت نظرنا إلى ما يقع كثيراً من نسائنا وفتياتنا من سفرهن خارج البلاد، ومكثهن السنوات الطوال بين أحضان الغرباء بل المخالفين لنا في الدين والعقيدة، كما نرى بالضرورة وجوب إسداء النصيحة إلى النساء اللواتي يحججن إلى بيت الله الحرام حجة النفل منفردات، دونما محرم أو زوج بعدم السفر إلى الحج، وبالاستعاضة عنه بعمل صالح آخر من صدقة أو سواها.

• هل تجوز الإنابة في الحج

وقد يحول المرض أو الموت أو سواهما بين كثير من الناس وبين الحج، مع توفر الاستطاعة لديهم بمفهومها المالي أو البدني أو بمفهومهما، فهل يجوز لهم

الاستنابة؟؟

وقبل الإجابة على هذا السؤال نقول إن العبادات تنقسم إلى ثلاثة أقسام: بدنية محضة كالصلاة والصوم. ومالية محضة كالزكاة والصدقة، ومزيج منهما كالحج. ولا يقبل القسم الأول النيابة مطلقاً بينما يقبله القسم الثاني دونما خلاف. أما القسم الثالث فقد اختلف فيه العلماء.

فذهب الإمام مالك إلى القول بعدم جواز الإنابة في الحج. وذهب الأئمة الثلاثة الباقون إلى جواز ذلك شرط العجز المستمر.

والذين قالوا بالجواز اعتمدوا الأحاديث الكثيرة الواردة في هذا الباب: فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة من خثعم قالت يا رسول الله إن أبي أدركته فريضة الله في الحج شيخاً كبيراً لا يستطيع أن يستوي على ظهر بعيره. قال: «فحجي عنه».

كما روي أيضاً عن ابن عباس قال أتى النبي ﷺ رجل، فقال: إن أبي مات وعليه حجة الإسلام أفأحج عنه؟ قال: أرأيت لو أن أباك ترك ديناً عليه أقضيته عنه؟ قال نعم. قال: «فاحجج عن أبيك».

وأما الإمام مالك ؓ فقد أخذ بظواهر النصوص الواردة في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّىٰ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾﴾ (النجم: ٣٦ -٣٩). ولذلك فقد ذهب إلى القول بأن من مات ولم يحج، وهو قادر، ثم استأجر له ورثته من يحج عنه لم تكن حجة الأجير لتسقط الفرض عن كاهل المحجوج عنه.

ولما كان الأئمة الأربعة في هذا الموضوع بالذات مجتهدين وكان اجتهاد كل منهم عرضة للخطأ كما يمكن أن يكون صواباً.

ولما كان الإمام مالك رضي الله تعالى عنه قد ارتأى عدم جواز الاستنابة في الحج، فإن من واجبنا أن نستخلص أن على المرء المسلم القادر على الحج المبادرة إليه لأدائه بنفسه، خشية أن يكون رأي الإمام هو الصحيح، فيكون موته قبل الحج مع القدرة عليه سبب مؤاخذة شديدة جداً خصوصاً وأن العلماء غير

متفقين فيما إذا كان يجوز تأخير الحج مع القدرة أم لا؟!

فقد ذهب صاحب نيل الأوطار إلى القول بوجوب الحج على الفور بعد الاستطاعة، وأن التأخير معها يورثه إثماً كبيراً.

وإلى هذا القول ذهب الإمام مالك رضي الله تعالى عنه وأبو حنيفة وأحمد وبعض أصحاب الإمام الشافعي كما ذهب إلى هذا الرأي من آل البيت الإمام زيد بن علي.

بينما ذهب الأئمة الشافعي والأوزاعي وأبو يوسف ومحمد من الأحناف إلى أن الحج واجب على التراخي، وأن التأخير مع الاستطاعة لا يجعل المؤخر آثماً إذا لم يكن خائفاً من فوات الحج بالفقر والعجز.

ولا يكون الحج صحيحاً إلا إذا كان الإحرام به في وقت خاص عملاً بقوله تعالى: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ ۚ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِى ٱلْحَجِّ ۗ﴾ (البقرة: ١٩٧) وهذه الأشهر هي شوال وذو القعدة وذو الحجة أي أنه يمكن الإحرام بالحج من أول شوال وتنتهي أركانه وواجباته في آخرها وهو ذو الحجة.

وقد اختلف العلماء في هذا، فقال بعضهم إن الأشهر المعلومات هي الثلاثة من أولها إلى آخرها. وهو ما ذهب إليه ابن مسعود وابن عمر والإمام مالك رضي الله عنهم أجمعين. وقال بعضهم إنها الشهران وعشر من ذي الحجة. وهو ما ذهب إليه أبوحنيفة والشافعي وأحمد.

● أركان الحج

ولا يتم الحج إلا بالقيام بالأركان التالية:

١- الإحرام.

٢- طواف الزيارة ويسمى طواف الإفاضة.

٣- السعي بين الصفا والمروة.

٤- الوقوف بعرفة.

ولو نقص واحد منها بطل الحج باتفاق الشافعية والحنابلة والمالكية.

أما الأحناف فهم يرون أن أركان الحج اثنان فقط، هما: الوقوف بعرفة، وأربعة أشواط من طواف الزيارة. وما تبقى فهي واجبات لا يبطل تركها الحج بل

يجب جبره بتقريب الدم. وهو ذبح شاة أو سواها حسب الواجب المتروك.

● **الإحرام**

والإحرام يكون من المواقيت المكانية المحددة لكل بلد والمبينة في كتب الفقه. ولا يجوز مجاوزتها ولا محاذاتها دون إحرام فمن جاوزها دونما إحرام يلزمه الدم، اللهم إلا إذا كان ثمة ميقات آخر يمكن أن يمر عليه، فعلى قاصد الحج عند الوصول إليه الإحرام.

● **ما يحرم على المحرم**

ويحرم على من أحرم عقد النكاح عند الشافعي ومالك وأحمد خلافاً للأحناف، كما يحرم عليه الجماع ودواعيه كالقبلة والمباشرة. ويحرم عليه المخاصمة مع الرفقاء عملاً بقوله تعالى: ﴿فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلْحَجِّ﴾.

ويحرم عليه التعرض لصيد البر بالقتل أو الذبح أو الإشارة إليه أو الدلالة عليه. وأما صيد البحر فحلال وذلك لقوله تعالى: ﴿أُحِلَّ لَكُمْ صَيْدُ ٱلْبَحْرِ وَطَعَامُهُۥ مَتَٰعًا لَّكُمْ وَلِلسَّيَّارَةِ وَحُرِّمَ عَلَيْكُمْ صَيْدُ ٱلْبَرِّ مَا دُمْتُمْ حُرُمًا﴾ (المائدة: ٩٦).

ويحرم عليه استعمال الطيب، وتقليم الأظافر، ولبس المخيط إن كان رجلاً أو محيطاً ببدنه أو ببعضه بما تعود لبسه في غير أيام الحج.

ويحرم عليه أيضاً قص شعر رأسه أو حلقه أو غيرهما. كما يحرم عليه إزالة شعر غير الرأس، اللهم إلا إذا كان متأذياً به فيجوز له أن يزيله وعليه الفدية.

ويحرم على المحرم التعرض لشجر الحرم بقطع أو قلع أو إتلاف إلا الإذخر.

هذا ويسن للمحرم بعض الإجراءات ويكره له البعض الآخر. وبالإمكان الرجوع إلى المظان الفقهية للاطلاع عليها في هذا الباب[1].

وطواف الزيارة.. هو ركن كما قلنا. وإذا لم يقم به الحاج فيبطل حجه. وهو سبعة أشواط وعند أبي حنيفة أربعة أشواط والباقي من السبعة واجب.

---

(١) أصدرنا رسالة في الحج فيها بيان وتفصيل لأحكامه في جميع المذاهب، وقد وزعت هدية مع العدد الماضي من المجلة.

ووقعته من فجر يوم النحر إلى آخر العمر عند الأحناف، ولا يكاد يخالفهم في هذا الشافعية والحنابلة. أما المالكية فهم يرون أن نهاية وقته آخر ذي الحجة.

وهناك طواف الوداع وهو واجب، وطواف القدوم وهو سُنة.

ويطلب في الطواف شروط أهمها الطهارة من الحدث والنجس، وستر العورة والبدء بالحجر الأسود محاذياً له أو لجزئه، وجعل البيت عن اليسار. وله سنن وواجبات وهي كثيرة وبالإمكان الاطلاع عليها في مظانها الفقهية أيضاً لعدم تيسر ذكرها جميعها في هذه الكلمة.

أما السعي بين الصفا والمروة فيشترط فيه أن يكون سبعة أشواط وأن يبدأ بالصفا والموالاة، وأن يكون بعد الطواف مع خلافات يسيرة بين الأئمة فيها وله مندوبات كثيرة.

أما الوقوف بعرفة فيطلب فيه أن يكون المحرم بالحج موجوداً على أرض عرفة على أية حالة. يقظان أو نائماً، قاعداً أو قائماً، بشروط أولها أن يكون من زوال شمس اليوم التاسع من ذي الحجة إلى فجر يوم النحر عند الشافعية ويكفي الحضور في هذا الوقت ولو لحظة تجمع بين النهار والليل، ويشترط في الواقف أن يكون أهلاً للعبادة، فلا يقبل الوقوف من مجنون ولا سكران.

أما الأحناف فيرون جواز هذا الوقوف من أي إنسان مسلم. على أي حال كان ولو مجنوناً أو زائل العقل وسواء كان ناوياً أو لم يكن كذلك.

ويجب امتداد الوقوف حتى غروب الشمس إن وقف نهاراً وإن نزل قبل الغروب وجب عليه دم.

- **واجبات الحج**

يجب في الحج واجبات منها الوجود بمزدلفة، والمبيت بمنى ورمي الجمار والحلق والتقصير.

والوجود بمزدلفة يكون ولو بلحظة بعد نصف الليل، أما المبيت بمنى فيشترط فيه أن يكون بمعظم الليل من ليالي التشريق لمن لم يتعجل. أما من أراد التعجل والخروج من منى إلى مكة في اليوم الثاني من أيام التشريق أي ثالث أيام العيد فلا

بأس لقوله تعالى: ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾ (البقرة: ٢٠٣) بشرط أن يخرج منها قبل الغروب من اليوم التالي وأن ينوي ذلك ويجوز لمن به عذر أن لا يبيت فيها. كل هذا في رأي الشافعية.

أما الأحناف فيطلب عندهم من الحاج الوقوف بمزدلفة، ولو لوقت قصير بعد طلوع الفجر بقليل. فإذا لم يقف لغير عذر وجب عليه الدم. ثم ينزل إلى منى قبل طلوع الشمس ويرمي جمرة العقبة بكيفية مخصوصة، ثم يقطع التلبية ويذبح ويحلق أو يقصر، ثم يحل له كل شيء من محظورات الإحرام ما عدا النساء. وبعد الفجر من يوم النحر يمكنه أن يذهب إلى مكة ليطوف طواف الزيارة. ويسعى بين الصفا والمروة، وبعد الانتهاء منهما يحل له كل شيء حتى النساء. ومن ثم يعود إلى منى ليرمي الجمار الثلاث ثاني يوم النحر وثالثه ورابعه ولو بات خارج منى لم يجب عليه شيء، وإن أراد التعجل في يومين أيضاً فلا إثم عليه عملاً بالنص الحكيم.

ويفسد الحج بترك أحد هذه الأركان عند من اعتبرها أركاناً، كما يفسد بالجماع، على تفصيل بين المذاهب في الوقت الذي يكون فيه مفسداً للحج.

أما إذا ترك شيئاً من الواجبات، أو فعل شيئاً مما يحرم عليه فِعْلُه حالة الإحرام، كلبس المخيط المعتاد، أو التطيب أو تقليم الأظافر أو تغطية الرأس أو الوجه فعليه الفدية. وهي على التخيير إما إسالة دم، أو إطعام ستة مساكين أو صوم ثلاثة أيام.

بقي علينا أن نتكلم في كيفية حج النبي ﷺ. هل حج مفرداً أو قارناً أو متمتعاً وأيها أفضل؟

وبين يدي الجواب نقول إن الإفراد بالحج هو أن ينوي المحرم الحج فقط. والإقران هو أن ينوي الحج والعمرة معاً ويلبي بهما، والتمتع هو أن ينوي العمرة متمتعاً بها إلى الحج.

وسواء كان الحاج قارناً أو متمتعاً فإن عليه الدم. أما الأول فلما رواه الشيخان عن عائشة رضي الله عنها أنه ﷺ ذبح عن نسائه البقر يوم النحر وكن قارنات. وأما

الثاني فلقوله تعالى: ﴿فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ﴾(البقرة: ١٩٦).

وقد وردت بعض الأخبار أن رسول الله ﷺ حج قارناً. وقد أكد هذه الأخبار ووثقها ابن القيم في كتابه زاد المعاد، وأسهب في التدليل على صحتها، وإبطال نسبة سواه إلى رسول الله ﷺ.

غير أن بعض الرواة نقل أنه ﷺ حج مفرداً، وبعضهم نقل أنه حج متمتعاً.

ويرى الشافعي أن الإفراد في الحج أفضل. بينما يرى الأحناف أن القران أفضل. أما مالك فيرى أن التمتع أفضل.

وإني لأرى أن ذلك متروك لظروف الحاج ووقته فيختار أيها أنسب له من ناحية الوقت وغيره.

● **كيفية الحج**

هذا ولو شئنا وضع خطة يسيرة مختصرة لأعمال الحج، فإنا نستطيع إيرادها كما يلي:

لو أراد أحدنا الحج فإن عليه أن ينوي الإحرام بعد أن يغتسل ثم يأتزر بإزار ويرتدي برداء غير مخيطين. ويتطيب ويصلي ركعتين ثم يقول اللهم إني أريد الحج فيسره لي وتقبله مني. ثم يلبي عقب الصلاة بقوله: لبيك اللهم لبيك. لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وبهذه التلبية مع النية بعد تلك الإجراءات. يصبح محرماً. ويكون هذا كله عند الميقات.

وبالإحرام يحظر على المحرم، الرفث والفسوق والجدال، وقتل الصيد والصيد ولبس القمصان والسراويل والبنطلونات والجاكيتات والعمائم والأحذية الكاملة التي تغطي كامل القدم. وتغطية الرأس والوجه ومس الطيب، وحلق الرأس وشعر البدن، ويطلب منه أن يكثر من التلبية. وبمجرد دخوله مكة يتجه إلى المسجد الحرام ثم يستقبل الحجر الأسود، ويكبر ويهلل، ويضعه عن يساره، ويطوف بالبيت سبعة أشواط، ثم يأتي المقام أو حيث يتيسر له من المسجد فيصلي ركعتين. ثم يخرج إلى الصفا، فيستقبل البيت، ويكبر ويصلي على النبي، ويرفع

يديه بالدعاء ثم يسعى بين الصفا والمروة سبعة أشواط. ثم يقصر أو يحلق، ويتحلل من الإحرام ويذبح شاة لهذا التمتع.

فإذا كان يوم التروية وهو الثامن من ذي الحجة، أحرم للحج وخرج إلى عرفات. فإذا زالت الشمس من اليوم التاسع صلى إن كان إماماً بالناس الظهر والعصر من وقت الظهر بأذان وإقامتين ولا يتطوع بينهما.

وإن كان منفرداً صلى الظهر حيث هو ثم عاد فصلى العصر في وقته أيضاً حيث هو.

ثم يتجه إلى الموقف. وعرفات كلها موقف إلا بطن عرنة، ويلبي ساعة بعد ساعة. حتى إذا غربت الشمس أفاض إلى مزدلفة، حيث يصلي الإمام بالناس المغرب والعشاء جمعاً بأذان وإقامة، والمزدلفة كلها موقف إلا وادي محسر ثم يصلي الفجر، وعند الإسفار يفيض إلى منى، ويبتدئ بجمرة العقبة، فيرميها بسبع حصيات مكبرا مع كل حصاة، ثم يذبح إن أحب، ويقصر أو يحلق. ويحل له كل المحظورات ما عدا النساء. ثم يأتي مكة من يومه. أو من غده، أو من بعد غده، ويطوف بالبيت طواف الزيارة ثم يسعى. ثم يعود إلى منى فيقيم بها حتى إذا زالت الشمس من اليوم الثاني من أيام النحر رمى الجمار الثلاث، ويكرر عمله في اليوم الثالث، ثم في الرابع، وإن أراد التعجل نفر إلى مكة في اليوم الثالث قبل طلوع فجر اليوم الرابع. وإن بقي حتى اليوم الرابع جاز له أن يقدم الرمي قبل الزوال وبعد الفجر. . ثم ينزل إلى مكة، ويطوف طواف الصدر، وهو ما يسمى طواف الوداع. وبذلك يتم الحج.

ولا ريب أن في هذا الذي سقناه من أعمال الحج ومناسكه مخالفات كثيرة لما عليه المذهب الشافعي وسواه ولكن هي طريقة اتبعها في غالبها الأحناف فلا بأس من اتباعها.

هذا وإن العمرة كالحج سواء بسواء إلا أنها تختلف عنه بأنه يمكن القيام بها طيلة أشهر السنة ولا يطلب فيها الوقوف بعرفة ولا المبيت بمزدلفة أو منى ولا رمي الحجار.

إن الحج إلى بيت الله الحرام عمل عام، جرى عليه العرب قديماً في الجاهلية والإسلام، ولا يزالون، وذلك لتعظيم هذا البيت الكريم. وأي تعظيم أكبر من افتراض حج الناس إليه على مدى الأجيال والقرون وتقلب الأوضاع والعهود؟

إنه أفضل الأعمال بعد الإيمان والجهاد. فقد ورد عن رسول الله ﷺ «أنه سئل أي الأعمال أفضل؟ قال إيمان بالله ورسوله. قيل ثم ماذا؟ قال جهاد في سبيل الله. قيل ثم ماذا؟ قال حج مبرور».

والحج المبرور هو المقبول لأنه لم يخالطه إثم والذي قد وفيت أحكامه، بل إنه جعل الحج بالنسبة للنساء كالجهاد ويقوم مقامه. فقد روي عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: يا رسول الله هل على النساء من جهاد؟ قال نعم عليهن جهاد لا قتال فيه: الحج والعمرة».

وقد ورد عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «العمرة إلى العمرة كفارة لما بينهما، والحج المبرور ليس له جزاء إلا الجنة».

أيها الإخوة: في الحج منافع كثيرة أشار الله تعالى إليها بقوله ﴿لِّيَشْهَدُواْ مَنَٰفِعَ لَهُمْ﴾ ومنافع الحج أكثر من أن نستوعبها في هذه الكلمة.

ولكن يكفي أن نقول إن في الحج تذكيراً للحاج بأحوال الآخرة والموت، لأنه عندما يقبل عليه يكثر من التوبة، ويحاول ما استطاع إخراج نفسه من المظالم التي سبق له أن وقع فيها، ويرد الحقوق إلى أصحابها، ويلبس ثياب الإحرام مشابها بذلك حال الميت عند قيامه من القبر مجردا حاسراً شبه عريان، مقبلاً على الله أشعث أغبر، ثم يقف في عرفات وقفة شبيهة بوقفة يوم العرض على الله.

فما أحلى أن يتذكر الإنسان دعاوى الخير، وما أجمل أن يعتبر من هذه التذكرات، فيصلح يومه وغده وحاله ومآله.

* * *

حكم الإسلام في كتاب نقد الفكر الديني

العدد (٦٢) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م)

في هذه الفترة العصيبة من حياة العرب والمسلمين يحلو لبعض المحسوبين على الأمة العربية أن يعكروا صفوها، ويفرقوا كلمتها بما ينشرون من أفكار خاطئة وتهجمات ضارة، ينالون بها من الدين السماوي ومبادئه المقدسة، متذرعين بأنهم يقولون كلامهم في ظل من حرية الرأي، وهي دعوى تغري السذج والبسطاء يتأثرون بها، ويسيرون في ركاب هؤلاء المفسدين.

وكتاب «نقد الفكر الديني» نموذج من تلك النماذج المخربة، المجافية لأدب الدنيا وأدب الدين. ووضعا للحق في موضعه، وقطعاً لألسنة السوء، نوجه أنظار أبنائنا إلى ما يلي:

أولاً: إن الإسلام دين يكفل الحرية للفرد بكل أبعادها ليتصرف الإنسان من خلالها بمطلق أرادته. على أن للحرية في أعراف الناس وقوانينهم، كما أن لها في عرف الشرع وقانونه حدوداً يجب التزامها حتى لا تنقلب فوضى، تضر الفرد ذاته، وتضر مجتمعه، وتفقد فكرة المنطلق حرمته وقيمته. والمعروف أن حرية الإنسان تنتهي عند حدود حرية غيره وكرامته، وبهذا تصان الجماعة وتحفظ من الهزات والرجات والقلاقل.

ثانياً: إن في الإسلام مقدسات لا يجوز المساس بها ولا النيل منها لأي سبب وأي حجة. فالله والملائكة والجن والجنة والنار، والحساب والثواب والعقاب وخلق آدم من تراب وصدور الأمر من الله ﷻ لإبليس بالسجود له سجود تعظيم وتكريم، وإباء إبليس تنفيذ أمر ربه، كل هذه وغيرها مما ورد شبيهه في القرآن والسنة، مسلمات قطعية الثبوت في الإسلام، والإيمان بها فريضة محكمة على كل

مسلم، والتشكك في تصديقها أو تصديق بعضها كفر صراح يخرج المسلم من الإسلام.

ثالثاً: إن رفض التسليم بهذه الغيبيات وأمثالها مما قطعت الأدلة الشرعية المتواترة بثبوته بحجة مخالفته للعلم هو افتراء على العلم نفسه، ذلك لأن العلم الوضعي لم يزل يشتمل على طائفة كبيرة من الغيبيات لم ينفذ بعد إلى أسرارها ومع هذا يسلم العلم بها تسليماً عفوياً، وذلك باعتراف المؤلف، فكيف يؤخذ على الديانات التسليم بما هو غيبي. وفوق هذا فالعلم البشري بما أوتي من النفاذ والقدرة لم يستطع ولن يستطيع أن يكتشف تلك المغيبات التي هي من أمر الله وخاصة علمه، وليس عدم اكتشاف العلم الإنساني لأمر دليل على عدم وجوده، وما كشفه العلم حتى أيامنا هذه لا يزال يسيراً بالنسبة إلى ما هو مجهول، وصدق الله العظيم إذ يقول ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلۡعِلۡمِ إِلَّا قَلِيلٗا﴾ (الإسراء: ٨٥).

رابعاً: إن مشايعة المنكرين والسير معهم وتأييدهم في أفكارهم وتبرير هذا الإنكار بحرية الرأي هو رفض لأمر الله ومروق بالتالي من الدين.

خامساً: وبناء على هذه الحقائق التي أسلفنا بها فإن كتاب «نقد الفكر الديني» بما اشتمل عليه من إنكار للغيبيات وافتراء على الدين والقرآن يعتبر مؤلفه خارجاً عن الإسلام مرتدا وكذلك من يؤيده ويجاريه في رأيه .

سادساً: إن واجب الدولة أن تقطع الطريق على مثل هذه الأفكار الضالة الهدامة التي تضر الأمة في صميمها، وتعرضها لانقسامات خطيرة وفتن شعواء، لا يعرف مداها إلا الله وإن على الدولة أن تطبق ما لديها من القوانين الصريحة في معاقبة كل من يتعرض للشعائر الدينية وللمقدسات بما يسيء حتى لا يضطر المسلمون إلى سلوك الطريق الذي يرونه فيه حماية عقيدتهم وصيانة دينهم.

سابعاً: وعلى أبنائنا جميعاً أن يحذروا هذه الأفكار الضارة السامة التي لا تلتزم بشرع ولا تؤمن بدين والتي تلتقي في صميم اتجاهاتها مع أفكار الصهيونية العالمية التي تستهدف محاربة الأديان لإضعاف المواطنين والاستيلاء على أوطانهم ومقدراتهم ومرافقهم.

الشخصية المسلمة ضمان للسلام

العدد (٧٣) محرم (١٣٩١هـ) - فبراير (١٩٧١م).

السَّلام حديث اليوم في الشرق والغرب تتناوله أقلام المفكرين والأدباء والسياسيين في أعمدة الصحف اليومية والأسبوعية، كما يعالجونه في أبحاث مفردة مستفيضة.

وتهتم بالسلام في هذه الأيام الدول الكبرى والصغرى، ويغلب على الظن أن هذا الاهتمام هو لدى البعض منها بنسبة ما لها من مصلحة، ولذلك فإن خوضهم فيه يأتي بأساليب منوعة، فمنهم من يعقد له المؤتمرات المختلفة هنا وهناك يدعون إليها مختلف الجهات العلمية والدينية والفكرية والسياسية، وكثيراً ما يخفي البعض منهم وراء ذلك ما يهدم السلام.

ومنهم من يتحرك لذلك ويستخدم طاقاته كلها فكرياً ومادياً وعسكرياً، مقدماً على ذلك نشر قرارات وبيانات يخرج بها على الشعوب لابساً مسوح الرهبان ومدافعاً عن السلام وداعياً إليه، ومبرراً تحركه بأنه للسلام وحده، ولمصلحة الشعوب المتخلفة، ودون أن يكون له مأرب آخر. والله يعلم وهو يعلم وأذكياء الناس يعلمون أنه براء مما يقول، وأن مفهوم السلام لديه هو الاعتداء على أمن البلاد المتخلفة واستغلال ثرواتها وخاماتها ثم المحاولات الواضحة لإيجاد التوازن في المناطق عن طريق الضغط على هذه البلاد أو تلك لتسير في ركب سياسته أو تبقى في ظلاله.

ولقد كان لنا نصيب في المساهمة في عقد بعض هذه المؤتمرات على اختلاف الداعين إليها وتباعد مبادئهم الاجتماعية ومناهجهم السياسية.

ولا يساورنا الشك لحظة في أنه كانت تتخللها نوايا صادقة ونشاطات مخلصة

وجهود بارة. بيد أنه تبين لنا من خلال الاجتماعات ومناقشات المدعوين إليها والمشرفين عليها أن ثمة سياسات خاصة تعمل في الخفاء في توجيه المؤتمرين وتحرص على أن يظلوا في قراراتهم وتوصياتهم ومطالبهم وتمنياتهم ضمن إطار محدود كما ثبت لنا أيضاً أن هذه المؤتمرات وإن كان ينفق عليها الملايين من الدولارات تقتصر على تحصيل مكاسب آنية، تتناول الشكل والمظهر، متجاهلة الجوهر والحقيقة.

وكأننا بالغالبية من هؤلاء العاملين في هذه المؤتمرات أو على رأسها كأننا بهم لا يهمهم أمر السلام في الواقع ونفس الأمر.

بل إنا لنعتقد أنهم حتى ولو رغبوا فيه واهتموا وأخلصوا في القصد إليه، لا يملكون في ذواتهم ولا في مجتمعاتهم المادة التي تمكنهم من الوصول إلى تحقيق ذلك.

ذلك أن السلام ليس شعارات تطلق ولا مقالات تدبج، ولا أفكاراً ومناهج ترسل. كما أنه لا يكون بالمال الغزير يغدق على طالبيه والراغبين فيه والعاملين في الأجهزة المختلفة، ولا في أسلحة قوية من مختلف الأوزان والأحجام والطاقات الفاعلة، تمنح إلى هؤلاء وأولئك، وليس بالعلم المجرد يحصل ويستوعب ويستخدم لتحقيق منجزات وكشوفات رائعة في مختلف الحقول البشرية يفيد منها الناس أو يتضررون، ولا بالرجال الأشداء الموهوبين، الذين يحسنون العمل في مراكز الإدارة والسياسة والاقتصاد والتوجيه حتى ولا بالأنظمة التي توضع، والتشريعات والقوانين التي تنشأ. نقول إنها ليست بهذه الأمور وحدها بل لابد قبل ذلك من ضمان وجود الشخصية الإنسانية الصالحة، القادرة على تحمل مسؤوليات الحياة بأمانة وإخلاص، وصبر وتضحية، واستيعاب لمقاصد الحياة وما بعدها، التي تستطيع وحدها بالاستعانة بما سبق أن تعمل بجد وحرص وغيرة وحماس لبناء مجتمع السلام المنشود.

***

لقد شاء جميع المشرعين السابقين من وراء قوانينهم التي وضعوها تنظيم المجتمعات البشرية وتحديد تحركات أفرادها بحيث لا يطغى منهم أحد على أحد ويبقى لكل واحد منهم كامل حريته مع كامل حرية الآخرين وبحيث يضمن بالتالي الحياة الفاضلة والعيش الرغيد في ظل المحبة والطمأنينة والسلام.

ولكنهم مع ذلك كانوا في غالب الأمر يقعون في الأخطاء والمزايدات إذ يضفون على الأنظمة كثيراً من هوياتهم وذاتياتهم ويصيغونها بالأسلوب الذي يكفل لهم وللمقربين منهم مصالحهم وبذلك انحرفوا عند الخط القيم الذي شاءوه لأنفسهم وللناس ودفعوا بالمجتمعات لتعيش في ظل ورحمة مصالح بعض الأفراد، فاختلط الحابل بالنابل وانقلب السحر على الساحر وتصادم الناس وكانت الثورات فالحروب، وتبخرت فكرة العدالة وهيمن على الأرض الرعب والخوف بدل أن يخيم عليها الرخاء والسلام.

* * *

من أجل ذلك سبقت مشيئة الله تعالى أن لا يترك الإنسان وحده في متاهات الدنيا ومسبعاتها فأرسل الرسل وأنزل معهم الكتب ليقوم الناس بالقسط ويعيشوا بسلام. قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْمِيزَانَ لِيَقُومَ ٱلنَّاسُ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَأَنزَلْنَا ٱلْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥ وَرُسُلَهُۥ بِٱلْغَيْبِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢٥﴾﴾ (الحديد: ٢٥).

وكان الإسلام هذا الدين الذي ارتضاه الله للناس أجمعين في قوله: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) أجل كان في أكمل ثوب وأدق صيغة وأصلحها لمعاشهم في الدنيا ولإعدادهم لليوم العصيب، ﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ﴿٨٨﴾ إِلَّا مَنْ أَتَى ٱللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٩﴾﴾(الشعراء: ٨٨-٨٩). ويقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلذِّكْرِ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ (فصلت: ٤١-٤٢).

بل كان هذا الدين الذي لم يرض سبحانه وتعالى من أي كان أن يتعبده إلا

بواسطته فقال ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٨٥﴾﴾ (آل عمران: ٨٥). ذلك أن هذا الدين هو وحده بين أديان السماء الذي استوفى كل عناصر الخير الدنيوي والأخروي، حوى العقيدة السليمة التي تناسب الفطرة لامتيازها بالوضوح والبساطة وخلوها من التعقيد، وضم الشريعة الغراء التي ضبطت سلوك الفرد وكبحت جماحه فنظمت له علاقته مع الله بواسطة عبادات «الصلاة والصوم والزكاة والحج» ومن قبل بواسطة الإيمان به وبالملائكة والكتب المنزلة والرسل واليوم الآخر والقدر، ونظمت له علاقته مع أخيه الإنسان ضمن دائرة الأسرة أبا وأما وأخاً وأختاً وابناً وبنتاً، ثم المجتمع الكبير فالمجتمع الأكبر، وبينت له في كل منها حقوقه وواجباته وحدوده وكفلت له حريته الفكرية والعقيدية والعملية والحياة الآمنة المطمئنة المكتفية في دائرة الحكم الإسلامي الرشيد، وبهذا الدين الإسلامي الكامل عقيدة وشريعة وسلوكاً تبرز شخصية نادرة المثال هي شخصية المسلم التي يمكنها وحدها- لو وجدت- ضمان تحقيق السلام في العالم.

ذلك أن من طبيعة هذه الشخصية أنها تتقيد بالنظام الذي آمنت به ثم تعمل مخلصة على إنجاح التقيد به من الذين آمنوا في حال الانحراف ومن الناس أجمعين. فهي وإن كانت مأمورة بتنفيذ بنوده وتطبيقها على ذاتها أولاً «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئت به»، ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ﴾ (لقمان: ٢٢).

غير أنها تعتبر ذاتها في الوقت نفسه صاحبة هذا النظام وترى ذلك واجباً عليها فترتفع في نفسها الحرارة الغيورة التي تدفعها للسهر على تطبيق الآخرين له والتعبد به بل إنها لتنظر إلى نفسها نظرة الإثم إذا هي لم تقم بهذا الواجب، وتنتظر من الله في اليوم الآخر سوء الحساب، وبتعبير آخر إن الشخصية المسلمة هي في الواقع والدولة الحاكمة سيان: تشاركها في الحكم وتنقاد لها وتسلم لإنجاح مقاصدها فيه وتأتمر بأمرها.

إن المسلم في الدولة الإسلامية ركن إيجابي مسؤول، يسهر على مصالحها،

ويتحمل معها مسؤولية الحكم. قال تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠) ويروى عن رسول الله ﷺ قوله «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». وقوله: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»، وقوله: «أنت على ثغرة من ثغر الإسلام فلا يؤتين من قبلك».

* * *

وفضلاً عن هذا فإن شخصية المسلم مزودة بأجمل الأخلاق وأحلى الشمائل وأرق الصفات، وكلها تحدوه برفق وبصدق وعزيمة لتعزيز نزعة السلام والأمان في نفسه وفي من حوله، فالمسلم في عرف الإسلام هو «من سلم الناس من لسانه ويده»، وشعار المسلم في لقائه مع الناس ومنصرفه عنهم إفشاء السلام والأمان في نفسه وفيمن حوله، فالمسلم في عرف الإسلام يسن له السلام على من عرف ومن لا يعرف.

والمسلم في صلواته يتعهد باستمرار بضمان إشاعة السلام بين العباد الخيرين وتلافي الكبر وأسباب الخصام والنفرة مع الناس فهو يقول في جلوسه للتشهد من كل صلاة «السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين» كما يجتهد بأن يعفو عن السيئات ويتجاوز عن الهفوات، وإذا خاطبه الجاهلون قال حسنا وسلاماً. يقول تعالى ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان: ٦٣).

* * *

والسلام في العالم مادته الأولى كما نعتقد هي الناس، فهم منه كالقلب من جسم الإنسان. فكما أنه إذا صلح القلب صلح الجسد وإذا فسد فسد الجسد فإن الناس إذا صلحوا واستوفوا مادة الخير والتسامح تحقق السلام فيهم أو كانوا أقرب إليه من سواه، وإذا أفسدوا وأخلدوا إلى الأرض ومادتها ضلوا وزاغوا

ونزغ الشيطان بينهم وتعذر أن يشيع في ربوعهم السلام.

لذلك فإن الملحدين والمهرجين والماجنين والفسقة والمنافقين والماديين والكافرين بالله واليوم الآخر. كل هؤلاء وسواهم ممن يشاركونهم التخلي عن أديان السماء وفضائلها وحدودها وأنظمتها لا يمكنهم أن يؤمنوا للمجتمعات العالمية والخاصة ما تصبو إليه من الأمن والرخاء والسلام. ولو عقدوا المؤتمرات وأنفقوا الملايين وأتعبوا أدمغة المفكرين، ما برحوا لا يملكون في ذواتهم مادة الإسلام التي هي كما قلت سابقاً تكون في الشخصية الصالحة القادرة على تحمل مسؤوليات الحكم والحياة بأمانة وإخلاص وصبر وتضحية واستيعاب لمقاصد الحياة وما بعدها.

ولما كان يمكن تحقيق هذه الشخصية العاملة الساهرة المنتجة بالتعاليم الإسلامية، فإننا نرفع عقيرتنا موقنين أن في وجود الشخصية المسلمة وحدها الضمان لتحقيق السلام العالمي الصحيح، وإشاعة الأمان والطمأنينة والنجاة من الويلات وأحداث الرعب والدمار التي تزرعها الحروب في أي مكان تكون.

حفظ الله العالم من كل كرب وهدى الناس جميعاً لمادة الإسلام ولما يحب ويرضى ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ ﴿٥٦﴾ أَزِفَتِ ٱلْءَازِفَةُ ﴿٥٧﴾ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ ٱللَّهِ كَاشِفَةٌ ﴿٥٨﴾﴾ (النجم: ٥٦ -٥٨).

* * *

خواطر في ذكرى الإسراء والمعراج

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

في كل عام تتجدد ذكرى الإسراء والمعراج، وتتجدد بتجددها الآمال في مستقبل أكثر أمناً وعزة، من حاضر لا يخلو من أسباب القلق والاضطراب.

إن الأمة - والمجتمع منها - تكون مجموعة من الأفراد تقل وتكثر، فتتمثل فيهم وحدة المكان والزمان واللغة والدين والتاريخ والهدف، ويتم بينهم بالضرورة التعاقد على التعايش في ظل تعاون مخلص، وفي رعاية حكم يختارونه ويحتكمون إليه، ويسندون إليه أمر السهر على المثل والفضائل والأماني التي آمنوا بها، والمصالح التي اتفقوا عليها فيما بينهم، ووضعوا في ضوئها دستورهم، ونظام حياتهم ودولتهم. وهذا ما كان يشاهد واضحاً في أمة الإسلام من الخليج إلى المحيط، فقد تحققت فيها وحدة الزمان والمكان واللغة والدين والتاريخ والهدف، وارتضى أبناؤها بالضرورة التعاقد على أن يتعايشوا في ظل رخاء دائم، وتعاون مخلص وفي رعاية حكم قبلوه طوال قرون حتى نشأ بينهم النزاع .

واهتبل المستعمر الفرصة وبسط نفوذه عليهم وقطعهم دويلات، ولكنهم مع ذلك بقوا يمثلون فيما بينهم وحدة الزمان والمكان واللغة والدين، ووحدة التاريخ والهدف، رغم اختلاف الحاكم والمحكوم.

وما يزال شعار الوحدة يرتفع عالياً في مجتمعاتهم كلما سنحت الفرصة وهلت المناسبة، إن هذه الأمة ما تزال تتطلع إلى تحقيق أمانيها في ضوء كتابها ودستورها، وتعلم أن ذلك كله لا يليق أن يبقى أفكاراً وأماني راسبة في عقول ونفوس أبنائها، بل تتصدى لمحاولة إرساء قواعدها في حياتها الاجتماعية بصورة عملية فتجسدها في سلوك أفرادها وتصرفاتهم وتعاملهم وعلاقاتهم بعضهم مع

بعض، فقد قال التابعي الجليل جندب بن عبد الله ﷺ: «عليكم بالقرآن، فإنه نور بالليل، وهدى بالنهار فاعملوا به على ما كان من فقر وفاقة فإن عرض بلاء فقدموا أموالكم دون أنفسكم فإن تجاوز البلاء، فقدموا أنفسكم دون دينكم فإن المسلوب من سلب دينه فإنه لا فاقة بعد الجنة ولا غناء بعد النار».

وتجسيد هذه المعاني والمفاهيم السامية في حياة الأفراد والجماعات في الأمة الواحدة يفتقر إلى سهر مستمد من سلطة نافذة القول والفعل فإن المأثور أن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن.

ولا سبيل إلى إرساء وجود السلطة، وتعميق فاعليتها في الردع أو التشجيع والدفع إلا بفعل فئة تستمد قوتها ومهابتها من رضى المجتمع المؤيد لها، والذي يضعف، ويشتد بنسبة ما تكون عليه أريحية أبنائه سخاء وعطاء، وكلما كان البذل من هؤلاء سخياً جواداً تيسر لتلك الفئة الحاكمة مجال التوفيق، وتمكنت من التغلب على صعوبات الحياة ومشاكل المجتمع، وفازت بالنصر على المناوئين والمتمردين في داخل مجتمعاتها والطامعين بها من خارجها ولئن كانت السلطة الحاكمة بحاجة ماسة إلى عطاء رعاياها المادي وتشجيعهم المعنوي، فهي إلى مساعدتهم الشخصية أحوج.

ولهذا كان لزاماً على كل أمة تنشد لكيانها البقاء والاستمرار والأمن والوقار أن يكون جميع أفرادها دوماً مستنفرين وعلى أهبة النضال والدفاع ولو اقتضى ذلك منهم بذل الروح ذباً عن كيان الأمة وتعزيزاً لوجودها ومبادئها وتحصينا لهيبتها.

وكلما كثر في أفراد الأمة الموت دفاعاً عن حياضها، وحرصاً على كرامة عقائدها ومبادئها ووجودها اشتد عودها، وقوي جهازها الرادع، وهابها القاصي والداني من الناس وشاع في ربوعها الأمن والاستقرار وهنئ أبناؤها ورعاياها وانتشرت فيهم معالم البحبوحة والسعادة والرخاء.

والأمة التي لا يتعدد ضحاياها، ولا يكثر فيها المستشهدون دفاعاً عن العقيدة والشريعة والآداب والمثل التي أمرهم الله بالدفاع عنها والتي تنظم الحياة وتحفظ

الهيبة والكرامة والحق والحرية والعدالة أمة غير جديرة بالعزة، بل حرية بأن يتخطفها الناس من كل حدب، ويطمع بها القوي والضعيف والصالح والفاسد.

فالشهداء من الأمة إذن بمثابة القاعدة من البناء على جثثهم ينتهض بناء الأمة ويسمق حتى يطاول السحاب شموخاً وعزة وإباء.

والشهداء من الأمة بمثابة الروح من البدن يضوي كيان الأمة بدونهم ويذبل، ثم يصوح ويزول تماماً كما يكون من البدن ساعة تبارحه الروح إلى لقاء ربها.

بل إن كل قطرة من دماء الشهداء تهرق على أرض الوطن تشربها التربة، ولا تضيع فإذا كان الماء الذي يمس الأرض يهزها ويربيها، ويخرج منها من خلال النبات وأغصان الشجر حباً جنياً، وثمراً شهياً، وأكلاً طيباً هنياً فإن دم الشهيد لا يكاد يسيل من عروقه، ويسقي أديم الأرض، ثم يسوخ في ذرات التراب حتى يبرز من جديد من خلال أحاسيس البشر وأفكارهم، وطاقاتهم الوجدانية غضباً عاصفاً يموج في الأثير، ثم ينصب على رؤوس الظلمة الغاشمين عزة وشمما وقوة تربو بها نفوس الأبناء والآباء والإخوة والأقرباء، وأبناء الوطن الواحد.

بل إن دم الشهيد هو وقود حياة الأمة وهو الطاقة الخفية التي تشق للأمة طريق المجد والخلود، وتظللها بسحائب الرحمة والخير والطمأنينة والرخاء.

ومهما يكن عطاء الله لهؤلاء الشهداء بعد ذلك ومهما يكن احتفاؤه بهم وتمجيده لذكرهم وإكرامه إياهم، فهم له أهل، لأنهم عملوا في مرضاته تعالى، وشروا أنفسهم في سبيله.

كذلك كثر الشهداء في عصري الإسلام الأول والثاني فعلا نجم الأمة وانتشر ظلها حتى عم العالم القديم تقريباً.

وكذلك فإن العالم الإسلامي اليوم في معاركه السافرة الضارية مع الاستعمار والصهيونية أحوج ما يكون لتعزيز نضاله وشحذ نشاط بنيه وإلهاب أحاسيسهم للثأر من الظالمين والمعتدين، والدفاع عن أراضيهم وأعراضهم، ومقدساتهم وكرامة الآباء والأجداد، وأولا وقبل كل شيء للذب عن المعتقد الثمين، عن الإسلام العظيم الذي ارتضاه الله للناس ديناً .

أقول إنه أحوج ما يكون في ذلك إلى رسالة الدم الزكي القاني، وإزهاق الأرواح الطاهرة النبيلة، شهيدة، في سبيل الله والحق والعدل هذه المعاني الكريمة التي كفر بها كثير من الأمم وداسها ا(لإنسان الحديث بنعا).ه.

إن فلسطين ومقدساتها لن تعود للعرب والمسلمين بالكلام يطرح هنا وهناك، ولا بتفضل الناس الأباعد ومناصرتهم المشروطة أو غير المشروطة بل إن عودتها مرهونة بفضل جهاد أبنائها وجهاد إخوتهم المسلمين ونضالهم.

إن معركة فلسطين اليوم هي المحك لقدرة العرب والمسلمين في هذا العصر على حماية أنفسهم ومقدساتهم وعلى جدارتهم في العيش في عزة وكرامة وبمواكبة تدرج الأمم في مدارج الرقي والعز والشرف.

* * *

حديث عن لبنان عبر لقاء مع سماحة مفتيه الشيخ حسن خالد

العدد (١٦٢) جمادى الآخرة (١٣٩٨هـ) - مايو (١٩٧٨).

لبنان شغل العالم معه بأحداثه المتتابعة.. لبنان ميدان صراع منذ أمد بعيد.. لبنان تقع على أرضه أبشع جرائم ارتكبها إنسان الحضارة الزائفة.. وفي لبنان سالت دماء زكية.. وتداخلت الأحداث وتشابكت الأمور.. وامتد رداء الفتن الأسود ليغطي على لبنان الطبيعة.. الذي أبدعه الله جمالاً وإشراقاً.

لبنان بلد بالأحداث يغلي.. وكلما أوشكت نار الفتنة أن تخمد.. أمدها بالوقود تجار الحروب وسفاكو الدماء.. حتى كانت قمة المأساة في غزو بربري وحشي قامت به دولة الصهاينة غير الشرعية على أرض لبنان.. وسقط ألوف الشهداء... وتشرد ألوف الأبرياء... وعاثت إسرائيل في الأرض فساداً... والعرب والمسلمون - الرسميون - بقواتهم الرادعة في موقف المتفرج المستنكر للعدوان أحياناً... المهدد باتخاذه اللازم في الوقت المناسب.. والوقت المناسب- في نظرهم- لم يحن بعد!! ويعيش لبنان مأساته... جرحاً لا يندمل... ونزيفاً لا يتوقف... وهدماً لكل بنيان... وإزالة لمظاهر الحياة...

● **وبعد، جاءت قوات الأمم المتحدة... لتحتل مواقع الفدائيين...**

ولتؤمن انسحاب المعتدين... ولتحمي دولة الإرهابيين...

فماذا أنت فاعل يا أخي في لبنان؟ وماذا أنت فاعل يا أخي في كل مكان عربي وإسلامي؟ وكيف يتحقق سلام مع أعداء السلام؟..

اللهم إنه لا حل إلا في قولك... وقولك الحق- : ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا

تَعۡلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعۡلَمُهُمۡۚ وَمَا تُنفِقُواْ مِن شَيۡءٖ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يُوَفَّ إِلَيۡكُمۡ وَأَنتُمۡ لَا تُظۡلَمُونَ ﴿٦٠﴾﴾ (الأنفال: ٦٠).

وعزاؤنا في كل نقطة دم طاهرة أريقت في سبيل الله.. وعزاؤنا في كل شهيد هو في رحاب الله... قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحۡسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمۡوَٰتَۢاۚ بَلۡ أَحۡيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمۡ يُرۡزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَيَسۡتَبۡشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمۡ يَلۡحَقُواْ بِهِم مِّنۡ خَلۡفِهِمۡ أَلَّا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ يَسۡتَبۡشِرُونَ بِنِعۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضۡلٖ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجۡرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿١٧١﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩- ١٧١) وسط هذه المشاعر استقبلت الكويت وفداً لبنانياً كريماً... جاء قبيل الأحداث الأخيرة ليقوم بواجب التهنئة لسمو أمير البلاد الشيخ جابر الأحمد الصباح بمناسبة توليه مقاليد الحكم في الكويت العزيز- كما قال سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد- وقال سماحته: لقد سعدنا بمقابلة سموه لهذه الغاية إلا أننا اغتنمناها فرصة طيبة لنتذاكر مع سموه ومع المسؤولين في دولة الكويت كل ما يعود على التضامن العربي، وعلى التعاون الإسلامي بالخير والبركة.

هذا... والوفد اللبناني برئاسة سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد.

وعضوية كل من السادة:

فضيلة الدكتور/ صبحي الصالح: مدير كلية الآداب في الجامعة اللبنانية ونائب رئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

الأستاذ/ حسن القوتلي: المدير العام لشؤون الإفتاء وعضو المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى.

السفير الأستاذ/ محمود حافظ: عضو المجلس الاستشاري للإفتاء.

الأستاذ/ رفيق البراج: رئيس ديوان المحاسبة سابقاً وعضو المجلس الاستشاري للإفتاء.

وقام الوفد الضيف بزيارة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية... ودار الحديث بين الوفد اللبناني برئاسة سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد... والمسؤولين بالوزارة برئاسة الوزير السيد/ يوسف جاسم الحجي حول أوضاع

المسلمين في لبنان... وما يعانيه إخوة لنا هناك من صعاب... ووسائل التعاون بين وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية... ولبنان المسلم... من أجل رفع المعاناة عن المسلمين هناك. ثم كان لنا هذا اللقاء مع سماحة مفتي لبنان... وكان البدء التعرف على طبيعة منصب مفتي الجمهورية اللبنانية...

• خطورة منصب الإفتاء في لبنان

قال سماحته: إن قولكم إن منصب مفتي الجمهورية اللبنانية له طبيعة عمل خاصة تتميز عن طبيعة العمل بالنسبة للإفتاء في أي بلد آخر إنما هو قول واقعي وصحيح، فرضه الوضع العام في لبنان، فهو وضع لا يعطي مفتي الجمهورية هذه الطبيعة الخاصة في العمل والمسؤولية. وإنما يعطيها أيضاً لرؤساء الطوائف في لبنان جميعاً.

وإنها في الحقيقة مسؤوليات كبرى أمام الله والناس نرجو في كل لحظة أن يوفقنا الله للقيام بها بكل أمانة، كما نرجو أن يجنبنا الزلل والخطأ، فإننا في كل لحظة معرضون لذلك، ولكنا إذا استعنا بالله- وهذا شأننا في كل ما نعمل- فإننا بإذن الله سوف نظل في الطريق نحو ما نطمح إليه من مرضاة الله في خدمة الناس.

أما هذه الصلاحيات أو المسؤوليات التي أنيطت بالإفتاء فهي كثيرة ومتشعبة، إلا أنها لم تكن في يوم من الأيام متروكة من غير نصوص قانونية تضبطها، ومواد تشريعية تنظمها، ولقد نصت قوانين البلاد صراحة على هذه الصلاحيات، وإذا حاولنا أن نحدد مصادر صلاحياتنا ومسئولياتنا القانونية اللبنانية فإنها تنحصر في مرسومين أو قانونين أساسيين.

أولهما: المرسوم الاشتراعي رقم ١٨- الخاص باستقلال المسلمين في تنظيم شؤونهم الدينية.

ثانيهما: مرسوم تنظيم المحاكم الشرعية...

ومن خلال هذين القانونين يمارس مفتي الجمهورية مسؤولياته وصلاحياته على الأصعدة التالية: أولاً: الإفتاء ومن خلاله تمثيل المسلمين أمام جميع المراجع الرسمية في الداخل والخارج باعتباره رئيساً للطائفة الإسلامية السنية في لبنان.

ويتمتع بالامتيازات والصلاحيات التي يتمتع بها رؤساء الطوائف في لبنان جميعاً، هذا من الناحية التمثيلية لمنصب الإفتاء. أما من الناحية الإجرائية فإن مفتي الجمهورية هو مرجع الاستفتاءات جميعاً التي ترد إلى دار الفتوى في شؤون الناس الحياتية على ضوء أحكام الشريعة الغراء.

وعلى ذلك فإن هناك جهازاً للإفتاء منتشراً في مختلف مناطق الجمهورية، مؤلفاً من مفتين في المناطق، ومن مدرسي فتوى يساعدون مفتي الجمهورية في تحمل أعباء هذه المسؤولية.

ثانياً: وبطبيعة الحال، ولما كانت الدولة رسمياً دولة غير إسلامية فإنه ليس فيها وزارة للأوقاف والشؤون الإسلامية، فكان من نتيجة ذلك أن وقعت مسؤولية وزارة الأوقاف التي تضطلع بها أي وزارة للأوقاف في أي بلد إسلامي على مفتي الجمهورية.

فأصبحت الدعوة الإسلامية وشؤون المساجد، والتوعية الإسلامية، والإعلام الإسلامي في جميع مدارس الحكومة اللبنانية، كل ذلك يقع على عاتق الإفتاء وحده، عليه أن يخطط ويبرمج العمل هذا كله، وينفق عليه الإنفاق الكامل، ومفتي الجمهورية هنا يعاونه في تنظيم شؤون الأوقاف مجلسان: مجلس تشريعي يشترك في عضويته جميع رؤساء الوزراء السابقين ورئيس الوزراء الحالي كأعضاء طبيعيين، وعلماء الشريعة الإسلامية، وأساتذة الجامعات، واختصاصيون، بعضهم ينتخب من قبل هيئة عامة، وبعضهم يعين من قبل مفتي الجمهورية، وهذا المجلس يعاون المفتي في إدارة أحوال المسلمين وفي إصدار القوانين الإسلامية التي تطبق في البلاد متى صدرت عن هذا المجلس. ومجلس آخر: هو المجلس الإداري للأوقاف، والذي تنحصر أعماله في الإدارة الوقفية.

ثالثاً: المحاكم الشرعية التي تهتم وتنظم الأحوال الشخصية لدى المسلمين بمقتضى النصوص الشرعية، ويعتبر المفتي رئيس مجلس القضاء الشرعي الأعلى للطائفتين الإسلاميتين الكبيرتين السنية والشيعية.

رابعاً: الأمور أو المؤسسات الاجتماعية التي تعنى بالخدمات الاجتماعية

لأبناء المسلمين ولدور الأيتام، حيث تنص المادة ٣ من المرسوم الاشتراعي رقم ١٨ على أن مفتي الجمهورية يعتبر راعياً لها في جميع مناطق الجمهورية.

خامساً: الأحوال المصيرية العامة للمسلمين ومطالبهم العامة التي تتعلق بمسؤوليات الدولة والحكم تجاه المسلمين بشكل عام. إنها مسؤوليات كبرى كما ترى متشعبة، ولكن نستعين بالله أولاً وآخرا ونحن نقوم بها راجين من الله سبحانه أن يوفقنا لما فيه الخير والرضوان.

* * *

ويمضي بنا الحديث مع سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد.

وهو متحدث لبق، وذو ثقافة واسعة، فيه صفاء المسلم، وإشراق العالم الجليل.. فيقول سماحته عن التعليم الإسلامي ودوره في لبنان:

إن للتعليم الإسلامي دوراً في لبنان من غير شك، ولقد أشرت سابقاً إلى أن التعليم الإسلامي في مدارس الحكومة كلها وفي مختلف مراحل التعليم، وعلى مستوى الجمهورية مطلوب من الإفتاء باعتباره مسؤولاً عن الأوقاف التي تدفع ميزانية التعليم الإسلامي، ومع أن الدولة خصصت في مدارسها الحكومية ساعة في الأسبوع لكل فصل، فإن ميزانية الأوقاف الإسلامية لا تغطي من هذا التعليم إلا منطقة بيروت، وصيدا، وطرابلس وبعض المناطق الأخرى، بالرغم من مساعدة الأزهر الشريف بأساتذة أكفاء يوفدون إلينا كل عام.. وإننا نرجو أن يهيئ الله لنا الظروف التي معها نستطيع أن نغطي ساعات تعليم الدين الإسلامي في كل مدارس الحكومة اللبنانية.. هذا على الصعيد الحكومي.

أما على الصعيد الخاص فإن لدينا مدرستين إسلاميتين كبيرتين..

أولاهما: أزهر لبنان.

وثانيتهما: كلية التربية والتعليم في طرابلس.

وهما المدرستان الدينيتان الوحيدتان المختصتان بتعليم الدين الإسلامي وتخريج علماء الشرع بمستوى المرحلة الثانوية، بحيث يلتحقون بعد ذلك بجامعة

الأزهر الشريف، أو جامعة المدينة المنورة، ليكملوا دراستهم الشرعية على المستوى الجامعي، وهناك مدارس أخرى كثيرة - والحمد لله - تعلم الدين الإسلامي إلى جانب العلوم المدنية الأخرى، وتتراوح ساعات تدريس الدين الإسلامي بالنسبة لكل فصل في هذه المدارس الخاصة بين ساعتين وخمس ساعات في الأسبوع، وتأتي في طليعة هذه المدارس التي تربي الطالب المسلم تربية إسلامية صحيحة مدارس الإيمان، ومدارس المقاصد، في بيروت، وصيدا، وطرابلس، والقرى. إلا أننا نطمع دائماً في أن نرى المزيد من هذه المدارس يقوى وينمو في هذا الطريق القويم .

• المسلمون بين الواقع والأمل

ثم يأخذنا الحديث مع سماحة المفتي إلى إلقاء الضوء على واقع المسلمين- اليوم- ومدى تلاؤمه مع الإسلام كقيم عليا وتعاليم سامية. . فيقول الشيخ حسن خالد:

لا شك أن المسلمين في لبنان متمسكون بقيمهم الإسلامية، وتعاليمهم الدينية، تمسكا قوياً، يقوم على الوعي والفهم والالتزام بشكل يدعونا إلى التفاؤل بأن المزيد من الجهد والمزيد من العمل في نشر الدعوة الإسلامية من شأنه أن يعزز الواقع الإسلامي بالشكل الذي نطمح إليه.

إذن سماحتك متفائل، وتأمل في غد أكثر إشراقاً، وترى أن الجهد المبذول متى ضوعف من أجل النهوض بمسلمي اليوم سيؤتي ثماره الطيبة، وجناه الحلو، ونحن مع سماحتك نطمح إلى غد عزيز ولكن الغد يبنى على واقع اليوم. . وواقع لبنان أحزاب وتنظيمات سياسية بلا حدود. . فما طبيعة العمل الإسلامي في هذه المرحلة؟

يقول سماحته:

لابد من الإشارة إلى أن لبنان في أجواء الحرية عامة، والحرية غير الملتزمة بشكل خاص أصبح ميداناً رحباً للتيارات السياسية والعقدية ذات الدوافع المحلية من ناحية، والخارجية من ناحية أخرى، تتصارع فيه، ولكنها تتفق في مناوأتها

للإسلام محاولة ضربه وضرب المسلمين معاً. إلا أن المسلمين وقد شعروا منذ القدم بهذه الخطورة، فقد برزت بين صفوفهم حركات إسلامية واعية، تكتلوا على أساسها، وبرزت جماعات وأحزاب وهيئات ومؤسسات اجتماعية وثقافية في الغالب، تعلن التزامها بالدين الإسلامي عقيدة ومنهجا وتطبيقاً، ولقد قويت هذه النزعة خلال الحرب، فظهرت تنظيمات عسكرية، وأحزاب ومجموعات رفعت شعارات إسلامية صراحة، مما يبدو معه أن هذه التنظيمات في عهد السلام والوفاق ستلتزم بالنضال السياسي، والتكتل الاجتماعي على أساس إسلامي وطني، يمد لبنان وشعبه بالخير والرفاه.

• سماحة الإسلام

ويمضي الحديث سالكاً مجراه في انسياب وسهولة ويسر. . مكتسباً من طبيعة محدثي السمحة العذبة الشيء الكثير. . فيقول عن الإسلام وسماحته وتعايشه مع الطوائف الدينية في لبنان:

أريد أن أصحح أنه ليس هناك على الإطلاق طائفة دينية أخرى تحقد أو تعادي الإسلام والمسلمين، إذا كان من عداء للإسلام والمسلمين في لبنان، فإنه عداء سياسي غالباً ما يظهر من السياسيين أنفسهم،إما تحت ستار الطائفية وإما تحت ستار الحزبية الملحدة، فالطائفية التي هي مذهب سياسي في الغالب يقوم على أساس إعطاء الامتيازات الطائفية على حساب المسلمين، والحزبية الملحدة التي تقوم على ضرب العقيدة الدينية عند كل المتدينين هي سبب الحقد والعدوان.

إن مظاهر التسامح الإسلامي في لبنان تتمثل في دعوة المسلمين ومطالبتهم بالمساواة، والعدالة في معاملة المواطنين جميعاً بلا تفريق تحت أي شعار. . إننا نعترف بكل الأديان السماوية. . ونعظم كل رسل الله وأنبيائه، شعارنا الدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، أما الحقد الطائفي الذي هو سياسة بحد ذاته فيتلخص في الامتيازات الطائفية التي يحرص عليها البعض، والتي ليست من الدين في شيء.

* ولبنان بمآسيه وآلامه، بأحداثه ومشكلاته، بمعاناته وجراحاته، يشغل

عالمنا العربي والإسلامي، ويصيب الأمة في ضميرها. . ويدمي قلوب المؤمنين المخلصين. . ويقول البعض عن غياب الوجه الإسلامي عن ساحات الصراع في لبنان. . فيجذب طرف الحديث بطريقة بارعة محدثي الفاضل.

فيقول: صحيح أن الأحداث المؤسفة الأخيرة شغلت العالم العربي والإسلامي، بل والعالم كله، لأن العالم كله له دور في أحداث لبنان بشكل أو بآخر، إن الصراع العالمي بمتفرعاته لم يجد من ساحة له إلا هذه الرقعة الصغيرة من العالم التي هي لبنان، ولعل وضع الامتيازات الطائفية هو الذي ساعد على هذا الاستغلال لأرض لبنان وشعب لبنان، أما غياب الوجه الإسلامي عن ساحة الصراع هذه فأعتقد أنه حكم ليس في محله. لأن المسلمين كانوا قبل الحرب وخلالها وبعدها وما زالوا حتى هذه الساعة موجودين، يتشاورون، ويجتمعون في كثير من الأحيان، كما اجتمعوا وأجمعوا في دار الفتوى على إسقاط حكومة لم يرضوا عنها، وأحلوا محلها حكومة دولة الرئيس رشيد كرامي، والاجتماعات المتواصلة والمتكررة التي كان يعقدها زعماء البلاد المسلمون في «عرمون» بمنزلي.

حيث كانوا يطلبون باستمرار دعوتهم إلى هذا المنزل المتواضع ليجتمعوا فيه ويقرروا أمرهم، أضف إلى ذلك أن تنظيمات إسلامية- كما أشرت- ظهرت على الساحة، وأثبتت وجودها، وهذا كله يؤكد على الحضور الإسلامي، أما الغياب الذي يشير إليه البعض فأنا أعتقد أنه كان نتيجة للدعايات المغرضة التي يحاولون إلصاقها بالمسلمين في جولة إعلامية ذكية لكسب تأييد العالم العربي بشكل خاص.

● التقريب بين المذاهب الإسلامية

* وحول التقريب بين المذاهب الإسلامية. . والجهود المبذولة بهذا الصدد جرى بنا الحديث في واديه السهل الخصيب.

فيقول مفتي لبنان:

إن الدعوة إلى التقريب بين المذاهب الإسلامية لا تجد صداها الحبيب في هذه

الأيام فحسب، وإنما هي دعوة ترضي الله في كل زمان ومكان، لأنها من صلب الدعوة الإسلامية، وفي أساسها.

ولقد كانت لنا قبل الحرب اجتماعات دورية، نعقدها باستمرار على صعيد رؤساء الطوائف الإسلامية فنتشاور في كل ما يعود على التقريب بين المذاهب بالخير، والرضا من الله سبحانه وتعالى، ولقد باشرنا- قبل الحرب أيضاً- في جلسات عمل مع سماحة الإمام موسى الصدر لوضع أسس للتقريب والعمل الإسلامي المشترك، وتوحيد النشاط الديني بشكل عام، إلا أن الحرب جاءت واستنزفت منا هذه الرغبة إلى حين، غير أننا بمشيئة الله وعندما تتوفر لنا أسباب الاستقرار، وأسباب أخرى لا بد منها، سوف نعود إلى أكثر مما كنا عليه من العمل في هذا المجال، وإننا لبالغوه بإذن الله.

● الإسلام دائماً مع الوفاق الوطني

*** وكانت قد ترددت في لبنان مؤخراً أنباء عن صدور الوفاق الوطني- فانتقل بنا الحديث حول هذا الوفاق الوطني، ومدى ملاءمته للطموح الإسلامي في لبنان.**

فقال محدثي الفاضل الواسع الثقافة الواضح البيان:

إن الوفاق الوطني في لبنان يسير في طريقه المرسوم الذي يبدو أن المواطنين جميعاً راضون عنه، فلقد اجتمعت الحكومة بعد استطلاع رأي الزعماء السياسيين، والروحيين، ووضعت عناوين لهذا الوفاق على صعيد الحكم، والإدارة، والجيش، وتنوي الحكومة أن تدفع بهذه العناوين من خلال قرارات تتخذها إلى المجلس النيابي ليقرها، ثم بعد ذلك تأخذ دورها في التطبيق، ويبدو حتى الآن من هذه العناوين أنها مستمدة من الوثيقة الدستورية المعروفة، إن المصلحة الإسلامية دائماً في الوفاق الوطني، ولا مصلحة للمسلمين بالاختلاف الوطني، فنرجو من الله سبحانه أن يساعدنا على دعم كل ما يمكن أن يجمع عليه اللبنانيون، محافظة على لبنان وعروبته ووحدته.

● الصحافة الإسلامية وسط صحافة لبنان

* ويعرج بنا الحديث إلى ميدان الصحافة في لبنان. . وهو ميدان صاخب شأن كل شيء في لبنان الآن. . وعن الصحافة بشكل عام والصحافة الإسلامية بشكل خاص.

قال سماحته: إن دور الصحافة في لبنان دورو خطير للغاية، ويكفي أن تعرف أن هناك تسعاً وتسعين مطبوعة في لبنان من صحيفة ومجلة، كلها تصدر في هذا البلد الصغير، لتعرف كم هي التيارات كثيرة ومتضاربة في لبنان، ولاشك أن لكل صحيفة تياراً واتجاهاً يعكس الأحداث اللبنانية من وجهة نظر مختلفة عن الأخرى، مما يزيد في البلية والفوضى، إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أنه كانت هناك صحافة أساسية لها الدور في التوجيه الإعلامي خلال الحرب وبعدها .

أما الصحافة الإسلامية، فإننا في دار الفتوى نصدر مجلة شهرية هي «الفكر الإسلامي» وأعتقد أنها تصل إليكم، وهي تعبر بما تتضمنه من آراء عن الاتجاهات الإسلامية في كثير من القضايا المطروحة، ولقد قويت هذه المجلة بعد الحرب، ثم ظهرت صفحة إسلامية أسبوعية في جريدة يومية، ثم تلتها جريدة يومية أخرى بصفحة إسلامية أخرى، إلا أن هذا لا يفي بالحاجة بعد، وإننا نرجو أن ترتكز حركة الإعلام الإسلامي هذه على أسس من التنسيق والدعم الذي نأمل أن تتوفر له جميع الظروف المناسبة.

● إمكاناتنا لا تسمح بفتح مساجدنا كلها

* ولا يفوتنا الحديث عن المسجد ودوره الحضاري والتاريخي.. ومدى ما عاناه المسجد في لبنان. .

يقول سماحة مفتي لبنان: إن لدينا في لبنان حوالي ٤٠٠ مسجد، منتشرة في مختلف مناطق الجمهورية، وأحب أن أقول هنا بكل صراحة إن إمكاناتنا منذ عشرين سنة أو أكثر لا تسمح لنا بفتح هذه المساجد جميعها، إنه بالرغم من مساعدة الأزهر الشريف بالدعاة، وبالرغم من مساعدة رابطة العالم الإسلامي بالمال لفتح كثير من مساجد «عكار» في الشمال، فإن بعضا من هـذه المساجد

ما زال مغلقاً، إلا أن لدينا خطة لفتح كل المساجد المتبقية مهما كلف الأمر من مال وجهد، لأننا نعتقد أن للمسجد رسالته في بناء حياة المسلم وشخصيته، كما أن لدينا خطة لجعل المسجد مكاناً للخدمات الاجتماعية في الوقت الذي هو فيه مكان للعبادة، إننا نشعر شعوراً عالياً بعظم هذه المسؤولية الملقاة على عاتقنا لأن تأثير التيارات الغريبة على شبابنا يكاد يتهددنا، ونحن لا نستطيع أن ندفع بهذا الشر إلا من خلال بناء الشخصية الإسلامية من خلال المسجد الذي هو مدرسة الإسلام الأولى، تربي المسلم التربية النفسية والاجتماعية، والروحية اللازمة، وتؤدي له الخدمات والتوجيهات التي يحتاج إليها في حياته الخاصة والعامة.

ولكن: مما يؤسف له كثيرا أن عدداً كبيراً من المساجد في لبنان قد أزيل تماماً وهدم خلال الحرب، كما تصدعت الكثرة الكاثرة من العقارات الوقفية التي كانت تمد هذه المساجد بالمادة اللازمة للدعوة والنشاط.

● لكل بلد مشكلاته.. والحل في كتاب الله وسنة رسوله

* هكذا عايشت معي- أخي القارئ - الوضع الإسلامي في لبنان، واطلعت عن كثب على أوجه الصراع في لبنان، ورأيت مدى المعاناة والمشكلات التي تعرقل الجهد الإسلامي في لبنان، وحول هذه المشكلات والبحث عن مخرج منها يقول سماحة مفتي لبنان الشيخ حسن خالد:

أي واحد منا لا يستطيع أن يحصر في هذه العجالة مشكلات المسلمين داخل لبنان وخارجه، إلا أنني لست من الأشخاص المولعين بوصف دواء واحد لكل الأمراض، إنني أعتقد أن لكل بلد مشكلاته الاجتماعية، والاقتصادية، والتربوية، والسياسية، وما إلى ذلك، فإذا استطعنا أن نأخذ كل بلد على حدة، وندرس مشكلات المسلمين فيه دراسة اجتماعية زمانية ومكانية تلحظ المتغيرات فإنه من الممكن أن نضع سلماً للأوليات في حَل هذه المشكلات، ثم نبدأ بحلها واحدة بعد أخرى على ضوء كتاب الله تعالى، وسنة رسوله الكريم.

● قدمنا الحضارة للعالم

وأخيراً.. أخذت من وقت محدثي زمناً طويلاً... وأراه في حاجة إلى وقت

يستريح فيه، فمدة تواجده بالكويت مشحونة ببرنامج خاص للاطلاع على نهضة الكويت، وزيارة معالم النشاط الإسلامي بها.

فرأيت أن نختم حوارنا مع سماحته بكلمة يوجهها إليك.

● أخي القارئ:

يقول إنه يسعدني أن أحيي أولاً مجلة «الوعي الإسلامي» التي تصدر عن وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، لما تتحلى به من وعي إسلامي حقيقي، ومن حرص على رفع كلمة الله عالياً، وإني لأرجو من الله أن يوفقها ويوفق العاملين فيها إلى ما فيه الرضا والفلاح، وإنني عبر هذه المجلة الصادقة في دعوتها، لأرجو لقرائها مزيداً من الاطلاع، ومزيداً من التمسك بكتاب الله وسنة رسوله، وبسيرة رجالاتنا العظام الذين صنعوا تاريخنا، وبنوا حضارتنا على أسس متينة، قدمها لنا الإسلام، فجعلنا نقدم الحضارة للعالم كله.

وهكذا نأتي على نهاية لقائنا الخير بسماحة الشيخ حسن خالد مفتي الجمهورية اللبنانية، ونرجو لسماحته وللوفد المرافق طيب الإقامة. . .والتوفيق في عملهم المتواصل من أجل خدمة المسلمين في لبنان.

غير أنه يبقى لبنان النغمة الحزينة في عالمنا العربي والإسلامي طالما ظل أتون حرب، وميدان تطاحن وصراع. وإننا لندعو الله مخلصين أن يحمي لبنان من كيد الماكرين، وعدوان الظالمين. .. اللهم آمين.

* * *

١٨ مقالات

الشيخ د. صبحي الصالح

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- ملحمة الهجرة خطة وتصميم.

العدد (٣٧) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٢- البلاغة النبوية.

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو ١٩٧١م).



ترجمة الشيخ

د. صبحي الصالح



● **مولده ونشأته:**

ولد الشيخ صبحي الصالح في الجمهورية اللبنانية في مدينة طرابلس سنة ١٩٢٦م من عائلة تركية الأصل، وتابع فيها دراسته الابتدائية، والمتوسطة والثانوية المدنية والشرعية في دار التربية والتعليم، ثم حصل على الشهادة العالية «الإجازة» من كلية أصول الدين في الأزهر عام ١٩٤٧م ثم العالمية عام ١٩٤٧م ثم سافر إلى فرنسا فنال شهادة دكتوراه الدولة في الآداب من جامعة السوربون عام ١٩٥٤م.

قضى حوالي ثمانية وعشرين عاماً في التدريس الجامعي، في جامعة بغداد ١٩٥٤-١٩٥٦م، وفي جامعة دمشق (١٩٥٦-١٩٦٣م)، وفي جامعة بيروت العربية عمل أستاذاً للإسلاميات وفقه اللغة منذ تأسيسها وحتى وفاته، وفي الجامعة الأردنية١٩٧١-١٩٧٣م، وكان فيها رئيساً لقسم أصول الدين، وعيّن أستاذاً في الجامعة اللبنانية منذ العام ١٩٦٣، وانتخب رئيساً لقسم اللغة العربية وآدابها فيها منذ عام ١٩٧٥م، ثم عيّن مديراً لكلية الآداب والعلوم الإنسانية عام ١٩٧٧م، ثم صار أستاذ كرسي الإسلاميات وفقه اللغة العربية فيها. وحاضر أستاذاً زائراً في جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، والكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين في الجامعة التونسية، وسمي في جامعة ليون الثالثة بفرنسا مشرفاً على رسائل الدكتوراه في الدراسات الحضارية واللغوية والإسلامية، عين نائباً لرئيس المجلس الشرعي الإسلامي الأعلى في لبنان، وأميناً عاماً لرابطة علماء المسلمين، وعضواً بمجمع اللغة العربية في القاهرة، وأكاديمية المملكة المغربية،

والمجمع العلمي العراقي، ولجنة الإشراف على الموسوعة العربية الكبرى، كما منح جائزة التفكير الاجتهادي في الإسلام.

وله رحمه الله العشرات من المؤلفات والبحوث والدراسات مشهورة منثورة، ومنها ما خصَّ الشيخ به مجلة «الوعي الإسلامي» الكويتية.

كان له رحمه الله شخصية قوية، وبديهة حاضرة، وحضورا محببا، وجاذبية عفوية، وقد كان له في التلفزيون الأردني منذ أكثر من ثلاثة عقود مساجلات علمية راقية جداً مع بعض العلماء.

● **وفاته:**

توفي الشيخ في بيروت ٧/ ١٠/ ١٩٨٦م بإطلاق الرصاص عليه، رحم الله فقيدنا، وأسكنه فسيح جناته، وحشره مع الذين أنعم الله عليهم.



ملحمة الهجرة
خطــــة وتصميــــم

العدد (٣٧) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨).

إذا استشففنا حجاب التاريخ ألفينا فيه هجرة الرسول أبرز حادثة من حوادث الدهر، ولكي تكون كذلك- وهي حقاً كذلك- لا بد أن يكون لبطولة الرسول فيها أثر، ولا بد أن يكون لشجاعته ونضاله وجميل صبره وطول أناته فيها أثر، ولا بد بوجه عام من ربط عوامل نجاحها بشخصيته الكاملة وفكره الثاقب وعقله الراجح، فبهذا كله يسعنا أن نقول: إن تلك الهجرة كانت ملحمة خالدة، بل أخلد الملاحم، وإن بطلها هو النبي العظيم، لأنها قبل أن تختم بالنصر افتتحت بالاضطهاد والعذاب، وكانت بين الفاتحة والخاتمة سلسلة من صور بطولة النبي، ومواطن شجاعته، ومشاهد نضاله وجهاده.

ومن الناس من يقتنع في سذاجة عجيبة بأن ملحمة الهجرة لم تك إلا وحياً من عند الله خالصاً وأقل ما يعنيه هذا القول المدهش إلغاء كل عمل شخصي للنبي الكريم في إنجاح هجرته أو رسم خطته، كأنه عليه الصلاة والسلام لم يستشعر قط ضرورة القيام بها والتفكير فيها ثم تنفيذها على الوجه الأكمل. ومثل هذا القول كان يقتضي بداهة أن يقدم الله لنبيه الحبيب موعد هجرته إنقاذاً له من قومه الجفاة العتاة، ومن أذاهم واضطهادهم له وسخريتهم به، ولكن الله حين ترك نبيه البطل ثلاثة عشر عاماً في مكة يلقى صنوف العذاب ما ودعه وما قلاه، وإنما أراد أن يذيقه حلاوة النصر بعد مرارة الصبر والمصابرة والكفاح والنضال، حتى يفتح أعين الذين آمنوا على سنته في خلقه، فلا يغتروا بانتسابهم إلى الإسلام من غير جهاد، أو يستسلموا إلى الوهن وهم يحسبون أنهم على ربهم يتوكلون.

كان الجو في مكة قاتماً مكفهراً في كل ناحية، وكان كل شيء في مكة يدعو

إلى اليأس، ولكن النبي لم ييأس وما كان لنبي أن ييأس، فإن عليه تبليغ ما أنزل إليه من ربه وإن لم يفعل فما بلغ رسالته، والله يعصمه من الناس! رأى ﷺ من كفر قريش وكبرها وعنادها ما أكد له أنها لن تعرف طريق الإيمان، وعرض نفسه على القبائل فردته رداً غير جميل، ولاسيما في الطائف التي لقي فيها أشد العذاب، حتى لجأ إلى كرمة يتفيأ ظلها ويبتهل إلى ربه بهذا الدعاء الضارع المستغيث: «اللهم أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، إلى من تكلني؟ إلى بعيد يتجهمني أم إلى عدو ملكته أمري؟ إن لم يكن بك غضب علي فلا أبالي» فلم يكن بد- بعد هذا الجو المكفهر المقيت- من أن يلتمس النبي الكريم للدعوة جواً تستطيع التنفس فيه، ولم يكن بد من أن يجد ﷺ الجو الآمن الجديد المبشر بالخير في غير مكة التي هي مسقط رأسه ومربى طفولته ومزدهر شبابه.

وفكر النبي الذي لا ينطق عن الهوى- أول ما فكر- بالمستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً، فأمرهم بالهجرة إلى الحبشة، لأن بها النجاشي الملك النصراني الذي «لا يظلم عنده أحد» كما قال الرسول الكريم.

وحين أذن الله لنبيه بالهجرة أمره بتنفيذ الخطة التي ألهمه رسمها وتصميم مراحلها، فلم تكن هجرته فراراً من الأذى وهرباً من الاضطهاد، إذ لو أراد ذلك لهاجر إلى بلد بعيد كالحبشة مثلاً، بعد أن نصح أصحابه بالهجرة، إليها، ولكنه صلوات الله عليه كان المثل الأعلى للشدة في الحق، والثبات على المبدأ، فظل يصبر ويصابر حتى تسنح الفرصة ويأذن الله، فلم يتألم من عدوان سفيه، بل كان يجد فيما يحسبه الناس ألماً لذة سامية، وكان سعيداً بآلامه الفوادح، لا يبالي ما دام الله معه يهديه ويسمع سره ونجواه ويكلؤه في منقلبه ومثواه. ولذلك حاول وهو في مكة لما يفارقها أن يضع خطة حكيمة يتابع تنفيذها طورا بعد طور واثقاً من النجاح، مطمئناً إلى تأييد الله، صابراً الصبر الجميل!

إن النبي عليه الصلاة والسلام ليعلم أن موسم الحج هو الملتقى الطبيعي للوافدين إلى مكة من غير المكيين ومن غير القبائل التي عرض نفسه عليها ودعاها

إلى دين الله. ويشاء الله أن تكون بداية الفرج خروج نفر من الخزرجيين إلى مكة في موسم الحج بعد وقعة بعاث المشؤومة التي قتل فيها مئات من الأوس والخزرج، فلقي النبي هؤلاء الحجيج ودعاهم إلى الإسلام فشرح الله صدورهم لدينه الحنيف.

ومع استدارة العام وحلول موسم الحج أتى مكة اثنا عشر رجلاً من أهل المدينة، فالتقوا برسول الله ﷺ وبايعوه عند العقبة البيعة الأولى، وأرسل معهم مصعب بن عمير يعلمهم القرآن ويفقههم في الدين.

ولما جاءه في العام القابل في موسم الحج سنة ٦٢٢م. خمسة وسبعون من أهل المدينة بينهم امرأتان، بايعهم عليه السلام سراً في جوف الليل على أن يمنعوه مما يمنعون منه نساءهم وأبناءهم، واتخذت هذه البيعة الكبرى عند العقبة صورة الحلف أو الميثاق، فقد قال الرسول الكريم للقوم يومذاك: «أنتم مني وأنا منكم، أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم»، واختار منهم اثني عشر نقيباً يكونون على قومهم بما فيهم كفلاء ككفالة الحواريين لعيسى ابن مريم، وهو عليه السلام كفيل على قومه .

ولقد قال حينئذ البراء بن معرور سيد قومه، وهو من الذين أسلموا بعد العقبة الأولى، معلناً البيعة بلسان الجميع: «بايعنا يا رسول الله. فنحن والله أبناء الحروب ورثناها كابراً عن كابر». واعترض أبو الهيثم بن التيهان يقول: «يا رسول الله، إن بيننا وبين يهود المدينة عهوداً نحن قاطعوها، فهل عسيت إن قطعنا هذه العهود ثم نصرك أن ترجع إلى قومك وتدعنا؟» وأجاب النبي الصفي الوفي. «بل الدم الدم والهدم الهدم».

ورغم ما أحيطت به بيعة العقبة الكبرى من سرية بالغة، ورغم إتمامها في جوف الليل عند شعب العقبة في عزلة عن الناس، تسرب إلى قريش نبأ هذه المعاهدة الخطيرة، وأحسب قريشاً قد أحست قبيل هذه البيعة بنشاط النبي في الدعوة ودأبه المتواصل لتبليغ الرسالة. فأرسلت بعض عيونها وجواسيسها يتابعون حركاته، إذ ما كاد الحلف يتم وما كاد الأنصار يقسمون للنبي على تنفيذه نصاً

وروحاً حتى سمعت قريش منادياً يناديها بأنفذ صوت سمعته قط: يا أهل الجباجب: يا أهل المنازل بمنى، هل لكم في مذمم[1] والصباء الخارجين على دينهم معه قد اجتمعوا على حربكم؟ وربما كان هذا المنادي يريد في آن واحد تحذير قريش وتثبيط عزائم الأنصار. أما قريش فقد بلغ بها الحذر منتهاه حتى جاءت منازل الخزرجيين في شعب العقبة وأنشأ رجالها يعاتبون القوم قائلين: يا معشر الخزرج، نحن لا نريد حربكم، وما نكره أن نقاتل قوماً كما نكره أن نقاتلكم، فما بالكم تبايعون محمداً على حربنا وتخرجونه من بين أظهرنا؟

ولما أيقنت قريش أن هذا الحلف قد تم حقاً. وأن الأنصار سينفذونه فعلاً. خرجت تطلب من قدرت عليه منهم فلم تظفر إلا بسعد بن عبادة بأذاخر قريباً من مكة، فربطوا يديه إلى عنقه بجلد رحله، وجروه من شعره، وردوه إلى مكة وظلوا يعذبونه حتى أجاره حليفان له في الجاهلية جبير بن مطعم والحارث بن أمية.

وأما الأنصار فما ازدادوا إلا إيماناً وتسليماً حتى قال العباس بن عبادة للنبي: «والله الذي بعثك بالحق، إن شئت لنميلن على أهل منى غداً بأسيافنا!» ولكن القائد الحكيم عليه السلام أجاب: «لم نؤمر بذلك، فارجعوا إلى رحالكم».

وبينما كانت قريش تفكر بالقضاء على حركة الأنصار في مهدها، وتفكر في حماية أصنامها وعبادها، وفي الإبقاء على سيادتها وزعامتها، أقدم النبي ﷺ ببراعة وحكمة على عمل سياسي عظيم، فأمر أصحابه بالهجرة إلى المدينة فرادى أو نفرا قليلاً، فسوف يجدون النصر والتأييد في يثرب أوسها وخزرجها بين قوم يؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، وخافت قريش من هجرة المؤمنين إلى المدينة، ففرقت بين المرء وزوجه ومنعت الزوجة القرشية من المسير إلى يثرب مع زوجها المؤمن. ونكلوا أشد التنكيل بكل من أصابوه يعتزم الهجرة والرحيل.

وظل النبي البطل الشجاع في مكة دؤوباً على الدعوة إلى الإسلام، وقال لصاحبه أبي بكر حين استأذنه بالهجرة: «لا تعجل لعل الله يجعل لك صاحباً». وفي رواية أخرى «لم يؤذن لي» وكأنه كان ينتظر الفرصة السانحة التي يلهمه الله

---

(١) لم يقل المنادي «محمد» عكسها فقال: «مذمم» بغياً من نفسه إثارة للقوم.

أنها ملائمة لتنفيذ خطته الحكيمة البارعة.

ومن يتتبع السيرة النبوية المطهرة بعمق ودقة يوقن بأن الدوافع النفسية التي كانت تحمل الرسول الكريم على اختيار المدينة مهاجراً له تكاد تقطع بأن عمله الشخصي في رسم خطة الهجرة لم يكن ضئيلاً: فقد كانت للرسول في المدينة علاقة قربى، ففيها أخوال جده عبد المطلب من بني النجار. وفيها قبر أبيه عبد الله بن عبد المطلب. وفي السادسة من عمره زار النبي عليه السلام مع أمه آمنة بنت وهب قبر أبيه، ومرضت أمه في الطريق فماتت ودفنت بالأبواء في منتصف الطريق بين مكة والمدينة. ومن المعلوم أن النبي عليه السلام كان أول الأمر يتجه في صلاته إلى ناحية المدينة جاعلاً قبلته المسجد الأقصى ببيت المقدس مقام النبيين، فهل يلغي الدارس هذه الدوافع كلها ولا يرى فيها شيئاً مذكوراً؟.

على أن وضع النبي عليه السلام خطة الهجرة لا ينبغي أن يتعارض مع تأييد الله له فيها بالوحي، فإن كلا من الأمرين يتمم الآخر، وينسجم معه بدلاً من أن يناقضه: إذ المعروف عن الرسول الكريم في جميع مراحل حياته أنه قد امتاز بمضاء العزيمة، وعلو الهمة، والكفاح الدائب، والثبات على المبدأ، والثقة بالنجاح، وما كان يستمد هذه الخصال كلها إلا من اطمئنانه إلى الله حتى ذهب مذهب الأمثال قوله لعمه أبي طالب: «والله يا عم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه».

وحين أوى النبي ﷺ وصاحبه أبو بكر إلى غار ثور، وقفا المشركون آثارهما، قال أبو بكر في جزع شديد: لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فهمس النبي الشجاع في أذن صاحبه همسته الخالدة: «ما ظنك يا أبا بكر باثنين الله ثالثهما؟ يا أبا بكر، لا تحزن إن الله معنا» ولذلك عد الله نجاح نبيه في هجرته نصراً ربانياً أيده به، فقال في سورة التوبة: ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَىٰ وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ (التوبة: ٤٠) وصرح في

سورة الأنفال بأن الله هو الذي مكر بالقوم الذين مكروا برسوله، فقال: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال: ٣٠).

ليس من الخطأ إذا أن نقول: إن الله أيد بالوحي محمداً في الهجرة ونفخ فيه من روحه حتى نصره وأنجحه، فلا ريب أن هذا التأييد قد وقع، ولم يكن بد من أن يقع تكريما من الله لنبيه وتثبيتاً لفؤاده، ولكن الخطأ في قول من يقول: أن هذه الحادثة الكبرى كانت وحياً من الله خالصاً، كما أن الخطأ في قول من يزعم أن النبي انفرد برسم خطته، وأنه انتصر بمحض قدرته الشخصية وإرادته، فالحق أن أحداً من البشر مهما تبلغ مقدرته وحكمته وإرادته لا ينفرد بشيء، والنبي الكريم لم يكن بدعا من البشر، ولا بدعا من الرسل، ولكم قص الله على نبيه قصص الأنبياء السابقين: ﴿مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ﴾ (البقرة: ٢١٤).

وعلى هذا الأساس، يمكن الجمع بين الأمرين: فقد قام النبي البطل الشجاع المقدام بالهجرة، تبعاً لخطة وضعها وأحكمها ثم نفذها، وقد استمد عناصر النجاح من تأييد الله له ونصره، وانتظر الإذن الرباني بالشروع فيها وإتمامها على ما يرضي اللّه. وهكذا تجلت في ملحمة الهجرة مشاهد البطولة النبوية التي ما عرفت الأيام ولن تعرف لها نظيراً.

وعلى هذا الأساس أيضاً يمكننا أن نعالج آثار النكسة التي أصابت العرب والمسلمين في الصميم، فعلينا اليوم أن نحصر طاقاتنا كلها في مواصلة النضال، متوكلين على الله رب العالمين، واثقين أن النصر من عنده وحده، وهو العزيز الحكيم.

❊ ❊ ❊

البلاغة النبوية

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

شغل الناس عن بحث البلاغة النبوية أمران، أحدهما يتعلق بالقرآن والآخر يتصل بالحديث.

أما القرآن فشغل الناس حديثهم عن إعجازه، حتى أخذ بعضهم بالصرفة، وزعموا أن الله صرف الناس عن الإتيان بمثل هذا القرآن .

وأما الحديث فحالت مكانته التشريعية دون إسهاب البحث في مكانته الأدبية. بل تجرأ نفر من العلماء على أن ينكروا الاحتجاج بالحديث في اللغة والنحو- كما سنرى في حلقة أخرى من هذا البحث، وتجرأ آخرون فأنكروا الاحتجاج بالحديث ألآحادي حتى في التشريع كما سنوضح ذلك بعد قليل.

ولئن عذرنا القوم على انصرافهم بإعجاز القرآن عن بلاغة الرسول، فأنى لهم العذر وقد صرفهم فقه الحديث عن أدب الحديث؟

إن البلاغة النبوية تدور حول محور الحديث، وكما اشتمل الحديث على مواد غنية صلحت لاستنباط التشريع احتوى مواد أخرى لا تقل عنها غنى تصلح أطراً لبيان الرسول أفصح من نطق بالضاد. بل المواد التي صلحت أصولاً للفقه من وجه صلحت بنفسها صوراً للفصاحة من وجه آخر.!

وبلاغه أهل البيان إما شعر وإما نثر، ولكن البلاغة النبوية برئت - لأسباب دينية- من الشعر، وخلصت للنثر، فكان نطاقها الأساسي الحديث المنثور. بيد أن أطر هذا الحديث تعددت تبعاً لتعدد مدلوله الاصطلاحي، فكان في كمه وكيفه مغنياً برائع نثره عن جمال الشعر وسحره.

ولابد أن ننبه هنا إلى ضرب من التشابه آنسناه بين مصطلحات المحدثين وما

نود أن نقترحه من مصطلحات أدبية تعيننا على إماطة اللثام عن وجوه البلاغة النبوية. فالنثر البياني النبوي هو ما يسمى عند المحدثين «بالحديث» و«السنة» على مذهب من يقول بترادف هذين اللفظين[١] وهو على كل حال إما حديث شفوى، وإما خطبة مرتجلة وإما كتاب مدون. وحتى على الرأي القائل بانتفاء الترادف بين ذينك المصطلحين، ليس ضرورياً حصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث» بوجه خاص، ابتغاء التأكيد أنه وحده يشتمل على فنون قولية، مرتجلة أو مكتوبة، لأنا لو تناسينا موارد التسمية الاصطلاحية فيما عزي إلى النبي ﷺ من روايات لوجدناها جميعاً ترتد إلى «الأخبار»[٢] ونحن في بحثنا بلاغة الرسول ندور حول محور واحد: هو ما نقل من قول الرسول وأيدته أعماله.

وإنما ألححنا كرة أخرى على المادة القولية، لأنها تشتمل على الصياغة الأدبية اشتمالها على الفكرة التي أراد الرسول بيانها. لكنا- من غير أن نخوض في النزاع بين الشكل والمحتوى - لا يسعنا أن نحصر بحثنا- ولو بلاغياً- في المادة القولية، إذ نحتاج إلى المحتوى الفكري الذي حكى عن الرسول مستلهماً من قوله وفعله وسيرته المطهرة، وإن لم يثبت أنه نطق بالذات بما رووا من ألفاظه وتراكيبه.

والحق أن موضوع «الحديث» لا يغاير موضوع «السنة»، وبالرغم من أن كلا منهما أطلق في كثير من المواطن على غير ما أطلق عليه الآخر، وبالرغم من أن رد لفظيهما إلى أصولهما التاريخية يؤكد وجود بعض الفروق الدقيقة بينهما لغة واصطلاحاً[٣] نستنتج من الرأي السائد بين المحدثين، ولا سيما المتأخرين منهم، أن لا مانع من وضع أحدهما مكان الآخر، ففي كل منهما إضافة قول أو فعل أو تقرير أو صفة إلى النبي الكريم ﷺ[٤].

---

(١) انظر الملل والنحل للشهرستاني، هامش الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم (ج١ ص ٦٤).

(٢) كليات أبي البقاء (ص١٥٢).

(٣) قارن بكتابنا علوم الحديث ومصطلحه (ص٩) الطبعة الخامسة (دار العلم للملايين- بيروت).

(٤) المرجع السابق (ص٣).

على أنا- وإن لم نحصر نطاق دراستنا البلاغية فيما أطلق عليه لفظ «الحديث»- نؤثر أن نلتزم غالباً في جونا الأدبي هذا اللفظ الأشيع أدبياً، حتى نفيء إلى ظلاله الموحية، إذ لو استخدمنا لفظ «السنة» عوضاً عن لفظ «الحديث» لاصطبغ بحثنا- عن غير قصد منا- بلون فقهي أو شرعي، أبعد ما يكون عما تصدينا لإبرازه من أدب الرسول.

وإن ذلك ليملي علينا- فيما نستشهد به من نصوص وأمثلة- أن نعرض الأحكام الشرعية التي قد نضطر إلى شرحها عرضاً موجزاً لا نفصله إلا بالقدر الضروري لإلقاء الضوء على أصل الفكرة، باعتبار هذا الأصل أحد العنصرين المقومين لكل عمل أدبي، ولكل فن قولي، ولكي يصح هذا الاعتبار نحسب القارئ أكثر ارتياحاً إذا عبرنا له «ببلاغة الحديث» لا «بأدب السنة» وكذلك إذا عبرنا له «ببلاغة الحديث» لا «ببلاغة السنة». ومع ذلك عنونا بحثنا «البلاغة النبوية» لا «أدب الحديث». وإن هذه التسمية لتشي بشيء آخر: وهو أن الأدب الخلقي الاجتماعي الذي حفل به الحديث حتى عنونت به بعض المصنفات- قد يظن أنه ما نرمي إلى تبيانه بوجه عام، مع أن مرادنا محصور في الجانب الفني تصويراً وتعبيراً لا الجانب الاجتماعي فضيلة وخلقاً.

وذلك لا يمنع أمرين: أحدهما أنا بعد هذا الاحتراز- قد نستعمل- إن شئنا- عبارة «الأدب النبوي» أو «أدب الحديث» ما دام السياق يعين أن الغرض بياني أو بلاغي محض. والآخر أنا بعد هذا الاحتراز أيضاً قد نبرز ما يطيب لنا إبرازه من شمائل الرسول ومكارمه، لا على أنها دراسة تفصيلية لفلسفته الخلقية بل على أنها أنماط من نظرته إلى جانب من جوانب الحياة، وتلك النظرة تشكل حينئذ جزءا لا يتجزأ من عنصر الفكرة في العمل البياني الرفيع.

نخلص من ذلك كله إلى أن قطب دراستنا هو الحديث المنثور الذي يشمل فنون الأدب النبوي مرتجلة ومكتوبة، كأنها انعكاسات لصوت الرسول على شريط مسجل، إذ ارتسمت فيها حركات روحه وخفقات قلبه، وتجلت عليها أصالة تفكيره، وألوان تصويره، ونغمات تعبيره.

ولكي نظل في نطاق هذا الحديث المنثور مفترضين أنه غالباً نتاج الرسول الأدبي فكرة وأسلوباً، ينبغي لنا- اصطلاحاً- أن نشترط في الحديث الذي ندرسه أن يكون مرفوعاً بوجه صريح. والمشهور في المرفوع أنه ما أضيف إلى النبي ﷺ خاصة من قول أو فعل أو تقرير، سواء أأضافه إليه صحابي أم تابعي أم من بعدهما، وسواء اتصل إسناده أم لا[١].

ومن الواضح أنا - بتعريف المرفوع على هذا النحو - إنما لاحظنا انتهاء متن الحديث إلى النبي الكريم بقطع النظر عن إسناده متصلاً أو غير متصل، محكوماً بصحته أو ضعفه: ذلك بأن القول والفعل والتقرير صالحة لأن تسمى «متن الحديث» من غير التفات إلى حال إسنادها حين ينظر إليها لذاتها[٢].

ومن الواضح أيضاً أنا- باشتراطنا المرفوع «الصريح»- احترزنا عن المرفوع حكما إلى النبي من قول أو فعل أو تقرير، وهو الذي يقال له «ما في حكم المرفوع»[٣]، لأن أمثلته وتعريفاته ترد إلى «الموقوف» الذي ينتهي متنه إلى الصحابي لا إلى الرسول، ومثله إذا قبل في الأحكام الشرعية فلفرط حاجتنا إلى الاحتجاج بالسنة العملية التي حكيت سنداً عن الرسول وإن كانت متناً من ألفاظ الصحابي[٤].

وحصر الحديث المنثور في نطاق «الرفع الصريح» يظل «احتمالياً، أو «افتراضياً» لا يلحظ فيه- كما أوضحنا- إلا انتهاء متنه غالباً إلى النبي، وذلك لا يكفي للاستيقان من صحته سنداً، بل ولا متنا، وذلك لا يكفي أيضاً- من زاوية أخرى- لإدارة بحثنا التحليلي الأدبي حول فكرته وأسلوبه، وألفاظه وتراكيبه، فلنخط خطوة أخرى، ولنضف إلى شرط الرفع شرط الاتصال، ليكون كل واحد من رواة الحديث سمعه ممن فوقه حتى انتهى ذلك إلى آخره وحينئذ نسمي الحديث

(١) توضيح الأفكار (الصنعاني) (١/ ٢٥٤) وقارن بشرح النخبة «لابن حجر» (٢٦).
(٢) قارن بكتابنا «علوم الحديث» (٢١٧).
(٣) شرح النخبة (٢٧- ٢٨).
(٤) قارن بتوضيح الأفكار (١/ ٢٦٢).

مسنداً.

لكن المسند - رغم غلبة استعماله في المرفوع المتصل، على الأرجح - لا يجعل منه مجرد إسناده حديثاً «صحيحاً»: لأن المسند- ومثله المرفوع والمتصل- مصطلحات مشتركة بين الصحيح والحسن والضعيف فلابد- ليكون الحديث «المسند» الذي ندرسه مقبولاً- من أن يكون على الأقل «حسنا» ونفضل عليه ما يكون «صحيحاً»، ولو «آحادياً» أما ما اصطلح على تسميته «بالضعيف» فلا مكان له في دراستنا، لأن المفروض في مثله أنه مردود وأنه لم يرد إلا لغلبة الظن بأنه ليس من كلام النبيﷺ ، ونحن إنما نتناول بدراستنا الأدبية التحليلية ما رجحنا أنه تعبير النبي أو ما يمكن أن يكون نظيره صادراً عن النبي الكريم. وإلا فكيف نتقصى خصائص البلاغة النبوية من ألفاظ وتراكيب لم نكد نستيقن من صحة عزوها إلى أفصح من نطاق بالضاد!

* * *

١٩ مقالات

د. تقي الدين الهلالي

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- أهل الحديث (١)

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٢- أهل الحديث (٢)

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠) ، مايو (١٩٧١م).

٣- أهل الحديث (٣)

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م.)

٤- أهل الحديث (٤)

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) ديسمبر (١٩٧١م).

ترجمة الشيخ

د. تقي الدين الهلالي

● **مولده ونشأته:**



ولد المحدث اللغوي والأديب الشاعر تقي الدين الهلالي سنة **١٣١١** هـ بقرية الفرخ من بوادي مدينة سجلماسة في المملكة المغربية، وقد ترعرع في أسرة علم وفقه، فقد كان والده وجده من فقهاء المغرب.

قرأ القرآن على والده وحفظه، ولازم الشيخ التندغي الشنقيطي وقرأ عليه علوم اللغة العربية والفقه المالكي إلى أن أصبح الشيخ ينيبه عنه في غيابه.

طلب رحمه الله علم الحديث فسافر إلى الهند لينال بغيته، فالتقى بالعديد من العلماء منهم العلامة المباركفوري صاحب «تحفة الأحوذي» الذي أجازه، ثم سافر إلى البصرة حيث التقى بالعلامة محمد الأمين الشنقيطي، وهو غير العلامة المفسر صاحب «أضواء البيان»، ثم سافر إلى مصر ليلتقي محمد رشيد رضا حيث أعطاه توصية للملك عبد العزيز الذي أكرم ضيافته، وعينه مراقبا للتدريس في المسجد النبوي وبقي بالمدينة سنتين ثم نقل إلى المسجد الحرام والمعهد العلمي السعودي بمكة.

ثم سافر إلى برلين ليحصل منها على رسالة الدكتوراه.

عين مدرسا بجامعة محمد الخامس بالرباط سنة **١٩٦٨**م، ثم أستاذاً بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة منتدباً من المغرب، وبقي بها حتى سنة **١٩٧٤**م حيث ترك الجامعة وعاد إلى مدينة مكناس بالمغرب للتفرغ للدعوة، ومن مؤلفاته: «الزند الواري شرح البخاري، الإلهام والإنعام في تفسير الأنعام، الحسام الماحق لكل مشرك ومنافق، أسماء الله الحسنى».

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في ٢٥ شوال ١٤٠٧هـ - ٢٢ يونيو ١٩٨٧م. بمنزله في مدينة الدار البيضاء ودفن بالسباتة. وقد شيع جنازته جمع غفير من الناس يتقدمهم علماء ومثقفون وسياسيون.

أهل الحديث (١)

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م)

ندبني الأستاذ رئيس تحرير مجلة «الوعي الإسلامي» إلى المشاركة في تحرير مقالات هذه المجلة المباركة، التي أسست لإيقاظ المسلمين، ونشر الوعي في نفوسهم ليزدادوا تبصرا، واستنارة في أمر دينهم ودنياهم، ويعيدوا للإسلام عزته ومجده، ففكرت في الموضوع الذي أطرق بابه، فبدا لي موضوع شريف يهم كل قارئ من المسلمين، وكل طالب علم من المحصلين، ألا وهو معرفة أهل الحديث، نضر الله وجوههم، فإنه موضوع مع شرفه وفضله قل من يشتغل به في هذا الزمان، وإذا علمنا أن حديث النبي ﷺ هو خير الكلام بعد كلام الله تعالى، ولا يمكن تدبر الكتاب العزيز ومعرفة معانيه إلا بالعلم بأحاديث نبيه الكريم، لقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (النحل: ٤٤).

فالتفكر والتدبر للقرآن متوقفان على بيان الرسول ﷺ، والحديث هو الأصل الثاني من أصول الإسلام التي عليها تقوم الشريعة، وبها تستنبط الأحكام، روى مالك في الموطأ عن النبي ﷺ قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله».

قال مؤلف تنقيح الرواة في تخريج أحاديث المشكاة: سنده هذا المرسل بحديث «أصدق الحديث كتاب الله، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ» من رواية معقل بن يسار عند الحاكم بإسناد حسن. وأيضا له شاهد عن ابن عباس يرفعه عند الحاكم والبيهقي «إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدا، كتاب الله وسنة نبيه..» الحديث، وقال الحاكم: صحيح الإسناد، ا.هـ.

وفضائل علم الحديث كثيرة، والمراد هنا ذكر نبذة في فضل أهل الحديث،

قبل ذكر تراجم أهل الحديث من الصحابة والتابعين، والأئمة المجتهدين فمن بعدهم.

قال أستاذي العالم الرباني عبدالرحمن بن عبدالرحيم المباركفوري المتوفى سنة ١٣٥٣هـ في مقدمة كتابه «تحفة الأحوذي شرح جامع الترمذي» ص ٦ ما نصه: وقد ورد في فضيلة علم الحديث وأهله أحاديث كثيرة، وأنا أقتصر هنا على ذكر خمسة أحاديث.

الأول: روى الترمذي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ «أولى الناس بي يوم القيامة أكثرهم عليَّ صلاة». وقال: هذا حديث حسن غريب. قال القاري في المرقاة شرح المشكاة: ورواه ابن حبان في صحيحه، ذكره ميرك. والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

قال ابن حبان عقب الحديث: في الخبر بيان صحيح على أن أولى الناس برسول الله ﷺ في القيامة يكون أصحاب الحديث، إذ ليس في هذه الأمة قوم أكثر صلاة عليه منهم، وقال غيره: لأنهم يصلون عليه قولاً وفعلاً.

وقال الخطيب في كتابه «شرف أصحاب الحديث»: قال لنا أبو نعيم: هذه منقبة شريفة تختص بها رواة الآثار ونقلتها، لأنه لا يعرف لعصابة من العلماء من الصلاة على رسول الله ﷺ أكثر ما يعرف لهذه العصابة نسخا وذكرا.

وقال أبواليمن بن عساكر: ليهن أهل الحديث هذه البشرى، فقد أتم الله تعالى نعمه عليهم بهذه الفضيلة الكبرى، فإنهم أولى الناس بنبيهم وأقربهم- إن شاء الله تعالى- وسيلة يوم القيامة إلى رسول الله ﷺ، فإنهم يخلدون ذكره في طروسهم، ويجددون الصلاة والتسليم عليه في معظم الأوقات في مجالس مذاكرتهم ودروسهم، فهم - إن شاء الله تعالى - الفرقة الناجية، جعلنا الله منهم وحشرنا في زمرتهم.

الحديث الثاني: روى الترمذي عن ابن مسعود قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «نضر الله امرءا سمع منا شيئا، فبلغه كما سمعه، فرب مبلغ أوعى من سامع»، وقال هذا حديث حسن صحيح.

وفي الباب أحاديث أخرى، وقال القاري: خص مبلغ الحديث كما سمعه بهذا الدعاء، لأنه سعى في نضارة العلم، وتجديد السنة، فجازاه بالدعاء بما يناسب حاله، وهذا يدل على شرف الحديث وفضله ودرجة طلابه، حيث خصهم النبي ﷺ بدعاء لم يشرك فيه أحدا من الأمة، ولو لم يكن في طلب الحديث وحفظه وتبليغه فائدة سوى أن يستفيد بركة هذه الدعوة المباركة لكفى ذلك فائدة وغنما، وجعل في الدارين حظا وقسما.

وقال القاضي أبو بكر بن العربي: قال علماء الحديث ما من رجل يطلب الحديث إلا كان على وجهه نضرة لقول النبي ﷺ «نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها، فأداها كما سمعها...» الحديث.

قال: وهذا دعاء منه - عليه السلام - لحملة علمه، ولابد بفضل الله تعالى من نيل بركته ا.هـ.

وإلى هذه النضرة أشار أبو العباس العزفي بقوله:

أهل الحديث عصابة الحق ... فازوا بدعوة سيد الخلق
فوجوههم زهر منضرة ... لألاؤها كتألق البرق
يا ليتني معهم فيدركني ... ما أدركوه بها من السبق

الحديث الثالث: روى الطبراني في الأوسط عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم خلفائي، قلنا يا رسول الله ومن خلفاؤك؟ قال: الذين يروون أحاديثي، ويعلمونها الناس».

قال القسطلاني في إرشاد الساري بعد ذكر هذا الحديث: ولا ريب أن أداء السنن إلى المسلمين نصيحة لهم من وظائف الأنبياء، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، فمن قام بذلك كان خليفة لمن يبلغ عنه، وكما لا يليق بالأنبياء عليهم السلام أن يهملوا أعاديهم ولا ينصحوهم، كذلك لا يحسن لطالب الحديث وناقل السنن أن يمنحها صديقه، ويمنعها عدوه، فعلى العالم بالسنة أن يجعل أكبر همه نشر الحديث، فقد أمر النبي ﷺ بالتبليغ عنه، حيث قال: «بلغوا عني ولو آية...» الحديث، رواه البخاري.

قال المظهري: أي بلغوا عني أحاديثي، ولو كانت قليلة، قال البيضاوي: قال ولو آية، ولم يقل ولو حديثا، لأن الأمر بتبليغ الحديث يفهم منه بطريق الأولوية، فإن الآيات مع انتشارها وكثرة حفظتها تكفل الله تعالى بحفظها وصونها عن الضياع والتحريف.

وقال مالك رحمه الله تعالى: بلغني أن العلماء يسألون يوم القيامة عن تبليغهم العلم، كما تسأل الأنبياء عليهم الصلاة والسلام.

وقال سفيان الثوري: لا أعلم علما أفضل من علم الحديث، لمن أراد به وجه الله تعالى، إن الناس يحتاجون إليه حتى في طعامهم وشرابهم، فهو أفضل من التطوع بالصلاة والصيام، لأنه فرض كفاية. ا.هـ.

الحديث الرابع: روى البيهقي في المدخل عن إبراهيم بن عبدالرحمن العذري قال: قال رسول الله ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله، ينفون عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين» كذا في المشكاة.

قال القسطلاني بعد ذكره من حديث أسامة بن زيد: وهذا الحديث رواه من الصحابة، علي، وابن عمر، وابن عمرو، وابن مسعود، وابن عباس، وجابر بن سمرة، ومعاذ، وأبو هريرة، وأورده ابن عدي من طرق كثيرة، كلها ضعيفة، كما صرح به الدارقطني، وأبو نعيم، وابن عبدالبر، لكن يمكن أن يتقوى بتعدد طرقه، ويكون حسنا كما جزم به العلائي، وفيه تخصيص حملة السنة بهذه المنقبة العلية، وتعظيم لهذه الأمة المحمدية، وبيان لجلالة قدر المحدثين، وعلو مرتبتهم في العالمين، لأنهم يحمون مشارع الشريعة ومتون الروايات من تحريف الغالين، وتأويل الجاهلين، بنقل النصوص المحكمة لرد المتشابه إليها.

وقال النووي في أول تهذيبه: هذا إخبار منه ﷺ بصيانة هذا العلم وحفظه، وعدالة ناقليه، وأن الله تعالى يوفق له في كل عصر خلفاء من العدول يحملونه، وينفون عنه التحريف، فلا يضيع، وهذا تصريح بعدالة حامليه في كل عصر، وهكذا وقع ولله الحمد، وهو من أعلام النبوة، ولا يضر كون بعض الفساق يعرف شيئا من علم الحديث، فإن الحديث إنما هو إخبار بأن العدول يحملونه، لا أن

غيرهم لا يعرف منه شيئا.

على أنه قد يقال ما يعرفه الفساق من العلم ليس بعلم حقيقة، لعدم عملهم، كما أشار إليه سعد الدين التفتازاني في تقرير قول التخليص: وقد ينزل العالم بمنزلة الجاهل، وصرح به الشافعي: ولا علم إلا مع التقى، ولا عقل إلا مع الأدب، ونظمته فقلت من بحر الطويل:

ولا خير في علم إذا لم يكن تقى ... ولا خير في عقل إذا لم يكن أدب

ولعمري، إن هذا الشأن من أقوى أركان الدين، وأوثق عرى اليقين، لا يرغب في نشره إلا صادق تقي، ولا يزهد فيه إلا كل منافق شقي.

قال ابن القطان: ليس في الدنيا مبتدع إلا وهو يبغض أهل الحديث، وقال الحاكم: لولا كثرة طائفة المحدثين على حفظ الأسانيد لدرس منار الإسلام، ولتمكن أهل الإلحاد والمبتدعين من وضع الأحاديث وقلب الأسانيد. ا.هـ

وأقتصر على هذا في ذكر أقوال أهل العلم في فضائل أهل الحديث نثرا، وأما النظم فمن أجمل ما قيل في ذلك ما أنشده القسطلاني في مقدمة شرحه لصحيح البخاري لأبي بكر حميد القرطبي الأندلسي رحمه الله:

نور الحديث مبين فادن واقتبس ... واحد الركاب له نحو الرضا الندس
واطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت ... أعلامه برباها يا بن أندلس
فلا تضع في سوى تقييد شارده ... عمرا يفوتك بين اللحظ والنفس
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل ... شغل اللبيب بها ضرب من الهوس

إلى أن قال

واقفُ النبي وأتباع النبي وكن ... من هديهم أبدا تدنو إلى قبس
والزم مجالسهم واحفظ مُجالسهم ... واندب مدارسهم بالأربع الدرس
واسلك طريقهم والزم فريقهم ... تكن رفيقهم في حضرة القدس
تلك السعادة إن تلمم بساحتها ... فحط رحلك قد عوفيت من تعس

وقد اقترح علي العالم السلفي محمد حسين الفقي الحجازي الجدي سنة ١٣٤١هـ حين حججت أول حجة تخميس هذه القصيدة، وكنت مشغول البال

بالاهتمام بالسفر إلى الهند في طلب علم الحديث، فلما وصلت إلى دلهي عاصمة الهند، واستقررت فيها، استجابت القريحة لطلب العالم المذكور فنظمت تخميسها ونشرته في دلهي مع قصائد أخرى سميتها «الهدايات» وقد نقله بتمامه أستاذنا الأحوذي، المتقدم ذكره، مصدرا له بقوله: وقال بعض الأعلام، أثبته هنا إلا بيتا واحداً، وهذا نص التخميس.

إن كنت تطلب علما جد ملتمس   وحرت إذ غم عنك الرطب باليبس
فاسمع لنصح لبيب أي محترس
نور الحديث مبين فادن واقتبس   واحد الركاب له نحو الرضا الندس
واقطع علائق من تحصيله منعت   تنظر شموس الهدى في الأفق قد طلعت
وحجب غي ترى عن قلبك ارتفعت
فاطلبه بالصين فهو العلم إن رفعت   أعلامه برباها يا بن أندلس
ولازم الدرس واغنم من فوائده   لا تقنع الدهر من حلوى موائده
واشرب فديتك علا من موارده
ولا تضع في سوى تقييد شارده   عمرا يفوتك بين اللحظ والنفس
دع الكلام فما فيه سوى الخطل   وانبذ مجالسه تحفظ من العلل
فذاك شر ابتداع جاء بالخلل
وخل سمعك عن بلوى أخي جدل   شغل اللبيب بها ضرب من الهوس
الله يعلم كم سيق من ضرر   للناس من أجله في البدو والحضر
أقبح بها بدعة تدني إلى سقر!

إلى أن قلت:

ورد بقلبك عذبا من حياضهما   تغسل بماء الهدى ما فيه من دنس
شد الرحال إليهم كي تجالسهم   واحذر فديتك يوماً أن تعاكسهم
لا تحسدنهم ولكن كن منافسهم
والزم مُجالسهم واحفظ مجالسهم   واندب مدارسهم بالأربع الدرس

واطلب مودتهم وكن صديقهم وكن مجالسهم تشرب رحيقهم
وقرهم كلهم واعرف حقوقهم
واسلك طريقهم واتبع فريقهم تكن رفيقهم في حضرة القدس
هي الشريعة فانظر في سماحتها كفيلة للنفوس باستراحتها
في حظرها حكمة وفي إباحتها
تلك السعادة أن تلمم بساحتها فحط رحلك قد عوفيت من تعس

* * * *

أهل الحديث (٢)

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

وسمت هذه السلسة التي نسأل الله إتمامها على أحسن وجه بأهل الحديث وجعلت الحلقة الأولى في ذكر نبذة وجيزة في فضل أهل الحديث على أن تليها تراجم أهل الحديث وذكر أخبارهم التي ينشرح لها صدر كل مؤمن وكل طالب علم منصف، فمن هو أول أهل الحديث وأحقهم بالتقدم؟

الجواب: هو أول المسلمين من هذه الأمة وسيد ولد آدم أجمعين محمد رسول الله ﷺ الذي فتح له الله فتحاً مبيناً، ونصره نصراً عزيزاً، وأرسله مبشراً ونذيرا، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعل النصر والعزة مقرونين برايته ورايات من اتبعه إلى الأبد، وجعل الذلة، والصغار، حليفين لمن خالف أمره ونبذ ما جاء به وراء ظهره. وإن كان كالرمل في العدد، قال تعالى في سورة المؤمن (غافر) رقم (٥١، ٥٢) ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ والظالمون المتعذرون يوم القيامة هم الذين عارضوا دعوته وسلكوا سبيلاً غير سبيلها وتولوا فريقاً غير فريقها قال تعالى في أول سورة النمل .﴿طسٓ ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْقُرْءَانِ وَكِتَابٍ مُّبِينٍ ﴿١﴾ هُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُم بِٱلْءَاخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ ﴿٣﴾﴾ .

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ فَهُمْ يَعْمَهُونَ ﴿٤﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ وَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ هُمُ ٱلْأَخْسَرُونَ ﴿٥﴾﴾ (النمل: ١-٥). ولما كان نسبه الشريف، وسيرته الكريمة، وغزواته المظفرة مشهورة ومعلومة عند القراء ومراجعتها سهلة في كل وقت أردت أن أذكر بدلها براهين صدق دعوته، وكمال رسالته، وإتمام

نعمة الله عليه وعلى من اتبعه إلى يوم القيامة، فإن كثيرا من الأغمار الجاهلين بهذه الدعوة ظنوا أن ما وعد الله لها من النصر والعلو خاص بزمان دون زمان، ومكان دون مكان، وقوم دون آخرين. وأول ما ابتدي به حديث ابن عباس الذي أخرجه البخاري في صحيحه بإسناد كالشمس ليس دونها غمام وهو مما شهد به أبو سفيان بن حرب مما شاهده قبل إسلامه من الآيات.

ومليحة شهدت لها ضراتها والفضل ما شهدت به الأعداء

فإن هذا الحديث مبني على أدق قواعد الجدل وموزون بالقسطاس المستقيم، يجله الباحثون، ويجهله السفهاء الجاهلون قال البخاري رَحِمَهُ ٱللَّهُ: «حدثنا أبو اليمان الحكم بن نافع قال: أخبرنا شعيب عن الزهري قال: أخبرني عبيد الله ابن عبد الله بن عتبة بن مسعود أن عبد الله بن عباس أخبره أن أبا سفيان بن حرب أخبره أن هرقل أرسل إليه في ركب من قريش وكانوا تجاراً بالشام في المدة التي كان رسول الله ﷺ مادَّ فيها أبا سفيان وكفار قريش فأتوه وهم بإيلياء فدعاهم في مجلسه وحوله عظماء الروم ثم دعاهم ودعا بترجمانه فقال: أيكم أقرب نسباً بهذا الرجل الذي يزعم أنه نبي؟ فقال: أبو سفيان فقلت: أنا أقربهم نسباً فقال: أدنوه مني وقربوا أصحابه فاجعلوهم عند ظهره، ثم قال لترجمانه قل لهم إني سائل هذا عن هذا الرجل فإن كذبني فكذبوه.. فوالله لولا الحياء من أن يأثروا علي كذباً لكذبت عنه، ثم كان أول ما سألني عنه أن قال: كيف نسبه فيكم، قلت هو فينا ذو نسب، قال: فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ قلت: لا، قال: فهل كان من آبائه من ملك؟ قلت: لا، قال: فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ فقلت: بل ضعفاؤهم، قال: أيزيدون أم ينقصون؟ قلت: بل يزيدون. قال: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه؟ قلت: لا، قال: فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟ قلت: لا، قال: فهل يغدر؟ قلت: لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال: ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة قال: فهل قاتلتموه؟ قلت: نعم، قال: فكيف كان قتالكم إياه؟ قلت: الحرب بيننا وبينه سجال، ينال منا وننال منه. قال: ماذا يأمركم؟ قلت يقول: اعبدوا الله

وحده ولا تشركوا به شيئاً، واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة والصدق والعفاف والصلة، فقال للترجمان: قل له: سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها، وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله، لقلت رجل يأتسي بقول قيل قبله، وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه، وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله، وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون، وكذلك أمر الإيمان حتى يتم، وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر، وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وينهاكم عن عبادة الأوثان، ويأمركم بالصلاة، والصدق، والعفاف، فإن كان ما تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين، وقد كنت أعلم أنه خارج لم أكن أظنه أنه منكم فلو أني أعلم أني أخلص إليه لتجشمت لقاءه، ولو كنت عنده لغسلت عن قدمه، ثم دعا بكتاب رسول الله ﷺ الذي بعث به دحية إلى عظيم بصرى فدفعه إلى هرقل فقرأه فإذا فيه: بسم الله الرحمن الرحيم- من محمد عبدالله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى أما بعد: فإني أدعوك بدعاية الإسلام. أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين فإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين، ويا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله، فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون. قال أبو سفيان فلما قال ما قال وفرغ من قراءة الكتاب كثر عنده الصخب وارتفعت الأصوات وأخرجنا، فقلت لأصحابي حين أخرجنا، لقد أمر أمر ابن أبي كبشة، إنه يخافه ملك بني الأصفر فما زلت موقناً أنه سيظهر حتى أدخل الله علي الإسلام».

في هذا الحديث مباحث:

الأول:

هو حديث صحيح أخرجه البخاري في عشرة مواضع من صحيحه قاله الكرماني، وقاله الحافظ في الفتح، فرواية صالح وهو ابن كيسان أخرجها المؤلف في كتاب الجهاد بتمامها من طريق إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن ابن عباس وفيها من الفوائد الزوائد ما أشرت إليه في أثناء الكلام على هذا الحديث من قبل، ولكنه انتهى حديثه عند قول أبي سفيان حتى أدخل الله علي الإسلام، زاد هنا «وأنا كاره»، ولم يذكر قصة ابن الناطور، وكذا أخرجه مسلم بدونها من حديث إبراهيم المذكور ورواية يونس أيضاً عن الزهري بهذا الإسناد أخرجها المؤلف في الجهاد مختصرة من طريق الليث وفي الاستئذان مختصرة أيضاً من طريق ابن المبارك، كلاهما عن يونس عن الزهري بسنده بعينه ولم يسقه بتمامه، وقد ساقه بتمامه الطبراني من طريق عبد الله بن صالح عن الليث وذكر فيه قصة ابن الناطور، ورواية معمر الزهري كذلك ساقها المؤلف بتمامها في التفسير اهـ. وقد تبين لك أيها القارئ الكريم أن إسناد هذا الحديث في غاية الصحة، اتفق على روايته البخاري ومسلم، ولما كنت في برلين سنة ١٩٤١م كنت أطالع كتاباً لأحد السويديين المتعصبين ألفه باللغة الجرمانية وذكر فيه هذا الحديث فكذب به واستبعده، وقال كلاماً قبيحاً لا أستطيع حكايته بتمامه، وسبب تكذيبه الحقيقي هو شدة بغضه للإسلام ونظره إليه بعين السخط التي تبدي المساوي.

أما السبب الذي أظهره فهو أن هرقل في الوقت الذي وصله كتاب النبي ﷺ كان على أشد ما يكون من القوة، وكان يستعد لغزو كسرى عظيم الفرس، فكيف يخاف هذا الرجل البدوي.. وهذا كلام من أعمى الله بصيرته، وطبع التعصب على قلبه، فليس في الحديث أن هرقل خاف أن يغزوه بعينه، ولكنه علم بما عنده من العلم بالكتب السماوية من ظهور خاتم النبيين، ولوفور عقله بعدما سمع صفات النبي ﷺ علم أنه حق أرسله الله ليظهره على الدين كله، وينسخ به الأديان

المحرفة السابقة، ونتيجة ذلك الحتمية خروج الروم من بلاد العرب وكذلك وقع، ولما وصلت في القراءة إلى ذلك الكلام القبيح غضبت وألقيت الكتاب على الأرض، وكانت عندي كاتبة جرمانية فنظرت إلي نظرة استنكار وكأنها تقول هب أن المؤلف تعسف وعدل عن الحق فما ذنب الكتاب؟ فأخذت الكتاب وفتحته وقلت لها اقرئي، فلما فرغت من قراءة ذلك الكلام عذرتني فيما فعلت، إما مداراة وهو الظاهر أو اقتناعاً بما فعلته أنه صواب.

- **البحث الثاني في سرد البراهين العقلية التي استدل بها هرقل على صدق النبي ﷺ:**

البرهان الأول:

المدة التي ماد فيها النبي ﷺ أبا سفيان بن حرب هي صلح الحديبية وما بعده إلى أن نقضت قريش العهد فغزاهم النبي ﷺ وتم فتح مكة، واختيار هرقل لأقربهم نسباً لا يخلو من حكمة. فإن القريب سواء أكان صديقاً أم عدواً يعرف من أخبار قريبه ما لا يعرفه البعيد. وكذلك أمره أن يجعل أصحابه من ورائه وأن يكذبوه إن كذب، فإن هرقل كان يعلم أن العرب حتى في جاهليتها وخصوصاً أشرافها يستقبحون الكذب ولا يرضون به أن يؤثر عنهم، وقد صرح أبو سفيان لشدة عدواته للنبي ﷺ أنه لم يمنعه من الكذب إلا الخوف من أن يحدث أصحابه أهل مكة إذا رجعوا إليهم أنه كذب، وهذا البرهان هو سؤال هرقل عن نسب هذا الرجل الذي يدعي أنه نبي أهو شريف أم وضيع، فأخبره أبو سفيان أن نسبه شريف، وإنما سأل هرقل هذا السؤال علماً منه بأن الله أرحم بعباده من أن يبعث رسولاً ذا نسب وضيع في قوم. ويكلفهم اتباعه وطاعته لأن النفوس تنفر من ذلك كل النفور، ولذلك نرى الملوك دائماً من ذوي الأنساب الشريفة بخلاف الفقر فإنه لا يضر النسيب الحسيب كما قال الشاعر:

ولا ترى فِيَ غير الصرم منقصة ... وما سواه فإن الله يكفيني

قال الله تعالى في قصة طالوت من سورة البقرة رقم ٢٤٧ ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًاۚ قَالُوٓاْ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ ٱلْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِٱلْمُلْكِ

مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ ٱلْمَالِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُۥ بَسْطَةً فِى ٱلْعِلْمِ وَٱلْجِسْمِ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٧﴾ اهـ. ولم نر رسولاً أرسله الله من أهل بيت وضيع، محتقر في قومه وبهذا احتج المهاجرون على الأنصار حين قالوا، منا أمير ومنكم أمير فقال المهاجرون: إن العرب لا تذعن إلا لهذا الحي من قريش، ولذلك كانت الإمامة في قريش بنص الحديث الصحيح، ولم يخف هذا على هرقل فقال للترجمان: قل له سألتك عن نسبه فذكرت أنه فيكم ذو نسب فكذلك الرسل تبعث في نسب قومها.

البرهان الثاني:

قال هرقل في سؤاله لأبي سفيان بن حرب فهل قال هذا القول منكم أحد قط قبله؟ فذكرت أن لا، قال هرقل في الأجوبة وسألتك هل قال أحد منكم هذا القول فذكرت أن لا، فقلت لو كان أحد قال هذا القول قبله لقلت رجل يتأسى بقول قيل قبله اهـ.

قال كاتب هذا المقال كل من نظر بإمعان في تاريخ المقالات، والدعوات، والطرائق، والمذاهب يجد أكثرها قد اتبع فيه اللاحق السابق حذوك القذة بالقذة حتى في الأمم التي ينتشر فيها العلم فكيف بأمة أمية! فبذلك سأل هرقل أبا سفيان هل دعا أحد من العرب عموماً، ومن أهل مكة خصوصاً إلى دعوة مماثلة لدعوة هذا الرجل فلم يسع أبا سفيان إلا أن أجاب بالنفي فضم هرقل هذه الحجة إلى سابقتها وأخذت نفسه تميل إلى تصديق النبيﷺ استناداً إلى هذه الحجج المنطقية التي هي الغاية في الدقة والاستقصاء.

البرهان الثالث:

قال هرقل لأبي سفيان فهل كان من آبائه من ملك؟ قال أبوسفيان، لا، قال له هرقل: وسألتك هل كان من آبائه من ملك فذكرت أن لا، قلت: فلو كان من آبائه من ملك قلت رجل يطلب ملك أبيه. اهـ.

ولا يخفى أن من أعظم الحوافز والدوافع للدعوات أن يقصد الرجل بها استرداد ملك أبيه أو إمارته أو رئاسته، أو مشيخته، والأمثلة في التاريخ كثيرة،

وفي الزمان الحاضر أيضاً، وهذا من طبيعة البشر التي لا يكادون ينفكون عنها في كل زمان ومكان، حتى أهل الثروة إذا ورثوها عن آبائهم يرون أنفسهم، أهلاً لها، وإذا رأوا رجلاً غنياً حديث الثروة احتقروه وذموه واستكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا، حتى أن الأقرع، والأبرص، الواردين في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري حين جاء الملك ليختبر شكرهما وذكرهما بما كانا عليه من القرع، والبرص مع الفقر، قال كل واحد منهما كاذب إنما ورثت هذا المال كابراً عن كابر فعاقبهما الله وردهما إلى ما كانا عليه من العاهة، والفقر وهذا يدل على دقة نظر، وعلم بأحوال البشر.

البرهان الرابع:

قوله فأشراف الناس يتبعونه أم ضعفاؤهم؟ قال أبو سفيان بل ضعفاؤهم، قال هرقل وسألتك أشراف الناس اتبعوه أم ضعفاؤهم، فذكرت أن ضعفاءهم اتبعوه وهم أتباع الرسل.

قال محمد تقي الدين كاتب هذا المقال: كل من درس الدعوات والمبادئ يرى أن الطبقة الفقيرة تكون مهضومة الحق، مظلومة، مستعبدة، موطوءة بالأقدام، فهم يتربصون الدوائر بظالميهم ومستعبديهم ليتخلصوا من نير ظلمهم، ويفكوا من أسرهم، فمتى رأوا دعوة إلى تأسيس حكم جديد بادروا إلى الاستجابة راجين أن يكون خلاصهم على يد صاحب تلك الدعوة، وبرهان هذا في كتاب الله ﷻ قال تعالى في سورة هود رقم ٢٧: ﴿فَقَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦ مَا نَرَىٰكَ إِلَّا بَشَرًا مِّثْلَنَا وَمَا نَرَىٰكَ ٱتَّبَعَكَ إِلَّا ٱلَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِىَ ٱلرَّأْىِ وَمَا نَرَىٰ لَكُمْ عَلَيْنَا مِن فَضْلٍۭ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٢٧﴾﴾.

وقال تعالى في سورة الأنعام رقم ٥٢ ﴿وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾.

قال ابن كثير في تفسير هذه الآية قال الإمام أحمد بسنده إلى ابن مسعود قال: «مر الملأ من قريش برسول الله ﷺ وعنده صهيب، وبلال وعمار، وخباب،

وغيرهم من ضعفاء المسلمين وفيه فقالوا: يا محمد أرضيت بهؤلاء من قومك، أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا ونحن نصير تبعاً لهؤلاء؟! اطردهم، فلعلك إن طردتهم نتبعك. . فنزلت الآية». وهذا المعنى مذكور في مواضع من كتاب الله سبحانه. أ.هـ. ودعاة الشيوعية في هذا الزمان ينادونهم بلغاتهم العجمية بما معناه: «أيها المعدمون في جميع البلدان اتحدوا»، يعنون بذلك أن المعدمين أكثر عداداً من الموسرين، والموسرون يستغلون جهودهم ويعيشون على حسابهم عيشة ترف، وبذخ، مع أن هؤلاء المعدمين لو اتحدت كلمتهم وامتنعوا من العمل لساءت حال الموسرين وصار الأمر بيد المعدمين يتصرفون في الأموال التي هي ثمرة جهودهم ولكن شتان ما بين دعوة الرسل، ودعوة الشيوعيين، فإن الرسل عليهم الصلاة والسلام يعدلون بين الناس ويأخذون للضعيف حقه من القوي، ولكنهم يتركون أمر الغنى والفقر بيد الله، يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر. فدعوتهم تسعد الأغنياء والفقراء ولا تحاول تغيير سنة الله التي قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً. اهـ.

البرهان الخامس:

قال هرقل لأبي سفيان أيزيدون أم ينقصون؟ قال أبو سفيان: بل يزيدون، قال هرقل، وسألتك أيزيدون أم ينقصون فذكرت أنهم يزيدون وكذلك أمر الإيمان حتى يتم. اهـ. أقول كل دعوة كتب لها النجاح. فإن أتباعها يزيدون ولا ينقصون، ومن لم يكن في زيادة فهو في نقصان، وذلك أن المستجيبين للدعوة تتحسن أحوالهم، وأخلاقهم فيراهم نظراؤهم من الأشقياء فيرغبون أن يصيروا مثلهم وبذلك تنتشر الدعوة وتضطرد الزيادة. اهـ.

البرهان السادس:

قال هرقل لأبي سفيان: فهل يرتد أحد منهم سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه قال أبو سفيان: لا، قال هرقل: وسألتك أيرتد أحد سخطة لدينه بعد أن يدخل فيه فذكرت أن لا، وكذلك الإيمان حين تخالط بشاشته القلوب، أقول كل من دخل في دين، أو عقيدة، على علم، وبصيرة، واطلاع تام، يغتبط به ويزداد له حباً على

مر الأيام هذا إذا كان ذلك حقاً. . ففي كل يوم ينكشف للداخل فيه من فضائله ما يزداد به غبطة وابتهاجاً بخلاف العقائد الباطلة المظلمة إذا زخرفها المزخرفون فإن الداخل فيها تنكشف له كل يوم ظلمة جديدة ويبدو له عيب كان خافياً عليه فيسوء ظنه ويرتد عن ذلك الدين، أو العقيدة، أو المذهب، فالإسلام كمال قال الشاعر:

يـزيـدك وجـهـه حـسـنـاً إذا مـا زدتـه نـظـراً

البرهان السابع:

قال هرقل لأبي سفيان فهل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، قال أبوسفيان لا، قال هرقل: وسألتك هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال، فذكرت أن لا، فقد أعرف أنه لم يكن ليذر الكذب على الناس ويكذب على الله. اهـ.

أقول وهذه الحجة من أقوى الحجج العقلية التي لا يرتاب فيها عاقل، لأن الكذب رذيلة يتنزه عنها كل إنسان له شرف ومروءة وقد رأينا أن أبا سفيان بن حرب على كفره وطغيانه ورغبته في محاربة رسول الله ﷺ وبذله في ذلك كل مرتخص وغال لم يرض لنفسه أن يكذب على عدوه أمام هرقل ومن سما بنفسه وضن بشرفه، ومروءته، فامتنع من الكذب على الناس يستحيل أن يسمح لنفسه بالكذب على الله ولما رأى عبد الله بن سلام الحبر الإسرائيلي وجه رسول الله ﷺ قال: فما هو إلا أن رأيته فعلمت أن وجهه ليس بوجه كذاب.اهـ.

البرهان الثامن:

قال هرقل لأبي سفيان فهل يغدر؟ قال أبو سفيان لا، ونحن منه في مدة لا ندري ما هو فاعل فيها، قال ولم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة، قال هرقل وسألتك هل يغدر؟ فذكرت أن لا، وكذلك الرسل لا تغدر. اهـ.

استدل هرقل في جملة ما استدل به على صدق النبي ﷺ بتنزهه عن الغدر، فالملوك، والرؤساء، قد يغدرون إذا وجدوا فرصة في إهلاك عدوهم يخافون أن لا يجدوا مثلها.

أما الرسل عليهم الصلاة والسلام فإنهم منزهون عن الغدر لأن دعوتهم إلى

مكارم الأخلاق تتنافى مع الغدر ولا تجتمع معه البتة ولأن الله ضمن لهم النصر وجعل لهم العاقبة فلا حاجة بهم إلى الغدر لأنهم واثقون بوعد الله كما قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَـٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر: ٥١) وقول أبي سفيان: «فلم تمكني كلمة أدخل فيها شيئاً غير هذه الكلمة» يدلنا على شدة بغضه للنبي وحرصه أن ينتقصه ما استطاع إلى ذلك سبيلا فإن إقراره بهذه الفضائل حجة عليه وعلى كل مخالف. وقوله: «ونحن منه في مدة» أي في معاهدة على الهدنة لا ندري أيفي بما عاهدنا عليه في المستقبل كما فعل في الماضي أم يغدر.

البرهان التاسع:

قال هرقل لأبي سفيان فهل قاتلتموه، قال أبوسفيان نعم، قال فكيف كان قتالكم إياه، قال: الحرب بيننا وبينه سجال ينال منا وننال منه. اهـ.

أقول وهذا شأن رسل الله مع أعدائهم إذا اقتتلوا معهم لأن حكمة الله اقتضت أن يدعو الرسول إلى الإيمان بالله وإقامة دين الله فإذا آمنت به جماعة من الناس قاتل بهم من كفر به ليثبت الأجر للمجاهدين ويعذب الله الكافرين بأيدي المؤمنين كما قال تعالى في سورة التوبة رقم ١٤، ١٥ ﴿قَـٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ ۗ وَيَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٥﴾﴾ ولو أن الله أرسل على الكافرين صواعق فأحرقهم لكان ذلك إجباراً لمن آمن على الإيمان والله لا يجبر الناس على الإيمان لأن المجبر لا يستحق ثواباً وإنما يستحق الثواب من اختار طاعة الله واتباع رسله بعد أن تبين صدقهم، وعرف الحق فاتبعه والباطل فاجتنبه.

البرهان العاشر:

قال هرقل لأبي سفيان ماذا يأمركم، قال يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئاً واتركوا ما يقول آباؤكم، ويأمرنا بالصلاة، والصدق، والعفاف، والصلة، قال هرقل وسألتك بما يأمركم فذكرت أنه يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وينهاكم عن عبادة الأوثان ويأمركم بالصلاة والصدق والعفاف، فإن كان ما

تقول حقاً فسيملك موضع قدمي هاتين. اهـ.

عرف هرقل بعلمه وعقله زيادة على ما تقدم من البراهين أن الذي يأمر بهذه الأمور وهو متصف بتلك الصفات هو صادق فيما ادعاه من النبوة والرسالة.

والأمور المذكورة هنا ستة أمور:

أولها: عبادة الله وحده لا شريك له فلا يصلح دين ولا دنيا إلا بجعل العبادة خالصة لله وحده لا يعبد معه أحد، لا ملك مقرب، ولا نبي مرسل، ولا صالح، ولا طالح، وكتاب النبيﷺ لهرقل يوضح هذه الأمور كل التوضيح فإنه قال فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى». فوصف نفسه بالعبودية لله التي هي أعلى منزلة عند رسل الله والرسالة التي كلفهم بها، وجعل في قبولها سعادة البشر، ووصف هرقل بعظيم الروم أي كبيرهم وسيدهم، ثم قال على من اتبع الهدى وهذا إنصاف وحزم، والسلام هو السلامة وهي لا تكون إلا لمن اتبع الهدى وهرقل يزعم أنه يتبع الهدى ولا يكون متبعاً للهدى حتى يؤمن بجميع رسل الله ومنهم خاتم النبيين محمد رسول الله ﷺ فإن آمن به وبمن قبله فله السلام وإلا فلا سلامة له، وقوله: «أسلم تسلم» من جوامع الكلم في غاية البلاغة وهو مبين للذي قبله ومؤكد له فلا يسلم من عذاب الله إلا من أسلم لله وآمن بما جاءت به رسله كلهم، ويؤتك الله أجرك مرتين أجر الإيمان بعيسى، وأجر الإيمان بمحمد فإن توليت أي أعرضت عن قبول دعوة الإسلام فإن عليك إثمك وإثم الأريسيين أي الفلاحين أتباعك ثم بين النبيﷺ أصل دعوته وأساسها وهو توحيد الله تعالى: يا أهل الكتاب يعني اليهود والنصارى تعالوا إلى كلمة أي أقبلوا إلى كلمة مستوية بيننا وبينكم ليس فيها تحيز لجانبنا ولا لجانبكم وهي كلمة «لا إله إلا الله» ومعناها أن نعبد الله مخلصين له الدين، ولا نشرك به شيئاً كيفما كان ذلك الشيء، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً آلهة، من دون الله كما فعلتم أنتم معشر النصارى فإنكم اتخذتم عيسى وأمه إلهين من دون الله، ثم اتخذتم غيرهما من رهبانكم آلهة من دون الله فإن تولوا أي أعرضوا فقولوا أيها المسلمون لهم اشهدوا بأنا مسلمون موحدون لا نعبد إلا الله

ونؤمن بكل ما جاء به رسل الله من آدم إلى محمد لا نفرق بين أحد منهم، وهذا هو الدين القيم، والصراط المستقيم.

الأمر الثاني: ترك ما كان يعبده آباؤهم وهو يقتضي ترك الشرك جملة وتفصيلاً، فإن من عبد الله وعبد معه غيره ولو شيئاً قليلاً لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلا، قال تعالى يخاطب سيد خلقه محمداً ﷺ في سورة الزمر رقم ٦٥ ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٦٥﴾﴾ وإذا تأملنا هذا الخطاب وشدته علمنا أنه موجه إلينا لأن النبي ﷺ معصوم من الذنوب كلها والأدلة المحذرة من الشرك كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله.

الأمر الثالث: الصلاة وهي بعد التوحيد أعظم الفرائض وأنفعها، كتب عمر ابن الخطاب رضي الله عنه إلى عماله يقول إن أهم أمركم عندي الصلاة فمن حافظ عليها كان لما سواها أحفظ ومن ضيعها كان لما سواها أضيع» اهـ.

ومن المعلوم أن العامل مكلف بحفظ الأمن وإقامة العدل بين الناس وأخذ الزكاة والخراج وإقامة الحدود، والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتنفيذ كل ما أمر الله به ورسوله من الشريعة الغراء وقد علمنا من كلام عمر أن صلاح الدين والدنيا يتوقفان على المحافظة على الصلاة ومتى اختلت المحافظة على الصلاة اختل كل شيء. والآيات والأحاديث التي تحث على المحافظة على الصلاة وتبين فضلها كثيرة في كتاب الله وسنة رسوله، وأما الصدق فهو خلق شريف ما شاع في أمة إلا سادت وعزت وانتصرت على عدوها في الداخل والخارج وضده الكذب والفجور ما شاع في أمة إلا هبطت إلى الدرك الأسفل وذلت وتشتت أمرها، وهذا مشاهد بالعيان في كل زمان ومكان وأدلته في الكتاب، والسنة أكثر من أن تحصى.

الأمر الرابع: العفاف، وهو حفظ البطن، والفرج، واللسان، وسائر الجوارح، من الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وبه تنال سعادة المجتمع وتقع بين الناس الألفة والمحبة والتعاون وتلك هي أسباب السعادة:

تلك السعادة إن تلمم بساحتها　　　فحط رحلك قد عوفيت من تعس

الأمر الخامس: الصلة وهي البر، والإحسان إلى الأقارب، قال الله تعالى يخاطب سيد الخلق ﷺ في سورة الإسراء ٢٦ ﴿وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ﴾ وقال تعالى في سورة النساء رقم ٣٦ ﴿وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ - الآية.

وأخرج البخاري في كتاب الأدب ومسلم في كتاب البر والصلة بالإسناد المتصل إلى أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله خلق الخلق حتى إذا فرغ منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائذ بك من القطيعة، قال: نعم أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك؟ قالت: بلى، قال: فذلك لك، ثم قال رسول الله ﷺ اقرأوا إن شئتم ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَـٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ (محمد: ٢٢- ٢٣) وفي رواية للبخاري قال الله تعالى: «من وصلك وصلته ومن قطعك قطعته». اهـ.

وموعدنا المقال التالي بحول الله.

أهل الحديث (٣)

أبو بكر الصديق رضي الله عنه

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

قال الحافظ ابو عبد الله شمس الدين الذهبي في كتابه «تذكرة الحفاظ» ما نصه: أبو بكر الصديق رضي الله عنه، أفضل الأمة وخليفة رسول الله ﷺ، مؤنسه في الغار، وصديقه الأكبر، وصديقه الأشفق ووزيره الأحزم عبد الله ابن أبي قحافة عثمان القرشي التيمي قد أفردت سيرته في مجلد وسط وكان أول من احتاط في قبول الأخبار، فروى ابن شهاب عن قبيصة بن ذؤيب أن الجدة جاءت إلى أبي بكر تلتمس أن تورث، فقال: ما أجد لك في كتاب الله شيئًا، وما علمت أن رسول الله ﷺ ذكر لكِ شيئًا، ثم سأل الناس فقام المغيرة، فقال: حضرت رسول الله ﷺ يعطيها السدس. فقال هل معك أحد؟ فشهد محمد بن مسلمة بمثل ذلك فأنفذه لها أبو بكر رضي الله عنه.

ومن مراسيل ابن أبي مليكة أن الصديق جمع الناس بعد وفاة نبيهم فقال: إنكم تحدثون عن رسول الله ﷺ أحاديث تختلفون فيها، والناس بعدكم أشد اختلافا فلا تحدثوا عن رسول الله ﷺ شيئًا، فمن سألكم فقولوا: بيننا وبينكم كتاب الله فاستحلوا حلاله وحرموا حرامه.

فهذا المرسل بذلك أن مراد الصديق التثبت في الأخبار والتحري لا سد باب الرواية، ألا تراه لما نزل به أمر الجدة ولم يجد في كتاب الله كيف سأل عنه في السنة، فلما أخبره الثقة ما اكتفى حتى استظهر بنفسه آخر ولم يقل حسبنا كتاب الله كما يقول الخوارج.

وحدث يونس عن الزهري أن أبا بكر حدث رجلا حديثًا فاستفهمه الرجل فقال أبو بكر : هو كما حدثتك، أي أرض تقلني إذا أنا قلت ما لم أعلم؟ وصح أن

الصديق خطبهم فقال: إياكم والكذب فإن الكذب يهدي إلى الفجور، والفجور يهدي إلى النار.

وقال علي بن عاصم وهو من أوعية العلم لكنه سيئ الحفظ أن إسماعيل ابن أبي خالد عن قيس ابن أبي حازم قال سمعت أبا بكر الصديق يقول: إياكم والكذب فإن الكذب مجانب الإيمان» قلت صدق الصديق، فإن الكذب رأس النفاق وآية المنافق والمؤمن يطبع على المعاصي والذنوب الشهوانية لا على الخيانة والكذب، فما الظن بالكذب على الصادق الأمين صلوات الله عليه وسلامه، وهو القائل: «إن كذبا علي ليس ككذب على غيري، من يكذب على نبي له بيت في النار» وقال: «من يقل علي ما لم أقل. . » الحديث. فهذا وعيد لمن نقل عن نبيه ما لم يقله مع غلبة الظن أنه ما قاله فكيف حال من تهجم على رسول الله ﷺ وتعمد عليه الكذب وقوله ما لم يقل، وقد قال ﷺ: «من روى عني حديثاً يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»، فإنا لله وإنا إليه راجعون ما ذي إلا بلية عظيمة وخطر شديد ممن يروي الأباطيل والأحاديث الساقطة المتهم نقلتها بالكذب، فحق على المحدث أن يتورع في ما يؤديه وأن يسأل أهل المعرفة والورع ليعينوه على إيضاح مروياته ولا سبيل إلى أن يصير العارف الذي يزكي نقلة الأخبار ويجرحهم جهبذاً إلا بإدمان الطلب والفحص عن هذا الشأن وكثرة المذاكرة والسهر والتيقظ والفهم مع التقوى والدين المتين، والإنصاف والتردد إلى مجالس العلماء والتحري والإتقان، وإلا تفعل.

فدع عنك الكتابة لست منها ولو سودت وجهك بالمداد

قال الله تعالى ﷻ: ﴿فَسْئَلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣) فإن آنست يا هذا من نفسك فهما وصدقاً ودينا وورعاً وإلا فلا تتعن، وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب، وإن عرفت أنك مخلط مخبط مهمل لحدود الله فأرحنا منك فبعد قليل ينكشف البهرج وينكب الزغل ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فقد نصحتك، فعلم الحديث صلف، فأين علم الحديث؟ وأين أهله؟ كدت ألا أراهم إلا في كتاب أو تحت تراب.

نعم فرأس الصادقين في الأمة الصديق وإليه المنتهى في التحري في القول وفي القبول.

توفي الصديق ﵁ لثمان بقين من جمادى الآخرة من سنة ثلاث عشرة وله ثلاث وستون سنة (٦٣)..

توضيحات وشروح لما تقدم

١- قوله مؤنس في الغار هذه فضيلة من فضائل الصديق خصه الله بها وذكرها في كتابه العزيز قال تعالى في سورة التوبة «آية ٤٠» ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾

قال الإمام ابن كثير في تفسيره يقول تعالى ﴿إِلَّا تَنصُرُوهُ﴾ أي تنصروا رسوله فإن الله ناصره ومؤيده وكافيه وحافظه كما تولى نصره ﴿إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ﴾ أي عام الهجرة لمَّا هَمَّ المشركون بقتله أو حبسه أو نفيه فخرج منهم هارباً صحبة صديقه وصاحبه أبي بكر بن أبي قحافة فلجأ إلى غار ثور ثلاثة أيام حتى يرجع الطلب الذين خرجوا في آثارهم ثم يسيروا نحو المدينة فجعل أبو بكر الصديق ﵁ يجزع أن يطلع عليهم أحد، فيخلص إلى الرسول عليه الصلاة والسلام منهم أذى فجعل النبي ﷺ يسكنه ويثبته ويقول: «يا أبا بكر ما ظنك باثنين الله ثالثهما»اهـ.

فهذه المزية مع شهادة الله له بالصحبة من المناقب التي خصه الله بها!.

٢- قوله وكان أول من احتاط في قبول الأخبار من المعلوم أن أعداء الإسلام الأولين والآخرين حاربوا الإسلام وكادوا له، فبعضهم حاربه، بوضع الأحاديث، وبعضهم حاربه بردها وعدم قبولها، وكلا الطرفين مذموم، وخير الأمور الوسط، فأهل الحق يتثبتون في الرواية عن رسول الله ﷺ، ومتى صح لهم حديث عضوا عليه بالنواجذ وتلقوه بالقبول، واعتقدوه وعملوا به وإمامهم في ذلك الصديق الأكبر، فلما جاءته الجدة تلتمس نصيبها من الميراث أخبرها أن كتاب الله لم ينص على شيء من الحق لها في الميراث، ولم ينف عن

النبي ﷺ أنه جعل لها حقاً، ولكن نفى علمه بذلك وهذا شأن الأئمة المحققين المتثبتين ثم سأل أصحاب رسول الله هل عندهم علم بأن النبي ﷺ جعل لها شيئاً فلما ثبت عنده الحديث برواية عدلين أعطاها حقها وهو السدس.

٣- قوله: ما ذي إلا بلية. . . الخ. إذا استمعنا إلى الخطباء في المساجد والوعاظ وما يذكرونه من الأحاديث وينسبونها إلى النبي ﷺ بدون عزو إلى مخرج ولا معرفة لصحيح أو ضعيف أو موضوع رأينا العجب العجاب، هذا مع أن كتب الحديث الصحيحة التي خدمها الأئمة بالشرح وبينوا صحيحها ومعانيها ميسورة، فلم يرد الخطباء والوعاظ بل والمدرسون في المعاهد الدينية أن يكلفوا أنفسهم دراسة تلك الكتب وأخذها من أهلها العارفين بها ونقل الأحاديث منها على نور وبصيرة، بل أقبلوا على دواوين الخطب التي تجمع كل غث وسقيم من فضائل الأيام والشهور، فتجد عندهم لكل شهر خطبة خاصة يجمعون فيها أحاديث واهية أو موضوعة في فضل ذلك الشهر أو يوم مخصوص منه، ولا يهمهم من شؤون الناس الذين يستمعون خطبهم إلا ذلك، وقد يذكرون أهل زمانه فلو عاش إلى هذا الزمان لرأى ما لم يخطر له ببال . . فإلى الله المشتكى.

ذهب الرجال المقتدى بفعالهم — والمنكرون لكل أمر منكر
وبقيت في خلف يزكي بعضهم — بعضاً ليسكت معور عن معور

٤- قوله: وإن غلب عليك الهوى والعصبية لرأي ولمذهب فبالله لا تتعب. . . الخ.

ما أصدق هذا الكلام وأحسنه فإن طالب علم الحديث لا ينتفع به ويكون من أهله إلا إذا عقد العزم على اتباع الرسول ﷺ في كل ما صح عنه لا يمنعه من ذلك رأي كان من قبل يراه أو كان يراه أستاذه ولا مذهب ينتسب إليه بل ينشد دائماً قول القائل.

دعوا كل قول غير قول محمد — فما آمن في دينه كمخاطر

بل يجعل نصب عينيه قول الله تعالى ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١).

٥- قوله: أين علم الحديث وأين أهله؟ كدت ألا أراهم. . . الخ. هكذا يقول الإمام الحافظ الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨هـ وكان عصره مشرقاً عامراً بحفاظ الحديث ونقاده، فقد ألف الحافظ ابن حجر العسقلاني «كتاب الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة» وذكر فيه جما غفيرا من الحفاظ المحدثين وهو أحد أئمتهم فكيف بزماننا هذا وماذا نقول فيه أكثر من «لا حول ولا قوة إلا بالله».

فوائد من سيرة أبي بكر الصديق ﷺ:

الأولى: ولد أبو بكر الصديق ﷺ بعد عام الفيل بسنتين وستة أشهر، وفي الإصابة للحافظ ابن حجر أن عائشة رضي الله عنها قالت: تذاكر رسول الله ﷺ وأبو بكر ميلادهما عندي فكان النبي ﷺ أكبر، اهـ.

ومن المعلوم أن النبي ﷺ ولد عام الفيل أي في العام الذي غزا فيه الحبش مكة بالفيلة فردهم الله على أعقابهم خاسرين (انظر تفسير سورة الفيل).

الثانية: صحب النبي ﷺ قبل البعثة، وكان أول من آمن به من الرجال على الصحيح واستمر معه طول إقامته بمكة ورافقه في الهجرة وفي الغار وفي المشاهد كلها إلى وفاته عليه الصلاة والسلام، وكانت الراية معه يوم تبوك وحج في الناس في حياة رسول الله ﷺ سنة تسع، واستقر خليفة بعده، ولقبه المسلمون خليفة رسول الله فمن يتنقصه يريد أن يستر الشمس بالغربال فهو:

كناطح صخرة يوماً ليوهنها ... فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

وفي مثله ينشد أيضاً:

يا ناطح الجبل الراسي بهامته ... أشفق على الرأس لا تشفق على الجبل

وما أحسن قول المتنبي:

وفي تعب من يحسد الشمس ضوءها ... ويجهد أن يأتي لها بضريب

الثالثة: روى أبو بكر عن النبي ﷺ وروى عنه الجم الغفير من الصحابة والتابعين، منهم عمر وعثمان وعلي، وهم الخلفاء بعده وعبد الرحمن بن عوف وابن مسعود وابن عمر وحذيفة وزيد بن ثابت وخلق لا يتسع المقام لذكرهم.

الرابعة: روى سعيد بن منصور بسنده إلى عائشة قالت: اسم أبي بكر الذي

سماه به أهله عبد الله ولكن غلب عليه اسم عتيق.

الخامسة: كان أبو بكر ﷺ أبيض نحيفاً خفيف العارضين معروق الوجه ناتئ الجبهة يخضب بالحناء والكتم،- والخضاب بالحناء والكتم قريب من السواد وهو إلى السواد أقرب منه إلى الحمرة التي تنشأ عن الخضاب بالحناء - وقد صح عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يخضبون بالحناء والكتم هو الذي يسمى «بالوسمة» وقد قلت في ذلك شعراً:

إني لأخضب بالحناء والكتم	أقفو بذلك خير العرب والعجم
محمدًا وأناساً من صحابته	كانوا مصابيح تجلو داجي الظلم

السادسة: قال الحافظ في الإصابة وأخرج أبو يعلى بسنده إلى عائشة قالت: كان رسول الله ﷺ وأصحابه بفناء البيت إذ جاء أبو بكر فقال النبي ﷺ «من سره أن ينظر إلى عتيق من النار فلينظر إلى أبي بكر».

السابعة: قال الحافظ وقال ابن إسحق كان أبو بكر مؤلفا لقومه محبباً سهلاً، وكان تاجراً ذا خلق ومعروف وكانوا يألفونه لعلمه وتجاربه، وحسن مجالسته، فجعل يدعو إلى الإسلام من وثق به. فأسلم على يديه عثمان وطلحة والزبير وسعد وعبد الرحمن بن عوف اهـ.

قال الحافظ وأخرج أبو داود في الزهد بسند صحيح عن هشام بن عروة أخبرني أبي قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألف درهم وأخبرتني عائشة أنه مات وما ترك ديناراً ولا درهما.

الثامنة: قال الحافظ وأخرج يعقوب بن سفيان في تاريخه بسنده إلى هشام عن أبيه قال أسلم أبو بكر وله أربعون ألفاً فأنفقها في سبيل الله، وأعتق سبعة كلهم يعذب في الله أعتق بلالا وعامر بن فهيرة ونذيرة والنهدية وابنتها وجارية بني المؤمل وأم عبيس.

التاسعة: قال الحافظ وأخرج الدارقطني في الأفراد من طريق أبي إسحاق عن أبي يحيى قال: لا أحصي كم سمعت عليا يقول على المنبر أن الله ﷻ سمى أبا بكر على لسان نبيه ﷺ صديقاً، انتهى مستفاداً من الإصابة.

فوائد أخرى من «الاستيعاب» للحافظ أبي عمر يوسف بن عبد البر رحمه الله

الأولى: كان اسمه في الجاهلية عبد الكعبة فسماه رسول الله ﷺ عبد الله هذا قول أهل النسب الزبيري وغيره.

الثانية: قال فيه حسان بن ثابت يمدحه:

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة ... فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا
خير البرية أتقاها وأعدلها ... بعد النبي وأوفاها بما حملا
والثاني التالي المحمود مشهده ... وأول الناس من قد صدق الرسلا
وثاني اثنين في الغار المنيف وقد ... طاف العدو به إذ صعدوا الجبلا
وكان حب رسول الله قد علموا ... خير البرية لم يعدل به رجلاً

وقال فيه أبو محجن الثقفي:

وسميت صديقاً وكل مهاجر ... سواك يسمى باسمه غير منكر
سبقت إلى الإسلام والله شاهد ... وكنت جليساً بالعريش المشهر
وبالغار إذ سميت بالغار صاحباً ... وكنت رفيقاً للنبي المطهر

قوله: وكنت جليسا بالعريش المشهر، يعني أن أبا بكر كان يحرس النبي ﷺ في العريش الذي جعل له في غزوة بدر، فرافقه في العريش كما رافقه في الغار.

الثالثة: سمى الصديق صديقاً لمبادرته لتصديق النبي ﷺ في كل ما جاء به.

الرابعة: قال أبو عمر قال ﷺ «ما نفعني مال، ما نفعني مال أبي بكر» معناه ما نفعني مال مثل ما نفعني مال أبي بكر لأن ما الأولى نافية والثانية مصدرية.

الخامسة: قال أبو عمر قال رسول الله ﷺ «دعوا لي صاحبي أي أبا بكر، فإنكم قلتم لي كذبت وقال صدقت» وقال رسول الله ﷺ في كلام البقرة والذئب آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر».

ومعنى ذلك أن النبي ﷺ أخبر أصحابه أن بقرة تكلمت وأن ذئباً تكلم ثم قال لهم آمنت بهذا أنا وأبو بكر وعمر، فشهد لهما بتصديقه في ما أخبر به من هذا الأمر الخارق للعادة، وهذه منقبة لهما، فويل لمن يعاديهما ويجحد فضلهما إنه لمن الخاسرين.

السادسة: قال أبو عمر قال عمرو بن العاص يا رسول الله من أحب الناس إليك، قال عائشة. قلت من الرجال؟ قال: أبوها، وروى مالك عن سالم بن أبي النضر عن عبيد بن حنين عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله ﷺ «إن من أمن الناس علي في صحبته وماله أبا بكر، ولو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ولكن أخوة الإسلام لا تبقين في المسجد خوخة إلا خوخة أبي بكر».

السابعة: قال أبو عمر روى سفيان بسنده إلى أسماء بنت أبي بكر الصديق رضي الله عنه أنهم قالوا لها: ما أشد ما رأيت المشركين بلغوا من رسول الله ﷺ فقالت كان المشركون قعوداً في المسجد الحرام فتذاكروا رسول الله ﷺ وما يقول في آلهتهم فبينما هم كذلك إذ دخل رسول الله ﷺ المسجد فقاموا إليه وكانوا إذا سألوه عن شيء صدقهم فقالوا ألست تقول في آلهتنا كذا وكذا، قال: بلى، قال فتشبثوا به بأجمعهم فأتى الصريخ إلى أبي بكر فقيل له أدرك صاحبك فخرج أبو بكر حتى دخل المسجد فوجد رسول الله ﷺ والناس مجتمعون عليه فقال «ويلكم أتقتلون رجلا أن يقول ربي الله وقد جاءكم بالبينات من ربكم» قال فلهوا عن رسول الله ﷺ وأقبلوا على أبي بكر يضربونه، قالت فرجع إلينا فجعل لا يمس شيئاً من غدائره إلا جاء معه وهو يقول تباركت يا ذا الجلال والإكرام.

الثامنة: قال أبو عمر وروينا من وجوه عن أبي أمامة الباهلي قال حدثنا عمرو ابن عبسة قال أتيت رسول الله ﷺ وهو نازل بعكاظ فقلت يا رسول الله من اتبعك على هذا الأمر قال (حر وعبد، أبو بكر وبلال) قال فأسلمت عند ذلك اهـ.

التاسعة: اجمع أصحاب رسول الله ﷺ على مبايعته بالخلافة، لما ظهر لهم من أمارات تدل دلالة قاطعة على أن النبي ﷺ ارتضاه للخلافة بما تقدم من كونه أحب الناس إليه وتقديمه للصلاة بالناس، وروى أبو عمر بسنده إلى محمد بن جبير بن مطعم عن أبيه قال أتت امرأة إلى رسول الله ﷺ فسألته عن شيء فأمرها أن ترجع إليه فقالت يا رسول الله أرأيت إن جئت فلم أجدك؟ تعني الموت، فقال لها رسول الله ﷺ: «إن لم تجديني فأتي أبا بكر، قال الشافعي في هذا الحديث دليل على أن الخليفة بعد رسول الله ﷺ أبو بكر.

العاشرة: قال أبو عمر بسنده ذكره عن عبد الله بن زمعة بن الأسود قال كنت عند رسول الله ﷺ وهو عليل فدعاه بلال إلى الصلاة فقال لنا مروا من يصلي بالناس قال فخرجت فإذا عمر في الناس وكان أبو بكر غائباً فقلت قم يا عمر فصل بالناس فقام عمر فلما كبر سمع رسول الله ﷺ صوته وكان مجهراً فقال رسول الله ﷺ فأين أبو بكر يأبى الله ذلك والمسلمون فبعث إلى أبي بكر فجاء بعد أن صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس طول علته حتى قبض رسول الله ﷺ، وهذا أيضاً واضح في ذلك.

ومناقب أبي بكر رضي الله عنه أكثر من أن يتسع لها هذا المقال، والمقصود هنا أنه رضي الله عنه هو أول أهل الحديث بعد رسول الله ﷺ، نسأل الله أن يجعلنا منهم وينفعنا بمحبتهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.



أهل الحديث (٤)

عمر بن الخطاب

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

● **مولده ونسبه:**

قال الحافظ أبو عمر بن عبد البر في كتاب الاستيعاب «ولد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة. وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «إنه ولد بعد الفجار الأعظم بأربع سنين، وذلك قبل المبعث النبوي بثلاثين سنة، ورواية ابن عبد البر أوضح وعليها يكون النبي ﷺ أسن من عمر بن الخطاب بثلاث عشرة سنة».

فأما نسبه فهو عمر بن الخطاب بن نفيل العدوي القرشي أبو حفص وأمه حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية. قاله الحافظ ابن عبد البر وابن حجر وقال ابن هشام: «وكان عمر لحنتمة بنت هشام بن المغيرة وعلى هذا تكون أمه أخت أبي جهل بن هشام بن المغيرة»...

وقال أبو عمر بن عبد البر: «وقالت طائفة في أم عمر: حنتمة بنت هشام بن المغيرة ومن قال ذلك فقد أخطأ. ولو كانت كذلك لكانت أخت أبي جهل بن هشام بن المغيرة وليس كذلك وإنما هي ابنة عمه. فإن هاشم بن المغيرة وهشام بن المغيرة أخوان. فهاشم والد حنتمة أم عمر وهشام والد الحارث وأبي جهل. وهاشم بن المغيرة هذا جد عمر لأمه كان يقال له ذو الرمحين».

● **صفته الخَلقية:**

قال الحافظ ابن حجر في الإصابة: «وأخرج ابن أبي الدنيا بسند صحيح عن أبي رجاء العطاردي قال: كان عمر طويلاً جسيماً أصلع أشعر شديد الحمرة كثير السبلة في أطرافها صهوبة وفي عارضيه خفة».

وروى يعقوب بن سفيان في تاريخه بسند جيد إلى زر بن حبيش قال رأيت عمر

أعسر أصلع آدم قد فرع الناس كأنه على دابة قال فذكرت هذه القصة لبعض ولد عمر فقال سمعنا أشياخنا يذكرون أن عمر كان أبيض فلما كان عام الرمادة وهي سنة المجاعة ترك أكل اللحم والسمن وأدمن أكل الزيت حتى تغير لونه وكان قد احمر فشحب لونه.

وروى الدينوري في المجالسة عن الأصمعي عن شعبة عن سماك كان عمر أروح كأنه راكب والناس يمشون والأروح الذي يتدانى عقباه إذا مشى.

وأخرج سعد بسند فيه الواقدي كان عمر يأخذ أذنه اليسرى بيده اليمنى ويجمع جراميزه ويثب على فرسه فكأنما خلق على ظهره».

وقال الحافظ ابن عبد البر في الاستيعاب «وكان آدم شديد الأدمة طوالاً كث اللحية أعسر أيسر يخضب بالحناء والكتم».

نكتفي بهذا القدر من صفة خلقه بفتح الخاء وفيها ألفاظ تحتاج إلى توضيح ليعم النفع القراء كلهم قويهم وضعيفهم.

الفجار: قال في اللسان: «قال الجوهري الفجار يوم من أيام العرب وهي أربعة أفجرة، كانت بين قريش ومن معها من كنانة وبين قيس عيلان في الجاهلية وكانت الدبرة على قيس وإنما سمت قريش هذه الحرب فجاراً لأنها كانت في الأشهر الحرم، فلما قاتلوا فيها قالوا قد فجرنا فسميت فجاراً.

والصهوبة: حمرة شعر الرأس واللحية.

والأعسر: هو الذي يشتغل بيده اليسرى والأعسر الأيسر هو الذي يشتغل بيديه جميعاً. وقد روي أن عمر كان كذلك.

والأدمة: الحمرة وهي حمرة ناشئة عن بياض لأنه جاء في وصف عمر أنه كان أبيض وقوله فرع الناس: أي كان أطول منهم، وقوله كأنه على دابة: أي إذا مشى مع القوم فكأنه راكب لطول قامته.

شحب لونه: شحب اللون ككرم، وشحب كمنع تغير لونه مع هزال أو عمل أو جوع أو سفر.

وهذا من مناقب عمر التي لا يتصف بها إلا خليفة نبي لأن المجاعة في العادة

لا تصيب إلا عامة الناس، أما الرؤساء فلا يجوعون وعمر ﷺ فضل الجوع وترك الطيبات من الطعام عند قلته إيثاراً للعامة على نفسه. رحمه الله ورضي عنه فويل لمن يتنقصه من المبتدعين الضالين.

قوله سعد: لعل الصواب ابن سعد.

وجراميزه: ثيابه ويدل ذلك على أن عمر كان رياضياً، قوي الجسم لأن ركوب الخيل بالصفة المذكورة لا يتأتى إلا لقليل من مهرة الرياضيين.

وفي ذلك دليل على أن المسلم ينبغي له أن يكون قوي البدن مرتاضاً. قال الله تعالى في سورة البقرة في قصة طالوت حين قال بنو إسرائيل لنبي لهم ابعث لنا ملكاً نقاتل في سبيل الله فأخبرهم أن الله سبحانه بعث لهم طالوت ملكاً. فقالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال. فظنوا لجهلهم أن الملك خاص بالأغنياء فرد عليهم نبيهم بقوله: «إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم والله يؤتي ملكه من يشاء والله واسع عليم».

فالملك لا يكون أهلاً للملك بسبب ثروته وكثرة ماله، ولكن لقوة جسمه وعلمه وتقواه. فإن مال الدولة يكون بيده وهو الذي يقسمه طبقاً لما أمر الله به أن يقسم فما حاجته إلى المال. وهكذا قال العرب أهل مكة: ﴿لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ﴾ (الزخرف: ٣١) فرد الله عليهم بقوله ﴿أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ﴾ (الزخرف: ٣٢) فظنوا لجهلهم أن النبوة لما كانت الرئاسة ملازمة لها لا تكون إلا لمن كان غنياً كثير المال وقوة الجسم، والرياضة البدنية من السنة التي اتصف بها الأنبياء ولنبينا محمد ﷺ الحظ الأوفر من ذلك فقد ثبت في صحيح البخاري أنه سابق عائشة أم المؤمنين فسبقته فلما ثقل جسمها باللحم سابقها مرة أخرى فسبقها وقال لها: «هذه بتلك».

وقوله: **يخضب بالحناء والكتم**: ذكر الحافظ في الفتح عن جماعة من الصحابة أنهم كانوا يخضبون بهما وقد جاء مثل ذلك عن النبي. وقلت في ذلك شعراً.

إني لأخضب بالحناء والكتم   أقفو بذلك خير العرب والعجم

محمداً وأناساً من صحابته كانوا مصابيح تجلو داجي الظلم

* والكتم: يسمى بالعامية العراقية «الوسمة» وهو نبات شديد الخضرة وصفة الخضاب بها أن يخضب الرأس أو اللحية أو هما معاً بالحناء ويبقى ثلاث ساعات ثم يغسل الشعر غسلاً جيداً ويخضب بالكتم وبعد ساعة يغسل الشعر فيصير أسود.

● **صفته الخلقية**

قال الحافظ الذهبي في تذكرة الحفاظ: «أبو حفص العدوي الفاروق وزير رسول الله ﷺ ومن أيد الله به الإسلام وفتح به الأمصار وهو الصادق المحدث الملهم الذي جاء عن المصطفى ﷺ أنه قال: «لو كان بعدي نبي لكان عمر» الذي فر منه الشيطان وأعلي به الإيمان وأعلن الأذان.

قال نافع بن أبي نعيم عن نافع عن ابن عمر قال: قال النبي ﷺ: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه. وأين مثل أبي حفص فما دار الفلك على مثل شكل عمر هو الذي سن للمحدثين التثبت. انتهى.

وقال ابن عبد البر في الاستيعاب ما نصه:

قال الزبير وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أشراف قريش وإليه كانت السفارة في الجاهلية، وذلك أن قريشاً كانت إذا وقعت بينهم حرب، أو بينهم وبين غيرهم بعثوا سفيراً وإن نافرهم منافر أو فاخرهم مفاخر رضوا به ولقبوه منافرا أو مفاخراً.

● **إسلامه**

قال ابن إسحاق وكان إسلام عمر - فيما بلغني - أن أخته فاطمة بنت الخطاب كانت عند سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل قد أسلمت وأسلم زوجها سعيد بن زيد وهما مستخفيان بإسلامهما خوفاً من عمر وكان نعيم بن عبد الله النحام رجل من قومه من بني عدي بن كعب قد أسلم وكان أيضاً يستخفي بإسلامه فرقاً من قومه، وكان خباب بن الأرت يختلف إلى فاطمة بنت الخطاب يقرئها القرآن. فخرج عمر يوماً متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ ورهطاً من أصحابه قد ذكروا له أنهم قد اجتمعوا في بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين ما بين رجال ونساء، وكان مع

رسول الله ﷺ عمه حمزة بن عبد المطلب وأبو بكر الصديق وعلى بن أبي طالب في رجال من المسلمين رضي الله عنهم فيمن أقام مع رسول الله ﷺ بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر؟ فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله، فقال له نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً. أفلا ترجع إلى أهل بيتك، فتقيم أمرهم، قال: وأي أهل بيتي؟ قال ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو، وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمداً على دينه. فعليك بهما، قال فرجع عمر عامداً إلى أخته وختنه وعندهما خباب بن الأرت معه صحيفة فيها «سورة طه» يقرئهما إياها. فلما سمعوا حس عمر تغيب خباب في مخدع لهم، أو في بعض البيت وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما فلما دخل قال: ما هذه الهيمنة التي سمعت؟ قالا له: ما سمعت شيئاً، قال: بلى والله لقد أخبرت أنكما تابعتما محمداً على دينه وبطش بختنه سعيد بن زيد. فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها فضربها فشجها فلما فعل ذلك قالت له أخته وختنه نعم قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع ما بدا لك.. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته أعطني هذه الصحيفة التي سمعتكم تقرءون آنفاً، أنظر ما هذا الذي جاء به محمد وكان عمر كاتباً، فلما قال ذلك قالت له أخته إنا نخشاك عليها. قال لها لا تخافي وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها. فلما قال طمعت في إسلامه وأعطته الصحيفة وفيها «طه» فقرأها فلما قرأ منها صدراً قال: ما أحسن هذا الكلام، فلما سمع ذلك خباب خرج إليه فقال له: يا عمر والله إني لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه فإني سمعته أمس وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبي الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر» فقال له عند ذلك عمر: فدلني يا خباب على محمد آتيه فأسلم. فقال له خباب هو في بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه، فأخذ عمر سيفه فتوشحه

ثم عمد إلى رسول الله ﷺ وأصحابه فضرب عليهم الباب فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله ﷺ فنظر من خلل الباب فرآه متوشحاً السيف فرجع إلى رسول الله ﷺ وهو فزع فقال يا رسول الله هذا عمر بن الخطاب متوشحاً السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: فأذن له فإن كان جاء يريد خيراً بذلناه له وإن كان جاء يريد شراً قتلناه بسيفه فقال رسول الله ﷺ ائذن له. فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله ﷺ حتى لقيه في الحجرة فأخذ حجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه به جبذة شديدة وقال ما جاء بك يا ابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهي حتى ينزل الله بك قارعة. فقال عمر: يا رسول الله جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله قال: فكبر رسول الله ﷺ تكبيرة عرف أهل البيت من أصحاب رسول الله ﷺ أن عمر قد أسلم. فتفرق - أصحاب رسول الله ﷺ من مكانهم وقد عزوا في أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله ﷺ وينتصفون بهما من عدوهم.

وذكر ابن هشام عن ابن إسحاق في سبب إسلام عمر قصة أخرى أختصرها فيما يلي:

قال عمر: كنت أحب الخمر وأشربها في الجاهلية. وكان لي رفقاء ينادمونني على شرب الخمر وكان لنا مجلس معلوم نجلس فيه كل ليلة نشرب الخمر فذهبت ليلة إلى المجلس فلم أجد منهم أحداً فقصدت حانة لخمار مكة لأشرب فلم أجده فقصدت الكعبة لأطوف بها سبعاً أو سبعين فرأيت رسول الله ﷺ قائماً يصلي بين الركنين ركن الحجر الأسود والركن اليماني- مستقبلاً الشام جاعلاً البيت بينه وبين قبلته فأردت أن أستمع لقراءته دون أن يعلم بمكاني فجئت الكعبة من قبل الحجر فدخلت تحت كسوتها وأخذت أمشي بين جدارها وثوبها حتى قمت في قبلته مستقبلاً له وهو لا يراني ولا يعلم بوجودي.

فلما سمعت القرآن رق قلبي له حتى بكيت فلما فرغ رسول الله ﷺ من صلاته انصرف إلى بيته فتبعته حتى أدركته في الطريق فلما سمع رسول الله ﷺ حسي عرفني فظن أني تبعته لأوذيه، فنهمني (أي زجرني) ثم قال: ما جاء بك يا ابن

الخطاب هذه الساعة؟ فقلت جئت لأومن بالله وبرسولهﷺ ومسح صدري ودعالي بالثبات.

وإذا أردنا أن نجمع بين القصتين نقول: إن القصة الأولى سابقة للثانية وأن عمر حين قرأ الصحيفة في بيت أخته مال قلبه إلى الإسلام ولكن أراد أن يسمع من النبي ﷺ القرآن فاحتال ذلك حتى سمعه منه فازداد يقيناً وأسلم في تلك الليلة ثم قصد بعد ذلك دار الأرقم التي عند الصفا وأعلن إسلامه.

ويؤيد ذلك ما روى ابن إسحاق في السيرة «عن أم عبد الله بن عامر ابن ربيعة بنت أبي حثمة. قالت: وكنا نلقى منه البلاء أذى لنا وشدة علينا.

قالت فقال: إنه للانطلاق يا أم عبد الله. قالت فقلت نعم والله. لنخرجن في أرض الله آذيتمونا وقهرتمونا حتى يجعل الله لنا فرجاً. قالت: فقال صحبكم الله ورأيت له رقة لم أكن أراها. ثم انصرف وقد أحزنه فيما أرى خروجنا. قالت فجاء عامر بحاجته تلك. فقلت له: يا أبا عبد الله: لو رأيت عمر آنفاً ورقته وحزنه علينا. قال: أطمعت في إسلامه قالت: نعم. قال فلا يسلم الذي رأيت حتى يسلم حمار الخطاب، قالت يأساً منه لما كان يرى من غلظته وقسوته على أهل الإسلام».

ومن ذلك يظهر لنا أن إسلام عمر لم يكن فجأة فإنه من المستبعد في طباع البشر أن يكون الرجل على دين متعصباً له أشد التعصب ويرى ديناً جديداً فيحاربه أشد المحاربة ثم ينتقل من الدين الأول إلى الثاني فجأة بدون أن يتقدم انتقاله فترة تردد وتأمل. وهذا مشاهد معروف عند من خبر أحوال المنتقلين من دين إلى دين.

ومما يناسب ذلك أني كنت في برلين الغربية سنة أربع وخمسين وتسعمائة وألف بتاريخ النصارى فقصدت الجامع لصلاة الجمعة وهو في القسم الغربي، وكنت أعرفه وأصلي فيه حين كنت طالباً ومدرساً هناك من سنة تسع وثلاثين إلى سنة اثنتين وأربعين بالتاريخ المذكور فلما رآني الإمام دعاني لأصلي بهم الجمعة وبعد الفراغ من الصلاة قام وخطبهم هو باللغة الجرمانية ثم أخذنا نتجاذب أطراف الأحاديث فرأيت رجلاً حسن الإصغاء لكل حديث يدور حسن السمت تظهر عليه الرغبة في الازدياد من علوم الإسلام ويكثر الأسئلة فقلت له يا أخي تسمح لي أن

أسألك منذ كم سنة أسلمت؟ فقال لي لم أسلم بعد! فقلت ولماذا جئت إلى هنا وحضرت الصلاة؟ فقال حضرت الصلاة ولم أصل!! ولكن استمعت إلى الخطبة التي ألقيت باللغة الجرمانية فقلت هل زرت المسجد قبل هذه المرة؟ فقال لي منذ سنة لم تفتني ولا جمعة واحدة ومَسْكَنِي بعيد من المسجد، أركب ساعة في القطار لأصل إليه فقلت له: وإلى الآن ما تبين لك أن الإسلام حق؟ فقال لي: أريد أن أزداد يقيناً حتى يكون إسلامي مبنياً على أساس متين. فإن قلت: هذا الألماني بقي سنة يدرس الإسلام وعمر فيما ذكرت لم يبق إلا مدة قصيرة فهل كان الألماني أكثر تثبتاً منه؟ فالجواب أن بين الألماني وعمر فرقاً شاسعاً لأن الألماني لا يعرف لسان القرآن والرسول ﷺ ولا يستطيع أن يقرأ القرآن أو يسمعه فيفهمه وإنما يعتمد على ترجمة المترجمين ومن الفروق أن عمر يعرف رسول الله ﷺ من صباه ويعرف صدقه وأخلاقه ويعرف من آمن به قبله وهم أربعون رجلاً وإحدى عشرة امرأة وكيف ثبتوا على دينهم واستعذبوا العذاب فيه، وصبروا على مفارقة الوطن بل كان عمر يشاهد نور رسول الله ﷺ ولا يحجب إلا عن شقي.

وقال الحافظ أبو عمر بن عبد البر بسند ذكره من طريق ابن معين عن هلال بن يساف قال: «أسلم عمر بن الخطاب ؓ بعد أربعين رجلاً وإحدى عشرة امرأة قال أبو عمر فكان إسلامه عزاً ظهر به الإسلام بدعوة النبي ﷺ».

وقال الحافظ ابن حجر في الإصابة بسند ذكره عن ابن عباس أن رسول الله ﷺ: قال: «اللهم أعز الإسلام بأبي جهل ابن هشام أو بعمر بن الخطاب» فأصبح عمر فغدا إلى رسول الله ﷺ.

وأخرج أبو يعلى وذكر سنده إلى ابن عمر قال: إن رسول الله ﷺ قال: اللهم أعز الإسلام بأحب الرجلين إليك بعمر بن الخطاب أو بأبي جهل بن هشام وكان أحبهما إلى الله عمر بن الخطاب».

وأحب هنا أفعل تفضيل من حب بضم الحاء مبنياً لما لم يسم فاعله وقد منعه ابن مالك ولكنه كثير من كلام العرب، وهو من جريان أفعل التفضيل على غير بابه فأحب هنا بمعنى محبوب لأن أحدهما وهو أبو جهل لا يشارك الآخر في محبة

الله حتى يفضل عليه فهو كقولهم الأشج والناقص أعدلا ملوك بني مروان- أي عادلا ملوك بني مروان إذ لا عادل فيهم غيرهما.

ثم ذكر الحافظ روايات متعددة لهذا الحديث عن جماعة من الصحابة تختلف ألفاظها ويتفق معناها.

● **بعض مناقبه**

١- منها ما تقدم أن النبيﷺ دعا أن يعز الله الإسلام ويشده برجل يحبه الله تعالى فكان ذلك الرجل فثبتت له محبة الله تعالى.

٢- ومنها ما رواه البخاري في صحيحه في باب مناقب عمر بسنده إلى جابر بن عبد الله قال: قال النبي ﷺ: «رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالرميصاء امرأة أبي طلحة وسمعت خشفة فقلت من هذا؟ فقال هذا بلال ورأيت قصراً بفنائه جارية فقلت لمن هذا؟ قال لعمر فأردت أن أدخله فأنظر إليه فذكرت غيرتك فقال: عمر بأبي وأمي يا رسول الله أعليك أغار» انتهى.

والخشفة بفتح أوله وثانيه أي حركة وقع الأقدام، وفي رواية أبي هريرة أن النبي ﷺ رأى جانب قصر عمر امرأة تتوضأ والباقي مثل ما تقدم وفيها زيادة أن عمر حين سمع ذلك بكى وقال أعليك أغار يا رسول الله».

٣- ومنها ما أخرجه البخاري بسنده إلى حمزة عن أبيه أن رسول اللهﷺ قال: «بينا أنا نائم شربت يعني اللبن حتى أنظر إلى الري يجري في ظفري أو في أظفاري ثم ناولت عمر قالوا فما أولته يا رسول الله قال: العلم».

فهذه شهادة من النبيﷺ لعمر بالعلم النافع الذي أخذه عنه عليه الصلاة والسلام.

٤- ومنها ما أخرجه البخاري في مناقبه عن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال: «رأيت في المنام أني أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوباً أو ذنوبين نزعًا خفيفا والله يغفر له ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غرباً، فلم أر عبقرياً يفري فريه حتى روي الناس وضربوا بعطن».

قال ابن جبير العبقري عتاق الزرابي، وقال يحيى: الزرابي: الطنافس لها

همل رقيق مبثوثة كثيرة.

شرح بعض ما يعسر فهمه على بعض القراء من هذا الحديث.

على دلو بكرة: البكر بفتح الباء والكاف: خشبة مستديرة يعلق عليها الدلو لتسهيل نزعه من البئر- والقليب البئر. الذنوب الدلو الممتلئة ماء. الغرب: الدلو العظيمة تتخذ من جلد ثور يعني أن عمر لما أخذ الدلو عظمت في يده وكبرت وذلك إشارة إلى كثرة الفتوحات التي أجراها الله على يديه واتساع حوزة الإسلام، ولم يقع مثل ذلك في خلافة أبي بكر الصديق، ولكن له مناقب أخرى كثيرة لا يشاركه فيها عمر.

والعبقري: قال أبو عمر: وعبقري القوم سيدهم وقيمهم وكبيرهم.

حتى روي الناس وضربوا العطن. قال في اللسان العطن للإبل كالوطن للناس، يعني حتى رويت الإبل وبركت بمعاطفها، كناية عما تقدم من كثرة الفتوحات والأرزاق، وانتشار العدالة والأمن، ورغد العيش وصلاح الأحوال.

٥- وأخرج البخاري عن سعد بن أبي وقاص قال أستأذن عمر بن الخطاب على رسول الله ﷺ وعنده نسوة من قريش يكلمنه ويستكثرن عالية أصواتهن على صوته، فلما استأذن عمر بن الخطاب قمن فبادرن الحجاب، فأذن له رسول الله ﷺ فدخل عمر ورسول الله ﷺ يضحك، فقال أضحك الله سنك يا رسول الله فقال النبي ﷺ: «عجبت من هؤلاء اللاتي كن عندي فلما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب» قال عمر: «فأنت أحق أن يهبن يا رسول الله» ثم قال عمر «يا عدوات أنفسهن أتهبنني ولا تهبن رسول الله» فقلن: نعم أفظ وأغلظ من رسول الله ﷺ.

فقال رسول الله ﷺ: «إيه يا ابن الخطاب والذي نفسي بيده ما لقيك الشيطان سالكاً فجا قط إلا سلك فجا غير فجك».

قولهن «أنت أفظ وأغلظ» جرى أفعل التفضيل أيضاً على غير بابه، فإن النبي ﷺ ليس عنده شيء من الفظاظة ولا من الغلظة حتى يشارك عمر فيهما ويكون عمر أشد منه في ذلك، قال الله تعالى ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ

فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ معناه برحمة الله وفضله لنت يا محمد لأصحابك فأحبوك ولو كنت فظاً غليظ القلب لتفرقوا عنك.

قال الجمل في حاشيته على الجلالين: الفظاظة الجفوة في المعاشرة قولاً وفعلاً، والغلظة التكبر ثم تجوز فهي من عدم الشفقة وكثرة القسوة في القلب.

٦- ومنها أن الله أعز به المسلمين، فأخرج البخاري بسنده عن عبد الله يعني ابن مسعود قال عبد الله ما زلنا أعزة منذ أسلم عمر.

٧- منها ثناء علي ﷺ على عمر، أخرج البخاري عن ابن أبي مليكة، أنه سمع ابن عباس يقول: وضع عمر على سريره فتكنفه الناس يدعون ويصلون قل أن يرفع، وأنا فيهم فلم يرعني إلا رجل أخذ منكبي فإذا علي بن أبي طالب فترحم على عمر وقال: «ما خلفت أحداً أحب إلي أن ألقى بمثل عمله منك، وأيم الله إن كنت لأظن، أن يجعلك مع صاحبيك وحسبت أني كثيراً أسمع النبيﷺ يقول: ذهبت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر».

٨- ومنها بشارة النبي ﷺ بالشهادة أخرج البخاري عن أنس بن مالك ﷺ قال: صعد النبي ﷺ أحداً ومعه أبو بكر وعمر وعثمان فرجف بهم فضربه برجله وقال: «اثبت فما عليك إلا نبي أو صديق أو شهيدان».

٩- منقبة التحديث والتكليم. ومنها ما أخرجه البخاري عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لقد كان فيما قبلكم من الأمم ناس محدثون فإن يكن من أمتي أحد فإنه عمر»، زاد زكرياء بن زائدة عن سعد عن أبي هريرة قال: قال النبي ﷺ : «لقد كان في من كان قبلكم من بني إسرائيل رجال يكلمون من غير أن يكونوا أنبياء فإن يكن في أمتي منهم أحد فعمر».

قال الحافظ ابن حجر في الفتح. والسبب في تخصيص عمر بالذكر لكثرة ما وقع له في زمن النبي ﷺ من الموافقات التي نزل القرآن مطابقاً لها، ووقع له بعد النبي ﷺ عدة إصابات.

١٠- شهادة النبي ﷺ بقوة إيمان عمر، ومنها ما أخرجه البخاري بسنده في

صحيحه عن سعيد بن المسيب، وأبي سلمة بن عبد الرحمن، قالا سمعنا أبا هريرة رضي الله عنه يقول: قال رسول الله ﷺ: «بينما راع في غنمه عدا الذئب فأخذ منها شاة فطلبها حتى استنقذها فالتفت إليه الذئب فقال له: «من لها يوم السبع ليس لها راع غيري، فقال الناس سبحان الله فقال النبي ﷺ فإني أومن به وأبو بكر وعمر وما ثم أبو بكر وعمر» انتهى، يعني أن النبي ﷺ بالإيمان أخبر لهذا الأمر المغيب.

١١- كمال دين عمر

وأخرج البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينا أنا نائم رأيت الناس عرضوا علي وعليهم قمص فمنها ما يبلغ الثدي، ومنها ما يبلغ دون ذلك وعرض علي عمر وعليه قميص اجتره» قالوا فما أولته يا رسول الله قال: الدين.

١٢- بشارة النبي ﷺ لعمر بالجنة

أخرج البخاري في صحيحه عن أبي موسى رضي الله عنه قال: كنت مع النبي ﷺ في حائط من حيطان المدينة فجاء رجل فاستفتح، فقال النبي ﷺ: افتح له وبشره بالجنة ففتحت له فإذا هو أبو بكر فبشرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله، ثم جاء رجل فاستفتح فقال النبي ﷺ: افتح له «وبشره بالجنة» ففتحت له فإذا هو عمر فأخبرته بما قال النبي ﷺ فحمد الله. ثم استفتح رجل فقال لي: افتح له وبشره الجنة على بلوى تصيبه فإذا عثمان، فأخبرته بما قال رسول الله ﷺ فحمد الله ثم قال: الله المستعان.

١٣- ومنها قوله «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه» أخرجه الترمذي وأحمد وصححه الحاكم.

وهذا الحديث يدل على فضل عمر رضي الله عنه وتوفيق الله له لإصابة الحق، وكذلك حديث التحديث والتكليم، وأحاديث أخرى في هذا الباب ولا يدل شيء من ذلك على أنه معصوم من الخطأ فلا عصمة إلا للأنبياء.

وأقتصر على هذا القدر من مناقب هذا الإمام رضي الله عنه فإنها لا تحصى إلا بكلفة

ولا يتسع لها المقام.

- **خلافته**

قال الحافظ أبوعمر بن عبدالبر في الاستيعاب:

وولى الخلافة بعد أبي بكر بويع له يوم مات أبو بكر ﷺ باستخلافه له سنة ثلاث عشرة فسار بأحسن سيرة، وأنزل نفسه من مال الله بمنزلة رجل من الناس، وفتح الله الفتوح بالشام والعراق ومصر، ودون الدواوين في العطاء، ورتب الناس فيه على سوابقهم وكان لا يخاف في الله لومة لائم، وأرخ التاريخ من الهجرة الذي بأيدي الناس اليوم، وهو أول من تسمى بأمير المؤمنين لقصة نذكرها هنا إن شاء الله تعالى، وهو أول من اتخذ الدرة وكان نقش خاتمه «كفى بالموت واعظا يا عمر».

ثم قال أبو عمر «وأما القصة التي ذكرت في تسمية عمر نفسه بأمير المؤمنين، فذكر الزبير قال: قال عمر: لما ولي كان أبو بكر يقال له خليفة رسول الله ﷺ فكيف يقال خليفة خليفة يطول هذا، قال فقال له المغيرة بن شعبة «أنت أمير المؤمنين ونحن المؤمنون فأنت أمير المؤمنين- قال: فذاك إذن».

- **استشهاد عمر وسبب قتله**

سبب قتله: المحافظة على إقامة العدل بين الناس.

قال ابن عبد البر عن الواقدي بسنده إلى الزبير بن العوام قال: غدوت مع عمر ﷺ إلى السوق وهو متكئ على يدي فلقيه أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة، ألا تكلم مولاي يضع عني من خراجي، قال: كم خراجك قال دينار، قال ما أرى أن أفعل إنك عامل محسن، وما هذا بكثير ثم قال له عمر: ألا تعمل لي رحى، قال: بلى، فلما ولَّى قال أبو لؤلؤة لأعملن لك رحى يتحدث بها ما بين المشرق والمغرب، قال فوقع في نفسي قوله، قال فلما كان في النداء لصلاة الصبح خرج عمر إلى الناس يؤذنهم للصلاة قال ابن الزبير «راوي هذا الخبر عن أبيه» وأنا في مصلاي وقد اضطجع له عدو الله أبو لؤلؤة فضربه بالسكين ست طعنات إحداها من تحت سرته هي قتلته- فصاح عمر أين عبد الرحمن بن عوف فقالوا: هو ذا يا

أمير المؤمنين فقال تقدم فصل بالناس، فتقدم عبد الرحمن فصلى بالناس وقرأ في الركعتين قل هو الله أحد، وقل يا أيها الكافرون، واحتملوا عمر فأدخلوه منزله فقال لابنه عبد الله: اخرج فانظر من قتلني، قال فخرج عبد الله بن عمر فقال من قتل أمير المؤمنين فقالوا أبو لؤلؤة غلام المغيرة بن شعبة فرجع فأخبر فقال: الحمد لله الذي لم يجعل قتلي بيد رجل يحاجني بلا إله إلا الله.

وقد روى أبو عمر وغيره في قصة استشهاد أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﵁ أخباراً كثيرة بأسانيدها وهي لا تخرج عن معنى ما تقدم.

● **تثبته في رواية الحديث عن النبي ﷺ**

كان عمر ﵁ متثبتاً في رواية الحديث عن النبي ﷺ إذا سمع أحداً يروي حديثاً عن النبي ﷺ من أصحاب رسول الله يتردد في قبوله منه حتى يتيقن وهذا مشهور عنه، فمن ذلك ما ذكره الحافظ الذهبي في التذكرة، وهو مروي في كتب الحديث أن أبا موسى الأشعري ﵁ سلم على عمر من وراء الباب ثلاث مرات فلم يؤذن، فرجع فأرسل عمر في أثره فقال لم رجعت؟ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول «إذا سلم أحدكم ثلاثاً فلم يجب فليرجع قال: لتأتيني على ذلك ببينة أو لأفعلن بك، فجاءنا أبو موسى منتقعاً لونه ونحن جلوس، فقلنا ما شأنك فأخبرنا وقال: هل سمع أحد منكم فقلنا نعم كلنا سمعه فأرسلوا معه رجلاً منهم حتى أتى عمر فأخبره. أحب عمر أن يتأكد عنده خبر أبي موسى بقول صاحب آخر ففي هذا دليل على أن الخبر إذا رواه ثقتان كان أقوى وأرجح مما انفرد به واحد.

ولا يلزم من كلام الذهبي رحمه الله أن يكون الخبر الواحد ليس بحجة أو أنه لا يفيد العلم، وإن كان أكثر العلماء من المتأخرين يقولون إن الخبر الواحد يفيد الظن فقط، ولا يفيد العلم إلا خبر التواتر، قال المحققون إن خبر الواحد قد يحتف به من القرائن ما يجعله يفيد العلم، وقد عقد البخاري رحمه الله لذلك باباً في صحيحه وأورد حججاً كثيرة فليراجع.

ولا يفهم من تثبت عمر ﵁ أنه كان لا يقول بأن خبر الواحد حجة فإنه ﵁ هو نفسه حدث بأحاديث كثيرة انفرد بها وقبل خبر الواحد وجعله حجة حين كان يفتي

بأن من أجنب ولم يجد ماء ألا يتيمم بل يترك الصلاة حتى يجد الماء فجاءه عمار ابن ياسر وذكر أنه كان معه في سرية فأجنبا جميعاً فأما عمر فترك الصلاة، وأما عمار فتمعك كما تتمعك الدابة في الصعيد، فلما رجعا أخبرا النبي ﷺ فقال لعمار: «إنما يكفيك أن تفعل هكذا» وضرب بيده الأرض ضربة واحدة فمسح بها وجهه وظاهر كفيه صل الله عليه فعند ذلك قال عمر لعمار أبصر ما تقول يا عمار، فقال إن شئت لم أحدث به، فقال لا بل نحملك ما تحملت والقصة مشهورة في كتب الحديث.

● **بعض مروياته**

لا يتسع المقام لذكر كثير من مرويات هذا الإمام وهي سهلة التناول في كتب الحديث، ولا سيما كتاب المسند للإمام أحمد بن حنبل، فقد روى عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه (٣١٠) أحاديث ولكني أردت أن أنتخب بعض مروياته لأختم بها هذا المقال تبركاً ليكون ختامه مسكاً وسأذكره بترتيب المحقق أحمد شاكر رحمه الله - ٨٩- قال الإمام أحمد بسنده عن معمر بن أبي طلحة اليعمري إن عمر بن الخطاب قام على المنبر يوم الجمعة فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر رسول الله ﷺ وذكر أبا بكر ثم قال: رأيت رؤيا لا أراها إلا لحضور أجلي، رأيت كأن ديكا نقرني نقرتين، قال وذكر لي أنه ديك أحمر فقصصتها على أسماء بنت عميس امرأة أبي بكر فقالت: يقتلك رجل من العجم قال وإن الناس يأمرونني أن أستخلف وإن الله لم يكن ليضيع دينه وخلافته التي بعث بها رسول الله ﷺ وإن يعجل لي أمر فإن الشورى في هؤلاء الستة الذين مات نبي الله ﷺ وهو عنهم راض، فمن بايعه منهم فاسمعوا له وأطيعوا، وإني أعلم أناسا سيطعنون في هذا الأمر أنا قاتلتهم بيدي هذه على الإسلام، أولئك أعداء الله الكفار والضلال وأيم الله ما أترك فيما عهد إلى ربي فاستخلفني شيئاً أهم إلي من الكلالة وأيم الله ما أغلظ إلي نبي الله ﷺ في شيء منذ صحبته أشد مما أغلظ لي في شأن الكلالة حتى طعن بإصبعه في صدري، وقال تكفيك آية الصف التي نزلت في آخر سورة النساء وإني إن أعش فسأقضي فيها بقضاء

يعلمه من يقرأ ومن لا يقرأ وإني أشهد الله على أمراء الأمصار، وإني إنما بعثتهم ليعلموا الناس ويبينوا لهم سنة نبيهم ﷺ ويرفعوا إلي ما عمي عليهم، ثم إنكم أيها الناس تأكلون من شجرتين لا أراهما إلا خبيثتين هذا الثوم والبصل، وأيم الله لقد كنت أرى نبي الله ﷺ يجد ريحهما من الرجل فيأمر به فيأخذه بيده فيخرج به من المسجد حتى يؤتى به البقيع، فمن أكلهما لا بد فليمتهما طبخاً، قال فخطب الناس يوم الجمعة وأصيب يوم الأربعاء» رواه مسلم أيضاً.

٩- قال الإمام أحمد بسنده عن عبد الله بن عمر قال: خرجت أنا والزبير والمقداد بن الأسود إلى أموالنا بخيبر نتعاهدها فلما قدمناها تفرقنا في أموالنا، قال فعدي علي تحت الليل وأنا نائم على فراش ففدعت يداي من مرفقي فلما أصبحت أستصرخ على صاحبي فأتياني فسألاني عمن صنع هذا بك، قلت لا أدري، قال فأصلحا من يدي ثم قدما بي على عمر فقال: هذا عمل يهود، ثم قام في الناس خطيباً، قال أيها الناس إن رسول الله ﷺ كان عامل يهود خيبر على أنا نخرجهم إذا شئنا وقد عدوا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما بلغكم من عدوتهم على الأنصار قبله لا نشك أنهم أصحابهم ليس لنا هناك عدو غيرهم من كان له مال بخيبر فليلحقه به فإني مخرج اليهود فأخرجهم.

قال الإمام أحمد بسنده عن الحارث بن معاوية الكندي أنه ركب إلى عمر بن الخطاب يسأله عن ثلاث خلال: قال فقدم المدينة فسأله عمر ما أقدمك؟ قال لأسألك عن ثلاث خلال، قال وما هن؟ قال ربما كنت أنا والمرأة في بناء ضيق فتحضر الصلاة فإن صليت أنا وهي كانت بحذائي، وإن صلت خلفي خرجت من البناء؟ فقال عمر تستر بينك وبينها بثوب ثم تصلي بحذائك إن شئت، وعن الركعتين بعد العصر، فقال نهاني عنهما رسول الله ﷺ قال وعن القصص؟ فإنهم أرادوني على القصص؟ قال ما شئت كأنه كره أن يمنعه قال إنما أردت أن أنتهي إلى قولك قال: أخشى عليك أن تقص فترتفع عليهم في نفسك ثم تقص فترتفع حتى يخيل إليك أنك فوقهم بمنزلة الثريا فيضعك الله تحت أقدامهم يوم القيامة بقدر ذلك.

● **في هذا الحديث فوائد أذكر بعضها:**

الأولى: علو همة السلف وجدهم وصدقهم في طلب العلم فإن الحارث بن معاوية سافر إلى عمر ليسأله عن هذه المسائل الثلاث وكان في إمكانه أن يكتب إليه أو أن يكلف أحد المسافرين أن يسأله ويأتيه الجواب.

الثانية: فقه عمر ﷺ إذ أفتاه أن يجعل ثوباً يحول بينه وبين المرأة وتصلي إلى جانبه فكأنه فهم أن الحكمة في تأخر الزوجة إذا اقتدت بزوجها منع الملامسة وما أشبهها من الاستمتاع كالنظر فأباح صلاتها إلى جانبه للضرورة.

الثالثة: كان عمر ﷺ شديداً على من يصلي ركعتين بعد العصر حتى إنه تغيظ على علي بن أبي طالب حين صلاهما والذي نختاره وندين الله به أن النافلة بعد العصر لا تجوز حتى تغرب الشمس سواء أكان لها سبب أم لا.

الرابعة: اللغة وما أعظمها من فائدة وأجدرها بالاعتبار وهي القصص ومعنى القصص في لغة ذلك الزمان الوعظ والتعليم فقد خاف عمر ﷺ على سائله مع فضله وتقواه وورعه إذا انتصب للوعظ والإرشاد أن يشعر بالتعاظم والكبر فيخسر خسراناً مبيناً فنهاه عن ذلك.

ومحل ذلك إذا كان هناك من العلماء من يقوم لهذا الواجب ولم يتعين عليه وإلا وجب عليه أن يستعين بالله تعالى على النفس الأمارة ويعظ ويعلم ويرشد ولا يترك الوعظ خوفاً من ذلك.



٢٠ مقالات

الشيخ حمد الجاسر

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- رحلة إلى طيبة (١).

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) _ مارس (١٩٦٨م).

٢- رحلة إلى طيبة (٢).

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) _ إبريل (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ

حمد الجاسر



● مولده ونشأته

هو حمد بن محمد بن جاسر عالم وباحث سعودي، ولد سنة ١٣٢٨ هـ في قرية البرود من إقليم السر في منطقة نجد من أب فقير.

درس القضاء الشرعي وعمل قاضياً، وهو عضو سابق في أكاديميات بغداد ودمشق والقاهرة.

عمل في قطاع التعليم، والقضاء، والصحافة والنشر، وأنشأ اليمامة، أول صحيفة في الرياض، في عام ١٩٥٢، وتبعتها جريدة الرياض في عام ١٩٧٦م وأخيرا العرب، وهي فصلية متخصصة في تاريخ وآداب شبه الجزيرة العربية.

أنشأ حمد الجاسر أول دار للطباعة في نجد في عام ١٩٥٥، وفي عام ١٩٦٦م أنشأ دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر.

أسهم حمد الجاسر في ثقافة وطنه كعلّامة ومؤرخ وجغرافي، حيث كان أول مدير لكليتي الشريعة واللغة العربية في الرياض اللتين كانتا النواة لإنشاء «جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية».

وخلّف العديد من الكتب التي تحمل اسمه والتي تغطي حقولا متنوعة من المعرفة: من المصورات الجغرافية والتاريخية إلى أدب الرحلات وكتب السيرة وطبعات نقدية للنصوص التراثية الهامة منها: «إطلالة على العالم الفسيح، معجم

قبائل المملكة العربية السعودية، مع الشعراء، نظرات في كتاب تاج العروس» وغيرها.

● **وفاته:**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ يوم الخميس ١٦ رجب ١٤٢١ هـ (١٤ سبتمبر ٢٠٠٠م) بعد حياة حافلة بالعطاء، فرحمه الله رحمة واسعة.

رحلة إلى طيبة (١)

العدد (٣٧) محرم (١٣٨٨هـ) - مارس (١٩٦٨م).

الغاية من الحديث عن هذه الرحلة تكاد تنحصر في جانب واحد، هو أن كثيرا من مواضع بلادنا لا يزال محتفظا باسمه القديم الذي نقرأه في كتب التاريخ والرحلات وفي شعر الشعراء المتقدمين.

وقد خطر لي- أثناء تعليقي على القسم المتعلق بتحديد الأمكنة من كتاب اللغوي المعروف مجد الدين الفيروزآبادي عن تاريخ المدينة النبوية المسمى «المغانم المطابة من معالم طابة» - خطر لي القيام بزيارة البلدة الطيبة، لعلي أستطيع أن أحدد بعض الأماكن القريبة منها مما ذكره الفيروزآبادي أو التابعة لها على ما جاء في كتابه تحديدا صحيحا.

وكنت ضعيف الأمل في الاهتداء إلى معرفة تحديد كثير من الأمكنة لتغير الأسماء وانقطاع تدوين تحديدها منذ أمد بعيد.

وقلت في نفسي: لتكن تجربة، أقوم بها متتبعا طريق هجرة المصطفى ﷺ إذ العلماء أَوْلَوا آثاره، عليه الصلاة والسلام، عناية فاقت كل عناية.

وكان أن رجعت إلى أقدم المؤرخين الذين حددوا معالم تلك الطريق، وأقدم من استطعت الحصول على تحديده، هو ابن هشام مختصر سيرة ابن إسحق، ثم ابن جرير من بعده، فنقلت أسماء المواضع التي ذكرها هذان العالمان من كتابيهما المعروفين.

ووجدت من كرم أخي الأستاذ أبي الخضر عبدالرحمن الشيباني ما يسر لي وهيأ كل وسيلة لتحقيق إربي، فكان أن قمت بتلك الرحلة القصيرة إلى المدينة، وإن لم تكن كاملة من كل ناحية، إلا أنها بعثت في نفسي آمالا طيبة، وكان لها من

الآثار الحسنة ما ملأت فؤادي تفاؤلا بأن كثيرا من معالم تاريخنا، وما يتعلق بتحديد المواضع الأثرية في تاريخنا لا يزال سهلا ميسورا.

للمدينة المنورة من مكة طرق كثيرة أشهرها ثلاثة:

١- الطريق الساحلية التي تسير بمحاذاة ساحل البحر الأحمر - بحر القلزم- حتى تحاذي بلدة «بدر» التي كانت في السابق إحدى المحطات الرئيسية لطرق القوافل في غربي الجزيرة إلى الشام والتي حدثت فيها الوقعة العظيمة التي انتصر فيها الإسلام أعظم انتصار في عهد الرسول عليه الصلاة والسلام.

ومن بدر يتجه المرء إلى المدينة ذات اليمين، سائرا مع واديها الذي أعلاه «وادي الصفراء» حيث تجتمع أودية كثيرة تنحدر من السلسلة الجبلية جنوب المدينة- وسيأتي الحديث عنها- ثم يسلك المرء أحد تلك الأودية متجها صوب الشمال، حتى ينتهي منحدرا في واد آخر ويفضي به الطريق بعد ذلك إلى وادي العقيق مدخل المدينة المنورة.

٢- الطريق النجدية وهي طريق تتجه من مكة مشرقا حتى تقطع سلسلة جبال الحجاز ثم تسير منحرفة نحو الشمال بمحاذاة تلك السلسلة الجبلية مارة بأودية كثيرة ومخترقة قسما من بلاد هذيل، ثم بلاد بني سليم وطرفا من بلاد مزينة، ثم تأتي إلى المدينة من الناحية الشرقية، وهذه الطريق كانت مسلوكة إلى عهد قريب، وقد كان للعمل في معدن بني سليم - الذي تمر تلك الطريق بقربه في الأزمنة الأخيرة - كان للعمل في ذلك المعدن من الأثر ما أحيا هذه الطريق، وأصلح كثيرا من المواضع التي تحتاج إلى إصلاح وتقع محطات لها أو قريبة منها.

٣- الطريق الوسطى التي تعتبر الطريق الرئيسية إلى المدينة من مكة، وهذه تمر بكثير من الأودية وتعترضها عقبات، وأمكنة وعرة، وكانت قوافل الحجاج والزوار في العصور القديمة تسلك هذه الطريق، وقبل عشر سنوات أُصِلح بعضها حتى صار طريقا للسيارات، ومن أشهر العقبات التي تقع في هذه الطريق، عقبة «هرشا» وقد عبدت قديما لسلوك القوافل ثم سهلت لمرور السيارات.

وتجتمع هذه الطريق مع طريق الساحل في محطة تعرف قديما باسم

«المنصرف» وحديثا باسم «المسيجيد» قرية كبيرة الآن.

وهناك طرق فرعية أخرى، إلا أن فيها كثيرا من الوعورة بحيث لا تجتازها الإبل إلا بمشقة كطريق «الغاير» التي تتجه إلى المدينة قبل محطة «المسيجيد» بما يقارب مرحلة بسير الإبل.

ولحسن الحظ فإن هذه الطريق على وعورتها ومرورها في أودية رملية وتلاع صخرية، فإنها لا تزال تُسْلَك حتى عهدنا الحاضر، لأن الزوار في شهر رجب يسلكونها لاختصارها ولكونها هي الطريق القديمة وأكثر من يسلكها راكبو «الحمير» الذين يسيرون في موكب معروف في شهر رجب من مكة، ويجوزون ثنية الغائر، مشاة أو ركبانا فوق دوابهم فيصلون إلى قمة السلسلة الجبلية الواقعة بقرب المدينة ثم ينزلون مع وادي «ريم» إلى وادي العقيق في المدينة.

ومما ينبغي الانتباه له، أن بعض المتقدمين قد يحددون جبلا أو موقعا بأنه على الطريق بين مكة أو في شمال الطريق أو يمينه، وإذا لم يكن لدى الباحث العام معرفة بتلك الطرق وتعددها، قد يقع في إشكال من هذه الناحية.

ومثال ذلك ما ذكره بعضهم من أن جبل «عير» وهو جبل عظيم لا يزال معروفا ومشاهدا بقرب المدينة يقع على يمين طريق المتوجه من المدينة إلى مكة، وهذا الكلام حق بالنسبة لمن سلك طريق «ريم» ونزل من ثنية «الغائر» ولكن من أتى مع الطريق الوسطى مارا بالسيالة فملل فالفرش، يدعه عن يمينه إذا اتجه إلى المدينة، وعلى يساره إذا اتجه إلى مكة.

وملاحظة أخرى ينبغي إدراكها: هي أن الاسم قد يطلق على عدة مواضع، وكثير من المتقدمين لا يفرقون بين تلك المواضع، فيوردون تعاريفها وما قيل في تحديدها عند الكلام على إحداها فيقع الالتباس، ويقع التضارب عند المتقدمين عندما يحاولون تحديد موضع من المواضع، إذ يعتمد أحدهم على قول، ويعتمد الآخر على قول ثان يخالفه في ظاهر الأمر، وقد يكون في الواقع منطبقا على موضع آخر، بعيد عن الموضع المقصود، وأمثلة ذلك كثيرة فيما بين أيدينا من معجمات الأمكنة، وكتب التاريخ والرحلات، التي حاول مؤلفوها إيراد ما جاء

عن المتقدمين في تحديد بعض الأمكنة التي يتعرضون لذكرها.

ولقد سلك رسول الله ﷺ عندما هاجر إلى المدينة طريقا غير الطريق التي اعتاد الناس في ذلك العهد سلوكها، يقول السهيلي- في الروض- حاكيا عن دليلهما: فكنت آخذ بهم في إخفاء الطريق، وَفَقِه هذا أنهم كانوا خائفين، فلذلك كان يأخذ بهم إخفاء الطريق ومخارمه. أ. هـ.

وعندما خرج هو وصاحبه الصديق رضي الله عنه أخذهما دليلهما فسلك بهما أسفل مكة، ثم مضى على الساحل، حتى عارض الطريق أسفل «عسفان» ثم سلك بهما على أمج، ثم جاز بهما، تاركا الطريق على يمينه، وقد فعل ذلك خوفا من ترصد قريش للرسول ﷺ.

وإذا أردنا أن نبحث عن تحديد المواضع التي ذكرها ابن هشام وغيره فإنها تبدو بهذا الترتيب:

١- أسفل عسفان معروف، وهو أسفل الوادي عندما يصب في البحر بقرب «ذهبان» الذي يبعد عن جدة «٥٠» كيلا.

٢- أمج، وأمج هو أسفل وادي «ساية» الوادي الذي يقع في أسفله «خليص».

وقد حدد المتقدمون المسافة بين «عين خليص» وبين أمج، بميلين، أي أن العين بعد أمج للمتوجه إلى المدينة، وهذا الوادي يجتمع مع وادي «غران» فيكونان واديا واحدا يفيض في البحر فيما بين «ذهبان» «وثول».

٣- قديد: واد طويل، ويظهر أن طريق الرسول ﷺ كان على أسفل الوادي، لأن ابن هشام وغيره ذكر أن الدليل سلك بهما الخرار بعد قديد.

٤- والخرار على ما ذكر المتقدمون قريب من «الجحفة» وبعضهم يعده فيها، والجحفة لا تزال معروفة، فكأن الدليل جاز وادي «الستارة» وهو أسفل «قديد» ويصب في البحر فيما بين «القظيمة» و«ثول» ثم سار قريبا من الساحل حتى جاز «الخرار» ثم أخذ ثنية تدعى «ثنية المرة».

٥- وثنية المرة لم أجد من يعرفها، ولكن يوجد بجهة «كلية» فيما بينها وبين «رابغ» ثنية يسلكها المتوجه إلى «كلية» والمتقدمون يقولون: عن ثنية المرة: إنها

قريبة من ماء يدعى «الإحياء» وأنه في وادي «رابغ».

٦- ويسوق المتقدمون خبر الطريق فيذكرون أن الرسول ﷺ بعد «ثنية المرة» سلك «لقفا».

ولقف هذا واد لا يزال معروفا، وهو من روافد «وادي النخل» يقع بين وادي «الفرع» ووادي «مجاح» ويفيض في وادي النخل عند محطة «بئر رضوان» التي تبعد عن «بئر مبيريك» مسافة تقرب من «٣٠» كيلا من جهة مطلع الشمس.

ووادي النخل يصب في «القاحة» عند بئر «مبيريك» ووادي «القاحة» يصب في وادي «الأبواء» وقول ابن هشام: إن «لقفا» يقال له «لفت» واستشهاده بشعر معقل بن خويلد الهذلي على ذلك، يظهر أنه تصحيف، فابن إسحق أعرف منه بتلك المواضع لقدمه ولإقامته في المدينة، وقد سماه «لقفا».

ويظهر من سياق الخبر أن الرسول ﷺ ترك طريق ثنية «هرشا» يساره إذ هي الطريق المعروفة وأنه نزل من «مدلجة لقف».

٧- و«مدلجة لقف» تلعة كبيرة، تصب في وادي «لقف» تبعد عن «بئر رضوان» مسافة ١٠ أكيال إذا سندت في وادي «لقف» تفيض فيه من جهة الشمال.

٨- وفي الخبر: ثم استبطن بهما «مدلجة مجاح».

و«مدلجة مجاح» رافد من روافده لا يزال معروفا.

٩- أما مجاح فقد ورد بصيغ مختلفة «محاج» و«مجاج» و«مجاح» والأخيرة هي الصواب، وقد لاحظ هذا السهيلي حيث قال: وقد ألفيت شاهد الرواية ابن إسحق في لقف وفيه ذكر «مجاح» بالحاء المهملة بعد الجيم، وهو قول محمد بن عروة بن الزبير:

لعن الله بطن لقف، مسيلا ... و«مجاحا» وما أحب «مجاحا»!!

لقيت ناقتي به، وبـ«لقف» ... بلدا مجدبا، وأرضا شحاحا!

إن وادي «مجاح» لا يزال معروفا، وهو من فروع وادي النخل، يصب فيه قبل اجتماعه بوادي «القاحة»، بما يقرب من ٥ أكيال قبل «بئر مبيريك».

١٠- وورد في الخبر «مدلجة مجاح».

وهي رافد من روافده، ولا يزال معروفا، ومدلجة «لقف» ومدلجة «مجاح» يتقاربان حتى يلتقيا.

١١- ثم سلك بهما «مرجح مجاح».

«مَرْجِح» رافد من روافد «مجاح» مقابل لمدلجة مجاح، يصب فيه، وقد ورد في كتاب البلدان لنصر بن عبدالرحمن الإسكندري مصحفا: «مُدَجِّج» بضم الميم، وفتح الدال وتشديد الجيم الأولى وكسرها، والصواب: بفتح الميم وسكون الراء، وجيم مكسورة، بعدها حاء مهملة.

١٢- وجاء في الخبر: ثم تبطن بهما مرجح من ذي الغضوين، قال ابن هشام: ويقال «العضوين»، وأقول: المعروف الآن عند أهل الجهة «العصوين» بالعين والصاد المهملتين، تثنية عصا، وهما تلعتان كبيرتان، كل واحدة منهما تسمى «العصا» تلتقيان، ثم تصبان في وادي «مجاح» بقرب اجتماعه بوادي النخل، وأرى أن الغضوين أو العضوين تصحيف.

١٣- ثم بطن «ذي كشر».

يعرف هذا الموضع الآن باسم «أم كِشْد» بكاف مكسورة، وشين معجمة ساكنة، ودال مهملة، لا كما جاء في «سيرة ابن هشام» وفي «معجم البلدان» «وأم كشد» هذه تلعة تصب في وادي يدعى «ثقيب» وهو واد يجتمع مع وادي «القاحة» بعد أن يتجه المرء من «بئر مبيريك» إلى جهة المدينة، بما يقرب من ٥١ كيلا.

فكأن طريق الرسول ﷺ ترك وادي «القاحة» يسارا في هذه الجهة، ثم التقى بهذا الوادي فيما بعد.

١٤- وفي الخبر: ثم أخذ بهما على «جداجد» وهو واد صغير من روافد وادي «ثقيب».

١٥- وورد في الخبر ذكر «الأجرد» و«ذي سلم».

والأجرد يسمى الآن «أجيرد» بالتصغير «وذو سلم» يسمى «أم السلمة».

بعد أن يقطع المسافر ما يقرب من ثمانية أكيال سائرا في وادي «ثقيب» يصل

إلى موضع يدعى «البستان» مسكون، ومنه طريق إلى «الفرع» حيث اتجاه أعلى «ثقيب» وعلى بعد أقل من كيل واحد تقع «أم كشد» وهي وادٍ «أجيرد» على الشمال منها و«أم السلمة» تلعة كبيرة تصب في «أجيرد» وكلها تصب في «ثقيب» ثم يسير الطريق المتجهة إلى «القاحة» تاركا «أجيرد» على يمينه، جازعا أعلاه، وبعد أن يتركه ينحدر في تلعة تصب في وادي «القاحة» حيث ترجع الطريق إليها مرة أخرى.

١٦- وورد في الخبر أسماء منها «تعهن» و«أعداء».

أما «تعهن» فإنها واد كبير يصب في «القاحة» عند المحطة المعروفة الآن باسم «أم البرك» وقديما باسم «السقيا» كما سيأتي الحديث عن مراحل الطريق العام.

والغريب أن أهل تلك الجهة ينطقون هذا الاسم «تعهن» بفتح التاء بإمالة نحو الكسر، وكسر العين بالهاء المشددة المكسورة بعدها نون.

١٧- وذكر ابن هشام في سياق خبر الهجرة بعد أعداء مدلجة تعهن قال: ثم العبابيد، قال ابن هشام: ويقال: العبابيب، ويقال: العثيانة، يريد العبابيب.

لم أجد أحدا يعرف شيئا عن هذا الموضع الذي ذكر له ابن هشام ثلاثة أسماء، مع أن من قابلتهم لم يكونوا من أهل الموضع الذي يقع بعد «تعهن» ذلك أنني مررت بتلك الناحية ليلا، فلم أصادف أحدا من أهلها.

ولعل أخي الأستاذ سليمان سليم مدير التعليم في تلك النواحي يكرم (وهو كريم) فيحقق للقراء هذا الموضع وغيره مما تقدم أو سيأتي ذكره، فالمار والذي من غير أهل البلاد يفوته الشيء الكثير.

١٨- قال ابن هشام: ثم أجاز بهما الفاجة، ويقال القاحة (فيما قال ابن هشام).

وقول ابن هشام هنا هو الصواب، فالقاحة بالقاف ثم الحاء المهملة المفتوحة بعدها هاء، واد عظيم يفيض فيه في أعلاه وادي «تعهن» والسالك مع هذا الطريق بعد «تعهن» يجوزه، بقرب ما يدعى الآن «أم البرك» جمع بركة وهي قرية كانت كبيرة، إلا أنها ضعفت الآن، وكانت تدعى قديما «السُّقيا» بالسين المهملة

المشددة المضمومة بعدها قاف ساكنة فياء مثناة تحتية مفتوحة معدودة، وهي سقيا بني غفار قبيلة معروفة قديما كانت من مساكنها في القديم، وأعالي «السقيا» تبتدئ من مكان يبعد عن «أم البرك» بما يقارب ٥٤ كيلا بعد أم البرك للمتوجه إلى المدينة، عند محل يدعى «الرصفة» وهو جبل منحوت قديما لسلوك المسافرين أرضه مرصوفة.

ويمتد وادي القاحة من هذا المكان متجها صوب الجنوب حتى يفيض في وادي «الأبواء» وتجتمع به أودية كثيرة من أشهرها وادي «ثقيب» ووادي «النخل» الذي يفيض فيه سيل واديي «مجاح» و«القف» وأودية أخرى كثيرة تقدم ذكر بعضها.

١٩- وقال ابن هشام: ثم هبط بهما «العرج».

والعرج على ما ذكر المتقدمون يبعد عن أول وادي «القاحة» بما يقارب ثلاثة عشر ميلا ولعله هو أعلى ما يسمى الآن وادى «الجي» بجيم مكسورة بعدها ياء مشددة، وهو يبعد عن أعلى وادي «القاحة» بما يقارب الميل الواحد، هذا أعلاه، فكأن طريق الرسول ﷺ جزعه من أثنائه.

ووادي «الجي» ليس له ذكر عند المتقدمين فهم لا يذكرون إلا «موضع الجي» ويقولون إنه منازل فيه بئران، عذبتا الماء، وأنه في سفح جبل، وأن «ورقان» الجبل العظيم المعروف ينتهي عنده، ويحددون المسافة بينه وبين «عقبة العرج» بأقل من عشرة أميال، ويقولون بأن عقبة العرج بين جبلي «قدس» و«ورقان» وهذا الوصف ينطبق على أعلى وادي «الجي» فكأن اسم الجي غلب على وادي العرج لوقوع الجي في أعلاه.

أما «قدس» هذا فكان من أشهر الجبال القديمة وأعرفها، ويسمونه الآن «إدقس» بهمزة مكسورة بعدها دال ساكنة، فقاف فسين، تحريف للاسم القديم.

من أول وادي الجى تتجه سيول الطريق مغربة حيث تجتمع كل الأودية الواقعة دون المدينة عن يسار جبل ورقان وهي السلسلة الجبلية الممتدة من نهاية وادي الجي إلى نهاية وادي «الروحاء» مما يسيل من هذه السلسلة وغيرها فتكون أودية عظيمة تجتمع بهذا الوادي المسمى الآن بوادي الجي ثم يجتمع معها وادي

الروحا، ووادي «النازية» بتخفيف الياء ووادي «وحقان» وتفيض كلها بوادي الصفراء ثم تتجه صوب البحر غربا حتى تصب فيه جنوب «مستورة» موضع «ودان» القديم.

لقد ترك الرسول ﷺ كل هذه المواضع بيساره وعدل عن الطريق المعروف وسلك ثنية الغائر.

٢٠- وجاء في السير من رواية ابن هشام وغيره أن الرسول ﷺ بعد أن هبط العرج، خرج منه، فسلك ثنية العائر عن يمين ركوبه، ويقال «الغائر».

والعائر بالعين المهملة تصحيف صوابه الغائر بالغين المعجمة وهي ثنية لا تزال معروفة، ويسلكها الذين يذهبون للزيارة قديما مشاة أو على الدواب، وهي ثنية صعبة السلوك، وغير معبدة في الوقت الحاضر، ولا تسلكها الإبل إلا بجهد ومشقة.

وعندما رغبت المرور بها، لم أجد في تلك الناحية أحدا يرشدني إلى الطريق، وقيل لي: إن الإبل- في هذا العام لتوالي الجدب- هزيلة ومن الأيسر أن أنزل معها نزولا من جهة المدينة.

٢١- وقال ابن هشام بعد ذكر ثنية الغائر: «حتى هبط بهما بطن «رئم».

ورئم هذا وهو ينطق الآن بتسهيل الهمزة «ريم»، وهو واد من روافد وادي عقيق المدينة، لايزال معروفًا.



رحلة إلى طيبة (٢)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م)

يحسن إيراد وصف موجز للطريق العام الذي سار، عليه الصلاة والسلام، بقربه ولم يسلكه.

ولقد عني المتقدمون بتحديد مواقع هذا الطريق عناية كبيرة، كما عني ملوك المسلمين المتقدمون بإصلاحه ووضع العلامات التي تحدد المسافات فيه، لأنه الطريق الذي يصل بين المدينتين الكريمتين من أقرب المسافات، ولكن هجران هذا الطريق منذ أن اختل الأمن في أثناء العهد العباسي جعل الناس ينصرفون عنه لوقوع أكثر منازله بين أودية وجبال تحتلها القبائل الذين كثيرا ما تقسو عليهم الحياة وتضطرهم إلى النهب والسلب أثناء عجز ولاة تلك النواحي عن تأمين ذلك الطريق.

وكان من أهم الأمور التي دعت إلى تحديد منازل هذا الطريق سلوك الرسول ﷺ وسيره فيه أثناء أسفاره من المدينة إلى مكة، والمتقدمون كانوا يُعنون بتتبع آثار الرسول ﷺ وخاصة مساجده.

وقد كان من أبرز من عني بتحديد منازله من العلماء المتقدمين عالم يدعى أبا عبدالله محمد بن أحمد الأسدي[(١)] ولا نعرف عن هذا العالم إلا ما أورده السمهودي مؤرخ المدينة عنه فهو يقول «إنه من المتقدمين» يؤخذ من كتابه أنه كان في المائة الثالثة»[(٢)]. وقد ذكر أن له منسكا حدد فيه أمكنة المساجد النبوية، وأورد السمهودي ذلك التحديد مفرقا في كتابه.

---

(١) وفاء الوفاء ١/ ٨٦ الطبعة الأولى.

(٢) المصدر السابق ٢/ ١٦٤ .

ويظهر مما نقل السمهودي عنه أنه من جهة العراق لوصفه مواضع تقع في طريق البصرة إلى مكة في نجد[١] ومواضع أخرى تقع في طريق الكوفة كتحديده للطريق من فيد إلى المدينة[٢] وقد حدد مواقع في طريق المدينة إلى مكة، الطريق النجدية مثل «أفاعية»[٣] وحدد الطريق من ذات عرق وهو ميقات أهل المشرق[٤].

وقد نقل القاضي عياض في شرح مسلم عند الكلام على أهاب عن عالم يدعى الأسدي ووصفه بأنه من مشائخه، ولا نعلم هل هو هذا أم غيره. يحدد المتقدمون مراحل هذا الطريق على النحو الآتي:

- من المدينة إلى الشجرة ٦ أميال، ومعروف أن الشجرة في ذي الحليفة مكان الإحرام المعروف الآن بأبيار علي.

ويستمر الطريق القديم مع الطريق الذي تسكله السيارات الآن إلى المسيجيد، ومن أشهر المواضع القديمة فيه «الروحاء»، ولا تزال معروفة وكانت لها شهرة قديمة، ويروى عن الرسول ﷺ أنه قال، وهو في وادي الروحاء، مشيرا إلى الجبل العظيم الممتد عن يسار المتجه إلى مكة: «ما اسم هذا الجبل؟» فقالوا: «ورقان» فقال: اسمه «حمت» جبل من جبال الجنة، اللهم بارك لنا فيه وبارك لأهله فيه، أتدرون ما اسم هذا الوادي، يعني وادي الروحاء؟ هذا سجاسج، لقد صلى في هذا المسجد قبلي ٧٠ نبيا ولقد مر بها- يعني الروحاء- موسى بن عمران في ٧٠ ألفا من بني إسرائيل عليه عباءتان قطوانيتان على ناقة له ورقاء، ولا تقوم الساعة حتى يمر بها عيسى ابن مريم حاجا أو معتمرًا. والحديث من رواية ابن زبالة ومعروف مقامه عند المحدثين.

ولقدم الروحاء نشأت فكرة وجود قبر مضر بن نزار فيها، كما أشار إلى ذلك البكري في «معجم ما استعجم».

---

(١) وفاء الوفاء ٢/٢٢٨.
(٢) نفس المصدر ٢/٢٦١ .
(٣) المصدر السابق ٢/٢٤٨ . .
(٤) نفس المصدر ٢/١٨٣ .

ويشاهد المرء غرب البئر والمسجد آثار بناء قديم ومقابر كثيرة هناك، وتبعد الروحاء هذه عن المدينة بما يقارب ٨٠ كيلا، وبعد الروحاء بأربعة أكيال يمر المسافر بطرق جبل عن يمينه يسمى عرق الظبية، بجواره مسجد متهدم وآثار قبور بطرف المسجد، وللمسجد هذا ذكر عند المتقدمين، حيث يعدونه هو ومسجد الروحاء من المساجد النبوية، والذي يعنينا من هذا هو الإشارة إلى قدم هذه المواضع.

ومن الروحاء إلى المسيجيد، القرية الكبيرة الآن ٨ أكيال، والمسيجيد اسم حديث، ويعرف قديما باسم المنصرف (بفتح الصاد) وفيه مسجد يعرف بمسجد الغزالة لا يزال معروفا، وهو قديم أيضا ذكره البخاري في صحيحه.

وسيل وادي الروحاء يفضي إلى المنصرف، ولهذا يسمى منصرف الروحاء، ويجتمع مع أودية النازية ورحقان ووادي الجي ثم تفيض هذه الأودية على الصفراء.

والطريق القديم ينصرف من المنصرف ذات اليسار، متجها صوب الجنوب، تاركا الطريق المعروف الآن بيمينه.

ومن الأمكنة القديمة التي كان يمر بها هذا الطريق الرويثة، وكانت من أشهر منازله، فيها آبار وحياض ويقع بقربها جبلان يدعى الشرقي منهما «الحسناء» ويدعى الغربي «الحمراء» ولا تزال آثار قرية الرويثة باقية بعد أن ينزل المرء في الوادي يشاهد تلك الآثار عن يمينه، ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الروحاء بـ ١٥ ميلا على وجه التقريب.

ومن الرويثة إلى السقيا، وهذه درس اسمها، وتعرف الآن باسم أم البرك، وقد نقل السمهودي عن الأسدي أن في السقيا أكثر من ١٠ آبار، وأن عندها بركة وفيها عين غزيرة الماء تصب في بركة المنزل، وهي تجري إلى صدقات الحسن بن زيد، عليها نخل وشجر كثير، وكانت قد انقطعت ثم عادت في سنة ٣٤٢ هـ، ثم انقطعت في سنة ٣٥٢هـ، وعلى ميل منها تقع صدقات الحسن، فيها من الآبار المزروعة ٣٠ بئرا وفيها ما أحدث في أيام المتوكل ٥٠ بئرا، ماؤهن عذب وطول

رشائهن قامة وبسطة وأقل وأكثر، وعلى ثلاثة أميال من السقيا عين يقال لها «تعهن»، انتهى كلامه. وهذه السقيا تعرف قديما بسقيا بني غفار، تفريقا بينها وبين السقيا التي في وادي الجزل، وتقع السقيا هذه في أعلى وادي القاحة، حيث يلتقي بوادي تعهن.

وقبل السقيا هذه يمر المسافر بواد عظيم هو وادي الجي، وقد ذكرنا فيما تقدم أن هذا الوادي ليس له ذكر عند المتقدمين، وهذا سهو منا فقد ذكروه.

جاء في رسالة عرام بن الأصبغ السلمي: «ورقان جبل أسود عظيم ينقاد من سيالة إلى المتعشي بين العرج والرويثة، ويقال للمتعشي الجي، وبسفح ورقان من عن يمين سيالة ثم الروحاء ثم الرويثة ثم الجي».

وقال ياقوت في المعجم: «جي بالكسر واد عند الرويثة بين مكة والمدينة ويقال له المتعشي، وهناك ينتهي طرف ورقان وهو في ناحية الجبل الذي سال بأهله وهم نيام فذهبوا والله أعلم!» وهذا القول لنصر الإسكندري.

إن الطريق من المسيجيد إلى أم البرك المعروفة قديما بالسقيا، يتجه إلى الشرق ثم إلى الجنوب، وعندما يقبل على أم البرك، ينعدم اتجاهه إلى الجنوب فيتجه شرقا يميل نحو الشمال، ولا يزال على هذا الاتجاه حتى يصل مدينة رابغ.

أما الطريق الحديث، فإنه من المسيجيد يتجه غربا ثم يأخذ في الاتجاه صوب الجنوب عندما يصل بلدة بدر ويستمر بمحاذاة البحر.

وأهم المواضع الأثرية الواقعة على الطريق القديم بعد السقيا عين تعهن، وقد ضعفت هذه العين منذ أمد طويل، ولم يبق الآن سوى آثارها، يدعها المرء عن يساره إذا اتجه من السقيا إلى الأبواء.

يسير المتجه في وادي القاحة، والسقيا في هذا الوادي، ويلتقي بوادي تعهن بعد السقيا بكيلين اثنين تقريبا، ثم يدع وادي القاحة بيمينه وينزل في واد يدعى ثقيب، بفتح الثاء وكسر القاف، له ذكر من الشعر القديم، وفيه آثار عمران لا يزال باقيا منها موضع يدعى البستان وهو بستان كاسمه.

وثقيب من روافد وادي القاحة، ومنه طريق إلى الفرع في اتجاه أعلى الوادي،

وبعد ثقيب بما يقارب عشرة أكيال واد يدعى «نعا» في ملتقاه بوادي القاحة آثار بنيان وعمران قديم.

ثم يستمر السير في وادي القاحة، وعلى بعد عشرة أكيال من وادي نقا للمتجه نحو مكة، هناك يلتقي وادي النخل بوادي القاحة، وهذا الوادي من أشهر الأودية، وعند التقائه تتسع الأرض وتكثر آثار العمران القديمة حول المكان المعروف الآن باسم بئر مبيريك.

ويذكر المتقدمون أن بين السقيا وبين الأبواء، في الوسط بينهما عين تدعى عين القشيري وهي عين كثيرة الماء، ويقال للجبل الأيسر المشرف عليها قدس وأوله في العرج، وآخره وراء هذه العين، ويقال للجبل الذي يقابلها يمنة يقال له باقل، وللوادي الذي بين هذين الجبلين وادي الأبواء[(١)] .

إن هذا الوصف ينطبق على الموقع المعروف الآن باسم بير مبيريك والتي يقال بأنها منسوبة إلى أحد مشايخ قبيلة زبيد أهل رابغ في العصر الحاضر، وأنه حفر هذه البئر منذ عهد قريب في هذا الموضع فنسبت إليه، ولا يزال يعرف بوادي الأبواء.

وعلى بعد خمسة عشر كيلا توجد القرية المعروفة باسم الأبواء، وكانت إلى عهد قريب تعرف باسم الخريبة، وفي سفح الجبل الواقع بقرب مدرسة هذه القرية يوجد آثار قبر منسوب إلى آمنة أم النبي ﷺ، وبقربه مسجد قديم، والمتقدمون يذكرون من المساجد النبوية، مسجد الأبواء.

ومن الأبواء يأخذ الطريق ذات اليسار، متجها صوب الشرق، وبعد ٩١ كيلا يصل إلى ثنية هرشا، وهذه الثنية تجزع طرفا يمتد من الحرة حرة رهاط، يمتد معترضا الطريق إلى الغرب حتى يقرب من البحر فيما بين رابغ ومستورة، وفي هذا الطرف قسم يدعى باسم هرشا فيه ثنيتان، الغربية منهما أسهل من الشرقية لتعبيدها، وفي هذه الثنية ورد المثل:

خذ أنف هرشا أو قفاها فإنما ... كلا جانبي هرشا لهن طريق

---

(١) وفاء الوفاء في الكلام على مسجد الرمادة.

وقد حرف هذا الاسم في بعض الكتب الحديثة إلى حرشا[١] وقد مهدت ثنية هرشا قبل عشر سنوات لمرور السيارات عندما كان هذا الطريق مسلوكا قبل إصلاح الطريق الحالي، طريق الخبت، وكان الطريق القديم الذي سلكه الرسول ﷺ إلى مكة ثم كان المسلمون قديما يسلكونه، كان يمر بهذه الثنية، ويحدد المتقدمون المسافة بينها وبين الأبواء بثمانية أميال، وقد سلكتها بالسيارة فبلغت من الثنية إلى مدرسة الأبواء ٩١ كيلا، وهذا يقارب تحديد المتقدمين.

وبقرب الأبواء تقع «ودان» وليست على الطريق، ولكنها في أسفل الأبواء، وادي الأبواء يفيض فيها، والذي يقصدها ينحرف إليها ذات اليمين قبل وصوله إلى الأبواء، وبعد صدوره منها يعود إلى ثنية هرشا، ولا يمر بالأبواء.

وتقع «ودان» بحسب ما حدده المتقدمون بقرب قرية مستورة، إذ وادي الأبواء يفيض في البحر عندما يحف مستورة من جهة الجنوب،

وودان هي بلدة الشاعر نصيب المشهور التي يقول فيها:

أقول لركب موجفين لقيتهم ... قفا ذات أوشال، ومولاك قارب

قفوا حدثوني عن سليمان إنني ... لمعروفه من أهل ودان طالب

فعاجوا فأثنوا بالذي أنت أهله ... ولو سكتوا أثنت عليك الحقائب

يقصد الخليفة سليمان بن عبدالملك.

وممن عرف من شعراء هذه النواحي الشاعر خارجة بن فليح المللي، وكان يسكن وادي ملل، وهذا الوادي لا يزال معروفا ويقع بين الفريش الذي يبعد عن المدينة بـ ٩٤ كيلا، وبين وادي تربان الذي يصب في ملل ويبعد عن المدينة ٣٣ كيلا.

ومن «تربان» الشاعر عروة بن أذينة الكناني.

ومن هرشا يتجه الطريق إلى الجحفة، هذا الطريق القديم، وتقع الجحفة في الجنوب الغربي من بلدة رابغ، ولا تزال معروفة، وتبعد عنها بـ ٩١ كيلا، وكان المتقدمون يحرمون من رابغ قبل محاذاة ميقات الإحرام، لأن طريق رابغ يأخذ

(١) مسافات الطرق في المملكة.

الساحل ويدع الجحفة بيساره، ووادي الجحفة يصب في البحر عند نقطة تبعد جنوبا عن رابغ بـ ٢٠ كيلا.

والجحفة كانت قديما مدينة أثرية في العهد الجاهلي، وفي صدر الإسلام، ولا تزال آثار المسجد النبوي قائمة، وقد بني بقربه مسجد حديث، ويشاهد المرء على ضفاف الوادي آثار العمران من آبار ومزارع وقبور وأساسات بالصخور.

ومن أغرب ما يشاهده المرء بقرب الجحفة، وعلى مسافة ١٠ أكيال تقريبا غرب المسجد، يشاهد آثار بناء وأطلال قصر، لا تزال قائمة، يدعى «قصر عليا» ويحوك أهل تلك الجهة حوله أخبارا تتعلق بأبي زيد الهلالي وبصلة عليا هذه به، والعرب في هذا العصر كثيرا ما ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة «بني هلال» كما كان المتقدمون ينسبون كل شيء قديم إلى قبيلة «عاد».

وهذا القصر مبني بحجارة الحرة السوداء وبالجص بناء محكما وهو شبه مربع، ولا تزال جدران الجهة الغربية والجهة الجنوبية قائمة سامقة الارتفاع.

ويحيط به من داخله محاريب كثيرة باستطالة الجدارين القائمين، وهذه المحاريب ممتدة بامتداد الجدارين من الداخل، وليس فيها نوافذ.

ويظهر أن هذا معبد قديم، وهو يقع على الضفة الغربية من واد يدعى بالفايضة، يفيض في وادي الجحفة.

وعلى بعد ٢٠٠ خطوة تحت القصر في بطن الوادي، توجد بئر مطوية بالصخر وحولها آثار الزراعة، مما يدل على أنها كانت عامرة إلى عهد قريب، وفي فناء القصر توجد بعض الأشجار، مما يدل على أن الماء كان متصلا به.

* * *

٢١ مقالات

محب الدين الخطيب

- **ترجمة الشيخ.**
- **المقالات:**

١- عثمان (١)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م).

٢- عثمان (٢)

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م).

٣- عثمان المفترى عليه (٣).

العدد (٤١) جمادى الأولى (١٣٨٨هـ) - يوليو (١٩٦٨م).

٤- عثمان (٤).

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

ترجمة الشيخ

محب الدين الخطيب

● مولده ونشأته

ولد محب الدين الخطيب بدمشق عام ١٨٨٦م، وكان والده عالماً دينياً، ويدرس في أحد المساجد، كما كان يعمل أميناً لدار الكتب الظاهرية فنشأ في بيئة محافظة، وتعلم القراءة والكتابة، وحفظ كتاب الله، التحق بكليتي الحقوق والآداب معاً، وقد مد له يد العون في تحصيله العلمي، شيخه الكبير العلامة طاهر الجزائري.



سافر إلى اليمن فأنشأ فيها مدرسة وكان يتولى تدريس معظم العلوم فيها، ثم عاد إلى دمشق، ثم إلى مصر حيث عمل في جريدة المؤيد، كما عمل مترجماً ومحرراً بجريدة الأهرام المصرية فترة قصيرة، وحين أصدر مجلة الفتح جعلها منبراً للدفاع عن الإسلام والمسلمين.

أصدر رحمه الله مجلة الزهراء التي تعنى بالبحث العلمي والنقد الموضوعي للأفكار الوافدة والمقولات الباطلة.

انتقل محب الدين الخطيب في دنيا الكفاح الإسلامي ما بين دمشق، وبيروت، وتركيا والقاهرة، واليمن، ومكة المكرمة انتقال المكافح الذي يقف في مقدمة الصفوف، متعاوناً مع رجال الفكر والعلم أمثال: محمد رشيد رضا، وشكيب أرسلان، حسن البنا، وتقي الدين الهلالي، وغيرهم.

وقد أثرى الشيخ المكتبة الإسلامية بمؤلفات وتحقيقات وتعليقات قيمة مثل تحقيقاته وتعليقاته على كتاب «العواصم من القواصم»، وكتاب «مختصر التحفة

الإثنى عشرية» لولي الله الدهلوي، وكتاب «المنتقى» للحافظ الذهبي، وكتاب «الخطوط العريضة»، وكتاب «الرعيل الأول»، وكتاب «تقويمنا الشمسي».

● **وفاته:**

توفي عام ١٣٨٩هـ، ١٩٦٩م ودفن بمصر، رحم الله العلامة محب الدين الخطيب، وجزاه الله عن المسلمين والإسلام خير ما يجزي عباده الصالحين.



ذو النورين عثمان رضي الله عنه (١)

العدد (٣٨) صفر (١٣٨٨هـ) - إبريل (١٩٦٨م).

● نشأته

ولد عثمان بن عفان بمكة في السنة السادسة من عام الفيل، في أسرة كانت أقوى أسر قريش عصبية وجاها وثروة وعددًا ومكانة، وأبوه عفان هو ابن أبي العاص بن أمية بن عبدشمس بن عبدمناف بن قصي، وقصي باني مكة من حول الكعبة وحرمها، ومؤسس مجد قريش الذي قال فيه شاعرهم:

أبوكم قصي كان يدعى مجمعا ... به جمع الله القبائل من فهر

وعثمان يشترك في النسب القريب مع النبي ﷺ في عبد مناف بن قصي.

وأم عثمان هي أروى بنت كريز بن ربيعة بن حبيب بن عبدشمس بن عبدمناف ابن قصي، فهي تشترك في النسب مع النبي ﷺ في عبدمناف كذلك.

بل إن قرابة أمه من النبي ﷺ أقرب من ذلك بكثير لأنها هاشمية النسب من جهة أمها، فهي بنت البيضاء أم حكيم بنت عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف بن قصي، فأم ذي النورين بنت عمة رسول الله ﷺ، وحسبك هذا قرابة قريبة بين عثمان وبين المبعوث بأكمل رسالات الله صلوات الله وسلامه عليه.

ولأروى - أم عثمان - أخت هي سعدى بنت كريز، دخلت في الإسلام مبكرة، وكانت ترغب في أن يهدي الله ابن أختها عثمان للإسلام، وأن تسعد بأن تراه صهرًا للنبي ﷺ على بنته رقية، فتزداد أواصر القرابة وثوقا بين الفرعين الكريمين من بني عبد مناف: فرع هاشم - وفرع بني عبدشمس، وكان مما يحبب ذلك إليها أن رقية الهاشمية وعثمان العبشمي الصهر المرجو لها كانا من أجمل قريش جمالا، ومن أكملها كمالا.

كان عثمان مع جمال صورته كامل الأخلاق، مستجمعا لصفات الخير، فكان- مع الصدق الذي هو خلق جيله من أهل مكة- حييا حليما، كريما رحيما، لذلك كان محبوبا من قريش جميعا، من بداية نشأته الأولى، وكانت الأمهات يناغين أطفالهن في مهادهم، فيخاطبنهم بحنان:

أحبك والرحمن حب قريش عثمان

ولما كان عثمان يسمع بما يدعو إليه رسول الإنسانية ﷺ من مكارم الأخلاق ومعاليها لا يجد شيئا من ذلك غريبا عليه، بل إن هذه الرسالة تدعو الناس جميعًا إلى مثل ما يشعر عثمان بأنه متحل به من الأخلاق التي جعلته محبوبا إلى قريش، حتى ضربت نساؤها الأمثال لمحبتهن فلذات أكبادهن بمحبة قريش لعثمان.

من هنا كان لعثمان في بدء ظهور الدعوة الإسلامية عواطف متجاوبة مع هذه الدعوة من أخلاقه التي فطره الله عليها، فكان ذلك مع قرابة النسب بينه وبين النبي ﷺ إلى عبدمناف بن قصي، وكون أمه أروى بنت عمة النبي ﷺ، كل ذلك كان من الأواصر والميول النفسية التي سهلت على أبي بكر الداعية الأول للرسالة المحمدية مهمته في اكتساب قلب عثمان، وجعله أحد القلوب القليلة الأولى المؤمنة بآخر رسالات السماء إلى الأرض.

هذه خلاصة نشأة عثمان، وهي نشأة فيها إعداد من الله ليكون عثمان حجرًا من الأحجار الأولى في بناء الإسلام.

- **إسلامه وإصهاره إلى النبي ﷺ**

كان عثمان- كسائر شباب أسرته- مشتغلا بالتجارة، وكان أبو بكر من أعيان تجار مكة، وكان مؤلفاً لقومه، يدعو إلى الإسلام من يثق به، وكانت له مع عثمان صلات تجارية تتخللها أحاديث عن أحداث البلد، وكان أهم أحداث البلد في ذلك الحين قيام محمد رسول الله ﷺ بالدعوة إلى رسالته العظمى للإنسانية كلها، وكانت تعقد بينهما مجالس في فناء الكعبة لهذا الغرض.

نقل الحافظ ابن حجر في «الإصابة» عن كتاب «شرف المصطفى» لأبي سعد النيسابوري، أن محمد بن عبد الله بن عمرو بن عثمان، الملقب بالديباج، روى

عن أبيه عن جده، أن جده الأعلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان قال: «كان لي مجلس من أبي بكر، فأتيته فأصبته في مجلسه، ولا أحد عنده، فجلست إليه فرآني متفكرًا، فسألني عن أمري- وكان رجلا رقيقًا- فأخبرته بما سمعته من خالتي، فقال لي: ويحك يا عثمان، والله إنك لرجل حازم، ما يخفى عليك الحق من الباطل، هذه الأوثان التي يعبدها قومك أليست حجارة صما لا تسمع ولا تبصر، ولا تضر ولا تنفع؟ قلت: بلى، والله إنها لكذلك، قال: والله لقد صدقتك خالتك، هذا محمد بن عبدالله قد بعثه الله برسالته إلى جميع خلقه، فهل لك أن تأتيه وتسمع منه؟ فقلت: نعم، والله ما كان بأسرع من أن مر رسول الله ﷺ ومعه علي بن أبي طالب، يحمل ثوبا لرسول الله ﷺ، فلما رآه أبوبكر قام إليه فسارّه في أذنه، فجاء رسول الله ﷺ، فقعد، ثم أقبل علي فقال: يا عثمان، أجب الله إلى جنته، فإني رسول الله إليك وإلى جميع خلقه، قال عثمان: فوالله ما تمالكت حين سمعت قوله أن أسلمت، وشهدت أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم لم ألبث أن تزوجت رقية».

وذلك لأن خالته سعدى كانت من ورائه، ووراء رقية حريصة على إتمام هذا الزواج.

قال الحافظ ابن حجر في ترجمة سعدى بنت كريز، بعد أن نقل هذا النص عن قول عثمان نفسه عن كتاب «شرف المصطفى» وكان يقال: «أحسن زوجين رآهما إنسان رقية وزوجها عثمان»، ويقول أبوالمقدام مولى عثمان: بعث النبي ﷺ مع رجل بهدية إلى عثمان، فاحتبس الرجل، أي تأخر في العودة، إلى النبي ﷺ فسأله النبي ﷺ، ما حبسك إلا كنت تنظر إلى عثمان ورقية.

وفي إسلام عثمان ومصاهرته النبي ﷺ تقول خالته سعدى:

هدى الله عثمان الصفي بقوله ... فأرشده، والله يهدي إلى الحق
فتابع بالرأي السديد محمدًا ... وكان ابن أروى لا يصد عن الحق
وأنكحه المبعوث إحدى بناته ... فكان كبدر مازج الشمس في الأفق
فداؤك يا ابن الهاشميين مهجتي ... فأنت أمين الله أرسلت في الخلق

ويقول الحافظ أبو عمر بن عبدالبر في الاستيعاب: قيل إنه ولدت له رقية ابنا، فسماه عبدالله ومات، ثم ولد له عمرو فاكتفى به إلى أن مات، هذا ما عرفه التاريخ من خبر إصهار عثمان إلى رسول الله ﷺ.

- **هجرته إلى الحبشة**

بعد إسلام عثمان وإصهاره إلى النبي ﷺ اشتدت الحال على المسلمين في مكة، لأن النبي ﷺ، كان من قبل يلين في دعوة قريش إلى الإسلام، ثم اشتد في ذكر أوثانهم ومعبوداتهم، فتألبوا عليه، وائتمروا على المسلمين، وشرعوا في إيذائهم. قال ابن اسحاق، فلما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء، وما هو فيه من العافية بمكانه من الله ومن عمه، وأنه لا يقدر أن يمنعهم من البلاء، قال لهم: لو خرجتم إلى أرض الحبشة، فإن بها ملكا لا يظلم عنده أحد. وكانت هجرة الحبشة عند دخول النبي ﷺ شعب عبدالمطلب، وفترة عيشه في حمى أبي طالب.

كتب أمير المؤمنين عبدالملك بن مروان في زمن خلافته إلى عروة بن الزبير يسأله عن هجرة الحبشة، فكتب إليه عروة: «أما بعد، فإنه- يعني رسول الله ﷺ - لما دعا قومه لما بعثه الله له من الهدى والنور الذي أنزل عليه، لم يبعدوا منه أول ما دعاهم، وكادوا يسمعون له حتى ذكر طواغيتهم، وقدم ناس من الطائف من قريش لهم أموال أنكروا ذلك عليه، واشتدوا عليه، وكرهوا ما قال، وأغروا به من أطاعهم، فانصفق عنه عامة الناس فتركوه، إلا من حفظه الله منهم وهم قليل، فمكث بذلك ما قدر الله أن يمكث، ثم ائتمرت رؤوسهم بأن يفتنوا من تبعه عن دين الله من أبنائهم وإخوانهم وقبائلهم، فكانت فتنة شديدة الزلزال على من اتبع رسول الله ﷺ من أهل الإسلام، فافتتن من افتتن، وعصم الله من شاء، فلما فُعِل ذلك بالمسلمين أمرهم رسول الله ﷺ أن يخرجوا إلى أرض الحبشة، وكان بالحبشة ملك صالح يقال له النجاشي لا يُظلم أحد بأرضه، وكانت أرض الحبشة متجرًا لقريش، يتجرون فيها، يجدون فيها رفاغًا (هنيئا) من الرزق، وأمنا، ومتجرًا حسنا، فأمرهم بها رسول الله ﷺ.

قال أبوجعفر الطبري: فاختلف في عدد من خرج إلى أرض الحبشة، وهاجر إليها هذه الهجرة الأولى، فقال بعضهم، كانوا في البداية أحد عشر رجلا وأربع نسوة، وهم: عثمان بن عفان معه امرأته رقية بنت رسول الله ﷺ، وأبوحذيفة بن عتبة بن ربيعة الأموي، معه امرأته سهلة بنت سهيل بن عمرو، والزبير بن العوام الأسدي، ومصعب بن عمير من بني عبدالدار سدنة الكعبة، وعبدالرحمن بن عوف الزهري، وأبو سلمة بن عبد الأسد المخزومي، معه امرأته أم سلمة بنت أبي أمية المخزومية، وعثمان بن مظعون الجمحي، وعامر بن ربيعة العنزي حليف بني عدي بن كعب، معه امرأته ليلى بنت أبي حثمة، وأبوسبرة بن أبي رهم العامري، وحاطب بن عمرو بن عبد شمس، وسهيل بن بيضاء من بني الحارث بن فهر، وعبدالله بن مسعود حليف بني زهرة. خرجوا من مكة حتى انتهوا إلى الشعيبة، منهم الراكب والماشي، ووفق الله للمسلمين من أهل هذه الهجرة الأولى- ساعة جاءوا الشعيبة- سفينتين للتجار حملوهم فيهما إلى أرض الحبشة بنصف دينار، وكان مخرجهم في رجب في السنة الخامسة من حين نبئ رسول الله ﷺ ، وخرجت قريش في آثارهم حتى جاءوا البحر، حيث ركب المهاجرون، فلم يدركوا منهم أحدا، قالوا وقدمنا أرض الحبشة فجاورنا بها خير جار، أمنا على ديننا، وعبدنا الله لا نؤذى ولا نسمع شيئا نكرهه.

قال الطبري: فكان أول من خرج من المسلمين من بني أمية بن عبدشمس بن عبدمناف عثمان بن عفان بن أبي العاص بن أمية ومعه امرأته رقية ابنة رسول الله ﷺ. وروى الحافظ الذهبي في تاريخ الإسلام عن أنس بن مالك قال: خرج عثمان برقية بنت رسول الله ﷺ إلى الحبشة فأبطأ خبرهم، فقدمت امرأة من قريش فقالت: يا محمد، قد رأيت ختنك ومعه امرأته، فقال: على أي حال رأيتهما؟ قالت: رأيته حمل امرأته على حمار من هذه الدبابة وهو يسوقها، فقال رسول الله ﷺ صحبهما الله، إن عثمان أول من هاجر بأهله بعد لوط.

- **بعض جوانب من أخلاقه وشخصيته وفضائله**

كانت الأخلاق الغالبة على ذي النورين عثمان السكينة والحلم والرحمة،

وطول العبادة والسخاء والكرم والعدل، وحب العافية في الدين والدنيا، للفرد وللجماعة.

روى عبدالله بن المبارك عن الزبير بن عبدالله أن جدته أخبرته- وكانت خادمًا لعثمان- قالت: كان عثمان لا يوقظ نائمًا من أهله إلا أن يجده يقظانا فيدعوه فيناوله وضوءه للصلاة.

وكان وضوءه وصلاته كأنهما وضوء النبي ﷺ وصلاته، وفي كتب السنة بيان كيف كان الناس يتعلمون وضوء النبي ﷺ من وضوء عثمان.

● **بئر رومة**

ومن أمثلة كرمه عقب هجرتهم إلى المدينة أن يهوديا كان يملك بئرًا يحتاج المسلمون إلى تناول الماء منها، فلا يمكنهم اليهودي من ماء هذه البئر- واسمها بئر رومة- إلا بالثمن الذي يجهدهم، فقال رسول الله ﷺ: من يشتري بئر رومة فيجعلها للمسلمين، يضرب بدلوه في دلائها، وله بها مشرب في الجنة؟ فأتى عثمان اليهودي فساومه بها، فأبى أن يبيعها كلها، فاشترى عثمان نصفها باثني عشر ألف درهم، فجعل عثمان نصف البئر للمسلمين، وقال لليهودي: إن شئت جعلت على نصيبي قرنين نستقي عليهما، وإن شئت فلي يوم ولك يوم. قال اليهودي: بل لك يوم ولي يوم، فكان إذا كان يوم عثمان استقى المسلمون ما يكفيهم يومين، فلما رأى اليهودي ذلك قال لعثمان: أفسدت علي ركيتي (بئرى)، فاشتر النصف الآخر، فاشتراه عثمان بثمانية آلاف درهم، وصارت البئر كلها مباحة للمسلمين في كل يوم يستقون منها مجانًا وبلا أي حرج.

ومن عجائب الأقدار في تقلبها، وعجائب الناس في مكافأتهم للمحسنين من رجالهم على إحسانهم، أن يحاصر دعاة الفتنة أمير المؤمنين عثمان فيمنعوه الشرب من ماء رومة، ومن كل ماء، فيشرف عثمان على دعاة الفتنة ويقول لهم: السلام عليكم، فما يرد عليه أحد، فقال لمن هناك من المسلمين الأولين: أنشدكم الله، هل تعلمون أني اشتريت بئر رومة من مالي وجعلت رشائي فيها كرشاء رجل من المسلمين؟ فقيل: نعم، فقال: فعلام أمنع من مائها وأفطر على

الماء المالح؟ لأنه كان صائمًا، وإذا أراد أن يفطر لا يجد إلا ماء بئر مالح في داره.

● **شراؤه الأرض لتوسعة المسجد**

ولما ازداد عدد المسلمين بعد الهجرة إلى المدينة، وضاق المسجد النبوي بالمصلين، قال رسول الله ﷺ من يزيد في مسجدنا؟ فاشترى عثمان - رضوان الله عليه - موضع خمس سوار من الأرض، فزاد في سعة المسجد ما يوسع على المسلمين.

فلما كانت الفتنة منعوه في آخر الأمر من الصلاة في المسجد، الذي زاد فيه من ماله، وهو في أقل التقدير له حق الصلاة فيه كما كان يصلي فيه على مقربة قريبة من رسول الله ﷺ، فيما بين الهجرة والوفاة النبوية، فخاطبهم معاتباً وسائلا: هل منع من الصلاة في هذ المسجد أي مسلم قبل أن يقع المنع عليه؟!

● **تجهيز جيش العسرة**

وفي غزوة تبوك، وكانت تسمى غزوة العسرة، لشدة من الحر وجدب في البلاد، وحين طابت الثمار والظلال فالناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ويكرهون الشخوص عنها في الحر والجدب، فحض النبي ﷺ أهل الغنى على النفقة والتبرع بالركائب، لحملان المجاهدين في سبيل الله، فحمل رجال من أهل الغنى فاحتسبوا، وأنفق عثمان في ذلك نفقة عظيمة لم ينفق أحد أعظم من نفقته، فقد بلغ ما جهزه عثمان بنفسه لجيش العسرة تسعمائة وخمسين بعيرًا وأتم الألف بخمسين فرسًا، ثم زاد ذلك حتى بلغ ألف بعير وسبعين فرسًا.

وليقارن المسلم ذلك بحال عثمان لما قتل، واحتيج إلى حمله للقبر الذي يوارى فيه، كيف حمل؟ وكيف واراه أهل الحق والخير بالخفاء والستر على ما لا يرضاه الله ورسوله وصالح المؤمنين.

● **في أيام خلافته**

وفي أيام خلافته فتحت الفتوح، وسارت رايات الإسلام عزيزة ظافرة في كل فج، حتى دخلت في الإسلام بلاد المسلمين التي في روسيا الآن مجتازة الدربند،

التي كانوا يسمونها باب الأبواب، مما لم تبلغه دولة الأكاسرة في أقوى عصورها.

وكانت الأمة في عدل ورخاء ومحبة وتناصف. روى السدي عن السري بن يحيى عن ابن سيرين قال: كثر المال في زمن عثمان - ولم يكن المال في زمانهم إلا الفضة والذهب- حتى بيعت جارية بوزنها، وفرس بمائة ألف درهم، ونخلة بألف درهم.

وقال الحسن البصري سمعت عثمان يخطب وهو يقول: يأيها الناس، ما تنقمون علي، وما من يوم إلا وأنتم تنفقون فيه خيرًا؟

قال الحسن: وشهدت منادي عثمان ينادي: يأيها الناس اغدوا على عطيتكم، فيغدون، ويأخذونها وافية. يأيها الناس اغدوا على أرزاقكم، فيغدون، فيأخذونها وافية، حتى والله سمعته أذناي يقول: اغدوا على كسوتكم، فيأخذون الحلل، واغدوا على السمن والعسل. قال الحسن: أرزاق دارة، وخير كثير، وذات بين حسن. وما على الأرض مؤمن يخاف مؤمنًا الا يوده، وينصره، ويألفه، فلو صبر الأنصار على الأثرة - أي كما أوصاهم النبي ﷺ - لوسعهم ما كانوا فيه من العطاء والرزق، ولكنهم لم يصبروا، وسلوا السيف مع من سل، فصار عن الكفار مغمداً، وعلى المسلمين مسلولاً!

● **لماذا ولّى أقاربه**

روى سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب عن أبيه قال: لقد عتبوا على عثمان أشياء لو فعلها عمر ما عتبوا عليه، ولعله يشير إلى تولية عثمان أقاربه من بني أمية، وهم كانوا أهل كفاءة وبراعة في صناعة الحكم، حتى إن رسول الله ﷺ كان أول من ولى هذه الأسرة الأحكام، وبولايتهم كان الخير والرزق والسعة والعدل، وسائر ما وصف به الحسن البصري المجتمع الإسلامي أيام خلافة عثمان، فرجال عثمان كانوا بين فاتح ظاهر لا نظير له، وبين حاكم حليم عادل لا مثيل له.

وبعد وقعة الجمل لما ولّى علي عبدالله بن عباس على البصرة غضب الأشتر وقال: فلان على البصرة، وفلان على اليمن، وفلان على الحجاز، ففيم قتلنا الشيخ إذن؟ ويعني بالشيخ ذا النورين، يشكو من ولاية علي أقاربه، وغضب

وركب فرسه وتوجه إلى الكوفة، فترك علي أعماله، ولحق بالأشتر مسرعا لئلا يثير عليه فتنة كالتي أثارها على عثمان.

إن إدارة عثمان العادلة، وطريقته الرحيمة في الحكم، وتوسعه الباهر في الجهاد والفتوح، وإدخال الأمم في دين الله أفواجًا، قد جعل مدة خلافة عثمان لا يكاد يكون لها نظير في إذاعة الإسلام وإشاعته، وهذا هو اللائق بعثمان، وما كان يرجوه له ويدعو له به خاتم رسل الله ﷺ الذي كان يعلم بوحي من الله أن عثمان سيكون من أهل الشهادة والجنة.

روى الترمذي من طريق الحارث بن عبدالرحمن أحد كرام التابعين، عن طلحة ابن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة قال: قال رسول الله ﷺ: «لكل نبي رفيق، ورفيقي في الجنة عثمان».

وفي كتاب فضائل الصحابة من صحيح الإمام مسلم عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال في عثمان: «ألا أستحيي من رجل تستحيي منه الملائكة؟»

وقال النزال بن سبرة: قلنا لعلي حدثنا عن عثمان، قال: ذاك امرؤ يدعى في الملأ الأعلى «ذا النورين».

وقيل للمهلب بن أبي صفرة، لم قيل لعثمان «ذا النورين؟»، فقال: لأنه لم يعلم أن أحدا أرسل سترا على ابنتي نبي غيره.

وثبت عن النبي ﷺ أنه قال: سألت ربي ألا يدخل النار أحدا صاهر إلي أو صاهرت إليه.

وفي صحيح البخاري عن نافع عن عبدالله بن عمر بن الخطاب قال: كنا في زمن النبي ﷺ لا نعدل بأبي بكر أحدًا، ثم عمر، ثم عثمان، ثم نترك أصحاب النبي ﷺ لا نفاضل بينهم.

وقال عبدالله بن مسعود حين بويع عثمان بالخلافة، بايعنا خيرنا ولم نأل.

ووصفه علي بن أبي طالب بعد انقضاء أجله فقال: كان عثمان أوصلنا للرحم، وكان من الذين آمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، والله يحب المحسنين.

وقال علي في عثمان بعد انتهاء الفتنة: من تبرأ من دين عثمان فقد تبرأ من

الإيمان، والله ما أعنت على قتله، ولا أمرت ولا رضيت. ويؤيد قول علي في ذلك فعله طول مدة الفتنة، فقد جعل ابنيه - الحسن والحسين - في حراسة عثمان، وأمرهما أن يطيعاه في الدفاع عنه، وأن يكونا عونا له في كل ما يطلب ويرغب مما يستطيعانه، ولما كان اليوم الأخير - يوم الشهادة لعثمان - كان الحسن بن علي أحد الجرحى في الدفاع عنه.

وروى موسى بن طلحة قال: أتينا عائشة رضي الله عنها نسألها عن عثمان، فقالت: اجلسوا أحدثكم عما جئتم له، إنا عتبنا على عثمان رضي الله عنه في ثلاث خصال- ولم تذكرهن- فعمدوا إليه، حتى إذا ماصوه كما يماص الثوب بالصابون، اقتحموا عليه الحرم الثلاث، حرمة البلد الحرام، وحرمة الشهر الحرام، وحرمة الخلافة، ولقد قتلوه وإنه لمن أوصلهم للرحم، وأتقاهم لربه رضي الله عنه في الخالدين.



ذو النورين عثمان رضي الله عنه (٢)

كيف تولى الخلافة؟

العدد (٣٩) ربيع الأول (١٣٨٨هـ) - مايو (١٩٦٨م)

في حديث عمرو بن ميمون من صحيح البخاري (رقم ٣٧٠٠) أنه لما طعن أمير المؤمنين عمر قال له الناس: أوص يا أمير المؤمنين، استخلف، قال: ما أجد أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله ﷺ وهو عنهم راض: فسمى عليا وعثمان، والزبير، وطلحة، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف، وقال: يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء- كهيئة التعزية له- فإن أصابت الإمرة سعداً فهو ذاك، وإلا فليستعن به أيكم ما أمر، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة، زاد المدائني، وما أظن أن يلي هذا الأمر إلا علي أو عثمان، فإن ولي عثمان فرجل فيه لين، وإن ولي علي فستختلف عليه الناس، ثم ذكر وصيته للخليفة من بعده، وآخرها: وصيته بالأعراب خيراً، فإنهم أصل العرب، ومادة الإسلام، ووصيته بأهل الذمة أن يوفى لهم بعهدهم، وأن يقاتل من ورائهم، وألا يكلفوا إلا طاقتهم.

قال عمرو بن ميمون: فلما قبض (رضوان الله وسلامه عليه) خرجنا به، فانطلقنا نمشي، فلما بلغ موكب الجنازة منزل عائشة سلم عبدالله بن عمر وقال: يستأذن عمر بن الخطاب، قالت عائشة: أدخلوه فأدخل، فوضع هناك مع صاحبيه (رسول الله ﷺ وأبي بكر رضوان الله عليه).

فلما فُرِغ من دفنه اجتمع هؤلاء الرهط، فقال عبدالرحمن بن عوف: اجعلوا أمركم إلى ثلاثة منكم، فقال الزبير: قد جعلت أمري إلى علي، وقال طلحة: جعلت أمري إلى عثمان، وقال سعد: جعلت أمري إلى عبدالرحمن بن عوف.

فقال عبدالرحمن بن عوف - يخاطب عثمان وعليا - أيكما تبرأ من هذا الأمر

فنجعله إليه (أي نجعل إليه اختيار الخليفة) والله عليه والإسلام لينظرن أفضلهم في نفسه، فأسكت الشيخان، فقال عبدالرحمن: أفتجعلونه إلي؟ (أي أنه يتبرأ من أن يكون هو الخليفة، ويقوم باختيار من يتولاها) والله علي ألا آلو عن أفضلكم، قال: (أي قال عثمان عن نفسه وعن طلحة، وقال علي عن نفسه وعن الزبير) نعم (أي وافقا وصاحباهما على أن يتولى الاختيار عبدالرحمن بن عوف بعد أن تنازل عن أي حق له في الولاية)، فأخذ عبدالرحمن بيد أحدهما (وهو علي) فقال: لك قرابة من رسول الله ﷺ والقدم في الإسلام ما قد علمت، فالله عليك لئن أمرتك لتعدلن، ولئن أمرت عثمان لتسمعن ولتطيعن؟ ثم خلا بالآخر (وهو عثمان) فقال مثل ذلك، زاد المدائني أن سعد بن أبي وقاص أشار عليه بعثمان، وأن عبدالرحمن دار تلك الليالي كلها على الصحابة، ومن وافى المدينة من أشراف الناس، لا يخلو برجل إلا أمره بعثمان، فلما أخذ الميثاق قال: ارفع يدك ياعثمان، فبايعه، فبايع له علي وولج أهل الدار فبايعوه.

هذه وثيقة تاريخية عن شاهد عيان وهو عمرو بن ميمون حفظها لنا أبوعبدالله محمد بن إسماعيل البخاري في صحيحه، عن أشياخه وهم من خيرة الرواة وأصدقهم، وليس في أخبار التاريخ خبر يضارع هذا الخبر في صحته وصدقه.

● **خطبة عثمان بعد ولايته الخلافة**

روى الطبري في تاريخه عن سيف عن بدر بن الخليل عثمان عن عمه قال: لما بايع أهل الشورى عثمان، خرج وهو أشدهم كآبة، فأتى منبر رسول الله ﷺ، فخطب الناس، فحمد الله، وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ وقال: «إنكم في دار قلعة، وفي بقية أعمار، فبادروا آجالكم بخير ما تقدرون عليه، فلقد أتيتم، صبحتم أو مسيتم».

«ألا وإن الدنيا طويت على الغرور، فلا تغرنكم الحياة الدنيا، ولا يغرنكم بالله الغرور». «اعتبروا بمن مضى، ولا تغفلوا، فإنه لا يُغفل عنكم».

«أين أبناء الدنيا وإخوانها الذين أثاروها، وعمروها، ومتعوا بها طويلاً؟ ألم تلفظهم؟».

ارموا بالدنيا حيث رمى الله بها، واطلبوا الآخرة، فإن الله قد ضرب لها مثلا، والذي هو خير، فقال ﷻ ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾﴾ (الكهف: ٤٥-٤٦).

فلما انتهى الخليفة الثالث من خطبته، أقبل الناس يبايعونه البيعة العامة بعد بيعة أهل الشورى الذين اختارهم عمر الفاروق من صفوة الصحابة الذين توفي النبيﷺ وهو عنهم راضٍ.

- **وقفة بين يدي خطبة الخلافة**

كأني بالخليفة الراشد عثمان عندما تمت له البيعة في المسجد النبوي، وقام يخطو نحو منبر رسول الله ﷺ ليناجي الأمة فيما ينبغي لها وهي تستقبل عهداً جديداً، أنه كان يتمثل حال الإسلام وأهله في زمن حامل رسالته ﷺ وصاحبيه الكريمين، وأنهم كانوا في الجيل المثالي الذي لم تر الإنسانية نظيراً له في جميع الدهور قبله، ويخشى ألا يأتي نظير له في الدهور المنتظرة بعده، فنظر بنور الله نظرة ثاقبة إلى ما يتوقعه بعد الفتوح الواسعة التي بشر بها النبي ﷺ، وأنه صلوات الله عليه ما كان يخشى الفقر على أمته في المستقبل القريب، وإنما كان يخشى عليهم اتساع الدنيا بين أيديهم، وانشغالهم بها عما كان فيه الناس إلى يوم الناس هذا، من إيثار الآخرة على كل ما يخالف طريقها، فكان عثمان وهو يرقى درجات المنبر النبوي يعالج في ذهنه هذا المعنى العظيم، الذي أراد أن يلفت إليه أنظار إخوانه الذين ولاه الله أمرهم، وكان يرى أنه خير ما ينصح به لأمته ويناجيها به، فضرب لهم من كتاب الله مثل الدنيا والآخرة، وأن زينة الدنيا قصيرة زائلة كالنبات ينمو بماء السماء حقبة قصيرة، ثم يعود هشيما تذروه الرياح، وخير من هذه الزينة القصيرة الأمد الزائلة سريعاً أن نتعاون جميعا على إيثار الأعمال الصالحة الباقية، كالذي كنا عليه في العهد النبوي وامتداده في خلافتي الصديق والفاروق رضوان الله عليهما.

هذا ما نصح به الخليفة الجديد للأمة التي ولاه الله أمرها، وقد بقي عثمان

كما كان أسبق الناس إلى السخاء بماله في مرضاة الله للخاصة والعامة، وما تعارضت مصلحة الدنيا ومصلحة الآخرة في مدة خلافته إلا كان مؤثرا مصلحة الآخرة على مصلحة الدنيا إلى أن نال سعادة الشهادة، رحمة الله ورضوانه وسلامه عليه في الأولين والآخرين.

● موقف عثمان من عبيدالله بن عمر في حادث مقتل الهرمزان

روى الطبري في تاريخه (٥-٢٤) عن التابعي الجليل سعيد بن المسيب أن عبدالرحمن بن أبي بكر الصديق قال عند وقوع شهادة أمير المؤمنين عمر: «مررت على أبي لؤلؤة عشي أمس ومعه جفينة النصراني من أهل الحيرة والهرمزان، وهم يتناجون فلما فاجأتهم ثاروا، وسقط منهم خنجر له رأسان نصابه في وسطه، فانظروا بأي شيء قتل عمر؟ وخرج في طلب القاتل رجل من بني تميم، فرجع إليهم التميمي، وقد كان ألظ بأبي لؤلؤة منصرفه عن عمر حتى أخذه، وجاء بالخنجر الذي وصف عبدالرحمن بن أبي بكر، فسمع بذلك عبيدالله بن عمر، فانتظر حتى مات أبوه، فاشتمل على السيف وأتى الهرمزان فقتله».

فلما تولى عثمان بعد البيعة له كان في أوائل ما اهتم به مقتل الهرمزان بسيف عبدالله بن عمر، وعند الطبري في ذلك روايتان: (إحداهما- في ٥-٣١-٤١) أن عثمان عرض على القماذبان بن الهرمزان أن يثأر لأبيه من قاتله وهو عبيد الله فأعلن أنه تركه لله وللمسلمين.

والرواية الثانية (في ٥-١٤) أن عثمان جلس في جانب المسجد، ودعا عبيد الله وكان محبوسا في دار سعد بن أبي وقاص- وهو الذي نزع السيف من يد عبيد الله - فقال عثمان لجماعة من المهاجرين والأنصار، أشيروا علي في هذا الذي فتق في الإسلام ما فتق، فقال علي: أرى أن تقتله، وقال بعض المهاجرين: قتل عمر أمس، ويقتل ابنه اليوم؟ فقال عمرو بن العاص: يا أمير المؤمنين، إن الله قد أعفاك أن يكون هذا الحدث (أي مقتل الهرمزان) كان ولك على المسلمين سلطان، إنما كان هذا الحدث ولا سلطان لك، قال عثمان: أنا وليهم، وقد جعلتها دية واحتملتها في مالي.

● موقف عثمان من أبي ذر الغفاري وإقامته في الربذة

سنة الإسلام في اقتناء المال والتصرف فيه ما برحت قائمة- في حياة النبي ﷺ وخلافة خلفائه الراشدين، وفي مذاهب الأئمة المتبوعين - على أساس الإباحة لكل مسلم أن يقتني المال من حله، بلا تحديد مقدار له، ثم أن يضعه في مواضعه التي أباحها الإسلام لأهله، وأن يخرج زكاته بالنظام الشرعي الذي استقر منذ بدء الإسلام، وقد حث الإسلام كل مسلم على السخاء في الإنفاق في سبيل الله وفي مرضاة الله، وفي سعادة المجتمع.

ولاشك أن المال في نظام الإسلام وسيلة لسد حاجات الفرد والجماعة، فهو في حكم الأمانة لله، تحت يد من ساقه الله إليه، يتصرف فيه بالمعروف، ومن الخطأ اعتبار جمعه غاية مقصودة لذاتها، فإذا تصرف فيه المسلم باعتدال، متوخياً سد حاجاته الذاتية وحاجات ذوي قرباه، وأداء ما عليه من الحقوق الخاصة والعامة، ولم يمسك يده عن البذل في مرضاة الله، فإن الإسلام لا يمنعه من أن يكون في أمانته، وتحت تصرفه أي مقدار من المال، من غير تحديد.

هكذا عاش أغنياء الصحابة وفي طليعتهم أمير المؤمنين عثمان، وأخوه عبدالرحمن بن عوف، وقبلهما الصديق الأعظم أبو بكر، وسائر تجار الصحابة من أصحاب الألوف إلى أصحاب الملايين، وهكذا عاش الأغنياء بعدهم من أئمة الدين كالليث بن سعد وأضرابه، وعبدالله بن المبارك وأضرابه، وهم في ذلك من صالحي المؤمنين، حتى لقد جرت المناظرات، وقدمت فيها الأدلة والبراهين، في أي المسلمين أحب وأقرب إلى الله وأكثر مثوبة عنده، الغني الشاكر، أم الفقير الصابر.

على هذا مضى المسلمون في صدر الإسلام إلى أن كان زمن خلافة أمير المؤمنين عثمان فخالف هؤلاء جميعا صاحبُ رسول الله ﷺ أبوذر الغفاري فرأى أن المسلم لا يجوز له أن يبيت وعنده دينار واحد زائد عن قوت يومه، وكان يرى اقتناء المسلم لأكثر من حاجته اليومية يجعله من الذين قال الله فيهم ﴿وَٱلَّذِينَ يَكۡنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلۡفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرۡهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ (التوبة: ٣٤).

إن أبا ذر كان صادق اللهجة في كل ما يقوله بشهادة النبيﷺ له، ولكن مذهبه في اقتناء المال، ولو كان من حله، لا يوافق ما قام عليه نظام الإسلام في المال، ولو عمل المسلمون كلهم بمذهب أبي ذر لكان معنى ذلك إبطال فريضة الزكاة، ولتعطل كثير من مصالح الدولة والملة ولأقفلت أبواب المعونة العامة، والخير الشامل، وأن جميع صحابة رسول الله ﷺ ولاسيما عالمهم عبدالله بن عمر بن الخطاب كانوا يعلنون أن «ما أديت زكاته فليس بكنز».

- **أبوذر وابن سبأ**

نقل الطبري (٥-٦٦) وأكثر المصادر الإسلامية أن اليهودي ابن السوداء عبدالله بن سبأ ورد الشام فلقي أبا ذر فقال له: يا أبا ذر، ألا تعجب إلى معاوية يقول «المال مال الله، ألا إن كل شيء لله» كأنه يريد أن يحتجنه دون المسلمين ويمحو اسم المسلمين، فأتى أبوذر معاوية فقال: ما يدعوك إلى أن تسمي مال المسلمين «مال الله»؟ قال معاوية: يرحمك الله يا أبا ذر، ألسنا عباد الله، والمال ماله، والخلق خلقه، والأمر أمره؟ قال أبو ذر: فلا تقله، قال معاوية: فإني لا أقول أنه ليس لله، ولكن سأقول «مال المسلمين»، وأتى ابن السوداء الصحابيَّ الجليل فقيه أهل الشام أبا الدرداء فقال له: ما قال لأبي ذر، فأجابه أبوالدرداء: من أنت؟ أظنك والله يهودياً، وأتى ابن سبأ الصحابي المجاهد عبادة بن الصامت فتعلق به عبادة وأتى به معاوية فقال: هذا والله الذي بعث عليك أبا ذر.

قال القاضي أبوبكر بن العربي: ووقع بين أبي ذر ومعاوية كلام، وكان أبوذر يطلق من الكلام ما لم يكن يقوله في زمان عمر، فأعلم معاوية بذلك عثمان، وخشي من العامة أن تثور منهم فتنة، فإن أبا ذر كان يحملهم على التزهد وأمور لا يحتملها الناس كلهم، وإنما هي مخصوصة ببعضهم، فكتب عثمان إلى أبي ذر أن يقدم المدينة، فلما قدم اجتمع إليه الناس، فقال أبوذر لعثمان: أريد الربذة، فقال له عثمان: افعل، فاعتزل، قال قاضي الأندلس أبوبكر بن العربي: ولم يكن يصلح له إلا ذلك لطريقته.

«والربذة» ضاحية من ضواحي المدينة تبعد عنها ثلاثة أميال، وتتوفر فيها راحة

السكن والعزلة، وأبوذر نفسه هو الذي اختار الإقامة فيها، كما روى المؤرخ الكبير ابن خلدون في بقية الجزء الثاني من تاريخه (ص ٩٣١) قال: إن أبا ذر استأذن عثمان في الخروج من المدينة، وقال «إن رسول الله ﷺ أمرني أن أخرج منها إذا بلغ البناء سلعا» فأذن له عثمان ونزل الربذة وبنى فيها مسجداً، وأقطعه عثمان صرمة من الإبل، وأجرى عليه رزقا وكان يتعاهد المدينة بين حين وآخر، قال ياقوت في معجم البلدان، وكانت الربذة من أحسن منزل في طريق مكة.

والذي تحصل عندي من تتبع نصوص الشريعة في أمر المال، ومراقبتي لتطبيق هذه النصوص في سيرة السلف وعملهم بها، أن المسلم بعد أداء زكاة المال يكون في امتحان من الله كيف يحسن التصرف في ماله بما يرضي الله ويزيد المسلمين قوة وسعادة وعزاً، فإن كان تاجراً فمن طريق التجارة، أو مزارعاً فمن طريق الزراعة، أو صاحب مصنع فمن طريق الصناعة، والإسلام في دور قيامه استفاد من ثروة أغنياء الصحابة عونا ويسرا وقوة، وتجارة التاجر المسلم إذا أغنت المسلمين عن متاجر أعدائهم تعتبر قوة لهم، بقدر ما يصدق صاحبها في هذه النية، وكذلك مصنع الصانع المسلم، وزراعة الزارع المسلم، والنية في هذه الأمور أمرها عظيم، وميزانها العمل عندما تمس الحاجة إليه.

وبالجملة فإن للمسلم أن يكون غنيا بلا تحديد، بشرط أن يكون ذلك من حله، وأن يكتفي منه بالصرف على ما يكفيه بالمعروف، محاولا دائما أن يحرر نفسه من العبودية والانقياد للكماليات، فضلا عن توافه الحضارة وسفاسفها، وبعد أن يؤدي زكاة ما يملك يعتبر ما زاد عن حاجته كالأمانة لله تحت يده، فيتصرف فيها بما يزيد المسلمين ثروة وقوة ويسراً وعزا وسعادة.

أما طريقة أبي ذر في أن لا يبيت المسلم وعنده مال، فليست من مصلحة المسلمين، وطريقة بعض أغنياء المسلمين الآن، في أن يعيشوا لأنفسهم ومتعهم غير مبالين بعزة الإسلام وقوة دولته وحاجة أهله، ليست من الإسلام، والإسلام لا يعرف الذين لا يعرفونه، ولي في ذلك مقالة في صدر جزء شوال سنة ١٣٧٤هـ من مجلة الأزهر، لعل فيها ما يزيد هذا الموضوع بسطة ووضوحاً.

عثمان المفترى عليه (٣)

العدد (٤١) جمادى الأولى (١٣٨٨هـ) - يوليو (١٩٦٨م).

١- رد اعتبار الحَكم بن أبي العاص

من المؤاخذات التي يذكرها المتحاملون على عثمان ﷺ زعمهم أن النبي ﷺ نفى الحكم بن أبي العاص من المدينة، وأن عثمان أعاده.

وقد تناول هذه المسألة بالتحقيق أعلام المسلمين، ومنهم شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه العظيم «منهاج السنة» في الجزء الثالث ص ٦٩١، وقبله قاضي الأندلس الإمام أبوبكر بن العربي في «العواصم من القواصم» ص ٧٧، والإمام أبومحمد ابن حزم في كتاب «الإمامة والمفاضلة» المدرج في الجزء الرابع من كتابه «الفصل في الملل والنحل»، ومجتهد الزيدية السيد محمد بن إبراهيم الوزير اليمني في كتابه «الروض الباسم»، بل من هم أبعد الناس عن محاباة أمير المؤمنين عثمان ومنهم الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي المتشيع في كتابه «سرح العيون».

وخلاصة ما دارت عليه أقوال هؤلاء الأعلام:

١- أن نفي إنسان من بلد إلى بلد يكون بتغريبه عن بلده إلى بلد آخر، والحكم بن أبي العاص كان وطنه مكة ولم ينف منها إلى غيرها، ولم نعرف أن الحكم هاجر إلى المدينة حتى يطرد منها.

٢- قول شيخ الإسلام ابن تيمية أن قصة طرد الحكم ليس لها إسناد نعرف به صحتها .

٣- قوله: إن كثيرا من أهل العلم طعن في نفي الحكم وقالوا هو ذهب باختياره، أي إنه اختار الإقامة في بلده.

٤- إذا كان النبي ﷺ قد عزر رجلًا بالنفي، وهو ما لم يثبت في قصة الحكم، لم يلزم أن يبقى نفيا دائما، قال ابن تيمية: بل غاية النفي المقدر سنة، والتوبة مبسوطة، فإذا تاب سقطت عنه تلك العقوبة بلا خلاف من أحد من أهل الإسلام، وصارت الأرض كلها مباحة له، كما قال الإمام ابن حزم.

٥- قال القاضي ابن العربي: قال علماؤنا: قد كان اذن له فيه رسول الله ﷺ، وقال- أي عثمان- لأبي بكر وعمر فقالا له: إن كان معك شهيد رددناه، فلما ولي قضى بعلمه في رده.

وإذن النبي ﷺ وسلم لعثمان رواه أيضا الحاكم المحسن بن كرامة المعتزلي المتشيع، قال ابن الوزير: والمعتزلة من الشيعة والزيدية يلزمهم قبول هذا الحديث لأن راوي الحديث عندهم من المشاهير بالثقة والعلم وصحة العقيدة.

٦- كان عثمان شفع في عبدالله بن سعد بن أبي سرح، فقبل ﷺ شفاعته فيه وبايعه، فكيف لا يقبل شفاعته في الحكم؟ وقد رووا أن عثمان سأله أن يرده فأذن له في ذلك.

٧- أن قصة عبدالله بن سعد بن أبي سرح معروفة بالإسناد، وأما قصة الحكم فقد ذكرت مرسلة، وذكرها مؤرخون يكثر منهم الكذب فيما يروونه.

٢- إعطاء عثمان خمس الخمس لابن أبي سرح

ومن المؤاخذات التي يذكرها المتحاملون على عثمان إعطاؤه خمس الخمس لعبدالله بن سعد بن أبي سرح، وقصة ذلك، على ما في تاريخ الطبري (٥١٩٤)، أن عثمان لما أمر ابن ابي سرح بالزحف من مصر على تونس لفتحها قال له: «إن فتح الله عليك غدا إفريقية فلك ما أفاء الله على المسلمين خمس الخمس من الغنيمة فضلًا»، فخرج بجيشه حتى قطعوا أرض مصر، وأوغلوا في أرض إفريقية، وفتحوها سهلها وجبلها، وقسم عبدالله على الجند ما أفاء الله عليهم، وأخذ خمس الخمس، وأرسل بأربعة أخماس الخمس إلى عثمان مع ابن وثيمة النصري، فشكا وفد ممن كان معه إلى عثمان ما أخذه عبدالله بن سعد فقال لهم

عثمان: أنا أمرت له بذلك، فإن سخطتم فهو رد، قالوا: إنا نسخطه، فأمر عثمان عبدالله بن سعد بأن يرده، فرده، ورجع عبدالله بن سعد إلى مصر، وقد فتح إفريقية.

وقد ثبت في السنة تنفيل أهل الغناء والبأس في الجهاد، كما فعل النبيﷺ في مكافأة سلمة بن الأكوع في إغارة عبدالرحمن الفزاري على سرح النبيﷺ، (انظر المنتقى في أحاديث الأحكام، للمجد ابن تيمية ٤١٣٤، وفي غزوات أخرى ٩١٣٤، ٠٢٣٤، ١٢٣٤). قال القاضي أبوبكر بن العربي: على أنه قد ذهب مالك وجماعة إلى أن الإمام يرى رأيه في الخمس، وينفذ فيه ما أداه إليه اجتهاده وإن أعطاه لواحد جاز.

● **من هو ابن سعد؟**

وعبدالله بن سعد بن أبي سرح صحابي من بني عامر بن لؤي من قريش، كان أخا عثمان من الرضاعة استجار له عثمان يوم فتح مكة فأجاره النبيﷺ، وحسن إسلامه، وكان من عظماء المجاهدين الفاتحين، ولما أراد الله إدخال مصر في الأسرة الإسلامية كان ابن أبي سرح في طليعة الصحابة الذين أكرمهم الله بهذا الجهاد، فكان صاحب الميمنة في الحرب تحت لواء عمرو بن العاص، وكانت له مواقف محمودة في الفتوح، وبعد أن استتب الأمر لأصحاب رسول اللهﷺ في وادي النيل اختط ابن أبي سرح لنفسه خطة في بقعة الجهاد المباركة حول الفسطاط الذي قام عليه أول مسجد للإسلام في مصر.

وروى البرقي في تاريخه عن الليث بن سعد أنه قال: «كان ابن أبي سرح على الصعيد زمن عمر، ثم ضم إليه عثمان مصر كلها، وكان محمودًا في ولايته». وهذه الحقيقة التي يقررها الليث بن سعد إمام مصر عن إمارة ابن أبي سرح على مصر سنة ٥٢هـ كان مقدمة لقيام هذا الإداري العادل بقيادة الجيوش سنة ٧٢هـ لافتتاح إفريقية، وكان ذلك من أعظم الفتوح، بلغ منه سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وكان العبادلة على جلالتهم تحت قيادة ابن ابي سرح في هذا الجهاد، ثم واصل هذا القائد جهاده سنة ١٣هـ في غزاة الأساود، وفي سنة ٤٣هـ في ذات السواري،

فلما وقعت الفتنة في المدينة كتب ابن أبي سرح إلى عثمان يستأذنه في القدوم إلى المدينة من طريق العريش والعقبة، واستخلف على مصر السائب بن هشام بن عمير، فتغلب على مصر محمد بن أبي حذيفة الذي منع ابن أبي سرح من دخول مصر، فمضى إلى فلسطين واختار الإقامة بين عسقلان والرملة واعتزل الناس إلى سنة ٧٥هـ، وفي صبح يوم من الأيام وهو بالرملة قال: اللهم اجعل آخر عملي الصبح، فتوضأ ثم صلى، فسلم عن يمينه، ثم ذهب يسلم عن يساره فقبض الله روحه يرحمه الله.

٣- الكتاب المزور على أمير المؤمنين عثمان رضي الله عنه

تحدثنا من قبل عن قصة الكتاب الذي زعم من زعم أن أمير المؤمنين كتبه إلى عامله على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح بأن يقتل محمدًا بن أبي بكر، وأن ينكل بمن معه من الثائرين على عثمان.

وذكرنا من أدلة تزوير هذا الكتاب، وأنه لم يصدر عن عثمان ولا عن كاتبه مروان، أن عثمان ومروان كانا يعلمان أن ابن أبي سرح لم يكن وقتئذ موجودًا في مصر، لأنه كتب من قبل إلى الخليفة يستأذنه في المجيء إلى المدينة وأنه فارق مصر، وتغلب عليها محمد بن أبي حذيفة رئيس البغاة وعميدهم في الفسطاط.

وذكرنا أن زعيمي ثوار العراق الأشتر النخعي وحكيم بن جبلة تخلفا في المدينة ولم يخرجا منها عند خروج جماعتهما من البغاة عائدين من المدينة إلى أوطانهم في المرة الأولى، مقتنعين بأجوبة أمير المؤمنين عثمان على الشبه التي وجهوها إليه، فكان من مصلحة مدبري الثورة أن يبتكروا وسيلة لإعادتهم إلى المدينة، ليجددوا الفتنة، وكان هذا الكتاب المزور هو الوسيلة المبتكرة لذلك، وذكرنا شواهد على تعدد الكتب المزورة بأيدي رؤساء البغاة.

فتزوير الكتب في مأساة البغي على أمير المؤمنين عثمان كان من أسلحة البغاة عليه، وهم حين قدومهم إلى المدينة في بداية الأمر، كانوا قد زعموا أنهم تلقوا من علي وطلحة والزبير رسائل يدعونهم فيها إلى الثورة على عثمان، بدعوى أنه غيَّر سنة الله، فالأشتر النخعي وحكيم بن جبلة وأمثالهم من منظمي الثورة والدعاة

إليها، هم الذين تكرر منهم تزوير الرسائل من قبل ومن بعد لتحقيق غرضهم السيئ المبيت.

وأعجب العجب في أمر الكتاب المزور على عثمان، وادعاء أنه كتبه إلى أميره على مصر عبدالله بن سعد بن أبي سرح الذي لم يكن حينئذ موجودًا في مصر، أعجب العجب في ذلك أن قوافل الثوار العراقيين التي كانت متباعدة في الشرق، عن قوافل الثوار المصريين في الغرب عادتا إلى المدينة معا في آن واحد، مع أن الكتاب المزور موجه إلى طائفة واحدة منهما وهي قافلة المصريين.

فمسرحية الكتاب المزور مثلت في الطريق الغربي الذي كان المصريون فيه وحدهم وكان الراكب المستأجر لحمل هذا الكتاب يتعرض لقافلة المصريين ثم يفارقها مبتعدًا عنها، ويكرر ذلك المرة بعد المرة ليثير شبهتهم فيه، وكان المفروض لو كان صادقا وغير ممثل لمسرحية تلقنها أن يختفي عن عيون أهل القافلة، ولا يشعرهم بوجوده، لكنه لما تراءى لهم المرة بعد المرة، قالوا له: مالك؟ قال: أنا رسول أمير المؤمنين إلى عامله بمصر أن يصلبهم ويقطع أيديهم وأرجلهم، فصدقوا ما أريد لهم أن يصدقوه ولم يعلموا أن الكتاب من تزوير الأشتر وحكيم بن جبلة، اللذين لم يسافرا مع جماعتهما إلى بلديهما، بل تخلفا في المدينة (الطبري ٥/ ١٢٠)، ولم يكن لهما أي عمل يتخلفان في المدينة لأجله، إلا مثل هذه الخطط والتدابير التي لا يفكران يومئذ في غيرها.

فلما عادت قوافل الفريقين- العراقيين والمصريين- إلى المدينة وصلتا إليها معا كأنما كانوا على ميعاد، ومعنى هذا أن الذين استأجروا الراكب ليمثل دور حامل الكتاب أمام قوافل المصريين، استأجروا راكبا آخر خرج من المدينة قاصدًا قوافل العراقيين شرقا، ليخبرهم بأن المصريين اكتشفوا كتابًا بعث به عثمان إلى عبدالله بن سعد بن أبي سرح في مصر بقتل محمد بن أبي بكر (الطبري ٥/ ١٠٥).

فقال لهم علي بن أبي طالب ﵁ عند وصولهم جميعًا في آن واحد: كيف علمتم يا أهل الكوفة ويا أهل البصرة بما لقي أهل مصر وقد سرتم مراحل، ثم طويتم نحونا؟ هذا والله أمر أبرم بالمدينة، (يشير كرم الله وجهه إلى تخلف الأشتر

وحكيم في المدينة، وأنهما هما اللذان دبرا هذه المسرحية).

فأجابه الثوار العراقيون بلسان رؤسائهم: فضعوه على ما شئتم.. لا حاجة لنا إلى هذا الرجل، ليعتزلنا.

وهذا تسليم منهم بأن قصة الكتاب مفتعلة وأن الغرض الأول والأخير هو خلع أمير المؤمنين عثمان، وسفك دمه الذي عصمه الله بشريعة رسول الله ﷺ .

٤- محاباة الأقارب وتوليتهم

ومن مؤاخذاتهم على عثمان أنه حابى أقاربه، وكان يوليهم الإدارة في البلاد، والقيادة للجيوش، وعثمان لم يول أقاربه محاباة لهم، بل لكفاءتهم في صناعة الحكم، وتفوقهم في قيادة الجيوش، ونجاحهم في انتصاراتهم التي لا يكاد يكون لها نظير.

وليس عثمان أول من ولى رجالات بني أمية الإدارة والقيادة، بل إن النبي ﷺ كان أسبق في إسناد الولايات إليهم، فقد استعمل عتاب بن أسيد الأموي على مكة كبرى مدن الوطن الإسلامي في الصدر الأول، وولى أبا سفيان بن حرب على نجران، واستعمل خالد بن سعيد بن العاص، واستعمل غيرهم، وكذلك فعل أبوبكر في خلافته، ثم عمر.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في منهاج السنة: والنقل عن النبي ﷺ في استعمال هؤلاء ثابت مشهور عنه، بل متواتر عن أهل العلم، فكان الاحتجاج على جواز الاستعمال من بني أمية بالنص الثابت عند كل عاقل في منتهى الظهور.

واذا كان عثمان قد ولى أقاربه لكفاءتهم وتفوقهم، فإن عليا ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه كعبدالله بن عباس، وعبيدالله بن عباس، وحكم بن عباس، وثمامة ابن عباس، وولى على مصر ربيبه محمد بن أبي بكر الذي رباه في حجره وتزوج أمه بعد وفاة الصديق الأعظم.

قال ابن تيمية: والذين ينكرون ما ينكرون من ذلك على عثمان في ولاية أقاربه من بني أمية فإن عليا كان في ذلك أبلغ من عثمان، وإذا ادعي لعلي العصمة مما

يقطع عنه ألسنة الطاعنين، فإن ما يدعى لعثمان من الاجتهاد، والذي يقطع ألسنة الطاعنين، أقرب إلى المعقول والمنقول. (انظر منهاج السنة ٣/ ٣٧١ - ٤٧١).

٥- لين عثمان وبعض مظاهره

اللين والشدة من الصفات النسبية التي لا يمكن تحديدها في مختلف الأحوال، وقد يكون الحاكم ليّنا في نفسه، وفي معاملته لأفراد الناس، ولا يكون كذلك في حكمه وتصريفه لأمور الدولة.

وكان أبوبكر موصوفا باللين، لكنه كان يولي الشديد، ويستعين به ليعتدل بذلك أمره، ويخلط الشدة باللين، لأن مجرد اللين يفسد، ومجرد الشدة تفسد، كما قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مناهج السنة ومختصره المنتقى للذهبي (ص ٣٦٢) قال: ولهذا كان أبو بكر يستعين باستشارة عمر، وباستنابة خالد، وهذا من كماله الذي صار به خليفة رسول الله ﷺ، ولهذا اشتد في قتال أهل الردة، وبرز بشدته في ذلك على شدة عمر.

وعمر كان شديدًا في نفسه، فكان من كماله استعانته بأهل اللين ليعتدل أمره، فكان يستعين بأبي عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبي وقاص، وأبي عبيدة الثقفي، والنعمان بن مقرن، وسعيد بن عامر، وأمثال هؤلاء من أهل الصلاح والزهد الذين هم أعظم زهدًا وعبادة من مثل خالد بن الوليد.

وعثمان كان يقتدي في لينه بسلوك أبي بكر في لينه، فيستعين لكل أمر بأكفائه، ويحل المشكلات المالية بالتضحية لحلها من ماله الخاص، لذلك كان المجتمع في مدة خلافته الطويلة أسعد مجتمع نعرفه، كما وصفه الحسن البصري ومحمد بن سيرين فيما نقلناه عنهما من قبل.

وبلين عثمان الشخصي الممزوج بوجوه الشدة التي كان يستعين بها وبأهلها كانت جيوشه تضرب في أنحاء الأرض فاتحة ظافرة ناشرة كلمة الله في كل مكان.

وقد يذهب ذاهب إلى أن لين عثمان كان أعظم مظاهره موقفه من دعاة الفتنة لما أحاطوا به في المدينة لينزعوا عنه القميص الذي ألبسه الله إياه بإجماع الأمة خاصتها وعامتها، وما كان هذا من لينه، بل ليقينه أنه مقبل على لقاء الله شهيدًا

شهادة كان موعودًا بها من النبي ﷺ في أكثر من مرة.

لكن قد يكون من لينه أنه لم يقمع أسبابها الأولى، وهي تتكون خارج المدينة من دعاة الفتن متسلطًا عليهم إبليس اليهود عبدالله بن سبأ، ولعله تهاون في مطاردتهم وقمعهم، وهم لا يزالون في بداية التآمر والتدبير، لاعتقاده أن دعوتهم لن تستشري في حكم صالح، ذاق الناس فيه حلاوة العدل والإحسان، فهو يقول في نفسه: إني تجنبت فساد الشدة والاستعلاء على الناس، ومهدت لهم من أسباب السعادة ما استطعت، فما أظن أن اللين الذي عندي وهو من فطرة الله يبلغ بهم حد الفساد، بكفر النعمة والغفلة عما هم فيه من عز الفتوح، والاغتباط، بانتشار الإسلام، والتمتع بثمرات ذلك في الدنيا والدين.

ومما لاشك فيه أن من مظاهر اللين الذي فطر عليه عثمان إصغاؤه إلى شكاوى الشاكين من ولاته، ولو بغير حق، فقد نقل الحافظ ابن حجر عن كتاب الزهد لعبدالله بن المبارك ان عثمان كان لين العريكة، كثير الإحسان والحلم، فكان إذا شكا له بعض الحجاج واليا لهم أن يستبدله فيرضيهم.



الوليد بن عقبة

وولايته الكوفة لأمير المؤمنين عثمان (٤)

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

قد يظن من لا يعرف صدر هذه الأمة وسر الله فيما كان فيه من أمجاد وتوفيق، أن أمير المؤمنين عثمان جاء بالوليد بن عقبة من عرض الطريق فولاه الكوفة محاباة له لأنه أخوه لأمه، أما الذين أنعم الله عليهم بنعمة الأنس بأحوال ذلك العصر ومفاخره وفضائل أهله، فيعلمون أن الوليد بن عقبة قبل أن يكون أخاً لعثمان من أمه فإنه كان ابن أم حكيم البيضاء عمة رسول الله ﷺ وتوأمة أبيه.

وما كان عثمان أول من ولّى الوليد شيئاً من أمر الدولة في خلافته، بل إن دولة الإسلام الأولى في خلافة أبي بكر رضوان الله عليه هي التي تلقفت هذا الشاب القرشي الماضي العزيمة، الرضي الخلق، الصادق الإيمان، فاستعملت مواهبه في سبيل الله إلى أن توفي أبو بكر، وأول عمل له في خلافة الصديق أنه كان موضع السر في الرسائل الحربية التي دارت بين الخليفة وقائده خالد بن الوليد في وقعة المذار مع الفرس سنة ١٢ (الطبري ٤- ٧) ثم وجهه أبو بكر مدداً إلى قائده عياض بن غنم الفهري (الطبري ٤- ٢٢) وفي سنة ١٣ كان الوليد يلي لأبي بكر صدقات قضاعة ثم لما عزم الصديق على فتح الشام كان الوليد عنده بمنزلة عمرو بن العاص في الحرمة والثقة والكرامة، فكتب إلى عمرو بن العاص وإلى الوليد بن عقبة يدعوهما لقيادة فيالق الجهاد، فسار ابن العاص بلواء الإسلام نحو فلسطين، وسار الوليد بن عقبة قائداً إلى شرق الأردن (الطبرى - ٢٩- ٣٠) ثم رأينا الوليد في سنة ١٥ أميراً على بلاد بني تغلب وعرب الجزيرة (الطبري ٤- ١٥٥) يحمي ظهور المجاهدين في شمال الشام لئلاً يؤتوا من خلفهم، فكانت تحت قيادته ربيعة وتنوخ - مسلمهم وكافرهم وانتهز الوليد بن عقبة فرصة ولايته وقيادته على هذه

الجهة التي لا تزال مليئة بنصارى القبائل العربية فكان- مع جهاده الحربي، وعمله الإداري- داعياً إلى الله يستعمل أساليب الحكمة والموعظة الحسنة لحمل نصارى إياد وتغلب على أن يكونوا مسلمين كسائر العرب، وهربت منه إياد متوغلة في الأنضول الذي كان تحت حكم الروم البيزنطيين فحمل الوليد خليفته عمر بن الخطاب على كتابة كتاب تهديد إلى قيصر القسطنطينية بأن يردهم إلى حدود الدولة الإسلامية، وحاولت تغلب أن تتمرد على الوليد في نشره الدعوة الإسلامية بين شبانها وأطفالها بالإيمان الإسلامي، وقال فيهم كلمته المشهورة.

إذا عصبت الرأس مني بمشوذ فغيك مني تغلب ابنة وائل

وبلغت هذه الكلمة عمر، فخاف أن يبطش قائده الشاب بنصارى تغلب، فيفلت من يده، زمامهم في الوقت الذي كانوا يحاربون فيه مع المسلمين حمية للعروبة، فكف عنهم يد الوليد ونحاه عن منطقتهم.

بهذا الماضي المجيد جاء الوليد بن عقبة في خلافة عثمان فتولى له الكوفة وكان من خير ولاتها عدلاً ورفقاً وإحساناً. وكانت جيوشه- مدة ولايته على الكوفة- تزحف إلى آفاق الشرق فاتحة ظافرة موفقة.

أراد الوليد بن عقبة منذ ولي الكوفة لأمير المؤمنين عثمان- أن يكون الحاكم المثالي في العدل والنبل والسيرة الطيبة مع الناس، كما كان المحارب المثالي في جهاده وقيامه للإسلام بما يليق بالذائدين عن دعوته، الحاملين لرايته، الناشرين لرسالته، وقد لبث في إمارته على الكوفة خمس سنين وداره إلى اليوم الذي زايل فيه الكوفة- ليس لها باب يحول بينه وبين الناس ممن يعرف ومن لا يعرف، فكان يغشاها كل من شاء متى شاء من ليل أو نهار. ولم يكن بالوليد حاجة لأن يستتر من الناس.

فالستر دون الفاحشات ولا يلقاك دون الخير من ستر

وكان ينبغي أن يكون الناس كلهم محبين لأميرهم الطيب، لأنه أقام لغربائهم دور الضيافة، وأدخل على الناس خيراً حتى جعل يقسم المال للولائد والعبيد، ورد على كل مملوك من فضول الأموال في كل شهر ما يتسعون به من غير أن

ينقص مواليهم من أرزاقهم وبالفعل كانت جماهير الشعب متعلقة بحب هذا الأمير المثالي طول مدة حكمه.

إلا أن فريقاً من الأشرار وأهل الفساد أصاب بينهم سوط الشريعة بالعقاب على يد الوليد فوقفوا حياتهم على ترصد الأذى له. ومن هؤلاء رجال يسمى أحدهم أبا زينب ابن عوف الأزدي، وآخر يسمى أبا مورع، وثالث اسمه جندب أبو زهير، قبضت السلطات على أبنائهم في ليلة نقبوا بها على ابن الحيسمان داره وقتلوه، وكان نازلاً بجواره رجل من أصحاب رسول الله ﷺ، ومن أهل السابقة في الإسلام وهو أبو شريح الخزاعي حامل راية رسول الله ﷺ على جيش خزاعة يوم فتح مكة، فجاء هو وابنه من المدينة إلى الكوفة ليسيرا مع أحد جيوش الوليد بن عقبة التي كان يواصل توجيهها نحو الشرق للفتوح ونشر دعوة الإسلام، فشهد هذا الصحابي المجاهد وابنه في تلك الليلة سطو هؤلاء الأشرار على منزل ابن الحيسمان وسفكهم لدمه، وأدى شهادته هو وابنه على هؤلاء القتلة السفاحين، فأنفذ الوليد فيهم حكم الشريعة على باب القصر في الرحبة، فكتب آباؤهم العهد على أنفسهم للشيطان بأن يكيدوا لهذا الأمير الطيب الرحيم، وبثوا عليه العيون والجواسيس ليترقبوا حركاته، وكان بيته مفتوحاً دائماً. وبينما كان عنده ذات يوم ضيف له من شعراء الشمال كان نصرانياً في أخواله من تغلب من أرض الجزيرة وأسلم على يد الوليد، فظن جواسيس الموتورين أن هذا الشاعر الذي كان نصرانياً لا بد أن يكون ممن يشرب الخمر، ولعل الوليد أن يكرمه بذلك، فنادوا أبا زينب وأبا المورع وأصحابهما، فاقتحموا الدار على الوليد من ناحية المسجد، فلما فوجئ بهم نحى شيئاً أدخله تحت السرير، فأدخل بعضهم يده فأخرجه بلا إذن من صاحب الدار، فلما أخرج ذلك الشيء من تحت السرير، إذا هو طبق عليه تفاريق عنب، فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون من الخجل، وسمع الناس بالحكاية فأقبلوا يسبونهم ويلعنونهم، وقد ستر الوليد عليهم ذلك وطواه عن عثمان، وسكت عن ذلك وصبر، ثم تكررت مكايد جندب وأبي زينب وأبي المورع، وكانوا يغتنمون كل حادث ويسيئون تأويله ويفترون الكذب. وذهب الذين

كانوا عمالاً في الحكومة ونحاهم الوليد عن أعمالهم لسوء سيرتهم، فقصدوا المدينة وجعلوا يشكون الوليد لأمير المؤمنين عثمان ويطلبون منه عزله عن الكوفة، وفيما كان هؤلاء في المدينة دخل أبو زينب وأبو المورع دار الإمارة بالكوفة مع من يدخلها من غمار الناس، وبقيا فيها إلى أن تنحى الوليد ليستريح، فخرج بقية القوم، وثبت أبو زينب وأبو المورع إلى أن تمكنا من سرقة خاتم الوليد من داره وخرجا، فلما استيقظ الوليد لم يجد خاتمه سأل عنه زوجتيه - وكانتا في مخدع تريان منه زوار الوليد من وراء ستر، قالتا إن آخر من بقي في الدار رجلان، وذكرتا صفتهما وحليتهما للوليد، وأدرك أنهما أبو زينب وأبو المورع، وأدرك أنهما لم يسرقا الخاتم إلا لمكيدة بيتاها، فأرسل في طلبهما فلم يوجدا في الكوفة، وكانا قد سافرا توا إلى المدينة، وتقدما شاهدين على الوليد بشرب الخمر، فقال لهما عثمان: كيف رأيتما؟ قالا: كنا في غاشيته فدخلنا عليه وهو يقيء الخمر، فقال عثمان: ما يقيء الخمر إلا شاربها، فجيء بالوليد من الكوفة، فحلف لعثمان وأخبره خبرهم، فقال عثمان: نقيم الحدود، ويبوء شاهد الزور بالنار.

هذه قصة اتهام الوليد بالخمر كما في حوادث سنة ٣٠ من تاريخ الطبري.
وعناصر الخبر عند الطبري، أن الشهود على الوليد اثنان من الموتورين الذين تعددت شواهد غلهم عليه، ولم يرد في الشهادة ذكر الصلاة من أصلها، فضلاً عن أن تكون ركعتين أو أربعاً وهناك زيادة للحضين بن المنذر بلفظ «شهدت عثمان بن عفان وأتي بالوليد قد صلى الصبح ركعتين ثم قال أزيدكم؟ فشهد عليه رجلان أحدهما حمران أنه شرب الخمر وشهد آخر أنه رآه يتقيأ». فكلمة صلاة الصبح وأزيدكم من كلام حضين، وحضين لم يكن من الشهود، ولا كان في الكوفة في وقت الحادث المزعوم، وإنما كان عند عثمان بالمدينة لما أتي عثمان بالوليد، وحضين لم يسند هذه الكلمات إلى إنسان معروف. وخبر حضين هذا مروي هكذا عند مسلم، ومروي أيضاً عند أحمد في موضعين ليس فيهما ذكر للصلاة بلسان حضين ولا غيره، فلعل أحد الرواة من بعده أدرك أن الكلام عن الصلاة ليس من

كلام الشهود، فاقتصر على ذكر الحد، وروي الخبر في مسند أحمد في موضع ثالث عن حضين بصيغة تعارض أصل الخبر في عدد الركعات. وفي الحالتين لا يخرج ذكر الصلاة عن أنه من كلام حضين، وحضين ليس بشاهد، ولم يرو عن شاهد، فلا عبرة بهذا الجزء من كلامه، وسائر الشهود مغرضون لا يقام بمثلهم حد الله على ظنين من السوقة والرعاع، فكيف بمجاهد كريم وضع الخليفة في يده أمانة قطر، وقيادة جيوش، فكان عند الظن به من حسن السيرة في الناس، وصدق الرعاية لأمانات الله، وكان موضع الثقة عند ثلاثة هم أكمل خلفاء الإسلام أبي بكر وعمر وعثمان رضوان الله عليهم أجمعين.

بقيت ناحية من أمر الوليد لا يكون الكلام على حياته تاماً إلا باستيفائها، وهي ما تناقله المفسرون من أنه هو الذي نزلت فيه آية ﴿إِن جَآءَكُمْ فَاسِقُۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾ (الحجرات: ٦).

ولقد كنت أعجب فيما مضى كيف تكون هذه الآية نزلت فيه ويسميه الله فاسقاً. ثم تبقى له في نفس خليفتي رسول الله ﷺ أبي بكر وعمر المكانة التي سجلها له التاريخ، وأوردنا الأمثلة عليها آنفاً عند استعراضنا ماضيه في بضعة عشر عاماً قبل أن يوليه عثمان الكوفة، إن هذا التناقض بين ثقة أبي بكر وعمر بالوليد بن عقبة، وبين ما كان ينبغي أن يعامل به لو أن الله سماه فاسقاً - قد حملني على الشك في أن تكون آية الحجرات نزلت فيه لا استبعاداً لوقوع أمر من الوليد يعد به فاسقاً، ولكن استبعاداً لأن يكون الموصوم بالفسق في صريح القرآن محل الثقة من رجلين لا نعرف في أولياء الله ﷻ - بعد رسوله ﷺ - من هو أقرب إلى الله منهما.

وبعد أن ساورني هذا الشك، أعدت النظر في الأخبار التي وردت عن سبب نزول هذه الآية، فلما عكفت على دراستها، وجدتها موقوفة على مجاهد أو قتادة أو ابن أبي ليلى أو يزيد بن رومان، ولم يذكر أحد منهم أسماء رواة هذه الأخبار في مدة مائة سنة أو أكثر مرت بين أيامهم وزمن نزول الآية، وهذه المائة من السنين حافلة بالرواة من مشارب مختلفة، وإن الذين لهم هوى في تسويء سمعة

مثل الوليد، ومن هم أعظم مقاماً من الوليد، قد ملأوا الدنيا أخباراً مريبة ليس لها قيمة علمية، وما دام رواة تلك الأخبار في سبب نزول هذه الآية مجهولين من علماء الجرح والتعديل بعد الرجال الموقوفة هذه الأخبار عليهم، وعلماء الجرح والتعديل لا يعرفون من أمرهم حتى ولا أسماءهم فمن غير الجائز شرعاً وتاريخاً الحكم بصحة هذه الأخبار المنقطعة التي لا نسب لها وترتيب الأحكام عليها. فالوليد بن عقبة بريء شرعاً من نسبة سبب نزول هذه الآية إليه. ولذلك تفصيل فني أوردته في التعليق على كتاب العواصم من القواصم ولا أطيل به هنا لأن المجال في موقفنا هذا يضيق عن استيفائه.

● **مصحف عثمان وجمعه**

روى الإمام البخاري في صحيحه (رقم ٤٩٨٧) حديث أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ قال: إن حذيفة بن اليمان أحد قادة جيوش عثمان- قدم على عثمان وكان يغازي أهل الشام في فتح أرمينية وأذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حذيفة اختلافهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين أدرك هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلاف اليهود والنصارى.

وفي رواية عمارة بن غزية أن حذيفة قدم من غزوة، فلم يدخل بيته حتى أتى عثمان فقال: يا أمير المؤمنين أدرك الناس، قال عثمان: وما ذاك؟ قال: غزوت فرج أرمينية فإذا أهل الشام يقرأون بقراءة أبي بن كعب، فيأتون بما لم يسمع أهل العراق. وإذا أهل العراق يقرأون بقراءة عبد الله بن مسعود، فيأتون بما لم يسمع أهل الشام، فيكفر بعضهم بعضا.

وأخرج ابن أبي داود- في كتاب المصاحف- من طريق يزيد بن معاوية النخعي قال: «إني لفي المسجد - أي مسجد الكوفة - زمن الوليد بن عقبة في حلقة فيها حذيفة فسمع رجلاً يقول: قراءة عبد الله ابن مسعود، وسمع آخر يقول: قراءة أبي موسى الأشعري فغضب - أي حذيفة بن اليمان- ثم قام فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: هكذا كان من قبلكم اختلفوا، والله لأركبن إلى أمير المؤمنين».

قال البخاري في تمام رواية أنس بن مالك: «فأرسل عثمان إلى حفصة أن

أرسلي إلينا بالصحف - أي التي دونها زيد بن ثابت في زمن أبي بكر بإلحاح عمر رضي الله عنهم - فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام فنسخوها في المصاحف. وقال عثمان للرهط القرشيين إذا اختلفتم أنتم وزيد بن ثابت في شيء من القرآن- وفي رواية شعيب- في عربية من عربية القرآن- فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم، ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف رد عثمان الصحف إلى حفصة، فأرسل إلى كل أفق بمصحف مما نسخوا وأمر بما سواه من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرق».

إن العناية التي بذلها عظيما الإسلام أبو بكر وعمر، وأتمها أخوهما ذو النورين عثمان في جمع القرآن وتثبيته وتوحيد رسمه، كان لهم بها أعظم المنة على المسلمين، وبها حقق الله وعده في قوله سبحانه ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ (الحجر: ٩) وقد تولى الخلافة بعد هؤلاء الشيوخ الثلاثة أمير المؤمنين علي، فأمضى عملهم، وأقر مصحف عثمان برسمه وتلاوته، في جميع أمصار ولايته، وبذلك انعقد إجماع المسلمين في الصدر الأول على أن ما قام به أبو بكر وعمر وعثمان هو أعظم حسناتهم بل نقل بعض علماء الشيعة هذا الإجماع على لسان أمير المؤمنين علي بن أبي طالب. جاء في كتاب تاريخ القرآن لأبي عبد الله الزنجاني (ص٤٦) من شيعة عصرنا أن علي بن موسى المعروف بابن طاوس (٥٨٩- ٦٦٤) وهو من علمائهم نقل في كتابه سعد السعود عن الشهرستاني في مقدمة تفسيره عن سويد بن علقمة قال: سمعت علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: «أيها الناس، الله، الله، إياكم والغلو في أمر عثمان وقولكم حراق المصاحف، فوالله ما حرقها إلا عن ملأ من أصحاب رسول الله ﷺ جمعنا وقال: ما تقولون في هذه القراءة التي اختلف الناس فيها، يلقى الرجل الرجل فيقول قراءتي خير من قراءتك، وهذا يجر إلى الكفر، فقلنا: ما الرأي؟ قال: أريد أن أجمع الناس على مصحف واحد، فإنكم أن اختلفتم اليوم كان من بعدكم أشد اختلافاً، فقلنا: نعم ما رأيت».

ومما لا ريب فيه أن البغاة على عثمان كانوا في خلافة علي- رضي الله عنهما- يقرأونه في مصاحف عثمان التي أجمع عليها الصحابة وعلي فيهم.

نعم، أراد عبد الله بن مسعود أن يحتفظ بمصحفه، ولكن لم يرد الله ونصر الله عثمان والحق ببقاء مصحف عثمان هو المصحف المتلو في أنحاء الأرض من زمنه إلى يوم الناس هذا، وإلى يوم القيامة، ولله الحمد على ذلك.

* * *

٢٢ مقالات

عبد الله مشاري الروضان
وزير الأوقاف الأسبق

- **ترجمة الشيخ.**
- **المقالات:**

١- رسول الله ﷺ قدوتنا.

العدد (٤٠) ربيع الثاني (١٣٨٨هـ) - يونيو (١٩٦٨م).

٢- في سبيل جيل مؤمن.

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

ترجمة الشيخ

عبدالله مشاري الروضان

● مولده ونشأته



ولد عبدالله مشاري الروضان في عام ١٣٢٨هـ الموافق ١٩١٠م، في بيت كرم وإحسان، وقد تأثر بهذه البيئة الطيبة ونشأ متصفاً بصفاتها، وأسرة الروضان من الأسر الكويتية الموغلة في القدم سكناً وعملاً.

حرص والده على تعليمه الكتابة والرماية وعلى ألا يكون رزقه إلا حلالاً طيباً، حتى امتن الله عليه بحفظ كتاب الله تعالى، ثم درس عبدالله الروضان رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالكُتّاب مبادئ الحساب والقراءة والكتابة، وتعلم لدى المدارس الأهلية، وأولها مدرسة الملا عبداللطيف العمر، وهي مدرسة معروفة بتدريس الدين والقرآن الكريم والقراءة والكتابة، ثم التحق بالمدرسة المباركية، وهي مدرسة نظامية التحق بها معظم أبناء الكويت في ذلك الوقت.

عمل على تنشئة أبنائه التنشئة الصالحة والتعليم الجيد فكان ابنه ناصر الروضان نائب رئيس مجلس الوزراء ووزير المالية الأسبق، وعبداللطيف الروضان الأمين العام لمجلس الوزراء.

● أعماله وتجارته

عمل رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تجارة اللؤلؤ وأصبح من التجار البارزين والخبراء في اللؤلؤ آنذاك، وكانت له العديد من المساهمات في الصالح العام من خلال عمله، وشارك مع إخوانه في نهضة الكويت، وعمل رَحِمَهُ ٱللَّهُ على المساهمة في عمارة

بيوت الله تعالى.

عين رَحِمَهُ ٱللَّهُ في العام ١٩٥١م عضواً في المجلس البلدي بمرسوم أميري.

كما تم تعيينه عضواً بمجلس معارف الكويت عام ١٩٦١م.

فاز بعضوية مجلس الأمة في الانتخابات التي جرت بتاريخ ٢٣/ ١/ ١٩٦٣م، وبعد فوزه أيام، عين وزيراً للشؤون الاجتماعية والعمل بتاريخ ٢٨/ ١/ ١٩٦٣م، واستمرت وزارته حتى ديسمبر ١٩٦٤م

وعين وزيراً للأوقاف والشؤون الإسلامية، واستمرت هذه الوزارة من عام ١٩٦٥م، حتى عام ١٩٧١م، وكان له الدور الوافر بإنشاء الأمانة العامة للأوقاف، وهي الآن المشرفة على الوقف في جميع فئاته، وهي التي تديره وتدير ريعه فيما يخدم المسلمين في أمور دينهم.

واقترح رَحِمَهُ ٱللَّهُ على العلماء عمل موسوعة فقهية تكون مرجعاً للمسلمين في الكويت والدول الإسلامية الأخرى، وقد بذلوا بفضل الله تعالى منذ عام ١٩٧١م، جهداً في الإعداد لهذه الموسوعة، حتى رأت النور.

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في يوم ١١ صفر عام ١٤٠٠هـ الموافق ٣٠ ديسمبر عام ١٩٧٩م، عن عمر يناهز ٦٩ عاماً، نسأل الله تعالى له الرحمة وحسن المآب، وأن يجعل أعماله في ميزان حسناته إن شاء الله.



معالي وزير الأوقاف يقول:

رسول الله هو قدوتنا في الصبر والجهاد

العدد (٤٠) ربيع الثاني (١٣٨٨هـ) - يونيو (١٩٦٨م).

احتفلت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بذكرى مولد الرسول ﷺ ونقل مراسم الحفل التليفزيون والإذاعة، وقد افتتح معالي السيد/ عبد الله المشاري الروضان وزير الأوقاف الحفل بهذه الكلمة المركزة الجامعة:

إن لكل أمة أياماً تعتز بها، وذكريات كريمة غالية في تاريخها لا تنساها، ولكنها تكون أشد ذكرا لها، حين تمر عليها مناسبتها، فتعيش معها بقلبها ووجدانها، وتأخذ منها العبرة والدرس ليومها وغدها.

وإننا اليوم والعالم الإسلامي كله معنا وذكرى ميلاد الرسول الأعظم تمر بنا لفي أشد الحاجة إلى أن نأخذ من ذكرى هذا اليوم يوم ميلاد الهدى والنور نقطة تحول في تاريخنا الحاضر. كما كان يوم الميلاد بدء ميلاد تحول جديد في تاريخ البشرية.

إن عظمة يوم المولد ترجع إلى ما كان للوليد اليتيم بعد ذلك من اختيار الله له، ليتم برسالته الرسالات ويختم بنبوته النبوات. ويخرج الناس من الظلمات إلى النور، ويبني بهذه الرسالة أمة، ويؤسس على مبادئها حضارة ودولة.

إن محمدا ﷺ هو رسول الله ومصطفاه، وأحب الخلق إليه وأكرمهم عنده، وكان الله سبحانه قادراً على أن ينصره دون حرب ولا جهاد، ولكن الله أراد أن يجعل من حياة رسوله مثلاً وقدوة لعباده في كل ميدان من ميادين الحياة، وهو سبحانه يقول ﴿لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ﴾ (الأحزاب: ٢١)، ولقد

قضى رسول الله ﷺ حياته بعد بعثته مجاهداً صابراً، مع المشركين تارة، ومع اليهود تارة، ومع الروم تارة أخرى وكانت عدته وعدة أصحابه في هذا الجهاد الإيمان والصبر والثبات وحسن التأهب والاستعداد.

خاض معارك كثيرة، وانتصر وانهزم، فلم يحمله الانتصار على الغرور، ولم تدفعه الهزيمة إلى اليأس، بل ظل قوي الإيمان بالله، شديد البأس على أعدائه، حتى جاء نصر الله والفتح، وأتم له الدين، وأكمل عليه نعمته. وإذا كانت الأمة الآن تعيش أقسى أيامها وتمتحن امتحاناً شديداً في إيمانها وثباتها، وتقف وجها لوجه أمام قوى الشر المتجمعة عليها، فلقد امتحن رسول الله من قبل امتحاناً شديداً، وتألبت عليه قوى الشر في الدنيا كلها، فلم يضعف له إيمان، ولم تهن فيه عزيمة، لا هو ولا أصحابه المؤمنون به الذين باعوا الدنيا كلها رخيصة في سبيل عقيدتهم وإيمانهم بربهم ورسولهم.

ولقد وقف أعداء الله اليهود من رسولنا موقف العدو الألد يتربصون به ويؤلبون قوى الشر عليه، يحسن إليهم فيسيئون إليه، ويهادنهم فيتآمرون عليه... ﴿وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْ ۖ وَقَذَفَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَ ۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ (الحشر: ٢).

وإن التاريخ الآن ليعيد نفسه، ويقف أعداء الله من الإسلام وأتباعه نفس الموقف الذي وقفه أجدادهم من قبل وصدق الله العظيم: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ﴾ (المائدة: ٨٢).

فلنجعل من إيماننا ويقظتنا واتحاد كلمتنا وصبرنا في جهاد عدونا سلاحنا وعدتنا للقضاء على أعدائنا.

وإننا لنحيي بكل قلوبنا هؤلاء الأبطال الفدائيين الذين باعوا أرواحهم رخيصة في سبيل دينهم وتطهير ديارهم من أعداء الله: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُواْ مَا عَٰهَدُواْ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُواْ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب: ٢٣).

أولئك الذين فتحوا باب الجنة وميدان الخلود لرجال هذه الأمة ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ (آل عمران: ١٦٩).

وفي ختام كلمتي يسرني أن أرفع أسمى آيات التقدير والاحترام إلى مقام حضرة صاحب السمو أميرنا المعظم وولي عهده والشعب الكويتي الكريم، وأحيي إخواني المسلمين في كل مكان. وأسأل الله جلت قدرته أن يجمع كلمتنا ويوحد على الحق قلوبنا حتى تعود علينا هذه الذكرى الكريمة ونحن في فضل من الله بالعزة والانتصار.

والسلام عليكم

في سبيل جيل مؤمن

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

إن العالم الإسلامي يتعرض منذ فترة طويلة لتيارات جارفة من الإلحاد والتحلل، تحاول أن تجتاح ما في نفوس المسلمين من تدين، وأن تقطع صلتهم بالله. وإنه ليتكشف للرؤية من خلال الدعوات الهدامة عدة حقائق مريرة أظنها لا تغيب عن بال المصلحين المؤمنين:

يوجد تخطيط منظم حاقد على الإسلام يسعى جهده إلى تسميم العقول والأفكار، وإفساد القلوب والضمائر، وإشاعة الفوضى والإباحية.

وتزحف على مجتمعاتنا موجات مادية عارمة باسم الحرية والتقدمية تعمل لإبعادنا عن مواريثنا الروحية، وتقاليدنا الإسلامية، وتقطع الصلة بين ديننا ودنيانا.

وتستغل أساليب التوجيه الحديثة وأجهزة الإعلام الموجهة استغلالاً خبيثاً ماكراً لإغراقنا في رذائل الحضارة الغربية، ومباذل الحرية الزائفة.

وفي غمرة هذه الأخطار المحدقة بمقوماتنا السماوية يجب أن تتجه العقول المؤمنة، وتتحرك الأقلام المخلصة للحفاظ على ديننا والإبقاء على رسالتنا، والنجاة من عدونا.. في بيان ناصع وإقناع منطقي يجلي حقائق الإسلام، ويقف في وجه هذا الغزو الثقافي الخبيث، ويدعو إلى الله على بصيرة بالحكمة والموعظة الحسنة.

وإن من أقوى الوسائل التي تحمي جيلنا من هذه التيارات الدخيلة الوافدة أن يتناول كتابنا المتخصصون المخلصون المشكلات التي جدت في حياتنا والشكوك والأوهام التي طرأت على شبابنا في مقالات ميسرة واضحة الأسلوب جذابة

العرض تشد القارئ إلى دينه وترده إلى خالقه.

وإنه لمن دواعي سرورنا وتفاؤلنا أن تأخذ مجلة «الوعي الإسلامي» على عاتقها منذ صدورها الإسهام الجاد في هذا الميدان، وتقوم بدورها البناء في هذا المجال، فيتلاقى في ميدانها الرحب أصحاب القلوب المؤمنة: من الكتاب والقراء، ويلتف حولها كل متطلع إلى أن تعود للإسلام كلمته، وتخفق في دياره رايته.

وتلك رعاية الله للعاملين المخلصين.

٢٣ # مقالات

الشيخ مناع القطان

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- رفع الحرج في الشريعة (١).

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

٢- رفع الحرج في الشريعة (٢).

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

٣- رفع الحرج في الشريعة (٣).

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ)- أغسطس (١٩٦٩م).

٤- الطريق إلى الله.

العدد (٥٦) شعبان (١٣٨٩هـ) - أكتوبر (١٩٦٩م).

٥- نشأة الفقه الإسلامي (١).

العدد (٦٨) شعبان (١٣٩٠هـ) - أكتوبر (١٩٧٠م).

٦- نشأة الفقه الإسلامي (٢).

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

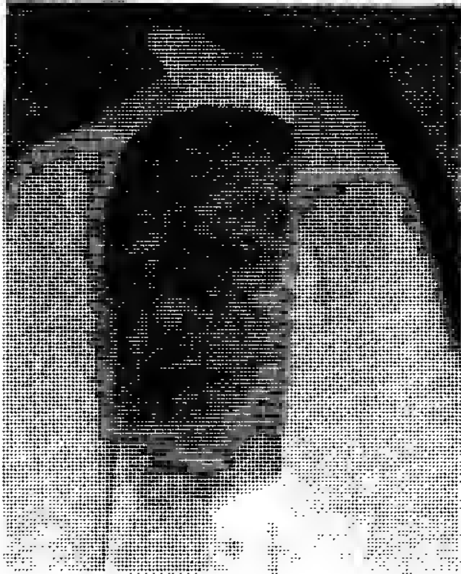
٧- دروس من الهجرة النبوية.

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - ما س (١٩٧٩م).

ترجمة الشيخ

مناع القطان

● مولده ونشأته



ولد الشيخ مناع خليل القطان في شهر أكتوبر سنة ١٩٢٥م - ١٣٤٥هـ في قرية شنشور، محافظة المنوفية بمصر من أسرة متوسطة الحال، وفي بيئة إسلامية مترابطة، حيث كان المجتمع الريفي يعتمد على الأرض الزراعية.

بدأ حياته العلمية بحفظ القرآن الكريم في الكتَّاب، ثم التحق بالمدرسة الابتدائية، ثم التحق بالمعهد الديني الأزهري بمدينة شبين الكوم ثم التحق بكلية أصول الدين في القاهرة.

تأثر الشيخ رحمه الله بمشايخه الذين أخذ العلم عنهم ومنهم: «الشيخ عبد الرزاق عفيفي، والشيخ عبد المتعال سيف النصر، والشيخ علي شلبي، الشيخ محمد زيدان، والدكتور محمد البهي، والدكتور محمد يوسف موسى».

● نشاطه العملي والدعوي

انتخب رئيساً للطلبة بكلية أصول الدين، وشارك في التصدي للاستعمار الإنجليزي سنة ١٩٤٦م، شارك في التطوع للجهاد في فلسطين سنة ١٩٤٨م، وقد دخل السجن بعدها، وكان وثيق الصلة بالشيخ محمد الغزالي، والشيخ سيد سابق، والشيخ أحمد حسن الباقوري.

عين مدرساً في المملكة العربية السعودية للتدريس في مدارسها ومعاهدها إلى سنة ١٩٥٨م، حيث انتقل للتدريس بكلية الشريعة بالرياض، ثم كلية اللغة العربية، ثم مديراً للمعهد العالي للقضاء، ثم مديراً للدراسات العليا بجامعة الإمام محمد

ابن سعود الإسلامية، بالإضافة إلى عضويته في مجلس الجامعة، ورئاسة اللجنة العلمية لكلية البنات وكذلك لجنة السياسة التعليمية بالمملكة، وكان يشرف على رسائل الماجستير والدكتوراه في جامعات محمد بن سعود، وأم القرى، والجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، والتي بلغ عددها ١١٥ رسالة.

● **مؤلفاته:**

له مؤلفات كثيرة في موضوعات شتَّى، وأهمها: «تاريخ التفسير ومناهج المفسرين، تفسير آيات الأحكام، مباحث في علوم القرآن الكريم، نزول القرآن على سبعة أحرف، التشريع والفقه في الإسلام تاريخاً ومنهجاً، مباحث في علوم الحديث، وغيرها كثير».

● **وفاته**

توفي يوم الإثنين ٦ ربيع الآخر سنة ١٤٢٠ هـ الموافق ١٩ يوليو ١٩٩٩م وصُلي عليه في مسجد الراجحي بمنطقة الربوة، ودفن في مقابر النسيم بالرياض، بعد مرض عضال، وكان عمره خمسة وسبعين عاماً. رحم الله الشيخ وغفر له وللمسلمين.

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (١)

العدد (٤٣) رجب (١٣٨٨هـ) - سبتمبر (١٩٦٨م).

● تمهيد

في مستهل حديثي عن رفع الحرج في الشريعة الإسلامية أحب أن أشير إلى الطابع العام الذي تتميز به هذه الشريعة.

لقد تميز الإسلام بأنه دين الحنيفية السمحة الذي يلائم الفطرة، ويلبي أشواقها في جوانب الحياة الإنسانية المختلفة دون إفراط أو تفريط.

فللإنسان أشواقه الروحية المتصلة بتربية العواطف، وتهذيب الوجدان، وتنمية مشاعر الخير التي تنطوي عليها النفس البشرية، حتى يصفو مشربها، وتزكو سريرتها ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾﴾ (الشمس (٧ -١٠) وسبيل هذه التزكية التي تورث صاحبها الفلاح أن تتجه النفس إلى بارئها، تدين بوحدانيته، وتخضع حياتها لشريعته. وتنقاد لأوامره ونواهيه في تذلل وانكسار، ولا تستطيع النفس أن تصل إلى هذا إلا إذا تحررت تحرراً كاملاً من سلطان أهوائها وشهواتها، وأعلنت عبوديتها لله وحده رب العالمين. وهذا هو لب الرسالات السماوية التي حملها رسل الله إلى البشرية عبر التاريخ، إعذاراً إليها، وبها بعث خاتم الأنبياء والمرسلين ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣).

وللإنسان مطالبه المادية التي تتصل بكيان حياته، وتنمية جسمه، والحفاظ على قواه المنتجة العاملة. حيث أجرى الله سنته في استقرار الأرواح بأجسادها، وربط معنى الحياة بالصلة الوثيقة القائمة بين هذه وتلك، وقوام الحياة المعيشية في

معترك العمل يهدف إلى تحقيق مطالب البدن في الغذاء والكساء، والمسكن والمركب، وسائر ما يستمتع به الإنسان مما أحل الله له.

والإسلام يفي بهذه المطالب من وجوهها المشروعة في الكسب الحلال، ويثير في النفس البشرية حوافز العمل الفطرية في غريزة حب التملك، ويتولى حراستها من الشطط، لتنطلق بطاقاتها على هدى من الله. تكد وتكدح ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ﴾ (الملك: ١٥). «ما أكل أحد طعاما قط خيرا من أن يأكل من عمل يده، وإن نبي الله داود كان يأكل من عمل يده» ويمتد الأمل في هذا الكسب بما يخلفه الآباء للذرية من ميراث.

وهناك المطالب العقلية التي تتصل بالتفكير الإنساني، وإثارة العقل البشري للنظر في الكون وإدراك أسراره، والاستفادة منه. والسعي نحو تحقيق مستوى فكري لائق في حقل المعارف الإنسانية على اختلاف أنواعها.

ولطالما كان الرقي العقلي مظهراً للتقدم الحضاري، وسبيلاً إلى إرساء دعائم المدنية على نهج سديد في مراحل التطور البشري، وبناء الحضارات الإنسانية في القديم والحديث.

ولقد لفت الله أنظار عباده في القرآن الكريم إلى الطريق القويم في التفكير السليم، والنظر الصائب، بما يشحذ الذهن، ويبعث فيه حرية التفكير، ولذة التزود بالمعرفة، وجعل الحواس نوافذ يطل منها الإنسان على هذا العالم الفسيح، ليبصر حقائق الكون، ويعتبر بما فيه من دلائل قدرة الصانع ﴿إِنَّ فِي خَلۡقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَٱخۡتِلَٰفِ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلۡفُلۡكِ ٱلَّتِي تَجۡرِي فِي ٱلۡبَحۡرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٖ فَأَحۡيَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٖ وَتَصۡرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلۡمُسَخَّرِ بَيۡنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ لَأٓيَٰتٖ لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ١٦٤﴾ (البقرة: ١٦٤).

والشريعة الإسلامية بين شرائع الله كلها هي التي تحقق تلك النواحي الشاملة لجوانب الحياة البشرية. في الأشواق الروحية، والمطالب المادية، والرقي العقلي، في انسجام متكامل.

فالدعوة إلى الإيمان بوجود الله ووحدانيته وصفات كماله تعتمد على النظر

العقلي والتفكير المنطقي ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ (النحل: ١٧).

والدعوة إلى العبادة للتهذيب النفسي والتربية الروحية تأتي مقرونة بالسعي في الأرض ابتغاء للرزق ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩﴾ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (الجمعة: ٩-١٠).

وطيبات الحياة التي أباحها الله تعالى لاستمتاع الإنسان تأتي كذلك مقرونة بالقربة إليه «وفي بضع أحدكم صدقة» «ولست تنفق نفقة تبتغي بها وجه الله إلا أجرت بها حتى اللقمة تضعها في في امرأتك».

والحد الفاصل في هذه الأمور كلها هو الاعتدال الذي تميزت به الأمة الوسط ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا ۚ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف: ٣١-٣٢).

وبهذا تميز الإسلام بأنه دين الحنيفية السمحة، وقال رسول الله ﷺ «بعثت بالحنيفية السمحة».

والشريعة الإسلامية هي مجموعة التكاليف التي شرعها الله تعالى وبينها رسول الله ﷺ لأمته والمراد بالتكليف خطاب الشرع بأمر أو نهي.

ويشترط في المكلف أن يكون ممكناً، لأن حصوله مطلوب الشرع، وكل ما كان مطلوب الحصول يجب أن يكون متصور الوقوع، وهذا معنى كونه ممكنا، لأن المحال لا يتصور وقوعه. وما لا يتصور وقوعه لا يستدعى حصوله. إذ إن استدعاء الحصول لا يكون إلا لفائدة. وحصول الفائدة مما لا يتصور وقوعه لا يعقل، وإذا ثبت أن المحال لا يستدعى حصوله فلا يكلف به لعدم فائدة التكليف، وهذه المسألة هي المعروفة بمسألة تكليف ما لا يطاق.

وبهذا ثبت في الأصول أن شرط التكليف القدرة على المكلف به. كما يدل على هذا نصوص الشريعة التي سنأتي على طرف منها فيما بعد. فما لا قدرة للمكلف عليه لا يصح التكليف به شرعاً.

ولم يخالف في هذا سوى قلة ممن لا يعتد بهم. واستدلوا على مذهبهم بأدلة تولى علماء الأصول ردها.

ويمكننا أن نوجز ما ذكره الغزالي في المستصفى من أدلتهم والرد عليها: استدلوا أولاً بقوله تعالى ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ﴾ والمحال لا يسأل دفعه.

وأجيب بأن المراد ما يشق ويثقل علينا، فإن من شق عليه التكليف بأعمال تكاد تفضي إلى هلاكه لشدتها يقال فيه حمل ما لا طاقة له به.

واستدلوا ثانياً بأن الله أخبر أن أبا جهل لا يصدق بالرسالة، وقد كلفه الإيمان، ومعناه أن يصدق محمداً فيما جاء به، ومما جاء به أنه لا يصدقه، فكأنه أمره أن يصدقه في ألا يصدقه، وهو محال.

وأجيب بأن أبا جهل أمر بالإيمان والتوحيد والرسالة، والأدلة على هذا كثيرة في شواهد الكون يدركها العقل وقد كان عاقلاً، فكان الإمكان حاصلاً، لكن الله تعالى علم أنه يترك ما يقدر عليه حسداً وعناداً، فالعلم يتبع المعلوم ولا يغيره، فيكون هذا من باب المستحيل لغيره لا لذاته.

واستدلوا ثالثاً بمثل قوله تعالى ﴿كُونُوا۟ قِرَدَةً خَـٰسِـِٔينَ﴾ وقوله ﴿كُونُوا۟ حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا﴾.

وأجيب بأن الأمر هنا للتعجيز لا للطلب، أو لإظهار القدرة كقوله تعالى ﴿كُن فَيَكُونُ﴾.

وقد بين الشاطبي بناء على هذا أن ما تعلق به الطلب ظاهراً من الإنسان على ثلاثة أقسام:

أحدها: ما لم يكن داخلاً تحت كسبه قطعاً، وهذا قليل، كقوله تعالى ﴿وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ وحكمه أن الطلب مصروف على ما تعلق به، وهو هنا استمرار الإسلام إلى الموت.

والثاني: ما كان داخلاً تحت كسبه قطعاً، وذلك جمهور الأفعال المكلف بها التي هي داخلة تحت كسبه، والطلب المتعلق بها على حقيقته في صحة التكليف

بها، سواء علينا أكانت مطلوبة لنفسها أم لغيرها.

والثالث: ما قد يشتبه أمره كالحب والبغض وما في معناهما، فحق الناظر فيها أن ينظر في حقائقها فحيث ثبتت له من القسمين حكم عليه بحكمه.

ثم أشار إلى أن هذه الأوصاف الفطرية في الإنسان يتبعها أفعال اكتسابية فالطلب وارد على تلك الأفعال. كقوله ﷺ «تهادوا تحابوا» وذلك كالنهي عن النظر إلى المرأة الأجنبية المثير للشهوة الداعية إلى ما لا يحل، وعين الشهوة لم ينه عنه.

وكذلك النهي عن الغضب، فإن الغضب وإن كان أمراً فطرياً إلا أن النهي عنه باعتبار لاحقه، فإنه يثير شهوة الانتقام، كما يثير النظر شهوة الجنس، كقوله ﷺ لمن قال له أوصني: «لا تغضب» مكرراً ذلك.

● **التكليف بما فيه مشقة**

وإذا كان شرط التكليف أن يقع المكلف به تحت مقدور المكلف لاستحالة التكليف بما لا يطاق. فهذا يدل على أن التكاليف الشرعية تقع تحت مقدوره، ولكنه لا ينفي التكليف بما فيه نوع مشقة، والتكليف في مدلوله يدل على هذا، فإنه يقال: تكلف الإنسان الشيء إذا فعله مع مشقة تناله في تعاطيه، وصارت الكلفة في التعارف اسما للمشقة. قال الراغب: ولذلك صار التكلف على ضربين: الأول محمود، وهو ما يتحراه الإنسان ليتوصل به إلى أن يصير الفعل الذي يتعاطاه سهلاً عليه، ويصير كلفاً به. ومحباً له، وبهذا النظر يستعمل التكليف في تكلف العبادات. والثاني مذموم. وهو ما يتحراه الإنسان مراآة، وإياه عني بقوله تعالى ﴿قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴿٨٦﴾﴾ (ص: ٨٦).

وإذا لم يكن هناك تلازم بين التكليف بالمشاق والتكليف بما لا يطاق، فقد ثبت في الشرائع الأولى التكليف بالمشاق، ولم يثبت فيها التكليف بما لا يطاق.

والمشقة في أصل اللغة من قولك: شق علي الشيء يشق شقاً ومشقة: إذا أتعبك، ومنه قوله تعالى ﴿لَّمْ تَكُونُوا۟ بَـٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلْأَنفُسِ﴾ (النحل: ٧) والشق: هو الاسم من المشقة.

● **رفع الحرج**

وقد دلت النصوص على أن الله رفع عن الأمة الإسلامية التكاليف الشاقة التي فرضت على الأمم السابقة ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾ (البقرة: ٢٨٦) ﴿وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾ حيث بنيت الشريعة الإسلامية على اليسر وعدم الحرج، وشمل رفع الحرج شعب الحياة الإنسانية كلها، فإننا حين نستعرض النصوص الواردة في ذلك نجد أن الإسلام:

قد رفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب.

ورفع الحرج في الدين عامة وفي العبادات خاصة.

ورفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة.

ورفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس.

١- رفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب:

للإنسان خواطره النفسية التي تجيش بصدره من حين لآخر، وهي ظاهرة يلمسها الإنسان بين جوانحه، ويحس نحوها بالبهجة والسرور أحياناً، وبالألم ووخز الضمير أخرى.

ولا شك أن هذه الخواطر النفسية ترتبط ببواعثها في الخير والشر، فهناك ما يبعث في النفس حوافز المعروف ويحركها نحوه، رغبة في الخير، واكتساباً للفضيلة، وطلبا للأجر، وهناك ما يبعث فيها دوافع المنكر، ويغريها بارتكابه ويزين لها ما فيه من شر بالصورة الحسنة الجميلة، وشهوة المتعة اللذيذة.

وإذا كانت الأسباب ترتبط بمسبباتها خيراً وشراً فإن النظر العقلي قد يقضي بالحساب على تلك البواعث النفسية التي تختلج في الصدور. وتعتمل فيها فترة من الزمن حتى تظهر آثارها في الوجود، ولئن خفيت هذه البواعث على الناس فإن رب الناس أعلم بها ﴿يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾﴾ (غافر: ١٩).

والتحكم في خواطر النفس يبدو أمراً بعيد النوال، وإن كان من الممكن أن يتحكم الإنسان في كثير من البواعث المؤدية إليها، فكان من فضل الله على هذه الأمة أن رفع الحرج عنها، فلم يؤاخذها على خواطر السوء التي تخطر بالنفس

وإن كان يعلم السر وأخفى.

وقد ثبت في الأحاديث الصحيحة أنه لما نزل قوله تعالى ﴿لِّلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ ۗ وَإِن تُبْدُوا۟ مَا فِيٓ أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ ٱللَّهُ ۖ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٨٤﴾﴾ (البقرة: ٢٨٤) اشتد ذلك على أصحاب رسول الله ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ، ثم جثوا على الركب وقالوا يا رسول الله: كلفنا من الأعمال ما نطيق: الصلاة والصيام والجهاد والصدقة، وقد أنزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابينمن قبلكم: سمعنا وعصينا؟ بل قولوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير، فلما أقر بها القوم، وذلت بها ألسنتهم، أنزل الله في أثرها ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ وَقَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۖ غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٢٨٥﴾﴾ فلما فعلوا ذلك نسخها الله فأنزل ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۚ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ ۗ﴾ إلى آخر السورة.

وفي رواية لمسلم استجابة الله لدعائهم بزيادة ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ﴾ قال: قد فعلت: ﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ﴾. قال: قد فعلت: ﴿وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ قال قد فعلت.

وبين رسول الله ﷺ تجاوز الله عن أمته في حديث النفس ما لم يتحول هذا الحديث إلى كلام أو عمل: «إن الله تجاوز لي عن أمتي ما حدثت به أنفسها ما لم تكلم أو تعمل».

وزادت منة الله على الأمة في التفرقة بين خواطر الخير وخواطر الشر. فالمرحلة النفسية التي تترجم إلى العمل: هي الخاطرة، والتردد، والهم أو الإرادة. ثم العزم. وحين رفع الله عن أمتنا المؤاخذة على خواطر النفس في هواجس الشر جعل الرجوع عنها حسنة يؤجر عليها العبد، بينما يثيبه على هذه الخواطر إذا كانت خيرة وإن لم تخرج إلى حيز العمل، ولا يجزيه على السيئة إلا بمثلها، ويجزيه على

الحسنة أضعافاً مضاعفة «إن الله كتب الحسنات والسيئات ثم بين ذلك، فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة، وإن هم بها فعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة، وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة، فإن هم بها فعملها كتبها الله عنده سيئة واحدة».

٢- رفع الحرج في الدين عامة والعبادات خاصة

تدور كلمة «الدين» حول معان يأخذ بعضها بحجز بعض، فإنه يقال: دانه ديناً إذا ملكه وحكمه وساسه وحاسبه وجازاه وفي الحديث «الكيس من دان نفسه» أي حكمها وضبطها، والديان: الحكم القاضي.

ويقال: دان له: أي أطاعه وخضع له، فالدين: هو الخضوع والطاعة والعبادة. وهذا معنى ملازم للأول ومطاوع لها، يقال: دانه فدان له، أي قهره على الطاعة فخضع وأطاع، ويتعدى الفعل بالباء فيقال: دان به أي اتخذه دينا ومذهباً، بمعنى اعتقده وتخلق به، وهو معنى تابع للأول. لأن العقيدة التي يدان بها تفرض سلطانها على صاحبها لينقاد لها ويلتزم اتباعها.

وأيا كان معنى الكلمة فإنها تدور حول لزوم الانقياد، وإن كان الدين بالفتح يتضمن الإلزام المالي، ويعرف بعض العلماء الدين بأنه وضع إلهي يرشد إلى الحق في الاعتقادات وإلى الخير في السلوك والمعاملات.

وتدل كلمة «العبادة» على الخضوع والتذلل والاستكانة، فالعبودية هي إظهار التذلل، والعبادة أبلغ منها لأنها غاية التذلل، ولا يستحقها إلا من له غاية الإفضال، وهو الله تعالى، ولهذا قال: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُۚ﴾ (يوسف: ٤٠).

وإذا كان من مستلزمات الدين والعبادة الخضوع والتذلل والانقياد والطاعة فإن هذه المعاني لا تحمل في مدلولاتها حقيقة القهر والإكراه، وإنما تعني حقيقة الاستجابة الفطرية المركوزة في طبيعة المخلوق نحو خالقه، باللجوء إليه، تضرعاً وتذللاً شعوراً بالحاجة، وتتضح حقيقة هذه الاستجابة في الانقياد لما جاء به رسل الله.

ونحن نطالع آيات القرآن وأحاديث رسول الله ﷺ فنرى ما يرفع عن النفس

توهمها مشقة الدين والقيام بما تعبدنا الله به.

يوجه الله سبحانه وتعالى نداءه للمؤمنين بالصلاة التي هي عماد الدين، بالنص على ركنيها الأساسيين في هيئتها وما يدلان عليه من تذلل وانكسار ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱرۡكَعُواْ وَٱسۡجُدُواْ﴾ ثم يأمرهم بعد ذلك بما هو أشمل من الصلاة، بالعبادة التي تعني انقياد العبد لمعبوده في شؤون الحياة كلها على وجه القربة إليه. فإنَّ توجه القلب إلى الله بالعمل طلباً لمرضاته وفق شريعته يجعل السلوك الإنساني في شتى مظاهره عبادة ﴿وَٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمۡ﴾ .

ثم يأتي الأمر بما هو خير في ذاته، وهذا يشمل ما كان صلة بين العبد وربه، وما كان صلة بينه وبين إخوانه ﴿وَٱفۡعَلُواْ ٱلۡخَيۡرَ﴾ ويرتب الله على هذه الأسباب في الاستقامة وحسن السلوك رجاء الفلاح والظفر ﴿لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾ .

وإذا أخذت الأمة الإسلامية نفسها بهذه الاستقامة فقد تهيأت للقيام بأعباء الدين والجهاد في سبيله إعلاء لكلمته وحماية لحوزته، وتلك هي الأمانة الكبيرة والتبعة الضخمة التي اختار الله لها هذه الأمة ﴿وَجَٰهِدُواْ فِي ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦۚ هُوَ ٱجۡتَبَىٰكُمۡ﴾ .

وإذا كانت هذه التكاليف شاملة للدين كله، وختمت بذروة سنامه في الأمر بالجهاد الذي يوحي للنفس ببذل الجهد، فإن الله سبحانه وتعالى يقرن هذا بواسع رحمته. فإن الإسلام بتكاليفه وعباداته هو دين الفطرة الذي لا حرج فيه ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيۡكُمۡ فِي ٱلدِّينِ مِنۡ حَرَجٖۚ﴾ (الحج: ٧٧-٧٨) وأصل الحرج والحراج: مجتمع الشيء، وتصور منه ضيق ما بينهما فقيل للضيق حرج، وللإثم حرج.

ويبين رسول الله ﷺ سهولة هذا الدين. ويحذر من التعمق فيه ليأخذه المسلم برفق. فإن أحداً لا يبالغ في الأخذ به إلا انقطع به السبيل دونه، ولكنه القصد والاعتدال «إن الدين يسر، ولن يشاد الدين أحد إلا غلبه فسددوا وقاربوا».

ويتجاوز هذا التوجيه النبوي الأمر والإرشاد إلى السلوك العملي «ما خير رسول الله ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن آثماً» .

(للحديث بقية)

رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٢)

الرخص- الأسرة- المعَاملة

العدد (٤٩) محرم (١٣٨٩هـ) - مارس (١٩٦٩م).

- **الرخص**

إن تكاليف الإسلام سهلة، ولكن الإنسان قد يعرض له في بعض الأحوال ما يجعل القيام بهذه التكاليف شاقاً عليه، وهنا تأتي مشروعية الرخص وهي أمر مقطوع به، ومما علم من دين الأمة ضرورة، كرخص القصر والفطر والجمع وتناول المحرمات في الاضطرار. وهذا يدل قطعاً على رفع الحرج والمشقة «إن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه».

لقد فرض الله الصيام على الأمم السابقة استعلاء للنفس على ضرورات الجسد كلها، وتربية للإرادة المؤمنة الحازمة التي تنفذ بمضاء وعزيمة لأداء رسالتها إيثاراً لما عند الله ﴿وَٱلْأَخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ﴿١٧﴾﴾ (الأعلى: ١٧).

ولكن الصوم في الإسلام أيام معدودات. وليس فريضة العمر، ومع هذا فقد أعفي من أدائه المرضى حتى يصحوا، والمسافرون حتى يقيموا، تخفيفاً وتيسيراً ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ۖ وَمَن كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِّنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ۗ يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

وقد علق الله تعالى هذه الرخصة بمطلق السفر ومطلق المرض، وإن كان الفقهاء- خشية أن يفرط الناس في الأخذ بهذه الرخصة لأدنى سبب - قد اشترطوا لذلك شروطاً وشددوا فيها، إلا أن الناس لا ينقادون إلى تقوى الله كراهية، والإسلام يربي الضمير الإنساني على الوعي الديني في العبادة حتى تكون خالصة لله، لا أن يفلت من أدائها تحت ستار الرخصة.

قال ابن تيمية: «ويجوز الفطر للمسافر باتفاق الأمة، سواء كان قادراً على الصيام، أو عاجزاً، وسواء شق عليه الصوم، أو لم يشق، بحيث لو كان مسافراً في الظل والماء، ومعه من يخدمه جاز له الفطر والقصر، ومن قال إن الفطر لا يجوز إلا لمن عجز عن الصيام فإنه يستتاب، فإن تاب وإلا قتل، وكذلك من أنكر على المفطر فإنه يستتاب من ذلك، ومن قال: إن المفطر عليه إثم فإنه يستتاب من ذلك، فإن هذه الأحوال خلاف كتاب الله، وخلاف سنة رسوله ﷺ، وخلاف إجماع الأمة.

وهكذا السنة للمسافر أن يصلي الرباعية ركعتين، والقصر أفضل له من التربيع عند الأئمة الأربعة، كمذهب مالك وأبي حنيفة وأحمد والشافعي في أصح قوليه.

ولم تتنازع الأمة في جواز الفطر للمسافر، بل تنازعوا في جواز الصيام للمسافر، فذهب طائفة من السلف والخلف إلى أن الصائم في السفر كالمفطر في الحضر، وأنه إذا صام لم يجزه، بل عليه أن يقضي، ويروى هذا عن عبد الرحمن ابن عوف وأبي هريرة، وغيرهما من السلف، وهو مذهب أهل الظاهر، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «ليس من البر الصوم في السفر».

ثم قال في مقدار السفر: وقال طائفة من السلف والخلف بل يقصر ويفطر في أقل من يومين، وهذا قول قوي- فإنه ثبت أن النبي ﷺ كان يصلي بعرفة ومزدلفة ومنى يقصر الصلاة، وخلفه أهل مكة وغيرهم يصلون بصلاته، ولم يأمر أحداً منهم بإتمام الصلاة.

وسئل عمن يكون مسافراً في رمضان ولم يصبه جوع ولا عطش ولا تعب، فما الأفضل له؟ الصيام أم الإفطار؟ فأجاب، أما المسافر فيفطر باتفاق المسلمين، وإن لم يكن عليه مشقة، والفطر له أفضل، وإن صام جاز عند أكثر العلماء ومنهم من يقول لا يجزئه.

ونحن نورد هنا حديث جابر رضي الله عنه قال: «خرج رسول الله ﷺ عام الفتح إلى مكة في رمضان، فصام حتى بلغ «كراع الغميم» فصام الناس، ثم دعا بقدح من ماء فرفعه حتى نظر الناس، ثم شرب، فقيل له بعد ذلك: إن بعض الناس قد صام،

فقال: أولئك العصاة، أولئك العصاة».

وعن أنس رضي الله عنه قال: كنا مع النبي ﷺ في سفر، فمنا الصائم ومنا المفطر، فنزلنا منزلا في يوم حار، أكثرنا ظلا صاحب الكساء، ومنا من اتقى الشمس بيده، فسقط الصوام، وقام المفطرون، فضربوا الأبنية، وسقوا الركاب، فقال النبي ﷺ: «ذهب المفطرون اليوم بالأجر».

في قصر الصلاة

وتأتي هذه الرخصة في قصر الصلاة بالسفر كما أشار ابن تيمية في كلامه الذي نقلناه آنفاً وقال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ﴾ (النساء: ١٠١) ويذكر بعض العلماء أن هذه الرخصة لا تقتصر على عدد الركعات، بل تشمل صفة الصلاة ذاتها، فالصلاة وما فيها من قيام وركوع وسجود قد تعوق المقاتل أو الضارب في الأرض، وهو في حاجة كذلك إلى صلته الدائمة بالله، فيراد بالقصر هنا كذلك القصر في صفة الصلاة ذاتها، كالقيام بلا حركة ولا ركوع ولا سجود ولا قعود للتشهد.

والقصر في السفر هو سنة النبي ﷺ وسنة خلفائه الراشدين، ولم يصل رسول الله في السفر أربعاً قط. ولذا ذهب بعض العلماء إلى أن القصر واجب.

والمحققون على أن مسافة القصر ليس لها قدر محدود، وكان ﷺ يصلي في حجة الوداع بمنى وعرفة ركعتين، وخلفه أهل مكة وغيرهم ولم ينقل عنه أنه قال لهم هناك أتموا صلاتكم فإنا قوم سفر. ولكن نقل أنه قال ذلك في غزوة الفتح لما صلى بهم داخل مكة، وفي الصحيح عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت:

«فرضت الصلاة ركعتين ركعتين، ثم زيد في صلاة الحضر، وأقرت صلاة السفر» ولم يحد النبي ﷺ مسافة القصر بحد، لا زماني ولا مكاني، ولذا قال ابن تيمية: «إن المسافر يقصر الصلاة في كل سفر، ومن قصر السفر على طويل، وقصير، وخص بعض الأحكام بهذا وبعضها بهذا، وجعلها متعلقة بالسفر الطويل فليس معه حجة يجب الرجوع إليها».

والجمع بين الصلاتين

ويتبع رخصة القصر الجمع، وهو تخفيف على الأمة سواء كان السفر لحرب أو لغير حرب.

ونفى الجناح في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِي ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُوا۟ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ۚ﴾ (النساء: ١٠١) لبيان الحكم وإزالة الشبهة. ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَاۚ﴾ (البقرة: : ١٥٨) فإن نفي الجناح لأجل الشبهة التي عرضت لهم من الطواف بينهما في الجاهلية.

وذكر الخوف في الآية لأن القصر يتناول قصر العدد وقصر الأركان على نحو ما ذكرنا من قبل، فالخوف يبيح قصر الأركان والسفر يبيح قصر العدد، فإذا اجتمعا أبيح القصر بالوجهين.

وقد راعى كثير من العلماء روح الإسلام في رخصة الجمع، وما روي من أن النبي ﷺ جمع في غير سفر، فقالوا بجواز الجمع للمرض والحرج والشغل والمطر والوحل والريح الشديدة الباردة.

ومن باب اليسر في هذا كذلك ما ثبت من أن النبي ﷺ كان يصلي على راحلته في السفر قبل أي وجه توجهت به، ويوتر عليها، غير أنه لا يصلي عليها المكتوبة.

وفي التيمم

ندع رخصة القصر والجمع في السفر فنجد رخصة التيمم لفاقد الماء حقيقة أو حكماً.

إن الطهارة شرط من شروط صحة الصلاة، والأصل فيها أن تكون بالماء. ولكن الإنسان قد يفقد الماء ويتعذر حصوله عليه، وقد يكون مريضاً يتأذى باستعماله، فيكفيه في مثل هذا أن يقصد صعيداً طيباً، فيضرب بكفيه، ثم ينفضهما، ثم يمسح بهما وجهه وكفيه.

وتدل آية التيمم على أن الله لا يريد أن يعنت الناس ويحملهم على الحرج والمشقة بالتكاليف، إنما يريد أن يطهرهم ويتم عليهم نعمته ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِذَا قُمْتُمْ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغْسِلُوا۟ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى ٱلْمَرَافِقِ وَٱمْسَحُوا۟ بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى ٱلْكَعْبَيْنِ ۚ وَإِن كُنتُمْ جُنُبًا فَٱطَّهَّرُوا۟ ۚ وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُوا۟ مَآءً فَتَيَمَّمُوا۟ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُوا۟ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِّنْهُ ۚ مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٦﴾﴾ (المائدة: ٦)

فالطهارة الروحية هي المقصد الأسمى في العبادة وإن تبعتها الطهارة الحسية، وجانب التطهر الروحي أقوى من جانب التطهر البدني، وإن هدف الإسلام هو طهارة الظاهر والباطن. فحين يتعذر استخدام الماء يستعاض عنه بالتيمم الذي لا يحقق طهارة الجسد بنظافته، وإنما يحقق الجانب الأقوى في القصد إلى تطهير الروح ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَٰكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ﴾(المائدة: ٦).

وبهذا المعنى تنكشف الغشاوة عن أعين أولئك الذين يرون في الاهتمام بنظافة الجسد كفاية لهم. أو يرون مشروعية التيمم متنافية مع القصد إلى النظافة. فإن القصد الأول إنما هو لتطهير الروح لا لتطهير البدن.

والتيمم من خصائص هذه الأمة، ففي الصحيحين: «وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، فأيما رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل».

والفقهاء يذكرون رخصة التيمم عند العجز عن استعمال الماء لعدمه، أو لضرر في استعماله، من حرج أو برد شديد أو مرض يخشى زيادته، أو تطاوله واجب، ولهذه الأحوال كلها أدلتها المبسوطة في كتب الفقه.

٣- رفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة

إن الأسرة هي نواة المجتمع، وفي مهدها تتربى الطفولة التي هي ذخيرة المستقبل، والرصيد الإنساني الممتد على طول الزمن، وفي جو الأسرة الذي يعبق بصلات الود والمرحمة تنمو المواهب الفطرية الأولى في حياة الطفولة.

والأسرة في الإسلام تولد في المجتمع لتبقى وتدوم حفاظاً على النوع الإنساني، واستمراراً لجهده الحضاري في الحياة.

والعلاقات القائمة بين الزوجين في الإسلام تتساوى فيها الحقوق والواجبات

بما يقطع دابر المنازعة والخصومة وهي العدل الإلهي الذي لا إجحاف فيه لواحد من الزوجين. قال تعالى ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (الطلاق: ٧) وقال عليه الصلاة والسلام «ولهن عليكم نفقتهن وكسوتهن بالمعروف» وقال لهند «خذي ما يكفيك وولدك بالمعروف».

وما دامت الأسرة وجدت لتبقى. حتى لو فسدت الحياة بين الزوجين وانفصمت عراها، فإن نظام الأسرة في الإسلام نظم تلك العلاقة التي بقيت بعد انفصام الزوجين بالطلاق، وهي علاقة النسل الذي ساهم كلاهما فيه.

فعلى الوالدة- وإن كانت مطلقة- أن ترضع طفلها حولين كاملين. وهي الفترة الطبيعية لنمو الطفل نمواً سليماً من الوجهة الصحية والوجهة النفسية، يتغذى من لبن أمه، ويستدفئ بعاطفتها، وعلى والد الطفل في مقابل هذا أن يرزقها ويكسوها بالمعروف. فكل منهما يقوم بواجبه بقدر طاقته ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَ ۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وليس انفصام الحياة الزوجية حداً فاصلاً لعلاقاتها، بل تظل هناك التزامات في النفقة والسكنى أو السكنى وحدها على التفصيل الفقهي لدى العلماء، وهذه الالتزامات في حدود المقدرة لدى الزوج ومستوى حياته، لا أقل ولا أكثر بلا مضارة أو تضييق، وخص ذوات الحمل بالنفقة، وإن طالت المدة إلى أن يضعن حملهن، ومن حقهن بعد ذلك إذا قمن بالرضاع أخذ الأجر لتستعين الأم به على حياتها، وعلى إدرار اللبن لصغيرها. وما الطفل سوى الثمرة المشتركة بين الأب والأم، وهو أمانة لديهما، يتشاوران في أمره بالمعروف، حتى لا تجني عليه نكبة فشلهما وهو الصغير البريء.

وتقدر هذه النفقة باليسر والعدل، لا يتعنت الرجل، ولا تتعنت المرأة، فمن وسع الله عليه رزقه فلينفق عن سعة، ومن ضيق عليه في الرزق فلا حرج عليه، فالله هو المعطي، ولن يكلف الله أحداً أن يعطي إلا في حدود ما أعطاه، وهو وحده القابض الباسط، ومنه يكون الفرج بعد الضيق، واليسر بعد العسر ﴿أَسْكِنُوهُنَّ

مِنْ حَيْثُ سَكَنتُم مِّن وُجْدِكُمْ وَلَا تُضَآرُّوهُنَّ لِتُضَيِّقُوا۟ عَلَيْهِنَّ ۚ وَإِن كُنَّ أُو۟لَٰتِ حَمْلٍ فَأَنفِقُوا۟ عَلَيْهِنَّ حَتَّىٰ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ ۚ فَإِنْ أَرْضَعْنَ لَكُمْ فَـَٔاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۖ وَأْتَمِرُوا۟ بَيْنَكُم بِمَعْرُوفٍ ۖ وَإِن تَعَاسَرْتُمْ فَسَتُرْضِعُ لَهُۥٓ أُخْرَىٰ ﴿٦﴾ لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ ۖ وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ فَلْيُنفِقْ مِمَّآ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ۚ لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا ۚ سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ﴿٧﴾﴾ (الطلاق: ٦-٧).

٤- رفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس

الإسلام هو شريعة الله المتكاملة في العقيدة والعبادة والمعاملة، ومن عقيدته التي تقوم على توحيد الله وحده تنبثق شرائعه كلها، فهي القاعدة التي يرتبط على أساسها الفرد بالله على بصيرة، وترتبط بها الجماعة بالمعيار الثابت الذي ترجع إليه في كافة الروابط، في رابطة الأسرة بأجيالها المتلاحقة، وفي رابطة العلاقات الاجتماعية والتعامل على اختلاف أنواعه، وتأتي هذه الشرائع في تناسق محكم في الوصايا المتتابعة بسورة الأنعام مبتدئة بالقاعدة الأولى في وحدانية الله وعدم الإشراك به، وتتلوها القيم الإسلامية الكبرى، إلى أن تأتي المعاوضات المالية بين الناس.

والمعاوضات المالية أساسها التجارة والبيع والشراء، وضابط ذلك الكيل والميزان، وقاعدة الإسلام في هذا تحري العدل والإنصاف. وذلك يوهم النفس بمشقة القيام به، فإن التبادل التجاري هو محور النشاط اليومي في حياة الفرد وحياة الأمة، وقلما تمر ساعة دون أن يتم هذا التبادل بين طرفين، ولكن الله تعالى يرفع الحرج في ذلك ما توفر القصد الحسن في أن تكون المعاوضات بالقسط ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا ۖ﴾(الأنعام: ١٥٢).

وبهذا يكون الإسلام قد رفع الحرج عن شعب الحياة الإنسانية كلها.

ورفع الحرج عن حديث النفس وخواطر القلب.

ورفع الحرج في الدين عامة وفي العبادات خاصة.

ورفع الحرج في نواة المجتمع بحياة الأسرة.

ورفع الحرج بأسس الحياة الاجتماعية في التعامل بين الناس.

هذا وإن النصوص الواردة في رفع الحرج قد جاءت بصيغة العموم مع تأكيد

مدلولها، فالحرج جاء نكرة في سياق النفي، والنكرة في سياق النفي تعم، وأكد هذا بمن الزائدة التي تفيد التنصيص على العموم ﴿وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ﴾ (الحج: ٧٨). ﴿مَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ﴾ (المائدة: ٦) وكذلك نفس المكلف جاءت نكرة في سياق النفي ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٣٣).

وقد أراد الله بذلك حكمة نتكلم عنها في عدد قادم إن شاء الله.



رفع الحرج في الشريعة الإسلامية (٣)

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

● وجه رفع الحرج

قد أرجع الشاطبي رفع الحرج عن المكلف إلى وجهين:

أحدهما: الخوف من الانقطاع عن الطريق، وبغض العبادة وكراهة التكليف.

والثاني: خوف التقصير عن مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع.

أما الوجه الأول: فإن الإسلام هو شريعة الله السمحة التي يسرها لعباده وزينها لقلوبهم وحببها إليهم، ليقبلوا عليها بصدق وإخلاص. والنفس بطبيعتها تميل إلى السهولة واليسر والاستجابة إلى الحنفية استجابة فطرية ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧﴾ (الحجرات: ٧)

ولو تركت النفس لهواها وجاء الحق تبعاً لما تختار لأدى ذلك إلى العنت والحرج ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ وَمَن فِيهِنَّۚ﴾ (المؤمنون: ٧١).

ولهذا نهى النبي ﷺ عن التشديد في العبادة والتعمق في الدين، وقال: «هلك المتنطعون»، «جاء ثلاثة رهط إلى بيوت أزواج النبي ﷺ يسألون عن عبادة النبي ﷺ، فلما أخبروا وكأنهم تقالوها، وقالوا: أين نحن من النبي ﷺ وقد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر قال أحدهم أما أنا فأصلي الليل أبداً، وقال الآخر وأنا أصوم الدهر أبداً ولا أفطر، وقال الآخر وأنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله ﷺ إليهم فقال: أنتم الذين قلتم كذا وكذا؟ أما والله إني لأخشاكم لله، وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء

فمن رغب عن سنتي فليس مني».

وأمر نبي الأمة أن يأتي الناس من صالح العمل ما يطيقون، فإن الله لا ينقطع عن ثوب عباده حتى ينقطعوا عن عبادته، وليس في مقدورهم أن يصلوا في عبادتهم إلى الغاية «عليكم من الأعمال ما تطيقون، فإن الله لا يمل حتى تملوا».

ولا شك أن ترك الرخص يؤدي إلى الانقطاع عن الاستباق إلى الخير، كما يؤدي إلى السآمة والملل. والنفير من العبادة، وكراهية العمل، وترك الدوام عليه، ودخل النبي ﷺ المسجد فإذا حبل ممدود بين الساريتين، فقال: «ما هذا الحبل؟» قالوا هذا حبل لزينب فإذا أفترت تعلقت به، فقال النبي ﷺ «حلوه، ليصل أحدكم نشاطه، فإذا أفتر فليرقد».

وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله، إني والله لأتأخر عن صلاة الغداة من أجل فلان مما يطيل بنا فيها فقال: «ما رأيت النبي ﷺ قط أشد غضباً في موعظة منه يومئذ، ثم قال: أيها الناس، إن منكم منفرين فمن أَمَّ بالناس فليتجوز فإن فيهم الكبير والضعيف وذا الحاجة».

ونهى رسول الله ﷺ عن الوصال، فلما أبوا أن ينتهوا واصل بهم يوماً ثم يوماً ثم رأوا الهلال فقال: «لو تأخر لزدتكم كالتنكيل لهم حين أبوا أن ينتهوا» وبين في حديث آخر سماحة الدين وما يورثه التعمق فيه من كراهية للعبادة، وضرب مثلاً لانقطاع المتعمق دون غايته «إن هذا الدين متين فأوغلوا فيه برفق، ولا تبغوا إلى أنفسكم عبادة الله، فإن المنبت لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى» وفي حديث قيام رمضان قال لهم: أما بعد: فإنه لم يخف علي شأنكم، ولكن خشيت أن تفرض عليكم صلاة الليل فتعجزوا عنها.

أما الوجه الثاني: الذي يرجع إليه رفع الحرج عن المكلف، وهو خوف التقصير عند مزاحمة الوظائف المتعلقة بالعبد المختلفة الأنواع؛ فإن الإسلام هو دين الحياة، وللحياة متطلباتها المشروعة في الكسب والاستمتاع بما أحل الله، ولكل مطلب من مطالب الحياة المشروعة حقه على العبد وإعطاء بعضها من العناية ما يفضي إلى التقصير في جانب الآخر لا يتفق مع روح القصد والاعتدال

في الإسلام. يقول الشاطبي «إن المكلف مطلوب بأعمال ووظائف شرعية لابد له منها. ولا محيص له عنها، يقوم فيها بحق ربه تعالى. فإذا أوغل في عمل شاق فربما قطعه عن غيره، ولاسيما حقوق الغير التي تتعلق به، فيكون عبادته أو عمله الداخل فيه قاطعاً عما كلفه الله به. فيقصر فيه، فيكون بذلك ملوماً غير معذور. إذ المراد منه القيام بجمعها على وجه لا يخل بواحدة منها ولا بحال من أحواله فيها».

ونحن حين نطالع نصوص الشريعة الإسلامية نجد هذا واضحاً جلياً في كثير من المواضيع.

ففي حديث معاذ مثلاً نرى أن الشاكي رجل أقبل ببعيرين يستقي عليهما، وقد دخل الليل بعد أن أعناه طول العمل بالنهار اقتياتا لنفسه وعياله وأصبح في حاجة إلى أن يريح جسمه، فإذا بمعاذ يطيل عليه في الصلاة مما ألجأ الرجل إلى الانطلاق والتقدم بشكواه إلى رسول الله، عن جابر قال: أقبل رجل بناضحين، وقد جنح الليل فوافق معاذا يصلي، فترك ناضحيه وأقبل إلى معاذ فقرأ بسورة البقرة أو النساء، فانطلق الرجل وبلغه أن معاذا نال منه، فأتى النبي ﷺ «فشكى إليه معاذاً، فقال النبي ﷺ: «يا معاذ، أفتان أنت؟، أو أفاتن ثلاث مرات فلولا صليت بسبح اسم ربك الأعلى، والشمس وضحاها، والليل إذا يغشى. فإنه يصلي وراءك الكبير والضعيف وذو الحاجة».

وآخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة فقال ما شأنك؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا، فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال له: كل فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، فأكل، فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم. فقال له: نم فنام، ثم ذهب ليقوم فقال له: نم فلما كان آخر الليل قال سلمان: قم الآن.. فصليا جميعاً، فقال له سلمان. إن لربك عليك حقاً وإن لنفسك عليك حقاً، ولأهلك عليك حقاً، فأعط كل ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ فذكر ذلك له، فقال النبي ﷺ: «صدق سلمان».

وفي حديث عبد الله بن عمرو بن العاص نحو هذا. فإن رسول الله ﷺ قال

له: صم وأفطر ونم وقم، فإن لجسدك عليك حقاً، وإن لعينيك عليك حقاً، وإن لزوجك عليك حقاً، وإن لزورك عليك حقاً، فكان عبد الله يقول بعد ما كبر: يا ليتني قبلت رخصة رسول الله ﷺ.

وكان رسول الله ﷺ يراعي الفطرة البشرية في معاملة أصحابه ويتلطف في سلوكه معهم بما يحقق الرغبات المشروعة في هذه الفطرة.

ولو كان هذا في صلاته وروي عنه أنه قال: «إني لأدخل في الصلاة وأنا أريد إطالتها فأسمع بكاء الصبي فأتجوز في صلاتي مما أعلم من شدة وجد أمه من بكائه».

وعند اختلاف الحظوظ فالإسلام يجمع بينها أو يرجح بعضها على بعض فإن الإفراط في بعض العبادات قد يعجز المكلف عن القيام بما هو أهم منها. والحظوظ متفاوتة، والشريعة الإسلامية تنظر إليها بعين العدل. ليأخذ المسلم منها ما لا يخل بواجب ويترك منها ما لا يؤدي تركه إلى محظور وإذا تزاحمت الأعمال وقع الترجيح بينها، فإذا تعين الراجح ارتكب وترك ما عداه، حكي عن عياض عن ابن وهب أنه آلى ألا يصوم يوم عرفة بالموقف أبداً، لأنه كان في الموقف يوماً صائماً وكان شديد الحر، فاشتد عليه قال: فكان الناس ينتظرون الرحمة وأنا أنتظر الإفطار، وفي الحديث «إنكم قد استقبلتم عدوكم والفطر أقوى لكم».

● **ما جاء في الشرع مما يكون سبباً في المشقة**

قد يكون فيما تضمنته الشريعة من مأمورات ومنهيات ما يكون سبباً لأمر شاق على المكلف، ولكن الشارع لا يقصد بهذا إدخال المشقة عليه، وإنما يكون قصده جلب مصلحة أو درء مفسدة. وذلك هو ما يقتضيه النظر العقلي والمنطق السليم. يصاب المرء بمرض يؤرقه ويقض مضجعه في جسمه أو في طرف من أطرافه فإذا رأى الطبيب أن سلامة صحته في دواء مر. أو أجراء جراحة. أو قطع عضو لم ير عاقل بأسا في شرب الدواء أو تعاطي الجراحة أو قطع العضو، مع ما في ذلك من إيلام تحقيقاً لمصلحة ناجحة في حفظ النفس، والإيلام ليس مقصوداً في العلاج، وإنما المقصود طلب الاستشفاء والأمل في العافية.

فالعقوبات المشروعة في الإسلام لارتكاب الجرائم كالقصاص والحدود تبدو فيها القسوة والمشقة ولكنها تزجر الفاعل وتكفه عن المعاودة. وتكون عظة لغيره أن يقع في مثل ما وقع فيه، وليست الصحة النفسية في حياة الفرد والصحة الجماعية في حياة الأمة بأقل شأناً من صحة البدن.

وفي شريعة الإسلام تهذيب للنفس وتربية لها على المثل العليا، بمخالفة هواها حتى يكون المكلف عبداً خالصاً لله، يدين له بالطاعة، ويتحرر من أهوائه وشهوات نفسه وليس مخالفة الهوى من المشاق المعتبرة في التكليف وإن كانت شاقة فيما جرت عليه العادة. إلا أنها تصل العبد بربه، والقصد الأول فيها هو تحقيق معنى العبودية لله ابتغاء مرضاته، وطلباً لثوابه ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ ٱتَّخَذَ إِلَٰهَهُۥ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ ٱللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾ (الجاثية: ٢٣)، ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِۦ كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُم ﴿١٤﴾﴾ (محمد: ١٤).

وفي الجهاد في سبيل الله مشقة وإن لم تكن خارجة عن المعتاد ولكنه يحقق غاية سامية في إعلاء كلمة الله، وإحقاق الحق والذود عن حياض الدين وحماية حوزة الفضيلة ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠) ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢١٦) فالقتال في سبيل الله فريضة في تحمل معنى المشقة، ولكنها واجبة الأداء لما فيها من خير كثير للفرد المسلم وللجماعة المسلمة وللبشرية كلها ولا ينكر الإسلام - وهو دين الفطرة- على النفس البشرية إحساسها الفطري بكراهية القتال، ولكنه يقرر من جانب آخر أن القتال وإن كان مر المذاق فإن وراءه حكمة تسيغ مرارته، وتهون مشقته، فلعل وراء المكروه خيراً، ووراء المحبوب شراً والله وحده هو الذي يعلم عواقب الأمور وغاياتها البعيدة ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢١٦) فقد تكره النفس الإنسانية القاصرة الضعيفة أمراً ويكون فيه الخير كل الخير، وقد تحب أمراً وتتهالك عليه وفيه الشر كل الشر، ولذا كان الثبات على محنة العقيدة التي تزلزل القلوب بأهوالها ضريبة الإيمان الصادق

وباب النصر المحقق في حياة الأنبياء والمرسلين ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (البقرة: ٢١٤)

ومن هذا القبيل - وإن لم يدخل في التكليف - ما يلحق الإنسان من مصائب بلاء ومحنة «ما يصيب المسلم من نصب ولا وصب ولا هم ولا حزن ولا أذى ولا غم حتى الشوكة يشاكها إلا كفر الله بها عن خطاياه».

وبعد:

فتلك هي الملامح الواضحة في الشريعة الإسلامية ببعض جوانبها حتى يرتفع الوهم الخاطئ في مشقة تكاليفها وثقل العبء في القيام بها.

إنها شريعة الفطرة التي تراعي جوانب الحياة الإنسانية وتلبي مطالبها العادلة وتستعلي بها على سفاسف الأمور.

إنها شريعة أخلاقية لا تكبل الناس بقيود تكاليفها ولكنها تخلصهم من أغلال عبودية الهوى والشهوة استعلاء للإرادة الإنسانية كي تختار مواضع هذه الشهوات في حدودها النظيفة التي وفرها الإسلام. وفي دائرة الطيبات التي أحلها الله.

وإذا استقامت النفس البشرية مع فطرتها ووجدت في شريعة ربها ما يلبي حاجاتها فإنها تبذل طاقاتها في يسر وسهولة، وتشق طريقها إلى المجد راضية مطمئنة واثقة بالغاية وإن طال بها الطريق.

والبشرية اليوم تعاني ما تعانيه من اعتساف المناهج الجاهلية وأصحابها وهي ترى في أفق التاريخ منهجاً إنسانياً واقعياً فريداً هو منهج الإسلام الذي خلصها بتجربته في الصدر الأول من شقوة الحياة. وقادها إلى بواعث الخير الفطرية وغايتها السامقة في يسر وسهولة، ولا سبيل لخلاصها اليوم من شقوتها إلا به وبيدنا نحن المسلمين هذا المنهج برصيده التشريعي وتراثه التاريخي، والوعي الإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها يتطلع إلى محاولة تطبيق هذا المنهج من جديد حتى تعود البشرية إلى الحق والعدل والسلام. ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء، والله من وراء القصد.

الطريق إلى الله

العدد (٥٦) شعبان (١٣٨٩هـ) - أكتوبر (١٩٦٩م).

يطيب لكثير من الناس أن يشعروا بالطاقة الفكرية التي يستمتعون بها.

وأن يستخدموا هذه الطاقة في إدراك الحقائق، لا سيما والبحث العقلي قد أصبح من سمات العلم الحديث ما استند إلى المشاهدة والاستقراء، وما علم هؤلاء أن هذا النهج هو وليد الفطرة، وأنه السبيل الذي أرشد به الخالق عباده إلى الاهتداء إليه والإيمان بوحدانيته.

● الحكم العقلي

يقسم العلماء الحكم إلى ثلاثة أقسام: عقلي وشرعي وعادي، والذي يعنينا من ذلك هو الحكم العقلي، وهو إثبات أمر لأمر أو نفيه عنه بناء على تفكير دون توقف على شرع ولا تجربة أو تكرار.

وهذا الحكم منه الواجب والمستحيل والجائز.

فالواجب: هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء لذاته، وذلك كثبوت العلم والقدرة والمحبة والرضا ونحوها من الكمالات لله، فإنها صفات ثابتة له تعالى لا تقبل الانتفاء.

والمستحيل: هو المنفي الذي لا يقبل الثبوت كشريك الباري، والجمع بين النقيضين ورفعهما، والجمع بين الضدين، فإنه يستحيل عقلاً أن يكون الشيء موجوداً ومعدوماً، أو أنه ينتفي عنه الوجود والعدم، كما يستحيل أن يكون أبيض وأسود في وقت واحد.

والجائز: ويقال له الممكن هو ما يقبل الوجود والعدم، كالمخلوقات التي نشاهدها، فإنها كانت معدومة فقبلت الوجود، ثم بعد وجودها تقبل العدم.

ومعنى كون الوجوب والاستحالة والجواز حكماً عقلياً أنها لازمة لما حكم له بها لا تقبل التخلف عنه ولا الانفكاك وإن جاءت بها نصوص الشرع، وليس المراد أنه لا علاقة للشرع بها، فإن نصوص الشرع قد جاءت بأصول الدين، وكشفت للعقل عما خفي عليه وقصر عن إدراكه من تفاصيل عقائد التوحيد وسلكت به طريق الحق، وهدته إلى سواء السبيل، ولولا ما جاء فيها من البيان لارتكس العقل في حمأة الضلالة، وقام للناس العذر، وسقط عنهم التكليف، قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ (الإسراء: ١٥) وقال ﴿رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾﴾ (النسا: ١٦٥).

● إمكان العالم وحاجته إلى موجد

كل ما شاهدناه في ماضينا من الكائنات وما نشاهد في حاضرنا ممكن. وضرورة أنا نراه يتحول من عدم إلى وجود، ومن وجود إلى عدم. ولو كان واجباً لما سبق وجوده عدم ولا لحقه فناء، ولو كان مستحيلاً لما قبل الوجود، وقد شاهدناه موجوداً، فثبت أنه ممكن.

وإذا كان العالم ممكنا وجب أن يستند في نشأته على من يكسبه الوجود، ويرجع في تصرفاته وتقلباته إلى من يتولاه ويحفظ عليه وجوده في كل أطواره، وهذا مما شهدت به الفطرة، وجبلت عليه النفوس، قال تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (الروم: ٣٠) وقال ﷺ: «كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه».

كما دل على ذلك العقل، فإن نسبة الممكن إلى طرفيه: الوجود والعدم: على السواء، فلو وجد بدون سبب خارج عن ذاته وحقيقته لزم ترجيح أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح. وهو باطل، ولو أوجد نفسه لزم مع ذلك أن يكون متقدماً على نفسه باعتباره خالقاً لها، متأخراً عنها باعتباره مخلوقاً لها. وتقدم الشيء على نفسه وتأخره عنها محال بالضرورة، لما فيه من التناقض الواضح، فثبت أن

الممكن لا بد له من موجد غير ذاته وحقيقته، يوجده ويدبر شؤونه في كل أحواله، وهذا هو الله سبحانه وتعالى.

وقد أرشدنا الله إلى ذلك في كثير من آيات القرآن، قال تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾ (الطور: ٣٥) فأنكر سبحانه أن يكونوا خلقوا بلا خالق، وأن يكونوا خلقوا أنفسهم، وبذلك تتفق الفطرة والعقل والسمع على حاجة العالم إلى صانع، واستناده إلى موجد.

إثبات وجوب الوجود لله تعالى

وإذا ثبت أن الله هو الذي أوجد العالم، فإن وجوده يختلف عن وجود الممكن، لأن لفظ الوجود بمعناه المطلق يشترك فيه الممكن والواجب، أي الحادث والقديم الأزلي، فالله يوصف بأنه موجود، والحادث من المخلوقات يقال له أيضاً موجود، إلا أن الممكن له وجود يخصه، فإنه حادث سبق وجوده عدم، ويلحقه الفناء، وهو في حاجة دائمة ابتداء ودواماً إلى من يكسبه الوجود ويحفظه عليه كما سبق.

ولله وجود يخصه، فهو سبحانه واجب الوجود لم يسبق وجوده عدم، ولا يلحقه فناء، ووجوده من ذاته لم يكسبه من غيره، إذ هو الغني عن كل ما سواه.

وبذلك جاء السمع وشهد العقل.

أما السمع فمنه قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلْأَوَّلُ وَٱلْءَاخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ (الحديد: ٣)

وأما العقل، فلأنه لو كان مستحيلاً لم يصح أن يستند إليه الممكن في حدوثه بداهة، لأن المستحيل ما لا يتصور في العقل وجوده، وفاقد الشيء لا يعطيه.

ولو كان ممكنا لافتقر في حدوثه إلى من يرجح وجوده على عدمه لما تقدم، فإن استمرت الحاجة فاستند كل في وجوده إلى نظير له من الممكنات، لزم إما الدور وإما التسلسل في المؤثرات، وكلاهما محال، وإذا انتفى عليه الإمكان والاستحالة ثبت له الوجوب، ضرورة أن أقسام الحكم العقلي ثلاثة، وقد انتفى اثنان، فتعين الثالث، وهو الوجوب، فالله واجب الوجود .

ولا يزعم أحد بعد ذلك أن وجود العالم كان وليد الصدفة بالاتفاق، أو أن

أطواره نشأت عن تفاعل بين عناصر المادة. فتفرقت إلى وحدات بعد اجتماع، أو اجتمعت وائتلفت بعد تفرق واختلاف، وصار لتلك الوحدات أو المركبات من الخواص ما لم يكن قبل هذا التفاعل، وبذلك تجددت الظواهر، وحدث ما يشاهد من تغير وآثار، مع جريانها على سنة لا تتبدل، وناموس لا يختلف ولا يتغير.

فإن انتحل أحد هذا الزعم قيل له: من الذي أودع تلك المادة طبيعتها؟ وأكسبها خواصها؟ فإنها إن كانت لها من ذاتها ومقتضى حقيقتها لم تقبل التغيير والزوال لأن ما بالذات لا يتخلف ولا يزول، وقد رأيناها تتبدل وتزول. فلا بد لها من واهب يهبها ذلك، وفاعل مختار عليم حكيم يدبرها، ويضعها في محالها، وليس ذلك المادة وحدها، ولا خواصها أو طبيعتها القائمة بها، فإنها ليس لها من سعة العلم وكمال الحكمة وشمول المشيئة، وعظيم القدرة ما ينتظم معه الكون على ما نشاهد من أحكام يبهر العقول دقة وجمالاً، ومن إبداع يأخذ بمجامع القلوب.

فلم يبق إلا أن يكون الله تعالى هو الذي خلق هذه الكائنات في إحكامها الدقيق ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾ (الملك: ١-٥).

وحدانية الخالق

وقد قامت الدلائل العقلية والسمعية على وحدانية الخالق في ربوبيته، وفي أسمائه وصفاته، وفي ألوهيته.

فهو خالق كل شيء ومليكه، وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير، وقد أقرت بهذا فطرة الناس، ولم يعرف عن طائفة بعينها أنها قالت بوجود خالقين متكافئين في الصفات والأفعال، وإنما حكي عنهم نسبة بعض الأمور إلى ما

زعموهم آلهة لها شيء من النفع والضر، فقربوا إليها القرابين، وبيَّن الله سبحانه وتعالى بطلان ذلك، وأنكر على من زعمه، فقال تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ (المؤمنون: ٩١-٩٢) فبين سبحانه أنه لو كان معه إله يشركه في استحقاق العبادة لكان له خلق وملك وقهر وتدبير، إذ لا يستحق العبادة إلا من كان كذلك حتى يرجى خيره ويخشى بأسه، ولو كان له خلق وتدبير وملك وتقدير لعلا على شريكه وقهره إن قوي على ذلك ليكون له الأمر وحده، ولذهب بخلقه، وتفرد بملكه دون شريكه، حتى يكون لديه من القوة والجبروت ما يفرض به سلطانه على الجميع، فإن من صفات الرب كمال العلو والكبرياء والقهر والجبروت.

وقد استخلص العلماء من ذلك دليلاً سموه دليل التمانع، فقالوا: لو أمكن أن يكون للعالم ربان يخلقان ويدبران أمره لأمكن أن يختلفا بأن يريد أحدهما وجود شيء ويريد الآخر عدمه، أو يريد أحدهما حركة شيء ويريد الآخر سكونه، وعند ذلك إما أن يحصل مراد كل منهما وهو محال لما يلزمه من اجتماع الضدين، وإما ألا يحصل مراد كل منهما وهو محال لما يلزمه من رفع النقيضين وعجز كل منهما، وإما أن يحصل مراد واحد منهما دون الآخر، فيكون الذي نفذ مراده هو الرب دون الآخر لعجزه، والعاجز لا يصلح أن يكون رباً.

وهذا الخالق الواحد هو الإله الحق الذي يفرد بالعبادة، قولاً وقصداً وفعلاً، فلا ينذر إلا له، ولا نقرب القرابين إلا إليه، ولا يدعى في السراء والضراء سواه، وبهذا أرسل، وجاءت الكتب، ورفع علم الجهاد لتوحيد الله.

وإذا ثبت فيما سبق توحيد الله تعالى في ربوبيته خلقاً وتدبيراً، فإن هذا هو الطريق الفطري لتوحيده في ألوهيته عبادة وقصداً، وبهذا احتج الله على المشركين ﴿قُل لِّمَنِ ٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهَآ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨٤﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿٨٥﴾ قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلسَّبْعِ وَرَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٨٦﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴿٨٧﴾ قُلْ مَنۢ بِيَدِهِۦ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ

تَعۡلَمُونَ ﴿٨٨﴾ سَيَقُولُونَ لِلَّهِۚ قُلۡ فَأَنَّىٰ تُسۡحَرُونَ ﴿٨٩﴾﴾ (المؤمنون: ٨٤ -٨٩).

ومنهج القرآن في ذلك مخاطبة الفطرة البشرية لإلزامها بالحجة العقلية التي تدل دلالة صريحة على توحيد الله ﴿أَمَّن يَبۡدَؤُاْ ٱلۡخَلۡقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَمَن يَرۡزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِۚ قُلۡ هَاتُواْ بُرۡهَٰنَكُمۡ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٦٤﴾﴾ (النمل: ٦٤).

وبهذا التوحيد يستقيم أمر الحياة الإنسانية على الجادة، وتهتدي في شؤونها إلى سواء السبيل.

لقد ازدهرت الحركة العلمية في ديار الغرب بالعصر الحديث، وأينعت وأثمرت، واستطاعت أن تصل إلى بحوث عجيبة في جوف الأرض، وفي أجواء الفضاء، ووصلت الفنون والمبتكرات إلى ما حقق للإنسان الرفاهية والمتعة، ولا تزال هذه الحركة العلمية في تطور دائم، تأتي كل يوم بجديد، وتلد كل عجيب.

ولكن هذا العالم الحضاري المتقدم قد أظل الدنيا بوجوم رهيب، وسحابة كئيبة، حيث أقفرت النفس البشرية من كنزها الأصيل، ورصيدها الهائل، من القيم الإنسانية والمثل العليا، وما عمرته يد الإنسان باسم المدنية يوشك أن تخربه يد الإنسان باسم العلم.

والإيمان بالله وما يستتبعه هو سبيل النجاة من تلك المهالك. وهو الذي يحقق للإنسانية سعادتها، فإلى هذا الإيمان نوجه دعوتنا، وعلى طريقه تسير القافلة التي تقود الإنسانية إلى الخير والبر والرشاد.

* * *

نشأة الفقه الإسلامي (١)
وأصول مذاهبه

العدد (٦٨) شعبان (١٣٩٠هـ) - أكتوبر (١٩٧٠م).

الحديث عن الفقه الإسلامي حديث عذب شائق، تتعدد جوانبه، وتشرق ملامحه في كل مبحث في مباحثه، ولطالما استشرفت النفوس المؤمنة في أنحاء العالم الإسلامي إلى مراجعة رصيدها الضخم، وذخيرتها الهائلة في التشريع الإسلامي، وفقه أئمته، حتى تبصر سبيل مجدها، وتدرك طريق سعادتها، وتعمل جادة على استئناف الحياة الإسلامية الفاضلة في كل ميدان من ميادين الحياة.

والفقه الإسلامي هو المعين الذي يمد الإنسانية بالمنهج السديد في كل شأن من شؤونها، حتى يستقيم أمرها على الجادة، وتشق طريقها على هدى من ربها، فحري بأبناء الإسلام أن يعو هذه الحقيقة، وبيدهم هذا الخير المتوارث الذي سعدت به البشرية قرونا عديدة، وهي اليوم - وقد كابدت ألوان الشقاء من جراء انحرافاتها عن الإسلام - أشد ما تكون تعطشاً إلى سبيل الخلاص، في فقه الإسلام ومبادئ الشريعة.

● **معنى الفقه**

والفقه في اللغة بمعنى الفهم، ومنه قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ (الإسراء: ٤٤) وقوله: ﴿قَالُوا يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ﴾ (هود: ٩١) وفي الاصطلاح: العلم بالأحكام الشرعية الفرعية من أدلتها التفصيلية.

والفقه بمعناه العام واكب الحياة الإسلامية منذ بزغ فجر الإسلام، حيث كان الوحي يتنزل على رسول الله ﷺ، ويتلقاه عنه صحابته ولهم من سلامة الذوق العربي ما يمكنهم من فهم القرآن الكريم، والعمل بمقتضاه، ولم يكن لديهم حاجة

إلى الاجتهاد في استنباط حكم إلا حيث لا يجدون نصاً من كتاب أو سنة، وقد أقر رسول الله معاذاً على ذلك حين بعثه إلى اليمن فقال له: «كيف تصنع إن عرض لك قضاء؟ قال: أقضي بما في كتاب الله، قال فإن لم يكن في كتاب الله، قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم يكن في سنة رسول الله، قال: أجتهد رأيي، لا آلو، قال: فضرب رسول الله ﷺ صدري ثم قال: الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله لما يرضي رسول الله ﷺ».

وقد نقل أهل العلم هذا الحديث، واحتجوا به على جواز اجتهاد الصحابة في حياة رسول الله ﷺ فيما لا نص فيه من كتاب أو سنة، ووردت حوادث تدل على أنهم كانوا يجتهدون في زمن النبي ﷺ في كثير من الأحكام ولم يعنفهم.

١- قال لهم رسول الله يوم الأحزاب: «لا يصلين أحد منكم العصر إلا في بني قريظة» فاجتهد بعضهم وصلاها في الطريق حين أدركتهم الصلاة، وقال: لم يرد منا التأخير، وإنما أراد سرعة النهوض، وتعجيل المسير - فنظروا إلى المعنى - واجتهد آخرون وأخروها إلى بني قريظة، فصلوها ليلاً، - ونظروا إلى اللفظ - قال ابن القيم تعليقاً على هذا: وهؤلاء سلف أهل الظاهر، وأولئك سلف أصحاب المعاني والقياس.

٢- ولما كان علي رضي الله عنه باليمن أتاه ثلاثة نفر يختصمون في غلام، فقال كل منهم هو ابني، فأقرع علي بينهم، فجعل الولد للذي خرجت له القرعة، وجعل عليه للرجلين ثلثي الدية، فبلغ ذلك النبي ﷺ، فضحك حتى بدت نواجذه من قضاء علي رضي الله عنه.

٣- ومسألة الزبية مشهورة عن علي كذلك، روي أن قوماً من أهل اليمن حفروا زبية للأسد، فاجتمع الناس على رأسها، فهوى فيها واحد، فجذب ثانياً، فجذب الثاني ثالثاً، ثم جذب الثالث رابعاً، فقتلهم الأسد، فرفع ذلك إلى علي رضي الله عنه فقال: للأول ربع الدية لأنه هلك فوقه ثلاثة، وللثاني ثلث الدية لأنه هلك فوقه اثنان، وللثالث نصف الدية لأنه هلك فوقه واحد، وللرابع كمال الدية، وقال فإني أجعل الدية على من حضر رأس البئر، فرفع ذلك إلى النبي ﷺ، فقال: هو كما قال.

٤- واجتهد سعد بن معاذ في بني قريظة، وحكم فيهم باجتهاده، أن يقتل الرجال، وتقسم الأموال، وتسبى الذراري والنساء، فصوبه النبي ﷺ وقال: «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات».

٥- وخرج رجلان من الصحابة في سفر، فحضرت الصلاة وليس معهما ماء، فتيمما صعيداً طيباً ثم وجدا الماء في الوقت، فأعاد أحدهما الوضوء والصلاة، ولم يعد الآخر، ثم أتيا رسول الله ﷺ، فذكرا ذلك له، فقال للذي لم يعد، أصبت السنة وأجزأتك صلاتك، وقال للذي توضأ وأعاد، لك الأجر مرتين، أي أنه صوبهما في اجتهادهما.

٦- وعن عمار قال: «أجنبت فلم أصب الماء، فتمعكت الصعيد، وصليت فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال: «إنما يكفيك هذا» وضرب النبي ﷺ بكفيه الأرض ونفخ فيهما، ثم مسح بهما وجهه وكفيه، إلى غير ذلك من الحوادث.

فهذه ونظائرها نماذج لفقه الصحابة في عهد رسول الله ﷺ ، عند غيبتهم عنه، حيث لا يجدون نصاً من كتاب أو سنة. وقد وجدوا في ذلك مندوحة، لأن يجتهدوا على ضوء ما عرفوه من شريعة ربهم، وهدي نبيهم.

الفتوحات الإسلامية ومقتضياتها

أخذ الفتح الإسلامي يبسط نفوذه في عهد الخلفاء الراشدين على الأقطار المجاورة للجزيرة العربية، ودخل تحت لواء الإسلام من أصحاب الحضارات القديمة ناس من الفرس والروم، لهم من العقائد والتقاليد والأنظمة ما يتنافى كله أو جله مع العقيدة الإسلامية وشريعتها الغراء، وطبيعة هذا الفتح تستوجب ثقل المسؤولية وعظيم التبعة على المسلمين الفاتحين، وتستدعي من الخلفاء أن يواجهوا هذا بتنظيم الجيوش وإمدادها، وتولية الولاة على البلاد المفتوحة، وإدارة شئونها.

أهم القضايا التي اتفق عليها الصحابة

١- كانت القضية الأولى التي واجهها الصحابة إثر وفاة الرسول ﷺ قضية الخلافة، حيث اختلفوا فيمن يخلف النبي ﷺ في سياستهم وتدبير شؤونهم، أما

الأنصار فظنوا أن الأمر ينبغي أن يكون فيهم، لأنهم آووا النبي ﷺ والذين هاجروا، وخاضوا المعارك في سبيل الله، فاجتمعوا بالفعل، وأزمعوا أن يبايعوا رجلاً منهم بالخلافة. ورشحوا سعد بن عبادة زعيم الخزرج، ولكن الأمر انتهى إلى زعماء المهاجرين، فأسرع أبو بكر وعمر وأبو عبيدة بن الجراح إلى الأنصار، ودار بينهم شيء من الجدال، وخطب فيهم أبو بكر، وقال لهم: نحن الأمراء وأنتم الوزراء، وأقنعهم بالأمر حتى سمحت نفوسهم، ثم أسرع عمر إلى بيعة أبي بكر فتبعه الأنصار، وبايع بعد ذلك سائر المسلمين.

٢- وكانت القضية الثانية التي واجهها الصحابة هي امتناع جماعة من العرب عن أداء الزكاة، فعزم أبو بكر أمره على قتالهم، ولم يكن من رأي عمر بادئ الأمر قتال هؤلاء لأنهم يشهدون أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، فظل أبو بكر يراجعه حتى شرح الله صدره للقتال، واتفق الصحابة عليه.

٣- ومن القضايا التي اتفقوا عليها كذلك جمع القرآن، فقد توفي رسول الله ﷺ ولم يكن القرآن قد جمع في مصحف واحد، وليس هناك في كتاب أو سنة ما يدل على جمعه، ولكن عمر رأى ضرورة ذلك بعد موقعة اليمامة، وظل يراجع أبا بكر حتى اقتنع بذلك، وصار هذا إجماعا من الصحابة.

٤- وشاور عمر في تدوين الدواوين، وكان قد اتبع رأي أبي بكر في التسوية بين الناس في الأعطية، فلما جاء فتح العراق رأى التفضيل فيما بينهم بقدر بلاء الرجل وجهاده، واستشار في ذلك، وانتهى الأمر إلى قول عمر: «ما من أحد إلا له في هذا المال، وما أنا فيه إلا كأحدكم، ولكنا على منازلنا من كتاب الله وقسمنا من رسول الله ﷺ، والرجل وبلاؤه في الإسلام، والرجل وقدمه في الإسلام، والرجل وغناؤه في الإسلام، والرجل وحاجته».

أهم القضايا التي اختلفوا فيها

١- تدخل الأرض في البلاد المفتوحة عنوة في عموم الغنيمة التي قال الله تعالى فيها: ﴿۞ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمۡتُم مِّن شَيۡءٖ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَٱلۡيَتَٰمَىٰ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ (الأنفال: ٤١) ومقتضى هذا أن تقسم الأرض

المغنومة قسم الغنائم، فيكون أربعة أخماسها للغزاة، والخمس للمصالح العامة المذكورة في الآية، ولما فتحت الفتوحات في زمن عمر سأله الصحابة قسمة الأرض التي فتحت عنوة بين الغانمين، ولكن عمر رأى أن مستقبل المسلمين في هذه البلاد وما تحتاجه من نفقات في إدارتها وتنظيم شؤونها وتحقيق مصالح الناس فيها يستدعي التفكير في إبقاء هذه الأرض دون أن تقسم، حتى يبقى لمن يجيء بعد الغانمين شيء، وذلك بوقفها على مصالح المسلمين، لهذا رأى عمر ترك الأرض لأهلها، على أن يوضع عليهم ما يحتملون من خراج تكون منه أعطيات المسلمين، وما يحتاجون إليه من نفقات للجند والقضاة والعمال وسد حاجة المعوزين من اليتامى والمساكين، ووافق عمر على رأيه جماعة من الصحابة، منهم عثمان وعلي ومعاذ بن جبل، وطلحة، وخالفه آخرون، منهم: عبد الرحمن بن عوف، وعمار بن ياسر، ورأوا أن تقسم الأرض، ويقسم أربعة أخماسها على الغزاة، والخمس لمن ذكروا في كتاب الله تمسكاً بآية الغنيمة.

وقد حاول بعض الفقهاء تبرير فعل عمر كما رواه أبو يوسف في الخراج، وذلك لقول الله تعالى ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَـٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا﴾ (الحشر: ٨) إلى قوله سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ﴾ (الحشر: ١٠) ونقل عن عمر أنه قال في هذه الآية: فكيف أقسم لكم وأدع من يأتي بغير قسم، فأجمع على تركه، وجمع بين خراجه وإقراره في أيدي أهله، ووضع الخراج على أيديهم والجزية على رؤوسهم.

٢- حد الخمر: كان الأمر قبل خلافة عمر في عقوبة شارب الخمر على الضرب بالأيدي والنعال وأطراف الثياب دون حد مقدر، حيث لم يفرض الرسول ﷺ في الخمر حداً، ولم يسن سنة، فلما جاء عمر استشار الناس بعد أن كثر شرب الخمر، فقال عبد الرحمن بن عوف أخف الحدود ثمانون فأمر به عمر.

٣- الطلاق الثلاث: وأمضى عمر بن الخطاب الطلاق الثلاث على خلاف ما كان الأمر قبله «فعن طاوس عن ابن عباس أنه قال: كان الطلاق على عهد رسول الله ﷺ وأبي بكر وسنتين من خلافة عمر طلاق الثلاث واحدة، فقال عمر بن

الخطاب، إن الناس قد استعجلوا أمراً كان لهم فيه أناة، فلو أمضيناه عليهم، فأمضاه عليهم».

٤- صلاة التراويح: ومما ينسب إلى عمر جمع الناس على صلاة التراويح في رمضان، وقد جاء قيام رمضان عن النبي ﷺ، وصلى رسول الله ﷺ بصحابته جماعة، ثم ترك ذلك مخافة أن تجب عليهم، وقد صلاها الناس فرادى في زمن الرسول ﷺ وأبي بكر وصدراً من خلافة عمر، فخرج عمر ليلة فرأى الناس أوزاعاً يصلون في المسجد فقال: لو جمعتهم على إمام؟ فأمر أبي بن كعب فصلى بهم، ثم خرج ليلة أخرى فرآهم مجتمعين على أبي بن كعب فصلى بهم، كما ينسب إليه زيادة النفل في رمضان أو غيره على إحدى عشرة ركعة إلى عشرين ركعة أو أكثر، وهذا أمر لم يتم الاتفاق عليه.

٥- المعهود في حقوق العبد، التنصيف، واختلفوا في الطلاق عند اختلاف الزوجين في الحرية والرق، فأفتى عثمان بن عفان، وزيد بن ثابت بأن الحرة تكون زوجة للعبد تحرم الحرمة المؤبدة بطلقتين، واعتبروا الطلاق بالزوج لأنه الموقع للطلاق، وهو الذي بيده عصمة النكاح، وخالفهما علي، فقال لا تحرم إلا بثلاث طلقات، أما الأمة تكون زوجة للحر فتحرم بطلقتين، فاعتبر الطلاق بالزوجة لأنها هي التي وقع عليها الطلاق.

٦- قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّٰٓـِٔي يَئِسۡنَ مِنَ ٱلۡمَحِيضِ مِن نِّسَآئِكُمۡ إِنِ ٱرۡتَبۡتُمۡ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَٰثَةُ أَشۡهُرٖ وَٱلَّٰٓـِٔي لَمۡ يَحِضۡنَۚ وَأُوْلَٰتُ ٱلۡأَحۡمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعۡنَ حَمۡلَهُنَّۚ﴾ (الطلاق: ٤) وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوۡنَ مِنكُمۡ وَيَذَرُونَ أَزۡوَٰجٗا يَتَرَبَّصۡنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرۡبَعَةَ أَشۡهُرٖ وَعَشۡرٗاۖ﴾ (البقرة: ٢٣٤) فقال بعض أصحاب رسول الله ﷺ: ذكر الله في المطلقات أن عدة الحوامل أن يضعن حملهن وذكر في المتوفى عنها أن تعتد أربعة أشهر وعشرا، فعلى الحامل المتوفى عنها أن تعتد أربعة أشهر وعشرا وأن تضع حملها حتى تأتي بالعدتين معًا، إذ لم يكن وضع الحمل انقضاء للعدة هنا إلا في الطلاق.. ويقول غيرهم: إذا وضعت ذا بطنها فقد حلت، ونقل عن ابن مسعود أنه قال: من شاء باهلته، أن سورة النساء القصرى نزلت بعد سورة النساء الطولى، يعني البقرة،

ومآله تخصيص آية البقرة بآية الطلاق.

٧- سهم المؤلفة قلوبهم: عن ابن سيرين عن عبيدة قال: جاء عيينة بن حصن، والأقرع بن حابس إلى أبي بكر فقالا: يا خليفة رسول الله إن عندنا أرضاً سبخة، ليس فيها كلأ ولا منفعة، فإن رأيت أن تعطيناها؟ فأقطعها إياهما، وكتب لهما عليها كتاباً، وأشهد وليس في القوم عمر، فانطلقا إلى عمر ليشهد لهما، فلما سمع عمر ما في الكتاب، تناوله من أيديهما، ثم تفل فيه فمحاه، فتذمرا وقالا مقالة سيئة، فقال: إن رسول الله ﷺ كان يتألفكما، والإسلام يومئذ قليل، وإن الله قد أغنى الإسلام، اذهبا فاجهدا جهدكما، لا يرعى الله عليكما إن رعيتما.

فقد خالف عمر في ذلك أبا بكر رضي الله عنهما، ثم أمضى أبو بكر ما فعله عمر، مما يدل على أنه سوغ له اجتهاده، مع أن سهم المؤلفة قلوبهم مذكور بنص القرآن في مصارف الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ وَٱلۡغَٰرِمِينَ وَفِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِۖ فَرِيضَةٗ مِّنَ ٱللَّهِۗ﴾ (التوبة: ٦٠).

٨- واختلفوا في الجد: فقال زيد بن ثابت- وهو المروي عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود - يرث مع الإخوة - وقال أبو بكر، وروي عن عائشة وابن الزبير وعبد الله بن عقبة، أنهم جعلوه أبا وأسقطوا الأخوة معه.

● تفرق العلماء في الأمصار

بدأت الفتوحات الإسلامية تتسع في عهد عمر بن الخطاب، وظلت موجة المد الإسلامي في المشرق والمغرب تشق طريقها من بعده، وكان لابد للعرب المسلمين الفاتحين أن يؤهلوا أنفسهم لحكم البلاد التي فتحوها بالعلم والمعرفة، ولا بد للذين دخلوا في الإسلام من غير العرب أن يتعلموا العربية لدينهم ولدنياهم فاستتبع الفتح الإسلامي حركة علمية في البلاد المفتوحة.

وكان عمر يميل إلى استبقاء كبار فقهاء الصحابة بالمدينة للاستعانة بهم في الفتيا عند عرض المشكلات، والحيلولة بينهم وبين الاشتغال بالحياة الدنيا ومظاهر الحكم، ولكنه مع ذلك أرسل بعض الصحابة معلمين في الأمصار بعد أن

اتسعت الفتوحات، وكتب عمر إلى أهل الكوفة: «إني بعثت إليكم بعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً، وآثرتكم به على نفسي، فخذوا عنه» فقدم الكوفة ونزلها، وابتنى بها داراً إلى جانب المسجد.

وبعد عهد عمر كثر انتشار الصحابة في البلاد المفتوحة، وقد أنشأ هؤلاء الصحابة العلماء الذين تفرقوا في الأمصار حركة علمية في كل مصر نزلوا فيه، ولدى كل واحد منهم من العلم ما قد لا يكون مع الآخر، وكونوا مدارس منهجية في تعليمهم، وكان لهم تلاميذ ينقلون عنهم العلم، فتخرج عليهم التابعون، وتأثرت البلاد التي نزلوا فيها بشخصياتهم، ونهجوا في العلم مناهجهم، ومن الطبيعي أن تزدهر هذه الحركات العلمية في المدن خاصة، لأنها أكثر ناساً وأوفر عمراناً، وقد تميز في هذه الحركة منهجان:

أحدهما: منهج أهل الرأي أو مدرسة الكوفة بالعراق. والثاني: منهج أهل الحديث أو مدرسة المدينة بالحجاز.

١- مذهب أهل الرأي في العراق

ربما كان عمر بن الخطاب أكثر الصحابة فقها للنصوص واجتهاداً في فهمه، وإقداماً على إبداء الرأي فيه، والمشكلات التي اعترضت الصحابة، واجتهدوا فيها تعطى لعمر بن الخطاب ﷺ هذه الميزة في أكثر من موضع، وإن كان قد حرص على استشارة الصحابة، والتريث في الأمور، فعن الشعبي قال: «كانت القضية ترفع إلى عمر ﷺ فربما تأمل في ذلك شهراً ويستشير أصحابه، واليوم يفصل في المجلس مائة قضية» وسار عبد الله بن مسعود ﷺ على طريقة عمر، وتأثر به في آرائه، وروي عنه أنه قال: «إني لأحسب عمر ذهب بتسعة أعشار العلم» وجاء في إعلام الموقعين أن عبد الله لا يقنت ولو قنت عمر لقنت عبد الله» وهذا يدل على أن ابن مسعود نهج منهج عمر في التفكير والاستنباط والرأي حيث لا نص. وروي عن إبراهيم النخعي أنه كان لا يعدل بقول عمر، وابن مسعود إذا اجتمعا، فإذا اختلفا كان قول عبد الله أعجب لأنه كان ألطف.

وقد عرفت من قبل أن عمر بن الخطاب ﷺ أرسل عبد الله بن مسعود إلى

أهل الكوفة ليعلمهم، وكانت حركته العلمية في العراق كبيرة واسعة، ونهج تلاميذه نهجه من بعده فاعتبرت مدرسة ابن مسعود بالعراق نواة لمدرسة الرأي حتى نسب إليها بعض التابعين فقيل «ربيعة الرأي».

ويرجع انتشار مدرسة الرأي في العراق إلى الأمور الآتية:

١- تأثرهم بالصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ﷺ الذي كان من منحى عمر بن الخطاب وأستاذ الكوفة كما عرفنا.

٢- كان الحديث في العراق قليلاً إذا قيس إلى ما لدى أهل الحجاز، موطن الرسول ﷺ وكبار الصحابة.

٣- والعراق متاخم للفرس، واتصل بالحضارة الفارسية اتصالاً وثيقاً، وذلك من شأنه أن يحدث كثيراً من المسائل الجزئية والمشكلات المتعددة التي تحتاج إلى إعمال الرأي.

٤- وكان العراق موطن الشيعة والخوارج، وعلى أرضه دارت الفتنة، ثم شاع الوضع في الحديث تأييداً للمذاهب السياسية، وهذا جعل علماءه في مدرسته يقلون من رواية الحديث ويتحفظون فيها، تحرزاً من الوقوع في الأحاديث الموضوعة، فكانت الأحاديث التي يعول عليها لديهم قليلة، وهذا يدعوهم عند النظر في المسائل إلى القول بالرأي حيث لا نص.

● مميزات مدرسة أهل الرأي

١- كثرة تفريعهم الفروع لكثرة ما يعرض لهم من الحوادث نظرا لتحضرهم، وقد ساقهم هذا إلى فرض المسائل قبل أن تقع، فأكثروا من: أرأيت لو كان كذا؟ فيسألون المسألة ويبدون فيها حكماً ثم يفرعونها بقولهم «أرأيت لو كان كذا؟» ويقلبونها على سائر وجوهها الممكنة وغير الممكنة أحياناً، حتى سماهم أهل الحديث «الأرأيتيون»، وقال سعيد بن المسيب لربيعة الرأي وقد اعترض عليه في مسألةٍ: «أعراقي أنت؟» وقدم على مالك بن أنس، أسد بن الفرات، قال أسد: وكان أصحاب مالك يهابونه في السؤال فكنت أسأله عن المسألة، فإذا أجاب يقولون قل له: فإن كان كذا، فأقول له، فضاق علي يوماً فقال: هذه سليسلة بنت

سليسلة، إن أردت هذا فعليك بالعراق.

٢- قلة روايتهم للحديث واشتراطهم فيه شروطاً لا يسلم معها إلا القليل.

● مذهب أهل الحديث في الحجاز

كان للمدينة منزلة خاصة باعتبارها دار الهجرة التي نزل فيها التشريع وشهدت ما كان من رسول الله ﷺ قولاً أو فعلاً، وعاش فيها الخلفاء الراشدون، فأصبحت مهد السنة، ومنبع الحديث، وملتقى الصحابة، وهذا يجعل أهلها أثبت الناس بالفقه وأشدهم تمسكاً بالرواية، ووقوفاً عند الآثار.

ومدرسة المدينة فوق هذا تستقي منهجها من شيوخها الأوائل الذين في مقدمتهم زيد بن ثابت، وعبد الله بن عمر رضي الله عنهم جميعاً، وقد عرف ابن عمر بحرصه الشديد على تتبع آثار الرسول ﷺ والاعتزاز به، وتأثر بهذا المنهج تلاميذه الذين حملوا لواء العلم بهذه المدرسة، وفي مقدمتهم سعيد بن المسيب الذي أكب على جمع الآثار وفتاوى الصحابة، وحفظ كثيراً منها، وقيل فيه أنه أعلم الناس بما تقدمه من الآثار، وأفقههم في رأيه، وعن ميمون بن مهران قال: «أتيت المدينة فسألت عن أفقه أهلها فدفعت إلى سعيد فسألته»، ومن هذه المدرسة الشعبي الذي يقول: «ما جاءكم به هؤلاء من أصحاب رسول الله فخذوه، وما كان من رأيهم فاطرحوه في الحسن».

ومذهب مدرسة أهل الحديث أنهم إذا سئلوا عن شيء فإن عرفوا فيه آية أو حديثاً أفتوا وإلا توقفوا، روي عن رجل سأل سالم بن عبد الله بن عمر عن شيء فقال: لم أسمع في هذا شيئاً، فقال له الرجل: فأخبرني أصلحك الله برأيك قال: لا، ثم أعاد عليه فقال: إني أرضى برأيك فقال سالم: إنى لعلي إن أخبرتك برأيي ثم تذهب فأرى بعد ذلك رأيا غيره فلا أجدك.

وترجع أسباب وقوف أهل الحجاز عند النصوص إلى الأمور الآتية:

١- تأثر مدرستهم بالمنهج الذي التزمه علماؤهم كما ذكرنا في حرصهم على الأحاديث والآثار وتجنبهم الأخذ بالرأي وإعمال القياس إلا إذا كانت هناك ضرورة ملجئة.

٢- ما لديهم من ثروة كبيرة لدى الصحابة الذين استوطن أكثرهم الحجاز عامة والمدينة خاصة من أحاديث وآثار.

٣- بساطة الحياة لدى أهل الحجاز وقلة مشكلاتهم.. حيث كانوا على الفطرة الأولى بمنأى عما تحدثه المدنية الفارسية أو اليونانية من تفريع للمسائل.

٤- بعدهم عن مواطن الفتنة وبواعث النزاع بالنسبة لما كان عليه الأمر في العراق.

ومن مميزات هذه المدرسة:

١- كراهيتهم لكثرة السؤال وفرض المسائل وتشعب القضايا.

٢- الاعتداد بالحديث والوقوف عند الآثار.

وكان بين أهل الرأي وأهل الحديث منافسة شديدة، وعاب كل فريق منهم طريقة الآخر، وإن كان من بين الحجازيين من يميل إلى الرأي كربيعة بن عبد الرحمن شيخ الإمام مالك. أخرج مالك في الموطأ عن ربيعة قال: سألت سعيد ابن المسيب: كم في إصبع المرأة؟ قال عشرة من الإبل، قلت ففي إصبعين؟ قال: عشرون، قلت: ففي ثلاثة، قال: ثلاثون، قلت: ففي أربع؟ قال: عشرون. قلت: حين عظم جرحها واشتدت مصيبتها نقص عقلها؟! فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ فقال ربيعة: بل عالم مستثبت أو جاهل متعلم، فقال سعيد: هي السنة. يشير بهذا إلى ما أخرجه النسائي عن النبي ﷺ قال: «عقل المرأة مثل عقل الرجل حتى تبلغ الثلث من ديتها» ومع ورود النص لا مجال للعقل، ولذلك عاب سعيد على ربيعة ما يعيبه على العراقيين يومئذ من تحكيم العقل في النصوص.

● الفقهاء السبعة:

وقد اشتهر من مدرسة أهل الحجاز الفقهاء السبعة:

قال ابن القيم في إعلام الموقعين: وكان المفتون بالمدينة من التابعين: ابن المسيب، وعروة بن الزبير، والقاسم بن محمد وخارجة بن زيد، وأبا بكر بن عبد الرحمن بن حارث بن هاشم، وسليمان بن يسار، وعبيد الله بن عبد الله بن عقبة ابن مسعود وهؤلاء هم الفقهاء، وقد نظمهم القائل فقال:

إذا قيل من في العلم سبعة أبحر	**روايتهم ليست عن العلم خارجة**
فقل: هم عبيد الله عروة قاسم	**سعيد أبو بكر سليمان خارجة**

وعن هؤلاء السبعة انتشر فقه أهل المدينة وعلى يدهم تخرج من جاء بعدهم من الفقهاء، وتعتبر مدرسة الفقهاء السبعة المدرسة الفقهية الأولى في هذا العصر، حتى سمي باسمهم، فقيل عصر الفقهاء السبعة، وكان عملهم الفقهي أساساً لمنهج الفقه الإسلامي في البحث والنظر.



نشأة الفقه الإسلامي وأصول مَذاهبه (٢)

تطور الفقه- المدارس الفقهية- أسباب الاختلاف
المذاهب الفقهية المشهورة

العدد (٧٠) شوال (١٣٩٠هـ) - مارس (١٩٧٠م).

• تطور الفقه ومنهج أتباع التابعين

تطور الفقه الإسلامي أمر ضروري تتطلبه حياة الأمة التي تتجدد من زمن لآخر بمتطلباتها وحوادثها تلك الحوادث التي لا يمكن حصرها على مدى العصور، ولن يتأتى أن يكون لكل حادثة منها نص في كتاب الله أو سنة رسوله، ولهذا تدعو الحاجة إلى الاستنباط والاجتهاد لمعرفة حكم ما جد من حوادث، وفي هذا يقول الشهرستاني «وبالجملة نعلم قطعاً ويقيناً أن الحوادث والوقائع في العبادات والتصرفات مما لا يقبل الحصر والعد، ونعلم قطعاً أنه لم يرد في كل حادثة نص ولا يتصور ذلك أيضاً، والنصوص إذا كانت متناهية والوقائع غير متناهية، وما لا يتناهى لا يضبطه ما يتناهى.. علم قطعاً أن الاجتهاد والقياس واجب الاعتبار حتى يكون بصدد كل حادثة اجتهاد».

وقد حذا أتباع التابعين حذو أسلافهم من الصحابة والتابعين في فقه ما جد من حوادث معتمدين في ذلك على ما نقل إليهم من أقوال هؤلاء السلف بعد كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ لأنهم أقرب إلى عهد النبوة وأصدق فهماً للقرآن وما استنبطوه من أحكام ينبغي أن يكون موضع اهتمام إلا إذا اختلفوا فيما بينهم، وكان حديث رسول الله ﷺ يخالف قولهم مخالفة ظاهرة.

وهذا النهج الذي نهجه أتباع التابعين هو طريق السداد الذي تقتضيه الأمانة العلمية مصداقاً لقوله ﷺ «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله».

وكان اختلاف آراء الصحابة والتابعين في المسألة الواحدة حافزاً لأتباع التابعين على البحث في مرجع هذا الاختلاف وتمحيص الرأي فيه، وأدى هذا إلى

إفساح المجال للاختيار وإن تأثر علماء كل بلد بشيوخهم السالفين.

● المدارس الفقهية للأمصار

كان من آثار استقرار عدد كثير من الصحابة في الأمصار الإسلامية أن نشأ في كل مصر منها مدرسة تولاها بادئ الأمر الصحابة بأنفسهم، ثم خلفهم أتباعهم الذين ورثوا عنهم فقههم ورووا فتاواهم وانتقل الأمر إلى أتباع التابعين على هذا النمط.

١- فقهاء المدينة السبعة المشهورون انتقل الفقه من بعدهم إلى نافع مولى عبد الله بن عمر، وأبي بكر محمد بن مسلم بن عبد الله بن شهاب الزهري، وعبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبي بكر، ويحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري، وأبي الزناد عبد الله بن يزيد بن هرمز، وربيعة ابن أبي عبد الرحمن مولى بني تيم من قريش وهو المعروف بربيعة الرأي، ثم انتقل الفقه بعد ذلك إلى عبيد الله بن عمر بن حفص بن عاصم بن عمر بن الخطاب، ومحمد بن إسحاق بن مالك بن أنس، وعبد العزيز بن أبي سلمة الماجشون، والإمام مالك بن أنس.

٢- وفي مكة انتقل فقه التابعين فيها من تلاميذ ابن عباس: عطاء بن أبي رباح، وطاوس بن كيسان، ومجاهد بن جبر، وعمرو بن دينار، وعكرمة، إلى أبي الزبير المكي، وعبد الله بن طاوس، وعبد الملك بن عبد العزيز بن جريج، وسفيان بن عيينة، ثم إلى مسلم بن خالد بن سعيد الزنجي- ولقب بذلك لحمرته - وسعيد بن سالم القداح ثم إلى محمد بن إدريس الشافعي.

٣- وفي الكوفة انتقل الفقه من كبار التابعين علقمة بن قيس النخعي، والأسود ابن يزيد النخعي وشريح بن الحارث الكندي القاضي وأبي ميسرة عمرو بن شرحبيل الهمداني إلى إبراهيم النخعي، وعامر الشعبي، وسعيد بن جبير، ثم إلى حماد بن أبي سليمان، وسليمان الأعمش، ومحمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى، وشريك القاضي النخعي وسفيان بن سعيد الثوري، وأبي حنيفة النعمان بن ثابت.

٤- وفي البصرة انتقل الفقه من الحسن البصري ومحمد بن سيرين وأبي بردة بن أبي موسى الأشعري وجابر بن زيد أبي الشعثاء- إلى أيوب بن كيسان، والقاسم بن ربيعة، وإياس بن معاوية القاضي ثم إلى عبيد الله بن الحسن العنبري،

وحماد بن سلمة، وحماد بن زيد.

٥- وفي الشام انتقل الفقه من أبي إدريس الخولاني وقبيصة بن ذؤيب الخزاعي، وسليمان بن حبيب- إلى عبد الرحمن بن جبير، ومكحول وعمر بن عبد العزيز، ورجاء بن حيوة وعبد الملك بن مروان- الذي كان يعد من الفقهاء قبل أن يلي الخلافة - ثم إلى سعيد بن عبد العزيز والعباس بن يزيد وأبي إسحاق الفزاري صاحب ابن المبارك ويحيى بن حمزة القاضي، وأبي عمرو عبد الرحمن ابن عمرو الأوزاعي.

٦- وقدم إلى بغداد بعد أن بناها المنصور عدد كثير من الأئمة والمحدثين، وكان من فقهائها أبو عبيد القاسم بن سلام، وأبو ثور إبراهيم بن خالد الكلبي صاحب الشافعي، ثم كان أمام أهل السنة أحمد بن حنبل.

٧- وفي مصر انتقل الفقه إلى يزيد بن حبيب، وبكير بن عبد الله بن الأشج، وعمرو بن الحارث، ثم انتقل فقه هؤلاء إلى عالم مصر أبي الحارث الليث بن سعد الذي كان معاصراً للإمام مالك، ثم إلى عبد الله بن وهب، وأشهب، وابن القاسم من أصحاب مالك، والمزني، وابن عبد الحكم والبويطي من أصحاب الشافعي.

٨- كما نشأ في المدن الأخرى المفتوحة كثير من الفقهاء، فكان بالقيروان سحنون بن سعيد وسعيد بن محمد الحداد.

وكان بالأندلس يحيى بن يحيى، وعبد الملك بن حبيب، ومنذر بن سعيد، ويوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر.

وكان باليمن وهب بن منبه الصنعاني، ويحيى بن أبي كثير، ومطرف بن مازن قاضي صنعاء، وعبد الرزاق بن همام، وسماك بن الفضل.

وهؤلاء الفقهاء الذين عرفوا في الأمصار الإسلامية المختلفة كانوا جميعاً يتصدون للفتيا، دون أن يقلد أحدهم الآخر، وإن أخذ فقهاء كل مصر عن شيوخهم السابقين، يقول ابن حزم «ثم أتى بعد التابعين فقهاء الأمصار كأبي حنيفة، وسفيان، وابن أبي ليلى بالكوفة وابن جريج بمكة، ومالك وابن الماجشون بالمدينة وعثمان التبي وسوار بالبصرة، والأوزاعي بالشام، والليث

بمصر، فجروا على تلك الطريقة من أخذ كل واحد منهم عن التابعين من أهل بلده فيما كان عندهم، واجتهادهم فيما لم يجدوا عندهم، وهو موجود عند غيرهم، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها»، وقد ذكر الخضري هذا المعنى فقال: «ولم يكن عرف بين الناس الانتساب إلى فقيه معين يعمل بما ذهب إليه من رواية أو رأي وإنما كان هؤلاء المفتون في الأمصار المختلفة معروفين بالفقه ورواية الحديث، فكان المستفتي يذهب إلى من شاء منهم فيسأله عما نزل به فيفتيه، وربما ذهب مرة أخرى إلى مفت آخر، وكان القضاة في الأمصار يقضون بين الناس بما يفهمونه من كتاب الله أو سنة رسوله أو رأي إن ظهر لهم، وربما استفتوا من ببلدهم من الفقهاء المعروفين، وربما أرسلوا إلى الخليفة يسألونه، كما حصل كثير في عهد عمر بن عبد العزيز».

أسباب الاختلاف بين الأئمة في صدر هذه الأمة.

أولاً: الظاهرة البشرية: فمما لا شك فيه أن الناس بشر، وأن هؤلاء الأئمة يعرض لهم الخطأ والنسيان، وليست هناك عصمة فيما طريقه البلاغ إلا لرسول الله ﷺ، وقد نجد الرجل يحفظ الحديث ثم ينساه، ولا يحضره ذكره عند الفتوى، فيفتي بخلافه، بل ربما عرض هذا في آيات القرآن الكريم، وآية ذلك أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه خطب على المنبر وأمر ألا يزاد في مهور النساء فذكرته امرأة بقول الله تعالى ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا۟ مِنْهُ شَيْـًٔا﴾ (النساء: ٢٠) فترك قوله وقال: كل أحد أفقه منك يا عمر.. امرأة أصابت وأمير المؤمنين أخطأ.

وأمر برجم امرأة ولدت لستة أشهر، فذكره علي رضي الله عنه بقول الله تعالى ﴿وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا﴾ (الأحقاف: ١٥) مع قوله تعالى ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ (البقرة: ٢٣٣) فرجع عن الأمر برجمها.

ثانياً: أن الصحابة لم يكونوا على درجة واحدة في الأخذ عن رسول الله ﷺ وعند كل واحد منهم من العلم ما ليس عند الآخر، وفيهم المقل وفيهم المكثر، وقد تفرق هؤلاء وأولئك في الأمصار بعد أن اتسعت الفتوحات الإسلامية، فإذا

عرضت قضية في مصر منها نظر الصحابة الحاضرون فيها، فإن وجدوا أثراً عن النبي ﷺ حكموا به، وإلا كان الاجتهاد، وقد يكون في تلك القضية حكم عن النبي ﷺ لدى صحابي آخر في بلد آخر، ولهذا أمثلة كثيرة.

١- فقد كان حكم التيمم عند عمار وغيره ولم يعلمه عمر وابن مسعود فقالا: لا يتيمم الجنب.

٢- وكان حكم الاستئذان عند أبي موسى، وعند أبي سعيد ولم يعلمه عمر.

٣- وكان حكم تحريم المتعة والحمر الأهلية عند علي وغيره، ولم يعلمه ابن عباس.

٤- وكان حكم الإذن للحائض في أن تنفر قبل أن تطوف عند ابن عباس وأم سليم، ولم يعلمه عمر وزيد بن ثابت.

٥- وكان حكم أخذ الجزية من المجوس عند عبد الرحمن بن عوف، ولم يعلمه عمر وجمهور الصحابة.

٦- وكان حكم إجلاء أهل الذمة من بلاد العرب عند ابن عباس وعمر، فنسيه عمر سنين، ثم ذُكِّر فَذَكَرَ فأجلاهم.

ثالثاً: أن بعض النصوص قد يبدو في ظاهرها التعارض، فيجتهد فيها أحد هؤلاء الفقهاء وهو مأجور أصاب أم أخطأ، فيميل إلى ترجيح أحد النصين على الآخر، بينما يميل غيره إلى ترجيح هذا الآخر لمرجح لديه.

كما روي عن عثمان في الجمع بين الأختين قال: حرمتهما آية، وأحلتهما آية، وكما مال عمر إلى تحريم نساء أهل الكتاب لقوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١) وقال: لا أعلم شركا أعظم من قول المرأة إن عيسى ربها، وغلب ذلك على الإباحة المنصوصة في الآية الأخرى ﴿وَٱلْمُحْصَنَـٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ (المائدة: ٥).

● المذاهب الفقهية المشهورة وأصولها

تحدثنا آنفاً عن المدارس الفقهية، وذكرنا أئمة الفقه في كل مصر، ولكن بعض هؤلاء الأئمة قد وجد أتباعاً يعملون على ذيوعه وانتشاره، فكان مذهبهم أوفر

حظاً، وتتابع الأخذ به والتفريع عنه حتى صار مذهباً مشهوراً، بينما لم يجد الآخرون مثل هذا الحظ فأصبح فقههم منثوراً في بطون الكتب، ولم يتيسر لهم من الأتباع من ينشر مذهبهم، فالأئمة الأربعة المعروفون لم يكونوا جميعًا أحق بالخلود من آخرين كالأوزاعي إمام أهل الشام، وسفيان الثوري الذي قال فيه ابن عيينة: ما رأيت رجلاً أعلم بالحلال والحرام من الثوري، والليث بن سعد إمام أهل مصر، وصديق الإمام مالك الذي قال فيه الشافعي هو أفقه من مالك إلا أن أصحابه لم يقوموا به، وغير هؤلاء كثير، وسوف نقتصر هنا على بيان أصول المذاهب المشهورة إجمالاً بما يعطينا فكرة عن كل مذهب منها.

١- أبو حنيفة

تركزت مدرسة أهل الكوفة أو أهل الرأي في أبي حنيفة، ويمكن إجمال أصول مذهبه فيما يأتي:

١- التشدد في قبول الحديث

كان أبو حنيفة يتحرى عن رجال الحديث، ويتثبت من صحة رواياتهم فقد لا يقبل الخبر عن رسول الله ﷺ إلا إذا رواه جماعة عن جماعة، أو اتفق فقهاء الأمصار على العمل به فأصبح مشهوراً، وبهذا تضيق دائرة العمل بالحديث، وقد نقل الشافعي في الأم عن أبي يوسف ما يوضح خطته وخطة أبي حنيفة شيخه في ذلك، قال أبو يوسف: فعليك من الحديث مما تعرفه العامة، وإياك والشاذ منه، فإنه حدثنا ابن أبي كريمة عن أبي جعفر أن رسول الله ﷺ دعا اليهود فحدثوه حتى كذبوا على عيسى، فصعد النبي ﷺ المنبر فخطب الناس فقال «إن الحديث سيفشو علي فما أتاكم عني يوافق القرآن فهو مني وما أتاكم عني يخالف القرآن فليس مني» وكان عمر فيما بلغنا لا يقبل الحديث عن رسول الله ﷺ إلا بشاهدين، وكان علي ابن أبي طالب لا يقبل الحديث عن رسول الله والرواية تزداد كثرة ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه أهل الفقه، ولا يوافق الكتاب ولا السنة، فإياك وشاذ الحديث، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث، وما يعرفه الفقهاء، فقس الأشياء على ذلك فما خالف القرآن فليس عن رسول الله ﷺ، وإن جاءت به

الرواية فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك إماماً وقائداً، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضح لك في القرآن والسنة.

٢- التوسع في القياس

وحيث ضاقت دائرة الأخذ بالحديث كان التوسع في الأخذ بالقياس، وهكذا كان أبو حنيفة يعمل رأيه في المسألة، ويجتهد في استنباط حكمها دون أن يتقيد بقول سابق للصحابة أو التابعين ما لم يتبين له صحة نقل عن رسول الله ﷺ، فقد روي عنه أنه قال: «إني آخذ بكتاب الله إذا وجدته فما لم أجده فيه أخذت بسنة رسول الله ﷺ والآثار الصحاح عنه التي فشت في أيدي الثقات، فإذا لم أجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله أخذت بقول أصحابه من شئت وأدع قول من شئت، ثم لا أخرج من قولهم إلى قول غيرهم، فإذا انتهى الأمر إلى إبراهيم والشعبي والحسن وابن سيرين وسعيد بن المسيب فلي أن أجتهد كما اجتهدوا».

٣- الاستحسان

يعتبر الاستحسان من أصول الأدلة في مذهب أبي حنيفة وإن بالغ في الأخذ به بعض العلماء الأحناف فقالوا: إن المجتهد له أن يستحسن بعقله إلا أن المتأخرين منهم على أن الاستحسان عبارة عن دليل يقابل القياس الجلي الذي تسبق إليه الأفهام.

٤- الحيل الشرعية

ينسب كثير من الباحثين إلى فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية، وأنها كانت باباً واسعاً من أبواب الفقه في مذهبه، وقد تكلم ابن القيم عن الحيل في كتابه «إعلام الموقعين» وشنع على من توسع فيها وقال «إن المتأخرين أحدثوا حيلاً لم يصح القول بها عن أحد من الأئمة، ونسبوها إلى الأئمة وهم مخطئون في نسبتها إليهم». وأكثر ما ينسب إلى أبي حنيفة من ذلك أفتى به في مسائل تتعلق بالأيمان عامة وبالطلاق خاصة، وليس فيها تحايل على إبطال حق، ولكنها استنباط فقهي للخروج من مأزق كأن يحلف رجل ليقربن امرأته نهاراً في رمضان فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهاراً في رمضان، ويحلف آخر وقد رأى امرأته على السلم فيقول: أنت طالق ثلاثاً إن صعدت، وطالق ثلاثاً إن نزلت، فيفتيه أبو حنيفة أن

تقف المرأة على السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها على الأرض وهكذا.

٢- مالك:

كما تركزت مدرسة أهل الرأي في أبي حنيفة تركزت مدرسة أهل الحديث في مالك رضي الله عنه ومن أصول مذهبه:

١- الاهتمام بالحديث

اهتم مالك بالحديث ولم ينهج نهج أبي حنيفة في تضييق دائرته، واشتراط شهرته مع تحري صحة السند، وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم.. لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو إلى بدعته، ولا من كذاب يكذب في أحاديث الناس وإن كان لا يتهم على حديث رسول الله ﷺ، ولا من شيخ له فضل وصلاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث به.

وقد جمع مالك في كتابه «الموطأ» ما صح من الأحاديث والأخبار لديه، واعتبره أساساً لمذهبه.

٢- عمل أهل المدينة

ذهب مالك إلى أن المدينة هي دار الهجرة، وبها نزل القرآن، وأقام رسول الله ﷺ، وأقام صحابته، وأهل المدينة أعرف الناس بالتنزيل، وبما كان من بيان رسول الله ﷺ للوحي، وهذه ميزات ليست لغيرهم، وعلى هذا فالحق لا يخرج عما يذهبون إليه، فيكون عملهم حجة يقدم على القياس، وعلى خبر الواحد، وفي كتاب الإمام مالك إلى الليث بن سعد «إن الناس تبع لأهل المدينة التي إليها كانت الهجرة، وبها نزل القرآن».

٣- قول الصحابي

ويرى مالك في مذهبه أنه إذا لم يرد حديث صحيح في المسألة عن النبي ﷺ، فإن قول الصحابي إذا لم يعلم له مخالف يكون حجة، وقد ضمن موطأه العديد من أقوال الصحابة والتابعين، فالصحابة أعلم بالتأويل وأعرف بالمقاصد لأنهم حضروا التنزيل وسمعوا كلام رسول الله، فقولهم أولى بالأخذ يخص به العام،

ويترك لأجله القياس.

٤- المصالح المرسلة

والعمل بالمصالح المرسلة أساس من الأسس التي اعتمد عليها مالك في مذهبه، وهي جلب منفعة أو دفع مضرة لم يشهد لها الشرع بإبطال ولا باعتبار معين، لأن تكاليف الشريعة ترجع إلى حفظ مقاصدها في الخلق ضرورية كانت أو حاجية أو تحسينية، والضرورية: هي التي لا بد منها في قيام مصالح الدين والدنيا في الضروريات الخمسة الثابتة في الملل جميعاً وهي حفظ الدين والنفس والنسل والمال والعقل.

والحاجة: هي التي تؤدي إلى رفع الضيق والحرج والمشقة.

والتحسينية: هي المتعلقة بمكارم الأخلاق، وكون هذه المعاني مقصودة عرف بأدلة كثيرة لا حصر لها من الكتاب والسنة مما يدل على مقاصد الشرع، ولذا ذهب مالك إلى أن هذه المصلحة تكون حجة.

٣- الشافعي

١- المنحى الوسط

كانت رياسة الفقه قد انتهت في العراق إلى أبي حنيفة، وفي المدينة إلى مالك ابن أنس، وقد لازم الشافعي مالكاً، وأخذ عنه كما أخذ عن محمد بن الحسن صاحب أبي حنيفة، فاجتمع إليه علم أهل الرأي وعلم أهل الحديث، وانتحى مذهباً وسطاً أصل أصوله، وقعد قواعده.

خالف أبا حنيفة في تقديم القياس على خبر الآحاد، ودافع دفاعاً شديداً عن العمل بخبر الواحد، مادام راويه ثقة ضابطاً، ومادام الحديث متصلاً برسول الله ﷺ، ولم يشترط شهرته كما اشترط أهل العراق كما أنكر على أهل الرأي العمل بالاستحسان، وخالف مالكاً في حجية عمل أهل المدينة، والقول بالمصالح المرسلة.

٢- أساس مذهبه

دون الشافعي أساس مذهبه في رسالته الأصولية فهو يحتج بظاهر القرآن، ثم

بالسنة، ثم بالآثار الصحيحة، ثم يعمل بالإجماع عند عدم العلم بالخلاف، فإن لم يكن هناك دليل مما سبق عمد إلى القياس فعمل به، مشترطاً أن يكون له أصل معين يقول في رسالته «إن جهة العلم الكتاب والسنة والإجماع والآثار، ثم القياس عليها ولا يقيس إلا من جمع الآلة التي له القياس بها وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل ، فرضه وأدبه، وناسخه ومنسوخه، وعامه وخاصه، ولا يجوز لأحد أن يقيس حتى يكون عالماً بما مضى قبله من السنن، وأقاويل السلف، وإجماع الناس واختلافهم ولسان العرب، ولا يكون له أن يقيس حتى يكون صحيح العقل وحتى يفرق بين المشبه، ولا يعجل بالقول به دون التثبت، ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه لأنه قد يتنبه بالاستماع لترك الغفلة، ويزداد تثبتا فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والإنصاف من نفسه حتى يعرف من أين قال ما يقول وترك ما يترك».

٤- أحمد بن حنبل

أصول مذهبه

فقه السنة:

أخص ما يتميز به مذهب أحمد أنه يقوم على فقه السنة، ولذا فإنه يعد من كبار المحدثين، وقد ذكر ابن القيم أن فتاوى أحمد بن **حنبل** مبنية على خمسة أصول نجملها بما يأتي:

١- أحدها النصوص

فإذا وجد النص أفتى بموجبه، ولم يلتفت إلى ما خالفه، ولا من خالفه كائناً من كان، ولم يكن يقدم على الحديث الصحيح عملاً ولا رأياً ولا قياساً.

وثانيها: فتاوى الصحابة، أي ما أفتى به الصحابة إذا وجد لبعضهم فتوى لا يخالفه فيها أحد منهم، ولم يقل الإمام أحمد أن ذلك إجماع، بل كان يقول تورعاً لا أعلم شيئاً يدفعه أو نحو ذلك.

وثالثها: الاختيار من فتاوى الصحابة إذا اختلفوا فإنه يتخير من أقوالهم أقربها

إلى الكتاب والسنة.

ورابعها: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف إذا لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قوله صاحب فإن العمل به عنده أولى من القياس.

وخامسها: القياس للضرورة فإذا لم يكن عنده في المسألة نص ولا قول للصحابة أو واحد منهم، ولا أثر مرسل أو حديث ضعيف عدل إلى القياس فاستعمله للضرورة.

الظاهرية

كانت العراق قاعدة أصحاب الرأي، ولكننا نرى في مطلع القرن الثالث الهجري رجلاً يولد بالكوفة (٢٠٠- ٢٧٠هـ) وينشأ ببغداد، ويأخذ العلم عن إسحاق بن راهويه، وأبي ثور، ويدرس مذهب الإمام الشافعي، ويتعصب له، ويصنف في مناقبه، وتنتهي إليه رياسة العلم ببغداد، ثم يستقل بمذهب جديد على النقيض من مذهب أصحاب الرأي، فينكر القياس، ويرى أن عموم النصوص من الكتاب والسنة تكفي لبيان الأحكام، لأن القول بالقياس تشريع عقلي، والدين إلهي ولو كان الدين بالعقل لجرت أحكام على خلاف ما أتى به الكتاب والسنة، ولهذا وجب أن نتقيد بظاهرهما إلا إذا قرن النص بعلة الحكم، وقد قال الله ﴿وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ﴾ (الشورى: ١٠) لم يقل إلى الرأي والقياس.

ذلك الرجل هو أبو سليمان داود بن علي بن خلف الأصبهاني، المعروف بالظاهري.

وقد اتبع مذهب الظاهرية كثير من الناس في فارس والأندلس، ومن أشهر رجاله أبو الحسن عبد الله بن أحمد بن محمد المفلس، وأبو محمد علي بن أحمد ابن سعيد بن حزم الأندلسي، ومن أمثلة ذلك في فقههم.

١- أن الإسلام حرم الربا وقال ﷺ «الذهب بالذهب والفضة بالفضة والبر بالبر والشعير بالشعير والتمر بالتمر والملح بالملح مثلاً بمثل يداً بيد، فمن زاد أو استزاد فقد أربى، الآخذ والمعطي فيه سواء».

وقد ذهب عامة الفقهاء إلى أن الحرمة لا تقتصر على هذه الأنواع الستة بل

تتعداها إلى غيرها قياساً ما وجدت العلة واختلفوا في علة المطعومات

١- فقال جماعة إن علة تحريم الربا في المطعومات الكيل والوزن وعلى هذا يجري الربا في كل مكيل أو موزون بيع بجنسه مطعوماً كان أو غير مطعوم.

٢- وقالت طائفة: العلة كونه مطعوماً فيحرم الربا في كل مطعوم قوتاً كان أو فاكهة أو دواء.

٣- وذهب قوم إلى أن العلة كونه طعاماً مكيلاً أو موزونا.

٤- وقال آخرون العلة الاقتيات والادخار أي كون الطعام مقتاتاً مدخراً.

أما الظاهرية الذين لا يأخذون بالقياس فلم يوافقوا على هذا، وقصروا الربا على الأصناف الستة المذكورة في الحديث، وقالوا إن الشارع خص من المكيلات والمطعومات والأقوات أشياء أربعة.. فلو كان الحكم ثابتاً في كل المكيلات أو في كل المطعومات لقال مثلاً:

لا تبيعوا المطعوم بالمطعوم متفاضلا بالنص على علة التحريم، فإن هذا الكلام يكون أكثر اختصاراً وفائدة، فلما لم يقل ذلك، بل عد الأربعة علمنا أن حكم الحرمة مقصور عليها.

٢- وذهب الأئمة الأربعة إلى أن حد الأمة إذا زنت خمسون جلدة بكراً كانت أو ثيباً، أما الثيب فلقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ مِنَ ٱلۡعَذَابِۚ﴾ (النساء: ٢٥) والمراد بالعذاب الجلد لأن الرجم لا يتجزأ، وأما البكر فلما في الصحيحين من أن رسول الله ﷺ سئل عن الأمة إذا زنت ولم تحصن فقال «إذا زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فبيعوها ولو بضفير».

وقال داود: على الأمة نصف الحد إذا زنت وكانت محصنة لظاهر الآية وتجلد مائة إذا كانت بكراً لظاهر العموم في قوله تعالى ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجۡلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٖ مِّنۡهُمَا مِاْئَةَ جَلۡدَةٖۖ﴾ (النور: ٢) وقد خرج من هذا العموم الأمة المحصنة بقوله تعالى ﴿فَإِذَآ أُحۡصِنَّ فَإِنۡ أَتَيۡنَ بِفَٰحِشَةٖ فَعَلَيۡهِنَّ نِصۡفُ مَا عَلَى ٱلۡمُحۡصَنَٰتِ﴾ فتبقى التي لم تحصن في العموم.

هذه فكرة مجملة عن نشأة الفقه الإسلامي وأصول مذاهبه تصور لنا ذلك الجهد الذي بذله علماء هذه الأمة وأئمتها، وكيف حرص هؤلاء المجتهدون على النظر في شريعة الله؟ وأجهدوا قرائحهم في معرفة أحكام ما جد من حوادث، وقد خلفوا لنا تراثا فقهياً خالداً يتضمن من الشروح والتفسيرات ما يكشف عن ثروة شريعتنا وعظمة مبادئها ونمو قواعدها، فهي شريعة حية لا ينضب معينها، ولا يغيض ماؤها.

واليوم - وقد تكالبت على أمة الإسلام قوى الشر في الشرق والغرب، ونفثت سموم أفكارها وسحرت أعين الناس ببريق خداعها، وتخلت أقطار إسلامية عزيزة عن تحكيم شريعة ربها، وانسلخت عن تاريخ مجدها وولت وجهها شطر الغرب تارة، والشرق أخرى- اليوم وقد وصلت أمتنا إلى هذا الدرك تتطلع النفوس المؤمنة الواعية في أنحاء العالم الإسلامي إلى يقظة جديدة تنفض عن كاهل أمتنا ركام هزيمتها، وتعيد إليها ثقتها في عظمة شريعتها وتشق طرق الكفاح في سبيل هذه الغاية مجاهدة صابرة محتسبة حتى تحطم طواغيت الضلال والفساد ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾﴾ (النساء: ٦٠).

والإنسانية المعذبة التي تكتوي بنار الصراع الدولي في عصر يسمونه عصر المدنية تنتظر ساعة الخلاص مما أصابها من بلاء.

وعلى يد الجيل المسلم المجاهد في كل بلد ترتقب الدنيا هذه الساعة لتقر عينها ويهدأ بالها فالإسلام كان -ولا يزال- سفينة نوح في كل طوفان.

* * *

دروس من الهجرة

أسماء والهجرة

العدد (٩٨) صفر (١٣٩٣هـ) - مارس (١٩٧٣م).

لم يكن حدث الهجرة حدثاً تاريخياً كتلك الأحداث التي تجري وفق سنن الله الاجتماعية في حياة الأمم، ولكنه كان حدثاً معجزاً فريداً، أعطى للحياة الإنسانية مفاهيم جديدة لوقائع التاريخ تبرز القيم الإسلامية وآثارها الحية التي يعجز البشر عن صنعها. فلا يلبث الناظر فيها طويلاً حتى يردها إلى القدرة الإلهية التي لا يعجزها شيء في الأرض ولا في السماء.

ولسنا هنا بصدد الحديث عن آيات الإعجاز في هذا الحديث التاريخي الأشم، وإنما نتناول جانباً مشرقاً منه في حياة امرأة من فضليات النساء المسلمات.

لقد عاشت المرأة في عصور الجاهلية مهينة ذليلة، تزدريها الأعين وتمقتها النفوس، وتوقع بها من ضروب العنف والجبروت ما لا تتحمله الجبال الرواسي، واعتبرتها الحضارات القديمة مخلوقاً شريراً لا يصدر عنه إلا الخطيئة، وحرمتها كافة الحقوق التي يتمتع بها الإنسان، ووأدتها جاهلية العرب صغيرة. وعضلتها وورثتها كبيرة ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨ - ٥٩).

وعن ابن عباس قال: «كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته، إن شاء بعضهم تزوجها، وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم أحق بها من أهلها، فنزلت هذه الآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَرِثُوا۟ ٱلنِّسَآءَ كَرْهًا ۖ وَلَا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا۟ بِبَعْضِ مَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ﴾ (النساء: ١٩). (رواه البخاري).

فلما جاء الإسلام رفع عنها هذا الغبن، ونفض عن كاهلها تلك الأوزار، ورد إليها كرامتها وإنسانيتها.

وفي ثنايا حادث الهجرة يبدو دور المرأة المسلمة في مواقف أسماء بنت أبي بكر الصديق مما لا يدع مجالاً للشك في مكانة المرأة بالإسلام.

الكتمان والسرية

لقد بايع علية القوم في المدينة رسول الله ﷺ على الإسلام والنصرة والإيواء، وكانت الهجرة، فأمر رسول الله ﷺ أصحابه بمكة أن يلحقوا بإخوانهم الأنصار، وقال: «إن الله ﷻ قد جعل لكم إخواناً ودارا تأمنوا بها»، فخرجوا أرسالاً، وأقام ﷺ بمكة ينتظر أن يأذن له ربه في الخروج من مكة والهجرة إلى المدينة، ولم يتخلف معه بمكة أحد إلا من حبس أو فتن إلا علي بن أبي طالب وأبوبكر بن أبي قحافة الصديق وأهله.

وكان وقع هجرة الصحابة على نفوس المشركين أليماً، حيث أدركوا أن المسلمين قد أصابوا منهم منعة.

وحذروا خروج رسول الله ﷺ إليهم بالمدينة. وأيقنوا أنه قد أجمع لحربهم، فائتمروا في دار الندوة، وتشاوروا فيما بينهم، وانتهى أمرهم إلى أن يضربه نفر من شبابهم ضربة رجل واحد فيقتلوه، وبذلك يتفرق دمه في القبائل، فلا يقدر بنو عبد مناف على حرب قومهم جميعاً ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ۝٣٠﴾ (الأنفال: ٣٠).

استولى على قريش الذعر، وغشيتها كآبة الأسى، ودبرت أمرها هذا وهي تخشى كل الخشية أن يفلت رسول الله ﷺ من يدها ويلحق بالمهاجرين والأنصار، ثم يكر عليهم من منطلق حصين.

وأذن الله لرسوله بالهجرة، وفي مثل هذه الحال مِنْ تآمر المشركين وتربصهم يكون الكتمان أكبر عون على نجاح الخطة. حتى يحبط التدبير السيئ، ويحيق المكر بأهله، ويسقط في أيدي ذويه.

ولطالما كانت السرية من مقتضيات الحكمة في الانتصار للحق، وبلوغ غايته،

وتفويت الفرصة على خصومه والقرآن الكريم يحكي على لسان نوح عليه السلام قوله ﴿ثُمَّ إِنِّيٓ أَعۡلَنتُ لَهُمۡ وَأَسۡرَرۡتُ لَهُمۡ إِسۡرَارٗا ۝٩﴾ (نوح: ٩) قد بدأت الدعوة إلى الإسلام سراً، وتربى في كنف سريتها رجال آمنوا بالله وبرسوله، وتجردوا لعقيدة الإسلام، وتعاهدوا على نصرتها، فكانوا القاعدة الصلبة للكيان الإسلامي الشامخ الذي بلغ قمة المجد والعزة، وماذا يجدي الصخب الداوي مع الخصوم الألداء الذين أعمى الباطل بصائرهم وأثارت العصبية أحقادهم، واستخفهم الشيطان فأطاعوه؟

ولن يستطيع رسول الله ﷺ أن يكتم أمر هجرته في نفسه دون أن يعلم به أحد سواه، فإنه في حاجة إلى من يستعين بهم من خاصته في هذا الخطب الجلل تدبيراً وإعداداً وصحبة، وقد استأخر أبا بكر في الهجرة، كما تأخر على ابن أبي طالب، ترى من يكون هؤلاء الذين يخصهم بسره؟ وهل يكون للمرأة دورها في ذلك؟

إن الإسلام كما يصنع الرجال المؤمنين الصادقين فإنه يصنع النساء المؤمنات الصادقات، والذكر والأنثى في تبعات الإيمان سواء عملاً وولاية:

﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ۝٩٧﴾ (النحل: ٩٧).

﴿إِنَّ ٱلۡمُسۡلِمِينَ وَٱلۡمُسۡلِمَٰتِ وَٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡقَٰنِتِينَ وَٱلۡقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلۡخَٰشِعِينَ وَٱلۡخَٰشِعَٰتِ وَٱلۡمُتَصَدِّقِينَ وَٱلۡمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلۡحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمۡ وَٱلۡحَٰفِظَٰتِ وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمٗا ۝٣٥﴾ (الأحزاب: ٣٥).

﴿وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتُ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ يَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ﴾ (التوبة: ٧١).

ولم تعرف الدنيا عقيدة من العقائد أو نظاماً من الأنظمة أكرم المرأة وصان خصائصها الفطرية بمثل ما عرف في الإسلام.

وهنا يبدو تكريم المرأة المسلمة في ائتمانها على أكبر حدث في تاريخ الدعوة الإسلامية بحياة نبي الإسلام ﷺ، حيث كانت أسماء بنت أبي بكر الصديق موضع

ثقة وأمانة، فعلمت بهجرة رسول الله، وكتمت الخبر، وأسرته في نفسها.

وقال ابن إسحاق: فحدثني من لا أتهم، عن عروة بن الزبير، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: (كان لا يخطئ رسول الله ﷺ أن يأتي بيت أبي بكر أحد طرفي النهار، إما بكرة وإما عشية، حتى إذا كان اليوم الذي أذن فيه لرسول الله ﷺ في الهجرة، والخروج من مكة من بين ظهري قومه أتانا رسول الله ﷺ بالهاجرة، في ساعة كان لا يأتي فيها، قالت: فلما رآه أبو بكر قال: ما جاء رسول الله ﷺ هذه الساعة إلا لأمر حدث، قالت: فلما دخل تأخر له أبو بكر عن سريره، فجلس رسول الله ﷺ، وليس عند أبي بكر إلا أنا وأختي أسماء بنت أبي بكر، فقال رسول الله ﷺ: «اخرج عني من عندك»، فقال: «يا رسول الله، إنما هما ابنتاي»[(١)].

وإذا قيل: إن عائشة كانت زوجاً لرسول الله ﷺ فهي أمينة على أسرار زوجها فإن هذا لا يقال بالنسبة إلى أسماء، إنما يقال عنها: إنها كانت مؤمنة فائتمنها رسول الله ﷺ على سره.

«قال ابن إسحاق: ولم يعلم فيما بلغني بخروج رسول الله ﷺ أحد حين خرج، إلا علي ابن أبي طالب، وأبو بكر الصديق، وآل أبي بكر»[(٢)].

● البلاء والصبر

من خصائص المرأة رقة العاطفة، ولين الجانب، وسرعة الانفعال، وهذه الخصائص تتنافى مع البلاء والصبر، فالمرأة بطبيعتها ليست صلبة العود، ولا تقوى على تحمل الأذى، ولا تصبر على النوازل، وتلك الحقائق النفسية لا يمارى فيها، وواقع الحياة أكبر شاهد عليها، فلا تكاد المرأة تسمع كلمة نابية تخدش كرامتها حتى يتجهم وجهها، وينحدر دمعها، ويرتفع صوتها بالعويل والصراخ.

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني ص ١٢٨، ١٢٩- ط الحلبي وكان أبو بكر قد أنكح عائشة من رسول الله ﷺ قبل ذلك.

(٢) المصدر السابق ص (١٢٩) ج٢.

ولكن العقيدة تصوغ الإنسان المؤمن بها صياغة جديدة، يحتسب فيها كل ما يصيبه ابتغاء مرضاة الله. ويتجرد من أحاسيسه الشخصية ليكون إحساسه إحساس عقيدته.

لأنها خالطت شغاف قلبه، وامتزجت بروحه ومشاعره، فغني فيها عن نفسه، يستعذب الموت في سبيلها، ويرى التضحية من أجلها أسمى أمانيه.

﴿وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَٰنًا وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الأحزاب: ٢٢- ٢٣).

وهكذا كان شأن العقيدة في نفس أسماء بنت الصديق.

لقد باءت مؤامرة المشركين بالفشل وخرج رسول الله ﷺ من بيته بعد أن نام علي بن أبي طالب على فراشه وتسجى ببرده، وألقى حفنة من التراب على رؤوس الفتية المتربصين فأعشاهم الله فلم يبصروا رسول الله حين خرج.

واصطحب أبا بكر معه مهاجراً، ولم يتجه صوب المدينة بل جنح متوجهاً إلى غار ثور، وحين أصبحت قريش وعلمت بنجاة رسول الله ﷺ جن جنونها، وطار صوابها، وكبر ذلك على نفوس كبارها، فماذا يفعلون؟

إن بصيص الأمل في الاهتداء إلى وجهة رسول الله ﷺ لملاحقته يبدأ من بيت أبي بكر فهو البيت الذي تأخرت هجرته، وأبو بكر هو الذي صحب رسول الله، وهذا يعني أن سر كل شيء لدى هذا البيت.

عندئذ توجه أبو جهل بن هشام على رأس نفر من قريش إلى بيت أبي بكر، فسألوا أسماء عن أبيها. عسى أن يجدوا في جوابها بريق الأمل فما زادهم جوابها إلا حيرة، فنفس أبو جهل عن غيظه بلطمة سددها إلى خدها فطار منها قرطها، فقابلت ذلك بالصبر والاحتساب.

قال ابن إسحاق: فحدثت عن أسماء بنت أبي بكر أنها قالت: «لما خرج رسول الله ﷺ وأبو بكر رضي الله عنه أتانا نفر من قريش، فيهم أبو جهل بن هشام، فوقفوا على باب أبي بكر، فخرجت إليهم، فقالوا: أين أبوك يا بنت أبي بكر؟ قالت:

قلت: لا أدري والله أين أبي؟ قالت: فرفع أبو جهل يده، وكان فاحشاً خبيثاً، فلطم خدي لطمة طرح منها قرطي»[١].

إن لطمة بكف أبي جهل ليست كسائر اللطمات، فقد عرف أبو جهل بصلابة البنية، وقوة الشكيمة، فإذا انحدر كفه على أحد كان كانحدار الصخر من جبل شاهق، وعلى من ينحدر كفه؟ أينحدر على رجل فظ غليظ مثله؟ أم على وغد خسيس لا كرامة له؟ لا، إنما ينحدر على فتاة قرشية من أعرق أسر قريش نسباً، وأعلاها كعباً، إنه ينحدر على أسماء بنت أبي بكر الصديق، فتلقته صابرة محتسبة، وأجابت بهذا الجواب الذي لا يشفي علة جبار غاشم، ولا يطفئ ظمأ هائم يتميز غيظاً، قالت: قلت: لا أدري والله أين أبي؟ وتمخض حلم أبي جهل فيما كان يأمله لدى أهل بيت أبي بكر عن سراب بقيعة ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ۝٣٩﴾ (النور: ٣٩).

● العمل والجهاد

وللمرأة في ميدان الدعوة عمل وجهاد بما يلائم خصائصها ويناسب فطرتها، إنها تسهم بالقدر الضروري في حقل وظائفها الأساسية، وجهاد الدعوة يشمل كل جهد يبذل في سبيلها، ومن ذلك إعداد الطعام، وتمريض الجرحى، ومراقبة الأعداء.

ولم يكن دور أسماء بنت أبي بكر الصديق في الهجرة قاصراً على ما ذكرناه آنفاً من كتمانها الخير، وصبرها على لطمة أبي جهل، بل تجاوز هذا إلى الإسهام العملي مشاركة في هذا الحادث العظيم، الذي كان نقطة تحول في تاريخ البشرية.

لقد أقام رسول الله ﷺ في غار ثور ثلاثاً، ومعه أبو بكر، وما كانت قريش لتغمض لها عين حتى تأتي برسول الله حياً أو ميتاً.. وكانت هناك حاجة إلى أمور لا بد منها أخذا بأسباب النجاة ووسائل نجاح الهجرة:

---

(١) ابن هشام- (ج٢ ص١٣١- ١٣٢).

أولها: تسمع أخبار قريش لمعرفة ما يدبره القوم من مكائد، وما ينصبونه من شراك، وما يحيكونه من مؤامرة.

وثانيها: تعفية أثر من ينقل هذه الأخبار إلى رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار.

وثالثها: الطعام الذي يسد الرمق ويقوم به الصلب.

أما الأمر الأول، فقد تكفل به عبد الله بن أبي بكر، حيث كان يلتقط ما يدور على ألسنة قريش نهاراً، وينقله إلى رسول الله وصاحبه مساء.

وأما الأمر الثاني، فقام به مولى أبي بكر عامر بن فهيرة الذي كان يرعى الغنم ويريحها على رسول الله ﷺ وأبي بكر في الغار، فإذا قفل عبد الله من عندهما راجعاً اقتفى أثره بالغنم تعفية عليه، فمهمة عبد الله وعامر هي مهمة الجاسوسية المشروعة لحماية الإسلام ونبيه.

أما الأمر الثالث: وهو إعداد الطعام- فقد تكفلت به أسماء بنت أبي بكر.

قال ابن إسحاق: «فلما أجمع رسول الله ﷺ الخروج، أتى أبا بكر بن أبي قحافة، فخرجا من خوخة لأبي بكر في ظهر بيته، ثم عمدا إلى غار بثور- جبل بأسفل مكة- فدخلاه، وأمر أبو بكر ابنه عبد الله بن أبي بكر أن يتسمع لهما ما يقول الناس فيهما نهاره، ثم يأتيهما إذا أمسى بما يكون في ذلك اليوم من الخبر، وأمر عامر بن فهيرة مولاه أن يرعى غنمه نهاره؛ ثم يريحها عليهما، وكانت أسماء بنت أبي بكر تأتيهما من الطعام إذا أمست بما يصلحهما»[1] والتزود بالطعام في السفر الطويل ضرورة ملحة، فكيف إذا كان هذا السفر في الصحراء القاحلة الجرداء لعدة مراحل تقطعها الراحلة يوما تلو يوم؟ إن الزاد حينئذ يكون قوام الحياة.

وأسماء بنت أبي بكر لم يفتها أن تزود رسول الله وأباها بطعام السفر الذي يرد عنهما غائلة الجوع، وهي في هذا تجود بأعز ما تحرص عليه المرأة، فالمرأة تهتم بزينتها، وزينتها في ثيابها، ونطاقها هو حلية هذه الثياب. وكان آنذاك تقليداً

(١) ابن هشام (ج٢ ص ١٣٠).

متوارثاً أصيلاً.

وقد نسيت أسماء حين أعدت طعام السفر أن تهيئ ما تعلقه به في الراحلة، فلم يسعها إلا أن تحل نطاقها وتجعله عصاماً تعلق به وعاء طعام السفر فسميت بذات النطاقين.

قال ابن إسحاق: «وأتتهما أسماء بنت أبي بكر رضي الله عنهما بسفرتهما، ونسيت أن تجعل لها عصاماً، فلما ارتحلا ذهبت لتعلق السفرة، فإذا ليس لها عصام، فتحل نطاقها، فتجعله عصاماً، ثم علقتها به، فكان يقال لأسماء بنت أبي بكر ذات النطاق لذلك».

قال ابن هشام: «وسمعت غير واحد من أهل العلم يقول: ذات النطاقين، وتفسيره: أنها لما أرادت أن تعلق السفرة شقت نطاقها باثنين، فعلقت السفرة بواحد، وانتطقت بالآخر»[١].

هذه هي أسماء بنت أبي بكر في مقتبل عمرها، وهذه هي مواقفها في حادثة الهجرة، فما أروعها من سيرة عطرة لفضليات النساء والمسلمات! وقد كان موقفها في آخر حياتها من الحجاج الثقفي أشد روعة!!



(١) ابن هشام- (ج٢ ص ١٣١).

٢٤ مقالات

الشيخ عبد الفتاح أبو غدة

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (١).

العدد(٥٤)جمادى الثانية(١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

٢- قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (٢).

العدد (٥٨) شوال (١٣٨٩هـ) - ديسمبر (١٩٦٩م).

ترجمة الشيخ

عبد الفتاح أبو غدَّه

● مولده ونشأته:



هو عبد الفتاح بن محمد بن بشير بن حسن أبوغدة الخالدي المخزومي الحلبي، ولد في مدينة حلب بسورية سنة ١٣٣٦ هـ/ ١٩١٧ م في بيت ستر ودين فقد كان والده محمد رجلاً مشهوراً بين معارفه بالتقوى.

تخرَّج رحمه الله من كلية الشريعة بالجامع الأزهر الشريف في عام ١٣٦٨ هـ، ١٩٤٨م، ثم تخصص في أصول التدريس في كلية اللغة العربية بالجامع الأزهر أيضاً وتخرج منه في عام ١٣٧٠ هـ، ١٩٥٠م وبعد ذلك عاد إلى موطنه حلب.

درَّس مادة التربية الإسلامية في ثانويات حلب وغيرها لمدة أحد عشر عاماً كما شارك في تأليف الكتب المدرسية المقررة لهذه المادة، ثم انتدب للتدريس في كلية الشريعة في جامعة دمشق، ودرس فيها لمدة ثلاث سنوات «أصول الفقه»، و«الفقه الحنفي» و«الفقه المقارن بين المذاهب». وقام بعد ذلك بإدارة موسوعة «الفقه الإسلامي» في كلية الشريعة بدمشق.

ثم تعاقد مع جامعة الإمام محمد بن سعود في الرياض، ومع المعهد العالي للقضاء، وأستاذاً لطلبة الدراسات العليا، ثم أستاذاً زائراً لجامعة أم درمان في السودان ولمعاهد الهند وجامعاتها، ثم عاد للعمل مع جامعة الملك سعود في الرياض.

● **مؤلفاته**

له أكثر من سبعين مؤلفاً وأغلبها في علم الحديث، منها: «رسالة المسترشدين، حقق الرفع والتكميل في الجرح والتعديل، حقق سنن النسائي» وغيرها.

● **وفاته:**

في عام١٩٩٥م عاد إلى بلده بعد غيبة سبعة عشر عاما، وبعد عام عاد إلى الرياض وتوفي فيها يوم الأحد ٩ شوال ١٤١٧ هـ الموافق ١٦ فبراير ١٩٩٧م.



قبسات من تاريخ القضاء في الإسلام (١)

العدد (٥٤) جمادى الثانية (١٣٨٩هـ) - أغسطس (١٩٦٩م).

إن الحديث عن القضاء في الإسلام واسع الأطراف، متشعب الجوانب، غزير المادة لا تتسع له صفحات بل مجلدات، ولذا أراني مضطرا إلى أن أشير إلى قبسات من تاريخ ذلك القضاء الذي كان بحق غرة في جبين الإنسانية، وتاجا في تاريخ القضاء فيها.

ولنعرف فضل الإسلام في قضائه السامي الرفيع، يجمل بنا أن نذكر نبذة وجيزة عن القضاء عند العرب وعند غير العرب قبل الإسلام، لنتبين فضل قضاء الإسلام على قضاء الناس سواء من قبل ومن بعد.

ونظرا لضيق المقام واتساع الموضوع فلنكتف بهذا النموذج اليسير فإنه دال على ما سواه من جوانب القضاء عند غير العرب قبل الإسلام.

إن أول ما يلفت نظر الباحث في تاريخ القضاء عند غير العرب قبل الإسلام ما يجده لديهم من مؤاخذة الحيوان بجنايته إذا جنى هو، أو جنى صاحبه، ومن معاملتهم له في المسؤولية كمعاملة الإنسان العاقل المفكر وهذا أغرب ما تضمنه تاريخ القضاء في العصور القديمة والوسطى، حتى القرن التاسع عشر الميلادي أي من نحو سبعين سنة، فقد كان الحيوان يحاكم في هذه العصور كما يحاكم الإنسان، ويحكم عليه بالسجن والتشريد والموت، كما يحكم على الإنسان الجاني تماما.

ففي شرائع اليهود في الإصحاح الحادي والعشرين من كتاب الخروج: إذا نطح ثور رجلا أو امرأة وأفضى ذلك إلى موت النطيح، وجب رجم الثور، وحرم أكل لحمه، ولا تبعة على مالكه إذا لم يكن الثور معتاد النطح، فإذا كان من عادته

النطح، وأنذر الناس صاحبه فلم يعبأ بإنذارهم، وأهمل رقابته حتى تسبب في هلاك رجل أو امرأة، كان جزاء الثور الرجم، وجزاء صاحبه الإعدام.

وهناك حالة ثانية يعاقب فيها الحيوان في شرائع اليهود، وهي ما إذا واقع رجل أو امرأة بهيمة، وجب قتل الحيوان والرجل أو المرأة معا.

وفي شرائع قدماء اليونان، كانت عندهم محكمة خاصة لمحاكمة الحيوانات والجمادات المتسببة في هلاك إنسان، وكان يطلق على هذه المحكمة اسم «البريتانيون» وهو اسم المكان الذي كانت تعقد المحكمة جلساتها فيه، ومما ذكره أفلاطون في كتابه «القوانين» إذا قتل حيوان إنسانا كان لأسرة القتيل الحق في إقامة دعوى على الحيوان أمام القضاء، ويختار أولياء الدم القضاة من المزارعين وفي حالة ثبوت الجريمة على الحيوان يجب قتله قصاصا، وإلقاء جثته خارج البلاد، ويستثنى من ذلك القتل الناشئ عن مبارزة بين الإنسان والحيوان في مسرح الألعاب العمومية، فإن هذا لا يترتب عليه شيء[(١)].

ولم تكن مسؤولية الحيوان عندهم قاصرة على حالات القتل، بل هو مسؤول كذلك في الجنايات التي دون القتل، فإذا عض كلب إنسانا وجب على صاحب الكلب أن يسلم كلبه إلى المجني عليه مكموما ومشدودا في الوثاق، فيثأر الإنسان المعضوض لنفسه من الكلب الذي عضه، كما يشاء بالقتل أو التعذيب أو غيرهما وكذلك كان الحيوان عند اليونان يعاقب على جنايته سيده أو أسرته في بعض الحالات فمن حكم عليه بالإعدام لجريمة ارتكبها ضد الدين أو الدولة، كان هو وأسرته وحيواناته وممتلكاته محكوما عليها بالحرق أو التدمير أو المصادرة.

ولا بأس أن أزيد عن قضاء اليونان هذه الكلمة الصغيرة، وهي أنهم كانوا إذا سقط جماد كحجر أو خشبة أو شجرة، على إنسان فقتله، اختار أقرب الناس إلى القتيل قاضيا من جيرانه ليحكم على ذلك الجماد من الحجر أو الشجرة أو الخشبة أن ينبذ خارج حدود البلاد.

---

(١) بدهي أن هذه المبارزة الحيوانية شيء تمجه النفوس السليمة والفطر الزكية، وقد حرمها الإسلام الحنيف.

أما حال القضاء بالنسبة للحيوان عند قدماء الرومان فقد تضمنت شرائعهم مادة تقضي بعقوبة الإعدام على الثور وصاحبه إذا نقل الثور أثناء الحرث الحد الفاصل بين الحقل المحروث والحقل المجاور له، كما تضمنت شرائعهم عقوبة الكلب الذي يعض إنسانا بوجوب التخلي عنه للمعضوض، يتصرف فيه كما يشاء، وكذلك القضاء عندهم إذا رعى الحيوان عشبا غير مملوك لصاحبه، فإنه يجب تسليمه لصاحب العشب المرعي، يفعل فيه ما يشاء.

وكذلك كان حال القضاء بالنسبة لعقوبة الحيوان عند قدماء الجرمان كما كان عند الرومان واليونان.

أما عند قدماء الفرس فالأمر فيه أعجب وأطرف، ذلك أن الكلب المصاب بالكَلَب إذا عض خروفا فقتله، أو إنسانا فجرحه تقطع أذنه اليمنى فإن تكرر ذلك منه قطعت أذنه اليسرى، وفي المرة الثالثة تقطع رجله اليمنى، وفي الرابعة تقطع رجله اليسرى، وفي الخامسة يستأصل ذنبه[١].

أما حال الحيوان عند العرب قبل الإسلام إذا جنى الحيوان جناية بأن دخل أرضا حراما محمية لصاحبها، أو رعى عشب أرض ليس بين مالكه وصاحبها قرابة أو موالاة، فإنهم كانوا أرحم بالحيوان من اليونان والرومان والفرس واليهود، فإنهم كانوا لا يقتلون الحيوان، ولكن يشنون بسببه حربا تقتلهم قتلا، وتأكلهم أكلا!

هذه إلمامة سريعة في حكم واحد من تاريخ القضاء عند أولئك الناس قبل بزوغ الإسلام وإشراقه على البشرية التائهة الضالة، ندرك منها أن عقلية القضاء فيها خرافية سوداء، لا تستند إلى عقل سليم ولا شرع سماوي قويم، وإنما هي أوهام توارثوها واحتكموا إليها فحكمتهم، وخضعوا لها فركبتهم.

● شرف القضاء ومنزلته في الإسلام

ويحسن بنا بعد هذا العرض الوجيز لحال القضاء قبل الإسلام أن نعود إلى الحديث عن القضاء في تاريخ الإسلام، وهذا يقتضينا أن نبحث عن نظرة الإسلام

(١) من كتاب «من روائع حضارتنا» للدكتور السباعي رحمه الله تعالى.

إلى القضاء ومنزلته لديه.

إن حاجة الإنسانية إلى القضاء بمنزلة حاجتها إلى الشمس والهواء، فلو رفع القضاء من حياتها لهبطت إلى دركة البهائم والعجماوات، وأكل قويها ضعيفها، وكبيرها صغيرها كما تفعل الحيوانات والأسماك، فالقضاء - كما قال الخليفة المأمون - هو ميزان الله الذي تعتدل به الناس[(١)].

فبه تصان الحياة والكرامة والحرية لكل فرد، وبه تحفظ الدماء والأعراض وبه يتحقق للمجتمع التآخي بين أفراده، ولهذا كان للقضاء في الإسلام منزلة رفيعة سامية، فهو فريضة من أقوى الفرائض وعبادة من أشرف العبادات لمن ابتغى به وجه الله تعالى، لأنه إظهار للعدل، وإزالة للباطل وبالعدل قامت الأرض والسموات.

وقد وصف الله نفسه إذ قال سبحانه ﴿فَٱللَّهُ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ﴾ (البقرة: ١١٣)، وقال أيضا ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَقۡضِي بَيۡنَهُمۡ﴾ (يونس: ٩٣)، وأمر به نبيه ﷺ فقال: ﴿فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُۖ وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَهُمۡ﴾ (المائدة: ٤٨)، وجعل أنبياءه قضاة بين خلقه فقال ﴿إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، وبه أثبت سبحانه اسم الخلافة لداود عليه السلام حين قال له ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ﴾ (ص: ٢٦).

ولا شرف في الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء، ولأجل منيف قدره، وسمو منزلته، اشترط الإسلام فيمن يتولاه من شروط الصحة والكمال، ما لم يشترطه فيمن يتولى غيره من الولايات، ولولا قيام القضاء بالعدل بين الناس لاختل النظام والمعاش، وسادت الفوضى والفساد قال الله تعالى: ﴿وَلَوِ ٱتَّبَعَ ٱلۡحَقُّ أَهۡوَآءَهُمۡ لَفَسَدَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ﴾ (المؤمنون: ٧١)، قال أيضا ﴿وَلَوۡلَا دَفۡعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعۡضَهُم بِبَعۡضٖ لَّهُدِّمَتۡ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٞ وَصَلَوَٰتٞ وَمَسَٰجِدُ يُذۡكَرُ فِيهَا ٱسۡمُ ٱللَّهِ

(١) في كتابه الى واليه على مصر عبدالله بن طاهر بن الحسين، وتمام كلامه «واعلم ان القضاء هو ميزان الله الذي تعتدل به الناس، وبإقامة العدل تصلح الرعية، وينتصف المظلوم، وتأخذ الناس حقوقهم».

كَثِيرًا﴾ (الحج: ٤٠).

وقد نبه سيدنا رسول الله ﷺ إلى عظيم أجر القضاء، وعلو منزلته في الأعمال الصالحات، وأنه موضع المنافسة منها، فقد روى البخاري ومسلم عن عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا حسد إلا في اثنتين رجل آتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق - أي إنفاقه في الطاعات والخيرات - ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها».

قال الإمام الفقيه ابن قدامة الحنبلي في كتابه «**المغني ٣٧٣**» والقضاء من فروض الكفايات لأن أمر الناس لا يستقيم بدونه، فكان واجبا عليهم كالجهاد والإمامة، قال أحمد: لابد للناس من حاكم، أتذهب الحقوق؟ وفيه فضل عظيم لمن قوي على القيام به وأداء الحق فيه، ولذلك جعل الله فيه أجرا مع الخطأ، وأسقط عنه حكم الخطأ، ولأن فيه أمرا بالمعروف ونصرة للمظلوم وأداء الحق إلى مستحقه وردا للظالم عن ظلمه وإصلاحا بين الناس وتخليصا لبعضهم من بعض، وذلك من أبواب القرب، ولذلك تولاه النبي ﷺ والأنبياء قبله فكانوا يحكمون لأممهم وبعث عليا إلى اليمن قاضيا، وبعث أيضا معاذا قاضيا.

وقد روي عن ابن مسعود أنه قال: لأن أجلس قاضيا بين اثنين، أحب إلي من عبادة سبعين سنة. وعن عقبة بن عامر قال: «جاء خصمان يختصمان إلى رسول الله ﷺ فقال: اقض بينهما، قلت: أنت أولى بذلك، قال: وإن كان، قلت: علام أقضي؟ قال: اقض فإن أصبت فلك عشرة، وإن أخطأت فلك أجر واحد» رواه سعيد بن منصور في سننه». انتهى.

فالقضاة الأمناء يحرزون هذا الأجر الجزيل من الله، لأنهم حراس الشريعة وحماتها، وأعوان الحق وأنصاره، لا يعرفون فيه كبيرا ولا صغيرا، ولا مأمورا ولا أميرا، يقيمونه على الملوك قبل السوقة، ويحققون به رضوان الله قبل رضاء العباد، وفيهم جاء قول القائل:

إن الملوك ليحكمون على الورى وعلى الملوك لتحكم العلماء

• حكم الدخول في القضاء أو الإعراض عنه

ولسائل أن يقول: إذا كانت هذه منزلة القضاء في الإسلام، وهذا عالي قدره المنيف، فكيف نوفق بين هذا وبين ما ورد في التحذير من الدخول في القضاء، وبين ما اشتهر عن كثير من سلف الأمة أنهم هربوا من ولاية القضاء كل الهرب، حتى آثر الإمام أبو حنيفة السجن على أن يلي القضاء، ومات وهو سجين في بعض الأقوال، فكيف نوفق بين هذا وبين ما ذكرت؟

والجواب عن هذا أدعه للقاضي العلامة ابن فرحون المالكي رحمه الله تعالى، إذ يقول في كتابه العظيم «تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام»: «اعلم أن أكثر المؤلفين من أصحابنا - المالكية - وغيرهم بالغوا في الترهيب والتحذير من الدخول في ولاية القضاء، وشددوا في كراهة السعي فيها، ورغبوا في الإعراض عنها والتنفير والهرب منها، حتى تقرر في أذهان كثير من الفقهاء والصلحاء أن من ولي القضاء فقد سهل عليه دينه، وألقى بيده إلى التهلكة، ورغب عما هو الأفضل، وساء اعتقادهم.

وهذا غلط فاحش يجب الرجوع عنه والتوبة منه، والواجب تعظيم هذا المنصب الشريف، ومعرفة مكانه من الدين، فبه بعثت الرسل، وبالقيام به قامت السموات والأرض، وجعله النبي ﷺ من النعم التي يباح الحسد عليها.

وأما قوله عليه الصلاة والسلام «القضاة ثلاثة، قاض في الجنة وقاضيان في النار، قاض عمل بالحق في قضائه فهو في الجنة، وقاض علم الحق فجار متعمدا فذلك في النار، وقاض قضى بغير علم واستحيا أن يقول لا أعلم فهو في النار».

فصح أن ذلك الوعيد إنما هو في القاضي الجائر، أو القاضي الجاهل، الذي لم يؤذن له شرعا في الدخول في القضاء، وفي هذا القاضي الجائر أو الجاهل قال بعض الظرفاء:

ولما توليت البرايا ... وفاض الجور من كفيك فيضا
ذبحت بغير سكين وإنا ... لنرجو الذبح بالسكين أيضا

وأما من اجتهد في تحصيل الحق على علم فأخطأ فيه، فقد قال عليه الصلاة

والسلام «إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر»: بمثل ذلك نطق الكتاب العزيز في قوله تعالى ﴿وَدَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِى ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٨- ٧٩)، فأثنى الله على داود باجتهاده وأثنى على سليمان بإصابته وجه الحق»: انتهى بزيادة يسيرة.

وقال الإمام علاء الدين الكاساني الحنفي في كتابه الجليل: بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع ٧: ٤ وهو يتحدث عن حكم الدخول في القضاء أو الإعراض عنه: «اختلفوا في أن القبول أفضل أم الترك، احتج القائلون بأفضلية الترك بما روي عن النبي عليه الصلاة والسلام أنه قال: «من جعل على القضاء فقد ذبح بغير سكين». وهذا جار مجرى الزجر عن تقلد القضاء.

واحتج المفضلون الدخول في القضاء بصنيع الأنبياء والمرسلين، وصنيع الخلفاء الراشدين، ولأن القضاء بالحق إذا أريد به وجه الله تعالى يكون عبادة خالصة، بل هو من أفضل العبادات، والحديث المذكور محمول على القاضي الجاهل، أو العالم الفاسق، أو الطالب للقضاء الذي لا يأمن على نفسه». فأفاد هذا أن الأفضل قبوله والدخول فيه.

أما ما اشتهر عن الإمام أبي حنيفة وأمثاله المشهود لهم بالكفاءة من تأبيهم ولاية القضاء فهو عندي على أحد الحالين:

١- فمنهم من خاف على نفسه أن يضعف في النهوض بهذه الولاية العظيمة، فتأبى عنها وهرب منها، وكان بهذا التأبي منه مسوغا أن يلي هذه الولاية الرفيعة الخطيرة بعض الضعفاء عنها، فينجر ضعفهم عليها وعلى المجتمع معها، فكان ذلك المتأبي الكفء في اجتهاده بترك ولاية القضاء ذا أجر واحد، ولم يحرز بذلك أجرين.

٢- ومنهم من كان عرض هذه الولاية العظيمة عليه غير خال من شوائب معها مستورة وراءها كما وقع للإمام أبي حنيفة - رحمه الله تعالى -، فإنه من أعلم أهل عصره بسمو منزلة القضاء وأهميته في نظر الشرع الحنيف، وقد قرر ذلك في مذهبه

أوضح تقرير، فالذي يبدو أن عرض القضاء عليه لم يكن خالصاً من الملابسات السياسية، التي كانت تختفي وراء ذلك العرض الإلزامي القاسي. وما أحسن ما قاله العلامة الشيخ محمد الخضري في كتابه «تاريخ التشريع» ص٢٣٠ إذ تعرض لهذه الواقعة من حياة أبي حنيفة فوجهها توجيهاً حسناً، فقال رحمه الله تعالى: «أدرك أبو حنيفة تحول الأمر من بني أمية إلى بني العباس، وكانت الكوفة مركز الحركة الكبرى في هذا الانتقال، وبها تمت بيعة أبي العباس السفاح، ولم نسمع لأبي حنيفة في تلك الحركة ذكراً إلا أنه يقال: أن يزيد بن هبيرة والي العراق من قبل مروان بن محمد عرض على أبي حنيفة ولاية القضاء فأبى أبو حنيفة، فضربه من أجل ذلك.

وإنا إذا سهل علينا أن نفهم إباء شخص أن يتولى القضاء، فلا نكاد نفهم أن يضرب على ذلك، إذ إن الضرب بالسوط - وهو نهاية الاحتقار - لا يفعله عاقل ليحمل إنساناً على تولي أشرف المناصب بعد الإمارة وهو القضاء إذا لم يكن ثم إلا الإباء، فإنا لا نظن أنه يحدث في قلب الأمير من الضغن ما يحمله على إجراء تلك العقوبة، ولاسيما أن الفقهاء كانوا متوافرين بالكوفة، فلا يعز على ابن هبيرة أن يختار من بينهم من يؤدي هذه المهمة.

إني أظن - الكلام لا يزال للعلامة الخضري - إني أظن أن مثل هذا العرض، كان الغرض منه محنة المعروض عليه، حتى يعرف مقدار ولائه للدولة، فإن العلماء - على ما يظهر - كانوا يمتنعون أن يتولوا عملاً لدولة لا يحبونها لئلا يكون ذلك تأييداً لها، وقد حصل أن قام بالكوفة في هذا العهد ثائران: أولهما: زيد بن علي بن الحسين الذي خرج سنة ١٢١ في خلافة هشام بن عبد الملك وإمارة يوسف بن عمر الثقفي على العراق، فقتل.

والثائر الثاني: هو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر، في عهد اضطراب الحبل سنة ١٢٧، وقد كانت من أبي حنيفة كلمة تدل على امتداح زيد بن علي كما نقل ذلك عنه من كتبوا سيرته، ويمكن أن يكون قد عاد ذلك منه في أيام عبد الله بن معاوية، فأراد الأمير ابن هبيرة أن يختبر ولاءه لبني أمية، فعرض عليه القضاء

فامتنع فضربه، لأنه شعر بانحرافه عن بني أمية، لا لأنه أبى أن يتولى القضاء». انتهى كلام العلامة الخضري.

وقيل إن الذي دعا أبا حنيفة إلى القضاء وضربهُ عند امتناعه هو أبو جعفر المنصور، وكان في نفسه شيء من جهة أبي حنيفة، فإنه وشي به إلى المنصور أنه حسَّن فعل إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن الحسين بن علي، الخارج على المنصور بالبصرة، قاله الأستاذ محمود عرنوس في «تاريخ القضاء في الإسلام ص ٣٧».



قبسَات من تاريخ القضاء في الإسلام (٢)

العدد (٥٨) شوال (١٣٨٩هـ) - ديسمبر (١٩٦٩م).

• خصائص القضاء في الإسلام ومزاياه

إن القضاء في الإسلام يقوم على أسس قويمة متينة، ويتميز بخصائص فريدة بارزة، ونجمل عماد تلك الخصائص والمزايا فيما يلي:

١ - الإيمان بالله تعالى

الذي يجعل من القاضي رقيباً على نفسه، في حكمه على القريب والبعيد، والعدو والصديق، فينتفي من حكمه الجور والتحيُّز والمُداهنة، ويسلم له العدل والمساواة والنصفة. قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨)، وهكذا يتضح لنا كيف أن الإيمان بالله، واستشعار المسؤولية بين يديه ينبعث عنه العدل والإنصاف، وهذا الأساس - الإيمان بالله - يفتقده كل قانون وضعي، مهما تحرى به العدل والأحكام، ومن خلال هذه الخاصة أيضاً يتبين لنا متانة القضاء في الإسلام، وأنه مقام منيع محصن من تدخّل ذوي النفوذ والجاه والقوة فيه، لأنه ينبعث من عقيدة الإيمان لا من تولية السلطان.

٢ - الله سبحانه هو الحاكم وحده

قال تعالى: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۖ﴾ (الأنعام: ٥٧). وقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ﴾ (الرعد: ٤١). وقال أيضاً: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب: ٣٦). فلا حاكمية إلا لله وحده، والرسول ﷺ مُبيِّن لحكم الله،

حاكم بقول الله وشرعه، كذلك الحكام بعد رسول الله ﷺ إنما هم فيما يقضون به نواب عن الله، ومنفذون لأحكامه لا غير، قال الله تعالى في كتابه الكريم: ﴿يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا نَسُوا۟ يَوْمَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢٦﴾﴾ (ص: ٢٦).

٣- الشريعة التي يحتكم إليها هذا القضاء شريعة عادلة كاملة محكمة، كيف لا وهي شريعة خالق الخلق وأحكم الحاكمين، وقد أكملها للناس وأنزلها خاتمة الشرائع السماوية وأتم بها نعمته وفضله على جميع العباد، وجمع لهم فيها خير الدنيا والآخرة قال تعالى: ﴿وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ (المائدة: ٤٩)، وقال سبحانه: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣)، وقد كفلت هذه الشريعة بكمالها وتمامها للناس كل حاجاتهم، وأغنتهم عن كل تشريع آخر، فأي حكم بخلافها هو خروج عن العدل، ووقوع في الحيف الذي لا تسلم منه الأحكام والقوانين التي يسنها البشر لأنفسهم، فيشملها الضعف والهوى والقصور الإنساني، وطبيعي أن يتأتى عن ذلك الظلم والاضطراب والفساد.

أين شرع الناس من شرع الذي خلق الدنيا وسوّى العالمين؟

٤- العدل

لقد تميز قضاء الإسلام فيما تميز به عن غيره بإقامته العدل بين الناس، دون تفريق بين أبيض وأسود، وملك وسوقة، وصغير وكبير، وغني وفقير، وشريف وحقير، فالناس في نظر الإسلام سواسية كأسنان المشط، لا فضل لعربي على عجمي، ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى أو عمل صالح، كلكم لآدم وآدم من تراب.

وقد فرض الإسلام العدل في الحكم مع العدو والصديق، والبعيد والقريب، وآيات القرآن الكريم الناطقة بذلك كثيرة، قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥).

٥- المساواة

ونريد بها إلغاء ما تعارف عليه الناس من التمييز بين الشريف والوضيع في الحكم، بسبب الشرف والضعة، دون نظر إلى حق المحق وباطل المبطل منهما.

فالإسلام أقام التسوية بين أصناف الناس جميعا أمام الحق والقضاء، مهما تباينت منازلهم وألوانهم وأجناسهم وبلدانهم وألسنتهم وأديانهم.

وعلى هذا الأساس قام القضاء في الإسلام، وبه تميز، فكان غرة في جبين القضاء الإنساني أبد الدهر.

٦- الشمول لأنواع الحقوق وشؤون الحياة

القضاء في الإسلام قائم على شريعة الإسلام بطبيعة الحال، ونحن نعلم أن شريعة الإسلام كاملة، ومن كمالها تناولها شؤون الحياة كافة، قال الله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ﴾ (الأنعام: ٣٨)، وقال أيضا: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ (النحل: ٨٩).

والقضاء الإسلامي يتناول - فيما يتناوله - شؤون الأموال والأعراض والدماء وسائر الحقوق، وهو يشمل نظام البيوت، ونظام الحكم، والتعامل بالأموال، والعقود مهما تنوعت، وشؤون الحرب والسلم، والتحكيم وغيرها، فكل ما يتنازع الناس فيه من شؤون الدنيا داخل في قضاء الإسلام.

٧- وحدة القضاء

ومما تقدم يتبين لنا مزية هامة لها أثرها الخطير في النفوس والأفكار، وهي: وحدة القضاء الإسلامي، فالإنسان في ظل قضاء الإسلام ليس هو أمام قضاء متعدد النزعات، مختلف الجهات، متباين المصادر، تتضارب مصالح الناس عنده، وتذهب حقوقهم بسبب اختلاف قواعده وحلوله للمشكلات والوقائع والخلافات، بل ليس أمام ذلك الإنسان إلا قضاء واحد شامل متكامل متجانس بفروعه المتعددة واختصاصاته المتنوعة.

٨- اقتصاره على مصالح الدنيا دون تدخله في الأمور العبادية، والمسائل الاجتهادية الخلافية، والوقائع الأخروية، فإن الشمول الذي تميز به إنما هو من

الأمور المتنازع فيها من مصالح الدنيا، أما ما عداها من الأمور التي ذكرناها فإنها لا تدخل في نطاق القضاء وحكم الحاكم أصلا، كما لا تدخل فيه خوالج النفوس ونيات الناس ما لم تتمثل في أعمال.

قال الإمام القرافي في كتابه «الإحكام في تمييز الفتاوى والأحكام وتصرفات القاضي والامام» ص٣٢: والحكم إنما يكون فيما يقع فيه التنازع لمصالح الدنيا، أما مسائل الاجتهادات في العبادات ونحوها فلا يدخلها حكم أصلا.

فليس لحاكم أن يحكم بأن هذه الصلاة صحيحة أو باطلة، ولا أن هذا الماء دون القلتين فيكون نجسا، فيحرم بعد ذلك استعماله، بل ما يقال في ذلك إنما هو فتيا، إن كانت مذهب السامع عمل بها، وإلا فله تركها والعمل بمذهبه، ولا يلزم شيء من أحكام العبادات ونحوها من لا يعتقده، بل يتبع مذهبه في نفسه، ولا يلزمه قول ذلك القائل بحكم الحاكم به.

٩- اعتماده على الوازع الإيماني القلبي

ولئن كان من حكمة القضاء في الإسلام ومزاياه أن يتولى الفصل في القضايا المتعلقة بمعاملات الناس ومصالحهم الدنيوية، ودون قضايا العبادات والأخرويات كما ذكرنا، فإن من مزاياه أيضا اعتماده على الوازع الإيماني القلبي في نفوس المتخاصمين حتى لو ضلل القضاء، فإنه يبقى الحرام حراما ولو حكم القاضي بحله اعتمادا منه على البينة الواضحة.

وهذا الوازع الإيماني المتولد عن عقيدة الإسلام، يعتلج في قلب الخصم حتى يجعله يتورع عن أكل أموال الناس بالباطل، ولو سانده القضاء في الظاهر، عن أم سلمة رضي الله عنها قلت: قال سيدنا رسول الله ﷺ لرجلين من الأنصار، اختصما إليه في مواريث بينهما قد درست معالمها، ليس عندهما بينة إلا دعواهما، قال لهما: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، ولم ينزل علي فيه شيء، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضي له فإني أقضي بينكم على نحو ما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما

أقطع له قطعة من النار، يطوق بها من سبع أرضين يأتي بها سطاما في عنقه يوم القيامة، فليأخذها أو ليدعها». فبكى الرجلان جميعا لما سمعا ذلك، وقال كل واحد منهما: يا رسول الله حقي هذا الذي أطلب لأخي، فقال رسول الله ﷺ: «أما إذا قلتما هذا فاذهبا واقتسما، ثم توخيا الحق، فاجتهدا في قسم الأرض شطرين، ثم استهما، ثم ليحلل كل واحد منكما صاحبه» رواه احمد والبخاري ومسلم وأبو داود والنسائي والترمذي وابن ماجه، وجمع بين رواياتهم.

١٠- استقلاله ونزاهته

القضاء في الإسلام سلطة عليا ذات كيان رفيع، مستقلة في ذاتها، بمعنى أنه لا سلطان عليها لأمير أو خطير في أن يتدخل في أحكامها، ذلك أن القاضي نائب عن الله ﷻ، وهو مسؤول بين يديه، فهو - وإن قامت الحكومة بتوليته منصب القضاء - هو بواقع الأمر نائب عن الله، لا يحكم إلا بما أنزل الله، وأرشد إليه رسوله ﷺ ولا يكون أحد من رجال الدولة حتى أكبر كبير فيها في منجاة من أن يقضي عليه إذا اقتضى العدل ذلك، شأنه كشأن عامة الرعية أمام القضاء.

قال الإمام الكاساني الفقيه الحنفي في كتابه العظيم «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» ٧: ٦١ «إن القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه، بل بولاية المسلمين وفي حقوقهم، وإنما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم» فلذا إذا مات الخليفة أو خلع لا تنعزل قضاته، وقد صح أن نصرانيا ادعى على هارون الرشيد دعوى، فسمعها القاضي أبو يوسف، مع أنه مولى من قبل الرشيد، فالقاضي يقبل الدعوى على السلطان أو له لإحقاق الحق.

وسنرى فيما بعد كيف قضى شريح على أمير المؤمنين سيدنا علي رضي الله عنه، وكان خصمه يهوديا، كما قضى أبو يوسف على الخليفة هارون الرشيد، وكان خصمه نصرانيا، وكما قضى محمد بن عمران الطلحي قاضي أبي جعفر المنصور عليه في خصومته مع الحمالين الجمالين.. إنه الإسلام.

ومن أدل الوقائع التي تعبر عن هذا المعنى العظيم، الذي تميز به قضاء الإسلام: ما وقع للسلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله تعالى، فقد جاء إليه

رجل من أصحابه وأهل الدالة عليه، يستعديه على رجل غشه، فقال له صلاح الدين: ما عسى أن أصنع لك؟ وللمسلمين قاض يحكم بينهم، والحق الشرعي مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه ممتثلة، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته فالحق يقضي لك أو عليك(١).

ومعنى عبارة السلطان أنه ليس إلا منفذا لحكم الشرع وتابعا له، كالشحنة وهو صاحب الشرطة، أي رئيسها وأن القضاة مستقلون بالحكم، لا سلطان لأحد عليهم.

فهذه الواقعة، والوقائع التي أشرنا إليها، وغيرها كثير، كلها تمثل لنا استقلال القضاء ونزاهته في هذا الدين الحنيف، وذلك هو الطابع العام لقضاء الإسلام.

١١- عمومه وعالميته

مما هو معلوم أن رسول الله ﷺ أرسل للناس كافة، وأن هذه الشريعة مخاطب بها كل بني آدم، وأن كل إنسان منهم مدعو للدخول فيها والانضواء تحت ظلها، وقد قرر الإسلام الحنيف أن الناس جميعا على اختلاف ألوانهم وأجناسهم ولغاتهم وديارهم.. نوع واحد، ومن أصل واحد: ﴿إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ﴾، (الحجرات: ١٣) «كلكم لآدم، وآدم من تراب، لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى أو عمل صالح».

ولدى استقراء أحكام هذه الشريعة الإسلامية الغراء - التي هي مرجع القضاء- نجدها لا تفرق بين مشرقي ومغربي، وصيني وعربي، وأبيض وزنجي، وهذا كله يدلنا على عالمية هذا القضاء الإسلامي، وعلى عمومه للبشر قاطبة، فهو القضاء الوحيد الذي يمكن أن يحتكم إليه كل فرد من ألوان البشر، لاطمئنانه أنه أمام قاض عالمي النظرة والتصور، أمام قضاء سنّ أحكامه الباري سبحانه وتعالى لعباده كافة، وهو القائل في كتابه الكريم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)، والقائل سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟

(١) ذكره الشيخ رشيد رضا في «الوحي المحمدي» من طبعته الثالثة ص ٢٤٢.

بِٱلْعَدْلِۚ﴾ (النساء: ٥٨)، ولنقايس بين هذا في الإسلام، وبين ما عليه الكثير من الأمم التي تدعي الحضارة والرقي اليوم، مثل أميركا وجنوب إفريقيا، وما يقوم بهما من المآسي المرة من جراء التفرقة بين لون ولون، وعنصر وعنصر، مما تتجدد أنباؤه على أسماع العالم كل يوم.

١٢- كماله وخلوده

لقد تبدى لنا من كل ما سبق أن هذا القضاء متكامل الوجود، مستجمع لشرائط إحقاق الحق مستوف - على الوجه الأمثل - لكل ما يتعلق بالحاكم والمحكوم وشريعة التحاكم وأصول التقاضي وسائر ما يتصل بالقضاء.

وجدير بمثل هذا القضاء الكامل أن يكون بلسما للناس في كل عصر وجيل، يصلح بينهم، ويقوِّم أودهم، ويرد شاردهم إلى جادة الحق والصراط المستقيم، فهو خالد خلود شريعة الإسلام، باق ما بقيت السماوات والأرض.

هذا ما رأيت تعداده من الخصائص والمزايا للقضاء الإسلامي، وهناك أمام الباحث الدارس أمور يمكن أن تضاف إليها أيضا، فتكون من مزاياه مثل كونه مجانيا، لا يتوقف على رسوم وأجور تقدم من أحد الخصمين، ليقبل النظر في الدعوى، وواضح أن هذه المزية تمكن الفقير وغيره من الوصول إلى إنصافه وإقامة العدل بينه وبين ظالمه، وحري بالقضاء العادل ألا يكون بينه وبين الضعفاء من أصحاب الحقوق معوق ولا حجاب.

ومما يذكر أيضا في هذا المجال ثراء الفقه الإسلامي الذي هو المرجع العام للقضاء، ذلك الفقه الذي لا نظير له عند أمة من الأمم، كيف لا وقد نما واتسع على مر العصور خلال أربعة عشر قرنا، وامتد على آفاق واسعة من الكرة الأرضية، وقد بذلت فيه قرائح العقول وكرائم الجهود من شتى الأجناس والشعوب وواجه بالحلول الواقعية الحاسمة مشكلات بني الإنسان على اختلافها وتنوعها وتجددها، ومن تلك المزايا أن لهذا الفقه المتجدد قواعد وأصولا منهجية، تسعف القاضي وتسدده في التطبيق والاستنباط.

تلك هي أهم خصائص قضاء الإسلام ومزاياه، فلا عجب أن نشهد في تاريخه

النماذج الرائعة الكثيرة تتجدد وتتكرر على مر العصور، وخاصة إذا قابلنا بينه وبين قضاء الأمم الأخرى في القديم والحديث، وذلك الفضل كله ناتج عن الأصل الأول لهذا القضاء، وهو صدوره عن الشريعة المنزلة من عند الله تعالى، على نبيه وأكمل خلقه سيدنا محمدﷺ المبعوث رحمة للعالمين بهذا الإسلام الحنيف.

والآن نسير مع هذا القضاء العظيم لنشهد في لمحات نشأته وأطواره.

القضاء في عهد رسول الله ﷺ

- **تمهيد**

في هذا العهد النبوي الكريم نشهد مولد القضاء الإسلامي، ورفع قواعده وإقامة أركانه: من شرع حكيم يحكم به، وتصور سليم للكون والإنسان والحياة يدعم هذا القضاء، وتحديد للمسؤولية، وجعلها فردية وإقامة لرقابة الله في قلوب الناس حاكمين ومحكومين، مدعين أو مدعى عليهم، إلى غير ذلك مما يحقق العدل والنصفة والإخاء بين العباد.

- **مبعث الرسول ﷺ**

لما بعث رسول الله ﷺ في مكة، قام يدعو الناس إلى دين الله تعالى والإيمان به سبحانه، وتوحيده بالعبادة والطاعة، ونبذ الشرك والأصنام، وتنزيه العقل عن لوثات الوثنية والضلالات، ثم أذن له بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة، فهاجر إليها، وكثر الداخلون في دين الله، وانتشرت دعوة الإسلام، وتزايد نموها وقبولها.

- **رسول الله ﷺ قاضيا**

وكما كان رسول الله ﷺ مأمورا بالدعوة إلى الله وتبليغ الأحكام كان مأمورا أيضا بالحكم والفصل بين الناس فيما يقع بينهم من اختلاف وتنازع، وقد جاء في القرآن الكريم آيات كثيرة تشير إلى ذلك، منها قوله تعالى﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ﴾ (المائدة:٤٨)، وقوله سبحانه ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ

يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾﴾ النساء: ٦٥).

فقام رسول الله ﷺ بأمر ربه، يحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه، ويبين لهم ما يحل وما يحرم، ويفصل في خصوماتهم إلى جانب قيامه بتبليغ الشرائع والأحكام، فكان ﷺ الإمام والقاضي والمفتي والرسول المبلغ عن الله تعالى، ورفع إليه كثير من الأمور المتنازع فيها، فقضى فيها بما أنزل الله إليه في كتابه، وبما هداه إليه من الحكمة، وبما وهبه من رأي ونظر سديد حكيم، كما أفتى فيما استفتي فيه.

والحكمة في تولي النبي ﷺ القضاء بنفسه ظاهرة، وهي أن العدل أساس العمران، ولا ارتقاء ولا رجاء لتأليف أمة وتعاضدها وتكوين وحدتها إلا بالعدل والأمن على الحقوق، لهذا كان عليه الصلاة والسلام يتولى القضاء بنفسه تأليفا لهم، وتدريبا على إقامة العدل، وتنبيها لهم أن يكونوا قوامين بالقسط، وأن يلي قضاءهم من يكون أفضلهم وأنزههم وأعلمهم.

● نهج رسول الله ﷺ في القضاء

ونجمل فيما يلي أهم ما عمل به رسول الله ﷺ، أو اقره من طرق الإثبات في القضاء، وهي: الإقرار، البينة، اليمين، القسامة، القيافة، القرينة، القرعة، ونحوها، وكان يقول: «البينة على المدعي واليمين على من أنكر».

وكان يترافع إليه المتخاصمان فيسمع كلام كل منهما، ثم يقضي على نحو ما يسمع، اعتمادا على ظاهر البينة، ودلائل الإثبات أو النفي، فكان يحكم بالظاهر وكان قضاؤه ﷺ فيما لم ينزل عليه فيه شيء اجتهادا منه، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴿١٠٥﴾﴾ (النساء: ١٠٥)، كما يشهد له من السنة المطهرة حديث أم سلمة رضي الله عنها الذي تقدم بتمامه، وفيه قوله ﷺ: «إنكم تختصمون إلي، وإنما أنا بشر، وإني أقضي بينكم برأيي فيما لم ينزل علي فيه، ولعل بعضكم أن يكون ألحن بحجته من بعض، فأحسب أنه صادق، فأقضي له، فمن قضيت له من

حق أخيه شيئا ظلما بقوله فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النار».

● أقضية النبي ﷺ

وخلال السنوات العشر الكريمة التي عاشها رسول الله ﷺ في المدينة المنورة، صدرت عنه أقضية غير قليلة في الوقائع التي ترافع الناس فيها إليه، وقد أفردت تلك الأقضية النبوية بالتأليف من كثير من العلماء جزاهم الله خيرا، ونكتفي بذكر نموذج واحد منها لضيق المقام.

● نموذج من أقضية الرسول ﷺ :

روى مسلم في صحيحه في كتاب الحدود ١١ : ١٨٧ عن عائشة زوج النبي ﷺ ورضي الله عنها: أن قريشا أهمهم شأن المخزومية، التي سرقت في عهد النبي ﷺ في غزوة الفتح، فقالوا: «من يكلم بها رسول الله ﷺ ؟ فقالوا: ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حب رسول الله، فأتي بها رسول الله ﷺ فكلمه فيها أسامة بن زيد، فتلون وجه رسول الله ﷺ فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ فقال أسامة: استغفر لي يا رسول الله.

فلما كان العشي - وقت اجتماع الناس بعد العصر - قام رسول الله ﷺ فاختطب فأثنى على الله بما هو أهله، ثم قال: أما بعد فإنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد، وإني والذي نفسي بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها، ثم أمر بتلك المرأة التي سرقت فقطعت يدها».

قالت عائشة: فحسنت توبتها بعد، وتزوجت وكانت تأتيني بعد ذلك فأرفع حاجتها الى رسول الله ﷺ.

وإن ما تضمنه هذا الحديث الشريف من القضاء النبوي الكريم، ومن بيان المبدأ الإسلامي العادل السامي العظيم، وهو المساواة بين الناس ضعيفهم وقويهم، وشريفهم ومشروفهم لتعجز البشرية أن تأتي في قضائها بمثله في غير ظل الإسلام، وليس هو حادثة فريدة في بابها بل إن له أمثالا وأمثالا في أقضية الرسول الكريم وأقضية أصحابه وأقضيه قضاة العدل من علماء الإسلام.

- **أشهر القضاة في عهد الرسول ﷺ**

وقد استقضى رسول الله في حياته الشريفة طائفة من أصحابه سادة هذه الأمة وعلمائها، فقاموا بالقضاء في حضرته، وقاموا به بعيدين عنه حيث وجههم إليه من بلدان الإسلام الجديد.

ومن الذين قضوا بحضرته، عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني، وحذيفة بن اليمان، وعمر بن الخطاب، ومعقل بن يسار رضي الله عنهم، ويضيق المقام عن ذكر أخبارهم الدالة على ذلك.

وقد كان هذا الاستقضاء من رسول الله ﷺ لهم في حضرته الشريفة بمنزلة التمرين العملي على النهوض بأداء القضاء على وجهه، وليشهدهم عليه الصلاة والسلام وهم يفصلون في الخصومات بين الناس - بعد أن شهدوه ﷺ يفصل فيها مرات ومرات - فيسددهم إن أخطأوا، ويقرهم إذا أصابوا، فكان ذلك تمرينا واختبارا لهم في آن واحد.

ومن الذين قضوا بعيدين عن حضرته الشريفة عليه الصلاة والسلام: علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل، وعتاب بن أسيد، وعمرو بن حزم الأنصاري وأبوموسى الأشعري رضي الله عنه، ولا يتسع المجال لذكر نماذج من أقضيتهم.

ويجب علينا ونحن نتحدث عن تاريخ القضاء في العهد النبوي، أن ننافح بالحق عن هذا الصحابي الجليل قاضي النبي ﷺ أبي موسى الأشعري رضي الله عنه، واسمه عبدالله بن قيس، ونعرف به بعض الشيء، فقد أشاع بعض الضعفة من أهل التاريخ والأدب والأخبار، ما يصوره كأنه من المغفلين البله، حتى أضاع الخلافة والحق من أهله، وجر على المسلمين ببلاهته - في زعمهم وحاشاه - الويلات والمآسي.

فنقول وبالله التوفيق:

إن رجلا اختاره رسول الله ﷺ سيد البشر والأنبياء والرسل، ليكون قاضيا وأميرا على قطر واسع عريض وهو اليمن، لا يمكن أن يكون كما زعمه أولئك الضعفة الغالطون، فإن هذا الذي زعموه ينقضه من أساسه - ولا أساس له - تولية

رسول الله ﷺ لأبي موسى على ذلك القطر السعيد بالإسلام الجديد، ورسول الله سيد الرجال وأعرفهم بأفضل الرجال فطانة وزكانة وحزما وعلما، وهو ﷺ محفوظ أن يضع الولاية والأمانة في غير موضعها، أو يكلها إلى غير أهلها، وهو الذي يقول كما روى البخاري في صحيحه: «إذا أسند الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة».



٢٥ مقالات

الشيخ محمد ناصر الدين الألباني

- ❏ **ترجمة الشيخ.**
- ❏ **المقالات:**

الأحاديث الضعيفة والقوية.

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديمسبر (١٩٧٠م).

ترجمة الشيخ

محمد ناصر الدين الألباني



● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ محمد ناصر الدين بن الحاج نوح الألباني عام **١٣٣٣** هـ الموافق **١٩١٤** م في مدينة أشقودرة عاصمة دولة ألبانيا - حينئذ - عن أسرة فقيرة متدينة يغلب عليها الطابع العلمي، فكان والده مرجعاً للناس يعلمهم ويرشدهم، ثم هاجر بصحبة والده إلى دمشق الشام للإقامة الدائمة فيها.

أتم العلامة الألباني دراسته الابتدائية في مدرسة الإسعاف الخيري في دمشق بتفوق، ثم وضع له والده منهجاً علمياً مركزاً قام من خلاله بتعليمه القرآن الكريم، والتجويد، والنحو والصرف، وفقه المذهب الحنفي، وقد ختم الألباني على يد والده حفظ القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم، كما درس على الشيخ سعيد البرهاني مراقي الفلاح في الفقه الحنفي وبعض كتب اللغة والبلاغة، هذا في الوقت الذي حرص فيه على حضور دروس وندوات العلامه بهجة البيطار.

أخذ عن أبيه مهنة إصلاح الساعات فأجادها حتى صار من أصحاب الشهرة فيها، وأخذ يتكسب رزقه منها، وقد وفرت له هذه المهنه وقتاً جيداً للمطالعة والدراسة.

أخذ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ بالتوجه نحو علم الحديث وعلومه، فتعلمه في نحو العشرين من عمره متأثراً بأبحاث مجلة المنار التي كان يصدرها الشيخ محمد رشيد رضا رَحِمَهُ ٱللَّهُ و كان أول عمل حديثي قام به هو نسخ كتاب «المغني عن حمل الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ العراقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ مع التعليق عليه.

وأصبح معروفاً بذلك في الأوساط العلمية بدمشق، حتى إن إدارة المكتبة الظاهرية بدمشق خصصت غرفة خاصة له ليقوم فيها بأبحاثه العلمية المفيدة، بالإضافة إلى منحه نسخة من مفتاح المكتبة حيث يدخلها وقت ما شاء، وقد بدأ الشيخ في التأليف وهو في العقد الثاني من عمره، وكان أول مؤلفاته الفقهية: كتاب «تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد» وفي الحديث أيضاً كتاب «الروض النضير في ترتيب وتخريج معجم الطبراني الصغير».

التقى الشيخ بعلماء دمشق وجرت بينه وبينهم مناقشات حول مسائل التوحيد والاتباع والتعصب المذهبي والبدع، فلقي الشيخ لذلك المعارضة الشديدة من بعضهم.

كان للشيخ رَحِمَهُ اللَّهُ العديد من الدروس العلمية التي كان يعقدها مرتين كل أسبوع، وكان يزور المحافظات السورية المختلفة، بالإضافة إلى بعض المناطق في المملكة الأردنية قبل استقراره فيها مؤخراً، مما أدى إلى سجنه غير مرة حقق خلالها مختصر صحيح مسلم للحافظ المنذري واجتمع مع شخصيات كبيرة في المعتقل.

- **أعماله وإنجازاته:**

لقد كان للشيخ جهود علمية وخدمات عديدة منها:

١. اختارته كلية الشريعة في جامعة دمشق ليقوم بتخريج أحاديث البيوع الخاصة بموسوعة الفقه الإسلامي.
٢. اختير عضواً في لجنة الحديث، التي شكلت في عهد الوحدة بين مصر وسوريا.
٣. اختير عضواً للمجلس الأعلى للجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة من عام ١٣٩٥هـ إلى ١٣٩٨هـ. حيث كان مدرساً فيها، وأوصى بمكتبته لطلابها.
٤. انتُدِب من الشيخ عبد العزيز بن باز رَحِمَهُ اللَّهُ للدعوة في مصر والمغرب وبريطانيا إلى التوحيد والاعتصام بالكتاب والسنة والمنهج الإسلامي الحق.

للشيخ مؤلفات عظيمة وتحقيقات قيمة، ربت على المئة، منها: «إرواء الغليل

في تخريج أحاديث منار السبيل، وسلسلة الأحاديث الصحيحة، سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة، وصفة صلاة النبي» وغيرها.

كما حصل على جائزة الملك فيصل العالمية للدراسات الإسلامية عام ١٤١٩هـ - ١٩٩٩م، تقديراً لجهوده القيمة في خدمة الحديث النبوي تخريجاً وتحقيقاً ودراسة.

قال العلامة ابن باز رَحِمَهُ ٱللَّهُ : «ما رأيت تحت أديم السماء عالما بالحديث في العصر الحديث مثل العلامة محمد ناصر الدين الألباني . . . هو مجدد هذا العصر في ظني والله أعلم».

● **وفاته**

توفي العلامة الألباني في الثاني والعشرين من جمادى الآخرة ١٤٢٠هـ، الموافق الثاني من أكتوبر ١٩٩٩م، وشيعه الآلاف ودفن بعد صلاة العشاء، رحمه الله وغفر له وللمسلمين.

الأحاديث الضعيفة والقوية

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

ومن المشاهد حقاً أن مثل هذا التعاون قائم إلى حد كبير بين المتخصصين، وإذا كان الأمر كذلك، فمن الواجب حينئذ أن يستعين كل متخصص بعلم ما، بعلوم غيره من ذوي التخصصات الأخرى حينما يكون هناك ارتباط وثيق بين علمه وعلومهم، وذلك ليكون على ثقة فيما يذهب إليه من فهم أو يصدره من حكم.

لا يخفى على أهل العلم أن من الواجب اليوم على كل من يريد أن يستقل في الفهم عن الله ورسوله، أن يكون على علم بقسم كبير من العلوم التي تساعده على ذلك، مثل أصول التفسير، والفقه، ومصطلح الحديث وما يتفرع منه من المعرفة بما صح من الحديث عن رسول الله ﷺ وما لم يصح، وأن يكون على جانب كبير من الثقافة والمعرفة باللغة العربية وآدابها.

بيد أن الواقع يشهد أن من النادر جداً، أن يكون الفرد متمكناً في كل علم من هذه العلوم وغيرها، متقناً إياها، كما لو كان متخصصاً في علم واحد منها، ولذلك فإن من البديهي أن نرى أهل العلم والعقل يتخصصون في علم واحد أو اثنين، مع المشاركة طبعاً في العلوم الأخرى الضرورية منها، فكان فيهم المفسر والمحدث، والفقيه والمؤرخ، واللغوي والأديب وغيرهم، مما هو معروف في العلوم الشرعية، فالمفسر مثلاً يستعين بالمحدث واللغوي، وهذا يستعين بالمفسر والمحدث، وهذا يستعين باللغوي والفقيه، وهذا يستعين بأولئك وغيرهم وهكذا، فكل قد أخذ حظه من الأجر والفضل باستعانة غيره به، والاستفادة من علمه وتخصصه.

غير أن أهل العلم بالحديث والتخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة

بصحيح الحديث وسقيمه، من القدامى منهم والمحدثين، كانوا أقل العلماء حظاً في الاستعانة بهم والاستفادة من علمهم، لاسيما في القرون المتأخرة كهذا الذي نحن فيه وما قبله من القرون الثلاثة بصورة خاصة، فقد انصرف العلماء فضلاً عن غيرهم عن العناية بهذا العلم وتدريسه دراسة تليق بجلاله وعظمته، حتى في المدارس الشرعية، بل إن بعض المدارس التي كانت مخصصة لتدريس الحديث فيها فيما قبل ذلك من القرون صارت اليوم خراباً يبابا، وبعضها تدرس فيها العلوم الشرعية، وأما الحديث فدراسته رمزية! ليس في أساتذتها متخصص في علم الحديث كدار الحديث بدمشق وغيرها!.

ومن المعلوم أن علم الحديث النبوي هو أوسع العلوم الشرعية قاطبة وأغزرها فائدة، وأكثرها اتصالاً وارتباطاً بالعلوم الأخرى، فما من مفسر أو فقيه أو مؤرخ أو لغوي إلا وهو بحاجة إليه، وإلى الاستعانة بالمتخصص فيه، والاعتماد عليه. ومع ذلك فالواقع أن القليل من المتخصصين في العلوم الأخرى من استفاد من علمهم وتحقيقهم، فكان من آثار ذلك انتشار الأحاديث الضعيفة والموضوعة والتي لا أصل لها بين المسلمين الخاصة منهم والعامة لا أستثني منهم خطيباً ولا مدرساً، ولا واعظاً ولا مرشداً، ولا كاتباً ولا محاضراً، إلا من شاء الله، وقليل ما هم. ذلك لأن ثقافتهم مستقاة من كتب - هي على اختلاف بحوثها ومواضيعها- جلها مشحونة بمثل تلك الأحاديث، لم يلتزم من ألفها هذا النهج العلمي من الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بها.

فكم من عارف بعلم الكلام - ولا أقول التوحيد - أودع في كتابه من الأحاديث هي عند أهل العلم موضوعة مكذوبة على رسول الله ﷺ لا تستحق أن تذكر في كتب الوعاظ والتصوف والرقائق، بله كتب العقائد والتوحيد والحقائق مثل حديث: «إن الله لما خلق العقل قال له: أقبل، فأقبل، ثم قال له أدبر، فأدبر، فقال: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أشرف منك، فبك آخذ، وبك أعطي»[(١)].

(١) انظر المقاصد الحسنة (رقم ٢٣٣) و(كاشف الخفا) (رقم ٧٢٣).

وكم من ماهر في علم أصول الفقه أقام أصلاً، أو قعد قاعدة على أساس حديث منكر أو موضوع عند المحققين كحديث معاذ: «بم تحكم؟ قال: بكتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي...» الحديث[١] و«اختلاف أمتي رحمة»[٢].

بل وكم من محدث مكثر حافظ، يحتج بأحاديث في الأحكام وغيرها من أبواب الشريعة هي - عند ذوي التخصص منهم بالجرح والتعديل والمعرفة بصحيح الحديث وسقيمه - إما ضعيفه أو موضوعة، كالأحاديث التي يصححها الحاكم وغيره من المتساهلين.

وكم من مفسر بارع تأول آية، أو ذكر سبب نزولها أو ساق قصة متعلقة بها، أو لمناسبة ما، اعتماداً على حديث لم يتثبت من صحته، هو عند أهله العارفين به ضعيف وموضوع، مثل حديث قصة الملكين هاروت وماروت، وارتكابهما عدة فواحش![٣]، وحديث قصة الغرانيق وأن الشيطان تكلم على لسان النبي ﷺ بآية مدح بها آلهة المشركين: «تلك الغرانيق العلى. وإن شفاعتهن لترتجى»! ولنا في بيان ضعفه وبطلانه رسالة بعنوان: «نصب المجانيق، لنسف قصة الغرانيق» وهي معروفة[٤].

وكم من فقيه جامع أوجب على الناس ما ليس بواجب. أو أسقط عنهم ما هو واجب، أو حرم عليهم، ما ليس بحرام، وأحل لهم ما ليس بحلال أو أبطل عليهم عبادة صحيحة، أو صحح لهم عبادة باطلة، أو سفك دماً محرماً، وحرم دماً مهدوراً، أو شرع لهم عبادة ليست مشروعة. كل ذلك لم يكن منهم عن هوى أو غرض حاشاهم، وإنما كان اعتمادا منهم على أحاديث توهموها ثابتة وليست

---

(١) تكلمت عليه في «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» ولما ينشر بعد ومحله منها قبيل المائة التاسعة.

(٢) انظر في السلسلة المذكورة برقم (٥٧).

(٣) قد بينت بطلانها وأنها من الإسرائيليات في السلسلة المتقدمة، فمن شاء الاطلاع فليرجع إليها رقم ١٧٠.

(٤) قام بطبعها المكتب الإسلامي بدمشق لصاحبه الأخ زهير شاويش.

كذلك، ولو أنهم رجعوا إلى أهل التخصص والمعرفة بالحديث لعلموا أنها ضعيفة أو موضوعة، لا يجوز تشريع شيء ما بها، ولو في حدود الندب والاستحباب، فكيف في التحريم والتحليل، والإبطال والإيجاب؟! والأمثلة على ما ذكرت كثيرة جداً تبلغ المئات بل الألوف.

وأما الصوفية وأمثالهم ممن ألف في علوم الدين، والأخلاق، والآداب والمواعظ، فحدث عن أحاديثهم، وما وقع فيها من الأباطيل ولا حرج وحسبك أن تطلع على كتاب «المغني عن حمل الأسفار في الأسفار في تخريج ما في الإحياء من الأخبار» للحافظ زين الدين العراقي، إنك إن فعلت ذلك فسترى ما هو أعجب وأعجب!!.

ولما كنا على أبواب حركة علمية واسعة النطاق، في شتى أنواع العلوم ومنها الفقه والتشريع الإسلامي، كان طبيعياً جداً أن يكتب كثير من العلماء والكتاب في مواضيع معينة من أبواب الفقه، وخصوصاً ما كان منها متعلقاً بالحقوق والقانون والاجتماع والاقتصاد.. وتلقى محاضرات كثيرة في مثل هذه المواضيع، وبعضهم شرع في تأليف كتب خاصة في الفقه الإسلامي أو فقه السنة جامعاً لجميع أو أكثر الأبواب الفقهية التي يحتاجها المسلم مبتدئين بـ«كتاب الطهارة»، ثم «الصلاة»، ثم «الزكاة» وهكذا إلى آخر الكتب التي جرى الفقهاء قديماً على نسقها.

ولكني رأيت أكثر هؤلاء العلماء والكتاب والمحاضرين، قد سرت إليهم عدوى من قبلهم من الفقهاء من ترك الاستعانة بأهل التخصص والمعرفة بالحديث، فلا تكاد تجد حديثاً واحداً في كل ما يكتبون من البحوث الخطيرة مخرجاً مصححاً أو مضعفاً على طريقة أهل الحديث، اللهم إلا قليلا منهم، وخيرهم صنعاً من يقول: «رواه فلان» ثم يسكت، ولا يبين درجته من الصحة أو الضعف، وهو قد يكون موضوعاً مكذوباً عند أهل الحديث! وقد أقام عليه من أشرنا إليهم علالي وقصوراً.

وإليك بعض الأمثلة:

١- قال بعض الأفاضل ممن ألف في فقه السنة:

«يحرم على الجنب أن يمكث في المسجد لحديث عائشة قالت: «جاء رسول الله ﷺ، ووجوه بيوت أصحابه شارعة في المسجد فقال: وجهوا هذه البيوت عن المسجد.. فإني لا أحل المسجد لحائض ولا لجنب». رواه أبو داود. وعن أم سلمة قالت: «دخل رسول الله ﷺ صرحة هذا المسجد فنادى بأعلى صوته: إن المسجد لا يحل لحائض ولا لجنب» رواه ابن ماجه والطبراني.

أقول: فقد حرم المكث في المسجد بناء على هذا الحديث، وأنا أعلم أنه ليس هو أول من فعل ذلك بل هو مقلد لبعض من سبق من الفقهاء، وما أوقعه في ذلك إلا عدم رجوعه إلى أهل التخصص في الحديث. ولو صنع لوجد قول البيهقي: «ليس بقوي». وقول عبد الحق الإشبيلي: «لا يثبت» وقول الخطابي: «ضعفه جماعة». ذكر هذا الإمام النووي في المجموع (شرح المهذب) (٢/ ١٦٠).

ثم إنه لو رجع إلى مصدر الحديث مباشرة ألا وهو أبو داود وابن ماجه، وكان من أهل العلم بتراجم الرواة وأحوالهم، لوجد أن مدار الحديث على جسرة بنت دجاجة، وقد قال البخاري فيها: «عندها عجائب»! وَلَمَا وقع في هذا الإيهام الفاحش وهو أن للحديث طريقين: أحدهما عن عائشة، والآخر عن أم سلمة، وحقيقة الأمر أن الطريق واحدة مدارها على جسرة هذه كما أشرت إليه آنفاً، غاية ما في الأمر، أن بعض الرواة اختلفوا في إسناده عن جسرة. فقال أحدهم: عنها عن عائشة. وقال آخر: عنها عن أم سلمة. فيتوهم من لم يرجع في الحديث إلى الأصول والأمهات أن للحديث طريقين، زد على ذلك أن هذا الاختلاف يعتبر عند أهل الحديث اضطراباً يزيد الحديث ضعفاً على ضعف، فكيف يجوز لعالم أن يحرم بمثله شيئاً؟!

وليس غرضي الآن تحقيق القول والإفاضة في بيان ضعف الحديث وما قيل فيه.

٢- وقال آخر من الأفاضل المشهورين والعلماء البارزين في رسالة له في «الحقوق العامة لأهل الذمة»:

«دم الذمي كدم المسلم، فإن قتل مسلم أحداً من أهل الذمة اقتص منه له، كما لو قتل مسلما»[١].

ثم استدل على ذلك بحديث ابن عمر عند الدارقطني أن رسول الله ﷺ قتل مسلماً بمعاهد وقال: أنا أكرم «وفي رواية: أحق» من وفى بذمته[٢].

مع أن هذا الحديث عند أهل المعرفة به ضعيف دون أي اختلاف بينهم، فقد ضعفه الطحاوي والدارقطني والبيهقي ونقل عن الإمام صالح بن محمد الحافظ أنه قال: «هو مرسل منكر».

ولو أن الفاضل المشار إليه استخرج الحديث بنفسه من «سنن الدارقطني» لوجود كلام الدارقطني عقبه صريحاً في تضعيفه إياه، وذلك قوله (ص٣٤٥): «لم يسنده غير إبراهيم بن أبي يحيى، وهو متروك الحديث، والصواب عن ربيعة عن ابن البيلماني مرسل عن النبي ﷺ، وابن البيلماني ضعيف لا تقوم به حجة إذا وصل الحديث، فكيف بما يرسله؟!».

وقد فصلت القول على هذا الحديث وذكرت طرقه وعللها ونصوص أهل العلم في تضعيفه في الجزء الخامس من «سلسلة الأحاديث الضعيفة والموضوعة» رقم (٤٦٠).

٣- وقال ثالث في «بحث الدور الفقهي الأول: عصر النبوة»، وقد ذكر طائفة من الأحاديث كأمثلة لجملة من الأصول والقواعد الكلية التي تركها ﷺ لأصحابه رضي الله عنهم، منها حديث: «الشفعة كحل العقال» ثم قال الفاضل المشار إليه: «فهذا الحديث مثلاً يصلح أساساً لفكرة مرور الزمن، وتحديد المدد للمطالبة ببعض الحقوق، ولاستعمال بعض الخيارات كخيار الرؤية والعيب، و...»[٣].

فلو أن المذكور رجع إلى بعض المتخصصين في الحديث والعارفين بصحيحه

---

(١) انظر «فقه السنة» للسيد سابق (ص ١١٧- ١١٨) الطبعة الأولى.

(٢) انظر كتاب «نظرية الإسلام وهديه» ص ٣٤١ للأستاذ المودودي.

(٣) انظر كتاب «المدخل الفقهي العام إلى الحقوق المدنية في البلاد السورية» (١/ ٦٧ و٦٨) الأستاذ الفاضل مصطفى الزرقا.

وضعيفه، لما جزم بنسبته إلى النبي ﷺ ولما اتخذه مثلاً للفكرة التي ذكرها، فقد قال أبو زرعة: «حديث منكر» وقال ابن حبان: «لا أصل له».

وأورده البيهقي في «السنن الكبرى» (٦/ ١٠٨) في جملة أحاديث ساقها بأسانيدها في: «باب رواية ألفاظ منكرة يذكرها بعض الفقهاء في مسائل الشفعة»!.

٤- حديث «أن النبي ﷺ قال في أهل الذمة: لهم مالنا وعليهم ما علينا».

لقد اعتدنا أن نسمع هذا الحديث من كثير من خطبائنا ومرشدينا ومحاضرينا، وهم يتكلمون عن حقوق أهل الذمة في الإسلام، جازمين بنسبته إلى النبي عليه الصلاة والسلام، حتى أصبح ذلك عقيدة راسخة في قلوب كثير من الدعاة المعروفين بالإصلاح والتجديد، فضلاً عن غيرهم من المسلمين الصالحين، فهذا أحد دعاتهم يصرح بمعنى ذلك في بيان أذاعه على الناس بمناسبة الجدل الذي قام حول محاولة بعض إخواننا الإسلاميين لإدخال دين الدولة الإسلام، في دستور سنة ١٩٥٠ فقال: «المواطنون متساوون في الحقوق، لا يحال بين مواطن وبين الوصول إلى أعلى مناصب الدولة بسبب الدين أو الجنس أو اللغة» يشير بهذا الكلام إلى هذا الحديث، والحديث المتقدم برقم (٢).

والواقع أن هذا الحديث لا أصل له عن النبي ﷺ بهذا السياق الذي اعتادوا ذكره، وإنما أورده هكذا بعض الفقهاء الذين لا علم عندهم بالسنن، فقلده من أشرنا إليهم، ثم أذاعوا الحديث على الناس ونشروه بينهم كتابةً ووعظا، دون أن يحاولوا الرجوع به إلى ذوي التخصص في الحديث ليكونوا على بينة من أمره، ولا ينسبوا إلى النبي ﷺ ما ليس من حديثه، بل هو معارض له أشد المعارضة، فقد ثبت عنه ﷺ أنه قال هذه الجملة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا» في الذين يسلمون من المشركين، ورد ذلك عنه ﷺ من حديث بريدة بن الحصيب وسلمان الفارسي وغيرهما.

٥- حديث «إذا صعد الخطيب المنبر، فلا صلاة ولا كلام».

وهو حديث متداول على ألسنة بعض الفقهاء ومسطور في غير ما كتاب فقهي، واشتهر على ألسنة الناس حتى توجت به بعض المنابر في بلادنا الشامية، ولا

أصل له عن رسول الله ﷺ بهذا اللفظ، بل إن معناه مخالفة لبعض الأحاديث الصحيحة كقوله ﷺ: «إذا جاء أحدكم يوم الجمعة والإمام يخطب فليركع ركعتين وليتجوز فيهما» أخرجه الإمام مسلم وغيره.

وقد بينت حال هذا الحديث، وما قاله أهل العلم فيه في (سلسلة الأحاديث الضعيفة) (رقم ٨٧) فليراجعه من شاء التحقيق.

ومن الأمثلة المتقدمة - وهي غيض من فيض - يتبين لكل عاقل أن الأحاديث الضعيفة مع الجهل بها هي من أكبر العوامل- إن لم أقل: هي أكبرها إطلاقاً- على حمل بعض المسلمين على الانحراف عن دينهم، انحرافاً أعتقد أنه أخطر ما أصيب به المسلمون من الانحرافات الكثيرة، ذلك لأنهم في اتباعهم إياها، وتمسكهم بها، يظنون أنهم إنما يتبعون كلام من أوجب الله عليهم اتباعه، والتسليم لكلامه، ووصفه بقوله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤)، وصدق الله، وأخطأ أولئك حين استسلموا لكل ما ينسب إليه ﷺ، من الأحاديث، ولم يتحروا ما صح منها مما لم يصح، مع علمهم ويقينهم بأنه ليس كل ما يعزى إليه ﷺ من الحديث صحيح ثابت عنه، فكان المفروض أن يكون هذا وحده كافياً ليحملهم على البحث والتنقيب وتطلب الحديث الصحيح، فكيف ورسول الله ﷺ قد أخبرهم فيما صح عنه أن بعض الناس سيكذبون عليه، في مثل قوله ﷺ: «إن كذبا علي، ليس ككذب على أحد، فمن كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» رواه مسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه، ثم حذرهم ﷺ من الاغترار بهؤلاء الكذابين والاعتماد على حديثهم فقال ﷺ: «يكون في آخر الزمان دجالون كذابون يأتونكم من الأحاديث بما لم تسمعوا أنتم ولا آباؤكم، لا يضلونكم ولا يفتنونكم». رواه مسلم أيضاً من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وإن من حرصه ﷺ على حديثه، وسلامته من أن يلوث بأحاديث الكذابين عليه أنه اعتبر الذين يروجون الأحاديث دون أن يتثبتوا من صحة نسبتها إليه ﷺ في حكم الكاذبين عليه، فقال ﷺ: «من حدث عني بحديث وهو يرى أنه كذب فهو

أحد الكاذبين».

وقال ﷺ: «كفى بالمرء كذباً أن يحدث بكل ما سمع» رواهما مسلم. وروي عن الإمام مالك رَحِمَهُ اللَّهُ أنه قال لابن وهب: «اعلم أنه ليس يسلم رجل حدث بكل ما سمع، ولا يكون إماماً أبداً وهو يحدث بكل ما سمع».

وعن عبد الرحمن بن مهدي قال: «لا يكون الرجل إماماً يقتدى به حتى يمسك عن بعض ما سمع».

ولذلك اتفق العلماء على أنه لا يجوز الاحتجاج بالحديث الضعيف في الأحكام[١] فضلاً عن العقائد، ذلك لأن الحديث الضعيف لا يفيد إلا الظن المرجوح والأخذ به مذموم بنص الكتاب والسنة، فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨) وقال ﷺ: «إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث» متفق عليه. وفي حديث آخر: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»[٢].

وإذا كان الأمر كذلك، فكان الواجب على الفقهاء الذين هم المرجع لعامة الناس في التعرف على أحكام الشريعة مفصلاً أن يكونوا أبعد الناس عن مخالفة هذه النصوص، ومناقضة ذلك الاتفاق الذي انعقد بأمثالهم من العلماء الذين قالوا به ذلك ما يقتضيه حسن الظن بهم وجلالة قدرهم.

ولكن الواقع يشهد - والأسف يملأ قلبي - أن جمهورهم على اختلاف مذاهبهم، قد امتلأت كتبهم بمئات الأحاديث الضعيفة والموضوعة، التي رتبوا عليها أحكاماً شرعية كثيرة على اختلاف أنواعها وخطورتها، مما سبق تفصيل القول في بعضها والتمثيل لها بأحاديث هم مصدرها والمستدلون بها، تبعهم على ذلك بعض المعاصرين!.

وهذا أمر يشهد به كل من له معرفة بعلم الحديث، وله اطلاع لا بأس به على

(١) انظر «المجموع شرح المهذب» للإمام النووي (١/ ٥٩) و«الأجوبة الفاضلة» لأبي الحسنات للكنوي ص(٥٦).

(٢) انظر مقدمة (صفة الصلاة ص ٧ الطبعة الثالثة).

الكتب الفقهية المبسوطة في المذاهب الأربعة، ومن أجل ذلك وضع جماعة من أئمة الحديث على بعض الأمهات منها كتب التجريحات المعروفة[١]. وألف ابن الجوزي الحنبلي كتابه «التحقيق في مسائل التعليق» وذكر في مقدمته الحامل له على تأليفه فقال: «كان السبب في إثارة العزم لتصنيف هذا الكتاب أن جماعة من إخواني ومشايخي في الفقه، كانوا يسألوني في زمن الصبا جمع أحاديث التعليق، وبيان ما صح منها، وما طعن فيه، وكنت أتوانى عن هذا لسببين:

أحدهما: اشتغالي بالطلب.

والثاني: ظني أن ما في التعاليق من ذلك يكفي، فلما نظرت في التعاليق رأيت بضاعة أكثر الفقهاء في الحديث مزجاة، يعول أكثرهم على أحاديث لا تصح، ويعرض عن الصحاح ويقلد بعضهم بعضا فيما ينقل. ثم قد انقسم المتأخرون ثلاثة أقسام:

القسم الأول: قوم غلب عليهم الكسل، ورأوا أن في البحث تعباً، وكلفة، فتعجلوا الراحة، واقتنعوا بما سطره غيرهم.

والقسم الثاني: قوم لم يهتدوا إلى أمكنة الأحاديث، وعلموا أن لا بد من سؤال من يعلم هذا، فاستنكفوا عن ذلك!.

والقسم الثالث: قوم مقصودهم التوسع في الكلام طلباً للتقدم والرياسة، واشتغالهم بالجدل والقياس، ولا التفات لهم إلى الحديث لا إلى تصحيحه، ولا إلى الطعن فيه.

وليس هذا شأن من استظهر لدينه، وطلب الوثيقة في أمره.

ولقد رأيت بعض الأكابر من الفقهاء يقول في تصنيفه عن ألفاظ قد أخرجت في الصحاح: «لا يجوز أن يكون رسول الله ﷺ قال هذه الألفاظ»! ويرد الحديث الصحيح، ويقول: «هذا لا يعرف»! وإنما هو لا يعرفه، ثم رأيته قد استدل بحديث زعم أن البخاري أخرجه: وليس كذلك ثم نقله عن مصنف آخر كما قال

---

(١) انظر مقدمة «صفة صلاة النبي ﷺ» (ص٤-٥) و«الرسالة المستطرفة» للكتاني (ص١٤١-١٤٢).

تقليداً له، ثم استدل في مسألة فقال: «دليلنا ما روى بعضهم أن النبي ﷺ قال كذا»! ورأيت مشايخنا يقولون في تصانيفهم: «دليلنا ما روى أبو بكر الخلال بإسناده عن رسول الله ﷺ»، و«دليلنا ما روى أبو بكر عبد العزيز بإسناده».

و«دليلنا ما روى ابن بطة بإسناده»، وجمهور تلك الأحاديث في «الصحاح»، وفي «المسند» وفي «السنن» غير أن السبب في اقتناعهم بهذا، التكاسل عن البحث. والعجب ممن ليس له شغل سوى مسائل الخلاف، ثم قد اقتصر منها في المناظرة على خمسين مسألة، وجمهور هذه الخمسين لا يستدل فيها بحديث! فما قدر الباقي حتى يتكاسل عن المبالغة في معرفته؟!.

وألوم عندي ممن قدمته من الفقهاء، جماعة من كبار المحدثين عرفوا صحيح النقل وسقيمه، وصنفوا في ذلك، فإذا جاء حديث ضعيف يخالف مذهبهم بينوا وجه الطعن فيه، وإن كان موافقاً لمذهبهم سكتوا عن الطعن فيه.

وهذا ينبئ عن قلة دين، وغلبة هوى «ثم روى بسنده عن الدارقطني وهذا بسنده عن وكيع أنه قال: أهل العلم يكتبون ما لهم وما عليهم، وأهل الأهواء لا يكتبون إلا ما لهم»[1].

قلت: ومن المؤسف أن الوصف الذي ذكره ابن الجوزي ينطبق تماماً على رجلين كبيرين، أحدهما شافعي المذهب وهو الإمام البيهقي، والآخر حنفيه وهو علاء الدين ابن التركماني، وذلك ظاهر في كتاب الأول منهما «السنن الكبرى»، وفي كتاب الآخر «الجوهر النقي في الرد على البيهقي»، بل إن ابن الجوزي نفسه لم ينج من هذا البلاء.

وأعتقد أن السبب في ذلك، إنما هو التعصب لمذهب معين، فذلك هو الذي يحمل البعض على السكوت عن الحديث الضعيف إذا كان له، ويسارع إلى الكشف عن علته إذا كان عليه، بل إن بعضهم، قد يصحح الضعيف، ويضعف

---

(١) رواه الدارقطني في سننه ص١٠، وفيه إبراهيم بن عبد الله بن محمد بن سالم السلولي أبو سالم عن أبيه عن وكيع، ولم أر من ترجمه هو وأبوه. وقع في «التحقيق» «السكوني» بدل «السلولي»، ولم يورده السمعاني فيهما.

الصحيح حمية لمذهبه، فلو لم يكن للتعصب من شؤم إلا هذا لكفى. . فالحمد لله الذي عافانا من العصبية المذهبية، ورزقنا التمسك بالسنة المحمدية فقط دون غيرها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في «منهاج السنة النبوية في نقض كلام الشيعة القدرية» (ج٤ ص١٠):

«قاعدة: المنقولات فيها كثير من الصدق، وكثير من الكذب، والمرجع في التمييز بين هذا وهذا، إلى علم الحديث، كما نرجع إلى النحاة في الفرق بين نحو العرب، ونحو غير العرب، ونرجع إلى علماء اللغة فيما هو من اللغة، وما ليس من اللغة، وكذلك علماء الشعر والطب وغير ذلك، فلكل علم رجال يعرفون به، والعلماء بالحديث أجل قدراً من هؤلاء، وأعظمهم صدقاً، وأعلاهم منزلة، وأكثر دينا، وهم من أعظم الناس صدقاً وأمانة وعلما وخبرة فيما يذكرونه من الجرح والتعديل، مثل مالك وشعبة وسفيان ويحيى بن سعيد والشافعي وأحمد. . .و. . . البخاري ومسلم وأبي داود. . . وابن عدي وأبي حاتم البستي والدارقطني وأمثال هؤلاء خلق كثير لا يحصى عددهم من أهل العلم بالرجال والجرح والتعديل، وإن كان بعضهم أعلم بذلك من بعض، وبعضهم أعدل من بعض في وزن كلامه كما أن الناس في سائر العلوم كذلك. «قال: وهذا علم عظيم من أعظم علوم الإسلام (ص ١١): «والإسناد من خصائص هذه الأمة، وهو من خصائص الإسلام، ثم هو في الإسلام من خصائص أهل السنة» ثم قال (ص١٢):

«فالأصل في النقل أن يرجع فيه إلى أئمة النقل وعلمائه، ومن يشركهم في علمهم، وأن يستدل على الصحة والضعف بدليل مفصل عن الرواية فلا بد من هذا وهذا، وإلا فمجرد قول القائل: (رواه فلان) «لا يحتج به لا أهل السنة؟ ولا الشيعة، وليس في المسلمين من يحتج بكل حديث رواه كل مصنف» ثم قال في فصل آخر (٤/ ١١٥):

«وقد يكون الرجل صادقاً كثير الحديث، كثير الرواية فيه، لكن ليس من

أهل العناية بصحيحه وسقيمه، فهذا يستفاد منه نقله، فإنه صادق ضابط، وأما المعرفة بصحيحه وسقيمه، فهذا علم آخر، وقد يكون مع ذلك فقيها مجتهداً، وقد يكون صالحاً من خيار المسلمين، وليس له كثير معرفة، لكن هؤلاء وإن تفاضلوا في العلم، فلا يروج عليهم من الكذب ما يروج على من لم يكن له علم، فكل من كان بالرسول أعرف، كان تمييزه بين الصدق والكذب أتم. فقد يروج على أهل التفسير والفقه والزهد والنظر أحاديث كثيرة، إما يصدقون بها، وإما يجوزون صدقها، وتكون معلومة الكذب عند علماء الحديث، وقد يصدق بعض هؤلاء بما يكون كذباً عند أهل المعرفة مثل ما يروي طائفة من الفقهاء، حديث: «لا تفعلي يا حميراء فإنه يورث البرص» وحديث «زكاة الأرض يبسها»، وحديث... وحديث... إلى أمثال ذلك من الأحاديث التي يصدق بعضها طائفة من الفقهاء، ويبنون عليها الحلال والحرام، وأهل العلم بالحديث متفقون على أنها كذب على رسول الله ﷺ موضوعة، وكذلك أهل العلم من الفقهاء يعلمون ذلك».

وقال العلامة محمد بن عبد الهادي بعد أن نقل قول ابن تيمية: (فقد يروج..):

«وهذه الأحاديث التي ذكرها، منها ما لا يعرف له إسناد ولا أصل كحديث: «زكاة الأرض يبسها» ومنها ما هو موضوع، وما هو ضعيف الإسناد كحديث «لا تفعلي يا حميراء» رواه الدارقطني وابن عدي وغيرهما وهو موضوع، وحديث «نهى عن بيع وشرط» رواه البيهقي بإسناد ضعيف... ثم قال ابن عبد الهادي: «ويشبه ما ذكره شيخنا من هذه الأحاديث ما يذكره بعض الفقهاء والأصوليين، أو المحدثين محتجاً به أو غير محتج به، مما ليس له إسناد، أو إسناد، ولا يحتج بمثله النقاد من أهل العلم كحديث «النهي عن بيع الكالئ بالكالئ» وحديث.. وحديث..». ثم ختم ذلك بقوله:

«واعلم أن غالب هذه الأحاديث مروية بالأسانيد، ومنها ما لا يعرف له إسناد أصلاً، وهي على أقسام: فمنها ما هو موضوع على رسول الله ﷺ بيقين، ومنها

ما يشك في وضعه، ومنها ما إسناده ضعيف، ومنها ما قد يحسنه بعض الأئمة، والله الموفق للصواب»[١].

وقال العلامة ابن الحسنات اللكنوي في «الأجوبة الفاضلة» (ص٢٩-٣٠) بعد أن ذكر أصنافاً من الوضاعين، منهم من وضعوا أحاديث في الأحكام، وتقولوا بالحلال والحرام:

«ومن هنا نصوا على أنه لا عبرة للأحاديث المنقولة في الكتب المبسوطة ما لم يظهر سندها، أو يعلم اعتماد أرباب الحديث عليها، وإن كان مصنفها فقيها جليلاً، يعتمد عليه في نقل الأحكام، وحكم الحلال والحرام، ألا ترى إلى صاحب «الهداية» من أجلة الحنفية، والرافعي شارح الوجيز من أجلة الشافعية - مع كونهما ممن يشار إليه بالأنامل، ويعتمد عليه الأماجد والأماثل- قد ذكرا في تصانيفهما ما لا يوجد له أثر عند خبير بالحديث يستفسر، كما لا يخفى على من طالع «تخريج أحاديث الهداية» للزيلعي، و«تخريج أحاديث شرح الرافعي» لابن حجر العسقلاني. وإذا كان حال هؤلاء الأجلة هذا، فما بالك بغيرهم من الفقهاء الذين يتساهلون في إيراد الأخبار، ولا يتعمقون في سند الآثار؟

ولذا قال علي القاري في «رسالة الموضوعات»: حديث «من قضى صلاة من الفرائض في آخر حجته في رمضان كان ذلك جابراً لكل صلاة فاتته في عمره إلى سبعين سنة» باطل قطعاً، ولا عبرة بنقل صاحب «النهاية»، وغيره من بقية شراح «الهداية» فإنهم ليسوا من المحدثين، ولا أسندوا الحديث إلى أحد من المخرجين. انتهى.

وقال السيوطي في «مرقاة الصعود إلى سنن أبي داود» تحت حديث «نهى رسول الله ﷺ أن يتمشط أحدنا كل يوم» فإن قلت: نقل أنه ﷺ «كان يسرح لحيته كل يوم مرتين» قلت: لم أقف على هذا بإسناد، ولم أر من ذكره إلا الغزالي في

---

(١) نقلته من مجموع بخط محمد بن أبي بكر بن عبد الرحمن بن زريق، فيه عدة كتب منها فصل قال: رأيته بخط الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الهادي رحمه الله تعالى في أثناء كلام له وهو محفوظ في المكتبة الظاهرية برقم (٤٠٥ حديث).

«الإحياء» ولا يخفى ما فيه من الأحاديث التي لا أصل لها انتهى.

وقال اللكنوي في كتابه الآخر «النافع الكبير لمن يطالع الجامع الصغير» (ص١٢٢- ١٢٣) بعد أن ذكر مراتب كتب الفقه الحنفي، وما يعتمد عليه منها وما لا يعتمد:

«كل ما ذكرنا من ترتيب المصنفات، إنما هو بحسب المسائل الفقهية وأما بحسب ما فيه من الأحاديث النبوية فلا، فكم من كتاب معتمد، اعتمد عليه أجلة الفقهاء مملوء من الأحاديث الموضوعة، ولا سيما الفتاوى، فقد وضح لنا بتوسيع النظر، أن أصحابها وإن كانوا من الكاملين، لكنهم في نقل الأخبار من المتساهلين».

ثم قال اللكنوي في الكتاب الأول (ص ٣٥): «فإن قلت: فما بالهم أوردوا في تصانيفهم الأحاديث الموضوعة مع جلالتهم ونباهتهم؟ ولم لم ينقدوا الأسانيد مع سعة علمهم؟ قلت: لم يوردوا ما أوردوا مع العلم بكونه موضوعاً، بل ظنوه مروياً، وأحالوا نقد الأسانيد على نقاد الحديث، لكونهم أغنوهم عن الكشف الحثيث، إذ ليس من وظيفتهم البحث عن كيفية رواية الأخبار، إنما هو من وظيفة حملة الآثار، فلكل مقام مقال، ولكل فن رجال».

قلت: وفي جوابه رَحِمَهُ ٱللَّهُ نظر كبير وتسامح ظاهر، فإن كون نقد الأحاديث ليس من وظيفة الفقهاء، فذلك لا يسوغ لهم مطلقاً أن يوردوها محتجين بها، ومؤيدين بها مئات الفروع المذهبية، وهذا معناه أحد شيئين:

إما أنهم يرون صحتها، فلذلك احتجوا بها، وهذا بعيد لأن شهادة الأئمة المتخصصين ترد ذلك.

وإما أنهم لا يعلمون صحتها ومع ذلك استدلوا بها، وهذا هو الذي نعتقده، وهم على هذا متساهلون كما صرح اللكنوي فيما تقدم، فلعل الله عَزَّوَجَلَّ يغفر ذلك لهم لخدمتهم للشرع بعلم الفقه، وإن كان تساهلهم هذا له آثاره السيئة من نشر الأحاديث الضعيفة والموضوعة بين طلاب الفقه، حتى صار من الصعب إقناعهم بضعفها وصرفهم عنها إلى الأحاديث الصحيحة لثقتهم العمياء بمن أوردها من

الفقهاء، وتوهمهم أنهم كانوا على معرفة تامة بالأحاديث صحيحها وسقيمها وأنهم لم يوردوا إلا ما صح منها!، ويصرح بعض غلاتهم بقولهم: «كل فقيه محدث، وليس كل محدث فقيها» وجهلوا أو تجاهلوا قول الرجل الحكيم: «ولكل فن رجال»[١].

ونحن بعد هذا، لا نريد من فقهائنا اليوم، أن يصير كل واحد منهم محدثاً، إلى جانب كونه فقيهاً، يستطيع حين يتطلب الأمر أن يستخرج الحديث من مصادره وأصوله القريبة منها والبعيدة، وأن يحكم عليه بالصحة أو الضعف، ليس ذلك تقليداً منه لغيره، بل بدراسته بنفسه لإسناده، وبمعرفته لرواته، وتتبعه لعلله، كلا.. لا نريد منهم هذا، فإنه شيء صعب حقاً، ولم لا؟ وأكثرهم لم يدرسوا من علم الحديث إلا ما يعرف اليوم بـ«مصطلح الحديث» دراسة سطحية نظرية لم يقترن منها تطبيق عملي، على نحو دراستهم سائر العلوم الأخرى مثل «الفيزياء» و«الكمياء» وغيرها من العلوم التي إذا لم ينضم إليها دراسة تطبيقية، فسرعان ما ستتبخر من أذهانهم بعد انتهائهم من الدراسة وحصولهم على الشهادة!

وإنما نريد من فقهائنا اليوم شيئاً وهو سهل على من سهل الله له: أن يعتبروا بصنيع من قبلهم، فلا يحتجوا بالأحاديث الضعيفة لإثبات أي حكم شرعي وأن يتعرفوا عليها بالرجوع إلى أهل التخصص والمعرفة بها من المحدثين، وهؤلاء لهم كتب كثيرة معروفة في تخريج بعض الكتب الفقهية، ولهم كتب أخرى متنوعة تساعد الفقهاء على تمييز الحديث الصحيح من الضعيف وبذلك يصح اعتبارهم ويكون فقههم نافعاً صالحاً مشكوراً.

* * *

(١) للشيخ الفاضل عبدالوهاب عبد اللطيف المدرس بكلية الشريعة في الأزهر مقدمة على «المقاصد الحسنة» وأخرى على «تنزيه الشريعة» كاد أن يحيط فيها بالكتب المؤلفة في الأحاديث الضعيفة والموضوعة، والمشتهرة على الألسنة، مع التنبيه على المطبوع منها، فليرجع إليهما.

٢٦

مقالات

الشيخ محمد سليمان الأشقر

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- منزلة العبادة.

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

٢- رحلة الفهرسة عبر تاريخنا.

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

ترجمة الشيخ

الشيخ محمد سليمان الأشقر

● **مولده ونشأته:**

هو محمد بن سليمان بن عبد الله بن محمد (وهو الأشقر) بن سليمان، من أهالي قرية برقة من قرى نابلس بفلسطين، ولد في ١٦ من أيلول سنة ١٩٣٠ م، ونشأ في كنف والده الأمي الذي حرص على تعليمه وحمله على مكارم الأخلاق.



التحق بالمدرسة الابتدائية في قريته، وتخرج منها عام ١٩٤٤م ثم التحق بالدراسة الثانوية بنابلس، ثم ذهب بعدها إلى المملكة العربية السعودية فعمل في التدريس، ثم في التجارة بالرياض وفي سنة ١٣٧١ أسند إليه أمانة مكتبة دار الإفتاء في معهد الرياض الديني الثانوي.

ثم التحق بالكلية الشرعية في الرياض إلى أن تخرج منها سنة ١٣٧٦هـ في الفوج الأول من خريجيها.

وقد أخذ فيها العلم عن مشايخ أجلاء منهم: «الشيخ محمد أمين الشنقيطي، الشيخ عبد العزيز بن باز، الشيخ عبد العزيز بن رشيد، الشيخ عبدالرحمن الإفريقي، الشيخ عبد اللطيف سرحان».

درَّس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وبقي فيها سنتين، وسافر بعدها إلى الكويت، وأسندت إليه أمانة مكتبة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية على

مدى اثني عشر عاماً، حصل في أثناء ذلك عل درجتي الماجستير والدكتوراه من كلية الشريعة بجامعة الأزهر.

وعمل باحثاً في الموسوعة الفقهية، وشارك في لجنة الفتوى الشرعية كعضو من أعضائها.

● مؤلفاته

له العديد من المؤلفات منها: «الواضح في أصول الفقه للمبتدئين، زبدة التفسير من فتح القدير، نفحة العبير من زبدة التفسير، الفتيا ومناهج الإفتاء، كيف تدخل في الإسلام، معجم علوم اللغة العربية، المجلّى في الفقه الحنبلي، أبحاث فقهية في قضايا الزكاة المعاصرة، تحقيق كتاب نيل المآرب شرح دليل الطالب». وغيرها كثير.

● وفاته

توفي يوم الأحد ٢٨ من ذي القعدة ١٤٣٠هـ - ١٥-١١-٢٠٠٩م رحمه الله رحمة واسعة وأسكنه فسيح جناته.

منزلة العبادة في المسجد الحَرام والمسجد النبوي

العدد (٧١) ذو القعدة (١٣٩٠هـ) - ديسمبر (١٩٧٠م).

تتبين منزلة المسجد الحرام بين المساجد المبنية لله، لمن يعلم:

(١) أنه أول مسجد في الأرض بني لعبادة الله.

(٢) وأنه قبلة الصلاة والدعاء والدفن للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها مع اقتران ذلك بأن الإسلام ناسخ لما قبله من الشرائع.

(٣) وأنه مخصوص بمزيد من العناية الإلهية ﴿وَمَن يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُّذِقْهُ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٥﴾﴾ (الحج: ٢٥).

(٤) وأن الحج إليه ركن من أركان الإسلام.

(٥) وأن الصلاة فيه مأجورة بمائة ألف صلاة فيما سواه.

(٦) وأن من دخله كان آمناً رعاية لحرمة الله وتعظيماً لجنابه.

(٧) وأن الوحش والطير يأمن فيه مما يؤذيه، بأمر الله الشرعي فيسرح ويمرح في جواره آمناً. وكذلك النبات.

(٨) وأن إشراع السلاح فيه للقتال ممنوع ولو على الكافر إلا دفاعاً عن النفس.

(٩) أنه يحرم السماح للكافر بدخوله لأن الكافر نجس، والبيت مطهر.

(١٠) وأن حرمه يستوي فيه العاكف والبادي من المسلمين. أي المقيم والغريب يستويان في حقوق الإقامة فيه.

(١١) وأنه لا تشد الرحال إلى مسجد من المساجد أو مكان من الأمكنة بقصد زيارته والعبادة فيه، ما عدا هذا المسجد والمسجد النبوي والمسجد الأقصى.

(١٢) وأن تأسيسه كان على يد إبراهيم خليل الله وإسماعيل الذبيح وفيه مقام

إبراهيم والحجر الأسود.

(١٣) وأن فيه عبادة لا تصلح في مكان آخر وهي الطواف والسعي. **وبعض هذه الميزات ناشئ من بعض.**

١- أما الميزة الأولى، فقد قال الله تعالى ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾﴾ (آل عمران: ٩٦). وقال أبو ذر للنبي ﷺ: أي مسجد في الأرض وضع أول؟ قال: «المسجد الحرام» قلت: ثم أي؟ قال: «المسجد الأقصى» قلت كم بينهما؟ قال: «أربعون سنة» رواه البخاري ومسلم (ابن كثير، التفسير، سورة آل عمران/ ٩٦) وأوضح ما قيل في تفسير ذلك أن إبراهيم بنى البيت الحرام، ويعقوب بنى المسجد الأقصى، ويعقوب حفيد إبراهيم فالمدة بينهما قريبة.

٢- وأما القبلة فيقول الله ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ (البقرة: ١٤٤).

٤- وأما الحج فبقول الله تعالى ﴿وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ﴾ (آل عمران: ٩٧) مع قول النبي ﷺ «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وحج البيت وصوم رمضان» (رواه البخاري ومسلم).

٥- وأما مضاعفة الصلاة فيه فتأتي في أواخر هذا البحث.

٦، ٧، ٨- وأما الأمن فيه للبشر والحيوان والنبات فلقول الله تعالى ﴿وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ﴾ (آل عمران: ٩٧) وقوله ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ﴾ (البقرة: ١٩١). وقوله ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا جَعَلْنَا حَرَمًا ءَامِنًا وَيُتَخَطَّفُ ٱلنَّاسُ مِنْ حَوْلِهِمْ ۚ﴾ (العنكبوت: ٦٧). مع قول النبي ﷺ: «مكة حرمها الله تعالى ولم يحرمها الناس فلا يحل لامرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك بها دما أو يعضد بها شجرة «وفي لفظة» «ولا يصاد صيدها».

٩- ومنع المشركين من دخوله لقول الله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟

ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَاۚ﴾ (التوبة: ٢٨).

١٠- وأما استواء المواطن والغريب في حقوق الإقامة فيه، فلقول الله تعالى﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ٱلَّذِى جَعَلْنَٰهُ لِلنَّاسِ سَوَآءً ٱلْعَٰكِفُ فِيهِ وَٱلْبَادِۚ﴾ (الحج: ٢٥).

١١- وأما جواز شد الرحال إليه وإلى المسجدين النبوي والأقصى للعبادة دون المساجد الأخرى فلقول النبي ﷺ «لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى» (رواه البخاري ومسلم).

١٢، ١٣- وأما تأسيسه على يدي إبراهيم خليل الله وإسماعيل الذبيح بأمر الله، والطواف فيه والسعي فلقول الله ﴿وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ (البقرة: ١٢٥) ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ (البقرة: ١٢٧).

هذا وإنما ذكرت من الأدلة أصرحها ولم أقصد الحصر.

● **تحديد معنى «المسجد الحرام»:**

باستقراء مواضع ورود هذا اللفظ في الكتاب والسنة نجده :

(١) أحياناً يعني به «الكعبة» فقط دون ما حولها.

(٢) وأحياناً يعني به «الكعبة وما حولها مما هو مهيأ ومعد للصلاة فيه» فقط دون ما حول ذلك من أرض مكة وحرمها.

(٣) وأحياناً يعني به «مكة كلها وما حولها من حرمها».

(٤) وأحياناً أخرى يدور اللفظ بين هذه المعاني الثلاثة.

مثال الأول: قول الله تعالى ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِۚ﴾ (البقرة: ١٤٤)، مع قول ابن عباس عن الكعبة «البيت كله قبلة».

٢- ومما عني به مسجد الصلاة المحيط بالكعبة قوله تعالى ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ ٱلْحَآجِّ وَعِمَارَةَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (التوبة: ١٩) وقوله تعالى ﴿وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِۖ﴾ (البقرة: ١٩١) فليس المقصود به كل الحرم المكي. وإلا لقال: «ولا تقاتلوهم في المسجد الحرام».

٣- ومما عني به «الحرم المكي كله» قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١). على رواية من روى أن النبي ﷺ كان ليلة الإسراء يبيت في بيت ابنة عمه أم هانئ بنت أبي طالب. وهو طبعاً خارج مكان الصلاة.

وغالب ما ورد من ذكر «المسجد الحرام» دائر بين هذه المعاني الثلاثة دون تحديد ومثال ذلك ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (الحج: ٢٥) وكل مكة وعمرانها ومساكنها إنما أنشئت وتوسعت وتتوسع لأجل الكعبة والصلاة فيها وخدمتها وخدمة ضيوفها. وهي حريم «البيت الحرام» أي فناؤه الملحق به الآخذ حكمه كما أن لكل بيت «حريما». ولذلك لولا «الكعبة» لم تكن «مكة» فما أحراها إذن بهذه التسمية «المسجد الحرام».

- **انطباق أحكام المسجد الحرام على المعاني الثلاثة:**

(١) هناك أحكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه مسجداً، فهي تنطبق على المكان المعد للصلاة حول الكعبة ولا تنطبق على باقي أجزاء مكة وما حولها. وذلك كتحريم البيع والشراء في المسجد. وتحريم قضاء الحاجة في المسجد. وتحريم إنشاد الضالة في المسجد. ووجود المصلين المقتدين بإمام صلاة الجماعة في المسجد. ونحو ذلك.

(٢) وهناك أحكام تتعلق بالمسجد الحرام من ناحية كونه محرماً بأمر الله، وأن تعظيمه يبتغى به وجه الله، فهذه تنطبق على مكة وما حولها. وذلك كأمن الداخل في الحرم وأمن حيوانه ونباته، وتحريم أخذ اللقطة فيه. ومضاعفة العقوبة لمن ألحد فيه واتخذه مكاناً للمعصية، أو صد الناس عن القدوم إليه وأعاقهم عن ذلك. وحرمان المشركين من دخول المسجد الحرام واستواء الغريب والمواطن في حقوق الإقامة فيه.

(٣) وهنالك أحكام تدور بين الناحيتين السابقتين وذلك كما ورد في الحديث «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه إلا المسجد الحرام» رواه البخاري/ ك. ٢ب ١ ومسلم. وفي لفظ في غير الصحيحين «وصلاة في المسجد

الحرام خير من مائة صلاة في هذا» فهل الصلاة في بيوت مكة وسائر بقاع الحرم مأجورة بمائة ألف صلاة في المواضع الأخرى؟

فقيل[(١)] إن ذلك الفضل في الصلاة هو لكل مكة وحرمها. وممن قال بذلك عطاء بن أبي رباح رواه عنه الطيالسي كما ذكره في فتح الباري. وقدمه ابن حجر في الفتح وصححه النووي (فتح الباري ك. ٢ ب ١).

وقيل إن ذلك الفضل خاص بالموضع الذي يصلى فيه دون البيوت وغيرها من أجزاء الحرم. وقد قرره المحب الطبري، واحتج له بقول النبي ﷺ «صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه» فجعل الفضل لنفس المسجد لا لكل المدينة، فينبغي أن يكون الأمر بمكة كذلك.

والذي جنح إليه ابن حجر مذهب حسن، وخلاصته:

١- أن صلاة الفرض بالمسجد في مكة أفضل من صلاة الفرض في بيوتها وفي غير حرمها.

٢- وأن صلاة النافلة في بيوت مكة أفضل من صلاتها في المسجد الحرام.

٣- وأن صلاة النافلة في بيوت مكة أفضل من النافلة في البيوت في غير مكة.

وكان ذلك جمعاً منه بين الحديث المشار إليه «صلاة في مسجدي هذا... الخ» والحديث الآخر «خير صلاة المرء في بيته إلا المكتوبة».

● حكم الزيادات في المسجد النبوي

أما الزيادات في المسجد النبوي فهل تعتبر من المسجد النبوي في حكم المضاعفة فيه.

---

(١) هذا بخلاف لفظ «الكعبة» «والبيت الحرام» فهما لفظان خاصان بالبنية التي يطاف حولها. وبخلاف لفظ «الحرم» فإن المقصود به مكة كلها وما حولها إلى «الأميال» المعروفة.
ومما يجدر التنبه له أن بعض الناس إذا كان بمكة يقول دخلت «الحرم» يعني به دخوله «المسجد». وهذا استعمال غير سديد. كما أن بعض الناس يطلق لفظ «الحرم» على مساجد أخرى فيقول «حرم الأقصى»، أو «الحرم الزينبي» أو غير ذلك، وهذا أيضاً خطأ، فإن إبراهيم حرم مكة، ومحمداً ﷺ حرم المدينة، فهما الحرمان الوحيدان في الإسلام يحرم صيدهما ونباتهما.

نقل ابن حجر عن النووي أنه قال: ينبغي أن يحرص المصلي على الصلاة في الموضع الذي كان في زمانه ﷺ دون ما زيد فيه بعده، لأن التضعيف إنما ورد في مسجده، وقد أكده بقوله «هذا». هذا قول النووي. ونقل مثله عن أبي الوفاء ابن عقيل الحنبلي. والذي يظهر لي غير هذا - والله أعلم - لما يلي:

إن ميزة المسجد النبوي إنما جاءت، والله أعلم، من كونه أسس على التقوى على يدي نبي كريم كما أن مسجد مكة أسس على يدي إبراهيم وإسماعيل كما ذكر الله عنهما أنهما بوآ لهما مكان البيت، وأمرهما برفع بنيانه، وتطهيره من الشرك، ليعبد الله فيه. فلما كانت الإضافات في مسجد مكة تابعة في الحكم للمسجد الأصلي لأنها تؤدي نفس الغرض، فكذلك ينبغي أن يكون الأمر بالمدينة.

وأما قول النبي ﷺ «صلاة في مسجدي هذا» وتأكيده بقوله «هذا» فيظهر والله أعلم أن كلمة «هذا» لم يقصد بها نفي مضاعفة الأجر في الإضافات الحادثة، ولكن لئلا يظن أن المقصود كل مسجد بناه النبي ﷺ كمسجد قباء ومسجد الفتح وغير ذلك. فأما الإضافات فهي من المسجد قطعاً، بدليل أنه لو صلى رجل فيها ثم أقسم بالله أنه صلى في المسجد النبوي لكان قسمه صادقاً. وبهذا يتضح ما في قول النووي من التناقض لتفرقته بين المسجدين النبوي والحرام في أمر واحد، شمله حديث واحد.

ومهما قيل في الإضافات في المسجد النبوي فلا ينبغي أن يغفل عن أن الإضافة التي في جهة القبلة- أعني أمام المحراب النبوي إلى جدار القبلة الآن، إنما زادها عمر بن الخطاب رضي الله عنه، والصحابة متوافرون، واتفقوا على ذلك، وكان قيام عمر رضي الله عنه في الصلوات الخمس إماماً بالصحابة، في تلك الزيادة. وكانت الصفوف الأول التي هي أفضل الصفوف تقوم في تلك الزيادة.

فهل يظن بهم أنهم كانوا يعتقدون أن الصلاة في غير موضعهم أفضل؟

هذا، وإذا علم أن النبي ﷺ أشار في حياته بالزيادة في المسجد علمنا أن تلك الزيادة التي في القبلة لها حكم المسجد من كل وجه. وذلك ما رواه الإمام أحمد أن عمر قال: لولا أن سمعت النبي ﷺ يقول «ينبغي أن نزيد في مسجدنا». ما

زدت. ورواه غير الإمام أحمد أيضاً.

إذن فالقول بأن الزيادة في المسجد لها حكم المسجد الأصلي تصح نسبته إلى الصحابة، الذين صلوا في المقدمة. ولم ينقل أن أحدا منهم أنكر ذلك فيما نعلم، وذلك ينبغي أن يكون إجماعاً. ولذلك قال ابن فرحون: لم يخالف في هذه المسألة غير النووي. ونقل المحب الطبري أن النووي رجع عن هذا القول. (انظر: وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ١/ ٣٥٧ وما بعدها).

ومن هذا يتبين خطأ قوم يتركون الصلاة في الصفوف الأولى في المسجد النبوي ويتأخرون إلى الصفوف المتأخرة، وكثيرا ما تنطقع الصفوف فيما بين ذلك، مع قول النبي ﷺ: «من وصل صفا وصله الله ومن قطع صفا قطعه الله» (الحاكم والنسائي عن ابن عمر، الجامع الصغير) وكأن هؤلاء يستنكرون ما فعله عمر رضي الله عنه وصحابة رسول الله معه، الذين هم أعلام الدين ونجوم الهداية. وقد قال الله تعالى ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴿١١٥﴾﴾ (النساء: ١١٥).

وما هي الحجة التي بأيدي هؤلاء الذين يتركون الصفوف المتقدمة رغبة عنها؟ ليس لهم دليل منير ولا حجة قائمة. وهم لا شك قد حملهم حبهم للنبي ﷺ ومسجده على ذلك، ولكنهم فعلوه على غير هدى، وبغير دليل. فهي محبة غير مستبصرة. وأكمل العمل ما كان على طريق واضحة، وأصدق المحبة ما حمل المحب على أن يتبع طريق المحبوب. وقد قال الله تعالى ﴿قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ فَٱتَّبِعُونِي يُحۡبِبۡكُمُ ٱللَّهُ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٣١﴾﴾ (آل عمران: ٣١) والله أعلم.



رحلة الفهرسة الهجائية والمعَاجم عبر تاريخنا

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

جانب مشرق من جوانب تاريخنا الإسلامي وحضارتنا العتيدة يبرز عند الكشف عما صنعه الأجداد في مجال التعجيم والفهرسة. لقد استخدمت الفهارس والمعاجم على نطاق واسع في شتى أنواع المعرفة. واستغلت كوسائل فعالة في تسهيل الوصول إلى المعلومات المطلوبة. استغلالاً أدى إلى نشر الثقافة وتنميتها.

أولًا: المعاجم الهجائية

• المعاجم

أما المعاجم فنستطيع أن نفخر بأنه كان لدينا في القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) معجم هجائي على درجة عالية من الجودة، هو معجم «العين»، في متن اللغة للخليل بن أحمد (١٧٥هـ).

وأما في القرن الثالث الهجري فلدينا معجم في أسماء رجال الحديث للإمام محمد إسماعيل البخاري مرتب ترتيباً جيداً، ولا يزال مستعملاً واسمه «التاريخ الكبير».

أما في القرن الرابع الهجري وما بعده فقد وجدت معاجم هجائية لمتن اللغة والأعلام وغيرها لا تزال تؤدي دورها كمراجع في موضوعها سهلة الاستعمال بالإضافة إلى احتوائها على معلومات ذات قيمة فائقة. كما أنها غطت نواحي مختلفة من المعرفة فمنها في اللغة وفي التراجم بصفة عامة، أو في أعلام فن معين كالأطباء، والفلاسفة، والنحويين، واللغويين، والمحدثين، والسياسيين، أو في موضوعات معينة كالصيدلة والأدوية أو الحيوان أو البلدان أو غير ذلك.

وسوف نستعرض الجهود المبذولة في ذلك بشيء من التفصيل.

إن المعاجم إما أن تكون مختصة في حدود موضوع معين كمتن اللغة أو التراجم، أو البلدان، مثلاً، وإما أن تكون عامة شاملة لكل نواحي المعرفة.

دوائر المعارف العامة

أما المعاجم العامة فلها اسم خاص هو «دوائر المعارف العامة»، أو «الموضوعات العامة» ولا أعرف في الحضارة الإسلامية قبل العصر الحاضر كتاباً يصح أن يوصف بأنه «دائرة معارف عامة» ومرتباً على الحروف ما عدا كتابين أولهما هو المسمى بـ«كشاف اصطلاحات الفنون» لمؤلفه محمد بن علي التهانوي الهندي، ذكر في مقدمته أنه فرغ من تسويده سنة ١١٥٨هـ استعرض فيه المصطلحات في جميع العلوم التي كانت في عصره وذكر معنى كل مصطلح وشيئاً قليلاً من المعلومات عنه. إلا أن جل غايته كانت منصرفة إلى تعريف المصطلح وقد نشر كتابه بعنوان «كشاف اصطلاحات العلوم الإسلامية».

والثاني «الكليات» تأليف أبي البقاء أيوب بن موسى الكفوي (١٠٩٥هـ) وقد جمع فيه معلومات كثيرة متنوعة تحت عناوين، ثم رتب المعلومات بحسب الترتيب الهجائي لتلك العناوين إلا أن ترتيبه جاء قاصراً ومعلوماته مبتسرة.

أما في العصر الحاضر فقد جرت محاولات لتأليف دوائر معارف عامة منها ما عمله محمد فريد وجدي وسماه «دائرة معارف القرن الرابع عشر- العشرين» في عشرة مجلدات.

ومنها دائرة معارف البستاني، باشر إعدادها المعلم بطرس البستاني وأصدر منها ستة مجلدات من ١٨٧٦ إلى ١٨٨٢م ثم تابع أبناؤه نشرها إلى أن صدر الجزء الحادي عشر منها منتهياً بلفظ «عثمانية» ويعاد الآن نشرها بإدارة فؤاد أفرام البستاني بصورة متقنة وممتازة وصدر منها المجلد السابع منتهياً بلفظ «أخيليا» من حرف الهمزة.

المعاجم المتخصصة

أما المعاجم المتخصصة فهي التي تختص بنوع معين من المعرفة كالتراجم

مثلاً. ثم إن بعضها قد يكون أكثر تخصصاً من الآخر فبينما تجد معاجم للتراجم بصفة عامة إذ بنا نجد معاجم لتراجم اللغويين، أو لتراجم النحويين من اللغويين، أو لتراجم البصريين من النحويين من اللغويين. فتتفاوت درجات التخصص بحسب هدف واضع المعجم.

ولا يمكننا أن نحصر عدد المعاجم المختصة المؤلفة بالعربية، ولكن نذكر أمثلة مما اطلعنا عليه منها على سبيل الإيجاز مع محاولة حصر اتجاهاتها العامة ضمن البنود التالية:

(١) معاجم أسماء الكتب والمؤلفات والفنون منها

١- «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لمؤلفه الحاج خليفة مصطفى ابن عبد الله كاتب جلبي، المتوفى ١٠٦٧هـ استعرض فيه أسماء الفنون في الحضارة الإسلامية وأسماء الكتب المؤلفة في ذلك بتسلسل هجائي واحد شامل للفنون والكتب جميعاً. وهو كتاب واف في موضوعه وترتيبه جيد. وذيل عليه إسماعيل باشا بن محمد أمين البغدادي (-١٣٣٩هـ) بمجلد ضخم وقد تم طبعهما سنة ١٣٦٥هـ - ١٩٤٦م في ثلاثة مجلدات.

٢- المعاجم الإسلامية العامة

لم يؤلف في هذا الموضوع قديماً فيما أعلم، وقد قام لفيف من المستشرقين في هذا القرن بتأليف «دائرة المعارف الإسلامية» شاملة لموجزات عن المعلومات التي كانت متوفرة لهم عن كل نواحي الحضارة الإسلامية. ونشرت باللغات الألمانية والإنجليزية والفرنسية. وصدر من ترجمتها العربية بمصر إلى حرف «الطاء» بتعليقات من المختصين بالشؤون الإسلامية كشفت عن مدى جهل بعض كتابها أو تجنبهم لذكر الحقائق قصداً مع أنه لا يسعنا إلا الاعتراف بعظمة العمل في ذاته.

والآن يعاد إصدار الطبعات الأوروبية بمزيد من التوسع.

وصدر بمصر من «القاموس الإسلامي»، للأستاذ أحمد عطية، مجلدان. وهو مختصر يقتصر على التعريف بمصطلحات الفكر الإسلامي ومعالم الحضارة

الإسلامية وتراجم المشهورين، انتهى فيهما إلى حرف الراء.

٣- معاجم القرآن وعلومه

لم تؤلف معاجم لفظية أو معنوية للقرآن فيما أعلم قبل العصر الحديث أما في هذا العصر فقد صدر «تفصيل آيات القرآن» للمستشرق جول لا بوم وقد ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ ٱللَّهُ وهو جمع حسن غير أنه قاصر في التفاصيل. ولسنا بحاجة إلى أن نشير إلى بعض الأعمال الجامعة في هذا الميدان التي أخرجت مرتبة على الأبواب لأن بحثنا منصب على المعاجم «المرتبة على حروف المعجم».

فعلى هذا يكون هذا الميدان بكراً. ولعل الله يوفق إحدى المؤسسات أو الأفراد للقيام بعمل «معجم قرآني» شامل لكل المعلومات القرآنية.

٤- معاجم الحديث النبوي

لقد كان نشاط المحدثين في دراسة الحديث وتدوينه وترتيبه نشاطاً قوياً وواسعاً فبالإضافة إلى منجزاتهم في ترتيب الأعلام سلكوا في ترتيب الأحاديث سبلاً كثيرة إذ رتبوا الأحاديث على أنواع مختلفة من الترتيب، فمنهم من رتبها على أبواب الفقه، ومنهم من رتبها على أسماء الرواة ورتب أسماء الرواة حسب الأفضلية أو حسب حروف الهجاء، ومنهم من رتبها على أوائل حروفها، أو على مواضيعها، وجعل المواضيع بترتيب معجمي.

والذي يعنينا من ذلك هو الأنواع الثلاثة الأخيرة:

أ) فمما رتبت فيه الأحاديث بترتيب «ألفبائي» باعتبار أسماء الرواة «المعجم الكبير» للطبراني سليمان بن أحمد (٣٦٠هـ).

ب) ومما رتبت فيه الأحاديث بحسب أوائل حروفها «جمع الجوامع» للسيوطي قصد فيه جمع الأحاديث النبوية القولية بأسرها على حروف المعجم. وله أيضاً «الجامع الصغير» وهو مطبوع متداول ويحسن أن لا تخلو منه مكتبة أي دارس للإسلام.

ج) ومما رتبت فيه الأحاديث بحسب أحرف الهجاء لموضوعاتها. كتاب «كنز

العمال في سنن الأقوال والأفعال» للشيخ علاء الدين علي المتقي (٨٨٨- ٩٧٥هـ) ثم عاد فاختصر كتابه مع المحافظة على ترتيبه وسماه «منقب كنز العمال».

وهو أكثر تفصيلاً وأحسن ترتيباً من سابقه «جامع الأصول من أحاديث الرسول» لابن الأثير الجزري. إلا أن الميدان لا يزال مفتوحاً ولا يزال الحديث النبوي بحاجة إلى معجم تفصيلي. فإلى المهتمين بتيسير السنة النبوية للمؤمنين والدارسين أسوق هذه الرغبة راجياً أن يوفق منهم من ينهض لأداء هذه المهمة.

٥- المعاجم الفقهية

لا أعرف أن معجماً للفقه الإسلامي برز إلى عالم الوجود قبل صدور «معجم فقه ابن حزم الظاهري» الذي أصدرته سنة ١٣٨٥هـ لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بجامعة دمشق. فكان بداية حسنة يرجى أن تتلوها خطوات أكثر تقدماً في هذا الميدان الفسيح.

وقد صدرت أيضاً بمصر مؤخراً ستة أجزاء من «موسوعة جمال عبد الناصر للفقه الإسلامي» من حرف الألف، مرتبة للموضوعات الفقهية على حروف الهجاء. وترتيبها حسن إلا أنه يظهر أنه سيكون فيها تكرار كثير يضخم محتوياتها نظراً لتكرار الموضوع الواحد في مواضع مختلفة بحسب أوجهه المختلفة (انظر موضوعي ابن، وأب، لترى كيف تكررت بعض الأحكام كعصمة الابن بإسلام أبيه ج٢ ص ١٤٩، ٢٣١، وكذلك وجوب إنفاق الأب على أبنائه) ويظهر أنه ينبغي للقائمين عليها إعادة النظر في منهج الترتيب فيها. ولديهم إمكانية استخدام نظام الإحالات.

وتقوم لجنة «الموسوعة الفقهية» بوزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالكويت بالتحضير لإصدار موسوعة فقهية وقد أصدرت «موضوعين» في طبعة تمهيدية يراد بها تلقي ملاحظات القراء المختصين وتوجيهاتهم للخروج بموسوعة مستكملة من حيث الشكل والمضمون. وليت القائمين على الموسوعتين يوفقون لتنسيق العمل بينهما بطريقة تؤدي إلى تيسير الفقه الإسلامي تيسيراً كاملاً باستخدام الأساليب العلمية المتطورة في هذا المجال.

وقد قامت لجنة موسوعة الفقه الإسلامي بتهيئة معجم للفقه الحنبلي كان لي مشاركة في مراجعة مادته وترتيبه ويرجى أن يصدر قريباً إن شاء الله.

٦- معاجم الأدب واللغة

أما المعاجم الأدبية المتخصصة فلا أعرف منها شيئاً يستحق الذكر وأما معاجم اللغة فإنها من مفاخرنا. والبحث فيها له مكان آخر.

٧- المعاجم العلمية

في تراثنا من معاجم العلوم بأنواعها الشيء الكثير، فمنها:

أ) في علم الحيوان كتاب «حياة الحيوان» لكمال الدين الدميري محمد بن موسى (-٨٠٨هـ) يذكر فيه كل حيوان باسمه الخاص ثم يبحث في الاسم بحثاً لغوياً ثم يذكر أوصاف الحيوان وطباعه وخواصه وهو مطبوع متداول.

ب) في الأغذية والأدوية والعقاقير ونحوها ألف ابن البيطار عبد الله بن أحمد الأندلسي كتابه «الجامع لمفردات الأدوية والأغذية» بأمر الملك الصالح نجم الدين أيوب استوعب فيه ذكر الأدوية والأغذية المفردة التي كانت مستعملة لزمانه. وذكر أقوال الأطباء فيها ورتبه على لحروف المعجم مراعياً الحرفين الأول والثاني فقط.

٨- معاجم البلدان والأمكنة والبقاع

ألف في هذا النوع أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز البكري الأندلسي (-٥٨٧هـ) كتابه «معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع» ومعجمه مرتب على حروف الهجاء على طريقة المغاربة، وراعى في الترتيب الحرف الأول والثاني فقط، ولذلك أعاد ناشره «مصطفى السقا» ترتيبه. وليته تركه على وضعه الأول ليكون نموذجاً لذلك النوع من الترتيب. والذي أفضله لكل كتاب من الكتب القديمة التي تنشر أن لا يخل ناشره بترتيبه الذي وضعه عليه مؤلفه وأن يكتفي بالفهرسة المتقنة ما لم يقصد أن يضع الكتاب وضعاً جديداً بتهذيبه أو ضم معلومات أخرى إليه.

وألف في هذا النوع أيضاً ياقوت الحموي الرومي كتابه «معجم البلدان» وهو كتاب قيم في بابه. لم يؤلف بعده ما يوازيه.

٩- معاجم الأعلام

لقد كان نشاط العلماء المسلمين في مجال معاجم الأعلام نشاطاً واسعًا ومنوعاً، فمن معاجم الأعلام طائفة معينة كالصحابة، أو المحدثين أو الأطباء أو الأدباء أو الشعراء أو اللغويين، أو النحاة، أو المؤلفين، أو النساء إلى معاجم لأعلام مدينة معينة كأعلام بغداد، أو دمشق، إلى معاجم لأعلام قرن معين، أو عهد معين، إلى معاجم عامة شاملة لكل نوع، وكثير من ذلك مشهور ونكتفي بذكر معجم عام للأعلام هو «الوافي بالوفيات» لخليل بن أيبك الصفدي (-٧٦٤هـ) ويشتمل على (١٤٠٠٠) ترجمة. وآخر حديث هو كتاب «الأعلام» لخير الدين الزركلي وهو من خير ما ألف في موضوعه.

إن حاجتنا إلى متابعة خطى أسلافنا في هذا المجال حاجة حقيقية وعلينا أن نهيئ لكل صنف من أصناف العلوم معجماً ينبع من القديم ويستمد من الحديث ويواكب التطور الفني والعلمي.

وإن من المؤسف أن تعتمد جامعاتنا الإسلامية في معلوماتها الإسلامية على دائرة معارف «إسلامية» وضعها غير المسلمين ممن لم يفقه الإسلام حق فقهه. وإن لذلك تأثيره الذي تبين في النتاج الفكري لناشئتنا الإسلامية، فليت إحدى وزارات الشؤون الدينية التربوية أو الجامعات الإسلامية في أقطارنا الكثيرة تتولى وضع دائرة معارف إسلامية لتكون روحها إسلامية.

وإننا بحاجة إلى دائرة معارف متخصصة في كل فن، في اللغة، وفي الأدب، وفي التاريخ، وفي الطب والكيمياء والطبيعة والحيوان والنبات والجيولوجيا. وإن دوائر المعارف المتخصصة هذه تخدم دائرة معارف عامة، بلادنا بأشد الحاجة إليها لتسهيل الطريق على المشتغلين بصناعة المعرفة للوصول إلى المعلومات عن «كل شيء».

ثانياً: الفهارس الهجائية

أما في مجال الفهرسة الهجائية فإننا نجد في تراثنا نماذج قليلة من ذلك. ولعل السبب في قلتها أن الشأن في الفهرسة أن تعزى المسألة المعينة إلى صفحة ذات

رقم معين من الكتاب. ولا يكون لهذا فائدة ذات قيمة للجمهور ما لم تكن نسخ الكتاب موحدة في أرقام صفحاتها. ولذلك كانت نهضة صناعة الفهرسة لاحقة لنهوض الطباعة إذ إن الطباعة تخرج مجموعة كبيرة من نسخ الكتاب موحدة الصفحات بخلاف الكتابة اليدوية.

ولكن مع ذلك فقد ذكر الشيخ أحمد محمد شاكر (مفتاح كنوز السنة - المقدمة) أنه يمكن اعتبار كتب أطراف الحديث فهارس. وأطراف الحروف ثم الحديث كتب تجمع أحاديث كل صحابي وحده وترتب أسماء الصحابة على الحروف ثم تبين موضع كل حديث بـ (عزوه) إلى أبواب كل كتاب من كتب الحديث. وفي المكتبة الإسلامية عدد لا بأس به من كتب هذا الفن. وقد طبع منها مؤخراً كتاب «الأطراف» للمزي يوسف بن عبد الرحمن (- ٧٤٢هـ).

كما أن هناك فهارس «مصنفة» أي على الأبواب، نجدها لعلمائنا في كثير من كتبهم.

أما بعد انتشار الطباعة في البلاد الإسلامية فقد زودت كثير من الكتب والمجلات بفهارس إلا أن هذا الفن عندنا لا يزال قاصراً عن بلوغ المستوى الكافي ليكون مفاتيح لكنوز الثقافة الإسلامية.

وأشير هنا إلى فهارس ذات قيمة للباحثين لا أقصد بذكرها الحصر ولكن أقصد ذكرها كنماذج.

١- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن: وضعه محمد فؤاد عبد الباقي رَحِمَهُ اللهُ وهو أفضل ما ألف من فهارس القرآن اللفظية.

وما زلنا بحاجة إلى فهرس هجائي مستوف «لموضوعات» القرآن.

وإني لأنظر أيضاً إلى الوقت الذي يلحق فيه بكل نسخة من نسخ الكتاب الكريم فهرس موضوعي هجائي موجز يعين القارئين لكتاب الله.

٢- المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي: وهو فهرس هجائي لفظي من مستوى رفيع ذو قيمة لا تحد لكل من له صلة بالحديث النبوي. وهو ذو قيمة للمعتنين بتاريخ دلالة الألفاظ. وقد فهرست فيه الكتب التسعة الرئيسية من كتب

السنة، رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين بإشراف المستشرق «فنسنك» بجامعة ليدن. وقد تم إصداره حديثاً في سبعة مجلدات ضخمة.

وقد وضع المستشرق فنسنك نفسه فهرساً «موضوعياً» مختصراً لكتب الحديث ترجمه محمد فؤاد عبد الباقي بعنوان «مفتاح كنوز السنة» وهو مطبوع متداول.

٣- في مجال فهرسة كتب الفقه الإسلامي صدر حديثا فهرس هجائي لحاشية ابن عابدين لأحمد مهدي الخضر.

وصدر حديثاً أيضاً فهرس لكتاب المغني في فقه الحنابلة قمت بتحضيره وأعانني الله على إكماله ونشرته دار البحوث العلمية بالكويت.

٤- فهرس كتاب «الأغاني» لأبي الفرج الأصبهاني صنعه أحد المستشرقين وترجمه محمد مسعود وطبعه الحاج محمد الساسي بمصر سنة ١٣٢٣هـ.

٥- في مجال فهرسة المجلات والصحافة دأبت بعض المجلات العربية على إلحاق فهارس هجائية موضوعية بآخر مجلداتها السنوية كما صنعت ذلك مجلة «المنار» ومجلة «الأزهر» غير أني لا أعلم مجلة عربية أصدرت فهرساً هجائياً يغطي أكثر من سنة واحدة، في حين أنه مما ييسر على الباحثين أن تصدر المجلة فهرساً لها كل خمس سنوات أو عشر سنوات وأيسر منه أن تصدر المجلة فهرساً لعدد أكبر من السنوات. بل إن بالإمكان إصدار فهرس عام موحد لمجموعة من المجلات التي تشترك في اتجاه معين.

وهنا أثني عنان القلم وكلي رجاء إلى الله سبحانه أن يأخذ بأيدي العاملين لنفع الأمة الإسلامية وسائر البشرية فيما يوسع ميدان المعرفة وينير آفاقها إنه العليم الحكيم.

* * *

٢٧ مقالات

الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- الإسلام أولا.

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩٠هـ) - يناير (١٩٧١م).

٢- ما أحلى الغدا.

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ)- إبريل (١٩٧١م).

٣- الإسلام في العصر الحديث.

العدد (٧٨) جمادى الآخرة (١٣٩١هـ) - يوليو(١٩٧١م).

٤- ابن عمك عزه عزك.

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

٥- اليمينيون واليساريون في القرآن.

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١م).

٦- انتقال الحضارات.

العدد (٣٥٠) شوال (١٤١٥هـ) - مارس (١٩٩٥م).

٧- أيها التاريخ .

العدد (٤٠١) محرم (١٤٢٠هـ) - إبريل (١٩٩٩م).

مقالات

٨- الحق والواجب في الشريعة.

العدد (٤٣٨) صفر (١٤٢٣هـ) - مايو (٢٠٠٢م).

٩- اختلاف الفقهاء في أحكام الشريعة.

العدد (٤٨١) رمضان (١٤٢٦هـ) - نوفمبر (٢٠٠٥م).



ترجمة الشيخ

الدكتور محمد عبدالمنعم خفاجي

هو الشيخ محمد بن عبد المنعم بن خفاجي بن سليمان بن حسن بن مصطفى ابن أحمد الخفاجي.



ولد في المنصورة في ٢٢ يوليو عام ١٩١٥ م - رمضان ١٩٣٣هـ.

حصل على شهادة الدكتوراه من جامعة الأزهر عام ١٩٤٦ برسالته عن الشاعر العباسي عبد الله بن المعتز.

● حياته العملية

عُين رئيساً لقسم الأدب والنقد في كلية اللغة العربية عام ١٩٧٣م، ثم عُين عميداً لكلية اللغة العربية بجامعة الأزهر فرع أسيوط عام ١٩٧٤م.

ثم تولى رئاسة رابطة الأدب الحديث منذ مايو ١٩٨٣م، ونال وسام العلوم والفنون والآداب في ذات العام، ثم عين عضواً في المجلس الأعلى للأزهر، وخبيراً في مجمع اللغة العربية منذ عام ١٩٨٤م.

● مؤلفاته الأدبية كثيرة منها

١- الأدب الإسلامي بين النظرية والتطبيق، (بالاشتراك)، صدرت طبعته الأولى في بيروت.

٢- قصص من الحياة، صدرت طبعته الأولى عام ١٩٧٠م.

٣- دراسات في الأدب الإسلامي من عصر النبوة إلى العصر الحديث، عدة أجزاء (مخطوط).

٥- الحياة الأدبية في ظلال الإسلام.

يمثل الخفاجي نهاية للجيل الموسوعيّ حيث ألف ما يزيد على خمسمائة كتاب في فنون مختلفة فقد كتب في الأدب والنقد.. وأنشد الشعر، وكتب في

التاريخ الاسلامي والسيرة النبوية بل وحتى في علم الحديث من خلال تحقيقه لصحيح البخاري.. وفي التفسير القرآني حيث فسر القرآن الكريم في أربعة عشر جزءا.

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ اللَّهُ في عام ٢٠٠٦م غفر الله له وأسكنه فسيح جناته

* * *

الإسلام أولاً

العدد (٧٢) ذو الحجة (١٣٩٠هـ) - يناير (١٩٧١م).

نزل الإسلام شريعة عامة خالدة، تجدد الحياة، وتصحح العقيدة، وتعيد الأمن والسلام للإنسانية، وتؤثل للحضارة مجداً باذخاً، وللتطور البشري منزلة سامقة.

وذاع الإسلام في كل مكان، وانتشر في كل صقع، واعتنقته الملايين المحرومة المضطهدة المعذبة في الأرض، وآمنت به الشعوب من كل قارات الدنيا المعروفة آنذاك، وانتصر في مواجهته الكبرى للإمبراطوريتين العالميتين الكبيرتين: الإمبراطورية الفارسية، والإمبراطورية الرومانية الشرقية، وكان انتصاره حينئذ كاملاً، وعملاً رائعاً، لم يشهد التاريخ البشري له مثيلاً.. وخرج هرقل الإمبراطور الروماني العظيم من الشام باكياً حزيناً بعد هزيمة جيوشه الكثيفة في معركتها الكبيرة مع جيوش المسلمين حول دمشق في العام الرابع عشر من الهجرة (٦٣٦م)، وهو يودع أرض سورية ويقول: سلام عليك يا سورية، سلاماً لا لقاء بعده، وزالت سيادة بيزنطة على الشام إلى الأبد.

وامتد الإسلام فبلغ حدود الصين شرقاً، وشواطئ المحيط الأطلسي غرباً، وجنوب أوروبا شمالاً، وأواسط أفريقيا جنوباً في زمن يسير.. مما يعد معجزة في تاريخ الأمم والانتصارات.

وفتح العرب أسبانيا عام ٩٢هـ (٧١١م)، وبسط خلفاء بني أمية نفوذهم وسلطانهم عليها.. وتوغلوا فيها شمالاً حتى غزا فرنسا الحر بن عبد الرحمن عام ٩٩هـ (٧١٧م)، واستولى بعد ذلك السمح بن مالك بسنوات ثلاث على مدن كثيرة منها، وقام عبد الرحمن الغافقي عام ١١٤هـ - ٧٣٢م بهجوم كبير عليها،

ووصل بجيشه الكبير إلى «بواتييه» بالقرب من باريس، فقابله شارل مارتل بجيش كبير، وحالفه الحظ فتمكن من هزيمة الغافقي وجيشه في يوم الجمعة الثاني من أكتوبر ٧٣٢م- السابع من شعبان عام ١١٤هـ، وقتل الغافقي، وانسحب المسلمون، وفي هذه الهزيمة يقول أديب ومفكر فرنسي كبير هو مسيو كلود فارير:

«في سنة ٧٣٢م حدثت فاجعة كانت من أشأم الأحداث التي نكبت بها الإنسانية في القرون الوسطى، وكان من آثارها أن غمرت العالم الغربي طبقة عميقة من التوحش، لم تبدأ بالتبدد إلا على عهد النهضة هذه هي الفاجعة التي أريد أن أمقت ذكراها، وأعني بها ذلك الانتصار البغيض الذي ظفر به أولئك المحاربون من الإفرينج بقيادة شارل مارتل على كتائب العرب المسلمين الذين كان يقودهم الغافقي. ففي ذلك اليوم المشؤوم تراجعت المدنية ثمانية قرون إلى الوراء، ويكفي المرء أن يطوف بفكره في الأندلس ومدنها وحدائقها وحضارتها الخالدة ليعرف ماذا عسى أن تكون قد بلغته فرنسا منذ ذلك العهد السحيق لو أنقذها الإسلام العمراني الفلسفي المتسامح السلمي.

وامتد الإسلام إلى سواحل إيطاليا حتى وصل إلى قرب روما، وخفقت رايته على مراكش والجزائر وتونس وطرابلس وبرقة ومصر، وشمل الشام والجزيرة العربية، والعراق وفارس، وخراسان وداغستان وأفغانستان.

وأغار الأمويون في الشام على القسطنطينية عدة مرات، وشنوا الغارات السنوية على الأناضول، وعلى جزر البحر الأبيض المتوسط، صقلية، وسردانية، ومالطة، وفتحوها، وفتحوا كذلك قبرص، وكريت، ورودس، ودخلت بلاد ما وراء القوقاز في حكمهم، فدانت كلها لهم بالطاعة في عهد سليمان بن عبد الملك (٩٦- ٩٩هـ) (٧١٥- ٧١٧م) ودخلت كذلك بلاد النوبة في حكم المسلمين، وأجزاء كثيرة من سواحل أفريقيا الشرقية.

وفي عام ٨٧هـ- ٧٠٦م غزا قتيبة بن مسلم بلاد ما وراء النهر، ففتحت بخارى، وسمرقند، والصفد وغيرها، وتعمق في بلاد الهند حتى وصل إلى

كاشغر، وهي أدنى مدن الصين، وأرسل عام ٩٦هـ - ٧١٥م رسالة إلى إمبراطور الصين يدعوه فيها إلى الإسلام، وبذلك امتد الإسلام وانتشر في أجزاء كثيرة من الصين، وفتح محمد بن القاسم السند للأمويين عام ٩٣هـ- ٧١٣م فأصبحت ولاية إسلامية.

وسار الإسلام مع التجار المسلمين إلى سومطره، وجاوه، والملايو، وسيلان والفلبين، ومدغشقر، وأنحاء كثيرة من قلب أفريقيا في مدى يسير.

ولك أن تتصور عظمة الدولة الإسلامية التي كانت لا تغيب عنها الشمس، حينما كان الرشيد يجلس في قصر الخلافة ببغداد، ويتطلع إلى غمامة بين السحاب، فيقول لها: أمطري أين شئت فسوف يأتيني خراجك.

وانتشرت في العالم الإسلامي الثقافات الرفيعة، وقامت في المدن الإسلامية الكبرى الجامعات والمدارس والمكتبات، واستظلت هذه المدن بظلال وارفة من حضارة الإسلام، وحسبنا ما بلغته من حضارة ومجد: قرطبة، وطليطلة، وأشبيلية، وغرناطة، وفاس، والقيروان، وتونس وطرابلس، والفسطاط ودمشق، ومكة المكرمة والمدينة، والبصرة والكوفة وبغداد، والري وجرجان، وغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى في إبان ذلك العهد البعيد.

وبينما كان العلماء المسلمون في قرطبة يترددون على خزائن كتبها السبع عشرة، ويعودون إلى بيوتهم فيتنعمون بالاستحمام في حمامات بلغت الغاية في النظافة والأناقة، كان الأساتذة في إكسفورد يستنكرون الاستحمام، ويحسبونه من ملذات العيش الشهوانية التي يجب الترفع عنها. وحينما كان فلاسفة المسلمين مكبين على تأليف أرسطو في دار الحكمة في بغداد، يقرأونها ويترجمونها أيام الرشيد، كان شارلمان ورجال بطانته يحاولون جاهدين إتقان كتابة أسمائهم، وتصوروا أن في جوف الساعة الدقاقة التي أهداها إليه الرشيد شيطاناً يتحرك.

وبينما كانت أوروبا لا تعرف الطب ولا الأطباء كان في بغداد في عهد المقتدر بالله العباسي عام (٣١٩هـ- ٩٣١م) ٨٦٠ طبيباً، وكان يفرض على

الصيادلة والأطباء فيها منذ زمن المأمون والمعتصم اجتياز امتحان خاص، وقد أجرى لهم سنان بن ثابت بن قرة امتحاناً بأمر الخليفة العباسي.

أي مجد هذا المجد الذي بلغه المسلمون الأولون في زمن يسير؟ وأية حضارة تلك الحضارة الوارفة التي عاشوا في ظلالها بعد ظهور الإسلام بقليل؟!

ذلك كله وغيره، مما لا نستطيع أن نذكره في هذه الصفحات إنما ناله المسلمون بالإسلام أولاً، بالإسلام وحده، بالإسلام العظيم، فهو الذي أثل لهم الملك، ومنحهم السيادة، وفجر لهم كنوز الأرض، ووهبهم السلطان على أمم كثيرة، كانت لها السيادة في العالم كله قبل الإسلام، وفي بدء ظهور الإسلام.

لقد تذكرت حينئذ كلمة رسول الله ﷺ لقومه في مكة بعد نزول الوحي عليه بسنوات معدودات:

«ما جئت بما جئتكم به، أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم. ولكن الله بعثني إليكم رسولاً وأنزل علي كتاباً، وأمرني أن أكون لكم بشيراً نذيراً، فبلغتكم رسالات ربي، ونصحت لكم.. فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم في الدنيا والآخرة، وإن تردوه علي أصبر حتى يحكم الله بيني وبينكم».

وذكرت كيف بدأ الإسلام، وأنا أقرأ حديث عفيف بن قيس الكندي قال:

«كنت في الجاهلية عطاراً، فقدمت مكة، فنزلت على العباس بن عبد المطلب، فبينما أنا جالس عنده أنظر إلى الكعبة، وقد تحلقت الشمس في السماء، أقبل شاب كأن في وجهه القمر، حتى رمى ببصره إلى السماء، فنظر إلى الشمس ساعة، ثم أقبل حتى دنا من الكعبة، فصف قدميه يصلي، فخرج على أثره فتى كأن وجهه صفيحة يمانية، فقام عن يمينه، فجاءت امرأة متلففة في ثيابها فقامت خلفهما، فأهوى الشاب راكعاً فركعا معه، ثم أهوى إلى الأرض ساجداً فسجدا معه، فقلت للعباس: يا أبا الفضل، أمر عظيم، فقال: أمر- والله عظيم- أتدري من هذا الشاب؟ قلت: لا، قال: هذا ابن أخي محمد بن عبد الله. أتدري: من هذا الفتى؟ قلت: لا، قال: هذا ابن

أخي، هذا علي بن أبي طالب، أتدري: من المرأة؟ قلت لا ، قال: هذه ابنة خويلد، هذه خديجة زوج محمد هذا. وإن محمداً يذكر أن إلهه - إله السماء والأرض أمره بهذا الدين، فهو عليه، كما ترى، ويزعم أنه نبي، وقد صدقه على قوله علي ابن عمه، هذا الفتى، وزوجه خديجة هذه المرأة.

نعم صدقه علي، ثم صدقته خديجة.

ثم صدقه العرب، ثم صدقته المشارق والمغارب، واهتزت الدنيا كلها إيماناً به وتصديقاً له، ولرسالة الإسلام التي نزلت عليه.

ولقد بكيت وأنا أتابع امتداد الفكر الإسلامي في عهد عمر بن الخطاب، وما شرعه للناس من شرائع الإسلام العظيمة في العدل والحرية والمساواة وفي مراقبة الخليفة عمر لله في شعبه وأمته، وهو يقول في آخر سنة من خلافته:

«إن عشت لأسيرن حولاً، فأقيم في الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها، فإني أعلم أن للناس حوائج تقطع عني، أما هم فلا يصلون إلي، وأما عمالهم فلا يرفعونها إلي».

رعاك الله يا عمر، لقد كانت رعيتك عندك آثر عليك من أهلك وولدك، وأحب إليك من مالك ونفسك، وكنت بها براً رحيماً، تقيم العدالة بين الناس، الضعيف عندك قوي إذا كان الحق معه، والقوي عندك ضعيف إذا خذله الحق، فارتكب جوراً على أحد من الضعفاء المساكين من عامة الشعب.

-٢-

● امتد الإسلام وامتد

ومع ما تألب عليه من قوى الوثنية والعدوان فقد ظل يمتد ويمتد، لأنه شريعة الله ودينه ورسالته إلى نبيه محمد صلوات الله عليه وسلامه.

وقف في وجه الإسلام الإمبراطورية الرومانية الشرقية بجيوشها وأساطيلها وقوتها وحضارتها ومن حولها أوروبا كلها، فلم تستطع أن تطفئ نوره.

وجندت أوروبا لحربه حملاتها الصليبية المشهورة، فما استطاعت أن توقف

بها سيره وامتداده.

ودمر التتار حضارة الإسلام وعواصمه وجامعاته ومدارسه ومع ذلك ذهب التتار وبقي الإسلام.

وصب الاستعمار الأوروبي جام غضبه على الإسلام والمسلمين في العصر الحديث، ومع ذلك انحسر مد الاستعمار وبقي الإسلام يدوي صوته في كل مكان.

ومع ما دمر الاستعمار وعصره من تراث الإسلام وحضارته وكنوزه، وما بدد من ثقافاته وخيرات بلاده وما نهب من ثروات المسلمين، وما نشر بينهم من كل ألوان الكفر والفساد والإلحاد والعداء للإسلام والحرب لمبادئه، ونقل الكثير من الأمم الإسلامية من حياتهم الإسلامية الوارفة إلى الحياة الغربية بكل مظاهرها وألوان العيش والحضارة والفكر فيها.. مع ذلك كله فقد بقي الإسلام.

ويجند الأوروبيون أنفسهم لحرب الإسلام في كل مكان عن طريق النفوذ والسيادة والتجارة والثقافة والحضارة الأوروبية، ويتعاونون مع دعاة المادية وحماتها لخلع مبادئ الإسلام من النفوس، ولغزوهم غزوا فكرياً إلحادياً سافراً، بل يتعاونون مع الشيطان ومع غير الشيطان من أجل القضاء على الإسلام في بلاده، ومع ذلك يفشلون وينتصر الإسلام.

-٣-

إن حاضر العالم الإسلامي اليوم ليتمثل في حرب العالم الغربي للإسلام حرباً سافرة في بلاده وفي خارج بلاده: البعثات التبشيرية في كل مكان، المساعدات تنهال على كل من يقف في وجه الإسلام، المذاهب اللادينية في غزوها المستمر للشرق العربي وللعالم الإسلامي، دعاة العنصرية يحاربون الإسلام ويطردون المسلمين من بلادهم أو يقتلونهم ويشردونهم باسم القومية.. إسرائيل تقام في قلب العالم الإسلامي وتشن ثلاث حروب ضروس على قوة صاعدة فيه، وتعمل من قريب ومن بعيد على الدس لكل حركة إسلامية يمكن أن تقف في وجهها في

يوم من الأيام.

ومع ذلك كله فلسوف يبقى الإسلام ولسوف ينتصر الإسلام.

إن علاج جميع مشكلات العالم الإسلامي والعربي المعاصرة، لا يمكن حلها إلا بالإسلام أولاً وأخيراً، وبازدياد الوعي الإسلامي في جميع ربوعه وأرجائه، وبالإقبال على التراث الإسلامي في كل جوانب الفكر والثقافة والمعرفة والعلم إقبال المتفهم المستزيد المستضيء بما فيه من طاقات خلاقة، وحياة متجددة وروح حضارية أصيلة.

ولقد كان طاغور شاعر الهند الكبير يرى أنه لحل الأزمة الهندية يجب أن يدرس الهندوس الكتب العربية لفهم الروح الإسلامية بطموحها وتساميها فهما حسناً.. فلماذا لا ينادي المسلمون بما نادى به طاغور البوذي من نصف قرن؟!

مشكلات العالمين الإسلامي والعربي لا يمكن أن تحل إلا عن طريق الالتقاء الإسلامي بالإسلام وأفكاره ومثله وقيمه ومبادئه وحضارته.

بل إن مشكلات العالم كله لا يمكن أن تحل في يوم من الأيام إلا بالإسلام الذي سوف تهرع البشرية إلى الإيمان به والدخول فيه في يوم من الأيام، قصر أمد الوصول إليه أم طال.

وما ذلك على الله بعزيز، ولسوف تردد الدنيا والحياة والبشرية قاطبة ما نردده اليوم في وجه الأحداث الزاحفة علينا من الشرق والغرب: الإسلام أولاً.



ومَا أحلى الغدا

العدد (٧٥) ربيع الأول (١٣٩١هـ) - إبريل (١٩٧١م).

فِي حَاضِرِي أَبْنِي الْغَدَا ... وَتَخِذْتُهُ لِي مَوْعِدًا
وَذَكَرتُ أيامِي وأَحْـ ... ـلَامِي الَّتِي ذَهَبَتْ سُدَى
ونفضتُ آلامي تُؤَرِّ ... قنِي، وَضِقْتُ بِهَا يدَا
ومللْتُها، ومللتُ كُلَّ ... حَدِيثها لِي وَالصدَى
وغدِي وليس الأَمْسُ كَا ... ن - كَمَا أَرَى- لِي مَوْلِدَا
وَاهًا لِأَمِسِ مُشَرَّدًا ... وَاهًا لِأُمْسِ مُبَدَّدَا
مَا أمس مِنْ عُمْرِ الزَّمَا ... ن، وَلَمْ يَدَعْ عِنْدِي يَدَا
لِمَ لَمْ أعِشْ فِي عَصْرِ أَجْـ ... ـدَادِي الْقُدَامَى سَرْمَدَا؟
لِمَ لَمْ أعِشْ فِي دَارِ آ ... بَائِي، لِأُمْطِرَهَا نَدَى؟
جِئْتُ الزَّمَانَ مُوَلِّيًا ... هَرِمًا، وَقَدْ بَلَغَ الْمَدَى
جِئْتُ الْحَيَاةَ وَوَجْهُهَا ... أَمْسى كَئِيبًا أَرْبَدَا
وكَأمْسِ يَوْمِي عِشْتُهُ ... عِشْتُ الزمَانَ الْأَنْكَدَا
فَالْيَوْمُ كَالْأَمْسِ الْغَرِيـ ... ـبِ، وَعِشْتُ فِيه مُفَرَّدَا
أنَا عِشْتُ الاثْنَيْنِ الْحَزِيـ ... ـنَ، الساهم، الْمُتَمَرِّدَا
لَوْلَا الْغَدُ الْمَرْموقُ سر ... تُ كَمَنْ يَسيرُ إلى الرَّدَى
لَوْلَاهُ عِشْتُ عَلَى الْأَسَى ... أسِفَ الْفُؤَادِ مسَهَّدَا
جُمِعَ الزمانُ، فَكَانَ، كَا ... نَ غَدًا، ومَا أَحْلَى غَدَا
لِلدِّين، لِلْإِسْلَام، سَوْ ... فَ يَجِيءُ، يَقْبل، لِلْهُدَى

لِلْمَجْدِ، لِلْحِلْمِ الْكَبِيرِ ... وَمَا أجلَّ وَأَحْمَدَا
لِلنَّصْرِ، لِلآمَالِ أَحْـ ... ـيَا فِيه، أَحْيَا مُسْعِدَا
لِحَيَاتِنَا الْمُثْلَى يجيءُ ... غَدٌ، وَيَخْطِر سُؤْدَدَا
وَتكَادُ تَنْدَى أرْضُنَا ... مِنْه، وَتُنْبِتُ عَسْجَدَا
وَتكَادُ تُورِقُ مِنْهُ أزْ ... هَارُ الرَّبِيعِ زَبَرْجَدَا
أعْلَامنَا تَخِذَتْ بِهِ ... فَوْقَ الْكَوَاكِبِ مَقْعَدَا
يَعْنو له وَجه الْجَلا ... لِ، وَهَامُ دَهْري، سُجَّدَا
وَنصُوغُ فِيه لِدِينِنَا ... عِقْدَ الْفَخَارِ، مُنَضَّدَا
وَيعُودُ فيه الْمَجْدُ، بالـ ... ـهمم الْكبَار مُخلَّدَا
كَرُمَ الْغدُ الْمَأمُول نَحْـ ... ـيَاهُ ومَا أَحْلَى الْغَدَا
الْمُسْلِمُون بِهِ يَطْو ... لون السُّهَا، والْفَرْقَدَا
وَبِهِ يَنَالُونَ الْفَخَا ... رَ، طَرِيفَه، وَالْمتلدَا
فِيه وَفِي أَبْرادِه ... نسمُو ونكرَمُ مُحْتِدَا
نَخْتَالُ فِيه وَفِي ضُحَا ... ه عَلَى الخُطُوبِ، عَلَى الْعِدَا
لَا نَحْذَرُ الْمَوتَ الرهِيـ ... ـبَ، ولَا نَخَافُ بِهِ الرَّدَى
وَنَمُدُّ فِيهِ، نَمُدُّ أَيـ ... ـدِينَا، تُصَافِحُ «أَحْمَدَا»
وَتقُولُ: عَادَ لَنَا الزما ... ن، ومَا أَعَزَّ وأَمْجَدَا

* * *

سَيَجيءُ، لِلْبَعْثِ الْعَظِيـ ... ـم غَدٌ، ويوقِظُ رُقَّدَا
يَمْشِي سَعِيدًا بيْننا ... وَيَطِيبُ فِينَا مَوْرِدَا
ويَروح، يغدو فِي رَوا ... بِينَا جَلِيلًا، سَيِّدَا
ويَجيءُ للأَمَلِ النَّبيـ ... ـلِ، وللرجَاء مُؤَكَّدَا
ويَجيءُ للزَّحْفِ الكَبِيـ ... ـر، وللبنَاء مُوَطّدَا
ويَجيء للْعِزِّ التَّلِيـ ... ـدِ، وللسلامِ مُؤَيِّدَا

لِفَضَائِلِ الإسلام، للـ ـخُلق الزَّكِيِّ مُمَجِّدَا
وَثَنِيَّة العصر الذي نحياه يَصْرَعُها الرَّدَى
ولكل بهتان وَمَسْـ ـوأةٍ يَجِيءُ مُشَرَّدَا
يَبْنِي لهُ القُرآن مَجـ ـدًا بالقديم مُشَيَّدَا
ولَهُ، له، عَزَمَاتُنَا تَبْنِي وتَرْفَعُ أَعْمُدَا
هَذَا سَنَاه وذَاكَ مشـ ـرقه يَجِيء مُجَدِّدَا
هَذِي رُؤَاه وذَاكَ مَوْ كِبُه يَسِيرُ، لَقَدْ بَدَا
كَرُم الْغد المنْشُود نحـ ـيَاه ومَا أَحْلَى الغَدَا
ونَمُدُّ فِيه، نَمدُّ أيـ ـدِينَا، تُصَافِح «أَحْمَدَا»
إن قيل: من لمآثر الـ إسلام؟ قال: «محمدًا»



الإسلام في العصر الحديث

العدد (٧٦) جمادى الآخرة (١٣٩١هـ) - يوليو (١٩٧١م).

حركة الإسلام في العصر الحديث حتى اليوم، من الضروري أن يتنبه لها كل مسلم غيور على دينه وأمته، ليعرف خطاه وخطى بني قومه، وإلى أية غاية أداه إليها مسيرة التاريخ الإسلامي حتى اليوم، وإلى أي هدف يسير، أو يجب أن يسير اليوم، ليصل إلى نقطة ارتكاز جديدة، وإلى منطلق قومي إسلامي جديد.

ولا نستطيع فهم مسيرة التاريخ الحديث للإسلام إلا إذا صورنا في إيجاز حركة الإسلام قبل العصر الحديث لتكون مقدمة لحديثنا اليوم.

غيَّرَ الإسلام، بعد انبعاثه بقليل وفي حوالي ست سنوات لا غير في عهد الخليفة عمر بن الخطاب، مجرى التاريخ العالمي، بل غير وجه العالم تغييراً لم يحدث مثله من قبل ولا من بعد، وحطم انبعاث الإسلام على هذه الصورة المذهلة كل الأقيسة التاريخية، إذ لم يسبقه في هذا سابق، ولم يلحقه لاحق، كما يؤكد المؤرخ الإنجليزي المشهور «توينبي» وورثت الأمة العربية المسلمة الإمبراطورية الساسانية، كما ورثت ملك الإمبراطورية الرومانية الشرقية في الشام ومصر والمغرب وجزر البحر الأبيض المتوسط.

وامتدت بعد ذلك الفتوحات الإسلامية شرقاً وغرباً إلى أماكن كثيرة حتى أصبحت امبراطورية الإسلام تمتد من الصين حتى شواطئ المحيط الأطلسي، وتشمل كثيراً من سهول آسيا الصغرى وجزر البحر الأبيض المتوسط وأسبانيا وأماكن كثيرة متعددة في جنوب أوروبا.

وكان من الطبيعي أن تقف أوروبا المسيحية بقواتها العسكرية ممثلة في الإمبراطورية البيزنطية في وجه الإسلام، لتعوق هي وأحلافها في أوروبا امتداده

إليها وإلى غيرها من معاقل العالم المسيحي.

وظلت الإمبراطورية البيزنطية تقاوم الإسلام، على امتداد الأيام، بكل ما تستطيع من جهد عسكري وسياسي معاً.. نحو ثمانية قرون من الزمان.

وظهرت القوميات الإسلامية في العالم الإسلامي في القرن الثالث والرابع والخامس الهجري، لتضعف من قوته ووحدته وتعاونه في صد هجوم البيزنطيين على معاقل الإسلام.

وفي نهاية القرن الخامس الهجري انتقلت أوروبا الصليبية إلى الهجوم على الإسلام في وطنه وبلاده، وأشعلت نيران الحروب الصليبية الحاقدة المتعطشة إلى الدماء والتي استمرت نحو قرن ونصف من الزمان وشجعت أوروبا كذلك فرسان أسبانيا. على مقاومة المسلمين فيها والعمل على طردهم منها نهائياً.

وخلال موجات الحروب الصليبية التي أنهكت العالم الإسلامي إنهاكاً شديداً، والتي لم تضعف من عزيمته في مقاومة الغزو الصليبي، والعدوان المدمر الزاحف من أوروبا زحف الخطر المغولي على العالم الإسلامي ودمره تدميراً شديدا واستولى على بغداد عاصمة الخلافة العباسية وزحف إلى الشام وهدد مصر تهديداً كبيراً.

ويظن أن المغول كانوا في زحفهم هذا يقفون وحدهم، ولكن هذا خطأ كبير، فلقد كانت المسيحية أو على الأصلح الصليبية، هي المحرض الأول للتتار على هذا الزحف، وهي التي رسمت لهم الخطط، وأمدتهم بالتقارير الوافية عن حالة الخلافة العباسية في بغداد، وحالة العالم الإسلامي عامة، وحسبنا على ذلك ما يرويه التاريخ من أن هيبتون ملك أرمينية المسيحي كان العامل الرئيسي في إقناع ما نجو خان (٦٤٦- ٦٦٥هـ - ١٢٤٨- ١٢٥٧م) بإرسال تلك الحملة التي دمرت بغداد بقيادة هولاكو (٦٥٦هـ - ١٢٥٨م)[١]، وأن هولاكو التتري زوج ابنه من ابنة الإمبراطور البيزنطي[٢].

---

(١) الدعوة إلى الإسلام (٢٥٢)، أرنولدوتوماس، ترجمة حسن إبراهيم حسن وعبد المجيد عابدين.

(٢) المرجع نفسه ٢٦٠ .

ولما قامت الإمبراطورية المغولية الكبرى، داعب المسيحية الغربية، أمل مهاجمة الإسلام في مؤخرته، وذلك بتحويل حكام هذه الدولة الجديدة الكبرى إلى القالب الغربي من الديانة المسيحية، وفي سبيل إدراك هذه الغاية قطع رسل البابا من المبشرين الرحلة الطويلة إلى «قرة قوروم» عاصمة الإمبراطورية المغولية آنذاك، وتلاهم ماركو بولو بعد ذلك بقليل وهو في طريقه إلى بلاط قوبلاي خان إمبراطور الصين، لكن خاب أمل المسيحية الغربية في ذلك كله[١]، ومع أن الغزو المغولي قد دمر العالم الإسلامي ومراكز حضارته تدميراً كاملاً، إلا أن هزيمة المغول أمام الجيش المصري في عين جالوت، التي أشبهت هزيمة الصليبيين أمام صلاح الدين الأيوبي في حطين، كانت عاملاً كبيراً في عودة الطمأنينة إلى العالم الإسلامي من جديد، وأصبحت مصر بعد معركة عين جالوت (الجمعة الخامس والعشرون من رمضان عام ٦٥٩هـ- ١٢٦٠م) قلعة العالم الإسلامي العسكرية وحصنه السياسي والاقتصادي، ومنارته الثقافية والدينية[٢]، وكانت قدرة العالم الإسلامي على أن يسحق في القرن السابع الهجري- الثالث عشر الميلادي قوة العدوان الصليبي، وشوكة الغزو التتري، ثم قدرته خلال القرن التاسع الهجري- الخامس عشر الميلادي على أن يجتاح أخيراً الإمبراطورية الرومانية الشرقية ويزيلها من الوجود، عاملاً كبيراً في طأطأة أوروبا رأسها للتيار الإسلامي العظيم، حتى أصبحت تعتقد في قرارة نفسها «استعصاء المسلمين على الهزيمة»[٣].

وأرادت أوروبا القيام بضغط عسكري ضخم على المسلمين في الأندلس لرد الثقة في النفوس، فاحتلت غرناطة وأزالت آخر معقل إسلامي في الأندلس، بأيدي فرسان أسبانيا وحلفائهم وذلك عام ٨٩٧هـ - ١٤٩٢م.

(١) حضارة الإسلام في دراسة توينبي للتاريخ (٤٧) فؤاد شبل.
(٢) المرجع نفسه ٨٩ .
(٣) المرجع نفسه ٦٢ .

ولم تستطع أوروبا مقاومة القوة الإسلامية ممثلة في مصر آنذاك، فأخذ البرتغاليون طريقهم إلى الهند عبر رأس الرجاء الصالح، وأخذوا السيادة البحرية - من أيدي العرب- على المحيط الهندي في القرن السادس عشر الميلادي، وأخذت روسيا تجتاح مناطق الشمال الآسيوية وتطوق العالم الإسلامي الممتد إلى أطراف الصين، وذلك خلال القرن السابع عشر، ثم كان ارتداد العثمانيين عن فينا خلال عام ١٦٨٢م نقطة تحول كبير في المعارك بين أوروبا والعالم الإسلامي في جبهة وسط أوروبا على امتداد جبهة الدانوب، كما هزم العثمانيون أمام روسيا هزيمة كبيرة ساحقة أيضاً عام ١٧٧٤م، ثم كانت هزيمة المماليك أمام الجيش الفرنسي في الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨م، وأنزلت أداة الحرب الأوروبية الحديثة عدة هزائم بالعالم الإسلامي في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر الميلادي.

وكما استولى الهولنديون خلال القرن السابع عشر على جاوة وبقية جزر الهند الشرقية، استولى البريطانيون على البنغال خلال أعوام ١٧٥٧- ١٧٦٤م، واستولت في القرن التاسع عشر فرنسا على الجزائر ثم تونس ثم المغرب، واستولت إنجلترا على مصر، وبدأ ضغط الاستعمار الأوروبي للشرق العربي الإسلامي يتفاقم ويزداد خطره على مقومات المسلمين الروحية والحضارية والسياسية.

وفي ظلال الاستعمار الأوروبي للعالم الإسلامي قامت المدارس التبشيرية في كل مكان من أنحاء الوطن الإسلامي، وحدثت حركة طغيان شديد للحضارة الغربية التي اشتدت موجتها العاصفة الزاحفة على بلاد الإسلام، والتي أخذت تطبع حياة المسلمين بطابع غربي محض في كل جانب من جوانب حياتهم: السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية.

وزاد مد الاستعمار الغربي بعد ذلك فاحتلت إيطاليا ليبيا، وصحب ذلك زيادة نفوذ التبشير المسيحي، وكلب الغزو الحضاري الأوروبي للعالم الإسلامي، وقضت أوروبا على الخلافة العثمانية التي كانت تمثل الفكرة الإسلامية قومياً

وسياسياً وعقائدياً تمثيلاً كبيراً.

ثم ظهر الخطر الصهيوني، وتفاقم خطره بقيام إسرائيل عام ١٩٤٨ في فلسطين، وعلى رقعة من أهم بلاد الإسلام وأكثرها عروبة، وقامت إسرائيل خلال عشرين عاماً بثلاث حروب على العالم العربي، هي حرب ١٩٤٨، ١٩٥٦، ١٩٦٧م.

كل ذلك يعد تنفيذا لمخططات أوروبا المسيحية في مقاومتها للإسلام، وفي معركتها مع المسلمين.

وتعتبر أوروبا أن الخطر الأكبر عليها هو الإسلام نفسه، وأن كل عمل ضد الإسلام في بلاده هو خط أمان جديد لأوروبا في الحاضر والمستقبل.

وعداوة أوروبا للإسلام، ومقاومتها له، ووضعها الخطط لحصاره، وتبديد قوته، لا تنتهي عند حد، وكل حدث كبير أو صغير في بلاد الإسلام إنما هو إثر تخطيط غربي موضوع لمقاومة الإسلام والقضاء عليه.. ويشارك أوروبا في هذا الشعور أمريكا وغيرها من بلدان العالم المسيحي.

وللقضاء على الإسلام في عرف أوروبا أساليب كثيرة، تبدأ من المدرسة ومنهجها التربوي، والثقافة وحركتها في ثلب الإسلام والمسلمين والعرب والعروبة، وتشويه تاريخهم وأعلامهم وثقافاتهم وحضارتهم، وتسير في امتداد التبشير من داخل العالم الإسلامي وخارجه، على أيدي المبشرين الظاهرين، والمبشرين المختفين من المستشرقين، وممن ينتمون كلهم أو جلهم إلى الأديرة المسيحية، وممن تخرجوا من صوامع الرهبنة في الغرب وامتلأت نفوسهم بالبغضاء للإسلام وتراثه وثقافاته ولغته وعقائده.

وقد ساعدت البيئات الصليبية المسيحية على قيام دعوات إسلامية متطرفة في العالم الإسلامي من مثل البهائية والقاديانية وغيرهما.

كما ساعدت أمريكا بنفوذها ومالها الشيوعية على التغلغل في العالم العربي بعد الحرب العالمية الثانية مما ذكره بوضوح أيدن في مذكراته. كل ذلك في محاولة قوية لتحطيم العقيدة الإسلامية، وتحطيم الكيان الإسلامي القوي في

نفوس المسلمين.

وقد أسهمت أوروبا في الدعوة إلى العلمانية ونشر فكرتها بين أبناء المسلمين، وبخاصة المثقفين منهم في معاهد الغرب وجامعاته، لعزل الإسلام، عن المجتمع وجعله دين رهبنة فحسب، كما حدث للدين المسيحي نفسه، وهذا منطق يأباه الإسلام وطبيعته إباء شديداً، لأنه دين يجمع بين العقيدة والحياة، وبين الفكر والعمل، وبين الآخرة والدنيا، وبين المادة والروح، ويربط بين الفكرة والواقع برباط وثيق.

ولا أدري لماذا تقوم معاهد الدراسات الإسلامية في الغرب وفي كندا وأمريكا، وهي ملحقة بالجامعات الغربية والكندية والأمريكية، على فكرة واحدة، هي أن تكون مراكز استماع على العالم الإسلامي وحركاته، وعلى تشويه حقائق الإسلام وتاريخه، ومن أجل الوصول إلى هذه الغاية تنتدب هذه المعاهد من أنحا العالم الإسلامي لفيفا من الأساتذة المتتلمذين على الثقافة الغربية، والمتشبعين بها، والذين لا يرون الإسلام إلا بمنظارها وحده، حيث يجلسون مع أساتذة صهيونيين متخصصين في محاربة الإسلام وشعوبه، وفي تشويه كل فكرة إسلامية، وفي دراسة كل حركة نابتة أو قائمة في الشعوب الإسلامية، وكل حركة يمكن أن تؤدي إلى خطر جديد على الغرب وأمنه وسلامه في المستقبل[(١)].

إن إيمان المسلمين المعاصرين، أو كثير منهم، بالحضارة الغربية، إيماناً مطلقاً، واعتناقنا للأفكار الهدامة الشيوعية والصليبية والتبشيرية اعتناقاً كاملاً، وطبع ثقافاتنا وكل حركات التعليم في بلادنا بطابع غربي محض، وانتشار الأفكار السخيفة الوافدة إلينا من الغرب، والتي تروجها الصليبية الغربية في صفوفنا، من أمثال أن الدين الإسلامي دين رجعي، وأن تشريعاته وحدوده ونظمه قديمة بالية لا تتفق وروح العصر الحاضر.

---

(١) من مثل ذلك قيام ولفريد كانتويل سميث أستاذ الدراسات الإسلامية بجامعة مونتريال بدراسة مجلة الأزهر والفكرة الإسلامية التي تنطوي عليها في كتابه «الإسلام في التاريخ الحديث».

كل ذلك، وغيره، إنما هو من مظاهر العمل الخفي، الذي جهد الغرب الصليبي وأذنابه في العمل من أجله قروناً وأجيالاً، في بلاد الإسلام وبين شباب المسلمين.

ومن العجيب أن نتلقى من الغرب كل الأحكام التي يصدرها علينا - بدافع من العصبية والحقد والعداوة الموروثة - بالقبول والتسليم، وأن نحاول في تفريط ظاهر، الانسلاخ من مقوماتنا الأصيلة، لنحقق أمل الغرب وأمانيه بأيدينا نحن، ولنؤكد له ولاءنا الروحي والفكري والثقافي ولنظهر أمام الناس بمظهر المتطفلين على موائده، والمتلمذين على أفكاره، ما جل منها وما هان، وما صلح وما فسد.

وما رأيت رجلاً مصمماً على قتل إنسان، ثم يصبح هذا الإنسان عوناً له في تنفيذ جريمته باختياره، إلا نحن المسلمين.

أذلك لغباء وَعَتَهٍ وغفلة؟

أو لجنون وفقدان تمييز؟

أو لجهل بحقائق الصراع العالمي والتاريخي بين الإسلام والغرب؟

لا أدري.

ولكن الذي أقرره، ويقرره كل دارس لتاريخ الإسلام: القديم، والحديث، والمعاصر، هو أن عداوة أوروبا وأحلافها للإسلام لا تقف عند حد، وأن تخطيطهم للقضاء عليه وتحطيم شعوبه لا ينتهي عند غاية، وأن جميع الأحداث السياسية والاجتماعية في العالم الإسلامي خلال القرن العشرين وما سبقه من قرون، إنما هي أثر لمخططات الغرب في حرب الإسلام والقضاء عليه.

ومن البديهي أن الخطر الإسرائيلي الصهيوني، وتهديده المستمر للعالم العربي الإسلامي، إنما هو أثر لمخطط صليبي قصد به الإسلام ذاته، ولا يعوزنا في ذلك الدليل.

فبلفور هو صاحب الوعد المشؤوم.

وأمريكا وروسيا وإنجلترا وفرنسا هي أوائل الدول التي اعترفت بإسرائيل.

والغاية من كل ذلك هي تحطيم العالم العربي، وإشعال الحروب والفتن الدائمة في ربوعه، ومنعه من أية حركة إسلامية أو حربية في الحاضر والمستقبل،

وإبقاؤه دائماً عاجزاً عن أي تهديد لأوروبا.

وليس أمامنا مجال لليأس.

بل يجب علينا الوعي والتدبر والرفض الكامل لكل مخططات الصليبيين والإلحاديين التي يريدونها ويريدون أن ننفذها نحن بأيدينا.

يجب علينا أن نتمسك بإصرار بالإسلام.

أن نستمد منه القوة والمنعة والرجاء في إنقاذ جديد شامل من هذه المحنة وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

ابن عمك
عزّه عزّك ، وشرفه شرفك، وملكه ملكك

العدد (٨٠) شعبان (١٣٩١هـ) - سبتمبر (١٩٧١م).

-١-

«أي صفوان. . فداك أبي وأمي
هو أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس.
ابن عمك عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.».

قالها عمير بن وهب ابن خلف القرشي الجمحي المكي لابن عمه صفوان بن أمية بن خلف، في تأثر شديد، وضراعة ظاهرة، واستعطاف كبير.

ويرد عليه صفوان في غضب واستكبار، وعزم وتصميم: دعني وطريقي، لن أعود أبداً.

وكان صفوان قد هم بركوب السفينة من جدة، لتقله إلى اليمن، يعيش فيها، بعيداً عن مكة، وعما آل إليه أمر مكة يومئذ.

وكان ذلك في مطلع شوال من العام الثامن من الهجرة، بعد فتح مكة بقليل.

ويعود عمير ليقول من جديد: «أي صفوان. . أي ابن عم.
لن أدعك وطريقك أبداً.
انزل من السفينة، وعد معي إلى مكة، وطنك، ووطن آبائك وأجدادك، وأنت ابن مكة، وشريف العشيرة وسيد القوم، وفيها صاحبتك وأولادك وأموالك».

وكان صفوان سيد بني جمح، بعد أبيه أمية بن خلف، كما كان من كبراء قريش في حياة أبيه.

وكان أَمْرُ الأزلام في الجاهلية موكولا إلى صفوان، ونشأ في جاه أبيه ومجده وشرفه وماله، وعمل في التجارة، وربح وأثرى، وجمع الذهب، حتى صار له قنطار من الذهب، كما كان لأبيه قنطار من الذهب، وبذلك جمع السؤدد من أطرافه، ونال المجد بكلتا يديه.

وتزوج صفوان في حياة أبيه من أكرم بيوت العرب، تزوج برزة بنت أبي مسعود الثقفي، وفاختة بنت الوليد بن المغيرة.

وكان أبوه «أمية» من أشراف قريش وسادتها وإليه الرأي في الكثير من الأمور والمشكلات.

وجاء الإسلام، ودعا رسول الله ﷺ الناس إلى الإيمان به، وصدت قريش عند ذلك صدوداً عجيباً، وقاومت رسول الله والمؤمنين به مقاومة ليس لها مثيل في التاريخ: وكان عتبة، وشيبة ابنا ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام. والوليد بن المغيرة، والنضر بن الحارث، والأسود بن المطلب، وزمعة بن الأسود، وسواهم يمثلون جبهة المعارضة للإسلام ولرسول الله ﷺ حتى ابن عمته عاتكة بنت عبد المطلب وهو عبد الله ابن أبي أمية المخزومي، وحتى ابن عمه أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب وكان أخاً للرسول من الرضاعة، أرضعتهما معا حليمة، حتى هذان مع قرابتهما لرسول الله كانا من أشد الناس عداوة لرسول الله، ولما جاء به من الحق والدين والشريعة، فقال له ابن عمته عبد الله بن أبي أمية: والله لا أومن بك أبداً، حتى تتخذ إلى السماء سلماً ثم ترقى فيه وأنا أنظر إليك حتى تأتيها، ثم تأتي معك أربعة من الملائكة يشهدون لك أنك كما تقول، وأيم الله أن لو فعلت ذلك ما ظننت أني أصدقك.. وكذلك كان الأخنس الثقفي، وأبي بن خلف الجمحي، والعاص بن وائل السهمي، وغيرهم.. وكان أمية بن خلف هو الذي تولى تعذيب المسلمين من مثل بلال. وأمية ومعه الوليد بن المغيرة، وبعض أشراف قريش هم الذين قالوا لرسول الله: يا محمد، هلم فلنعبد ما تعبد، وتعبد ما نعبد. وقد حضر أمية بدراً هو وابنه صفوان، فقتل أمية وقتل معه أبو جهل

وأشراف قريش وسادتها وورث صفوان بعد أبيه أمية مجده وحسبه وشرفه، وصار إليه ما كان لأبيه من قبله.

واستمر صفوان في حربه للإسلام ولرسول الله، كما كان يصنع، وكما كان يصنع أبوه قبله.

-٢-

وبعد بدر أخذ صفوان بن أمية يكيد لرسول الله كل الكيد، ويتآمر عليه بكل ما في وسعه وطاقته من حيلة، وهو الشقي الموتور، قتل أبوه وأخوه ي بدر، وقتل أشراف قومه وسادتهم.

وجلس صفوان في الحجر في يوم من الأيام وحوله ابن عمه عمير بن وهب الجمحي، وكان شيطاناً من شياطين قريش، وممن كان يؤذي رسول الله وأصحابه، ويلقون منه عناء شديداً وهم بمكة، وكان ابنه وهب قد أسر في بدر.

وأخذ عمير يذكر مصاب قريش في بدر، ويذرف الدموع على قتلاهم، فقال له صفوان: والله ما في العيش بعدهم من خير، فرد عليه عمير. صدقت والله، أما والله لولا دين علي ليس له عندي قضاء، وعيال أخشى عليهم الضياع والهوان بعدي لركبت إلى محمد حتى أقتله، وأشمت بالمسلمين فيه، فإن لي قبلهم علة، ابني وهب أسير في أيديهم.

فقام صفوان واقفاً، فرحاً جذلان لما سمع، وما أكرم ما سمع على نفسه، وقال يغتنم الفرصة حتى لا تفلت من يديه: يا أبا وهب، يا أخي، دينك علي أنا، أقضيه عنك، وعيالك مع عيالي، أواسيهم ما داموا على ظهر الأرض. فقال أبو وهب عمير: اكتم عني شأني وشأنك هذا، لا تحدث به أحداً حتى لا يعرف أحد ما أنتويه ورد صفوان في حماس شديد: أفعل ذلك.

وذهب عمير إلى منزله، فأخذ سيفه، فشحذه وسممه، وركب راحلته، وخرج من مكة يريد المدينة، والناس يسألونه إلى أين تريد يا أبا وهب؟ فيقول: أريد المدينة لفداء ابني الأسير.

وقدم عمير المدينة فبينما عمر في جماعة من المسلمين يذكرون ما أكرمهم الله به، إذ نظر فرأى عميراً قد أناخ راحلته على باب مسجد رسول الله، متوشحاً بالسيف، فقال لمن حوله: هذا الشيطان عدو الله عمير بن وهب ما جاء إلا لشر، وهو الذي حرش بيننا، وكان عيناً علينا لقريش في بدر، ثم دخل عمر على رسول الله وهو يقول: يا نبي الله، هذا عدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحاً سيفه.

قال: فأدخله علي، فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه، فلببه بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا فاجلسوا عند رسول الله، واحذروا عليه من هذا الخبيث، فإنه غير مأمون. ودخل به على رسول الله ﷺ فلما رآه الرسول وعمر آخذ بحمالة سيفه في عنقه، قال: أرسله يا عمر، أدن يا عمير.

فدنا عمير من رسول الله، وجلس فقال له رسول الله: فما جاء بك يا عمير؟ قال عمير: جئت لهذا الأسير الذي في أيديكم، فأحسنوا فيه.

قال: فما بال السيف في عنقك؟ قال عمير: قبحها الله من سيوف، وهل أغنت عنا شيئاً؟ قال الرسول: اصدقني ما الذي جئت له؟

قال: ما جئت إلا لذلك.

قال: بل قعدت أنت وصفوان في الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين علي، وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمداً، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له، والله حائل بينك وبين ما تريد، وصعق عمير لما يسمع، ليس من أحد يعرف الأمر غير صفوان، وقد أوصى صفوان بكتمانه عن كل الناس، إن هذا إلا الوحي نزل على محمد من السماء، واهتزت أعماق عمير ومشاعره اهتزازاً شديداً، وقال أشهد أنك رسول الله.. قد كنا يا محمد نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء، وما ينزل عليك من الوحي، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان، فوالله إني لأعلم ما أتاك به إلا الله، فالحمد لله الذي هداني للإسلام، وساقني هذا المساق، وشهد عمير شهادة التوحيد، والحق، فقال رسول الله: فقهوا أخاكم في دينه، وأقرئوه القرآن، وأطلقوا له أسيره.

فصنع المسلمون كل ما أمرهم به رسول الله ﷺ، وقال عمير يا رسول الله إني كنت جاهداً في إطفاء نور الله، شديد الأذى لمن كان على دين الله، وأنا أحب أن تأذن لي حتى أقدم مكة، فأدعوهم إلى الله، وإلى رسوله، وإلى الإسلام، لعل الله يهديهم، وإلا آذيتهم في دينهم كما كنت أوذي أصحابك في دينهم، وأذن له رسول الله.

كل ذلك وصفوان بن أمية في مكة يصبح ويمسي وهو يقول لمن يلقاه من قومه: أبشروا بحادثة تأتيكم قريباً في أيام تنسيكم وقعة بدر ويخرج صفوان إلى خارج مكة كل يوم، يسأل الركبان عن عمير بن وهب وفي أحد الأيام لقيه قادمٌ من المدينة، فسأله عن عمير، فأخبره أنه أسلم، فرجع صفوان مهموماً مغموماً، وهو يحلف لا يكلم عميراً أبداً ولا يؤدي له منفعة أبداً.

وقدم عمير إلى مكة، فأقام يدعو إلى الإسلام، ويؤذي من خالفه أذى شديداً، حتى أسلم على يديه أناس كثيرون، وعمير زوج عمة النبي ﷺ ، وهي أروى بنت عبد المطلب.

-٣-

وجاءت معركة أحد، وقتل فيها عم صفوان، وهو أبي بن خلف، قتله رسول الله ﷺ ، فازداد حنق صفوان على رسول الله وحربه وعداوته لله ولرسوله. وكان صفوان في قلب المعركة، وقال رسول الله ﷺ في أثناء المعركة.

اللهم العن أبا سفيان

اللهم العن الحارث بن هشام.

اللهم العن صفوان بن أمية.

- ٤ -

وفتح رسول الله ﷺ مكة في رمضان من العام الثامن للهجرة، وأذل الله الشرك والمشركين، ونكس راية الوثنية والبهتان، وهدم الرسول ﷺ الأصنام،

وترددت في جنبات البيت الحرام شهادة التوحيد ولكن الفتح لم يمض دون مقاومة من قريش، لقد أسلم أبو سفيان قبل دخول رسول الله مكة بيوم، بعد أن رأى بعينيه ما رأى، وشاهد جيش محمد الذي لا قبل لقريش ومشركي مكة به، ولا يستطيع أن يقاومه إنسان، وأسلم كذلك سهيل بن عمرو خطيب قريش وأحد أشرافهم وسادتهم يوم الفتح.

ولكن صفوان بن أمية وعكرمة بن أبي جهل وجموعاً معهم، قاوموا جيش خالد بن الوليد، وهو يدخل مكة من أسفلها، فقتل من المشركين اثنا عشر رجلاً ومن المسلمين رجلان.

وبدأ السلام والأمان يعودان إلى بلد الله الحرام، وتردد النداء عالياً:

ومن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن.

ومن دخل المسجد فهو آمن.

وخطب رسول الله الناس، فأعلن العفو العام حتى عن رؤوس الشرك والضلالة، وقال لهم: يا معشر قريش ما ترون أني فاعل بكم؟

قالوا: خيراً.. أخ كريم، وابن أخ كريم، قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين.

وأرسل رسول الله إلى صفوان بن أمية، والحارث بن هشام، وأبي سفيان: فقال عمر: لئن أمكنني الله منهم لأعرفنهم، قال رسول الله: مثلي ومثلكم كما قال يوسف لإخوته: «لا تثريب عليكم اليوم، يغفر الله لكم».

وأسلمت زوجة صفوان، وهي فاختة بنت الوليد بن المغيرة، وذلك يوم الفتح، وهرب صفوان إلى حيث لا يعرف مكانه إنسان إلا ابن عمه عمير بن وهب.

وجاء عمير إلى رسول الله يقول له: يا نبي الله إن صفوان بن أمية سيد قومه وقد خرج هارباً منك ليركب البحر إلى اليمن فراراً وذعراً، فهلا أمنته؟!

وفي رواية أخرى أنه قال لرسول الله: أسألك أماناً لصفوان، قد هرب، وأخشى أن يهلك، وإنك قد أمنت الأحمر والأسود، فأمنه يا رسول الله.

فقال ﷺ: «هو آمن» وفي رواية: «أدرك ابن عمك فهو آمن».

قال عمير. يا رسول الله، فأعطني آية يعرف بها أمانك، فأعطاه رسول الله عمامته التي دخل فيها مكة كما يروي ابن هشام: ويروي الذهبي في «سير أعلام النبلاء» أن رسول الله بعث إليه ابن عمه عمير بن وهب بردائه أماناً لصفوان ودعاه إلى الإسلام وأن يقدم عليه مكة.

وخرج عمير يريد جدة حيث صفوان قد هرب إليها ينتظر فيها سفينة يركبها ليذهب إلى اليمن، ويعيش هناك بعد أن هزمه الله، وهزم الشرك والمشركين وفتح مكة على الإسلام والمسلمين.

وأدرك عمير صفوان وهو يريد أن يركب السفينة ودار بينهما هذا الحوار الغريب: يقول عمير لصفوان:

يا صفوان.

فداك أبي وأمي.

الله، الله، في نفسك أن تهلكها.

فهذا أمان من رسول الله قد جئتك به ويرد عليه صفوان:

ويحك، أغرب عني، فلا تكلمني قال عمير:

أي صفوان.

فداك أبي وأمي.

أفضل الناس، وأبر الناس، وأحلم الناس، وخير الناس، ابن عمك، عزه عزك، وشرفه شرفك، وملكه ملكك.. ويقول صفوان: دعني وطريقي لن أعود أبداً. ويقول عمير:

عد معي إلى مكة، وطنك، ووطن آبائك وأجدادك، وأنت أنت، ابن مكة وشريف العشيرة، وسيد القوم، ويقول صفوان: إني أخافه على نفسي. ويرد عمير: هو أحلم من ذاك وأكرم، وينتهي الموقف بنزول صفوان من السفينة، ثم عودته مع عمير ابن عمه إلى بلده مكة.

فلما قدم صفوان على النبي ﷺ ناداه على رؤوس الناس: يا محمد إن هذا

جاءني بردائك يزعم أنك أمنتني، ودعوتني إلى القدوم عليك، فإن رضيت أقمت ودخلت في دينك، وإلا خرجت في مدة شهرين لا أتجاوزهما.

فيرد عليه رسول الله ﷺ في وقار وجلال وأناة وحلم:

صدق، انزل أبا وهب. فيقول صفوان:

لا والله حتى تبين لي .. فيقول رسول الله: لك أربعة أشهر.

-٥-

وبعد قليل يخرج رسول الله ﷺ إلى حنين في شوال من العام الثامن للهجرة. وقبل خروجه يذكر له بعض أصحابه أن لدى صفوان أدرعاً وسلاحاً كثيراً، فيبعث إليه، ويقول له، وصفوان يومئذ على شركه:

يا أبا أمية، أعرنا سلاحك هذا نلق فيه عدونا غداً فقال صفوان: أغصبا يا محمد؟

قال: بل عارية مضمونة حتى نؤديها إليك. قال صفوان: ليس بهذا بأس. فأعطى رسول الله مائة درع بما يكفيها من السلاح.

وخرج صفوان وهو على شركه مع رسول الله إلى حنين وانتصر الإسلام في حنين انتصاراً مؤزراً، وعاد رسول الله صلوات الله عليه بالغنائم والأموال، ومعه صفوان، فجعل صفوان ينظر إلى شعب ملأى نعماً وشاء، وأدام النظر، ورسول الله يرمقه، فقال له الرسول:

أبا وهب، يعجبك هذا؟

قال: نعم.

قال صلوات الله عليه: هو لك.

فقال صفوان: ما طابت نفس أحد بمثل هذا إلا نفس نبي، أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله. وكان ذلك في آخر ذي القعدة من ثمان.

ويروى عن صفوان: أتيت النبي ﷺ، فما زال يعطيني حتى إنه لأحب الخلق إلي، واستقرض رسول الله من صفوان في مكة خمسين ألفاً، فأقرضه إياها.

وعاش صفوان في الإسلام يشهد انتصاراته ويحضر أيامه، ويلقى حروبه فكان في اليرموك أميراً على كتيبة من كتائب جيش المسلمين.

وكان في غير اليرموك كذلك مجاهداً بطلاً، وعاش حتى توفاه الله إلى رحمته عام ٤١هـ رَحِمَهُ ٱللَّهُ.



اليمينيون واليسَاريون في القرآن الكريم

العدد (٨٣) ذو القعدة (١٣٩١هـ) - ديسمبر (١٩٧١هـ)

-١-

اليمين واليسار في اللغة أمرهما ذائع معروف، وقد أصبحت الكلمتان تطلقان على المعتدل والمتطرف، وعلى السهل والصعب، وعلى المعقول وغير المعقول من العقائد والمذاهب والآراء.

والفضل في استعمال هاتين الكلمتين بهذه المعاني، وفي ذيوعهما يرجع للقرآن الكريم وحده، فهو الذي كان له السبق الأول في ذلك كله، وعن القرآن الكريم أخذ القدماء والمحدثون يستعملونهما ويرددونهما كثيرا في أحاديثهم ومحاور كلامهم.

وليس هناك اليوم كلمات ذائعة مشهورة، تتردد على الألسنة كهاتين الكلمتين.

وفضل القرآن الكريم، على اللغة، وعلى التجديد والتطور اللغوي، في القديم والحديث، لا يحتاج إلى بيان، فألفاظه وأساليبه هي التي أمدت أدبنا بكثير من كنوز اللغة وطرائفها وأماثيلها، وصقله للألفاظ، وتهذيبه للأساليب وتخليده لصور البيان الرائعة والأساليب البديعة، والبلاغة النادرة، مما لا يحتاج إلى بيان، ولسنا في حاجة للدلالة عليه إلى برهان.

-٢-

ولأول مرة في اللغة العربية يرد استعمال اليمين واليسار بالمعاني السابقة في كتاب الله الحكيم، فليست هناك نصوص أدبية أقدم من القرآن الكريم، يتردد فيها ذكر هاتين الكلمتين للدلالة على المعتدل والمتطرف من العقائد والمذاهب

والأفكار، أو على الجزاء الإلهي العادل في الآخرة لأهل اليمين وأهل اليسار.

ومن الجدير بالذكر أن القرآن الكريم يستعمل اليمين في كل قصد واضح وجليل ونبيل وإنساني من العقائد، وليس هناك لفظ أخف استعمالاً، ولا أدق معنى، ولا أبلغ دلالة من هاته الكلمة فيما استعملت فيه من مقاصد واليمين ترمز إلى اليمين، والحظ الطيب، والتفاؤل الكريم، والطريق اللاحب وإلى سلوك السبيل السوي، وإلى مرضاة الله وثوابه لسالكيها.

وقد استعمل الشمال في الدلالة على عكس ذلك كله، وفي لفظة الشمال رمز إلى تنكب الفطرة، وإلى البعد عن المحجة الواضحة، وإلى ما في سلوك مثل ذلك من غاية أليمة، وفي الشمال ما في الشؤم من تطير، وهي توحي بأن طريق الشمال من وسوسة الشيطان، كما أن طريق اليمين من هداية الله، ولذلك استعمل القرآن الكريم كلمة الشمال لتدل على أعمق معاني كلمة اليسار، والتي نستعملها نحن اليوم مخطئين متنكبين عن الاستعمال الدقيق، كما تنكبنا طريقنا في فهم معنى اليمين واليسار، فعكسنا معنى الكلمتين في استعمالاتنا عكسا بينا، حتى أصبحنا ندل بكلمة اليمين على الجمود والتأخر والرجعية، وبكلمة اليسار على التحرر ونبذ القديم والدين والعقيدة، نظن أن ذلك هو سبيل التقدم والنهوض وحاشا لله أن يكون اطراح العقيدة ونبذ الدين تقدم أو نهوض أو تحرر.

ومن ثم كان استعمال القرآن الكريم لكلمة «الشمال»، وإيثاره لها على كلمة «اليسار»، أعمق فهما، وأدق مسلكاً، وأدل على المقصود منها.

-٣-

وفي القرآن الكريم من سورة الحاقة يقول الله تعالى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَٰبَهُۥ
بِيَمِينِهِۦ فَيَقُولُ هَآؤُمُ ٱقْرَءُوا۟ كِتَٰبِيَهْ ﴿١٩﴾ إِنِّى ظَنَنتُ أَنِّى مُلَٰقٍ حِسَابِيَهْ ﴿٢٠﴾ فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ ﴿٢١﴾ فِى
جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ﴿٢٢﴾ قُطُوفُهَا دَانِيَةٌ ﴿٢٣﴾ كُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ هَنِيٓـًٔۢا بِمَآ أَسْلَفْتُمْ فِى ٱلْأَيَّامِ ٱلْخَالِيَةِ ﴿٢٤﴾ وَأَمَّا
مَنْ أُوتِىَ كِتَٰبَهُۥ بِشِمَالِهِۦ فَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُوتَ كِتَٰبِيَهْ ﴿٢٥﴾ وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ ﴿٢٦﴾ يَٰلَيْتَهَا كَانَتِ ٱلْقَاضِيَةَ
﴿٢٧﴾ مَآ أَغْنَىٰ عَنِّى مَالِيَهْ ۜ ﴿٢٨﴾ هَلَكَ عَنِّى سُلْطَٰنِيَهْ ﴿٢٩﴾ خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى

سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَاسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ الْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ الْيَوْمَ هَاهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَا يَأْكُلُهُۥ إِلَّا الْخَاطِئُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الحاقة: ١٩-٣٧).

والصورتان هنا متقابلتان، وعلى غاية ما تكون البلاغة والروعة والبيان والسحر والإعجاز، وفيهما من تطويع الأسلوب وموسيقاه وجماله ما لا نجد له نظيرا ولا شبيها من كلام أبلغ البلغاء أو أعظم الشعراء.

والبلاغة القرآنية هنا تسير في طريقها الجليل النبيل، من خدمة الإنسانية، وهداية البشرية إلى الحق وإلى الله وإلى مثل الحياة وقيمها الرفيعة، واللفظ هنا بقدر المعنى، والأسلوب والبيان يسيران مع العقل والمنطق والحكمة.. ولا يمكن لواصف أن يصف شتى عناصر البلاغة والنظم في هذا النص القرآني العظيم، لأن القرآن استعصت بلاغته على فهم البلغاء، وعلى فلسفة النقاد، فلم يعودوا يعرفون من أمر هذه البلاغة شيئاً إلا أنها من كلام الخالق العظيم والإله القادر الحكيم.

-٤-

وفي سورة الواقعة يذكر الله ﷻ أهل الميمنة، وأهل المشأمة، وطبقة ثالثة هي طبقة السابقين المقربين، ويبدأ بذكر الطبقتين الأوليين لوضوحهما وكثرتهما، وأنهما الغالبية العظمى من بني البشر، ويؤخر الكلام على الطبقة الثالثة، لقلتها وندرتها ودقة أمرها.

والسورة كلها في الحديث عن هذه الطبقات الثلاث، من بدئها لختامها.. ولننظر في آياتها الكريمة، نقف عندها، نتأمل جلالها وروعتها، وسحرها وحكمتها، لنتفهم دلالتها في حياة الإنسانية كلها، في ماضيها وحاضرها ومستقبلها.

يبدأ الله ﷻ سورة الواقعة بذكر وقوع الواقعة، أي قيام القيامة وأثرها العظيم على الإنسان والكون...﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ ﴿١﴾ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ ﴿٢﴾﴾..

نعم إنها حق وصدق.

﴿خَافِضَةٌ رَّافِعَةٌ ﴿٣﴾ إِذَا رُجَّتِ ٱلْأَرْضُ رَجًّا ﴿٤﴾ وَبُسَّتِ ٱلْجِبَالُ بَسًّا ﴿٥﴾ فَكَانَتْ هَبَآءً مُّنۢبَثًّا ﴿٦﴾﴾

ثم يذكر الله ﷻ أقسام البشر يومئذ، بحسب أعمالهم ومنازلهم من الله ﷻ.

﴿وَكُنتُمْ أَزْوَٰجًا ثَلَٰثَةً ﴿٧﴾ فَأَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴿٨﴾ وَأَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْمَشْـَٔمَةِ ﴿٩﴾ وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلسَّٰبِقُونَ ﴿١٠﴾﴾.

ثم يذكر نصيب السابقين في الآخرة من رضاء الله ونعيمه، وحظهم فيها من الخير والجزاء الجميل.. وبدأ بهذا القسم الثالث تنويها وتعظيما وتشريفا وتبجيلا لمقامهم عند الله.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلْمُقَرَّبُونَ ﴿١١﴾ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿١٢﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾[1] وَقَلِيلٌ مِّنَ ٱلْـَٔاخِرِينَ ﴿١٤﴾[2] عَلَىٰ سُرُرٍ مَّوْضُونَةٍ ﴿١٥﴾ مُّتَّكِـِٔينَ عَلَيْهَا مُتَقَٰبِلِينَ ﴿١٦﴾ يَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَٰنٌ مُّخَلَّدُونَ ﴿١٧﴾ بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ﴿١٨﴾ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ ﴿١٩﴾ وَفَٰكِهَةٍ مِّمَّا يَتَخَيَّرُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَحْمِ طَيْرٍ مِّمَّا يَشْتَهُونَ ﴿٢١﴾ وَحُورٌ عِينٌ ﴿٢٢﴾ كَأَمْثَٰلِ ٱللُّؤْلُوِ ٱلْمَكْنُونِ ﴿٢٣﴾ جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢٤﴾ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا وَلَا تَأْثِيمًا ﴿٢٥﴾ إِلَّا قِيلًا سَلَٰمًا سَلَٰمًا ﴿٢٦﴾﴾.

وهكذا تمضي هذه السورة الرفيعة، جليلة كريمة، ساحرة باهرة، تتحدث عن السابقين ومنزلتهم في الآخرة عند الله ﷻ.. وليس غرضنا هنا أن نفسر السورة، ولكننا نقصد إلى بيان مضمونها وحده، وصلة هذا المضمون بماضي وحاضر ومستقبل الإنسانية، ومن ثم فلم نعرض لتفسير الآيات، ولا لتوضيح الصور، ولا لبيان بلاغة الأساليب، فهي ماثلة أمام كل ذي ذوق، واضحة عند كل ذي طبع وموهبة من البيان.

ثم يذكر الله ﷻ أهل اليمين، وما أعده الله لهم في الآخرة من نعيم..

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلْيَمِينِ ﴿٢٧﴾ فِى سِدْرٍ مَّخْضُودٍ ﴿٢٨﴾ وَطَلْحٍ مَّنضُودٍ ﴿٢٩﴾ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴿٣٠﴾ وَمَآءٍ مَّسْكُوبٍ ﴿٣١﴾ وَفَٰكِهَةٍ كَثِيرَةٍ ﴿٣٢﴾ لَّا مَقْطُوعَةٍ وَلَا مَمْنُوعَةٍ ﴿٣٣﴾ وَفُرُشٍ

(١) أي هم عدد ضئيل من الأمم السابقة.

(٢) وعدد قليل من أتباع رسالة محمد آخر الرسالات.

مَّرْفُوعَةٍ ﴿٣٤﴾ إِنَّآ أَنشَأْنَٰهُنَّ إِنشَآءً ﴿٣٥﴾ فَجَعَلْنَٰهُنَّ أَبْكَارًا ﴿٣٦﴾ عُرُبًا أَتْرَابًا ﴿٣٧﴾ لِّأَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٣٨﴾ ثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٩﴾[1] وَثُلَّةٌ مِّنَ ٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٠﴾﴾[2](الواقعة: ٢٧ -٤٠).

وتنتقل السورة الكريمة المكية، وهي سورة الواقعة، إلى ذكر أصحاب الشمال، وما أعد لهم في الآخرة، من وبال، وما يلقونه فيها من نكال..

﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ مَآ أَصْحَٰبُ ٱلشِّمَالِ ﴿٤١﴾ فِى سَمُومٍ وَحَمِيمٍ ﴿٤٢﴾ وَظِلٍّ مِّن يَحْمُومٍ ﴿٤٣﴾ لَّا بَارِدٍ وَلَا كَرِيمٍ ﴿٤٤﴾ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾ وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾ وَكَانُوا۟ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ[3] ﴿٤٨﴾ قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾.

وتستمر السورة في خطاب هؤلاء الشماليين، وبيان جزائهم في الآخرة، وفي الحجاج معهم رغبة إقناعهم بالبعث وصدق الأمر فيه وإمكان حدوثه عند العقل، لأن قدرة الله لا يستعصي عليها شيء. ولا يعجزها أمر في الأرض ولا في السماء.

ثم تتحدث السورة إلى الرسول الكريم عن القرآن العظيم، وأنه تنزيل من رب العالمين.. وتعود إلى جدال هؤلاء المشركين المكذبين الضالين وإلى مصيرهم عند الموت. (٥٠- ٨٧ من السورة).

وتلخص السورة ما تتلقى الملائكة به عند الموت كلا من هؤلاء الطبقات الثلاث:

﴿فَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَٰمٌ لَّكَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّآ إِن كَانَ مِنَ ٱلْمُكَذِّبِينَ ٱلضَّآلِّينَ[4] ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِّنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ حَقُّ ٱلْيَقِينِ ﴿٩٥﴾ فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ ﴿٩٦﴾﴾[5].

---

(١) أي هم عدد قليل من الديانات السابقة.

(٢) وعدد قليل من اتباع رسالة الإسلام آخر الرسالات.

(٣) أي أو يبعث كذلك معنا آباؤنا الأولون؟ ممن مضت عليهم آلاف السنين وهم في أجداثهم راقدون.

(٤) وهم أهل المشأمة.

(٥) الخطاب هنا لرسول الله ﷺ.

وهكذا مضت هذه السورة سورة الواقعة، في ذكر اليمينيين واليساريين، وفي ذكر طبقة رفيعة من خيار الإنسانية وأصفيائها، وهي طبقة السابقين المقربين.

على ما رأينا من الجلال والحكمة والروعة والبلاغة والبيان والسحر، سارت إلى هدفها المقصود من تبصير الإنسانية وهدايتها وإضاءة الطريق أمامها، ورسم النهايات المحتومة للبشر واضحة أمام عقلها ومخيلتها وعينيها، ليهتدي من اهتدى عن بينة، وليضل من ضل عن بينة.

– ٥ –

وجملة ذلك كله أن الله ﷻ تحدث في كتابه الحكيم عن اليمينيين واليساريين، ووصف كلا بأوصافه، وأبان ما ينال كل منهما من جزاء في الآخرة عند الله.

فإذا كان الأمر عند المسلمين المعاصرين قد انقلب إلى النقيض، فصار اليمينيون عندهم كأنهم المنبوذون أصحاب الشمال، وصار اليساريون عندهم هم المختارون وكأنهم أصحاب اليمين، فإن ذلك من وسوسة الشيطان، ومن انقلاب الميزان، ومن فساد المنطق بتأثير سموم الصهيونية، التي تنفث في عقول ضعفاء الدين شرورها، لتضلهم عن الطريق، وتبعدهم عن الهدف، وتقصيهم عن رضاء الله، وعن سبيل العزة والقوة والكرامة، ولتنقلهم من حالة الذاتية والشخصية الواضحة إلى حالة أخرى من التبعية الذليلة والتقليد الأعمى لكل ضال وضار من المذاهب والعقائد والآراء. وفي ذلك للمسلمين المعاصرين الهوان والذل والشقاء الأبدي المقيم.

اللهم اجعلنا من أهل اليمين، وأبعدنا عن ضلالات أهل الشمال، وأنزل علينا من رحمتك، ما يهدينا إلى سواء السبيل.

* * *

انتقال الحضارات

العدد (٣٥٠) شوال (١٤١٥هـ) - مارس (١٩٩٥م).

الحضارات العالمية القديمة، كالحضارة الفارسية والإغريقية والرومانية والمصرية والصينية وسواها من مختلف الحضارات العالمية البائدة، قد مثلت دورها على مسرح الحياة في فترة من فترات عصور التاريخ، ثم انتهت كأن لم تكن الأمس.

وورثتها الحضارة الإسلامية التي ازدهرت في بغداد والقاهرة ودمشق وقرطبة والقيروان وأصفهان وجرجان وبخارى وسمرقند وغيرها من عواصم العالم الإسلامي الممتد من الصين شرقاً إلى بحر الظلمات غرباً (أو المحيط الأطلسي)، ومن أوروبا شمالاً إلى أواسط قارة أفريقية جنوباً، وكانت هذه العواصم الإسلامية تسبح في نور العلم والمعرفة والتقدم والمدنية، وفي ظلال الأمن والرخاء والرفاهية والسلام.

● **حضارة متميزة**

حضارة شريفة نجمت من أصول شريفة، وقام عليها دولة جمعت كل أصول التقدم في السياسة والفكر والاجتماع والاقتصاد وكل جوانب الحياة الرفيعة، وشهد لها العلماء والمفكرون والمشرعون في كل عصر وكل جيل، حضارة أعزت الدنيا، ودوت بذكرها الآفاق، وعاش فيها الناس أحراراً مكرمين، ينعمون بشتى ألوان السعادة والثراء والرخاء والتقدم. وكانت أوروبا تنظر إليها، وتذهل لهذا التفوق الحضاري الفريد، ويصيح شاعر كبير مثل «بترارك» الشاعر الإيطالي في العصور الوسطى في مدينة روما قائلاً: «ياالله، لقد تفوقنا على كل الأمم إلا العرب الذين أذلونا بحضارتهم، فيا للخزي ويا للألم».

وجاء دور أوروبا الجاهلة الظامئة المجردة من كل شيء، فنهلت من حضارة العرب وعلومهم وثقافتهم حتى استطاعت أن تقوم على أقدامها، ثم استطاعت أن تملك زمام المبادرة، وتأخذ العنان بيدين من العرب، وأن تنشئ لها حضارة جديدة تخالف الحضارات الأخرى، ولا تتفوق على حضارة الإسلام في الروحانيات، بل في الماديات وحدها.

تقول «هونكة» المستشرقة الألمانية في كتابها «شمس العرب تسطع على الغرب»: «كل موجة علم أو معرفة قدمت لأوروبا كان مصدرها البلدان الإسلامية» «شمس العرب ٤١».

ورثت الحضارة الإسلامية كل الحضارات السابقة وزادت عليها بعداً رسالياً لم تعرفه الحضارات الوثنية كالفارسية واليونانية.

ويقول غوستاف لوبون في كتابه «حضارة العرب» «حضارة أوروبا مدينة للعرب بحضارتهم، فالعرب هم الذين فتحوا لها ما كانت تجهله من المعارف الفلسفية والعلمية والأدبية، فكانوا دائنين للغرب وأئمة له في ستة قرون. وعن طريقهم اهتدى الغرب إلى تراث الإغريق، وكشف ماضيه فأخذوا يبحثون عنه».

إن الأصول العلمية والفكرية لحضارة الإسلام وللفكر الإسلامي قد أخذها الغرب وصاغ منها حضارته التي هي صدى كبير للحضارة الإسلامية فقد سرقت أوروبا على غفلة منا، كنوزنا ومواريثنا الثقافية والحضارية، مثلما سرقت كذلك إمبراطورية المسلمين الممتدة في كل مكان، وأقامت على كل هذه الأسس حضارتها الماثلة اليوم.

● **غروب الحضارة الغربية**

ولكن حضارة الغرب اليوم قد نال منها الهرم، ودبت فيها الشيخوخة، وأخذت تقترب من حافة الفناء، يقول «بول فاليري» شاعر فرنسا الكبير: «فرنسا وإنجلترا وروسيا، وألمانيا، ويا لها من أسماء كانت جميلة كما كانت أسماء نينوى وبابل وعيلام جِدّ جميلة، ولحاق هذه الأسماء الراهنة بأسماء الأمس الغابر لم يعد شيئاً مستعصياً على الإدراك».

يقول «فولتي» من كبار رجال الفكر الأوروبي: «ماذا أصاب تلك البدائع الراهنة التي حققتها يد الإنسان».

أين هي حصون نينوى وجدران بابل؟ ومن يدري؟ لعل مسافراً في المستقبل يجد نفسه عند شواطئ السين والتايمز يجلس باكياً على بقايا الفتات الذي تحولت إليه معالم الحضارة حول هذه الأنهار».

ويعجب: «دنيس دورجمون» من العدد الذي يتضاعف بصورة مستمرة من الأوروبيين الذاهبين إلى انهيار الحضارة الغربية، ومن المتنبئين الذين يفضلون الحديث عن كشوفها.

ويقول إقبال شاعر الإسلام: «مثلت حضارة الغرب دورها، وقد شاخت وهرمت أينعت كالفاكهة وحان قطافها، ولسوف تتمخض الإنسانية عن عالم جديد، وهذا العالم لا يحسن تصميمه إلا من بنى للبشرية البيت الحرام، وَوَرّثَ محمداً وإبراهيم قيادة العالم».

ورأي إقبال يكاد يكون تفسيراً للآية الكريمة: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ﴾ (يونس: ٢٤).

فالمعنى على هذا هو فناء حضارة عجيبة من حضارات الحياة الدنيا، كانت قد بلغت غاية نمائها وازدهارها، بأمر الله وقدرته، وفي لحظة من ليل أو نهار زالت وانتهت.

وما يقوله إقبال يقوله مفكرو العالم وفلاسفته في كل لحظة. ونحن نعلم أن ميزان القوة في العالم متغير أبداً، وعلى امتداد التاريخ.

ولكني أقول كما قال بعض المفكرين: إنه لن تجد الإنسانية يوم تتهاوى حضارة الغرب عقيدة تؤمن بها، وتؤمّن بها مصيرها، إلا الإسلام.

فالإسلام وحده والإيمان به، سوف يكونان ضرورة بشرية، لأن ذلك هو مسيرة الحياة والتاريخ، وحتمية انتصار الحضارة، وهو العلاج الوحيد لكل مشكلات العالم، وهو النتيجة الأخيرة لقدرة الإنسان على مواجهة:

التحديات التي يتحداه بها عصره وقدره

ويومئذ سيعيد التاريخ نفسه مبتدئاً من الشرق الإسلامي عوداً على بدء: من المنطقة التي قامت فيها الحضارة الإسلامية، وستثبت يومئذ هذه المنطقة وجودها، وستقلب موازين القوى، لأن قوة الإسلام وحضارته قائمة على أسس لا تتوافر في غيرها من تيارات القوى العالمية. وقد أدرك مفكر إنجليزي ذلك حيث كتب يقول: «لا يساورني شك في أن الحضارة التي ترتبط أجزاؤها برباط متين، وتتماسك أطرافها تماسكاً قوياً، وتحمل في طياتها عقيدة مثل الإسلام، لا ينتظرها مستقبل باهر فحسب، بل ستكون أيضاً خطراً على أعدائه» (باول شمتز في كتابه الإسلام قوة الغد العالمية). كما يقول: «إن قوة القرآن في جمع شمل المسلمين لم يصبها الوهن».

إن سفينة العالم التي قد أصابها الخور اليوم سوف تجد في الإسلام المرفأ الأمين الذي يتقدم بالفعل سفينة الحضارة العالمية، وهذا ما كان يقوله مستشرق مثل عبد الكريم جرمانوس، وما يقوله اليوم «روجيه جارودي» الذي نادى بحتمية الرجوع إلى الإسلام لإنقاذ الإنسانية من المصير المهلك. إن حضارة الإسلام هي ولا ريب حضارة المستقبل.



شعــر

أيُّها التاريخ!!

العدد (٤٠١) محرم (١٤٢٠هـ) - إبريل (١٩٩٩م).

-١-

هـجـرةٌ مـثَّـلـتْ جـهـادَ نـبـيٍّ   وأمـين عـلى الهـدى مـهـدي
هـجـرةٌ فـيـهـا عـبـقـريـة إلـهـا   مِ، ووحـيٌ لمـرسـل نـبـوي
وبـهـا كـل عـزة وجـلال   لـلـرسـول المـكـرَّم اليعـربيِّ
صار للمسلمين فيها وللإسـ   لام فـخـرٌ عـلى الـزمـان الـقـصيِّ
ولـهـا في الـتـاريـخ أشرف ذكر   ولهـا فـيه كـلُّ مجـد عـليِّ

- ٢ -

هـجـرةٌ كـانـت لـلـرسـالـة فـتـحاً   ولـديـن الـلـه الـعـظـيـم الـسـني
أحـمـد والـصـديـق وحـدهـمـا في   مـوكـب فـذٍّ خـالـد عُـلْـوِيٍّ
وقـريـشٌ مـن خـلـفـهـم، أمـة تـ   ـتـبـع آثـار مـوكـب عـبـقـريٍّ
مـوكـب سـار، سـار فـيـه نـبـيّ   مـرسـل، أكـرِمْ بـالـرسـولِ الـنـبيِّ
بـالـبـشـيـر الـنـذيـر طـه وأعـظـم   بخـطـى ذيـاك الأمـين الـوفي

-٣-

هـجـرةٌ مـزّقـت قـنـاع الـديـاجـي   وأعـزَّت نـفـس الـفـقـير الـشـقـيّ
إنهـا الـنـور هـجـرة المـصـطـفى كلُّ   جـلال مـن مجـدهـا الـقـدسيِّ
إنهـا الـصـفـحـة المـضـيـئـة في الـتا   ريـخ تهـدي إلى الهـدى كـل حـيٍّ
«غـار ثـور» شـهـدت أعـظـم مجـد   وشـهـدت الـتـاريـخ جـدَّ غـنيٍّ

فـالـعـلا والـفـخـار لابـن لـؤيٍّ والمـنـى والجـلال لابـن قـصيٍّ
قـد أضـاء الـزمـانَ حـقٌّ وعـدل بـهـمـا جـاءت شرعـةُ الهـاشمـيِّ
فبـهـا تـنـعـم الـشـعـوب وتـحـيـا أمـة الإسـلام الـعـظـيـم الأبيِّ
قد أتى الـنورُ من حراء جليلاً ونـبـيلاً في صـبـح يـوم زكـيِّ
في ضحى مشرق وضيءٍ سريٍّ قـد أتى بـالـديـن الـوضيء الـسري
وأتـى الـعـالـمـيـن عـصـرٌ جـديـدٌ فـيه بـالـديـن عـزَّ كـلُّ شـقـي
إنـه الـوحـي، إنـه الـحـق والـقـر آن يُـوحـى لأحـمـد الـعـربيِّ
المنى فيه والسنا والهدى، والـ خـير مـنـه وكـلُّ عـبـق رضيِّ
ولـجـبـريـل فـي حـراء دويٌّ ظـل يـصـغـي الـورى لهذا الـدويِّ
أيها التاريخ اروِ عن أحمد النو رِ وجـبريـل والـنـداءِ الـعـليِّ
إنه الإسلام العظيم، فلا فخـ ـر ولا عـزةٌ لـغـير الـتـقـيِّ
كـان من قـبـلـه الإخـاء خـيـالاً ليس أعـرابي أخـا الأعـجـمـي
قـبـلـه كـانـت الـمـسـاواةُ وهـمـا ذاك بـكـريٌّ ليس بـالـتـغـلـبيِّ
قبلها كانت الشعوب حيارى خـيرهـا لـلـدخـيـل والأجـنـبيِّ
إنـه الـديـن إنـهـا هـجـرةُ الـهـا دي الـرسـول المشـفَّـع المـهـديِّ
لا ورب الـجـلال إنـي عـيـيٌّ وبـيـاني يـا قـوم جـدُّ عـيـيِّ
لا تلمني أنا الذي لمتُ شعري ولـقـد كـان قـبـلُ جـدَّ ثـريِّ



الحق والواجب في الشريعة الإسلامية

العدد (٤٣٨) صفر (١٤٢٣هـ) - مايو (٢٠٠٢م).

- ١ -

الواجب والحق متلازمان في كل تشريع سماوي أو وضعي، فالواجبات تقابلها الحقوق، والحقوق تقابلها الواجبات.

العامل عمله التزام واجب، فإذا عمل صار له حق، وهو الأجر أو المكافأة، والطالب دراسته واجبة، فإذا أدى واجبه صار من حقه أن ينال النجاح.

والتاجر من الواجب عليه الأمانة في المعاملة، فإذا أدى ما عليه صار من حقه أن يأخذ الثمن والإنسان أداؤه ما عليه من التزام ألزمه به الله جل جلاله كان ممن أدى الواجب، وكان حقاً له أن ينال الجزاء الأوفى من مولاه ﷻ.

والإسلام يفرض على المسلم الإيمان الكامل بالله وبكتبه ورسالاته وبرسله وباليوم الآخر. كما يفرض عليه أن يلتزم بشريعة التوحيد المطلق، فلا إله إلا الله وحده لا شريك له، وباحترام حق الإنسان في المال والعرض والنفس والدين والعدل والمساواة والإخاء والحرية، ويلتزم بكل ما أمر به الخالق الأعظم من عبادات وطاعات ويترك كل ما نهاه عنه من معاص وذنوب وآثام.. فإذا التزم الإنسان بذلك نال رضا الله ومثوبته ورحمته.

شريعة السماء وقوانين الأرض كلها تلزم الإنسان بالواجب، وتجعل له الحق في الجزاء الأوفى.

فالواجب أولاً، والحق ثانياً، والإنسان لا يطالب مسؤولاً بحق من حقوقه إلا

إذا أدى ما عليه من واجبات، ومن ثمَّ نجد جميع الشرائع والتشريعات تطالب الإنسان بما يجب عليه من واجبات وتعده بأن ينال حقوقه كاملة غير منقوصة، القيام بالواجب هو الأساس لأخذ الحقوق.

والقرآن الكريم حين يتحدث يربط بين الحق والواجب، ويجعل الواجب هو الأساس للفوز بالحقوق.

يقول الله ﷻ: ﴿إِن تَنصُرُوا۟ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ (محمد: ٧)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ (الرعد: ١١). ويقول ﷻ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَـٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا۟ وَلَا تَحْزَنُوا۟ وَأَبْشِرُوا۟ بِٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى كُنتُمْ تُوعَدُونَ ۝٣٠﴾ (فصلت: ٣٠). ويقول ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَءَامِنُوا۟ بِرَسُولِهِۦ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِۦ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ۝٢٨﴾ (الحديد: ٢٨).

وحين يرفع الإنسان يديه بالدعاء إلى الله ﷻ امتثالاً لقوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ (غافر: ٦٠)، وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لِى وَلْيُؤْمِنُوا۟ بِى لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ۝١٨٦﴾ (البقرة: ١٨٦)، يجب عليه لينال إجابة الدعاء أن يكون مطيعاً لله مؤمناً به حق الإيمان مستجيباً لأوامره، تاركاً لنواهيه، ويقول الله ﷻ: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ۝٤٠ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ (الحج: ٤٠-٤١).

– ٢ –

الله ﷻ يلزم المسلم بالواجب أولاً، ويؤيده بنصره ونعمته وتمكينه وبسعادة الدارين عندئذ وبعدما يؤدي ما عليه لمولاه من واجبات.

والحديث الشريف الجامع قوله ﷺ: «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته الرجل راع في بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في مال الزوج ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته، والإمام راع ومسؤول عن

رعيته، ألا كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته»[١].

وفي حديث رسول الله ﷺ عن أنس رضي الله عنه: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»، وعن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يسلمه[٢]، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرَّج عن مسلم كربة فرَّج الله عنه بها كربة من كرب يوم القيامة، ومن ستر مسلماً ستره الله يوم القيامة» رواه مسلم، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يحقره، بحسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه وماله وعرضه» رواه مسلم.

- ٣ -

والواجبات على الإنسان في الإسلام كثيرة، فعليه واجبات نحو نفسه ونحو أسرته، ونحو مجتمعه الصغير، ونحو مجتمعه الكبير، ونحو وطنه، ونحو الإنسانية كلها، وقبل كل شيء عليه واجبات نحو ربه ودينه، وتلك كلها واجبات مفصَّلة في الشريعة الإسلامية ويطول بنا الحديث لو ألممنا بأطرافها.

والإسلام لم يدع صغيرة ولا كبيرة من هذه الواجبات إلا وفصَّلها، وجعلها ملزمة للمسلم يحاسبه عليها ربه ودينه وضميره النقي الطاهر، ويحاسبه عليها ملائكة الله وجنده، ويحاسبه عليها مجتمعه وقوانين المجتمع المستمدة من شريعة الإسلام، وقد أمر الله عز وجل الإنسان المسلم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وحين تولى أبو بكر خلافة المسلمين كان أول خطبة له قوله: «أطيعوني ما أطعت الله فيكم فإن عصيته فلا طاعة لي عليكم».

---

(١) رواية مسلم: «كلكم راع، وكلكم مسؤول عن رعيته، الإمام راع ومسؤول عن رعيته، والرجل راع في أهل بيته ومسؤول عن رعيته، والمرأة راعية في بيت زوجها ومسؤولة عن رعيتها، والخادم راع في مال سيده ومسؤول عن رعيته».

(٢) أي لا يلقيه في الهلكة أو يحميه من عدوه.

والعبادات في الإسلام طاعة واجبة على المسلم نحو ربه ودينه، وفي أولها التوحيد الخالص، والإيمان المطلق، والعقيدة الثابتة القوية، والاعتقاد بأن كل الأمور بيد الخالق الأعظم، والمهيمن القادر، وأنه مع المسلم في سلمه وحربه، ويسره وعسره، ويقظته ونومه، وأنه لا يحرم أحداً من فضله، وأنه يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، فطاعة الله واجبة وعبادته حتم لازم.. ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ۝٥٦﴾ (الذاريات: ٥٦)، ويقول ﷻ: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤﴾ (طه: ١٤).

الأساس الأول في الإسلام أن يسلم المرء وجهه لله ﷻ، وأن يخلص له في عبادته، وأن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك، كما جاء في الحديث الشريف، ويقول الله ﷻ في سورة البينة: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُواْ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ۝٥﴾ (البينة: ٥).

ويقول ﷻ: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ ۚ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بَٰلِغُ أَمْرِهِۦ ۚ قَدْ جَعَلَ ٱللَّهُ لِكُلِّ شَىْءٍ قَدْرًا﴾ (الطلاق: ٢-٣).

-٤-

وحقوق الإنسان حقوق شخصية أو اجتماعية أو سياسية أو أدبية أو فكرية.

والإسلام أقر حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة، وألزم بها الناس جميعاً، وفي مقدمها حق الحياة، وحق الحرية وحق الملكية وحق التعليم، وحق التصويت الانتخابي لتكوين المجالس العامة والخاصة، وحق تكوين الأسرة، وحق العمل، وحق التعبير عن الرأي في حدود الدين وغيرها.

والإسلام يقر حقوق الإنسان كاملة غير منقوصة أقرها منذ ألف وأربعمائة عام أو يزيد قبل أن تقرها الثورة الفرنسية، وقبل أن تقرها هيئة الأمم المتحدة، لأزمنة متطاولة، وسند الحق في الإسلام هو الله ﷻ، وهو القرآن الكريم، وهو دين الله المنزل وشريعته السماوية، وهو قوانين السماء، قبل قوانين الأرض.

و«روسو» يجعل سند الحق هو العقد الاجتماعي وهو كلام لا يؤدي إلى

غاية، والدين هو السند الأعظم لكل حق للإنسان، أما الذين ينادون بالعقل ويقولون إن العقل هو السند الأكبر للحق فهم يدورون في حلقة مفرغة، فمن الذي يلزم الإنسان بحكم العقل، لقد احترم الإسلام الإنسان، وسمى سورة من سور القرآن الكريم بسورة الإنسان، وهي سورة مدنية، وآياتها إحدى وثلاثون آية، وفاتحتها: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾﴾.

جلَّت قدرة الله، وعظمت آلأؤه على الإنسان، وكرمت في ظل رسالاته قيمة هذا الإنسان، خليفة الله في الأرض، وسليل آدم أبي البشر الذي استخلفه الله ﷻ في الأرض.

والله ﷻ أعلم بأمر خلقه، وأعظم حام لحقوق هذا الإنسان الذي خلقه، حقه في الحياة والحرية وحقه في الإخاء والمساواة، وحقه في إدارة شؤونه الخاصة كما يهديه عقله القويم، الملتزم بتعاليم السماء، وصدق القائلون: «لا حرية من دون التزام، ولاحق من دون واجب، ولا حياة من دون دين».



اختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية

(العدد ٤٨١) رمضان (١٤٢٦هـ) - نوفمبر (٢٠٠٥م).

(١)

الفقهاء يختلفون أحياناً كثيرة في الحكم الشرعي لأن لكل فقيه مصادره ولكل فقيه اجتهاداته وما أكثر ما اختلف الفقهاء في الأحكام الشرعية وهو اختلاف ينم عن سعة أفق، وغزارة مادة وتعدد مصادر ومحاولة جادة للوصول إلى هدف الشارع الحكيم ونحن أمام كتاب قيم للإمام الشيخ محمد عبد الحميد الأسمندي (المتوفى في العام ٥٥٢هـ- ١١٥٧م) وهو صادر عن مكتبة دار التراث في القاهرة في ٥٣٤ صفحة بتحقيق وتعليق العلامة الأستاذ الدكتور المرحوم محمد زكي عبد البر رَحِمَهُ ٱللَّهُ على عمله الجليل النافع، وعنوان الكتاب «طريقة الخلاف في الفقه بين الأئمة الأسلاف».

أما المؤلف فهو الإمام الأسمندي (٤٨٨- ٥٥٢هـ) الحنفي. وقد ولد بسمرقند وتوفي ببخارى عن أربعة وستين عاماً ويعرف بالعلاء وكان عالم علماء الشرق، وله كتاب آخر عنوانه «أصول الفقه». وهو منسوب إلى قرية من قرى سمرقند اسمها أسمند. وهو من فحول الفقهاء أتباع أبي حنيفة وكان إماماً بارعاً من فرسان الكلام وقدم بغداد وجالس فقهاءها وناظر علماءها وكان بارعاً في العلوم كلها أصولها وفروعها مفرط الذكاء قليل النظير.

وأما المحقق فقد كان علماً من أعلام القانون والفقه وأصوله، وقد شغل مناصب قضائية عديدة كنائب رئيس محكمة النقض سابقاً وأستاذ للشريعة الإسلامية والقانون المدني في كليات الشريعة والقانون بالأزهر والجامعات

العربية، وتوفي في ٢٥/ ١/ ١٩٩٨ ومن مؤلفاته:

١- نظرية تحمل التبعة في الفقه الإسلامي- القاهرة ١٩٥٠.

٢- الحكم الشرعي والقاعدة القانونية- الكويت - ١٩٨٢.

٣- التصرفات والوقائع الشرعية- الكويت ١٩٨٢.

٤- الربا وأكل المال بالباطل- الكويت ١٩٨٢.

٥- تقنين الفقه الإسلامي - قطر ١٩٨٢.

٦- أحكام العقود الناقلة للملك - قطر ١٩٨٢م.

٧- أحكام المعاملات المالية في الفقه الحنفي- قطر ١٩٨٦.

٨- تحفة الفقهاء للسمرقندي (٥٣٩هـ) طبع دمشق ١٩٥٩م.

٩- ميزان الأصول في نتائج العقول - قطر ١٩٨٤م.

وغيرها العديد من البحوث والدراسات الجادة.

(٢)

والكتاب (طريقة الخلاف) محقق عن مخطوطة في مكتبة قولة بدار الكتب المصرية نسخت عام ٦٧٢هـ ومؤلفه يعرض العديد من المسائل في الفقه التي كانت محل خلاف بين الفقهاء في مختلف أبواب الفقه الإسلامي، وفي كل مسألة يعرض المسألة كما هو رأي الأحناف ثم يذكر رأي الشافعية فيها، وقد يعرض للخلاف بين الحنفية أنفسهم معللاً ومرجحاً مع بيان أدلة كل رأي وما يوجه إليه من اعتراض، والمحقق يجتهد في تحقيق النص مشيراً إلى المصادر ومخرجاً للأحاديث ومترجماً للأعلام.

ولقد بذل غاية الجهد في إخراج الكتاب إخراجاً علمياً رفيعاً في صبر وأناة، وصدر الكتاب بكلمة للمرحوم الشيخ علي الخفيف أستاذ الشريعة الإسلامية بكلية الحقوق بجامعة القاهرة كتبها مقدمةً لكتاب «تحفة الفقهاء» بتحقيق الدكتور الأستاذ محمد زكي عبد البر، والمقدمات التي مهد بها المحقق للكتاب مهمة ومفيدة وتقع في نحو ستين صفحة والكتاب في مجمله مقارنة بين فقه أبي حنيفة

وفقه الشافعي وقد تكون المقارنة بين أبي حنيفة وصاحبيه كما ذكرناه رحمهم الله جميعاً وأجزل لهم حسن الجزاء والثواب.

واختلاف الفقهاء في الأحكام الشرعية اجتهاد منهم في الحكم الشرعي وفي تفسير الدليل الشرعي من الكتاب والسنة ومراعاة المصالح ورفع الضرر، وعمل بالاستحسان عند من يجيزه.. وكل ذلك حرص على إيضاح الحكم الشرعي وتحليل له وتدليل عليه.

(٣)

ونعرض هنا بعض صور من الكتاب لتدل على منهج المؤلف فيه وطريقة المحقق في تحقيقه:

١- الزكاة واجبة في الحلي عند أبي حنيفة ولا تجب فيها عند الشافعي - يقول المحقق هنا: إن عدم وجوب الزكاة فيها عند الشافعي إذا كانت حلياً يحل لبسها كحلي النساء وخواتيم الفضة للرجال ونحوها فلا زكاة فيها في أحد القولين، وقال الشيرازي في «المهذب» فيه قولان أحدهما لا تجب فيه الزكاة والثاني تجب. واستخار الله فيه الشافعي واختاره، وفي «رؤوس المسائل للزمخشري» الزكاة تجب في الحلي عندنا (أي عند الحنفية) سواء كانت للرجال أم للنساء وعند الشافعي لا تجب إذا كانت للنساء، والمؤلف الأسمندي يعلل لوجوب الزكاة في الحلي بإفاضة، ويذكر أن وجوب الزكاة فيها معارض بقوله عليه السلام: «لا زكاة في الحلي»، وبقول ابن عمر: «زكاة الحلي إعارتها». وعن الحديث يقول المؤلف: إنه غير ثابت ولئن ثبت فيحمل على اللآلئ والجواهر، والمحقق لا يترك كلمة بدون تعليق وفائدة وإشارة إلى المصادر (راجع ١٢- ١٤ من الكتاب).

٢- النية في الصوم عند الأحناف إذا صام رمضان بمطلق النية أو بنية النفل أجزأه. وعند الشافعية لا يجزئه لأن صوم الفرض والواجب لا يصح بدون نية الفرض والواجب، وأما التطوع فيصح بمطلق النية، والمؤلف يعرض لأدلة

الأحناف في هذه المسألة ويقول: حكم الأحناف فيها معارض بقوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى»، والمحقق يجلي الموضوع في تعليقه مشيراً إلى المصادر المختلفة.

٣- الأب لا يملك إجبار البكر البالغة على الزواج ويملك إجبار الصغيرة سواء كانت بكراً أم ثيباً، وغير الأب والجد مثل الأخ والعم يملك تزويج الصغير والصغيرة ولهما الخيار إذا بلغا فيرفعان الأمر إلى القاضي حتى يفسخ القاضي عقد الزواج، وعند أبي يوسف يقع العقد لازماً. والمؤلف يفيض في شرح المسألة إفاضة بالغة، ويتابعه المحقق في الشرح والتدليل وذكر المصادر. ويستوفي المؤلف في هذا الموضوع كل الآراء والأدلة باستيعاب.

٤- قضاء القاضي في العقود بشهادة الزور ينفذ ظاهراً وباطناً عند الأحناف وعند غيرهم ينفذ ظاهراً لا باطناً والوجه فيه عند الحنفية أن القاضي قضى بأمر الشرع فينفذ قضاؤه ظاهراً وباطناً قياساً على الشهود الصادقين. ويقول المؤلف: لا نسلم بأن القاضي قضى بأمر الشرع فإن ذلك إذا كانت الشهادة صدقاً، أما إذا كانت الشهادة صدقاً عند القاضي وهي كذب في نفسها فهو غير مأمور بالقضاء، بل منهي عنه، لما فيه من تحليل الحرام وتحريم الحلال وإلحاق الضرر بالمسلمين..

وقد يقول معترض، إن صدق الشهود أمر باطن لا يمكن للقاضي الوقوف عليه فلو علقنا الأمر بالقضاء به لا يمكنه، فيؤدي إلى تعطيل المصالح، والجواب عن ذلك بأمرين: الأول: إنه إنما يؤدي إلى تعطيل القضاء إن لم يكن القاضي بنى قضاءه على العلم وإنه يمكنه أن يقول إذا كان الشهود صادقين قضيت بكذا.

والثاني إن لم يمكنه العلم بصدق الشهود يمكنه تحصيل الظن به.. الخ.

(٤)

والكتاب رائع حقاً، والحجاج حول الأحكام مفيد كل الفائدة. وهذا لون طريف من ألوان الحجاج الفقهي حول الأحكام الشرعية، ويدل على عقل فقهي

واسع الأفق عميق المادة غزير العلم.

وبعد: فإني لا أملك إلا أن أشيد بالكتاب وبمؤلفه إشادتي بالمحقق الجليل رَحِمَهُ ٱللَّهُ الذي أثرى الكتاب بما أضاف إليه من تعليقات ذات مادة غزيرة وعلم واسع وعقل قانوني بعيد الغور.. رَحِمَهُ ٱللَّهُ.

* * *

٢٨ مقالات

الشيخ د. محمد حسين الذهبي

- ترجمة الشيخ.
- المقالات:

١- الاتجاهات المنحرفة في التفسير للصوفية.

العدد (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م).

٢- القرآن والعلم (١).

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢م) - مايو (١٩٧٢م).

٣- القرآن والعلم (٢).

العدد (٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ) - يونيو (١٩٧٢م)

٤- القرآن والعلم (٣).

العدد (٩٠) جمادى الآخرة (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م)

٥- إعجاز القرآن الكريم.

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

٦- التعريف بالقرآن.

العدد (١٠١) جمادى الأولى (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م)

٧- جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم.

العدد(١٠٢)جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

٨- منهج القرآن في بيان الأحكام.

العدد (١٠٤) شعبان (١٣٩٣هـ) - أغسطس (١٩٧٣م).

مقالات

٩- الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم.

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

١٠ - مشكلة الدعوة والدعاة (١).

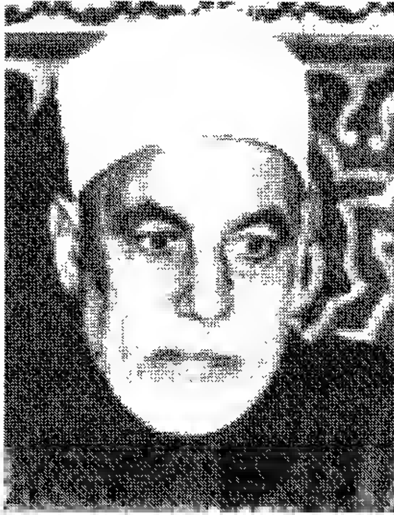
العدد (١٥٨) صفر (١٣٩٨هـ) - يناير (١٩٧٨م).

١١- مشكلة الدعوة والدعاة (٢).

العدد (١٥٩) ربيع الأول (١٣٩٨هـ) - فبراير (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ الدكتور

محمد حسين الذهبي



● **مولده ونشأته**

ولد الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي في قرية مطوبس في محافظة كفر الشيخ عام ١٩١٥م. والتحق بكلية الشريعة جامعة الأزهر وتخرج منها عام ١٩٣٩م.

حصل الذهبي على الماجستير ثم الدرجة العالمية (الدكتوراه)، بدرجة أستاذ في علوم القرآن عام ١٩٤٦ من كلية أصول الدين في جامعة الأزهر وذلك عن رسالته «التفسير والمفسرون» التي أصبحت بعد نشرها أحد المراجع الرئيسة في علم التفسير.

عمل الدكتور الذهبي أستاذاً في كلية الشريعة جامعة الأزهر وأُعير عام ١٩٦٨ إلى جامعة الكويت. بعد عودته عام ١٩٧١م عين أستاذاً في كلية أصول الدين ثم عميداً لها ثم أميناً عاماً لمجمع البحوث الإسلامية في الخامس عشر من أبريل عام ١٩٧٥م.

أصبح وزيرا للأوقاف وشؤون الأزهر وذلك حتى نوفمبر عام ١٩٧٦م.

● **من أهم مؤلفاته**

«التفسير والمفسرون، الوحي والقرآن الكريم، الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم، تفسير ابن عربي، الإسرائيليات في التفسير والحديث، أثر إقامة الحدود في استقرار المجتمع، عناية المسلمين بالسنة، مدخل لعلوم الحديث والإسلام والديانات».

● **وفاته**

اغتيل الشيخ الدكتور محمد حسين الذهبي عام ١٩٧٧ من قبل جماعة التكفير والهجرة بعد اختطافهم له.

الاتجاه المنحرف في التفسير للصوفية

العدد: (٧٦) ربيع الآخر (١٣٩٠هـ) - مايو (١٩٧١م)

وجد التصوف - بمعنى الزهد والتقشف والمبالغة في العبادة - منذ الصدر الأول للإسلام، ولم يعرف لفظ التصوف، ولم تطلق كلمة الصوفية على هؤلاء الزهاد إلا في منتصف القرن الثاني الهجري، وفي هذا القرن تولدت بعض الأبحاث الصوفية وظهرت تعاليم القوم ونظرياتهم التي تواضعوا عليها، وأخذت هذه الأبحاث والتعاليم تنمو وتتزايد كلما تقادم العهد عليها، وبمقدار ما يستفيده القوم ممن يتصلون بهم من الفلاسفة وغيرهم.

ولقد كان لبعض المتصوفة صلات قوية بالفلاسفة، واهتمام ظاهر بالنظريات الفلسفية، حتى وجدنا من بينهم رجالا أشبه بالفلاسفة منهم بالصوفية، وأصبحنا نرى بعضهم يدين بنظريات فلسفية لا تتفق ومبادئ الشريعة، ومن هنا كان للمتصوفة في تصوفهم اتجاهان: اتجاه نظري يقوم على البحث والدراسة، واتجاه عملي يقوم على التقشف والزهد والتفاني في طاعة الله.

وكان للمتصوفة - كغيرهم من طوائف المسلمين- دراسات في القرآن الكريم، وكان لهم في تفسيره مؤلفات حوتها المكتبة الإسلامية، بعضها قديم وبعضها حديث، وكانت دراسات المتصوفة للقرآن وشروحهم له عليها طابع التصوف، فظهر فيها بوضوح أثر التصوف النظري الذي ينبني على مقدمات علمية تنقدح في ذهن الصوفي أولا، ثم ينزل القرآن عليها بعد ذلك.

كما ظهر بوضوح- أيضا- أثر التصوف العملي الذي يرتكز على رياضة روحية، يأخذ بها الصوفي نفسه حتى يصل إلى درجة تتكشف له فيها من سجوف العبارات إشارات قدسية، وتنهل على قلبه من سحب الغيب معارف سبحانية،

يشرح بها كتاب الله ﷻ .

وإذا ما ذهبنا نستعرض ما للقوم من تفسير صوفي نظري، وما لهم من تفسير إشاري فيضي، وجدنا في هذا وذاك اتجاها منحرفا عن النهج القويم لتفسير القرآن الحكيم، فالتفسير الصوفي النظري تفسير يخرج بالقرآن في الغالب عن هدفه الذي يرمي إليه.. يقصد القرآن هدفا معينا بنصوصه وآياته، ويقصد الصوفي هدفا معينا بأبحاثه ونظرياته، وقد يكون بين الهدفين تنافر وتضاد، فيأبى الصوفي إلا أن يحول القرآن عن هدفه ومقصده إلى ما يقصده هو ويرمي إليه، وغرضه بهذا كله أن يروج لتصوفه على حساب القرآن، وأن يقيم نظرياته وآراءه على أساس من كتاب الله وبهذا الصنيع يكون الصوفي قد خدم فلسفته ونظرياته الصوفية، ولم يقدم للقرآن شيئا إلا هذا التأويل الذي كله شر على الدين وإلحاد في آيات الله.

رأينا ابن عربي يميل ببعض الآيات إلى ما يذهب إليه من القول بوحدة الوجود، ورأينا غيره كأبي يزيد البسطامي والحلاج ومن على شاكلتهما يسلك هذا المسلك نفسه أو قريبا منه، ووحدة الوجود عندهم معناها: أنه ليس هناك إلا وجود واحد، كل العالم مظاهر ومجال له، فالله سبحانه هو الموجود بحق وكل ما عداه ظواهر وأوهام، ولا توصف بالوجود إلا بضرب من التوسع والمجاز.

هذا المذهب خول لمثل الحلاج أن يقول: أنا الله، ولمثل ابن عربي أن يقول: إن عجل بني إسرائيل أحد المظاهر التي اتخذها الله وحل فيها، والذي جره فيما بعد إلى القول بوحدة الأديان، وأنه لا فرق بين سماوي وغير سماوي، إذ الكل يعبدون الإله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات.

ولقد وجدنا لابن عربي في الفتوحات المكية، وفي فصوص الحكم، وفي كتاب التفسير المنسوب له أقوالا في التفسير بناها على نظرياته في وحدة الوجود، فمن ذلك أنه فسر قوله تعالى في سورة الإسراء ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ (الإسراء: ٢٣)، فقال ما نصه: «فعلماء الرسوم يحملون لفظ قضى على الأمر، ونحن نحمله على الحكم كشفا وهو الصحيح، فإنهم اعترفوا أنهم ما يعبدون هذه الأشياء إلا لتقربهم إلى الله زلفى، فأنزلهم منزلة النواب الظاهرة

بصورة من استنابهم، وما ثم صورة إلا الألوهية فنسبوها إليهم، ولهذا يقضي الحق حوائجهم إذا توسلوا بها إليه غيرة منه على المقام أن يهتضم، وإن أخطأوا في النسبة فما أخطأوا في المقام..» من الفتوحات جـ٣ ص ١١٧ .

ولما فسر قوله تعالى: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾ ... (البقرة: ١٦٣)، قال ما نصه: «... إن الله تعالى خاطب في هذه الآية المسلمين.. والذين عبدوا غير الله قربة إلى الله فما عبدوا إلا الله، فلما قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى فأكدوا ذكر العلة، فقال الله لنا: إن إلهكم والإله الذي يطلب المشرك القربة إليه بعبادة هذا الذي أشرك به واحد، كأنكم ما اختلفتم في أحديته...» في الفتوحات جـ ٤ص ١٦٠ وما بعدها.

ولما فسر قوله تعالى في سورة المزمل: ﴿وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا ۝٨ رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَاتَّخِذْهُ وَكِيلًا ۝٩﴾ (المزمل: ٨-٩) قال ما نصه: «واذكر اسم ربك الذي هو أنت، أي اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسك الله، واجتهد لتحصيل كمالها، بعد معرفة حقيقتها ﴿رَّبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ﴾ أي الذي ظهر عليك نوره فطلع من أفق وجودك بإيجادك، والمغرب: الذي اختفى بوجودك وغرب نوره فيك واحتجب بك» من تفسير ابن عربي جـ٢ ص٣٥٢.

ومن التفسير الذي تأثر فيه ابن عربي بنظريات الفلاسفة، ولكنه لا يبلغ في انحرافه مبلغ ما سبق، تفسيره لقوله تعالى في سورة مريم، في شأن إدريس عليه السلام: ﴿وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا ۝٥٧﴾ (مريم: ٥٧) وذلك حيث يقول: «وأعلى الأمكنة المكان الذي تدور عليه رحى عالم الأفلاك، وهو فلك الشمس، وفيه مقام روحانية إدريس، وتحته سبعة أفلاك وفوقه سبعة أفلاك، وهو الخامس عشر...» ثم ذكر الأفلاك التي تحت فلك الشمس والتي فوقه، ثم قال: «وأما علو المكانة فهو لنا أعني المحمديين كما قال تعالى: ﴿وَأَنتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ﴾ (محمد: ٣٥)، من الفصوص جـ١ص ٢٦ .

ومن ذلك أيضا تفسيره لقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ۝١٩ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ۝٢٠﴾ (الرحمن: ١٩-٢٠)، حيث يقول: مرج البحرين، بحر

الهيولي الجسمانية الذي هو الملح الأجاج، وبحر الروح الذي هو العذب الفرات «يلتقيان» في الوجود الإنساني «بينهما برزخ» هو النفس الحيوانية التي ليست في صفاء الروح المجردة ولطافتها، ولا في كثرة الأجساد الهيولانية وكثافتها «لا يبغيان» لا يتجاوز أحدهما حده فيغلب على الآخر بخاصيته، فلا الروح يجرد البدن ويخرج به ويجعله في جنسه، ولا البدن يجسد الروح ويجعله ماديا.

سبحان خالق الخلق القادر على ما يشاء. من تفسير ابن عربي جـ٢ ص ٢٨٠.

وليس من شك في أن التفسير الذي أقامه ابن عربي على نظرية وحدة الوجود لا يقبل بحال من الأحوال، لأنه هدم الدين من أساسه كما أن التفسير الذي أقامه على نظريات الفلسفة في الطبيعة وما وراء الطبيعة لا يقبل على أنه تفسير موافق لمراد الله تعالى ومقصوده الذي جاء القرآن من أجله.

هذه كلمة الحق أقولها في الاتجاه النظري للتفسير الصوفي.

أما الاتجاه الإشاري أو الفيضي، فللقوم فيه جولات وشطحات، وإذا ما بحثنا عن مستند لهذا الاتجاه في التفسير، وجدنا مستندهم الأول والأهم ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن.

وعلماء الرسوم- في زعم القوم- يفهمون الظاهر فقط، أما الباطن فلا يدركه إلا من صفت نفسه، وتعلق بالله قلبه، حتى أصبح يدرك بعين اليقين ما لا يدركه أهل الرسوم بعلم اليقين.

ولا نريد أن نناقش القوم في صحة ما ينسب إلى رسول الله ﷺ من أن القرآن له ظهر وبطن، ولكن نناقشهم في معنى الظهر والبطن، فهل الظهر ما يظهر من معنى النص القرآني بادي الرأي، والبطن ألغاز وأحاجي ومعميات لا يفهمها إلا هم؟ لا فالقرآن فوق هذا، لأن الله يقول في شأنه: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴿١٧﴾﴾ (القمر: ١٧)، ويقول: ﴿قَدْ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٌ وَكِتَـٰبٌ مُّبِينٌ﴾ (المائدة: ١٥)، ويقول: ﴿وَلَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ءَايَـٰتٍ بَيِّنَـٰتٍ﴾... (البقرة: ٩٩).

والذي أدين الله عليه أن ظاهر القرآن- وهو المنزل بلسان عربي مبين- هو المفهوم العربي المجرد، وباطنه هو مراد الله تعالى، وغرضه الذي يقصد إليه من وراء الألفاظ والتراكيب، وعلى ذلك نقول: إن كل ما كان من المعاني العربية التي لا ينبني فهم القرآن إلا عليها داخل تحت الظاهر، وإذن لا يشترط في ظاهر القرآن الكريم زيادة على الجريان على اللسان العربي، وكل معنى مستنبط من القرآن غير جار على اللسان العربي ليس من تفسير القرآن في شيء لا مما يستفاد منه، ولا مما يستفاد به، ومن ادعى غير ذلك فهو مبطل في دعواه، أما المعنى الباطن، فلا يكفي فيه الجريان على اللسان العربي وحده بل لابد فيه مع ذلك من نور يقذفه الله تعالى في قلب الإنسان يصير به نافذ البصيرة سليم التفكير، ومعنى هذا أن التفسير الباطن ليس أمرا خارجا عن مدلول اللفظ القرآني.. ولهذا اشترط العلماء لصحة المعنى الباطن شرطين أساسيين:

أولهما أن يصح على مقتضى الظاهر المقرر في لسان العرب بحيث يجري على المقاصد العربية.

وثانيهما أن يكون له شاهد نصا أو ظاهرا في محل آخر يشهد لصحته من غير معارض.

أما الشرط الأول، فظاهر من قاعدة كون القرآن عربيا، فإنه لو كان له فهم لا يقتضيه كلام العرب، لم يوصف بكونه عربيا بإطلاق، ولأنه مفهوم يلصق بالقرآن وليس في ألفاظه ولا في معانيه ما يدل عليه، وما كان كذلك، فلا يصح أن ينسب إليه أصلا، إذ ليست نسبته إليه على أنه مدلوله أولى من نسبة ضده إليه، ولا مرجح يدل على أحدهما، فإثبات أحدهما تحكم وتقول على القرآن ظاهر، وعند ذلك يدخل قائله تحت إثم من قال في كتاب الله بغير علم.

وأما الشرط الثاني، فلأنه إن لم يكن له شاهد في محل آخر، أو كان وله معارض، صار من جملة الدعاوى التي تدعى على القرآن، والدعوة المجردة عن الدليل غير مقبولة باتفاق العلماء. الموافقات للشاطبي جـ ٣ ص ٣٩٤.

إذا عرفنا هذا كله، ثم ذهبنا نستعرض على ضوئه أقوال القوم في معاني القرآن

الباطنة، وجدنا كثيرا منها من قبيل الباطن الصحيح، ووجدنا كثيرا منها أيضا من قبيل الباطن الفاسد المرفوض.

فمن الأفهام الباطنية المنقولة عنهم في التفسير، ويمكن أن تكون من قبيل الباطن الصحيح المقبول ما قاله سهل التستري في تفسيره لقوله تعالى من سورة البقرة ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ (البقرة: ٢٢)، قال رَحِمَهُ اللَّهُ «فلا تجعلوا لله أندادا» أي أضدادا، فأكبر الأضداد النفس الأمارة بالسوء، المتطلعة إلى حظوظها ومناها بغير هدى من الله» (من تفسير القرآن العظيم للتستري ص ١٤).

فهذا القول من سهل يشير إلى أن النفس الأمارة بالسوء داخلة تحت عموم الأنداد، حتى لو فصل لكان المعنى فلا تجعلوا لله أندادا، لا صنما، ولا شيطانا، ولا النفس، ولا كذا، ولا كذا... وهذا مشكل من حيث الظاهر، لأن سياق الآية وما يحف بها من قرائن، يدل على أن الأنداد مراد بها كل ما يعبد من دون الله، سواء أكان صنما أم غير صنم، أما الأنفس فلم تكن معبودة لهم، ولم يعرف أنهم اتخذوها أربابا من دون الله، ومع هذا فيمكن أن يكون لهذا التفسير وجه صحيح، وبيان ذلك أن الناظر في القرآن الكريم قد يأخذ من معنى الآية معنى من باب الاعتبار، فيجريه فيما لم تنزل فيه الآية، لأنه يجامعه في القصد أو يقاربه، وسهل التستري -رحمه الله- حين قال في الآية ما قال لم يرد أنه تفسير للآية، بل أتى بما هو ند في الاعتبار الشرعي، وذلك لأن حقيقة الند أنه المضاد لنده، الجاري على مناقضته، والنفس الأمارة هذا شأنها، لأنها تأمر صاحبها بمراعاة حظوظها، لاهية أو صادة عن مراعاة حقوق خالقها، وهذا هو الذي يعني به الند بالنسبة لنده، لأن الأصنام نصبوها لهذا المعنى بعينه، وعلى هذا فلا غبار على قول سهل في الآية، بل وهناك ما يشهد له من الجهتين، جهة حمل الأنداد على الأنفس الأمارة اعتبارا، وجهة كون الخطاب- وإن كان موجها للمشركين- فيه لأهل الإسلام نظر واعتبار.

أما ما يشهد له من الجهة الأولى فقوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ (التوبة: ٣١)، وظاهر أنهم لم يعبدوهم من دون الله،

ولكنهم ائتمروا بأوامرهم، وانتهوا عما نهوهم عنه كيف كان، فما حرموا عليهم حرموه، وما أباحوا لهم حللوه، وفاتهم أن المحلل والمحرم هو الله، فقال الله سبحانه: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾، وهذا بعينه هو شأن المتبع لهوى نفسه.

وأما ما يشهد له من الجهة الثانية فهو أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال لبعض من توسع في الدنيا من أهل الإيمان: أين تذهب بكم هذه الآية؟ ﴿أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ (الأحقاف: ٢٠) وكان هو يعتبر نفسه بها، مع أن الآية نزلت في حق الكفار لقوله تعالى: ﴿وَيَوۡمَ يُعۡرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ عَلَى ٱلنَّارِ أَذۡهَبۡتُمۡ طَيِّبَٰتِكُمۡ فِي حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنۡيَا﴾ ، فعمر رضي الله عنه له في الآية نظر واعتبار، فأخذ من معناها معنى أجرى الآية فيه وإن لم تنزل فيه، حذرا منه وخوفا أن يكون التوسع في المباحات سببا في الحرمان من نعيم الآخرة ومتاعها، فإذا صح لعمر رضي الله عنه أن ينزل الآية على المتوسعين في المباحات من المؤمنين ولم تنزل فيهم، صح لسهل أيضا أن ينزل الآية على النفس الامارة وإن لم تنزل فيها. كذلك مثل هذا التفسير الذي قاله سهل التستري- وهو كثير في تفاسير الصوفية- لا نعدم له وجها نحمله عليه حتى يكون تفسيرا صحيحا مقبولا، ولكن هناك أقوال لبعض الصوفية في التفسير الإشارى يقف أمامها العقل حائرا وعاجزا عن تلمس محمل لها تحمل عليه حتى تبدو صحيحة وتصبح مقبولة.

فمن ذلك -وهو كثير- ما ذكره أبو عبدالرحمن السلمي في تفسيره ﴿الٓمٓ ۝١﴾ فاتحة البقرة، قال: «﴿الٓمٓ﴾: قيل إن الألف ألف الوحدانية، واللام لام اللطف، والميم ميم الملك، معناه من وجدني على الحقيقة بإسقاط العلائق والأغراض تلطفت له، فأخرجته من رق العبودية إلى الملأ الأعلى، وهو الاتصال بمالك الملك، دون الاشتغال بشيء من الملك، وقيل: ﴿الٓمٓ﴾: معنى الألف أي أفرد سرك، واللام ليت جوارحك لعبادتي، والميم: أقم معي بمحو رسومك وصفاتك أزينك بصفات الأنس بي والمشاهدة إياي والقرب مني..» من حقائق التفسير للسلمي ص ٩.

ولاشك أن مثل هذا التفسير الذي ذكره أبوعبدالرحمن السلمي، تفسير مشكل، وأعظم منه إشكالا ما زعمه بعض القوم من أن هذه الحروف المقطعة في أوائل السور ترمز إلى أسرار غيبية مكنية، بل ويدعون أحيانا أن هذه الحروف هي أصل العلوم ومنبع المكاشفات على أحوال الدنيا والآخرة، وينسبون ذلك إلى أنه مراد الله تعالى في خطابه العرب الأمية التي لا تعرف شيئا عن ذلك، وهذه كلها دعاوى يدعونها على القرآن، ولا أحسب أنهم استندوا فيها إلى دليل مقنع، وكل ما أقوله فيها أنها دعاوى محالة على الكشف والاطلاع على ما وراء حجب الغيب، ودعوى الكشف والاطلاع لا تصلح أن تكون دليلا شرعيا بحال من الأحوال.

وأعجب العجب أن رجالا دخلوا في التصوف وهم من غير أهله، وتظاهروا بالورع والطاعة، وتحلوا بالزهد الكاذب والورع المصطنع، وكان لهؤلاء- على فرط جهلهم- محاولات في التفسير لا يقبلها عقل ولا يقرها شرع، ولا يمكن بأية حال أن يتحملها النص القرآني الكريم.

فمن ذلك الهراء ما نقله السيوطي في الإتقان ج٢ ص١٨٤عن بعض جهلة المتصوفة أنه فسر قوله تعالى في سورة البقرة ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، فقال: معناه «من ذل» من الذل «ذي» إشارة إلى النفس، «يشف» من الشفاء «ع» من الوعي.

ومن ذلك أيضا ما نقل عن بعضهم أنه فسر قوله تعالى في الآية (٦٩) من سورة العنكبوت ﴿وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، فجعل «لمع» فعلا ماضيا بمعنى أضاء، و«المحسنين» مفعوله. (مبادئ التفسير للخضري).

ولا شك أن هذا التفسير وأمثاله إلحاد في آيات الله، وقائلوه محرفون للكلم عن مواضعه، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون.



القرآن والعلم (١)

العدد (٨٨) ربيع الآخر (١٣٩٢هـ) - مايو (١٩٧٢م).

فضل العلم قضية لا تحتاج إلى برهان يؤيدها، وأقدار العلماء ومكانتهم العالية حقيقة لا ينكرها إلا من أنكر عقله وسفه نفسه!!!.

والقرآن الكريم - في كثير من آياته - يشيد بفضل العلم، ويرفع من أقدار العلماء، وهو إذ يفعل ذلك لا يقصد إثبات حقيقة تحتاج إلى إثبات، ولكنه يهدف إلى أن ينبه القلوب الغافلة والعقول اللاهية إلى قدسية العلم وسمو العلماء، لعلها تتحرر من جهلها، فتنخرط في موكب العلم، وتمضي في ركاب العلماء لا تلوي على جهالة.

ولقد تكون أبلغ قارعة تقرع قلوب الغافلين وعقول اللاهين، تلك الآيات البينات التي تقرر: أن العلم صفة من صفات الكمال التي يتصف بها الله سبحانه، ويجب أن نقدسه عن الاتصاف بضدها:

﴿عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩﴾ (الرعد: ٩).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَـٰلِمُ غَيْبِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (فاطر: ٣٨).

﴿إِنَّمَآ إِلَـٰهُكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ وَسِعَ كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۝٩٨﴾ (طه: ٩٨).

ولقد يكون أبلغ شاهد بعد هذه الآيات على فضل العلم، ومكانة العلماء، تلك الآيات القرآنية التي وردت في حق الأنبياء عليهم السلام.

تثبت لهم صفة العلم، وتقرر- في صراحة ووضوح- أنها من نعم الله التي أنعم بها عليهم:

يقول سبحانه في أول ما نزل من القرآن على نبيه محمد ﷺ:

﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ

بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ (العلق: ١-٥).

ويقول ممتنا عليه: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ (النساء: ١١٣).

ويقول مخاطباً عيسى عليه السلام وممتنا عليه ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ﴾ (المائدة: ١١٠).

ويقول في شأن داود وسليمان عليهما السلام: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ عِلْمًا ۖ﴾ (النمل: ١٥).

ويقول عن يوسف عليه السلام: ﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُۥٓ ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا ۚ﴾ (يوسف: ٢٢).

ويقول في شأن لوط عليه السلام: ﴿وَلُوطًا ءَاتَيْنَٰهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٤).

ويقول عن آدم عليه السلام: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١).

ثم نجد القرآن الكريم- بعد ذلك - ينكر على من يسوي بين العلماء وغير العلماء فيقول في أسلوب تهكمي ساخر: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ﴾ (الزمر: ٩).

ثم هو بعد يقرر هذه الحقيقة: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ﴾ (المجادلة: ١١)، ولعل الله جمع بين الإيمان والعلم هنا، وجعلهما السبب في علو المكانة والمنزلة عنده، لأن الإيمان لا يقوم ولا يقوى إلا على أساس العلم بالله، والعلم بكل ما جاء منه، وصدر عنه:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

نعم، في كل شيء له آية تدل على وجوده، ووحدانيته، وقدرته، وربوبيته.. وكل صفات الكمال له، ولكنها آيات لا يعقلها إلا العالمون. أما الجاهلون: ففي غفلة وإعراض عن هذا كله، كما يقول سبحانه وتعالى عنهم:

﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ۝١٠٥﴾ (يوسف: ١٠٥).

● القرآن يدعو إلى العلم والمعرفة

ولأن الله - سبحانه- يعلم أن من الناس ناساً قلوبهم غافلة عما في الكون من حقائق، وعقولهم لاهية عما تنطوي عليه هذه الحقائق من علوم ومعارف، وأنهم بتعطيلهم لقلوبهم وعقولهم عن النظر في ملكوت السماوات والأرض، واستنباط ما أودع الله فيها من علوم وأسرار، قد أهدروا إنسانيتهم وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الأعجم الذي لا عقل له ولا إدراك.. ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ﴾ (الأعراف: ١٧٩).

لأن الله يعلم أن من الناس ناساً هذا شأنهم، ساق في محكم كتابه آيات تهيب بأصحاب هذه القلوب اللاهية: أن يفتحوا قلوبهم وعقولهم على الكون وما فيه من آيات، ليستخلصوا من أسرارها وعلومها التي تأخذ بيدهم إلى ما فيه خير الدنيا وسعادة الآخرة، فقال لهم في صرامة الآمر واستنكار اللائم:

﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١).

﴿أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: ١٧-٢٠).

﴿وَهُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ٱنظُرُوٓاْ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ إِنَّ فِي ذَٰلِكُمْ لَأٓيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأنعام: ٩٩).

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات: ٢٠-٢١).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ (فاطر: ٢٧-٢٨).

انظر إلى هذه الآيات ونحوها مما ورد في القرآن الكريم، فسوف ترى أنها تدعو بإصرار وإلحاح إلى إعمال العقل والفكر في آيات الله التي بثها في الآفاق والأنفس، لنأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته، ثم لنستخلص منها- بعد ذلك- ما تحويه وتشير إليه من علوم ومعارف، تنفع البشرية وتسعدها في حياتها الدنيا التي لا تقوم إلا على العلم والمعرفة.

وتأمل قول الله سبحانه: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ تجد أنه يقرر- في صراحة ووضوح - أن للعلم دخلاً كبيراً في معرفة عظمة الخالق عن طريق ما يهدي إليه من المعرفة بعظمة المخلوق الذي أودع الله فيه من الأسرار ما يجعل العالم الباحث المنقب يؤمن- عن مشاهدة ويقين- بأن الله هو الخلاق ذو القوة المتين، فيتصاغر علمه أمام علم الله، وتتضاءل معرفته أمام معرفة الله، ويتبدد كبرياؤه وغروره أمام عظمة رب الكون.. رب العالمين!!.

ومن هنا كانت قلوب الجاهلين مغلقة لا تنفتح على حق، ولا تتقبل حقيقة: ﴿كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (الروم: ٥٩).

وكانت قلوب العالمين مفتوحة على الحق، تهتدي إليه، وتؤمن به على طمأنينة ويقين: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ ﴿٤٣﴾﴾ (العنكبوت: ٤٣).

﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ﴾ (آل عمران: ٧).

﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ﴾ (آل عمران: ١٨).

﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا۟ بِهِۦ فَتُخْبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمْ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٥٤﴾﴾ (الحج: ٥٤).

والقرآن الكريم - حين يدعونا إلى العلم والمعرفة التي أودعها الله في الإنسان، يقول عز من قائل:

﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ (الإسراء: ٣٦) وتأمل قوله: ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا﴾ بعد قوله: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ﴾ تجد أن الله سبحانه- ينبه إلى

أن أدوات المعرفة ووسائلها عند الإنسان هي: سمعه، وبصره، وفؤاده، فمن تلقف الوقائع، وتقبل الأخبار، وانتهى إلى النتائج بدون أن يتحراها ويتأكد صدقها وصحتها بكل وسائل المعرفة التي أودع الله فيه فقد عطل ما ميزه الله به عن غيره من الحيوان، وسوف يسأله الله يوم القيامة عما ضيع من نعمة الله التي فضله بها، وأوجب عليه شكرها بقوله:

﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَـٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (النحل: ٧٨).

وتأمل بعد ذلك- قوله سبحانه في شأن من ضلوا طريق الحق وأعرضوا عن سواء السبيل:

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ ۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغْنِى مِنَ ٱلْحَقِّ شَيْـًٔا﴾ (النجم: ٢٨)

﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ﴾ (النجم: ٢٣).

تأمل هاتين الآيتين تجد أن الله ما نعى على هؤلاء الضالين ضلالهم إلا لأنهم ساروا وراء ظنونهم وأهوائهم.. والظن سراب. والهوى مهلكة!!

والقرآن الكريم يكره لنا -كل الكراهية- أن نكون مقلدين لا مبتكرين متعقلين:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ ۗ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْـًٔا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

ولا يرضى القرآن للباحث عن الحقيقة - أيا كانت - أن يبحث عنها في جو من الفوضى التي تحول دون رؤيتها، وتعوق عن الوصول إليها. وإنما يرضى لنا ويطلب منا: أن نوفر للبحث العلمي الموصل للمعرفة بها جوا هادئاً يبعث على التأمل والتدبر في روية وحكمة، يقول سبحانه مخاطباً نبيه ليوجه المكابرين المعاندين من أمته:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ ۖ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ۚ﴾ (سبأ: ٤٦).

يقول العلامة الزمخشري في تفسيره لهذه الآية:

«والمعنى: إنما أعظكم بواحدة إن فعلتموها أصبتم الحق وتخلصتم، وهي: أن تقوموا لوجه الله خالصاً، متفرقين. اثنين اثنين، وواحداً واحداً، ثم تتفكروا

في أمر محمد ﷺ وما جاء به، أما الاثنان: فيتفكران ويعرض كل واحد منهما محصول فكره على صاحبه، وينظران فيه نظر متصادقين متناصفين، لا يميل بهما اتباع هوى، ولا ينبض لهما عرق عصبية، حتى يهجم بهما الفكر الصالح والنظر الصحيح على جادة الحق وسننه. وكذلك الفرد: يفكر في نفسه بعدل ونصفة من غير أن يكابرها، ويعرض فكره على عقله وذهنه وما استقر عنده من عادات العقلاء وجاري أحوالهم. والذي أوجب تفرقهم مثنى وفرادى: أن الاجتماع مما يشوش الخواطر، ويعمي البصائر، ويمنع من الرؤية، ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف، ويكثر الاعتساف ويثور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب»[١].

ويقرر القرآن الكريم- في وضوح تام- أن الهداة والدعاة والقادة من أصحاب الرسالات الدينية، أو المذاهب السياسية، أو غيرها، لابد أن يكونوا على جانب كبير من العلم والمعرفة، حتى تتأكد زعامتهم وتلزم طاعتهم، ولا يرضى القرآن لإنسان يحترم إنسانيته أن ينقاد لمن لا علم عنده، ولا أن يكون منه بمنزلة التابع من المتبوع، فإن من حرم العلم حرم الخير كله، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصح أن يكون قدوة، يقول الله سبحانه - على لسان إبراهيم عليه السلام مخاطباً أباه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدۡ جَآءَنِي مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَمۡ يَأۡتِكَ فَٱتَّبِعۡنِيٓ أَهۡدِكَ صِرَٰطٗا سَوِيّٗا ﴿٤٣﴾﴾ (مريم: ٤٣).

ويقول مخاطباً موسى وهرون عليهما السلام: ﴿فَٱسۡتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ (يونس: ٨٩)، ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَتَّبِعۡ أَهۡوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨﴾﴾ (الجاثية: ١٨).

والقرآن الكريم لا يرى للعلم حدا يقف الإنسان عنده، وإنما يرى العلم بحراً لا ساحل له، ويطلب منا أن نتزود منه ونزداد يوماً بعد يوم دون أن نقف عند غاية، ولهذا يقول الله - سبحانه- لرسوله محمد ﷺ وهو الأسوة والقدوة: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا﴾ (طه: ١١٤).

ولا يرى القرآن غضاضة في أن يتلقى الفاضل عمن دونه في الفضل ما لديه من

(١) تفسير الكشاف للزمخشري ج ٢ ص ٥٦٥ - ٥٦٦- ط: الحلبي سنة ١٩٤٨م.

علم يجهله ولو كان ذلك لا يتم إلا إذا كان منه بمنزلة التابع من المتبوع. يحل حيثما حل، ويرتحل حيثما ارتحل، وفي ذلك يقص علينا القرآن الكريم قصة موسى مع الخضر عليهما السلام:

﴿فَٱرۡتَدَّا﴾ (يعني موسى وفتاه) ﴿عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصٗا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبۡدٗا مِّنۡ عِبَادِنَآ ءَاتَيۡنَٰهُ رَحۡمَةٗ مِّنۡ عِندِنَا وَعَلَّمۡنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلۡمٗا ﴿٦٥﴾ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾ قَالَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٦٧﴾ وَكَيۡفَ تَصۡبِرُ عَلَىٰ مَا لَمۡ تُحِطۡ بِهِۦ خُبۡرٗا ﴿٦٨﴾ قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾ قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾﴾ إلى آخر القصة[1] (الكهف: ٦٤- ٨٢) وتأمل قوله سبحانه: ﴿فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا﴾ .

تجد أن القرآن الكريم لا يرضى بالتسرع في طلب العلم، ولا بعدم التريث في تحمله وتلقيه، لأن ذلك قد يفوت الكثير على طالب العلم والمعرفة، ومن أجل هذا يقول سبحانه لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَعۡجَلۡ بِٱلۡقُرۡءَانِ مِن قَبۡلِ أَن يُقۡضَىٰٓ إِلَيۡكَ وَحۡيُهُۥۖ وَقُل رَّبِّ زِدۡنِي عِلۡمٗا ﴿١١٤﴾﴾ (طه: ١١٤).

ويقول له أيضاً: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ﴿١٦﴾ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ ﴿١٨﴾ ثُمَّ إِنَّ عَلَيۡنَا بَيَانَهُۥ ﴿١٩﴾﴾ (القيامة: ١٦- ١٩).



(١) انظر ما كتبه المفسرون على هذه الآيات، وانظر صحيح البخاري وشروحه في كتاب العلم. قال القرطبي عند تفسيره لقوله تعالى ﴿قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلۡ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمۡتَ رُشۡدٗا ﴿٦٦﴾﴾ ما نصه:
«في هذه الآية دليل على أن المتعلم متبع للعالم وإن تفاوتت المراتب، ولا يظن أن في تعلم موسى من الخضر ما يدل على أن الخضر كان أفضل منه، فقد يشذ عن الفاضل ما يعلمه المفضول، والفضل لمن فضله الله، فالخضر إن كان ولياً فموسى أفضل منه لأنه نبي، والنبي أفضل من الولي، وإن كان نبياً فموسى فضله بالرسالة» جـ ١١ ص ١٧ ط: دار الكتب المصرية.

القرآن والعلم (٢)

آراء الغلاة والمتطرفين
(العدد ٨٩) جمادى الأولى (١٣٩٢هـ) - يونيو (١٩٧٢م).

● آراء الغلات والمتطرفين

تتبع العلامة المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري آيات القرآن الكريم فلاحظ: أن الآيات التي تتعلق بالعلوم الكونية سبعمائة وخمسون آية صريحة، وأن الآيات التي تتعلق بالفقه الإسلامي لا تزيد عن مائة وخمسين آية صريحة.. وانطلق من خلال هذه النتيجة يبدي الأسف والعجب لكثرة ما ألفه علماء المسلمين في الفقه، وقلة ما ألفوه في علوم الكائنات، وكان الأولى بهم أن يبرعوا أكثر وأكثر في علوم الكائنات التي أعطاها الله حظاً أوفر من كتابه[1] ولسنا ننكر على الشيخ طنطاوي - إذا تغاضينا عن منحاه في التفسير العلمي للقرآن - ما أبداه من أسف وعجب، فمبلغ علمنا وتعليلنا لزيادة الآيات المتعلقة بالعلوم الكونية على الآيات المتعلقة بالعلوم الفقهية، تجعله على حق فيما ذهب إليه، ذلك لأن العلوم الكونية لها تعلق قوي بالعقيدة الإسلامية، فالنظر فيها طريق إلى معرفة الله، وكلما ازداد الإنسان علماً بأسرار الكون ازداد علماً بخالقه ومكونه، هذا علاوة على ما يترتب على العلم بالكون وأسراره من تقدم، ورقي، وازدهار مادي، لا يقل في نظر الدين عن الجانب الديني أو الروحي، أما العلوم الفقهية أو علوم التشريع. فهي- على أهميتها- تأتي في المرتبة الثانية بعد العقيدة، فالعقيدة أساس تقوم عليه الشريعة، ولا يمكن أن يكون لها كيان بدونه.

والحقيقة التي لا يماري فيها أحد: أن القرآن الكريم حوى من علوم الدين

---

(١) انظر الجواهر في تفسير القرآن الكريم للشيخ طنطاوي جوهري ص ٢٥ ص ٥٣ - ط: الحلبي سنة ١٣٤٠- ١٣٥٠هـ.

والدنيا ما فيه خير البشرية وسعادتها في الدنيا والآخرة.

ولكن هذه الحقيقة تنازعها فريقان من المسلمين على مدى تاريخ القرآن الطويل: فريق غالى وبالغ، فقال: إن القرآن حوى كل علوم الدنيا والدين، ما كان منها وما يكون إلى يوم القيامة.

وفريق اعتدل والتزم أمراً وسطاً فقال: إن القرآن حوى الكثير من علوم الدنيا والدين، بعضها صريح، وبعضها بتلميح، ونبه إلى أن الكون مليء بعلوم كثيرة حث على استنباطها من خلال كتاب الكون المفتوح أمام أبصارنا وبصائرنا، لتفتح لنا الطريق إلى الله، ثم إلى حياة زاهرة، آمنة، مستقرة.

ولقد كان من أبرز العلماء القدامى الذين تبنوا القول الأول وجهروا به وروجوا له في الأوساط العلمية حجة الإسلام الغزالي المتوفى سنة ٥٠٥هـ، فقد نقل في كتابه «إحياء علوم الدين»(١) عن بعض العلماء: «أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظهر، وبطن، وحد، ومطلع».

ثم يروي عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن». ثم يقول بعد ذلك كله: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله عز وجل وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وأفعاله وصفاته، وهذه العلوم لا نهاية لها، وفي القرآن إشارة إلى مجامعها»... ثم يزيد على ذلك فيقول: «بل كل ما أشكل فهمه على النظر، واختلف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات، في القرآن إليه رموز ودلالات عليه، يختص أهل الفهم بدركها».

ثم يمضي الغزالي- في كتابه «جواهر القرآن» الذي ألفه فيما يبدو بعد كتابه الإحياء- فيقرر هذا الرأي الذي قرره في الإحياء، ويزيده بياناً وتفصيلاً، وذلك حيث يعقد الفصل الخامس منه لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن، يذكر علم الطب، والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشريح أعضائه، وعلم السحر وعلم الطلسمات.. وغير ذلك ثم يقول: «ووراء ما عددته علوم أخرى

(١) جـ ٣ ص ١٣٥- ط لجنة نشر الثقافة الإسلامية.

يعلم تراجمها، ولا يخلو العالم عمن يعرفها، ولا حاجة إلى ذكرها، بل أقول: ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها: أن في الإمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعد لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها، وعلوم كانت قد خرجت من الوجود واندرست الآن.. وعلوم أخرى ليس في قوة البشر إدراكها والإحاطة بها، ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها - ليست أوائلها خارجة من القرآن، فإن جميعها مغترفة من بحر واحد من بحار معرفة الله وهو بحر الأفعال، وقد ذكرنا: أنه بحر لا ساحل له، وأن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفد:

فمن أفعال الله تعالى وهو بحر الأفعال - مثلاً - الشفاء والمرض كما قال تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾﴾ (الشعراء: ٨٠)، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ ﴿٥﴾﴾(الرحمن: ٥) وقال: ﴿وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ﴾ (يونس: ٥) وقال: ﴿وَخَسَفَ ٱلْقَمَرُ ﴿٨﴾ وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ ﴿٩﴾﴾(القيامة: ٨-٩) وقال: ﴿يُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَيُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ﴾ وقال: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ (يس: ٣٨) ولا يعرف حقيقة سير الشمس بحسبان، وخسوفها، وولوج الليل في النهار، وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه.

ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلْكَرِيمِ ﴿٦﴾ ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾ فِىٓ أَىِّ صُورَةٍ مَّا شَآءَ رَكَّبَكَ ﴿٨﴾﴾ (الانفطار: ٦- ٨) إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها، وأنواعها، وحكمتها، ومنافعها، وقد أشار في القرآن - في مواضع - إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف معنى قوله: ﴿سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ (الحجر: ٢٩) ما لم يعلم التسوية، والنفخ، والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها، ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها.. فتفكر في القرآن والتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين»(١).

ثم يأتي جلال الدين السيوطي المتوفى سنة ٩١١هـ، ويقرر في كتابه «الإتقان في علوم القرآن» وفي كتابه «الإكليل في استنباط التنزيل» ما قرره الغزالي: من أن القرآن قد حوى كل علوم الأولين والآخرين، ويسوق من الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَـٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ تِبْيَـٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ (النحل: ٨٩)، وقوله ﷺ في شأن القرآن - كما في سنن الترمذي - «فيه نبأ ما قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم»، وقول ابن مسعود رضي الله عنه - كما أخرجه ابن أبي حاتم- «أنزل في القرآن كل علم، وبين لنا فيه كل شيء، لكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن»(٢).

ثم يذكر السيوطي عن أبي الفضل المرسي: أنه قال في تفسيره «جمع القرآن علوم الأولين والآخرين، بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم به، ثم رسول الله ﷺ - خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى - ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم، مثل: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، حتى قال: «لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم، وفترت العزائم، وتضاءل أهل العلم، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر فنونه».

ثم تكلم عن العلوم التي تفرعت عن القرآن، فذكر: علم القراءات، وعلم النحو، وعلم التفسير، وعلم الأصول، وعلم الفقه، وعلم القصص والتاريخ،

---

(١) جواهر القرآن ص ٣٢ - ٣٤ ط: كروستان العلمية سنة ١٢٢٩ .

(٢) الإكليل ص٢، والإتقان جـ ٢ ص ١٢٦.

وعلم تأويل الرأي، وعلم الفرائض، وعلم البلاغة... ثم قال: «هذه الفنون أخذتها الملة الإسلامية منه (يعني القرآن) وقد احتوى على علوم أخر من علوم الأوائل، مثل الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر والمقابلة، والنجامة، وغير ذلك من العلوم».

«أما الطب: فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة، وقد جمع ذلك في آية واحدة، وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ (الفرقان: ٦٧).

«وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله، وحدوث الشفاء بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِّلنَّاسِ﴾(النحل: ٦٩).، ثم زاد على طب الأجسام بطب القلوب: ﴿وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي ٱلصُّدُورِ﴾ (يونس: ٥٧).

«وأما الهيئة: ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات».

«وأما الهندسة. ففي قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓاْ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِي ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ ٱللَّهَبِ ﴿٣١﴾﴾ (المرسلات: ٣٠ -٣١) فإن فيه قاعدة هندسية وهي: أن الشكل المثلث لا ظل له».

«وأما الجدل: فقد حوت آياته من البراهين، والمقدمات، والنتائج، والقول بالموجب، والمعارضة، وغير ذلك شيئاً كثيراً، ومناظرة إبراهيم نمرود، ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم».

«وأما الجبر والمقابلة: فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر مدد، وأعوام، وأيام التواريخ لأمم سالفة، وأن فيها بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة أيام الدنيا، وما مضى، وما بقي، مضروب بعضها في بعض».

«وأما النجامة: ففي قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾ فقد فسره بذلك ابن عباس».

«وفيه أصول الصنائع، وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها، كالخياطة، في قوله: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ﴾ (الأعراف: ٢٢) والحدادة: ﴿ءَاتُونِي زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ﴾

(الكهف: ٨٦) والبناء: في آيات، والنجارة: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود: ٣٧) والغزل: ﴿نَقَضَتْ غَزْلَهَا﴾ (النحل: ٩٢) - والنسيج: ﴿كَمَثَلِ ٱلْعَنكَبُوتِ ٱتَّخَذَتْ بَيْتًا﴾ (العنكبوت: ٤١). والفلاحة: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (الواقعة: ٦٣) الآيات. والصيد. في آيات. والغوص. ﴿وَٱلشَّيَٰطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ﴿٣٧﴾﴾ (ص: ٣٧) ﴿وَتَسْتَخْرِجُواْ مِنْهُ حِلْيَةً﴾ (النحل: ١٤).

والصياغة: ﴿وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنۢ بَعْدِهِۦ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا﴾ (الأعراف: ١٤٨) والزجاجة: ﴿صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ﴾ (النمل: ٤٤) ﴿ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾ (النور: ٣٥). والفخارة: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ (القصص: ٣٨) والملاحة: ﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ﴾ (الكهف: ٧٩) الآية والكتابة ﴿عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ (العلق: ٤) وفي آيات أخر والخبز: ﴿أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِى خُبْزًا﴾ (يوسف: ٣٦) والطبخ: ﴿بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ (هود: ٦٩) والقصارة: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾﴾ (المدثر: ٤) ﴿قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ﴾ (ال عمران: ٥٢) وهم القصارون والجزارة ﴿إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ﴾ (المائدة: ٣) والبيع والشراء: في آيات. والصبغ ﴿صِبْغَةَ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: ١٣٨) ﴿جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ﴾ (فاطر: ٢٧) والحجارة: ﴿وَتَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا﴾ (الشعراء: ١٤٩) والكيالة والوزن: في آيات كثيرة. والرمي: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ﴾ (الأنفال: ١٧)، ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

«وفيه من أسماء الآلات، وضروب المأكولات، والمشروبات، والمنكوحات، وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾. قال السيوطي- انتهى كلام المرسي ملخصاً مع زيادات»[1] .. وأخيراً عقب السيوطي على هذا بقوله: «وأنا أقول: قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء: أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها، وفيه عجائب المخلوقات، وملكوت السماوات والأرض، وما في الأفق الأعلى، وما تحت الثرى و و.. إلى غير ذلك مما يحتاج إلى مجلدات».

(١) الإكليل ص ٢- ٥، والاتقان جـ ٢ ص ١٢٦- ١٢٨ .

ثم يأتي من المُحْدَثِين من يقول بما قال به الغزالي والسيوطي، وأبو الفضل المرسي، مع مزيد من المبالغة والتكلف وعلى رأس هؤلاء المحدثين المرحوم الشيخ طنطاوي جوهري، فقد حمل كتاب الله كل علوم الدنيا والدين في كتابه «الجواهر في تفسير القرآن الكريم».

ولو أننا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم في هذا العصر الحديث وفي وقتنا الحاضر بالذات لوجدنا لأصحاب هذا المنزع العلمي في فهم القرآن الكريم وتفسيره بحوثاً كلها تعسف وتكلف، ولوجدنا لهم في ذلك مؤلفات كثيرة تحمل بعض النصوص القرآنية ما لا تحتمل من نظريات علمية مستحدثة!!

ونستعرض بعض هذه الكتب فنرى فيها عجباً:

في كتاب «الجواهر في تفسير القرآن الكريم» للمرحوم الشيخ طنطاوي جوهري، عند تفسيره لقوله تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ الآيات ٦٧ وما بعدها إلى آخر القصة نراه يقول ما نصه:

«وأما علم تحضير الأرواح، فإن من هذه الآيات استخراجه. إن هذه الآيات تتلى، والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بأوروبا ثانياً» ثم يذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم، وكيفية انتشاره، ومدى فائدته، ثم يقول:

«ولما كانت السورة التي نحن بصددها قد جاء فيها حياة العزير بعد موته، وكذلك حماره ومسألة الطير، وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم. وعلم الله أننا نعجز عن ذلك، فجعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول: إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموت في هذه السورة عند أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة، واسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون»[1].

وفي كتاب «طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد» للمرحوم السيد عبد الرحمن

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم.

الكواكبي، نراه يقول في ص ٢٣- ٢٥ ما نصه:

«إن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا، والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن من ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهور معجزة القرآن، شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه».

ثم يذكر بعض المكتشفات العلمية التي يقول إن القرآن سبق إليها فيقول:

«وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيميائي، بل والمعنوي ناشئ عن تخالف نسبة المقادير، والقرآن يقول: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: ٨).

«وكشفوا طريقة إمساك الظل، أي التصوير الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾﴾ (الفرقان: ٤٥).

وفي كتاب «الإسلام والطب الحديث» للمرحوم الدكتور عبد العزيز إسماعيل، نراه يعرض لقوله تعالى في الآية[1] من سورة البقرة ﴿وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢) تحت عنوان «الحياة تحت ضوء القرآن» فيقول في ص ١٣- ١٥ ما نصه:

«هذه الآية الكريمة معناها- والله أعلم- أن اللحوم والأسماك والألبان... إلخ. أفضل في التغذية من البقول والقمح والذرة».

ثم يعقد مقارنة بين الأغذية الحيوانية والأغذية النباتية، ويخرج بنتيجة تقرر هذه الأفضلية ثم يقول: «إن هذه النتيجة التي لخصها القرآن الشريف، ولم تظهر حقيقة ثابتة إلا منذ سنوات قليلة».

وها نحن - أخيرا نقرأ لبعض الكاتبين، ونسمع من بعض المحاضرين نماذج من هذا التفسير العلمي للقرآن الكريم، وفي كثير منها تكلف ظاهر!!.

يقول بعضهم: إن الصعود إلى القمر والنزول على سطحه- وهو أحدث ما

(١) الجواهر في تفسير القرآن الكريم ص ٧١- ٧٢.

وصل إليه العلم في عصرنا قد ورد في آيات من القرآن الكريم، منها:

قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ إِنِ ٱسۡتَطَعۡتُمۡ أَن تَنفُذُواْ مِنۡ أَقۡطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ فَٱنفُذُواْۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلۡطَٰنٖ ۝٣٣﴾ (الرحمن: ٣٣) يعني سلطان العلم.

وقوله: ﴿وَمِنۡ ءَايَٰتِهِۦ خَلۡقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِن دَآبَّةٖۚ وَهُوَ عَلَىٰ جَمۡعِهِمۡ إِذَا يَشَآءُ قَدِيرٞ ۝٢٩﴾ (الشورى: ٢٩) وها هو ذا سائل يسأل المرحوم الأستاذ العقاد فيقول:

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ عَارِضٗا مُّسۡتَقۡبِلَ أَوۡدِيَتِهِمۡ قَالُواْ هَٰذَا عَارِضٞ مُّمۡطِرُنَاۚ بَلۡ هُوَ مَا ٱسۡتَعۡجَلۡتُم بِهِۦۖ رِيحٞ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٞ ۝٢٤ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيۡءِۭ بِأَمۡرِ رَبِّهَا فَأَصۡبَحُواْ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمۡۚ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلۡمُجۡرِمِينَ ۝٢٥﴾ (الأحقاف: ٢٤ -٢٥). أليس من الممكن أن تعتبر هذه الآية «يريد الآيتين؟» إشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية ودليلاً قاطعاً على سبق القرآن العلمي الذي أمكن إثباته في مواضع كثيرة؟.

.. هذه بعض الأقوال والآراء لجماعة من الغلاة المتطرفين!!

* * *

القرآن والعلم (٣)

آراء المعتدلين

العدد (٩٠) جمادى الآخرة (١٣٩٢هـ) - يوليو (١٩٧٢م).

أما الفريق المعتدل الذي لم يشأ أن يحمل القرآن كل علوم الأولين والآخرين، ولا أن يخضعه للنظريات العلمية، فأبرز علمائه الأقدمين: الفقيه الأصولي أبو إسحق الشاطبي المتوفى سنة ٧٩٠هـ، فقد حمل لواء المعارضة، وتوجه باللوم إلى من حملوا القرآن كل علوم الدنيا والدين، وبين أنهم قد تجاوزوا الحد في دعواهم على القرآن فقال:

«ما تقرر من أمية الشريعة، وأنها جارية على مذاهب أهلها- وهم العرب- ينبني عليه قواعد: منها أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين والمتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم: كالهندسة وغيرها من الرياضيات، والمنطق، وعلم الحروف، وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا عرضناه على ما تقدم لم يصح»[١].

ثم يصحح الشاطبي رأيه هذا، ويحتج له بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن، فيقول: «إن السلف الصالح- من الصحابة والتابعين ومن يليهم- كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في هذا المدعى سوى ما تقدم[٢]، وما ثبت من أحكام التكاليف، وأحكام الآخرة، وما يلي ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل

(١) الموافقات للشاطبي جـ٢ ص ٧٩ ط: التجارية. ويقصد الشاطبي بقوله «ما تقدم» ما قرره من أن الشريعة أمية وأهلها كذلك. وتنزيلها كان على مقتضى حال المنزل عليهم، وحالهم الاعتناء ببعض علوم ذكرها لا بكل العلوم.

(٢) يرى أن العرب لم يتكلموا إلا في العلوم التي كانت لهم بها معرفة.

المسألة، إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا»[(١)].

ويمضي الشاطبي فينقض أدلة الغلاة التي استندوا إليها من نحو قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾ وقوله: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِى ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ﴾ بحملها على ما يتعلق بحال التكليف والتعبد. ثم ينهي الشاطبي كلامه بقوله:

«فليس من الجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الاقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب خاصة، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه، وتقول على الله ورسوله فيه»[(٢)].

وفي العصر الحديث تجد من بين علمائنا الأفاضل من يتصدى للغلاة الذين حملوا القرآن كل علوم الأولين والآخرين، وعلى رأس هؤلاء الأستاذ الأكبر المرحوم الشيخ محمد مصطفى المراغي، فقد قال في تقريظه لكتاب «الإسلام والطب الحديث» الذي تحدثنا عنه من قبل:

«لست أريد من هذا (يعني ثناءه على الكتاب ومؤلفه)، أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول: إنه أتى بأصول، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة، ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه»[(٣)].

وهكذا نجد لكل من فكرتي الغلو والاعتدال في قضية القرآن وما حوى من العلوم مؤيدين ومعارضين من بين علمائنا القدامى والمحدثين.

---

(١) الموافقات جـ ٢ ص٧٩/ ٨٠.

(٢) الموافقات جـ ٢ ص ٨٠-٨٢.

(٣) الإسلام والطب الحديث ص (د). وانظر ما كتبه المرحوم الشيخ محمد رشيد رضا في تفسير المنار جـ١ ص ٧، وما كتبه المرحوم الأستاذ الأكبر الشيخ محمود شلتوت في العدد ٤٠٧، ٤٠٨ من السنة التاسعة لمجلة الرسالة (أبريل سنة ١٩٤١م)، وما كتبه المرحوم الشيخ أمين الخولي في كتابه «التفسير. معالم حياته، منهجه اليوم» عند الكلام عن التفسير العلمي.

والذي نرتضيه في هذا الشأن هو ما يلي:

١- إن القرآن حوى كثيراً من علوم الدنيا والدين تصريحاً أو تلميحاً.

٢- إن اهتمام القرآن بعلوم الدنيا لا يقل عن اهتمامه بعلوم الدين، لأن علوم الدنيا تؤيد الدين، وتحميه، وتفتح الطريق أمامه، وإلا فما السر في امتنان الله سبحانه على داود عليه السلام وقومه بقوله: ﴿وَعَلَّمْنَٰهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنۢ بَأْسِكُمْ ۖ فَهَلْ أَنتُمْ شَٰكِرُونَ ﴿٨٠﴾﴾ (الأنبياء: ٨٠).

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (سبأ: ١١) وعلى أي أساس غير علوم الدنيا يمكن أن نستجيب لأمر الله سبحانه ﴿وَأَعِدُّوا۟ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ﴾ (الأنفال: ٦٠).

٣- إن العلم لا يقف عند غاية، وإن الكون مليء بأسرار لا تحصى، ومهما كشف الإنسان من حجب عن أسرار هذا الكون فلن يستوعب كل مكنونه من علوم ومعارف، ويقرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في نحو قوله ﷻ: ﴿وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ (الإسراء: ٨٥).

وقوله: ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَزْوَٰجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ وَمِنْ أَنفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (يس: ٣٦).

وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ﴾ (فصلت: ٥٣).

ولن يحيط بكل شيء علماً إلا الله خالق الكون مبدعه: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (الملك: ١٤).

﴿وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾ (يس: ٧٩).

﴿وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ﴾ (الأنبياء: ٨١).

﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾ (الأحزاب: ٤٠).

٤- إن الله سبحانه- لا يرضى للإنسان الذي استخلفه في الأرض واستعمره فيها أن يقنع بالقليل من العلم، أو ينام عن استجلاء ما احتواه الكون من كنوز

العلم والمعرفة، بالنظر والتأمل ما وسعه ذلك ﴿قُلِ ٱنظُرُواْ مَاذَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (يونس: ١٠١) وبالرجوع إلى العلماء المختصين فيما وقفت قدرته دونه ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾(الأنبياء: ٧).

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تتحدث عن الظواهر الكونية، ثم تختم هذه الآيات.

بنحو قوله تعالى:

﴿قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ﴾ (الأنعام: ٩٨).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الرعد: ٣).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ (النحل: ٦٧).

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ﴾ (الروم: ٢٢).

ولسنا نفهم من هذه العبارات وأمثالها إلا أن الله يهيب بأولي الألباب والعقول أن يفتحوا أبصارهم وبصائرهم على آياته التي بثها في الأنفس والآفاق ليتكشف لهم بعض ما حواه الكون من علوم وأسرار، تشهد أولاً على قدرة الله وعلو سلطانه، ثم لتكون لهم هذه الثروة العلمية- فيما بعد- مصدر قوة وعزة ومنعة في حياة سلاحها العلم والمعرفة.

٥- لا شك أن القرآن الكريم «يتحدث إلى عقول الناس جميعاً من لدن نزوله إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها، وهو يساير حياتهم في كل ما يمرون به من مراحل الزمن، وهذا كله بحكم كونه كتاب الشريعة العامة الشاملة، وقانون الدين الذي جعله الله خاتم الأديان السماوية لأهل الأرض»[(١)].

ولاشك أن في القرآن الكريم نصوصاً يفهمها العربي وقت نزول القرآن على نحو ما وصل إليه العلم في زمانه، ولا يكاد يخرج فهمه عن حدود دلالة النص، ويفهمها العربي في العصر الحديث على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه فهما آخر لا يخرج هو أيضاً عن دلالة النص، ومثال ذلك:

قوله تعالى في الآية ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ

---

(١) التفسير والمفسرون جـ ٣ ص ١٥٨.

﴿وَٱلۡأَرۡضَ كَانَتَا رَتۡقٗا فَفَتَقۡنَٰهُمَاۖ﴾ فقد فسرها ابن عباس- رضي الله عنهما- على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه تفسيراً تحتمله الآية فقال: «كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق للأرض أهلاً، فتق هذه بالمطر، وفتق هذه بالنبات»(١).

وفسرها بعض علماء العصر الحديث على ضوء ما انتهى إليه العلم في زمانه فقال:

«قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السماوات وانفصلت عنها. وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماء: إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها سارت سياراً من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس، وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات»(٢).

ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين، والآية- على فرض صحة الرأي الثاني- تتسع لهما، وذلك من وجوه الإعجاز القرآني.

غير أن الذين فتنوا بنظرية أن القرآن حوى كل ما كان وما يكون من العلوم بالغوا فحملوا بعض النصوص القرآنية حملاً فيه تعسف ظاهر وتكلف غير مقبول على بعض العلوم ومصطلحاتها التي جدت ولم يكن للعرب عهد بها من قبل، بل وعلى بعض النظريات العلمية التي لم تستقر بعد، ومن لم تستخفهم هذه النزوة العلمية قرروا: أن هذا تأول للقرآن على غير تأويله يقول الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي رَحِمَهُ ٱللَّهُ في تقريظه لكتاب «الإسلام والطب الحديث»:

«يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها بها، ولا العلوم إلى الآية ولكن إن

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ١٧٧ ط: الحلبي.

(٢) تفسير سورة لقمان للأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي ص ١٢ مطبعة الأزهر.

اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»[١].

ويقول في أحد دروسه التي كان يلقيها في تفسير القرآن الكريم:

«وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر، وهو. الغرور بالفلسفة، وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله وفقاً لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها. وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد عن هذيان المصاب بالحمى.

والنظريات التي لم تستقر بعد لا يصح أن يرد إليها كتاب الله»[٢].

ويقول الأستاذ عباس محمود العقاد رحمه الله تعالى: «كل ما يجب على المسلم أن يؤمن به: أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث والتفكير، ولا ينهاه عنه، ولا يصده عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة، وخفايا المجهول كيفما كان، ولكنه لا يأمره بالتماس التوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهي عرضة بعد قليل للنقص والتبديل»[٣].

ويقول في موضع آخر:

«فمن الحق أن نعلم أن كتابنا يأمرنا بالبحث، والنظر، والتعلم، والإحاطة بكل معلوم يصدر عن العقول، ولكن ليس من الحق أن نزعم: أن كل ما تستنبطه العقول مطابق للكتاب، مندرج في ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا يعدو أن يحسب من النظريات التي يصح منها ما يصح، ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام عن التعديل وإعادة النظر من حين إلى حين»[٤].

---

(١) الإسلام والطب الحديث ص ٣ ولبعض قدامى المفسرين أقوال قريبة من هذا فلتراجع في كتب التفسير.

(٢) الدروس الدينية للشيخ محمد مصطفى المراغي لسنة ١٣٥٦ هـ ص . ٤٢. مطبعة الأزهر..

(٣) الفلسفة القرآنية للعقاد ص ٢٠٦- ط: دار الكتاب العربي- بيروت..

(٤) التفكير فريضة إسلامية، للعقاد ص ٧٨ ط: دار الكتاب العربي- بيروت.

ويبدو لنا أن هؤلاء الغلاة الذين حملوا القرآن الكريم ما لا يحتمل من علوم ونظريات، حتى جعلوه مصدراً لجوامع الطب، وضوابط الفلك، ونظريات الهندسة، وقوانين الكيمياء، ومعادلات الرياضة... الخ، حسبوا أن ذلك يخدم القرآن ويبرز جانباً هاماً من جوانب إعجازه، وهذا وهم منهم، فإن مثل هذا التكلف لا يبرز الإعجاز، وإنما يذهب بالإعجاز!!

وليعلم هؤلاء الغلاة أن القرآن الكريم غني عن أن يعتز بمثل هذا التكلف الذي يوشك أن يخرج به عن هدفه الإنساني الاجتماعي في إصلاح الحياة، ورياضة النفس، والرجوع بها إلى الله. !!

وليعلموا - أيضاً - أن من الخير لهم ولكتابهم ألا يسلكوا هذا المسلك في فهم القرآن وتفسيره، رغبة منهم في إظهار إعجازه، وصلاحيته للتمشي مع التطور العلمي في مراحله الزمنية المتتابعة، وحسبهم وحسب القرآن إعجازا ألا يكون فيه نص يصادم حقيقة علمية ثابتة، وأنه يمكن التوفيق بينه وبين ما جد ويجد من نظريات وقوانين تقوم على أساس من الحق، وتستند إلى أصل صحيح..

* * *

إعجاز القرآن الكريم

العدد (٩٤) شوال (١٣٩٢هـ) - نوفمبر (١٩٧٢م).

• معنى الإعجاز

تطلق كلمة الإعجاز في اللغة، ويراد بها إثبات العجز وإظهاره.

وإعجاز القرآن الكريم معناه: إثبات عجز العرب وغيرهم عن الإتيان بمثله، فيظهر بذلك صدق النبي عليه الصلاة والسلام في دعواه الرسالة، وأن القرآن ليس من كلامه، ولا هو في مقدور أحد، وإنما هو كلام الله ﷻ.

• القرآن معجزة النبي الكبرى

والقرآن معجزة النبي الكبرى وهو يتميز عن سائر معجزات الأنبياء بأمور:

١) أنه يحتوي على أصول الدعوة المحمدية، وما يكتنفها من هداية وإرشاد، وذلك أبلغ في الأدلة على النبوة، لأن ما احتواه من ذلك لا يمكن أن يكتسب بالتعلم، وإنما هو بوحي من الله، ومن هنا كان القرآن كافياً، ومغنياً عن كل ما طلبه المتعنتون من معجزات تحدياً له عليه الصلاة والسلام، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ (العنكبوت: ٥١)

٢) أن القرآن معجزة العقل: لأنه يخاطب العقل دائماً ولا يجمد عند الحس كمعجزات الأنبياء السابقين، ولقد نوه رسول الله ﷺ بذلك في حديث له فقال: «ما من نبي من الأنبياء إلا أُعطي ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحيا أوحاه الله إليَّ فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً».

٣) أن القرآن الكريم معجزة خالدة باقية على مدى الدهر، ضرورة أنه معجزة الدين الخالد، فهو شاهد أبداً بصدق محمد عليه الصلاة والسلام، أما معجزات الأنبياء السابقين فقد كانت تنتهي بانتهاء وقت وقوعها ثم لا يبقى لها أثر بعد ذلك

إلا في نفس من شهدها.

القرآن بين تكذيب العرب له وتحديهم به

ولقد أيد الله سبحانه نبيه محمداً ﷺ بمعجزة القرآن من أول يوم بعثه رسولاً للعالمين، ولكن قومه كذبوه وزعموا أن ما يتلوه عليهم من القرآن ليس من عند الله، وقالوا عنه:

﴿أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ (الفرقان: ٥) فأوحى الله إلى نبيه بقوله: ﴿أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ (الفرقان: ٦) وقوله: ﴿وَمَا كُنتَ تَتْلُواْ مِن قَبْلِهِۦ مِن كِتَٰبٍ وَلَا تَخُطُّهُۥ بِيَمِينِكَ إِذًا لَّٱرْتَابَ ٱلْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (العنكبوت: ٤٨).

وقالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ﴾ (النحل: ١٠٣) فرد الله عليهم بقوله: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُۥ بَشَرٌ لِّسَانُ ٱلَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾﴾ (النحل: ١٠٣)

وقالوا: ﴿شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ (الطور: ٣٠) فرد عليهم بقوله: ﴿وَمَا عَلَّمْنَٰهُ ٱلشِّعْرَ وَمَا يَنۢبَغِي لَهُۥٓ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْءَانٌ مُّبِينٌ ﴿٦٩﴾﴾ (يس: ٦٩).

قالوا عنه هذا وأكثر، ورد الله عليهم بما ذكرنا وأكثر مما يبطل زعمهم، ولكنهم تمادوا في غيهم واستمروا في تكذيبهم وعنادهم فلم يكن بعد ذلك إلا أن يلقمهم حجراً يسد أفواههم حتى لا ينبسوا بفرية، ويدمغ عنادهم حتى لا يقوى على أن يتصدى للحق أو يعترض طريقه.

لم يبق إلا أن يتحداهم الله ويتحدى الإنس والجن جميعاً أن يأتوا بمثل القرآن ما دام القرآن في زعمهم من صنع البشر- محمد أو غيره- وليس من عند الله ﷻ.

ولقد جرى ذلك التحدي على تدرج ملحوظ:

تحداهم أولاً أن يأتوا بمثل القرآن فقال:

﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُواْ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾(الإسراء: ٨٨). فما كان منهم إلا العجز التام.

ثم تنزل معهم في التحدي، فقال آمراً لنبيه ﷺ وقد رموه بالافتراء على الله في

نسبة القرآن إليه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِّثْلِهِ مُفْتَرَيَاتٍ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (هود: ١٣) فعجزوا كل العجز عن ذلك أيضاً.

ثم نزل إلى أدنى من ذلك فقال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ وَادْعُوا مَنِ اسْتَطَعْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(يونس: ٣٨). وقال: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا وَلَن تَفْعَلُوا فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ ﴿٢٤﴾﴾(البقرة: ٢٣ - ٢٤) فما استطاعوا معارضة ذلك القدر القليل.

ثم نزل إلى أدنى درجات التحدي فقال: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِن كَانُوا صَادِقِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الطور: ٣٤) فعجزوا عن أن يأتوا بحديث مماثل له.. أي حديث كان، طال أم قصر، ولزمهم العجز عن معارضته هم ومن وراءهم إلى يوم القيامة.

ولم يكن عجزهم هذا ناشئاً عن كون القرآن غريباً عليهم في لغته، بل كان من جنس كلامهم وبلغتهم التي يتكلمون بها، ولم يكن عدم معارضتهم له ناتجاً عن عدم اهتمامهم بالمعارضة أو عدم اكتراثهم بالتحدي، فقد أثار القرآن اهتمامهم بالمعارضة، وبعث فيهم الرغبة الملحة في قبول التحدي، والعمل على حطمه، والخروج من المأزق الذي وضعهم فيه، بما كان منه من تسفيه أحلامهم بنحو قوله عنهم: ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾ (الفرقان: ٤٤) وتحقير آلهتهم بنحو قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾(الحج: ٧٣) ومع ذلك الاستفزاز فقد وقفوا عاجزين أمام هذا التحدي، ولم نجد لهم معارضة يمكن أن تجاري أو تداني القرآن في أسلوبه ونظمه، أو في أي جانب من جوانب إعجازه التي سنذكرها، وما ترويه لنا بعض كتب الأدب أو غيرها من محاولات لمعارضة القرآن لم تخرج - في الواقع- عن كونها محاولات سخيفة، وليس فيها من براعة النظم، ولا من دقة المعنى شيء مطلقاً، وإنما هي هذيان كهذيان المحموم، عار من كل شيء إلا من ركاكة النظم وفساد المعنى.

• جوانب الإعجاز في القرآن الكريم

وجوانب الإعجاز في القرآن الكريم متعددة وهي:

١) فصاحة كلماته.

٢) براعة نظمه وجزالة أسلوبه.

٣) بلاغته في الدلالة على معانيه.

وهذه الثلاثة يمكن أن نجمعها تحت عنوان واحد هو «الإعجاز البياني».

ولا شك أن القرآن الكريم قد تميز عن كل ما عداه من كلام إلهي وغير إلهي بأسلوب فريد، بلغ الغاية في جزالته وبلاغته، ولو جئنا بأبلغ عبارة نطق بها العرب ووضعناها بجانب عبارة في موضوعها جاء بها القرآن الكريم، لوجدنا بين العبارتين فرقاً بلاغياً كبيراً، فأبلغ عباراتهم في القصاص «القتل أنفى للقتل» وعبارة القرآن الكريم في هذا الباب ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩) وقد تناول علماء البلاغة كلتا العبارتين بالتحليل البلاغي وبينوا- بما لا يقبل الشك- أن عبارة القرآن فوق العبارة المأثورة عن العرب بمراتب كثيرة.

وبلغاء العرب- بسليقتهم- يدركون هذا التفوق البياني للقرآن الكريم حتى إن أحدهم - وهو الوليد بن المغيرة - يسمع القرآن من محمد ﷺ، فيبهره أسلوبه وبلاغته، ويعجب به أيما إعجاب ويشيع ذلك عنه، فيأتي إليه أبو جهل ويطلب منه أن يقول في القرآن قولاً يبلغ قومه أنه منكر له، فيجيب الوليد بقولته المشهورة: «وماذا أقول؟! فوالله ما فيكم أحد أعلم بالشعر: لا برجزه ولا بقصيده مني ولا بأشعار الجن، والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا، ووالله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر، وإن أسفله لمغدق، وإنه ليعلو وما يعلى، وإنه ليحطم ما تحته».

ولا نطيل بالكلام عن بلاغة القرآن فذلك موضوع واسع تولاه بالبحث والبيان كثير من العلماء، ولهم في ذلك مؤلفات كثيرة ومشهورة.

٤) اشتماله على حوادث وقعت في الأزمان الغابرة ولم يكن للنبي ﷺ علم بها:

لا عن معلم، ولا عن كتاب، ولا عن أي طريق أخرى غير القرآن، كقصة موسى وغيره من الأنبياء وفي هذا يقول الله سبحانه مخاطباً نبيه محمداً ﷺ بعدما قص عليه من خبر موسى وقومه ﴿وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلْغَرْبِيِّ إِذْ قَضَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَى ٱلْأَمْرَ وَمَا كُنتَ مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٤٤﴾ وَلَٰكِنَّآ أَنشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ ٱلْعُمُرُ ۚ وَمَا كُنتَ ثَاوِيًا فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا وَلَٰكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ﴿٤٥﴾ وَمَا كُنتَ بِجَانِبِ ٱلطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَٰكِن رَّحْمَةً مِّن رَّبِّكَ لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أَتَىٰهُم مِّن نَّذِيرٍ مِّن قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (القصص: ٤٤-٤٦).

٥) اشتماله على أمور غيبية وحوادث مستقبلة أخبر بها وتحقق وقوعها فيما بعد كقوله تعالى: ﴿الٓمٓ ﴿١﴾ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ﴿٢﴾ فِىٓ أَدْنَى ٱلْأَرْضِ وَهُم مِّنۢ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ ﴿٣﴾ فِى بِضْعِ سِنِينَ ۗ لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ ۚ وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿٤﴾ بِنَصْرِ ٱللَّهِ ۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥﴾﴾ (الروم: ١-٥).

٦) اشتماله على التشريعات الروحية والأدبية والاجتماعية والسياسية والمالية التي كان - ولا زال - لها أكبر الأثر في إصلاح المجتمع الإنساني واستقراره، لبلوغها مرتبة الكمال التشريعي، ولخلوها من كل الثغرات التي تشتمل عليها القوانين الوضعية، وقد ذكرنا عند الكلام عن جوانب الهداية القرآنية كثيراً من التشريعات التي جاء بها القرآن، والتي نظمت علاقة الإنسان بربه وبأخيه الإنسان.

٧) اشتماله على كثير من العلوم والمعارف التي كشف عنها العلم فيما بعد، ولا زال يكشف عنها إلى اليوم، وسوف يظل يكشف عنها على مدى الدهر وإلى الأبد.

ولا نريد أن نستقصي كل ما حواه القرآن تصريحاً أو تلميحاً من علوم كونية، وإنما نكتفي بثلاثة أمثلة نذكرها كشواهد على الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

المثال الأول:

قوله تعالى في الآية (٣٠) من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ﴾ فقد فسرها عبد الله بن عباس على ضوء ما وصل إليه العلم في زمانه تفسيرا تحتمله الآية فقال:

«كانت السماء رتقاء لا تمطر، والأرض رتقاء لا تنبت، ففتق هذه بالنبات، وتلك بالمطر».

وفسرها علماء العصر الحديث على ضوء ما توصلوا إليه من العلم فقالوا: «قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من الشمس، وأن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة- بعد أن مرت عليها أطوار- تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها صارت سيارا من السيارات، وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبتها، والأرض واحدة من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات»[1].

ولا نكاد نجد تعارضاً بين الفهمين، والآية تحتملهما وتتسع لهما وذلك- بلا شك- وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم.

المثال الثاني:

قوله تعالى في الآية (٥) من سورة يونس ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا﴾ وقوله في الآية (٦١) من سورة الفرقان ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾﴾ أليس في هاتين الآيتين دلالة صريحة على ما توصل إليه العلم الحديث من أن الشمس كوكب مضيء وأنها كالسراج نوره من ذاته وأن القمر كوكب معتم نوره مستمد من غيره؟ وهل يستطيع محمد عليه الصلاة والسلام وهو النبي الأمي، -والعلم بالأكوان والأفلاك ما زال في مدرج الطفولة- أن يقرر هذه الحقيقة من تلقاء نفسه؟ كلا إنه من علم الله العليم الخبير. أودعه في القرآن فكان من وجوه إعجازه.

المثال الثالث:

قوله تعالى في الآيتين (٣) و(٤) من سورة القيامة ﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ يقرأ العربي هذه الآية في عصر نزول القرآن فيفهم منها أنها تدل على أن الله قادر على أن يعيد الإنسان عند البعث بشراً سوياً بكل أعضاء جسمه وعلى صورتها الأولى حتى ما دق خلقه من هذه الأعضاء وهو البنان.

---

(١) انظر التفسير والمفسرون جـ٣ ص ٢٧٠.

ونقرأها اليوم على ضوء العلم فنراها تنطوي على ما توصل إليه العلماء من أن «بصمات» أنامل اليد لا تتشابه عند بني الإنسان فكل فرد له بصمات يتميز بها عن غيره وممكن أن تكشف عن شخصيته، وإعادة هذه البصمات المختلفة المتمايزة عند الحياة الثانية على ما كانت عليه لكل فرد عند الحياة الأولى شيء لا يعظم على الله سبحانه، ولا شك أن انطواء الآية على هذه الحقيقة العلمية التي لم يكشف عنها العلم إلا حديثًا ضرب من ضروب الإعجاز العلمي للقرآن الكريم.

٨) سلامة القرآن من الاختلاف والتناقض ولا شك أن هذا جانب من جوانب إعجاز القرآن الكريم فالكتاب حافل بالقضايا العقلية والتشريعات الفقهية والحقائق العلمية والتاريخ والقصص، والأمثال، والأخبار عن وقائع ماضية وحاضرة ومستقبلة، وهو في ذلك كله صادق لا يرقى إليه كذب، مصيب لا يعتريه خطأ، واضح لا يشوبه لبس، متناسق لا يعترض نسقه تناقض أو تعارض، مؤتلف غير مختلف.

ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال لكتاب جمع الكثير من ألوان المعرفة وضروب الهداية والإرشاد، وضم الكثير من القصص والأخبار ووزعها وكررها في مواضع شتى على نحو من الإيجاز تارة ومن الإطناب أخرى، مع تفاوت وتغاير وتفنن في التعبير يجعل القارئ مشدوداً دائماً إلى قراءته وسماعه دون سآمة أو ملل أو إحساس بنبوة ولا يكاد يتم ذلك بحال من الأحوال إلا للقرآن الكريم: لأنه كلام الله الذي لا يضل ولا ينسى، وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَـٰفًا كَثِيرًا﴾ (النساء: ٨٢).

هذه هي جوانب الإعجاز للقرآن الكريم، أو هي أهم جوانبه.

ولقد نرى بعض العلماء يذهبون إلى أن إعجاز القرآن لا يرجع إلى أي من هذه الوجوه المذكورة وإنما يرجع إلى الصرفة، ومعنى ذلك- على حد قولهم- أن القرآن الكريم كان في متناول العرب أن يأتوا بمثله ولكن الله صرفهم عن معارضته فصاروا بذلك عاجزين عنها، وهذا قول باطل، لأنه يلزم عليه:

١) أن يكون القرآن في مستوى كلام البشر، وهذا مخالف للواقع، وأرباب

البلاغة من المشركين أنفسهم قد اعترفوا بأنه في أعلى درجات البلاغة التي لا يتطاول إليها أحد منهم، وفي وصف الوليد بن المغيرة للقرآن - وقد ذكرناه آنفاً- ما يشهد بذلك والفضل ما شهدت به الأعداء.

٢- أن يكون المعجز في الحقيقة هو الله وليس القرآن، مع أن آيات التحدي تكاد تكون صريحة في أن الإعجاز راجع إلى القرآن ذاته، وعلى ذلك انعقد الإجماع.

٣) أن الإنس والجن- بصرفهم عن المعارضة بحيث أصبحوا عاجزين عنها- صاروا بمنزلة الموتى، وحينئذ لا يكون للتحدي معنى ولا فائدة.

ولقد نرى - أيضاً- بعض العلماء يقصرون إعجاز القرآن على جانب واحد من جوانب الإعجاز المذكورة، وهذا- إذا أخذ على ظاهره- خطأ بين إذ إن كل ما ذكرناه من جوانب الإعجاز متحقق في القرآن الكريم.

والظن بهؤلاء الذين قصروا إعجاز القرآن على جانب من الجوانب التي ذكرناها: أنهم لم يقصدوا بذلك أن القرآن ليس فيه من جوانب الإعجاز إلا هذا الجانب فقط، وإنما قصدهم: أن هذا الجانب الذي اقتصروا عليه يحقق الإعجاز للقرآن الكريم، وهذا لا يمنع من وجود جوانب أخرى تحقق نفس الشيء وبانضمام بعضها إلى بعض يكون الإعجاز أتم وأقوى.

بقيت حقيقة يجب أن نعلمها، وهي:

إن إعجاز القرآن من ناحية فصاحة كلماته، وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه، وبلاغته في الدلالة على معانيه أمر متحقق في كل سورة بل وفي كل آية تفيد فائدة تامة، أما ما وراء ذلك من جوانب الإعجاز كاشتماله على أمور غيبية مستقبلة وقعت بعد كما أخبر عنها، واشتماله على التشريعات الحكيمة، وانطوائه على حقائق علمية لا يزال العلم الحديث يكشف عنها، فهذا لا يتحقق في كل آية ولا في كل سورة وإنما يتحقق في القرآن جملة، ومن هنا حقق العلماء أن التحدي بأقصر سورة منه أو ما يعادلها أو بأي حديث مثله مهما قصر كان للعرب أولاً، لأنهم أرباب اللسان، وفرسان البيان، فإن عجزوا هم عن معارضته فغيرهم

أعجز، والتحدي بهذا القدر من القرآن راجع إلى فصاحة كلماته وبراعة نظمه، وجزالة أسلوبه وبلاغته، وهو ما عبرنا عنه بالجانب البياني، وهذا كله متحقق- كما قلنا- في القدر المتحدى به أيا كان.

أما غير ذلك من جوانب الإعجاز التي تتحقق في القرآن ككل ولا تتحقق في كل أبعاضه، فذلك يدركه كل إنسان عربياً كان أم غير عربي، وهم جميعاً متحدون بالقرآن جملة ومن كل هذه الجوانب بقوله سبحانه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴿٨٨﴾﴾ (الإسراء: ٨٨).

* * *

التعريف بالقرآن الكريم

العدد (١٠١) جمادى الأولى (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

المشهور بين علماء اللغة: أن لفظ القرآن- في الأصل- مصدر مشتق من قرأ. يقال: قرأ قراءة وقرآنا، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُۥ وَقُرْءَانَهُۥ ﴿١٧﴾ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴿١٨﴾﴾(القيامة: ١٧ -١٨)[(١)]- أي قراءته.

ثم نقل لفظ القرآن من المصدرية وجعل علماً شخصياً[(٢)] على الكتاب المنزل على محمد ﷺ.

وعلماء الشريعة يعرفون القرآن، بأنه كلام الله المنزل على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، والمنقول إلينا بالتواتر.

وبعضهم يزيد على هذا التعريف قيوداً أخرى مثل: المعجز، أو المتحدى بأقصر سورة منه، أو المتعبد بتلاوته، أو المكتوب بين دفتي المصحف، أو المبدوء بسورة الفاتحة والمختوم بسورة الناس.

والواقع أن التعريف الذي ذكرناه آنفاً تعريف جامع مانع، لا يحتاج إلى زيادة قيد آخر، وكل من زاد عليه قيداً أو قيوداً مما ذكرناه، لا يقصد بذلك إلا زيادة الإيضاح بذكر بعض خصائص القرآن التي يتميز بها عما عداه.

ومعلوم أن للقرآن الكريم خصائص كثيرة يتميز بها عن كل ما عداه من كلام إلهي أو غير إلهي ككونه معجزاً أو متعبداً بتلاوته.

---

(١) وهناك آراء أخرى في أصل الكلمة واشتقاقها. راجع الإتقان للسيوطي، ومناهل العرفان للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني.

(٢) يرى بعض العلماء أنه علم جنس يصدق على القرآن كله وعلى أبعاضه. وكونه علماً شخصياً هو الراجح.. انظر مناهل العرفان.

ومعلوم - أيضاً - أن للقرآن صفات يشاركه فيها غيره من كلام الله أو كلام البشر ولكنها صفات لازمة لا تنفك عنه لأنها من عناصر قرآنيته، ولو أنها انفكت عنه لخرج عن كونه قرآنا، وذلك كوصف كونه عربياً الذي يشاركه فيه الحديث النبوي والحديث القدسي، وكوصف كونه متواتراً الذي يشاركه فيه بعض الأحاديث النبوية.

ونرى لزاماً علينا أن نذكر بعض هذه الخصائص والصفات بشيء من التفصيل والإيضاح حتى لا يقع لبس أو خلط بين ما هو قرآن وما خرج أو هو خارج من الأصل عن كونه قرآناً:

١- فمن خصائص القرآن كونه معجزاً، وإعجاز القرآن خصوصية خصه الله بها من بين كتبه المنزلة على سائر الأنبياء عليهم السلام، وميزة تميز بها عن كل كلام آخر منسوب لله سبحانه أو لأي إنسان وبأي لسان.

٢- ومن خصائص القرآن الكريم كونه متعبداً بتلاوته، فقراءة ما تيسر منه ركن من أركان الصلاة لا تتم بدونه وأيما صلاة وقعت خالية من القراءة مع القدرة عليها فهي باطلة، وقراءة القرآن خارج الصلاة عبادة أيضاً، ولم نعرف مثل هذه الخصوصية ثابتة لشيء آخر من الكتب السماوية أو غيرها.

وعلى هذا فالحديث القدسي ليس قرآنا على الصحيح بالرغم من كونه منزلاً من عند الله تعالى على محمد ﷺ بلفظه ومعناه، وذلك لأنه فقد عنصرين من عناصر القرآنية وهما: الإعجاز والتعبد بتلاوته، كما فقد عنصرا آخر يأتي بعد، وهو التواتر.

ولو ادعى مدع ثبوت بعض الأحاديث القدسية بالتواتر- وما أظن ذلك- فإنها لا تكون قرآنا أيضاً لفقدها العنصرين السابقين معاً، مع أن فقد واحد منهما كاف في تخلف وصف القرآنية عنها.

٣- ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه، كونه عربياً، وفي القرآن الكريم آيات كثيرة ناطقة بأنه نزل من عند الله كذلك:

﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوۡمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمۡۖ﴾ (إبراهيم: ٤).

﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا﴾ (الشورى: ٧).
﴿كِتَٰبٌ فُصِّلَتْ ءَايَٰتُهُۥ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۝٣﴾(فصلت: ٣).
﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ۝١٩٣ عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ ٱلْمُنذِرِينَ ۝١٩٤ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ ۝١٩٥﴾ (الشعراء: ١٩٣ - ١٩٥) وعلى هذا فأي خروج بالقرآن الكريم عن لفظه العربي المنزل من عند الله يزيل عنه حقيقة القرآنية.

وإذن فتفسير القرآن الكريم، وترجمته إلى غير العربية- مهما روعي فيهما المحافظة على معانيه ومراميه- لا يعدان قرآنا، ولا يكون لأي منهما ما للقرآن من حرمة وقداسة[١]، ولا ما فيه من خاصية التعبد به وروعة الإعجاز، لأنه خرج بذلك عن كونه كلام الله إلى كونه كلام البشر، والبشر يخطئ ويصيب ومحال أن تقوم عبارة إنسان- عربية كانت أم غير عربية- مقام عبارة الله تعالى في جودة معانيها، ودقة مراميها، وخصائص أسلوبها، وبراعة نظمها، وسر فصاحتها، وروعة بيانها.

وهنا نستطرد إلى مسألتين لهما تعلق بهذا الموضوع:

المسألة الأولى: هل معنى أن القرآن عربي أنه لا يحتوي على شيء من لغات غير عربية؟ والجواب عن هذا: أن القرآن الكريم ليس فيه- قطعا- جملة مركبة بلسان غير عربي. إنما يوجد فيه- باتفاق - أسماء غير عربية هي أعلام على أشخاص بأعيانهم، كإبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإسرائيل، وموسى، وعيسى.. ووجودها في القرآن لا يخرج به عن كونه عربياً، لأن الأسماء التي وضعت أعلاماً لأشخاص تبقى كما هي ولا يتصرف فيها عند نقلها إلى لغات غير لغاتها الأصلية، وإلا لكان معنى ذلك: إزالة الاسم عن مسماه وإطلاق اسم آخر عليه لا يعرف به ولا يعنيه.

وفي القرآن الكريم أسماء ليست أعلاماً لأشخاص مثل: استبرق، وقسطاس،

(١) ولحرمة القرآن وقداسته لا يجوز لغير المتوضئ مس المصحف كما لا يجوز للجنب ولا للحائض مس المصحف ولا قراءة القرآن أما تفسير القرآن وترجمته فجائز مسهما وقراءتهما للمحدث حدثاً أصغر أو أكبر، لزوال حقيقة القرآنية عنهما.

وسجيل، ومشكاة. . . وغيرها.

وقد اختلف العلماء في أصل هذه الأسماء:

فمنهم من قال: إن هذه الكلمات مما اتفقت فيه اللغات، فهي موجودة في اللغة العربية، وموجودة في غيرها ولا يخرج بالقرآن عن كونه عربياً أن تكون بعض كلماته موجودة في لغة أخرى، لأن اتفاق بعض اللغات في استعمال لفظ ما للدلالة على معنى معين لا يخرجه عن كونه أصيلاً في كل منها، وإنما يخرجه فقط عن نطاق الاختصاص والانتساب إلى لغة بعينها.

ومن العلماء من قال: إن هذه الألفاظ أعجمية الأصل ولا زالت أعجمية، ووجودها في القرآن لا يخرجه عن كونه عربيا، لأنها قليلة جداً، واقتباسها وإدماجها في هذه الكثرة الساحقة من الكلمات العربية التي احتواها القرآن مما يجعلها تميع وتتلاشى حتى لا تكاد تحس منها نبوة العجمة.

وذهب فريق ثالث من العلماء إلى أن هذه الألفاظ أعجمية الأصل، ولكنها- تبعاً لنظرية تداخل اللغات في فقه اللغة - استعملت من قديم وقبل نزول القرآن الكريم في اللسان العربي، ولانت بها ألسنة العرب حتى أصبحت عربية بالاستعمال، ولا يخرج القرآن عن كونه عربياً باحتوائه على بعض هذه الألفاظ المعربة، وهذا الرأي الأخير هو أشهر الأقوال الثلاثة وأرجحها.

المسألة الثانية: نقل عن الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه، أنه يرى جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة، وزعم زاعم- بناء على ذلك- أن أبا حنيفة يرى أن القرآن اسم للمعنى فقط، وهذا يناقض ما قلناه من أن القرآن اسم للفظ والمعنى معاً.

وتوضيح المسألة: أن ما نقل عن أبي حنيفة - مخالفاً به سائر الفقهاء حتى أصحابه - من جواز قراءة القرآن بالفارسية في الصلاة محمول على أن الصلاة مناجاة لله تعالى، وما يقوله المصلي من معاني القرآن باللسان الأعجمي في صلاته لا يقوله على أنه قرآن، وإنما يقوله على أنه مناجاة منه لله ﷻ، والمناجاة بأي لسان جائزة باتفاق.

ولكن بعض الفقهاء من أتباع أبي حنيفة رضي الله عنه يرى - والحق معه - أن هذا التوجيه لما نقل عن أبي حنيفة من جواز القراءة بالفارسية في الصلاة غير مستقيم ولا مقبول ويقرر أن أبا حنيفة رجع عن قوله هذا إلى القول بعدم الجواز[١].

٤- ومن صفات القرآن التي لا تنفك عنه كونه متواترا: أي رواه جمع كثير عن جمع كثير يحيل العقل اتفاقهم على الكذب من لدن سماعه من رسول الله ﷺ إلى أن وصل إلينا، وروايته على هذا النحو تفيد اليقين بقرآنيته.

وعلى هذا فما روى جماعة لا يحيل العقل اتفاقهم على الكذب- على أنه من القرآن لا يعتبر قرآناً، لأن رواية الأحاديث تفيد الظن ولا تفيد اليقين والقرآن لا يثبت بالظن أبداً.

وإذن، فما يروى بطريق الآحاد عن ابن مسعود أو ابن عباس أو غيرهما من الصحابة من بعض ألفاظ على أنها من القرآن: كقراءة أبيّ وابن مسعود في كفارة اليمين. . . «فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام متتابعات»[٢] بزيادة لفظ متتابعات.

وقراءة ابن مسعود في آية الإيلاء: «فإن فاءوا فيهن فإن الله غفور رحيم»[٣]. بزيادة لفظ «فيهن».

وقراءة ابن عباس آية الحج «ليس عليكم جناح أن تبتغوا فضلاً من ربكم في مواسم الحج»[٤] بزيادة جملة (في مواسم الحج).

وقراءة سعد بن أبي وقاص في آية الكلالة: «وإن كان رجل يورث كلالة أو امرأة وله أخ أو أخت من أم فلكل واحد منهما السدس»[٥] بزيادة جملة «من أم».

. . ما يروى من ذلك ليس قرآنا لفقده عنصر التواتر الذي لا بد منه في تحقق القرآنية وثبوتها، وتسمية بعض المتأخرين من العلماء له قرآنا تساهل منهم لا أراه مقبولاً ولا سائغاً في مثل هذا المقام الذي يتحتم فيه الدقة وعدم التسامح في

(١) انظر الإسلام عقيدة وشريعة (ص ٤٨٣- ٤٨٤).
(٢) أصل الآية في سورة المائدة رقم (٨٩).
(٣) أصل الآية في سورة البقرة رقم (٢٢٦).
(٤) أصل الآية في سورة البقرة رقم (١٩٨).
(٥) أصل الآية في سورة النساء رقم (١٢).

التعبير. والظن بالعلماء الذين تسامحوا فعبروا عن هذه الكلمات بالقرآنية، أنهم لا يقصدون أنها قراءات مروية عمن تنسب إليه من الصحابة، وإنما قصدهم، أنها تفسيرات لهم.

أو لعل بعض الصحابة كانوا يفسرون القرآن ويرون جواز إثبات التفسير بجانب القرآن على هامش مصاحفهم التي كانوا يكتبونها لأنفسهم فظنها بعض الناس- لتطاول الزمن عليها- من أوجه القراءات التي صحت عن رسول الله ﷺ رواها عنه هؤلاء الأصحاب.

ومهما يكن من شيء يقال في توجيه تسميتها قرآنا، فهي ليست من القرآن في شيء، ومن يحتج بها من الفقهاء لا يحتج بها على أنها قرآن وإنما يحتج بها على أنها من قبيل أخبار الآحاد التي تروى عن رسول الله ﷺ، وأخبار الآحاد مما يجب العمل به وتقوم به الحجة إلا في باب العقيدة.

٥- ومن صفات القرآن اللازمة له: كونه منزلاً على محمد ﷺ، ومعنى هذا: أن ما أنزل على غيره من الأنبياء لا يكون قرآنا حتى ولو حكاه القرآن، على معنى أن ما جاء في التوراة- مثلاً- من قصص أو أحكام ثم جاء القرآن بعد يحكيها، لا تكون قرآنا حين نزلت على موسى، ولا حين دونت في ألواح التوراة، أما ما حكاه القرآن من ذلك بعد فهو قرآن من عند الله تعالى، نزل به جبريل على قلب النبي محمد ﷺ. ولا يخرجه عن القرآنية أن يكون مضمونه موجوداً في التوراة من قبل.

ونزيد ذلك إيضاحاً فنقول: إن القصة لها مضمون تناولته التوراة، وتناوله القرآن، والذي حكى القصة في الموضعين هو الله سبحانه.. حكاها في التوراة بأسلوب خاص، وأنزلها على موسى عليه السلام بلسان قومه فكانت من التوراة، وحكاها في القرآن بأسلوب خاص وأنزلها على محمد ﷺ بلسان قومه، فكانت من القرآن.

والآيات القرآنية التي تضمنت أحكاماً كانت شرعاً لغيرنا وكانت مدونة بلغتهم في كتبهم المنزلة كقوله تعالى: ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ[1] أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ

(١) أي فرضنا على اليهود في التوراة هذا الحكم وهو القصاص.

بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾ (المائدة: ٤٥) لا تخرج بذلك عن كونها قرآناً، لأن الآيات التي من هذا القبيل نزلت على قلب النبي محمد ﷺ بلسان عربي، ولا يقدح في قرآنيتها كونها حكاية لما في التوراة أو غيرها من الكتب.

أما الأحكام التي تضمنتها هذه الآيات فالقول الفصل فيها ما يلي:

١- إن اقترنت بما يفيد نسخها بالنسبة لنا فلا تكون شرعاً لنا.

٢- وإن اقترنت بما يفيد بقاء العمل بها في حقنا فهي شرع لنا، ولا نكون في هذا متبعين لشريعة غيرنا، بل نكون متبعين لشريعتنا التي جاء بها نبينا عليه الصلاة والسلام.

٣- أما إن تجردت عن القرينة الدالة على شرعيتها أو عدم شرعيتها في حقنا، فهذه محل خلاف بين الفقهاء: ففريق يقول: هي شرع لنا.

وفريق آخر يقول: ليست شرعاً لنا.

ولكل من الفريقين دليله الذي يستند إليه في توجيه مذهب وتصويبه.. وفي كتب أصول الفقه ما يغني طالب المزيد من المعرفة.

● الغرض من إنزال القرآن الكريم

والغرض من إنزال القرآن الكريم أمران:

الأمر الأول: أن يكون معجزة لنبينا محمد ﷺ، تشهد بصدق دعوته وحقيقة رسالته.

الأمر الثاني: أن يكون دستوراً للأمة الإسلامية تستمد منه الهداية والرشاد، وتستلهم منه الصواب والسداد، وتقتبس من نور تشريعه ما يأخذ بيدها إلى عز الدنيا وسعادة الآخرة. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ (الإسراء: ٩).

وصدق الرسول الكريم حين يصف القرآن فيقول:

«فيه نبأ ما قبلكم. وخير ما بعدكم وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله

المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، هو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا يهدي إلى الرشد. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدي إلى صراط مستقيم»[1].

صدق الله ورسوله: فلا عز إلا والقرآن سبيل إليه، ولا خير إلا وفي آياته دليل عليه. ولقد عرف سلفنا الصالح هذا كله فتمسكوا بالقرآن فعزوا وسادوا، ثم خلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى، ويقولون: سيغفر لنا، رضوا بأن يكونوا من الخوالف فطبع على قلوبهم، وأذاقهم الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون.

وصدق الله العظيم: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِى فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِىٓ أَعْمَىٰ وَقَدْ كُنتُ بَصِيرًا ﴿١٢٥﴾ قَالَ كَذَٰلِكَ أَتَتْكَ ءَايَـٰتُنَا فَنَسِيتَهَا ۖ وَكَذَٰلِكَ ٱلْيَوْمَ تُنسَىٰ ﴿١٢٦﴾﴾ (طه: ١٢٤ ١٢٦).

(١) رواه الترمذي في كتاب السنن (ج٢-ص١٤٩- ط: الأميرية).

جوانب الهداية والإرشاد في القرآن الكريم

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

للقرآن الكريم في هدايته وإرشاده جوانب أربعة:
١) جانب العقيدة ٢) جانب الشريعة ٣) جانب الأخلاق
٤) جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض.

• الجانب العقدي في القرآن الكريم

أما جانب العقيدة: فقد وجهنا القرآن الكريم إلى العقيدة الحقَّة في الله، وملائكته، وكتبه ورسله، واليوم الآخر، وما فيه من حساب وجزاء.

دعانا إلى معرفة الله- تعالى- وما له من صفات الكمال والجلال، وأنه واحد لا شريك له في ملكه، ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته، وأنه الخالق المستحق للعبادة دون غيره.

فقال في بيان ما لله من صفات الكمال والجلال:

﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ ۝٤﴾ (سورة الإخلاص).

وقال: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ ۚ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ﴾ (البقرة: ٢٥٥).

وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ (الملك: ١-٢).

وقال: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ

ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَـٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٤﴾﴾ (الحشر: ٢٢-٢٤).

وقال في بيان أن الله واحد لا شريك له في ملكه ولا شبيه له في ذاته ولا في صفاته:

﴿إِنَّنِىٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾﴾ (طه: ١٤).

وقال: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْۖ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَۖ خَـٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُۚ﴾ (الأنعام: ١٠٢).

وقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وقال: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَـٰهٍۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَـٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ سُبْحَـٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾﴾ (المؤمنون: ٩١).

وقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١).

وقال في بيان أنه المستحق للعبادة دون غيره:

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ لَن يَخْلُقُوا۟ ذُبَابًا وَلَوِ ٱجْتَمَعُوا۟ لَهُۥۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ ٱلذُّبَابُ شَيْـًٔا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُۚ ضَعُفَ ٱلطَّالِبُ وَٱلْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾﴾ (الحج: ٧٣-٧٤).

وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَـٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَاۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾ (الأعراف: ١٩١-١٩٥).

وقال: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ

مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾(الأحقاف: ٤-٦).

وقال: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١٧﴾﴾ النحل: ١٧)

ووجهنا القرآن الكريم إلى الإيمان بالملائكة والرسل وما أنزل الله من كتاب فقال:

﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٦﴾﴾ (البقرة: ١٣٦).

وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ ءَامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِى نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِن قَبْلُ وَمَن يَكْفُرْ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿١٣٦﴾﴾ (النساء: ١٣٦).

ويقرر القرآن الكريم عقيدة البعث والحساب والجزاء.

فيقول مقرراً عقيدة البعث:

﴿زَعَمَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَن لَّن يُبْعَثُواْ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ ﴿٧﴾﴾ (التغابن: ٧).

ويقول: ﴿قُلْ إِنَّ ٱلْأَوَّلِينَ وَٱلْءَاخِرِينَ ﴿٤٩﴾ لَمَجْمُوعُونَ إِلَىٰ مِيقَٰتِ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿٥٠﴾﴾ (الواقعة: ٤٩ -٥٠).

ويرد على المستبعدين للبعث لبني الإنسان بعد ما تمزقت أوصالهم، ورمت عظامهم، وتلاشت ذراتهم حتى إنهم ليقولون مستنكرين للبعث بعد هذا التمزق والتلاشي:

﴿وَكَانُواْ يَقُولُونَ أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ﴿٤٧﴾ أَوَ ءَابَآؤُنَا ٱلْأَوَّلُونَ ﴿٤٨﴾﴾ (الواقعة: ٤٧ -٤٨).

﴿هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (سبأ: ٧).

﴿أَءِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَٰلِكَ رَجْعٌۢ بَعِيدٌ ﴿٣﴾﴾(ق: ٣).

﴿أَءِذَا ضَلَلْنَا فِى ٱلْأَرْضِ أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ (السجدة: ١٠).

ويرد القرآن الكريم على هؤلاء المنكرين للبعث والمستبعدين له بآيات كلها براهين قاطعة وحجج دامغة فيقول: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ (الروم: ٢٧).

﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِى لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾ (ق: ١٥).

﴿كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ وَعْدًا عَلَيْنَآ إِنَّا كُنَّا فَٰعِلِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٤).

﴿أَيَحْسَبُ ٱلْإِنسَٰنُ أَلَّن نَّجْمَعَ عِظَامَهُۥ ﴿٣﴾ بَلَىٰ قَٰدِرِينَ عَلَىٰٓ أَن نُّسَوِّىَ بَنَانَهُۥ ﴿٤﴾﴾ (القيامة: ٣-٤).

﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾(يس: ٧٨ -٧٩).

ثم هو يقرر بعد ذلك أن البعث لا بد أن يستتبع حسابا، وأن الحساب لا بد أن يستتبع ثوابا أو عقابا، وإلا لكان الله عابثاً بخلقه غير عادل في ملكه، فيقول: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَٰكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلْمَلِكُ ٱلْحَقُّ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْكَرِيمِ ﴿١١٦﴾﴾ (المؤمنون: ١١٥ - ١١٦).

ويقول: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾﴾(ص: ٢٧).

ويقول: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (القلم: ٣٥ -٣٦).

ويقول: ﴿وَمَا يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَلَا ٱلْمُسِىٓءُ ۚ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾﴾(غافر: ٥٨).

ويقول: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجْتَرَحُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجْعَلَهُمْ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءً مَّحْيَاهُمْ وَمَمَاتُهُمْ ۚ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الجاثية: ٢١).

● الجانب التشريعي في القرآن الكريم

وأما جانب الشريعة: فقد سن لنا القرآن الكريم كثيراً من التشريعات والنظم التي نحتاج إليها في عباداتنا، ومعاملاتنا، وصلاتنا في مجتمعنا الإسلامي، وعلاقاتنا بغيرنا من الدول في السلم والحرب.

ففي العبادات شرع الصلاة والزكاة والصوم والحج.. وغير ذلك من الطاعات والقرب التي يتقرب بها الإنسان إلى ربه ومولاه.

وفي المعاملات بين الحلال والحرام فأحل البيع وحرم الربا، وحرم أكل أموال الناس بالباطل فقال:

﴿وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰا۟﴾ (البقرة: ٢٧٥).

وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَـٰفًا مُّضَـٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ (آل عمران: ١٣٠).

وقال: ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿١٨٨﴾﴾ (البقرة: ١٨٨).

وقال: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾(الأنعام: ١٥٢).

وقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ظُلْمًا إِنَّمَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ نَارًا ۖ وَسَيَصْلَوْنَ سَعِيرًا ﴿١٠﴾﴾(النساء: ١٠).

ووضع لنا القرآن الكريم أسس الاستيثاق فيما يجري بيننا من معاملات مالية فقال في الدين: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَدَايَنتُم بِدَيْنٍ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَٱكْتُبُوهُ ۚ﴾ إلى أن قال: ﴿وَٱسْتَشْهِدُوا۟ شَهِيدَيْنِ مِن رِّجَالِكُمْ ۖ فَإِن لَّمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَٱمْرَأَتَانِ مِمَّن تَرْضَوْنَ مِنَ ٱلشُّهَدَآءِ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال في البيع: ﴿وَأَشْهِدُوٓا۟ إِذَا تَبَايَعْتُمْ ۚ وَلَا يُضَآرَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ ۚ﴾ (البقرة: ٢٨٢).

وقال في الاستيثاق بالرهن: ﴿وَإِن كُنتُمْ عَلَىٰ سَفَرٍ وَلَمْ تَجِدُوا۟ كَاتِبًا فَرِهَـٰنٌ مَّقْبُوضَةٌ ۖ﴾ (البقرة: ٢٨٣)

وقال في الوصية: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ شَهَـٰدَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ حِينَ ٱلْوَصِيَّةِ ٱثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ ءَاخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ (المائدة: ١٠٦)

ولا لأوصياء اليتامى: ﴿فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ فَأَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا﴾ (النساء: ٦).

ووضع القرآن أحكام الزواج والطلاق، وما يتعلق بهذا وذلك من مهر ونفقة وعدة وحضانة ورضاع.

وأرسى القرآن قواعد الأمن والطمأنينة في المجتمع الإسلامي بما شرعه من

الحدود والعقوبات على بعض الجرائم التي لا تخلو منها المجتمعات البشرية.

فقرر عقوبة القصاص في القتل العمد بقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِي ٱلْقَتْلَى ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ﴾ (البقرة: ١٧٨).

وقرر عقوبة القتل الخطأ بقوله:

﴿وَمَن قَتَلَ مُؤْمِنًا خَطَـًٔا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَصَّدَّقُواْ فَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ وَإِن كَانَ مِن قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ فَدِيَةٌ مُّسَلَّمَةٌ إِلَىٰٓ أَهْلِهِۦ وَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٍ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ تَوْبَةً مِّنَ ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿٩٢﴾﴾ (النساء: ٩٢).

ووضع عقوبة لقطاع الطرق بقوله:

﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾ (المائدة: ٣٣).

ووضع عقوبة للسارق بقوله: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾ (المائدة: ٣٨).

وشرع من العقوبات ما يصون حرمة الأعراض ويزجر عن استباحتها وانتهاكها فقال في عقوبة الزاني غير المحصن من الرجال والنساء:

﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِي فَٱجْلِدُواْ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور: ٢).

وقال في عقوبة قذف العفيفات بالزنى:

﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُواْ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُواْ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾﴾ (النور: ٤).

وفي محيط المجتمع الإسلامي يعمل القرآن الكريم على تقوية ما بين المسلمين من وحدة وترابط وإزالة ما عساه يقع بينهم من عوامل التفكك والتصدع فيشرع لهم من الأحكام ما يجتث جذور التنازع والتناحر فيما بينهم، فيقول في

جمع الكلمة ووحدة الصف:

﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ويقول في القضاء على الفتن والشقاق الذي يمزق هذه الوحدة: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُواْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَٰتِلُواْ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾ (الحجرات: ٩-١٠).

وفي علاج المشاكل الأسرية يشرع القرآن الكريم كثيراً من الأحكام التي تزيل أسباب الخلاف وتجعل الحياة الأسرية تمشي في طريقها الصحيح الذي يجنبها العثرات والمكدرات، وأبرز مثال نسوقه من هذه التشريعات الحكيمة قوله تعالى:

﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ وَٱلَّٰتِى تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِى ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا ﴿٣٤﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُواْ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا ﴿٣٥﴾﴾ (النساء: ٣٤-٣٥)

وفي علاقة المسلمين بغيرهم من الدول يضع القرآن الكريم قواعد المعاملة في السلم والحرب:

ففي السلم: يدعو إلى مسالمة من يسالمنا بقوله: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ﴾ (الأنفال: ٦١).

وقوله: ﴿فَإِنِ ٱعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْاْ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلًا﴾ (النساء: ٩٠).

وفي الحرب: يدعو إلى محاربة من يحاربنا بقوله:

﴿وَقَٰتِلُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾﴾ (البقرة: ١٩٠).

ودعانا إلى الإعداد للحرب ما دامت متوقعة بقوله:

﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ (الأنفال: ٦٠).

وحضّنا على الثبات عند لقاء الأعداء بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنفال: ٤٥).

وحرضنا على البلاء في القتال بقوله: ﴿فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ (ألانفال: ١٢).

وقوله: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ﴾ (محمد: ٤).

وقوله: ﴿فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِم مَّنْ خَلْفَهُمْ﴾ (الأنفال: ٥٧).

ونهانا عن التولي يوم الزحف بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ﴿١٥﴾ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿١٦﴾﴾ (الأنفال: ١٥-١٦).

ونهانا عن الخور والوهن في طلب الأعداء بقوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١٠٤﴾﴾(النساء: ١٠٤).

والقرآن يعطي الكافر المستأمن حق الأمان غير مروع على نفسه أو ماله فيقول:

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ﴾ (التوبة: ٦)

ويقرر القرآن مصير أسرى الحرب بقوله:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا﴾ (محمد: ٤).

ويضع القرآن أسس المعاهدات ويحتم وجوب الوفاء بها والوقوف عند بنودها ما دام العدو محافظا على ذلك من جانبه ولم يجد من الظروف ما يقتضي نقضها فيقول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ (النحل: ٩١)

ويقول: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤﴾﴾(التوبة: ٤).

ويقول: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (الأنفال: ٥٨).

منهج القرآن الكريم في بيان الأحكام

العدد (١٠٤) شعبان (١٣٩٣هـ) - أغسطس (١٩٧٣م).

للقرآن الكريم في بيان الأحكام منهج فريد اقتضته ضرورة كونه عالمياً خالداً. ويتلخص هذا المنهج في النقاط التالية:

١- أن بعض أحكامه جاءت بصيغة قاطعة في الأدلة على الحكم، فلم يكن محل اجتهاد ولا خلاف بين الفقهاء، وهذا - عادة - يكون في أصول الأحكام كوجوب الصلاة والزكاة وحرمة القتل والزنى، وهذه الأحكام يجب اعتقادها، ويلزم العمل بها، ومن جحدها كان بجحودها خارجاً عن الإسلام.

٢- أن بعضاً آخر من أحكامه جاء بصيغة غير قاطعة في الدلالة على الحكم، لاحتمالها أكثر من وجه فكانت محلاً لاجتهاد المجتهدين، ونتج عن ذلك اختلافهم في الرأي، وذلك يكون- عادة- في فروع الأحكام كمقدار ما يجب مسحه من الرأس في الوضوء وعدد الرضعات التي يتحقق بها كون المرضع إما من الرضاع. وهذه الأحكام الاجتهادية التي قال بها الفقهاء لا يجب اعتقاد واحد منها بعينه، كما لا يجب العمل به إلا على المجتهد الذي توصل إليه باجتهاده، أما المقلد فله أن يختار من بين آراء المجتهدين ما شاء.

٣- أن القرآن لم يتناول كل الأحكام التي يحتاجها الإنسان في حياته جملة وتفصيلاً، لأنه ليس من المعقول ولا من الحكمة أن ينص القرآن على أحكام كل ما يعرض للناس من أقضية في ماضيهم وحاضرهم، ومستقبل حياتهم الممتدة إلى يوم القيامة.

أما أنه ليس من المعقول: فذلك أمر بدهي، إذ لا يتصور عقل أن يتسع كتاب لهذا كله.

وأما أنه ليس من الحكمة: فذلك لأن الحكمة تقضي أن تكون الشريعة التي جعلها الله خاتمة الشرائع وجعلها للناس كافة، شريعة يكون فيها جانب المرونة محققاً حتى تتسع لأنماط من الحكم مختلفة، يقتضيها اختلاف طبائع المكلفين وما يحيط بهم من ملابسات وظروف على مدى تاريخ الإسلام الطويل.

وحسب القرآن الكريم أن يقرر الأصول العامة ويتناول بعض الجزئيات الهامة ويقرن كل هذا بعلة التشريع وما يهدف إليه من مصلحة، ثم يترك للمجتهدين بعد ذلك أن يستنبطوا من الأحكام ما يلائمهم بشرط ألا يخرج عن نطاق ما قرره من الأصول العامة، وما نبه إليه من علة التشريع التي هي مناط الحكم.

٤- أن القرآن لم يلتزم وحدة الموضوع في بيان أحكامه لأنه ليس كتاب قانون يبوب لكل موضوع باباً ثم يسرد كل مسائله، وإنما هو كتاب هداية وإرشاد: يسوق الآيات تلو الآيات في جانب من جوانب الموعظة، ويتوخى المناسبة الملائمة فيسوق في ثنايا موعظته حكماً شرعياً ويضفي عليه جواً من الترغيب أو الترهيب يوحي بوجوب الأخذ به، ويحذر من مخالفته.

وفي جانب آخر من جوانب الموعظة يلقي بحكم آخر يضفي عليه من جو الترغيب أو الترهيب ما يحتم الأخذ به ويحذر من مخالفته.

وهكذا يلقي القرآن بأحكامه كلها في أجواء مختلفة من الوعظ والهداية والإرشاد، وفي كل مرة يحس السامع بأنه يسمع شيئاً جديداً، فيقبل عليه بشوق ولهفة دون أن يحس بسآمة أو ملل.

ثم إن القرآن الكريم نزل مفرقاً وأحكامه نزلت مفرقة على حسب الحوادث وأسئلة السائلين وحاجات الناس، ومن الأحكام ما هو منسوخ بأحكام أخرى، فلو جمعت كل الأحكام ناسخها ومنسوخها في مكان واحد وتحت عنوان واحد، لظهر القرآن بمظهر المتناقض في بعض أحكامه.

أما أن توضع آية متضمنة حكماً في موضع ما ولمناسبة ما، ثم توضع آية أخرى

ناسخة لها في موضع آخر ولمناسبة أخرى ويعرف بطريق ما أن هذه ناسخة وتلك منسوخة، فذلك يوحي بتدرج التشريع، ويعطي القارئ المتأمل فكرة واضحة عن مراحله من غير أن يستشعر تناقضاً بين أحكامه.

بقي سؤال يثار حول التشريع القرآني وهو:

هل كل ما في القرآن من تشريع يعد جديداً غير مسبوق؟

وللجواب عن هذا السؤال نقول: إن القرآن الكريم نزل للناس جميعاً ونزوله - كما قلنا - كان لغرض الإعجاز أولاً ثم ليكون مصدر هداية وإرشاد بما احتواه من تشريع وتوجيهات مختلفة وبدهي أن أي تشريع يراد له أن يكون صالحاً لتنظيم حياة أمة وعلاج مشاكلها في حاضرها ومستقبل أمرها، لا بد أن تتوفر فيه عناصر أربعة:

١- أن يكون ملائماً للفطرة البشرية ملائمة تامة حتى لا يصادمها ولا يعاندها في أمر جبلت عليه، ومن هنا حرم نكاح الأمهات والبنات في كل الشرائع المعتبرة تحريماً باتاً، ولو عرف أن تشريعاً أباح ذلك لعد شذوذاً وخروجاً عن الإنسانية إلى الحيوانية.

٢- أن يكون ملائماً للقدرة الإنسانية غير خارج عن طاقتها، وإلا كان تعنتاً وتعجيزاً ينافي مفهوم التكليف الذي يهدف إلى الامتثال والطاعة ومن هنا شرع التيسير في كثير من الأحكام عند تحقق المشقة أو مظنتها كإباحة الفطر في السفر والصلاة قاعداً لمن عجز عن أدائها من قيام.

٣- أن يكون ملائماً للسنن الاجتماعية فلا ينافرها ولا يعطلها وإلا كان ذلك خروجاً عما تقتضيه طبيعة الجماعات في ترابطها وتعاونها وتكاملها، ومن هنا شرعت قوانين الولاء لولي الأمر، وقوامة الزوج على زوجته، وولاية الوالد على ولده القاصر.

٤- أن يكون مراعياً للعرف وما اصطلح عليه الناس في معاملاتهم، ما لم يؤد ذلك إلى مفسدة، لفساده في ذاته، أو فساد ما يترتب عليه، ومن هنا حرم التبني، وحرم الجمع بين الأختين في الزواج، وكلاهما كان متعارفاً بين العرب قبل الإسلام فجاء الإسلام وحرم الأول لفساده في ذاته، لأن الدعي

لا يكون ابنا، وحرم الثاني، لفساد ما يترتب عليه من قطيعة الرحم التي تنشأ- عادة- بين الأختين إن كانتا تحت زوج واحد.

والقرآن الكريم راعى كل العناصر المتقدمة في تشريعه، ونظر إليها جميعاً بعين الاعتبار فيما تضمنه من أحكام كلية كانت أم جزئية، وعلى هذا الأساس جاء تشريع القرآن الكريم على نمط يتمشى مع عمومه وعالميته... نمط يأخذ من كل دين وعرف ما يلائم طبيعة الإنسانية ويدخل في نطاق قدرته، ويساير تطوره الاجتماعي، وما لا يلائم طبيعته، ولا يدخل في نطاق قدرته، ولا يساير تطوره الاجتماعي يبطله ولا يقره، ثم هو بعد ذلك يشرع ما يراه متمشياً مع هذا كله.

وليس من شك في أن القرآن الكريم جاء وهناك تشريعات قائمة، بعضها منبثق عن شرائع سماوية، وبعضها الآخر منبثق عن أعراف خاصة لجماعات مختلفة.

وليس من شك- أيضاً- في أن القرآن الكريم وقف من كل هذه التشريعات موقف الناقد البصير: يقر منها ما يراه صالحاً، ويعدل منها ما يحتاج إلى تعديل، ويبطل منها ما يراه غير صالح، ويشرع أحكاماً أخرى لم تكن معروفة من قبل، وهو في كل هذا مشرع مستقل بنفسه، وليس عالة على غيره من التشريعات أو الأعراف والعادات، لأنه حين أقر ما أقر منها لم يقره على أنه مقلد لا رأي له، وإنما أقره لأنه جرى ويجري على مقتضى الطبيعة الإنسانية والسنن الاجتماعية، وما كان لمشرع أبداً أن يحيد عما تقتضيه طبيعة الإنسانية وسنن الاجتماع وإلا كان أحمق لا يعرف الحكمة ولا يدرك المصلحة.

وخلاصة المقال:

١- إن ما في القرآن من تشريع ليس كله جديداً مبتكراً.

٢- وأن موقف التشريع القرآني من الشرائع السابقة كان على النحو التالي:

أ) أنه أقر بعض الأحكام وأبقاها معمولاً بها في الشريعة الإسلامية لملاءمتها وصلاحيتها، كالقصاص، والديات في القتل وغيره من الجنايات على النفس.

ب) أنه هذب وعدل بعضاً آخر منها، كالظهار الذي كان معروفاً عند العرب، يقول الرجل لزوجته: أنت علي كظهر أمي، فتصبح في عرفهم محرمة عليه أبداً،

فجاء القرآن وهم على ذلك، فعدل حكم الظهار: فمن ظاهر من زوجته لا يعتبره القرآن مطلقاً ولا محرماً لها على التأبيد، بل اعتبره عابثاً بالحياة الزوجية، وجزاؤه على ذلك: أنه لا يحل له قربانها والاستمتاع بها حتى يكفر عن خطيئته بعتق رقبة، فإن لم يجد فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، وفي ذلك يقول الله تعالى معاتباً ومعاقباً:

﴿ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ ٱلْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ۝٢ وَٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا۟ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ۝٣ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَآسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۗ وَلِلْكَٰفِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝٤﴾ (المجادلة: ٢-٤).

جـ) أنه ألغى بعضاً ثالثاً منها: كالتبني الذي كان معروفاً في الجاهلية وصدر الإسلام.

كان الرجل يتبنى ولد غيره وهو يعرف ذلك، فينسبه إلى نفسه، وتجري عليه أحكام الابن الصلبي من التوارث بينهما، وعدم جواز نكاح أحدهما زوجة الآخر إذا طلقها أو مات عنها، فجاء القرآن فأبطل التبني وما كان يترتب عليه.

فقال في بيان انتساب الأدعياء المتبنين:

﴿وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝٤ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ﴾ (الأحزاب: ٤-٥).

وقال في إبطال التوارث بالتبني: ﴿وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفْعَلُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَوْلِيَآئِكُم مَّعْرُوفًا ۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْكِتَٰبِ مَسْطُورًا﴾ (الأحزاب: ٦).

وقال في إباحة زواج المتبني بزوجة من تبناه بعد فراقه لها:

﴿فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ

أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا﴾ (الأحزاب: ٣٧). . يريد زينب بنت جحش، وكان قد تزوجها زيد بن حارثة ثم طلقها، وكان الرسول عليه الصلاة والسلام قد تبنى زيداً حتى كان يدعى زيد بن محمد، فأمره الله بزواجها من بعده، فكان ذلك هدماً لعرف جرى عليه العرب في الجاهلية.

د) وقد يقر القرآن بعض ما كان شائعاً من أحكام لنوع المصلحة فيه، ولكنه يحيط هذا الحكم الذي أقره بكثير من الضمانات حتى لا ينحرف به أحد عن حكمة التشريع.

ثم هو لا يكتفي بهذه الضمانات، فينشئ من التشريعات ما يكاد يلغي هذا الحكم أو يوحي بعدم الرغبة فيه، وذلك كالرق فقد كان شائعاً بين العرب فجاء القرآن وأقر الاسترقاق في الحرب، لا على أنه إهدار لآدمية المسترق وحطم لمعاني الإنسانية فيه، وإنما أعطاه كل حقوقه كإنسان، واعتبر الاسترقاق إدخالاً له في مدرسة الإسلام، لعل قلبه يتفتح على ما فيه من الحق والهدى فينضوي تحت لوائه، وفتح له مع ذلك أبواباً كثيرة يخرج منها إلى الحرية التامة.

فمن ذلك: أنه جعل تحرير الرقاب المسترقة من أفضل القرب وأحبها إلى الله.

ومن تخلى عن أنانيته وطوعت له نفسه عتق عبده عن سماحة نفس تخطى العقبة وسلك طريقه إلى الجنة[1].

ومن كان مسترقاً يسعى للحصول على حريته، فله في مال الزكاة نصيب يأخذه ليشتري له حريته من سيده إن كان قد شح عليه بها.

ومن حلف يميناً ثم حنث فيها فكفارته إطعام عشرة مساكين أو كسوتهم أو تحرير رقبة[2].

ومن قتل مؤمنا خطأ فكفارته تحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله[3].

---

(١) انظر الآيات ١١، ١٢، ١٣، من سورة البلد.

(٢) انظر الآية ٨٩ من سورة المائدة.

(٣) انظر الآية ٩٢ من سورة النساء.

ومن ظاهر من زوجته ثم أراد أن يعود لها فكفارته عتق رقبة[١].

ومن أفطر متعمداً في نهار رمضان فكفارته عتق رقبة أيضاً[٢].

ومن لطم مخدومه أو ضربه فكفارته أن يعتقه[٣].

ومن يتأمل الآيات القرآنية التي وردت في الكفارات يخرج بحقيقتين هامتين:

الحقيقة الأولى: أن العتق هو الأصل في الكفارة، وأنه لا تخيير بين العتق وغيره من المكفرات إلا في كفارة اليمين.

الحقيقة الثانية: أن العتق لا يعدل عنه إلى البديل وهو الصوم إلا إذا لم يجد المكفر رقبة يعتقها.

ومعنى هذا: أن الإسلام يتشوف إلى الحرية ويراها أحب إلى الله وأرضى من الصوم وغيره من العبادات والقرب.

ثم إن الإسلام يملك الرقيق نفسه ويعطيه حريته لأدنى مناسبة، فإذا ما لاح للمسترق شعاع أمل في الحرية من خلال نافذة ضيقة، فتح الله له الباب على مصراعيه لينطلق منه إلى الحرية الكاملة، كالأمة يستولدها سيدها فلا يحل له أن يخرجها عن ملكه ببيع أو هبة أو نحوهما، فإذا مات فهي حرة.

والعبد يكون بين شريكين فيعتق أحدهما نصيبه فيعتق العبد كله، ويضمن المعتق الأول نصيب شريكه إن كان له مال، فإن لم يكن له مال قوم نصيب من لم يعتق، وسعى العبد في تحصيله له من غير عنت ولا مشقة.

وهكذا يقر الإسلام أمراً كان شائعاً بين الناس، ولكنه يحيطه بكل الضمانات التي تجعله لا يخرج عن نطاق الحكمة والمصلحة... ثم هو بعد يلغيه بضروب من الجزاءات والعبادات والقرب إلى الله.

---

(١) انظر الآية ٣ من سورة المجادلة.

(٢) على خلاف بين الفقهاء في ذلك.

(٣) هذا نص حديث رواه الإمام أحمد والإمام مسلم وغيرهما وفي معناه عدة أحاديث مروية في الصحيح.

الجانب الأخلاقي في القرآن الكريم

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

لقد وجهنا القرآن الكريم إلى نواح أخلاقية متعددة، ودعانا إلى الأخذ بها حتى نسعد في حياتنا الدنيا وفي الآخرة، وحذرنا بأساليب شتى من الخروج عنها حتى لا نضلّ ولا نشقى، ونبهنا إلى الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة. . نبهنا إلى رسول الله ﷺ وما هو عليه من حسن الخلق وكريم الخصال حتى نقتدي به فقال مثنياً عليه: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ۝٤﴾ (ن: ٤).

وبين سر التفاف المسلمين من حوله واجتماع قلوبهم على محبته فقال: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ (آل عمران: ١٥٩).

وإذا نحن تتبعنا القرآن الكريم وتقصينا ما فيه من توجيهات أخلاقية لخرجنا بعديد من الآيات التي تحوي جماع الفضائل كلها، والتي لو تمسك بها المسلم لكان في القمة، من سمو الروح، وصفاء النفس، وحسن السريرة، وطيب المعشر، والتي لو سادت في مجتمع لكان مجتمعنا مجتمعاً مثالياً فاضلاً، يقوم على الخير والحب والمودة والرحمة والطهر والنقاء.

ولا نريد أن نستعرض كل ما في القرآن الكريم من الآيات الأخلاقية الموجهة فذلك أمر يطول... ولكن نكتفي ببعضها:

ففي الدعوة إلى الإحسان في معاملة الأقربين وغيرهم يقول:

﴿وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ۝٣٦﴾ (النساء: ٣٦).

ويقول: ﴿وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ﴾ (القصص: ٧٧).

وفي مقابلة السيئة بالحسنة يقول: ﴿وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ (فصلت: ٣٤).

وفي العفو عن المسيء يقول: ﴿فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ ۚ﴾ (الشورى: ٤٠).

ويقول لنبيه محمد ﷺ: ﴿وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ﴾ (يعني اليهود) ﴿إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ (المائدة: ١٣).

ويقول: ﴿وَسَارِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ فِى ٱلسَّرَّآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَٱلْكَٰظِمِينَ ٱلْغَيْظَ وَٱلْعَافِينَ عَنِ ٱلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾﴾ (البقرة: ١٣٣- ١٣٤).

وفي الحث على الصدق يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا تَنَٰجَيْتُمْ فَلَا تَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَتَنَٰجَوْا۟ بِٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٩﴾﴾ (المجادلة: ٩).

ويقول: ﴿لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١١٤﴾﴾ (النساء: ١١٤).

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا﴾ (النساء: ٥٨).

ويمدح المؤمنين الأمناء ويسجل لهم الفوز والفلاح بقوله:

﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾﴾ ... إلى أن يقول: ﴿وَٱلَّذِينَ هُمْ لِأَمَٰنَٰتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَٰعُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلَوَٰتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْوَٰرِثُونَ ﴿١٠﴾ ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿١١﴾﴾ (المؤمنون: ١-١١).

ويحذر من الخيانة فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٧﴾﴾ (الأنفال: ٢٧).

ويقول: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ (النساء: ١٠٧).

وفي الحث على العدل يقول:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ﴾ (النحل: ٩٠).

ويحذر من أن تكون القرابة أو العداوة سببا لعدم العدل في القول أو الحكم فيقول:

﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾ (الأنعام: ١٥٢).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ۚ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا ۖ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا ۚ وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٣٥﴾﴾ (النساء: ١٣٥).

ويقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾﴾ (المائدة: ٨).

ويدعو إلى التواضع وعدم الكبر والتعالي على الغير فيقول:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ (الفرقان: ٦٣-٧٥).

ويقول: ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ (الإسراء: ٣٧).

ويقول: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ۚ إِنَّ أَنكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿١٩﴾﴾ (لقمان: ١٨-١٩).

وينهى عن السخرية واللمز والتنابز بالألقاب فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰ أَن يَكُونُوا خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَاءٌ مِّن نِّسَاءٍ عَسَىٰ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ ۖ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿١١﴾﴾ (الحجرات: ١١).

وينهى عن الظن السوء، والتجسس والغيبة فيقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾ (الحجرات: ١٢).

ويحذر من إشاعة الفاحشة في المؤمنين فيقول:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ﴾ (النور: ١٩).

ويرشدنا إلى حرمة البيوت وآدابها فيقول:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (النور: ٢٧- ٢٩).

ويقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟ ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ (النور: ٥٨-٥٩).

ويدعو الرجال إلى غض أبصارهم وحفظ فروجهم عما حرم الله فيقول: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ (النور: ٣٠).

ويدعو النساء إلى غض أبصارهن وحفظ فروجهن وعدم إبداء زينتهن للأجانب حتى لا يكن مثار فتنة فيقول: ﴿وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُو۟لِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾﴾ (النور: ٣١).

ويقول: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَـٰبِيبِهِنَّ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٩﴾﴾ (الأحزاب: ٥٩).

ويقول: ﴿يَـٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِنِ ٱتَّقَيْتُنَّ فَلَا تَخْضَعْنَ بِٱلْقَوْلِ فَيَطْمَعَ ٱلَّذِى فِى قَلْبِهِۦ مَرَضٌ وَقُلْنَ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٣٢﴾ وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَـٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ (الأحزاب: ٣٢- ٣٣).. وغير أمهات المؤمنين بذلك أولى.

ويقول في أدب الضيف: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ (الأحزاب: ٥٣).

● جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض

وأما جانب الدعوة إلى النظر في ملكوت السموات والأرض: فقد وجهنا القرآن الكريم إلى ما بثه الله في الكون من آثار قدرته ودلائل ألوهيته فقال: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَـٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٤).

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَـٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ﴾ (الروم: ٢٢).

وقال: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَـٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الذاريات: ٢٠- ٢١).

وقال: ﴿أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى ٱلْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ﴿١٧﴾ وَإِلَى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٨﴾ وَإِلَى ٱلْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى ٱلْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ﴿٢٠﴾﴾ (الغاشية: ١٧- ٢٠).

وقال: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى جَعَلَ فِى ٱلسَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَٰجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا ﴿٦١﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى

جَعَلَ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَنْ أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا ﴿٦٢﴾﴾ (الفرقان: ٦١- ٦٢).

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ ٱلظِّلَّ وَلَوْ شَآءَ لَجَعَلَهُۥ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا ٱلشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا ﴿٤٥﴾ ثُمَّ قَبَضْنَٰهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا ﴿٤٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلَّيْلَ لِبَاسًا وَٱلنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ ٱلنَّهَارَ نُشُورًا ﴿٤٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦ ۚ وَأَنزَلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً طَهُورًا ﴿٤٨﴾ لِّنُحْۦِىَ بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا وَنُسْقِيَهُۥ مِمَّا خَلَقْنَآ أَنْعَٰمًا وَأَنَاسِىَّ كَثِيرًا ﴿٤٩﴾ وَلَقَدْ صَرَّفْنَٰهُ بَيْنَهُمْ لِيَذَّكَّرُوا۟ فَأَبَىٰٓ أَكْثَرُ ٱلنَّاسِ إِلَّا كُفُورًا ﴿٥٠﴾﴾ (الفرقان: ٤٥- ٥٠).

وقال: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يُزْجِى سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُۥ ثُمَّ يَجْعَلُهُۥ رُكَامًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ وَيُنَزِّلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن جِبَالٍ فِيهَا مِنۢ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَصْرِفُهُۥ عَن مَّن يَشَآءُ ۖ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِۦ يَذْهَبُ بِٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٣﴾ يُقَلِّبُ ٱللَّهُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ (النور: ٤٣- ٤٥).

وقال: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِ ٱلْجَوَارِ فِى ٱلْبَحْرِ كَٱلْأَعْلَٰمِ ﴿٣٢﴾ إِن يَشَأْ يُسْكِنِ ٱلرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَىٰ ظَهْرِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الشورى: ٣٢-٣٣).

وقال: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ فَإِذَا هُم مُّظْلِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ ﴿٣٩﴾ لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِى لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس: ٣٧- ٤٠).

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ (الأعراف: ١٨٥).

وقال: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (يوسف: ١٠٥).

وأخيراً يشير القرآن الكريم إلى آيات أخرى لا يزال يكشف عنها العلم، كانت وستكون الحجة البالغة لله على الناس فيقول:

﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ﴾ (فصلت: ٥٣).

● **هدف القرآن من توجيهنا إلى آثار قدرة الله**

والقرآن إذ يوجهنا إلى هذه الآثار ويلفت أنظارنا إليها، لا يريد منا أن ننظر إليها نظرة عابرة قاصرة. وإنما يريد منا النظرة الفاحصة المتأملة، وهو يهدف من وراء ذلك إلى أمرين هامين:

أولهما: أن نأخذ منها الدليل على وجود الله وقدرته. وعلى أنه الإله الحق الذي يستحق العبادة دون غيره.

وثانيهما: أن ننقب عما حواه الكون من خيرات وكنوز وأن نكشف أسراره وكوامنه حتى ننتفع بكل ما فيه من خيرات مادية ونستفيد بكل ما نهتدي إليه من معارف وعلوم بعد الدراسة لظواهره ومشاهده دراسة البارع المدقق والعالم المحقق.

ولقد أدرك العلماء من غير المسلمين ما في الكون من مصادر الثروة وموارد القوة وينابيع المعرفة، وأخذوا جادين في استنباط كنوز الأرض واستغلال خيراتها. وبحثوا محققين عن خواص بعض ظواهر الكون وعوالمه، فإذا بهم بعد الجهد والعرق يصلون إلى ما كانوا يرجون. ويحققون لأممهم غنى لا يطاول، ومجداً لا يسامى، وقوة لا تقهر.

وغفل المسلمون عن آيات الله البينات، وأغمضوا عيونهم وعقولهم عن التأمل والتدبر فيما تحويه من ذخائر وتوحي به من معارف، فكان حالهم ما نرى: تخلف عن ركب الحضارة، وتسول في موكب العلم.

● **القرآن يخاطب العقل والوجدان والعاطفة**

والقرآن الكريم حين يدعو إلى العقيدة الحقة في الله وفي كل ما جاء عنه، وحين يدعو إلى التزام تشريع معين في عباداتنا أو معاملاتنا أو نظمنا الاجتماعية، وحين يدعو إلى الخلق الكريم والأدب الحميد واتخاذ ذلك منهجاً لنا في سلوكنا الشخصي وسلوكنا مع الله ومع الناس.. حين يدعو القرآن إلى هذا كله، لا يدعو إليه دعوة جافة خشنة ليس فيها إلا مجرد الأمر الصارم أو النهي العنيف وإنما يدعو إليه دعوة الحكمة العاقلة فيورده بأسلوب الأمر أو النهي مقروناً بوسائل الإقناع

بصدقه وصلاحيته وحسن عاقبته.

● ووسائل الإقناع متعددة

فتارة يكون الإقناع عن طريق العقل، وتارة يكون عن طريق الوجدان، وتارة ثالثة عن طريق العاطفة.

ولقد سلك القرآن الكريم في دعوته هذه الطرق الثلاث:

خاطب العقل: لأن من الناس من لا يؤمن إلا بالدليل العقلي ومن ذلك قوله تعالى: ﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ﴾ (المؤمنون: ٩١).

وقوله: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ﴾ (الأنبياء: ٢٢).

وكلتا الآيتين دليل منطقي واضح يدركه من له إلمام بأساليب المناطقة في استدلالهم، ويدركه كل من له عقل يعي ولو لم يكن على علم بأسلوب المناطقة.

ثم هناك آيات الله في السماوات والأرض وفي أنفسنا، وكلها براهين عقلية تشهد بوجود الله وربوبيته، والقرآن الكريم- في أكثر من آية- يلفت أنظارنا إلى هذه الدلائل والبراهين حتى تقوم الحجة لله على الناس.

وخاطب القرآن الوجدان: لأن من الناس من لا يحفزه إلى الانقياد والطاعة إلا ما يحرك وجدانه، ويثير فيه جانب الرغبة أو الرهبة، فإذا ما أمر بمعروف وقرن الأمر بالترغيب، رغبت نفسه في الامتثال أملاً في الثواب، وإذا ما نهي عن منكر وقرن النهي بالترهيب، كفت نفسه عنه رهبة من الوقوع تحت طائلة العقاب.

وكثيراً ما نجد في القرآن الكريم آيات تحرك في الوجدان نوازع الخير بما تضمنته من وعيد بسعادة الدنيا ونعيم الآخرة، وآيات أخرى تنيم في الوجدان نوازع الشر بما تضمنته من وعيد بشقاء الدنيا وعذاب الآخرة.

فمن الآيات التي تحرك في الوجدان نوازع الخير وتبعث على امتثال الأوامر الإلهية:

قوله تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِى ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ

خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور: ٥٥).

وقوله: ﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل: ٩٧).

وقوله: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾ (النساء: ١٣).

ومن الآيات التي تنيم في الوجدان نوازع الشر وتبعث في النفس الخوف من الوقوع فيما نهى الله عنه:

قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾﴾ (النحل: ١١٢).

وقوله: ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُواْ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓاْ أَن يَخْرُجُواْ مِنْهَآ أُعِيدُواْ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُواْ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَدْنَىٰ دُونَ ٱلْعَذَابِ ٱلْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢١﴾﴾ (السجدة: ٢٠-٢١).

وخاطب القرآن العاطفة: لأن من الناس من لا يستجيب لدعوة الخير إلا إذا خوطب بما يهز عاطفته ويوقظ في نفسه كوامن الحب والشفقة والرحمة.

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة تدعو إلى عمل البر والخير، وأخرى تنهى عن ارتكاب بعض ما لا يليق بالإنسان، وهذه وتلك تأتي مقرونة بما ينبه العواطف الإنسانية ويثيرها حتى تكون المحرك الدافع لفعل الخيرات والمبرات، والمثبط المعوق عن ارتكاب الحماقات والموبقات.

فمن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف الدافعة إلى فعل الخيرات والمبرات قوله تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًاۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾ (الإسراء: ٢٣-٢٤).

وقوله ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾ (الحجرات : ١٠) ومن الآيات المقترنة بما يحرك العواطف المعوقة عن ارتكاب الحماقات والموبقات.

قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ ٱسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَءَاتَيْتُمْ إِحْدَىٰهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُواْ مِنْهُ شَيْـًٔا ۚ أَتَأْخُذُونَهُۥ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَـٰقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾ (النساء: ٢٠-٢١).

وقوله: ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَـٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٩﴾﴾ (النساء: ٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (الحجرات: ٩).

وقوله: ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾ (النساء: ٢٩).

يريد أن المؤمن وأخاه كنفس واحدة، فمن عاب أخاه فكأنما عاب نفسه، ومن قتل أخاه فكأنما قتل نفسه.

وهكذا يخاطب القرآن الكريم العقل والوجدان والعاطفة حتى يصل إلى القلوب بتعاليمه ومفاهيمه من كل هذه النوافذ، وتلك رحمة من الله بعباده الذين شرحوا صدورهم للقرآن ولم يوصدوا دونه هذه المنافذ ويضعوا عليها أقفالاً من المكابرة والعناد.

❊ ❊ ❊

من بحوث مؤتمر الدعوة

مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها (١)

العدد (١٥٨) صفر (١٣٩٨هـ)- يناير (١٩٧٨م).

الدعوة إلى الله وإلى دينه الحق، هي وظيفة الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، ثم هي واجب العلماء من أتباعهم، ومسؤولية المؤمنين جميعاً من أممهم.

يقول الحق تعالى مخاطباً رسوله محمداً ﷺ: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨).

وهكذا حددت الآية السبيل لرسول الله ﷺ ولكل من اتبعه، وجعلت غايتها، الدعوة إلى الله على بصيرة ومعرفة، وأصبحت الدعوة بنص هذه الآية، فريضة مستمرة، ينهض بها العلماء، ويضطلع بأعبائها المسلمون في تكافل وتعاون، يجعل من عملهم المشترك استمراراً لجهاد رسول الله ﷺ لإعلاء كلمة الله.

الدعوة إلى الله واجب عام، مسؤولية الوفاء به في أعناق المسلمين جميعاً، وهي مسؤولية يجب للوفاء بها توفير أمرين لا بد منهما:

وأول الأمرين: ما يلزم للدعوة ومتطلباتها الشاملة، من مال ينفق منه على ما تقتضيه مجالاتها المتعددة- من إعداد للدعاة، وتهيئة للوسائل الضرورية، من كل ما هو لازم لتوصيل دعوة الحق إلى الناس، داخل بلاد المسلمين وخارجها على السواء، فالدعوة إلى الإسلام، لا يجوز الوقوف بها عند حدود عالمنا الإسلامي، بل يجب أن تصل هذه الدعوة وتبلغ كل ما طلعت عليه الشمس، وكل ما دخل عليه الليل.

إن كتاب الله تعالى أنزل ليكون نذيراً للناس كافة، وما بدأه رسول الله ﷺ على طريق هذا الإنذار العام، من دعوة لملوك الأرض وشعوبها الذي أتيح له أن

يدعوهم . . ما بدأه رسول الله ﷺ علينا أن نكمله، فنصل بالدعوة إلى كل مكان نستطيع الوصول بها إليه، تحقيقاً لقول الحق تبارك وتعالى لنبيه وعلى لسانه: ﴿وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩).

﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ (الأعراف: ١٥٨). وهو معنى التعميم في آية البلاغ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ (المائدة: ٦٧)، بحذف المفعول، فمعناه - والله أعلم- بلغ كل من يمكن تبليغه.

وإذا كان مجال الدعوة بهذه السعة، وبخاصة في عصرنا الذي يسرت وسائل الاتصال فيه الوصول إلى كل شبر في أرض الله . . تبين لنا حجم الذي لابد منه للوفاء بمطالب دعوة جادة، تخرج الأمة من دائرة التقصير والتفريط في جنب الله في عالم ضاقت فيه المسافات، وألغيت الحواجز بين الدول والشعوب.

وثاني الأمرين: ما يلزم للدعوة من جهاز متكامل ينهض بها في داخل بلاد المسلمين وخارجها. جهاز تتوافر فيه المقومات والخصائص التي تناسب طبيعة الإسلام من ناحية، وتلائم طابع العصر من ناحية أخرى .

إن الله ﷻ يقول:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ (إبراهيم: ٤).

لا بد للدعوة من لسان مشترك بين الداعي والمدعو، واللسان المشترك أوسع دلالة من مجرد معرفة بلغة مشتركة، بل لابد من معرفة بما تحويه هذه اللغة من ثقافة المدعو وخصائص بيئته، وما يشكل موقفه من أفكار ومعتقدات، وما يحكم تفكيره من عادات وتقاليد، لا بد للداعية من إلمام بها حتى يستطيع إحكام خطته في غزو الحصن من حيث يتمكن من فتحه بإذن الله .

ولابد في خطاب البشر خطاباً ناجحاً من مراعاة طبيعة البشر العامة فيهم أولاً، ومراعاة الخصائص الجنسية والعرقية ثانياً، ثم مراعاة الفروق الفردية في النهاية.

إن عقلية الإنسان هي نتاج تشكله عوامل كثيرة تختلف من شعب لآخر، ومن بيئة لأخرى ومن فرد لفرد.

هذه الفروق الجنسية والفردية على مستوى الشعوب والأفراد أصبحت أساساً

مقرراً وحقيقة مسلمة لدى علماء النفس والاجتماع وخبراء التربية، وقد اعتمدت عليها نظم التعليم في كل الدنيا، وآن لنا أن نستفيد منها في مجال الدعوة الذي رأينا كيف أسسه القرآن الكريم على أساس الفهم المشترك العميق بين الداعي والمدعو ليتم الاتصال الذي يحقق الغاية كاملة.

لابد للدعوة من توافر هذين الأمرين:

- التمويل الكافي.
- والجهاز المقتدر.

ويبقى بعد توافر هذين العاملين شرط إذا لم يتوافر هذا الآخر ضاعت الآمال المعلقة بالدعوة، وتبخرت الأهداف المنوط بها تحقيقها.

وهذا الشرط يتمثل في توفير مناخ صالح تنطلق فيه الدعوة إلى الله خالصة من كل قيد، متجردة من كل غاية، إلا غاية وحيدة هي هداية الخلق إلى صراط الله المستقيم، ومعناه:

أن ترفع عن أجهزة الدعوة في كل بلاد المسلمين أثقال أجهزة السلطة التي تمنعها حرية الكلمة، وتوجهها في كثير من الأحيان للتحول من دعوة إلى الله، إلى بوق من أبواق الدعاية، أو وسيلة من وسائل الإعلام، أو تجمد حركتها بحيث تصبح مجرد وظيفة اجتماعية تتيح لصاحبها مورداً للرزق يصبح الحصول عليه هو الغاية الأخيرة.

تمويل الدعوة، جهازها، مناخها- هذه الثلاثة هي الميادين التي يجب البحث فيها عن مشكلاتها، والتي يمكن معالجة هذه المشكلات في نطاقها أيضاً.

ولنتناول بإيجاز مشكلات كل ميدان من الثلاثة مقترحين ما نراه من علاج ملائم.

أولاً:

تمويل الدعوة - وقد آثرنا البدء به لأنه يمثل عنق الزجاجة، ويعتبر الصخرة التي تؤسس للبناء أو تصطدم بها وتتحطم عليها الجهود.

نحن في عصر تحول فيه صراع الأمم والشعوب من صراع عسكري إلى صراع

اقتصادي في جوهره، يتخفى وراء صراع فكري عقدي أو مذهبي، وأصبح من المصطلحات الشائعة في عالم اليوم ما يتردد عن «الغزو الفكري» الذي اشتدت ضراوته، واصطنعت له الأساليب والمناهج التي خدمها العلم في جانبيها، النظري والعملي، على السواء.

هذا الغزو الفكري المتبادل بين الشرق والغرب، وبين مختلف النظم والمذاهب المعاصرة بعضها وبعض، يركز ويكثف جهوده على بلاد العالم الإسلامي بخاصة، وعلى بلاد العالم النامي بوجه عام، فهي- من جهة- مطمح نظره، يرى فيها طلبته التي تحقق مطامعه الاقتصادية، ومن جهة ثانية، يراها متخلفة، وتخلفها يجعلها أكثر طواعية وتقبلاً لما يقدمه إليها من فكر، يراد منه أن يكون رباطاً وثيقاً يشد إليه عقول أبنائها على نحو يجعل منهم تابعين مخلصين، ينفذون له مخططاته في بلادهم دون أن يضطر إلى الكشف عن وجهه القبيح، كما يوفر عليهم الكثير من الجهود والمال لو أنهم اصطنعوا للسيطرة طريقاً آخر.

هذا الغزو الفكري ترصد له ميزانيات ضخمة، وتقام له مؤسسات وأجهزة تخطط له، وترسم له المناهج والأساليب، وتعد له من الوسائل والأدوات ما يجعله قادراً على تحقيق غاياته.

إن المراكز الثقافية وما إليها، والإذاعات الموجهة، مسموعة ومرئية، «والسينما» ودور النشر، وفروع الجامعات الأجنبية، والمكتبات العامة الأجنبية التي لها إمكانات تجعلها مقصد طلاب البحث العلمي في جامعات كثيرة في بلادنا الإسلامية والعربية وبلاد العالم النامي- فضلاً عن الصحافة التي تتخذ منبراً يصل صوته إلى كل مكان- هذه كلها من أدوات «الغزو الفكري» المباشرة، ولعل غير المباشر من هذه الأدوات أشد خطورة وأخفى آثاراً.

لعل هذا يصور لنا حجم التمويل والمال المرصود لهذا النشاط الزاحف الشرس المصر الدءوب.

هذا النشاط الضخم بإمكاناته الهائلة يلقي بنتائجه في طريق «الدعوة إلى الإسلام» داخل بلاده وخارجها على السواء، نتائج هي عقبات وحواجز وسدود

تعترض طريقها من ناحية، وهي معاول تخلخل وتهدم من ناحية أخرى.

فإذا رجعنا إلى «الدعوة الإسلامية» وقارنا ما هو مخصص لتمويلها في ميزانيات الدول الإسلامية بما تملكه أجهزة «الغزو الفكري» وما يرصد لها في ميزانيات الدول التي تمارسه، بدا لنا العجز الكبير في إمكانات «الدعوة» على المستويين الداخلي والخارجي من حيث القدرة المادية اللازمة، والتي بدون توافرها تصبح هذه الدعوة بين موجات الغزو الفكري المضاد قزماً بين عمالقة شداد!!

إن قصور التمويل عن الوفاء بمتطلبات «الدعوة» وأجهزتها، وفاء يمكنها من أن تصمد في معركة الصراع، وتطور من أسلحتها ووسائلها، وتكيف نفسها بالأساليب الملائمة في حرب المواجهة الفكرية والمذهبية، جعلها كالحمائم بين النسور.

وإذا كان «الغزو الفكري» ينطلق من مرتكز سياسي في الأساس، فهناك حركة أخرى تنطلق من مرتكز مختلف، ونعني بها حركة التبشير الجديد، والتي تلبس في عصرنا ثياباً وأزياء تمعن في التخفي وتعمية ما وراءها، وتجد من مصادر التمويل الرسمية- من ميزانيات الدول، والمساهمات الشعبية - من تبرعات الأفراد، والمؤسسات، والجمعيات، ما يجعلها وافرة القدرة، بالغة النشاط، تصل بنشاطها إلى كل ركن معلوم أو مجهول في عالمنا.

إنه لولا المناعة الذاتية التي يتمتع بها الإسلام كدين، ولولا جوانب ضعف موضوعية في تلك الدعوات المضادة، لا تفلح كل وسائل التمويه في سترها... لكانت نتائج عدم التكافؤ الخطير بين ممكنات الدعوة الإسلامية وإمكانات أعدائها أضعاف أضعاف ما هو واقع فعلاً، وصدق الله العظيم: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ (الأنفال: ٣٦).

إن مقارنة بين «الفاتيكان» وحده، بإمكاناته وطاقاته، وسلطاته على الشعوب والحكومات المسيحية في العالم الغربي.. وبين «أجهزة الدعوة» مجتمعة في

عالمنا الإسلامي تكشف لنا وتجسد ما تعانيه الأخيرة، وتهيب بنا جميعاً أن نبحث عن مخرج لانتشالها من مأزقها.

وهنا نقترح: أن تخصص نسبة مئوية من ميزانية كل دولة إسلامية لتمويل الدعوة في الداخل والخارج، نسبة مئوية يتحقق بها العدل والتضامن في تحمل أعباء هذا الواجب الخطير، وتفي بمتطلبات المهمة الخطيرة التي تنتظر المسلمين اليوم، وفاء بحق دينهم، وبحق الإنسانية التي ضلت طريقها، ولا سبيل لهدايتها إلا عن طريق تعريفها بالدين الذي جاء لهداية البشر جميعاً.

إن (١٪) واحد في المائة، بل نصفاً من مائة من ميزانيات كل الدول الإسلامية الغنية والفقيرة، يحقق حصيلة ضخمة، تمول منها حركة الدعوة الإسلامية داخل بلاد المسلمين وخارجها تمويلاً جماعياً، يتحدد نصيب كل منها بحسب ما تحتاجه لا بحسب ما أسهمت به.

إن بلداً إسلامياً كبيراً هو «أندونيسيا» التي تعتبر أكبر دولة مسلمة في عصرنا عدداً، يتعرض الآن لحركة تبشير ضخمة وشرسة، استطاعت أن تقتطع من أبنائه المسلمين نسبة مئوية عالية، حددها بعض المشغولين فيهم بهذه المشكلة بنحو ٤٠٪ من جملة السكان، وهو رقم مهما كان فيه من مبالغة، فإن ما يتبقى بعد حذف كل ما فيه من مبالغة أو تهويل، يكفي لأن يوقظنا من غفلتنا، ويقتضينا أن نسارع بتنفيذ هذا الاقتراح على الفور، وتعبئة جيش من الدعاة القادرين لمواجهة هذه المأساة المروعة.

وما يتعرض له المسلمون في الفلبين، ألا يدخل في نطاق ما تطالبنا به الآية الكريمة تجاه المستضعفين من المسلمين حيثما كانوا: ﴿وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ﴾ (الأنفال: ٧٢).

إن الواجب نصرهم، كيفما كانت تبعاته أو أهواله، فكيف بنا إذا لم نقدم لهم حتى مجرد الدعم الروحي والمعنوي؟.

تمويل الدعوة تمويلاً يمكنها من الانطلاق دون معوقات، هو أول ما يجب التركيز عليه واتخاذ قرار بشأنه حتى لا يتحول الحديث والحوار إلى مجرد أفكار

ونظريات لا تجد لها طريقاً لأن توضع موضع التطبيق.

● ثانياً: جهاز الدعوة

وبناء هذا الجهاز بوجهيه البشري والمادي، رهن بما يتوافر للدعوة من مال تسهم فيه الحكومات بنسبة مئوية كما اقترحنا، ويضم إليه ما يمكن تقديمه من قبل الأفراد والمؤسسات والجمعيات الإسلامية في كل بلاد المسلمين، ومن خلال دعوة جادة ومؤثرة، تدعو للإسهام والتبرع لهذا العمل الجليل.

وجهاز الدعوة على دعامتين:

- دعامة بشرية هي الأساس، وهي القوة الضاربة في الميدان، ودعامة مادية تتمثل في مؤسسات الدعوة ومقارها، وأدوات توصيلها ونشرها، وكل ما يعتبر وسيلة معينة على تحقيق الاتصال الناجح المؤثر بين الدعاة والمدعويين.

ومشكلة جهاز الدعوة الإسلامية اليوم بوجهيه البشري والمادي، تتمثل في عجزه عن الوفاء بمتطلبات الدعوة تحت ظروف العصر عجزاً مزدوجاً يشمل الكم والكيف معاً.. فمن حيث الكم:

نجد قصوراً واضحاً في إعداد الدعاة، والمشتغلين في مجال الدعوة على وجه العموم، فالمساجد - مثلاً - لا تجد من الأئمة والخطباء من يقومون بهذه الوظائف، بأعداد تكفي لتغطية حاجتها جميعاً، والواقع - حتى في أحسن المجتمعات الإسلامية ظروفاً من هذه الناحية - ينطق بهذا النقص.

ومثل ذلك يقال عن عدد الوعاظ، فالمؤهلون منهم قلة محدودة جداً، ويجانبهم أعداد هائلة ممن يمارسون الوعظ هواية أو من خلال جمعيات تعد لهم مستويات من الدراسة تتيح لهم حدا أدنى من المعرفة الدينية الضرورية، التي قد تكفي لمواجهة حاجات البيئات المحدودة الفكرة والثقافة، ولكنها لا تفي بحاجة الإنسان الذي نال قسطاً كبيراً من ثقافة العصر، وتعرض لمؤثراته الفكرية والحضارية.

إن ساحة الدعوة الإسلامية داخل البلاد الإسلامية نفسها خالية - إلا نسبة محدودة منها - من دعاة حقيقيين، قادرين على حمل أمانتها والوفاء بتبعاتها.

فإذا ألقينا ببصرنا على ساحة الدعوة خارج بلاد المسلمين، وحيث يوجد ملايين البشر ما زالوا على فطرتهم، أو شابتهم وثنية انتقلت إليهم بالعدوى، وحيث يوجد ملايين من أصحاب الديانات الأخرى يعانون القلق، ويبحثون عن معتقد تطمئن إليه نفوسهم، التي يرهقها الآن أن تتقبل عقائد ومذاهب، يصعب على عقل أضاءه العلم، وصقلته الحضارة، أن يتقبلها.

هؤلاء حيارى يتلمسون الضوء في ظلمات بعضها فوق بعض، ولو أن دعوة الإسلام بلغتهم في خطاب يفهمونه، وأسلوب حكيم يفتح لها الطريق الصحيح إلى عقولهم وضمائرهم، لكان لهم من الإسلام موقف آخر، ولغدوا جنوداً مخلصين يستطيعون ويملكون من وسائل نشر الإسلام بين أقوامهم، ما لا نملكه نحن في بلاد المسلمين.

إن الإسلام ليس ملكاً لنا، وإنما هو أمانة الله في أعناقنا، ومن الوفاء بالأمانة أن تؤدي إلى من هو أقدر على القيام بها، والحفاظ عليها، وهو مغزى قول رسول الله ﷺ في حجة الوداع: «ليبلغ الشاهد الغائب» (رواه البخاري) وقوله: «رب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» (رواه الترمذي وحسنه).

لقد انتشر الإسلام في إفريقيا وآسيا على أيدي التجار المسلمين أكثر مما انتشر على أيدي الدعاة الرسميين، ذلك أن «الاحتساب» غير «الاحتراف» وليس من قبيل المصادفة أن يكون هذا القول الكريم: ﴿قُل لَّآ أَسۡـَٔلُكُمۡ عَلَيۡهِ أَجۡرًا﴾ (الشورى: ٢٣). شعاراً مشتركاً بين رسل الله أجمعين.

نحن بحاجة إلى تأمل المغزى العميق وراء هذا الشعار لنصل إلى معادلة صحيحة نحل بها مشكلة الدعوة العويصة في عالمنا وهي: كيف نوفق بين كون الدعوة غاية يجب التجرد لها والتضحية في سبيلها، وبين كونها مصدراً ضرورياً لرزق من تناط بهم وظائفها في عالم أصبح توزيع العمل والتخصص في المعرفة سمة من سماته؟

كم من «الدعاة» اليوم يبشرون بالإسلام على سطح هذا الكوكب الذي نعيش فيه؟. لو تصورنا أن كل مليون من البشر يكفيهم داعية واحد- وهو فرض أقرب إلى

الخيال- لكان العدد المطلوب من «الدعاة» بضعة آلاف داعية، فهل نستطيع أن نحصي على مستوى العالم غير الإسلامي كله أكثر من بضع عشرات؟ تلك حقيقة يجب أن نذكرها ونذكر بها.

هذه المشكلة: الدعوة وجهازها من حيث عدد «الدعاة» وهم العنصر الأساسي فيها. فإذا انتقلنا إلى مشكلة الدعوة من حيث نوعية «الدعاة»، صدمنا الواقع صدمة قاسية - إن مستوى «الداعية» في أحسن حالاته اليوم لا يفي على الإطلاق بحاجة من يدعوهم.

إن إنسان العصر يريد أن يجد في «الدين» حلولاً لكل مشكلات الحياة التي تعترضه، سواء في سلوكه الشخصي، أو في علاقاته الأسرية، أو في معاملاته الاقتصادية ويريد أن يجد للدين كلمة تضيء له طريقه في قضايا الحكم، ومسائل السياسة، ومشكلات الاقتصاد.

والشباب - بخاصة - في حاجة إلى أن يقدم لهم من خلال الدين نظرة متكاملة للحياة، تستطيع إشباع حاجتهم للمعرفة، وتتيح لهم ما يبحثون عنه من سكينة النفس. واطمئنان الضمير.

هذه المطالب المعقدة المتشابكة يقدم «الدين» حلولاً جذرية عميقة لها، ولكن السؤال هو- ما مدى إدراك «الداعية» لهذه المشكلات؟ ثم ما مدى قدرته على استنباط حلولها، والإجابات الصحيحة عنها من المصدر الأصيل للدين ممثلاً في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ يعتمد عليهما أساساً ويستعين بعد ذلك بما يراه ملائماً من الأدوات؟

هل يملك «داعية» العصر القدرة على الاقتراب المباشر من هذا المصدر، وأخذ الأحكام والحلول لقضايا الحياة المعاصرة ومشكلاتها من خلال نصوصه مباشرة؟

هنا يبرز لنا قصور الإعداد ونقصه، حتى على مستوى حمله الشهادات العلمية التي تجيزهم بأهلية العمل في مجال الدعوة، وتقرر صلاحيتهم لها.

هذا القصور إذا أردنا تحديد أسبابه، وجب أن نتجه على الفور إلى الجهات

التي تتولى إعداد هؤلاء الدعاة، ونتفحص مناهج إعدادهم ووسائل تكوينهم.

وأول ما يلاحظ على هذه المناهج والأساليب:

١- أنها بدلاً من وصل الطالب وصلاً مباشراً بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ أحلت بديلاً منهما، يتمثل في كتب ومذكرات، مهما كانت قيمتها، فلن تصلح بديلاً في يد داعية لابد أن يكون على بصيرة في دين الله، يستمدها من مصادره الموثقة، وليس من آراء البشر، واجتهاداتهم، وشروحهم، وتفسيراتهم، مهما بدت قيمتها في نظر من يضعون المناهج.

٢- وهذا يقودنا إلى أصل الداء في الدراسات الدينية المعاصرة ويتمثل في قصور الأدوات التي لابد من توافرها للتمكن في هذه الدراسات، وفي مقدمة هذه الأدوات إجادة «العربية»، وفقه لغة القرآن الكريم والسنة الشريفة.

إن مجتهدي الفقهاء، لم يتمكنوا من الاجتهاد الفقهي، إلا بعد امتلاك ناصية اللغة امتلاكاً تاماً، وعلم «أصول الفقه»- في جملته وتفصيله- هو علم لغوي في أساسه.

وهل استطاع أو يستطيع مفسر جاد أن يجلس إلى كتاب الله- وهو آية بيانية معجزة- وأداته اللغوية لم تكتمل، وذوقه اللغوي لم يصل إلى القمة؟.

إن فهم مراد الله من كتابه مرهون بالقدرة على النفاذ إليه من خلال أسلوب عربي، شاء الله له أن يكون معجزة بلاغية في صياغته.

وقصارى أمر من يحاول التفسير دون استكمال عدته اللغوية أساساً، أن يكون راوياً لأقوال الآخرين، أو جامعاً منظماً لها، أما أن يكون مفسراً منظماً لها، فهذا ما لا سبيل له إليه.

وقل مثل ذلك بالنسبة لمن يفسر أحاديث رسول الله ﷺ.

إن كل خلاف في آراء المفسرين، مرده إلى أساس لغوي بالدرجة الأولى، وكل ترجيح بين رأيين فمستنده أساس لغوي كذلك، فكيف يسوغ الترخص في هذا التكوين اللغوي للدعاة، وهو أداة الأدوات في يد كل باحث، ومفكر، ودارس، ومعلم يبلغ عن الله ما جاء على لسان رسوله ﷺ ؟!

إن إعداد الدعاة- مهما تضخمت المناهج وتشعبت- يظل عاجزاً عن ربطهم ربطاً وثيقاً بمصدر الدين الأساسي، طالما بقيت هذه الثغرة.. أعني هبوط المستوى اللغوي في هذا الإعداد.

٣- إذا كانت ثقافة العصر تفرض نفسها على عقول الناس، وتخلق فيها من المشكلات ما لم يكن في عقول السابقين، فالضرورة قاضية بأن يلم الداعية بتيارات هذه الثقافة، ووزنها، وتمييز ما هو حق فيها، وما هو باطل، ثم يسلح بأسلحة ملائمة للهجوم وللدفاع في معارك الفكر التي لا بد له أن يخوضها، إذا كان يريد أو يراد له - حقاً- أن يؤدي رسالته على وجهها.

أصالة الثقافة بربطها بالمصدر الأول للإسلام، ومعاصرتها بالتفتح على ثقافات العصر، وميادين المعرفة اليوم، كلاهما ضروري لداعية العصر، وإلا كان سطحياً غير عميق الجذور إذا فقد شرط الأصالة، أو منغلقاً، ضيق الأفق، إذا فقد شرط المعاصرة.

لقد حفل تاريخ الدعوة الإسلامية وتطورها بنماذج فريدة من «الدعاة» المدافعين عن الإسلام، تمكنوا من قديمهم، وتسلحوا بأسلحة عصورهم فلم يتهيبوا ميدان النزال، بل اقتحموا، وصالوا وجالوا، وغلبوا ورفعوا راية الحق عالية، يقذفون الباطل من تحتها، بقذائف لم تكن لتخطئ مقاتله.

إن هذا التاريخ ليذكر بالفخر والاعتزاز أمثال أبي حنيفة، ومالك والشافعي وابن حنبل رضوان الله عليهم.

ويذكر أمثال الحسن البصري، وابن سيرين، وأبي الحسن الأشعري.

ويذكر الباقلاني، والغزالي، وابن رشد، ومن إليهم ممن كانوا حصوناً ومعاقل، تقف لترد عن الإسلام هجمات الطاعنين، والمفترين.

ويذكر ابن تيمية، وابن القيم، والشاطبي... وابن كثير.

ويذكر في عصرنا الحديث محمد بن عبد الوهاب، والأفغاني، ومحمد عبده، ورشيد رضا، والكواكبي، ممن كانوا شهباً راصدة، تنقض على كل من يحاول النيل من الإسلام، بالطعن والتشكيك.

إن العودة لكتاب الله تعالى وسنة نبيه ﷺ، واستمداد مناهج إعداد الدعاة منهما مباشرة، وتمكين الأساس اللغوي للدعاة، هو نقطة بدء لابد من التفكير فيها تفكيراً عميقاً، ومخلصاً، وواثقاً من أن ذلك هو الطريق لنهضة الدعوة والدعاة، والذي لا طريق سواه، ثم يكون بعد ذلك الانفتاح على ثقافات العصر.

٤- كل ما مضى، يتصل بالتكوين العلمي، أو المعرفي والثقافي للدعاة ويحدد جوانب النقص فيه.

* * *

من بحوث مؤتمر الدعوة

مشكلات الدعوة والدعاة في العصر الحديث وكيفية التغلب عليها (٢)

العدد (١٥٩) ربيع الأول (١٣٨٩هـ) - فبراير (١٩٧٨م).

تناولنا في كلمة سابقة، كل ما يتصل بالتكوين العلمي، أو المعرفي، والثقافي للدعاة وتحديد جوانب النقص فيه.

وبقي جانب هو أخطر الجوانب كلها في نظرنا، لأن نقصه يذهب بكل النتائج التي نرجيها من وراء تصحيح المسار في التكوين العلمي النظري لمن يوكل إليهم أمر الدعوة ومهامها.

إن فلسفة إعداد الدعاة، تبدو لنا ناقصة نقصاً خطيراً، ذلك أنها تُعنى بالجانب التعليمي التلقيني، أو بالجانب النظري من الإعداد، بينما هي تهمل إهمالاً شبه كامل، الجانب التربوي الذي هو الوجه المكمل للوجه النظري.

إن العلم وحده لا يكفي لتكوين داعية، والمعرفة وحدها لا تصنع داعية كذلك، لقد قال رسول الله ﷺ: «أخوف ما أخاف على أمتي كل منافق عليم اللسان» (رواه ابن عدي عن عمر).

إن العلم إذا لم يستند إلى خُلُق يحميه من نزوات النفس، وطغيان الشهوات ويصونه عن الدنايا وسفاسف الأمور، يصبح كارثة حين يوجه لغايات آثمة، أو يستغل في مآرب خبيثة.

إن تنمية الإحساس بأن «الداعية» «صاحب رسالة»: رسالة هي امتداد لوظيفة النبوة. . ، ومسؤوليتها- لذلك- مسؤولية ضخمة، والتبعة فيها على قدر سموها وجلالها.

تنمية الإحساس بهذه المعاني شرط أوليّ، يجب أن تحرص على التمكين له فلسفة إعداد «الدعاة» ولا تغفل عنه في خطوة من خطوات هذا الإعداد.

يجب أن يختار «الدعاة» اختياراً مدققاً، بحيث تتوافر فيهم مقومات، إذا تخلفت كانت البداية خاطئة وغير موصلة إلى الغاية المرجوة.

إن المستوى العقلي الجيد، والذكاء بدرجة واضحة ضروري هنا، ومن المقرر: أن الفطانة من صفات الأنبياء عليهم السلام. فلنتعلم جيداً من قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعۡلَمُ حَيۡثُ يَجۡعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤).

والمستوى الخلقي الممتاز ضرورة فوق كل الضرورات، فالدعوة أمانة لا رقيب على صاحبها سوى ربه وضميره، ومن المقرر كذلك: أن الأمانة من صفات الأنبياء صلوات الله عليهم.

والالتزام الديني بالإسلام، فكرا وسلوكاً، في كل صغيرة وكبيرة، مما يجب تمكينه تمكيناً متأصلاً في أنفس الدعاة. ومن الخطورة أن نقدم للناس دعاة يقولون ما لا يفعلون، أو يأمرون الناس بالبر وينسون أنفسهم، أو ينهون عن المنكر ولا يتناهون هم عن فعله.

إن الداعية قدوة، وشرط القدوة تطابق القول والعمل بعد استقامتهما على نهج صحيح.

تربية الداعية دينياً، وتدريبه على تطبيق الإسلام في حياته عملياً وتزكية نفسه بما يجعلها متأبية على الدنايا، وأخذه أخذا بما يحصنه ضد فتنة المال، وإغراءات الحياة ثم الترقي به ليعيش في مستوى «التجرد» لرسالته، مطمئنا ومستعداً للتضحية في سبيلها بكل ما يستطيع. . هذه التربية ضرورية، ولازمة، وبدونها لا يكون هناك معنى للحديث عن دعوة ودعاة: ﴿قُلۡ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحۡيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ١٦٢﴾ (الأنعام: ١٦٢) هذا ما ينبغي أن يكون شعار الدعاة.

هذا الجانب التربوي من الإعداد، غائب تماماً الآن في بيئات إعداد الدعاة.

وكيف تنتظر «داعية حقيقياً ألف أن تمر عليه مواقيت الصلاة وهو في قاعات الدرس مثلاً مع أساتذته العلماء دون أن يكون من حوله ما يوحي بأن هناك التزاماً بقول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ كَانَتۡ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ كِتَٰبٗا مَّوۡقُوتٗا﴾ (النساء: ١٠٣) ويكفينا هذا المثال.

هذه التربية العملية للدعاة على قيم الإسلام ومثله، وعلى شرائعه وشعائره، وعلى مفاهيمه وعقيدته، لا يغني فيها التلقين ولا المعرفة النظرية، بل لابد لاستكمال هذا الجانب الخطير من تغير جذري يمس فلسفة الإعداد. ويعدل من المناهج والأساليب، ولن يتم ذلك إلا بأن يتم الإعداد والدراسة والتربية، من خلال حياة متكاملة، يتخلق كل العاملين في إطارها بخلق القرآن، ويلتزمون التزاماً كاملاً، بتطبيق الإسلام شعائر وآداباً وقيماً وضوابط للسلوك، بحيث يترجم ما يدرسه الطالب نظرياً إلى حياة وممارسة.

هل تصلح معاهد إعداد الدعاة الحالية لهذا اللون من التربية؟

بالقطع هي لا تفي بهذا، ولم تصمم مبانيها ولا مناهجها ولا فلسفاتها على هذا الأساس.

وهنا نقترح:

إنشاء كلية: «الدعوة الإسلامية» بتمويل إسلامي عام، ويختار لها الدارسون اختياراً دقيقاً، من كل أنحاء العالم الإسلامي، من خلال نظام محكم للقبول لا يمر منه إلا من تتوافر فيه مقومات خاصة، تؤهله لأن يكون «داعية» بمفهوم الداعية الصحيح.

هذه الكلية يجب أن تختلف كلية عن المألوف في النظم الجامعية أو المدرسية العادية. فالدراسة والتربية فيها متكاملتان، وتبدآن من سن باكرة «١٢ سنة مثلاً».

والمراحل فيها مترابطة تسلم كل منها إلى ما يليها. والحياة فيها تصمم بحيث تتيح لأصحابها معايشة الإسلام، معايشة حية تحوله إلى نسيج نفسي وعقلي، داخل الدارسين، وإلى ظواهر صادقة في سلوكهم.

ونظم التقويم فيها، يجب أن تشمل الجانبين: العلمي والتربوي، أو المعرفي والسلوكي.

وهيئة التدريس وجهاز التربية فيها، يجب أن يكون كله من رجال لهم- إلى جانب علمهم وخبرتهم- اهتمام بالدعوة إلى الله، بدرجة تجعل منهم مجاهدين محتسبين، وليس مجرد موظفين يتقاضون أجوراً يتنافسون عليها.

أما المناهج: فيجب أن يتوافر فيها ما يغطي جوانب النقص التي فصلناها هنا وفي مقدمتها:

١- ثغرة الضعف في التكوين اللغوي.

٢- ثغرة الانفصام عن المصدر الأصلي للإسلام ممثلاً في الكتاب والسنة.

٣- ثغرة الانغلاق وعدم الاقتحام لثقافات العصر وتحديد مواقفنا منها.

وليس ثمة ما يمنع أن يكون في خطة الدراسة مجال واسع لتدريب عملي على البحث العلمي من ناحية، وعلى ممارسة فنون الدعوة العملية: من خطابة ومحاضرة، ودرس، وحوار، ومناظرة، وإذاعة... الخ.

٤- إن تركيز جهود الإعداد في «كلية إسلامية» كبرى يمكن تطويرها لتصبح جامعة للدعوة خير بكثير من تفتت الجهود في وحدات صغيرة الإمكانات، عاجزة عن تطبيق مثل هذه الفلسفة.

ولا يفوتنا هنا أن نشير إلى ضرورة العناية بتدريس اللغات الأساسية المنتشرة في بلاد العالم الإسلامي، غير الناطقة بالعربية، وبلغات العالم المعاصر الحية والواسعة الانتشار.

٥) بقي جانب مهم لا ينال - في واقعنا - ما يستحق من عناية في مناهج إعداد الدعاة ونعني به الجانب الفني العملي للدعوة في مجال الممارسة والتطبيق.

إن «الدعوة» حين يمارسها الداعية خطابة، ووعظاً، وفتيا، ودرساً، ومحاضرة، وحديثاً إذاعياً، وحواراً، ومناظرة، وهجوماً، ودفاعاً.. هي في كل ذلك ذات وجه فني يتمثل في أساليبها وطرقها!

وإذا كان الفن في ذاته استعداداً بالدرجة الأولى، فإن ذلك لا يغني عن دراسة الأصول العامة التي تكشف عن حقائقه، وتصقل مواهبه، وتعين على الإبداع والتطوير الناجح خلال الممارسة.

وإذا كانت مناهج الدراسة تزود الداعية بالمضمون الفكري الذي يستمد منه، وإذا كانت التربية المتكاملة التي اقترحناها، تكون شخصيته تكويناً متوازناً يؤهله لرسالته، فإن استكمال هذا الجانب الفني المتصل بالأساليب والأدوات لابد منه!

الخطابة - مثلاً - فن، أساسه استعداد فطري لاشك، لكن فهم الخطيب لطبيعة موقف الخطابة، وتكيفه بظروف الحاضرين، وأنها لون من السياسة النفسية للجماهير، وتصلح لتناول موضوعات دون غيرها، وتحتاج لاصطناع أسلوب غير ما يحتاج إليه في محاضرة مثلاً، إلى ما يكون للأداء الصوتي من تأثير، بتلوين نبرات الصوت، ودرجته، والوقفات والسكتات التي تتخللها، والسرعة والبطء، وطول الجمل وقصرها، وكونها مرسلة أو مسجوعة أو متوازنة.. وكيف يكون تفجير طاقات الناس واستنفارهم، أو استهواؤهم، وتهيئة قابليتهم لما يلقى إليهم، كل أولئك مما يفيد «الداعية» معرفته، ويزيد من بصيرته بفنه الذي يمارسه!.

إن القرآن الكريم، حافل بالمناهج، والأساليب، والطرائق التي يمكن الاستنباط منها والاستهداء بها، في كل موقف نوعي يقفه الداعية أو يتعرض له: خطابة، وحوارًا، وقصصاً، وموعظة، وتقريراً في تنوع يقدم لكل مقام ما يلائمه، ولكل موضوع ما يناسبه.

وفي سنة النبي ﷺ ومواقفه العملية ذخيرة ثمينة وثرية لو تناولها باحث بالدرس والاستقراء، واستنبط منها الأصول النفسية والاجتماعية والدينية التي تفسر نفاذ النبي ﷺ إلى قلوب الناس وعقولهم.. في سنة النبي هذه ما لو تناوله باحث حصيف لقدم لنا ما يمكن أن نسميه: علم نفس الدعوة، على غرار ما يعرف من علم النفس التعليمي أو التربوي! وبعمق أكثر فيما يتصل بطبيعة النفس، إذ كان منهج النبوة في دعوة الناس منهجاً ربانياً ألهمه إياه ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى!

وفي وصايا النبي ﷺ لمبعوثيه الذين أرسلهم معلمين هنا وهناك من أمثال معاذ ابن جبل، وفي إجاباته عن أسئلة محددة من أشخاص ذوي سمات خاصة مجال واسع لتأمل رشيد، يعود على صاحبه بما يفتح بصيرته على رؤيا ومدارك لم يكن يراها من قبل.

إن العصر الذي نعيشه ابتكر من وسائل الاتصال والتوصيل، ما لم تعرفه الدنيا

ولا سمعت به قبل قرن واحد. وكلها مما يتوسل به لتوصيل الكلمة نافذة مؤثرة بأقصى ما تحتمل من هذا التأثير.

و«الدعوة الإسلامية» - وأداتها الكلمة - لا بد لها من تفكير جاد في دراسة وسائلها التقليدية لتطورها من جهة، ولتكملها بما استحدثه العصر من وسائل تلائمها وتجعلها أكثر قدرة على النفاذ إلى القلوب والعقول.

إن نقاء أجهزة الدعوة الإسلامية في عالمنا مقيدة بهذه الحدود والوسائل الضيقة التي دفعت إلى مضايقها دفعاً خلال فترات متخلفة من تاريخ المسلمين، يجعلها متخلفة عن الوفاء بحاجة العصر. والمسلمون طوروا كل أساليب حياتهم تقريباً، واستحدثوا كل جديد رأوه نافعاً في مجالات الحياة، ومن واجبهم أن يعطوا «الدعوة» إلى الله جانباً من هذه العناية.

ثالثاً: مناخ الدعوة

وهو الميدان الثالث الذي تنبثق منه مشكلات كثيرة تتصل بالدعوة والدعاة بل لعله أخطر الميادين كلها على الدعوة سلباً وإيجاباً.

إن مناخ «الدعوة» حينما يكون ملائماً، يتيح لها من الحرية والانطلاق ما هو شرط ضروري لازدهارها وإيجابيتها، وحين يكون هذا المناخ غير موات بما يسوده من كبت وتقييد، تفقد الدعوة أول شرط لحياتها، وتصبح مختنقة محبوسة الأنفاس.

حينما قال الله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَـٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُواْ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨) فقد قرر حق الدعوة في حرية مطلقة لا قيود عليها، وأوجب على الدعاة ألا يذعنوا لأي نوع من أنواع الضغط أو التوجيه، الذي ينال من تجردهم للغاية التي جندوا أنفسهم لها.

وإذا كان من واجب حكام المسلمين أن يوفروا للدعوة هذه الحرية الكاملة، فمن واجب الدعاة كذلك ألا يسيئوا استخدام هذه الحرية بما يسيء إلى أممهم ودولهم، دون غاية من دين أو دنيا تبرر هذه الإساءة.

وإذا كان لابد هنا من ضابط لهذه الحرية، فهذا الضابط يتمثل في أمرين:

١- تجريد الغاية كلية لله، فلا هوى ولا غرض، ولا مرض ولا عرض من أعراض الدنيا.

٢- سمو الأسلوب، واستقامة المنهاج، بالالتزام بما أرسته الآية المباركة: ﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ﴾ (النحل: ١٢٥).

إن حرية الدعوة، يقابلها الالتزام بهذا الأدب الإلهي، الذي سنه الله تعالى لإمام الدعاة صلوات الله وسلامه عليه.

حرية الدعوة والتزامها على هذا النحو هي الصيغة الوحيدة، التي يمكن على أساسها حل المشكلة الأساسية، التي تعاني منها الدعوة الإسلامية في كثير من البلدان، وهي مشكلة كونها تابعة للحكومات والسلطات.

والمشكلة هنا ذات أبعاد يجب تأملها ليمكن تصورها على نحو صحيح.

ماذا تعني تبعية أجهزة الدعوة في بلد ما للحكومة المسؤولة فيه؟

تعني أولاً: أن ينسحب منطق الوظيفة على هذا الجهاز.. فالعاملون فيه موظفون تحدد عليهم واجبات، وتقرر لهم حقوق، ويخضعون لنظم من التوجيه والرقابة، تشبه إلى حد كبير ما يسود مجالات الحياة الأخرى، كما يتعرضون لنظم العقاب والثواب أسوة بغيرهم من موظفي الدولة هنا أو هناك...

هذا الإطار الوظيفي، إن صلح لأي مجال آخر في الحياة، فهو في مجال الدعوة غير صالح على الإطلاق، فالدعوة إنما تقوم أساسًا على الالتزام أمام الله، وليس على الإلزام من جانب السلطات كائنة ما كانت.

ونظام الرقابة في هذا المجال لا يمكن أن يأتي من خارج الإنسان، وإنما يجب أن يتولد من داخله خلال عملية الإعداد والتربية والتكوين.

إن ضمير الداعية يجب أن يكون الفيصل في مسألة الرقابة وما يتصل بها، وحاجة الدعاة إلى رقابة خارجية معناه: فشل إعدادهم وتربيتهم من ناحية، وعدم صلاحيتهم لمهمتهم من ناحية أخرى، وخير للدعوة - ألف مرة- أن ينحى عن مجالها كل من يحتاج لرقابة خارجية من بقائه في ساحتها.

وتعني ثانياً: إحساس جهاز الدعوة التابع بأن مصيره وقدره مرتبط بطاعته لأولي الأمر، وأن مخالفته إياهم- ولو كان فيها إرضاء لله- يعرض حياته وحياة من يعولهم لخطر يتصل بمصدر رزقهم.

هـذا الإحساس يهدهد من شجاعـة الدعـاة في الجهر بكلمـة الحق، وينمي -بالتدريج - روح الهوينى ويبرر الخمول والكسل، حتى ينتهي الأمر إلى أداء شكلي هزيل..

وتعني ثالثاً: أن يدخل «الدعاة» في معركة المطالبة بتحسين الأوضاع، فهم جزء من جهاز الدولة يتأثر بما حوله، ودخول الدعاة في هذا الجو مشغلة من جهة تصرفهم عن وجهتهم، وتبدد الكثير من طاقتهم، ومن جهة أخرى ينال من صورتهم- كمثل وقدوة- في أنظار الناس، وعلى هذه الصورة، يتوقف الكثير من استجابة الناس لهم، ورفضهم إياهم.

وتعني رابعاً: أن على جهاز الدعوة أن يختار أحد طريقين:

إما أن يساير ما يجري في مجتمعه ما دامت السلطة القائمة تقره، وإما أن يقول كلمة الحق معلنا أن السلطات خالفت حكم الله في هذا الذي أقرته، هذا الصراع النفسي داخل نفس الداعية موجود ومستمر طالما ظل هناك انفصال بين مواقف الحكام في التشريع والتطبيق وتنظيم الحياة، وبين توجيه الإسلام.

والحق أن هذه المشكلة من أعقد مشكلات الدعوة.

فتبعية الدعوة للحكومات تضمن لها وللقائمين عليها مورداً يصعب تدبيره عن طريق آخر ومعناه: أن قطع هذه التبعية يقتلها قتلاً!

واستمرار هذه التبعية، يعرض الدعوة في كثير من الأحيان، لضغوط تشل فاعليتها وتفرغها من مضمونها! والحل في نظرنا يمكن تحقيقه على النحو التالي:

١- توفير ضمانات كافية تؤمن «الدعاة» تأمينا كاملاً فيما يتصل بأرزاقهم، بمعنى أنهم لا يصادرون في أرزاقهم، مهما كانت المآخذ، أو حتى التهم التي توجه إليهم!

٢- أن تتولى محاسبة من يرى أنه ارتكب ما يوجب المحاسبة، هيئة علمية،

تحاكمه على أساس واضح من مقررات الإسلام، التي لا يجوز للداعية أن يذعن لغيرها، ولا يجوز لغيره أن يحاكمه إلا على أساسها.

٣- التفكير في نظام يكفل تمويل الدعوة، على مستوى العالم الإسلامي - كما اقترحنا في صدر البحث- وبحيث لا يكون هناك سلطان مباشر للحكومات على الدعاة.

هذه هي المجالات الثلاثة الكبرى، التي تتركز فيها مشكلات الدعوة والدعاة.

وبقيت أمور تمثل عقبات وتحديات تعترض طريقها وسوف نشير إلى أهمها فيما يلي:

أولاً: عقبات داخل مجال الدعوة نفسها

(١) ومن ذلك تعدد أجهزة الدعوة، كياناً، وتوجيهاً، وإشرافاً، وهو أمر له خطره المتمثل في تضارب الاتجاهات، وما يترتب على ذلك من شقاق، وبلبلة تهز ثقة الناس، وتجعلهم يتساءلون: ترى من المحق من كل هذه الطوائف؟ ولماذا يكون بعضها أولى بالحق من الآخرين.

(٢) ومن ذلك ترك ساحة الدعوة فوضى، يتجول فيها هواة، ومشعوذون، ودجالون، ومرتزقة كاذبون، ولعل ما يجري تحت اسم الطرق الصوفية في أنحاء العالم الإسلامي أسوأ ما يعترض طريق الدعوة الحقة!

(٣) ومن ذلك مناهضة أجهزة الإعلام والثقافة العامة، بوعي وبدونه، لأجهزة الدعوة، مناهضة تملك من الوسائل والطاقات، ما يكاد يذهب بأثر الأخيرة ذهاباً كلياً، ومن أخطر ما يجري في هذا القطاع التعريض بالدعوة ورجالها، والنيل من مكانتهم، ومحاولة التأثير على صورتهم عند الجماهير بما يضعف استجابتهم لهم.

(٤) ومن ذلك ميل كثير من العاملين في مجال الدعوة، إلى الهروب من الميدان، والاتجاه إلى مجالات أخرى، يرونها أكثر سخاء في العطاء الدنيوي، وهذا أكبر دليل على أن فكرة «الرسالة» والإحساس بها، لم تنشأ في نفوسهم، ولم يعن بتنميتها فيهم خلال مراحل الإعداد!..

ثانياً: تحديات من خارج المجال:

وفي مقدمة هذه التحديات، ما يتستر ويتخفى تحت شعار العلم، متخذا منه قناعاً من جهة، ومعبراً يعبر منه إلى عقول الشباب المعاصر من جهة أخرى!

من هذه التحديات:

(١) تلك النزعات والمذاهب والفلسفات المادية، التي تفد من الشرق ومن الغرب على السواء، والتي تلتقي على غاية واحدة، هي قلع جذور الدين والتدين من العقول والقلوب، وأصحاب هذه الاتجاهات يحاولون إضفاء صفة العلم عليها، لما للعلم اليوم من سلطان على العقلية المعاصرة، وخاصة في بلاد العالم الصناعي، حيث قدم العلم إنجازات جعلت تلك المجتمعات تقيم منه إلها تعبده، وتتعبد في محرابه.

إن فتنة العلم في عصرنا هي أخطر ما يجب مواجهته، وكشف ما ينطوي عليه من مغالطات وتجن على الحقيقة، وافتعال الادعاء بأن الدين عدو للعلم.

(٢) ومن فروع هذه الشجرة الآثمة، ذلك الاتجاه «العلماني» الذي يدعو إلى فصل الدين عن الدولة، وهو اتجاه قد يكون له ما يبرره في بلاد نبذت الدين كلية، أو فشلت في محاولة التوفيق بين نظرة العلم، ونظرة الدين الذي تدين به للحياة، لكن هذا إذا ساغ في أي مجتمع يستظل بأي دين، فإنه في مجتمع يستظل بالإسلام لا يزيد عن تقليد جاهل، أو محاولة مغرضة، تريد حرمان المجتمع الإسلامي من أعظم مقوماته، ومن أعمق دوافعه، ومن أقوى حصونه في الصمود والدفاع عن نفسه، في مواجهة أعدائه.

في مجتمع الإسلام، لا مكان لهذه المشكلة، بالمرة، فالدين الحق، والعلم الصحيح، أخوان، وفي تعاونهما معاً، ازدهار الحياة وتقدمها، والداعون للعلمانية في مجتمعات الإسلام هم - بحق- الرجعيون الذين ينطلقون من منطلقات جاهلة أو حاقدة.

(٣) ومن فروع هذه الشجرة الآثمة أيضاً، ما نراه من انفصام بين الجامعات والمراكز التي تتولى شؤون البحث العلمي، في بلاد إسلامية متعددة، وبين روح

الإسلام ونظرته للعلم والعلماء، وهي ثمرة مرة جاءت نتاجاً غير صالح لما كان من فصل متعمد بين التعليم الديني، والتعليم المدني، أرسى الاستعمار قواعده، ورسخ أصوله، وأخذت ثغرة هائلة في بنية المجتمع الإسلامي المعاصر، يجسدها هذا الانفصام، بين مراكز التوجيه والقيادة الفكرية فيه، وبين الإسلام على درجات متفاوتة.

(٤) ومن التحديات التي تواجه الأديان بوجه عام، ما يبدو من ميل عام كذلك إلى التحلل من الدين، والتخفف من تبعات التدين، وهي ظاهرة عامة في كل المجتمعات تعكس روح العصر، ومن الغريب أنها بدأت تنحسر في المجتمعات المتقدمة وظهرت فيها نزعات تطالب بالعودة إلى الدين، هذا بينما في المجتمعات النامية، ما زالت تأخذ صورة المد، ولا تنحسر بعد.

(٥) وهناك تحد خطير، لأنه يمثل خميرة الشيطان في مجتمعات المسلمين، لقد تمكن الملاحدة من الماركسيين وغيرهم في كثير من بلاد العالم الإسلامي، من أن يكون لهم وجود منظم ومعترف به، في شكل أحزاب، أو تجمعات تمارس نشاطها علانية أو تحت الأرض.

هذه التجمعات الإلحادية، تركز نشاطها على الشباب، وتستثمر الظروف الصعبة، التي تعانيها بعض تلك المجتمعات، لحساب مبادئها الهدامة، وأغراضها المشبوهة وقد مكنها ما أضفى عليها من شرعية في بعض تلك البلدان من أن تستعلن، وتفصح عن مبادئها، وتدعو إليها جهاراً نهارا.

وبعد فلعلنا نكون - بهذا البحث الموجز - قد ألقينا ضوءاً كافياً على ما يعترض الدعوة الإسلامية من مشكلات، وما يعترض «الدعاة» من عقبات، حرصنا على أن نضعها في أطرها العامة، ليسهل التعرف عليها، والنفاذ إلى جذورها وأسبابها، بما يهيئ السبل الصحيحة لعلاجها والخلاص منها.

إننا لو استطعنا تحقيق وتطبيق معطيات هذه الآيات الكريمة، في محيط الدعوة الإسلامية ومجالاتها، لكان لها من هذا التطبيق، ما يخلصها من مشكلاتها، ويمنحها قوة دافعة تسرع بها نحو غايتها.

لنرفع قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾ (الأنعام: ١٢٤) دليلاً هادياً في اختيار الدعاة.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾﴾ (الجن: ١٨) شعاراً لتجرد الدعوة والدعاة.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢) عهداً بالتضحية والفداء.

ولنرفع قوله تعالى: ﴿قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا﴾ (الشورى: ٢٣) تذكرة بالاحتساب.

ولنتخذ من قوله تعالى: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى﴾ (يوسف: ١٠٨) معياراً لما يجب أن يكون عليه الداعية تفقهاً في دين الله، ومعرفة بالطريق إليه.

ثم لنتخذ من قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ (النحل: ١٢٥) منهاجاً ودستوراً وأدباً يتخلق به الدعاة.

وأخيراً لنتخذ من قوله تعالى: ﴿وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ﴾ (الأنعام: ١٩) مناراً نطل منه على آفاق الدعوة التي يجب أن نبلغ بها إليها.

والله من وراء القصد موفق ومعين، له الحمد في الأولى والآخرة، وله الحكم وإليه ترجعون.

* * *

٢٩ مقالات

الشيخ د. بدر المتولي عبدالباسط

- **ترجمة الشيخ**
- **المقالات:**

١- إلى الأبناء والأحفاد.

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

٢- لماذا الهجرة دون سواها.

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣م) - فبراير (١٩٧٣م).

٣- معادلة صعبة.

العدد (١٢٨) شعبان (١٣٩٥هـ) - أغسطس (١٩٧٥م).

٤- خصومة مفتعلة.

العدد (١٣٢) ذو الحجة (١٣٩٥هـ) - ديسمبر (١٩٧٥م).

٥- التشريع بين التعقل والتعبد (١).

العدد (١٣٤) صفر (١٣٩٦هـ) - فبراير (١٩٧٦م).

٦- التشريع بين التعقل والتعبد (٢).

العدد (١٣٧) جمادى الأولى (١٣٩٦هـ) - مايو (١٩٧٦م).

٧- طفل الأنابيب.

العدد (٢٣٨) شوال (١٤٠٤هـ) - يوليو (١٩٨٤م).

ترجمة الشيخ

الدكتور بدر المتولي عبدالباسط

● **مولده ونشأته:**



هو فضيلة الشيخ الدكتور بدر المتولي عبدالباسط.

ولد بجمهورية مصر العربية، وأتم فيها دراسته الأولية ثم حصل على الشهادة الجامعية وأخذ العلم عن مجموعة من العلماء منهم:

شيخ الجامع الأزهر الإمام محمود شلتوت وفضيلة الشيخ مأمون الشناوي، والشيخ محمد متولي الشعراوي.

ثم أكمل تعليمه الجامعي فحصل على الدكتوراه في الفقه الحنفي عام ١٩٣٥م.

عُين عام ١٩٣١م مدرساً بالمعاهد الأزهرية حتى عام ١٩٤٨م، وعمل أستاذاً في كلية الحقوق والشريعة في بغداد، ثم وكيلاً لكلية الشريعة جامعة الأزهر عام ١٩٦٦م.

للشيخ رَحِمَهُ اللهُ العديد من الأعمال العلمية والمؤلفات والكتب منها: «رسالة في الوقف، رسالة الفقه المقارن والقياس، تيسير أصول الفقه، فقه العبادات»، وغيرها.

درّس الشيخ في العديد من الجامعات منها: جامعة الأزهر بمصر، وجامعة بغداد، وجامعة الكويت.

كما تولى الإمامة والخطابة والتدريس في الحلقات العلمية في الأزهر،

والعراق، والكويت.

تقلد الشيخ العديد من الوظائف الدينية منها :

- عميد كلية الشريعة بجامعة الأزهر (١٩٦٧)
- عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر
- الأمين العام للموسوعة الفقهية بوزارة الأوقاف الكويتية وامتدت عضويته فيها ١٦ عاما (١٩٧٥- ١٩٩١)،
- المستشار الشرعي لبيت التمويل الكويتي .
- العضوية في مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر، والرئاسة العامة لهيئة الفتوى.

وقد نال الشيخ مكافأة الملك فؤاد الأول في شهادة العالمية ونال وسام الفنون والأدب من الدرجة الأولى في الذكرى الألفية للأزهر، ونال وسام وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في الكويت.

وللشيخ نشاط علمي بارز في مجال التدريس والمحاضرات والخطابة والإفتاء والكتابة والتأليف، وشارك في الكثير من اللجان الشرعية التخصصية والمؤتمرات العلمية.

● **وفاته**

توفي الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ في سنة: (١٤٢٤هـ)، الموافق: (٢٠٠٣م) رحمه الله رحمة واسعة.

توجيهات للشباب

إلى الأبناء والأحفاد

العدد (٧٧) جمادى الأولى (١٣٩١هـ) - يونيو (١٩٧١م).

يوجه فضيلة الشيخ بدر المتولي عبد الباسط أستاذ الشريعة بجامعة الكويت هذا النداء فيقول:

أنتم الرجاء والأمل، وأنتم الغد والمستقبل، والرجاء والأمل إن بقيا رجاء وأملاً كانا خيالاً، والغد والمستقبل إن لم تعدوا له عدته، ولم تأخذوا له أهبته كان- والعياذ بالله- وبالا، فاجعلوا من الأمل حقيقة، وأعدوا أنفسكم لغد مشرق وتسلحوا بالقوة، القوة في كل شيء، القوة في العقيدة والقوة في الأخلاق والقوة بالعلم، والقوة في البدن، فإن قوة العقيدة تذلل لكم كل صعب، وتيسر لكم كل عسير، وتعطيكم طاقة من الاحتمال تصنع العجائب، وخذوا عقيدتكم من هذا الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا تستجلبوا عقائد من الشرق أو الغرب فإنه لم يأت عن هؤلاء أو أولئك - من العقائد - إلا كل ما يبلبل الأفكار، ويحطم النفوس، وقارنوا بين الشاب المؤمن حينما تنزل به شدة، وبين أخيه المتشكك المتردد لتعلموا أي الفريقين أحسن حالاً وأثبت - عند الشدائد - جناناً.

وأما قوة الأخلاق فهي عماد الأمم وعزة الشعوب.

إنما الأمم الأخلاق ما بقيت ... فإن همو ذهبت أخلاقهم ذهبوا

ودينكم - والحمد لله - جاء بجماع الفضائل ومحاسن الأخلاق، فليس - هناك - خلق كريم إلا دعا إليه ولا خصلة ذميمة إلا نهى عنها وحاربها.

وأما قوة العلم فهي - في عصرنا هذا - ميدان التسابق بين الأمم، فخذوا من

العلم أنصعه، ولا يكن حظكم من العلم التحصيل فحسب بل التطبيق لمصلحة الفرد ومصلحة الجماعة، وإن الخطر كل الخطر تلك الأمية الضاربة أطنابها في الوطن العربي والإسلامي، وإنه لمن المؤسف - حقاً - أن تلك الشعوب التي بدأت تسلك سبيل العلم لا تعنى بالثقافة الدنية قدر عنايتها بأي علم أو فن، وأن حظ علوم الدين - في كثير من مدارسنا ومعاهدنا - أقل من حظ كثير من العلوم والفنون الترفيهية ولا بد أن يتمشى تيار الثقافة الإسلامية - في الوطن الإسلامي كله- مع تيار العلوم الكونية لتكون علوم الدنيا عدة للقوة، وعلوم الشريعة سياجاً من الانحراف.

ولا تأخذوا دينكم عن مضلل أو مخرف، ولكن خذوه من الخبير الثقة غير المتهم في علمه وخلقه.

وأما قوة البدن فالسبيل إليها الابتعاد عن أسباب الأمراض بما في ذلك تعاطي ما يضر الأجسام، ويورث العلل، ولتستمتعوا في أوقات فراغكم- بالرياضة البدنية النافعة التي تكسبكم نشاطاً وقوة. والرياضة وسيلة لا غاية، فليكن حظها من العناية حظ الوسائل لا الغايات، وهي للأبدان كالملح، فلا تجعلوا الملح طعاماً والطعام ملحاً.

هذه كلمة أب جرب الحياة وجربته الحياة يقدمها لأبنائه ليوفر عليهم مؤونة التجربة، وليأخذوا من الحياة حيث انتهينا لتكون الحياة - دائماً - في تقدم وتطور، ولكنه تقدم وتطور إلى الخير لا إلى التخبط والتقليد الأعمى.

والله أسأل أن يكون غدكم خيراً من أمسكم وما يستقبلكم خيراً مما فاتكم.

* * *

لماذا الهجرة دون سواها

العدد (٩٧) محرم (١٣٩٣هـ) - فبراير (١٩٧٣م).

عندما استقر رأي عمر ﷺ على إنجاز تاريخ للأمة لابد أنه- وأهل الشورى- استعرضوا الأحداث الجسام في تاريخ الإسلام ونبي الإسلام ليتخذوا من أعظمها قدراً وأبعدها أثراً مبدأ للتاريخ الإسلامي.

وها نحن معهم نستعرض هذه الأحداث الجسام لنعرف المغزى الصحيح لاختيار الهجرة دون سواها: ميلاد الرسول الأكرم، بدء الوحي، عام الحزن، الهجرة، غزوة بدر الكبرى غزوة الفتح، حجة الوداع، وفاة الرسول ﷺ.

هذه أحداث جسام كل منها يصلح أن يكون مبدأ لتاريخ الأمة ولكن المغزى الذي توحي به الهجرة أعظم وأجل من المغزى الذي يوحي به أي حدث من هذه الأحداث. ولنستعرضها حدثاً حدثاً.

● **مولد الرسول الأكرم**

لا شك أنه حدث له خطره، فكل ما جاء بعده أثر منه ولو أن عمر اختار مولد الرسول ﷺ ما كان مخطئاً، وله في اختيار المسيحيين مولد المسيح عليه السلام، مبدأ للتاريخ المسيحي سابقة يعتمد عليها فإنه لا بأس أن نأخذ عن غيرنا في المسائل التنظيمية ما يوافق المصلحة ولا يعارض الشريعة نصاً أو روحاً، ولكن مولد الرسول الأكرم حدث إلهي لا يد للبشر فيه ولا يوحي بهدف يرمى إليه، نعم هو ذكرى تثير فينا الشجون لكن هل نستطيع أن نكرر هذا الحدث الفريد، لا إنه حدث لا يتكرر في أية صورة من الصور.

● **بدء الوحي**

هو كذلك حدث إلهي كان بدءاً لكل الأحداث بعده، وهو في الحقيقة بدء

تاريخ الإسلام كدين لأمة محمد ﷺ [(١)] ولكنه كالميلاد حدث لا يتكرر، وليس في مقدور البشر أن يأتوا بمثله فالنبوة ليست مكتسبة ﴿ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ﴾(الأنعام: ١٢٤) والنبوات ختمت بمحمد ﷺ، فجعل مبدأ الوحي مبدأ للتاريخ ليس إلا تسجيلا لحدث له خطره، ولكنه لا يثير فينا عزيمة على تحقيق غرض.

• عام الحزن

أما عام الحزن وهو العام الذي ماتت فيه السيدة خديجة الكبرى أم المؤمنين، كما مات فيه أبو طالب عم النبي ﷺ وحاضنه وكافله فهو - وإن أرخ به في وقت ما - فإنه أبعد الأحداث عن أن يتخذ كمبدأ للتاريخ الإسلامي الذي يحارب الاستسلام للأحزان أو إثارتها بعد خمودها، ومثل هذا يقال عن وفاة الرسول ﷺ، فإنه لا تذكر حتى تثير الشجون والأحزان فكل مصيبة بعد مصيبتنا في رسول الله هينة، ولكنها سنة الله في خلقه ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ﴿٣٠﴾﴾(الزمر: ٣٠).

ولو أرخ بهذا الحدث لكان لنا في كل عام مناحة، والرسول نفسه نهى عن العزاء بعد ثلاث، كما نهى عن الجلوس لتلقي العزاء واعتبر ذلك من النياحة المنهي عنها.

• غزوة بدر والفتح

أما غزوة بدر وغزوة الفتح فمع أنهما من الأحداث الجسام التي توحي بالشجاعة والتضحية والإقدام فإنهما ثمرة من ثمرات الهجرة كما سأوضح فيما بعد.

• حجة الوداع

أما حجة الوداع وفيها أكمل الله دينه وأتم نعمته وهي خليقة أن تكون حدثا

---

(١) أما الإسلام كدين سماوي فقد كان دين الأنبياء جميعهم فنوح عليه السلام أخبر الله عنه أنه قال: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ (يونس: ٧٢)، وإبراهيم أبو الأنبياء حدث عنه أنه ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا﴾ (آل عمران: ٦٧)، وقد ورد مثل ذلك عن غيرهما من المرسلين.

تؤرخ به الأحداث بعده، ولكنه مع هذا ربما أثار الأحزان لأن الله تعالى نعى فيها محمداً ﷺ إلى نفسه حينما نزل عليه قوله ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣).

وقد فهم ذلك الصديق الأكبر أبو بكر رضي الله عنه فبكى واستعبر فقد جرت سنة الله تعالى أنه إذا تم شيء بدأ نقصه، ومهمة الرسول تمت يومئذ، فكان هذا إيذاناً برحيله عن هذه الدنيا.

- **الهجرة دون سواها**

هذا الحدث دون سواه فيه من المعاني ما ليس في غيره فالهجرة دون سواها كانت مبدأ لدولة الإسلام، نعم كان هناك إسلام قبل الهجرة ولكن بلا دولة، والهجرة دون سواها كانت فاصلاً بين عهدين- عهد الصبر الذي لا يستطاع معه دفع الأذى والبغي والعدوان، وعهد الصبر الذي يستطاع معه الانتصار ورد العدوان.

والهجرة دون سواها توحي بإيثار الغربة مع العزة على الإقامة مع الضيم مهما كان الوطن حبيباً إلى النفس حبيباً إلى الله، فليس هناك بلد أكرم على الله من مكة، ولكن الرسول الأكرم آثر الهجرة منها وهي ما هي! لتكون درساً لنا أن نضرب في الأرض طلباً للعزة والكرامة، والهجرة دون سواها هي الباب الذي ما زال مفتوحاً ولن يزال كذلك إلى يوم القيامة ﴿وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ يَجِدْ فِي ٱلْأَرْضِ مُرَٰغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنۢ بَيْتِهِۦ مُهَاجِرًا إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ يُدْرِكْهُ ٱلْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾﴾ (النساء: ١٠٠) فترك المألوف من الأهل والوطن والرحلة إلى المجهول في سبيل الخير والعزة - وهو سبيل الله - هجرة يستحق معها ما وعده الله للمهاجرين بهذه الآية.

وإذا كان لا هجرة بعد الفتح كما وردت في بعض الأحاديث، فالمراد استحقاق صفة المهاجرين الأولين مع الرسول الأمين وما يترتب على ذلك من أحكام كالعودة إلى مكة بقصد الإقامة فيها وتساويهم في الرتبة مع مسلمة الفتح وإن هاجروا بعد الإسلام ﴿لَا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ ٱلْفَتْحِ وَقَٰتَلَ أُوْلَٰٓئِكَ أَعْظَمُ

دَرَجَةً مِّنَ ٱلَّذِينَ أَنفَقُواْ مِنۢ بَعْدُ وَقَٰتَلُواْۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (الحديد: ١٠).

* * *

وبعد فالهجرة درس في التضحية والإيثار والمحبة والصبر الجميل العزيز، ثم هي ثمرة الأحداث التي سبقتها وأصل للأحداث التي تلتها فلا غرو أن اختارها الفاروق مبدأ للتاريخ الإسلامي دون سواها، فلنجعل من الهجرة درساً وعبرة ولا يكن حظنا إقامة حفل أو إلقاء خطبة فقد سئم المسلمون من كثرة الكلام وثرثرة الخطباء، وهم الآن أحوج إلى القدوة الصالحة أكثر من حاجتهم إلى مقال منمق أو خطبة مرنمة.

والله المسؤول أن يهب لنا قلوباً واعيه، وعزائم قوية، وصدقاً في القول وإخلاصاً في العمل بمنه وكرمه.

معادلة صعبة

العدد (١٢٨) شعبان (١٣٩٥هـ) - أغسطس (١٩٧٥م).

كم في الحياة من معادلات يظنها الناس صعبة الحل ولو عرفوا قانون حلها لتغير رأيهم ولكن الكثيرين يعزفون عن معرفة هذا القانون، بل منهم من يعرف القانون ويأبى أن يطبقه إما بحكم ما ألف من قوانين وإما خوفاً على رزق أو جاه.

وهذه المعادلات كثيرة في حياتنا في الحساب والجبر وفي تشريعاتنا وفي حياتنا الاجتماعية.

والمعادلة التي أعنيها- هي- المقارنة بين تشريع الله- تعالى- المنزه عن الأهواء والأغراض وبين التشريعات الوضعية المستجلبة من هنا ومن هناك، هي معادلة واضحة الفساد، فشتان بين تشريع العليم الخبير الذي لا يحابي أحداً ولا يخشى أحداً وبين تشريع- مهما أحسنا الظن في واضعه- فهو لا يسلم من هوى أو خوف أو رغبة أو رهبة.

ووجه الصعوبة في هذه المعادلة أن دعاة الأخذ بالتشريع الإلهي ودعاة الاعتماد على التشريع الوضعي على طرفي نقيض، كل منهما يتهم الآخر بأشنع التهم.

فدعاة الأخذ بالتشريع الإلهي يتهمون الآخرين بالمروق والإلحاد وبأنهم أتباع الأجانب من الشرق أو الغرب في أفكارهم.

ودعاة الاعتماد على التشريع الوضعي يتهمون الآخرين بالجمود وبأنهم يريدون أن يبسطوا سلطانهم ونفوذهم على الأمة باسم الدين وأن يقيموا من أنفسهم أوصياء على الشعوب، وأن يمنعوا مسيرتها نحو الرقي والمدنية، إلى غير ذلك من التهم التي تكال من هؤلاء وأولئك.

ومن أعجب العجب أن الجميع يتفقون على مبدأ واحد، هو أن الأصل في التشريع أيا كان مصدره أن يراعى فيه جلب المصلحة ودفع المفسدة، ولو أنصف القائمون بالأمر في تطبيق هذه القاعدة ما كان هناك معادلة صعبة أو شبه صعبة، فإن الأمر أهون مما يظنوه.

ومما ييسر على المجتمع التمييز بين المنافع الحقة والمنافع المتوهمة وبين المفاسد الراجحة والمفاسد المرجوحة أن تراعى هذه المبادئ.

أولاً: أنه قد جرت سنة الله - تعالى- أن يختلط الخير بالشر في هذه الدنيا . . فالخير المحض والشر المحض إن لم يكونا مستحيلين في هذه الحياة فلا أقل من أن يكونا نادرين ندرة تصل إلى الاستحالة وإن طبيعة الإنسان أنه إن أحب أمراً لا يرى إلا جانب الحسن فيه، وإن كرهه لا يرى إلا جانب الشر فيه.

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

والإنسان في كل عصر وفي كل مجتمع هو الإنسان والتقدم الحضاري المادي لم يستطع أن يحد من طبيعة الإنسان أو يهذب من غريزته، فهاهي أمم بلغت من هذه الحضارة الذروة قد أباحت الشذوذ الجنسي والإجهاض لغير حاجة إليه في إنقاذ حياة الأم وأباحت نظام الحليلة بينما حرمت تعدد الزوجات إلى غير ذلك مما يصعب عده من المفارقات العجيبة مما يؤكد ما ذهبنا إليه من أن الاعتماد على مقاييسنا خطأ أي خطأ فإن العقل البشري قادر على أن يلتمس المسوغات لكل ما يتفق مع أهوائنا.

إذا عرف هذا فإن السلامة أن يكون ميزان المقارنة بين المنفعة والمفسدة هو ما شرعه الله تعالى المنزه عن الأهواء والأغراض فهناك منافع اعتبرها الشارع الحكيم وأجرى عليها أحكامه وألغى ما قد تضمنه من مفاسده المرجوحة كتشريع الزكاة والحج والصوم والزواج بشروطه والقصاص والحدود.

وهناك منافع ألغاها الشارع ولم يقم وزناً لما قد تضمنه من منافع كتحريم الخمر والميسر: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَـٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ﴾ (البقرة: ٢١٩).

وكتحريم الربا: ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِيٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ﴾ (الروم: ٣٩).

وهناك مصالح سكت عنها الشارع فلم يعتبرها ولم يلغها وذلك كتنظيم الدواوين ووضع قواعد للمرور، ووضع معايير لمن يتولى وظيفة أو عملاً عاماً أو خاصاً.

فأما النوع الأول من المصالح فلنا أن نعتمد عليه بل يجب علينا أن نراعيه في تشريعاتنا.

وأما النوع الثاني فلا يجوز أن نقيم عليه نظاماً ولا أن يكون له حظ من تشريعاتنا اللهم إلا أن نؤكد خطره، ومهما لاح لنا من بريق منافعه فلا يخدعنا هذا البريق فإن ضرره أكثر من نفعه والله أعلم بمصالح عباده من أنفسهم.

وأما النوع الثالث فهو في مجال الاختيار على أن يكون الاختيار من أهل الاختصاص في كل شأن من شؤون الحياة، وأن نحمي هؤلاء من عوامل الرغبة والرهبة قدر الاستطاعة، فإذا ظهر خطأ في التطبيق بادرنا إلى الإصلاح من غير تردد فإن مثل هذه التشريعات ليست تنزيلاً من التنزيل.

ثانياً: أن يعلم الجميع أن الإسلام لا يعرف فكرة رجل الدين الذي يملك حق التشريع فيقول هذا حلال وهذا حرام: ﴿وَلَا تَقُولُواْ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُواْ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾﴾ (النحل: ١١٦).

بل الإسلام يعرف مبدأ الاختصاص في كل شيء: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

وشتان بين رجل الدين وعالم الدين.

فرجل الدين- عند من يقول به- يملك سلطة التشريع فإن قال هذا حلال كان حلالاً وإن قال حرام كان حراماً، ورجال الدين- في نظر هؤلاء- أرباب أو شبه أرباب ولا يملك أحد التعقيب على آرائهم.

أما عالم الدين- في نظر الإسلام- فهو متخصص في معرفة الحلال من الحرام

من أدلة الشرع.

ولكل مسلم أن يناقشه الحساب مهما كان مركزه على شريطة أن يكون الحساب بين هؤلاء وأولئك معتمداً على أدلة الشرع لا تحكيماً للأهواء.

ثالثاً: أن يتسع صدرنا للخلافات المبنية على أدلة شرعية معتبرة فاختلاف أنظار العلماء في الأدلة الشرعية الظنية رحمة بهذه الأمة.

هذه حلول للمعادلة الصعبة بين علماء الشريعة ورجال القانون، والتي صورها البعض أو شاءوا أن يصوروها بالصعوبة بل بالاستحالة حتى رأينا البعض يصور المجتمع الذي يعيش في ظل تشريع إسلامي صحيح مجتمع متأخر يقطع الأيدي ويرجم الزناة الخاطئين ويجعل من الجلد وسيلة واحدة للتأديب.

كلا يا قوم: عودوا إلى تشريع ربكم فهو أولى بالاتباع من تشريعات مستوردة من الشرق أو الغرب.

والله الهادي إلى سواء السبيل.



خصومة مفتعلة

العدد (١٣٢) ذو الحجة (١٣٩٥هـ) - ديسمبر (١٩٧٥م).

في مطلع هذا القرن أثير في وطننا العربي والإسلامي خصام بين الرجل والمرأة يشتد حينا ويهدأ حينا وهذا الخصام، إن صح أن يثار في غير الوطن الإسلامي فلا ينبغي أن يثار في ظل التشريع الإسلامي، فليس هناك تشريع حفظ للمرأة حقوقها، وراعى في كل أصوله وفروعه كرامتها مثل الإسلام. فالمرأة- أولاً- هي الأم، وهل هناك تكريم للأم أعظم من تكريم القرآن لها: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾﴾ (لقمان: ١٤).

﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَـٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ (الأحقاف: ١٥)، وهذا نبي الإسلام يجعل الجنة تحت أقدام الأمهات ويوصي من سأله عمن هو أحق ببره؟ بأن الأم هي الأحق بالبر ويكرر ذلك ثلاثاً ثم يجعل الأب في المرتبة الرابعة: فعن أبي هريرة ﷺ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال يا رسول الله: من أحق الناس بحسن صحابتي؟ قال: «أمك» قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أبوك» (رواه الشيخان).

والمرأة - ثانياً- هي الأخت. وهي أقرب الأرحام إلى الرجل بعد والديه، والرحم قد اشتق الله لها اسماً من أسمائه فهو الرحمن وهي الرحم فمن وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله.

ثم إنها - ثالثاً- الزوجة، والزوجية أقدس عقد عرفه الإسلام، وشدد فيه، ووضع له قيوداً وشروطاً لم يضعها في أي عقد مهما كان خطره، وجعل الله سبحانه ما بين الزوجين من ألفة وسكينة آيات على قدرته وبديع حكمته، ولم يعتبر

ذلك آية واحدة بل آيات متعددات. استمع إلى قول الله- تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (الروم: ٢١).

واستمع إلى تصوير الله تعالى لما بين الزوجين من صلة وثيقة:

﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ (البقرة: ١٨٧).

ورسول الإسلام ما زال يوصي بالمرأة في كل الأحايين في حجة الوداع، بل وهو ﷺ في النزع الأخير.

والمرأة - أخيراً- هي البنت التي جاء الإسلام فأنقذها من الوأد وقبح تلك العادة: ﴿وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِٱلْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَٰرَىٰ مِنَ ٱلْقَوْمِ مِن سُوٓءِ مَا بُشِّرَ بِهِۦٓ ۚ أَيُمْسِكُهُۥ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُۥ فِى ٱلتُّرَابِ ۗ أَلَا سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾﴾ (النحل: ٥٨- ٥٩)، ﴿وَإِذَا ٱلْمَوْءُۥدَةُ سُئِلَتْ ﴿٨﴾ بِأَىِّ ذَنۢبٍ قُتِلَتْ ﴿٩﴾﴾ (التكوير: ٨- ٩).

هذه هي المرأة وتلك هي منزلتها من الرجل- في نظر الإسلام- في كل طور من أطوار حياتها، فكيف نتصور خصومة بين الرجل والمرأة.

اللهم إلا في نظر أولئك الذين يفتعلون الخصومات بين الأفراد والجماعات بل بين من لا نتصور الخصومة بينهما. ليفرقوا الأمة أحزاباً ويصوروا الأب والأخ والزوج ظالمين وطغاة مستبدين، ويبلبلوا الأفكار ويشيعوا التمرد في الأسرة التي هي اللبنة الأولى في بناء الأمة.

وإذا كان بعض الأفراد لا يرعون حق المرأة فليس ذلك قصوراً في التشريع الإسلامي الذي نعيش في ظله، وإنما هو تقصير في التربية الإسلامية التي أهملنا العناية بها منذ أمد ليس بالقصير.

نسمع أحياناً أصواتاً تردد أفكاراً أملاها الحقد على الإسلام وعجزت أن تسمعها للمسلمين فجندوا أسماء إسلامية لتكون أبواقاً لآرائهم، وخرجوا على الناس يلبسون مسوح الرحماء على المرأة، ويصورونها أنها في بلاد الإسلام أمة مسترقة وذليلة مستعبدة لا حول لها ولا قوة، ولا حقوق لها. لا في نفسها ولا في مالها ويتباكون بكاء التماسيح، لا هم لهم إلا أن يجعلوا من المرأة المسلمة

مخلوقة ساخطة على والديها وعلى زوجها بل على ربها الذي شرع لها ما يصون كرامتها، ويحفظ عرضها ويرفع قدرها ومكانتها، فإنها وعاء الولد وشرف الأسرة وشريكة الرجل في حياته يتقاسمان الحقوق والواجبات: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ (البقرة: ٢٢٨). وليست الدرجة التي للرجال على النساء درجة الاستبداد والغطرسة، بل هي درجة القوامة والمسؤولية، إذ لا بد في كل مجتمع كبير أو صغير من مسؤولية أخيراً يرجع إليه وإلا عمت الفوضى في كل التصرفات.

ولمناسبة عام المرأة أثار بعض الحاقدين على الإسلام قضايا الإرث وتعدد الزوجات والطلاق ظنا منهم أن ذلك مما يضعف روح التدين عند المرأة المسلمة، ومتى ضعف الدين في قلب المرأة سهل إضعافه في نفس الرجل، أليست هي الأم والأخت والزوجة والبنت؟! وقد نجح هؤلاء الدعاة فاجتذبوا إلى صفهم بعض ربات الصالونات اللواتي لاحظ لهن في الحياة إلا الظهور في المجتمعات والندوات، وهؤلاء - والحمد لله- لا زلن في مجتمعنا قليلات نادرات إذ لا زال أكثر النسا في المجتمع الإسلامي قانتات حافظات للغيب بما حفظ الله كما وصفهن الله تعالى بعد أن بين أن الرجال قوامون على النساء بقوله جل شأنه: ﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُوا۟ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُ﴾ (النساء: ٣٤).

هذا: وسأعرض لبيان حكمة الله تعالى في تشريع الإرث وتعدد الزوجات وتشريع الطلاق- بصفة مجملة- حتى تطمئن النفوس إلى أن الخير كل الخير فيما شرع الله وأن الشر كل الشر فيما يدعو إليه أدعياء الحفاظ على حقوق المرأة.

الإرث: إذا كان الإسلام قد جعل للمرأة في أكثر صور الميراث نصف ما للرجال فإنه بجانب هذا أوجب على الرجل واجبات أعفى منها المرأة، فنفقتها- كزوجة- على الزوج مهما كانت موسرة ومهما كان معسراً ونفقة الأولاد على الأب وليس على الوالدة شيء إلا أن تتفضل وتتبرع.

وإن أوجبت الظروف عليها الإسهام في النفقة فتكون دينا على الرجل،

فالإسلام لم يجعل للرجل حق تقييد المرأة في تصرفاتها المالية كما هو الشأن في قوانين بعض الدول التي تعد في نظر هؤلاء الدعاة متقدمة ومتمدينة، ولا تنسوا أن المرأة- قبل الإسلام- لم يكن لها حق في الميراث، بل كانت تورث كالمتاع، فجاء الإسلام فأنصفها: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا تَرَكَ ٱلْوَٰلِدَانِ وَٱلْأَقْرَبُونَ مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا ۝٧﴾ (النساء: ٧). فليتأمل المنصف إلى تعقيب الحكم التشريعي: ﴿مِمَّا قَلَّ مِنْهُ أَوْ كَثُرَ نَصِيبًا مَّفْرُوضًا﴾.

ولعل في هذا البيان المجمل غنية لمن أراد أن يعرف حكمة الله في تشريع الميراث.

أما تعدد الزوجات: - وقد كثر فيه الجدل وأثيرت حوله الشبهات - فإنا نقول لهؤلاء المشككين ولهؤلاء المتشككات: إن الله لم يفرض التعدد فرضا، ولم يطلقه إطلاقاً بل أباحه مقيداً بقيود، فإن الله الحكيم يعلم من عباده ما قد يجهلونه من أنفسهم وواقع الحياة يشهد لما نقول. فهذه الأمم التي حرمت تعدد الزوجات أباحت نظام الخليلات. فهل الأكرم للمرأة أن تكون نسبتها إلى الرجل كنسبة امرأة أخرى مساوية لها في الحقوق ولأبنائها من الحقوق ما لأبناء الأخرى..؟ أم ترضى أن تكون علاقتها به علاقة جسدية بحتة؟

ثم إن الشرائع السابقة كما تنطق كتب أصحابها التي بين أيدينا لم تضع قيوداً ولا حدوداً للتعدد كما في سفر الملوك من العهد القديم ولاسيما ما ذكر عن داود وسليمان عليهما السلام.

هناك دواع وملابسات تحمل على التعدد منها الإعفاف وطلب الولد ودوافع أخرى، ليس منها مجرد الإشباع والجري وراء الملذات.

أما الطلاق فقد جعله الإسلام أقبح الحلال، ولكن شرعه الله حينما تصبح الحياة الزوجية ضرباً من البلاء والشقاء بدلاً من أن تكون مودة ورحمة. ونظرة إلى البلاد التي كانت تحرم الطلاق ثم أباحته تجعلنا نحمد الله على أن جنبنا هذه المزالق.

وإذا كان بعض الناس يسيئون استعمال حقوقهم فليس ذلك نقصاً في التشريع

وإنما هو تقصير في التأديب والتهذيب.

إن الإسلام لم يفرق بين الرجل والمرأة في التشريع إلا بقدر ما يحفظ للمرأة كرامتها، ويجنبها أطماع الطامعين فلا يرضى لها أن تتبذل ولا تستغل كدعاية للسلع، ولا يرضى لها أن تكون أمينة سر لرجل أجنبي (سكرتيرة) ولا أن تكون عارضة أزياء إلى غير ذلك مما يجعلها سلعة تستغل للإثراء، ولكن يرضى أن تتعلم من العلوم ما ينفعها وينفع أسرتها وأمتها فلتكن معلمة لبنات جنسها وطبيبة، ولتتول من الأعمال ما يتفق مع طبيعتها على أن لا تنسى أنها الأم والأخت والزوجة والبنت، وأنها العرض والشرف ولا تلقي بالاً لهؤلاء المتباكين على حقوقها، فإنهم لا يهدفون إلا إلى إبعادها عن دينها وعن المنهج الذي رسمه الله لها: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٢٦﴾ وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُوا۟ مَيْلًا عَظِيمًا ﴿٢٧﴾ يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ ٱلْإِنسَٰنُ ضَعِيفًا ﴿٢٨﴾﴾ (النساء: ٢٦- ٢٨).

وبعد فليس هناك خصومة بين الرجل والمرأة في ظل الإسلام وإنما هي خصومات مفتعلة يراد أن يشغل بها الناس عما يجب أن يشغلوا به أنفسهم من بناء الأسرة الإسلامية على أسس متينة من التوجيه الإلهي.

والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.



التشريع بين التعقل والتعبد (١)

العدد (١٣٤) صفر (١٣٩٦هـ) - فبراير (١٩٧٦م).

الشريعة الإسلامية جاءت بثلاثة تشريعات أساسية:

أولاها تتصل بالعقائد.

وثانيها تتصل بالأخلاق.

وثالثها تتعلق بأعمال الجوارح.

العقيدة الإسلامية وهي شريعة الله التي أرسل بها المرسلين وأنزل بها الكتب ﴿إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ﴾ (النساء: ١٦٣) ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ﴾ (الشورى: ١٣) ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٨٥).

والمتتبع لآيات القرآن الكريم يرى في كثير منها تقرير عالمية الشريعة الإسلامية في أصولها. وأن الدين عند الله الإسلام، سواء كان ذلك قبل محمد ﷺ أم بعده، فالمرسلون قبله ﷺ يقررون أنهم مسلمون فنوح عليه السلام يقرر أنه من المسلمين فيقول لقومه ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِىَ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾(يونس: ٧٢)، وإبراهيم عليه السلام وهو أبو الأنبياء يدعو ربه هو وابنه إسماعيل- عليهما السلام- وهما يبنيان الكعبة ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٨).

وأخبر الله عنه في أنه حنيف «مائل عن الشرك» مسلم ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾﴾ (آل عمران: ٦٧)، وكذلك

موسى عليه السلام يقول لقومه ﴿يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ﴾ (يونس: ٨٤) وعيسى ابن مريم عليهما السلام حينما أحس من قومه الكفر قال ﴿مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٥٢).

ومن هنا يتضح بما لا مجال فيه للشك عالمية الإسلام قديما وحديثاً إذ لا يعني الإسلام إلا أن يسلم المرء قلبه لله فلا عبودية لغيره ولا ربانية لسواه ﴿وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ وَإِلَى ٱللَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٢٢﴾﴾ (لقمان: ٢٢).

والقدر المشترك بين الشرائع السماوية هو وحدة العقيدة فيما يتصل منها بالله تعالى وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر، فإذا كان قد وجد خلاف بين الشرائع التي تنتسب إلى السماء فذلك من تحريف القائمين على تلك الشرائع فحرفوا الكلام عن مواضعه واحتكروا سلطة الحديث عن الله وتفسير كتبه، وحرموا على الشعوب النظر فيما أنزل الله من كتاب وما شرع من شرائع، واعتبروا ذلك جريمة تستحق العقوبة في الدنيا والآخرة، وويل للدين إذا احتكره قوم وتاجروا به، وجعلوه وسيلة للتسلط والاستعلاء، ولذلك حارب الإسلام الذي جاء به محمد ﷺ فكرة الاحتكار العلمي بكل ضروبه وأشكاله ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ أُوْلَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴿١٥٩﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ وَأَصْلَحُواْ وَبَيَّنُواْ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٦٠﴾﴾ (البقرة: ١٥٩- ١٦٠) ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَيَشْتَرُونَ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا أُوْلَٰٓئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِى بُطُونِهِمْ إِلَّا ٱلنَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ ٱللَّهُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٤﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُاْ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ وَٱلْعَذَابَ بِٱلْمَغْفِرَةِ فَمَآ أَصْبَرَهُمْ عَلَى ٱلنَّارِ ﴿١٧٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ نَزَّلَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِى ٱلْكِتَٰبِ لَفِى شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿١٧٦﴾﴾ (البقرة: ١٧٤- ١٧٦).

﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ لَتُبَيِّنُنَّهُۥ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُۥ فَنَبَذُوهُ وَرَآءَ ظُهُورِهِمْ وَٱشْتَرَوْاْ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ ﴿١٨٧﴾﴾ (آل عمران: ١٨٧).

فالإسلام لا يعرف فكرة رجل الدين الذي يحتكر علوم الدين ويملك التحليل والتحريم ولكنه يعرف فكرة عالم الدين الذي يرجع إليه لمعرفة حكم الله فيما اشتبه على الناس من أمور دينهم، والحجة في قوله بما يستبدل به من دليل معتبر شرعاً، ولا يملك أن يلزم الناس برأيه إلا بحجة قاطعة من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع معتبر مسلم.

والعقيدة تدور حول أمور الإيمان بالله ورسله وكتبه والإيمان بالغيب، ويدخل فيه الإيمان بالملائكة والجن وما بعد الموت واليوم الآخر وما فيه من ثواب وعقاب وجنة ونار وميزان وحساب إلى غير ذلك مما سنعرض له - إن شاء الله تعالى- بشيء من التفصيل.

- **العقل والإيمان بالله تعالى**

لست أعلم - ولا أظن أن أحدا يعلم - أن دعوة قامت على منطق العقل السليم كدعوة القرآن الكريم إلى وجوب النظر العقلي في آفاق الكون للاستدلال على وجود الله - تعالى - واتصافه بصفات الكمال وتنزهه عن صفات النقص ولست أعلم- ولا أظن أن أحداً يعلم- أن كتاباً سفه التقليد في العقيدة كما سفه القرآن الكريم تقليد الآباء والأجداد، ولو ذهبت أعدد الآي التي تشهد لما قلت لطال البحث وطال، وقد كتبت في ذلك رسائل، ولا زال المجال واسعاً للكاتبين والباحثين، ولكني سأعرض لنماذج فيها غنية لمن أراد أن يستغني، وإقناع لمن أراد الاقتناع. وإليكم بعض الآيات: ﴿وَإِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَٰنُ الرَّحِيمُ ﴿١٦٣﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِن مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٣- ١٦٤).

فأنت ترى أن القرآن الكريم لفت الأنظار إلى ما في السماوات والأرض من دلائل على وحدانية الله - تعالى- وألوهيته وعلى رحمته الواسعة الشاملة ورحمته الظاهرة والباطنة، وعقب ذلك بأن هذه الآيات لا ينتفع بها إلا هؤلاء الذين يمعنون

النظر ولا يعطلون عقولهم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ ءَابَآؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

أليس في هذه الآية- وغيرها في القرآن كثير- ما يدل على رفض فكرة التقليد الأعمى والانقياد لأفكار الغير حتى ولو كانوا آباء أو أجداداً.

﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ الَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ ﴿١٩٠﴾﴾ (آل عمران: ١٩٠).

وأنها غير صالحة للألوهية التي يجب أن لا يعتريها تغيير ولا تبديل ومن يقرأ قصة إبراهيم - عليه الصلاة والسلام- مع أبيه وقومه وكيف ألزمهم بمنطق العقل السليم بفساد عقيدتهم في عبادة الكواكب في سورة الأنعام من الآية ٧٤ إلى الآية ٨٣، ولولا الإطالة لعرضتها وفسرتها، وهذه الآيات تصور لنا طريقة من الإلزام العقلي الغريب في نوعه، فقد جارى إبراهيم- عليه السلام- قومه- ظاهراً- في اعتقادهم وبين لهم بالمنطق السليم فساد عقيدتهم في عبادة الكواكب لما يعتريها من تغير لا يليق بمقام الربوبية، وحاشا أن يعبد نبي غير الله قبل البعثة أو بعدها بله إبراهيم فقد كان - كما وصفه الله - حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين، فقد نفى الله عنه صفة الإشراك.

ثم استمعوا معي إلى من ذرأهم الله لجهنم. أليسوا الذين عطلوا نعمة الله العظمى وهي النظر في ملكوت السماوات والأرض: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٧٩﴾﴾ (الأعراف: ١٧٩).

فالقلوب المراد بها العقول، ولكنهم عطلوها فلم يشغلوا أنفسهم بالنظر والمقارنة والانتقال من المقدمات إلى النتائج. بل اكتفوا بتقليد الآباء والنزول على حكم البيئة. ولم يكلفوا أنفسهم أدنى مشقة لمعرفة الحق من الباطل. وعيونهم لم يبصروا بها نظرة المتبصر. ولم يتفقهوا بما يسمعون فيقارنوا بين ما يجب وما لا يجب ثم وصفهم بأنهم كالأنعام من الإبل والبقر والغنم، بل هم أضل فإن الأنعام- وليس لها عقل تفكر به- قد تنتفع بما تبصر فتتحاشى ما يضرها، وقد تنتفع بما تسمع وتفرق بين بعض الأصوات فتستجيب لصوت صاحبها، وتفر من صوت أعدائها.

وها هو القرآن الكريم يصرح بأبلغ عبارة أن الذين لا ينتفعون بنعمة العقل هم المترددون في حمأة ورجس الشرك والضلال: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تُؤْمِنَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَجْعَلُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ ﴿١٠٠﴾ قُلِ ٱنظُرُوا۟ مَاذَا فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَمَا تُغْنِى ٱلْـَٔايَـٰتُ وَٱلنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠١﴾﴾ (يونس: ١٠٠-١٠١).

ثم إن دعوة القرآن إلى النظر في ملكوت السماوات والأرض للاستدلال به على الله أمر لا يماري فيه إلا من أضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة.

والكون كتاب الله المنظور الذي يستدل به عليه:

وفي كل شيء له آية تدل على أنه الواحد

وإن مماراة المتدين في هذا الأمر صرف للعقول عن واجبها الأول. وتشتيت للأفكار. وبلبلة للخواطر، فإن وضوح الآيات الدالة على الله جعلت كثيراً من المفكرين يقررون: أنه لا عذر لأحد بالجهل لخالقه. والفطرة الإنسانية منساقة إلى التسليم بوجود إله لهذا الكون. وإن آيات الكون تشهد أن هذا الإله يجب أن يكون منزها عن أية شائبة من شوائب النقص من حلول وتحول واحتياج. بل إنه يجير ولا يجار عليه، وإنه قائم على كل نفس بما كسبت، وإنه الأول فلا بداية لوجوده وإنه الآخر فلا نهاية لوجوده، والوصف الجامع لكل صفاته أن له الأسماء الحسنى وأنه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير.

فأساس العقيدة الإسلامية الأولى- وهي الإيمان بالله- مبنية على العقل في جملتها وتفصيلها، ونحن المسلمين لا نخشى أن نحتكم إلى العقل في صلب عقيدتنا، ولا نقول: آمن ثم فكر، بل نقول فكر ثم آمن، ولكن يجب أن يكون تفكيرنا متمشياً مع قوانين العقول السليمة التي لا تحكم أولاً ثم تبحث عن المسوغات ثانياً.

هذا ومتى انتهى بك التفكير إلى الله بهداية الله لك على لسان رسله حتى لا تتشعب عليك الطرق آمنت به عن قناعة واطمئنان سهل عليك الإيمان بما وراء ذلك.

ولعل لنا- بحول الله وتوفيقه- عودة إلى هذا الموضوع.

والله الهادي إلى سواء السبيل.

التشريع بين التعقل والتعبد (٢)

العدد (١٣٧) جمادى الأولى (١٣٩٦هـ) - مايو (١٩٧٦م).

في مقال سابق بينا أن الفطرة الإنسانية السليمة والعقل البشري غير الخاضع للأهواء وغير المستعبد للتقليد، يسهل عليه- لكثرة الآيات الكونية- أن يدرك أن لهذا العالم خالقاً، وهذا القدر من الإدراك كان ينبغي ألا يكون محل شك أو تشكيك، لولا حب المغالطة التي تستحوذ على كثير من الناس، فلوضوح هذه الآيات والأدلة قال الإمام أبو حنيفة ﵁ «ليس لأحد عذر بالجهل لخالقه».

نعم: إن بعض العقول في رحلة التفكير في الخالق قد يجانبها الصواب فتقف أمام بعض المظاهر الكونية التي تشدها بعظمتها فتعتقد أنها الإله، فقد عبد المصريون النيل لأنه مصدر الخصب والحياة لواديهم، وعبد البابليون الكواكب لأنها مصدر الإشعاع، والإشعاع مصدر الحياة، وعبد الأغريق البحر، رامزين إليه بصنم من أصنامهم.

ولما تعددت مظاهر العظمة في الكون جعلوا لكل ظاهرة من مظاهره إلها يقدمون إليه القرابين، فهناك إله الجمال، وإله الخصب، وإله الخير، وإله الشر، وإله الحرب، وإله الحكمة، إلى آخر ما تورطت فيه الأمم من وثنية وتعدد آلهة، واختلفت الأمم في تصور آلهتها، فالإغريق تصوروا آلهتهم فجرة غدارين أقوياء، جبناء ضعفاء حيناً مرتشين حينا، عطاشى إلى الدم حينا، والمصريون - مثلاً - تصوروا آلهتهم حكماء - حينا- عادلين، قادرين حينا عاجزين حينا، والمجوس تصوروا إله الخير نوراً وإله الشر ظلمة وقدموا القرابين من كل نوع إلى النار التي هي مبعث النور.

هذه صورة البشرية التي توصلت - بالنظرة الأولى- إلى اعتقاد أن لهذا العالم

خالقاً، ولكنها تعثرت في معرفة هذا الخالق، وحتى لا يكون للناس على الله حجة أرسل إليهم رسلاً مبشرين ومنذرين ليبينوا لهم فساد تلك العقائد التي وقفت عند بعض المظاهر الكونية فضلت عن سواء السبيل.

وسأعرض لنماذج من الحوار القرآني الذي يبين فساد وقوف العقل البشري - في قضية الإلوهية - عند المظاهر المحسوسة، ويطالب الإنسان أن ينتقل من المحسوس إلى المعقول.

استمعوا إلى قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ (البقرة: ٢٥٨).

هذه الآية تعطينا صورة لحوار بين التعصب والغرور من جانب، وبين العقل من جانب آخر، وفيها إلزام عقلي، إذ أن أبسط ما يجب أن يتصف به الإله أن يكون قادراً لا يضعف أمام التحدي. مهما كان مصدر التحدي.

وهذا الذي كفر ادعى أنه يحيي ويميت بالعفو عن بعض المحكوم عليهم بالإعدام، أو إعدام من يشاء، وصور له وهمه وغروره أن هذا يجعله مستحقاً للألوهية، فألزمه إبراهيم عليه السلام بأن قال له متحدياً - ربي الذي يحيي ويميت هو الذي يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب. وهنا استبان عجزه فبهت ولم يحر جواباً.

ولهذه المناسبة يقول قوم: كان هذا الإنسان يستطيع أن يقول لإبراهيم فأت بها أنت فيكون ذلك إلزاماً لإبراهيم عليه السلام أيضاً. والجواب عن ذلك في منتهى البساطة والوضوح، ذلك أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام لم يدع أنه إله حتى يوجه إليه هذا التحدي.

ورب مشكك يقول: كان في إمكانه أن يقول لإبراهيم عليه السلام ادع ربك أن يأتي بها من المغرب إلى المشرق، وهذا- أيضاً- قول مرفوض لأن الإله يجب أن يفعل ما يريد هو، لا ما يريده غيره حسبما تقتضيه حكمته، وربما لو فعل هذا الكافر ذلك ودعا

إبراهيم ربه أن يفعل ذلك لفعل، فكم من خارقة للعادة أظهرها الله على أيدي أنبيائه تأييداً لهم، وثم صورة أخرى من صور الإلزام العقلي لبيان فساد عبادة جرم من الأجرام السماوية، وهذه الصورة تتمثل فيما قصه الله تعالى علينا من حوار إبراهيم لقومه في شأن عبادة الكواكب ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْءَافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ (الأنعام: ٧٥- ٧٩). وليست هذه الآيات تدرجاً بعقيدة إبراهيم من الوثنية إلى التوحيد حاشا، فإن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام- معصومون قبل النبوة وبعدها من ارتكاب كبائر الذنوب بله الشرك بالله، فما بالك بإبراهيم أبي الأنبياء، والذي حدث الله عنه بأنه كان حنيفاً، والحنيف هو المجانب للشرك المائل عن الباطل إلى الحق وسياق الآيات ولحاقها يبين هذا بوضوح والآيات تصور إلزام المخالف بفساد رأيه- بعد مجاراته ظاهراً- ثم إظهار جانب الخطأ في التفكير القاصر.

وقد يركن كثير من الناس إلى ما وجدوا عليه آباءهم، فتحرر الإنسان من إلف العادة عسير، وهذا ما كان يحتج به الكافرون على أنبيائهم، هؤلاء آل فرعون قالوا لموسى عليه السلام بعد أن جاءهم بالمعجزات الباهرة: ﴿قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَلْفِتَنَا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ ءَابَآءَنَا وَتَكُونَ لَكُمَا ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمَا بِمُؤْمِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ (يونس: ٧٨) وهؤلاء عاد قوم هود عليه السلام قالوا له فيما قالوا: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾ (الأعراف: ٧٠).

وقد بين الله - سبحانه وتعالى - أن الاحتجاج بما كان عليه الآباء والأجداد هو حجة الأمم الضالة قديماً وحديثاً استمع إلى قوله جل شأنه ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف: ٢٣).

لهذا وذاك ولحب التعالي والسيطرة عند الإنسان، وحتى لا يكون للناس على الله حجة لم يتركهم لعقولهم، فإنها- كثيراً- ما تكون محكومة بالأهواء فأرسل الله النبيين مبشرين ومنذرين حتى يقيموا الحجة على فساد الوقوف عند المحسوس دون التعمق فيما وراءه وحتى يبين لهم أن اتباع الآباء فيما ترفضه العقول السليمة لا يليق بالعقلاء ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ ﴿١٧٠﴾﴾ (البقرة: ١٧٠).

فحاجة البشرية إلى الرسل كحاجة المسافر في صحراء إلى دليل، مهما كان سليم الحواس حاد الذكاء.

هذا: وليس كل من ادعى الرسالة عن الله مصدقاً فيما يبلغه عن ربه، بل يجب أن يكون معه من الله برهان بين يشهد بصدقه، وهذا ما يعرف - عند العلماء- بالمعجزة، وهي أمر خارق للعادة والناموس الطبيعي الذي عرفه الناس، ولا سيما المرسل إليهم، فإن العقل يدرك بداهة أن تغيير الناموس الكوني لا يملكه بشر، وإنما يملكه من خلق هذا الناموس، فإدراك صدق الرسول المؤيد بالمعجزة خاضع للعقل، فإن المعجزة ينطق لسان حالها أن هذا العبد صادق في كل ما يبلغه عن الله، فهي تشبه كتاب اعتماد السفراء لدى الدول التي يمثلون فيها دولتهم، وقد جرت سنة الله- تعالى- أن تكون المعجزة- صورها- من جنس ما امتاز به القوم المرسل إليهم.

ولست بصدد تعداد معجزات الأنبياء وبيان أن كل معجزة من معجزاتهم كانت مناسبة لعصرهم، والذي يهمنا في هذا المقام أن نبين أن تصديق الرسل المؤيدين بالمعجزات حكم يفرضه العقل السليم المتحرر من تبعة التقليد وعبوديته، ومن الغرور وجهالته، وإذا أقام الله الحجة على عباده بإرسال الرسل فلن تكون لهم حجة عليه لأنه أكرمهم بالعقل، وهداهم بالرسالات.

نعم. إن هؤلاء الرسل قد يأتون بما لا تدركه العقول كالحديث عن الغيبيات. وما يعرف عند بعض الفلاسفة بما وراء الطبيعة. وقد يأتون بشرائع تقف العقول أمامها عاجزة عن إدراك حكمتها. فإذا تفلسف إنسان وقال: لا أؤمن بهذه

الغيبيات. ولا أمتثل تلك الأحكام التي لم أدرك حكمتها بعد أن أشهد على نفسه أنه مؤمن بالله الحكيم العليم، وأنه مصدق لرسوله المؤيد بالمعجزة. فإنه يكون مناقضاً لنفسه كاذباً في إشهاده. ملغياً حكم عقله الأول.

وليعلم الناس جميعاً أن الرسل أجمعين لم يأتوا بما ترفضه العقول السليمة. وتأباه الفطر القويمة.

ولكنهم قد يأتون بما لا تدركه العقول. لأنهم إنما يحدثون عن الله الحكيم العليم الذي يعلم سر الكون، وعواقب الأمور كلها. المنزه عن الأهواء والأغراض.

والعقل- كما قيل- كالدابة، توصلك إلى قصر السلطان. ولكن: لا تدخل بك عليه.

ومثل من يرفض الإيمان بالغيب، ويتشكك فيما شرعه الله من أحكام لا تعرف حكمتها- الآن- كمريض ذهب إلى طبيب يثق بعلمه وأمانته. فوصف له الطبيب قدراً محدداً من الدواء. بعضه قبل الأكل، وبعضه في أثناء الأكل، وبعضه بعد الأكل، وبعضه قليل، وبعضه كثير. فقال هذا المريض لطبيبه: لا أتعاطى دواءك حتى تقنعني- عقليا- لماذا كان هذا الدواء قبل الأكل وهذا بعده وهذا أثناءه، ولماذا كان هذا قليلاً، وهذا كثيراً.

أليس هذا المريض مناقضاً لنفسه حينما اختار هذا الطبيب ووثق به.

مع أن الطبيب قد يخطئ لأنه غير معصوم، أما الرسول الذي اقتنع - عقلياً- بصدقه، فإنه معصوم. والله الذي اقتنع- عقلياً- بعلمه وحكمته، لا يغفل عنه شيء، ولا يأمر بشر ولا ينهى عن خير، وكل ما نهى عنه الشارع - إن بدا للناس أن فيه خيراً - فشره أعظم، وكل ما أمر به العباد- وإن بدا فيه بعض الضر- فإن خيره أعم وأشمل. ولعل في هذا التصوير ما يجعل بعض النفوس القلقة أمام بعض التشريعات تطمئن وترضى عن تشريع ربها. ولنا عودة إلى تفصيل ما أجملنا. والله ولي التوفيق.

طفل الأنابيب

العدد (٢٣٨) شوال (١٤٠٤هـ) - يوليو (١٩٨٤م).

الحمد لله الذي يقول الحق وهو يهدي السبيل والصلاة والسلام على سيدنا ومولانا محمد الرسول الأمين جاء بالحق والصراط المستقيم وعلى آله وصحبه ومن تمسك بسنته واهتدى بهديه إلى يوم الدين.

● **أما بعد**

فقد أثيرت في هذه الأيام مسألة أطفال الأنابيب بعد أن أصبحت حقيقة واقعة بعد أن كانت من قبل يظن أنها مسألة افتراضية وقد اختلفت آراء علمائنا المعاصرين في بعض الصور واتفقت في بعضها فاستعنت بالله على بيان هذه الواقعة من جميع نواحيها، من ناحية الحكم الشرعي التكليفي من حيث الحل والحرمة وكذلك من حيث الأحكام أي الآثار المترتبة على هذا العمل من ناحية ثبوت النسب وما يتصل به من ميراث وغيره كحل الزواج أو حرمته وما إلى ذلك من الأحكام المترتبة على هذا التصرف.

وباستطلاع آراء أهل الذكر في هذه المسألة (وهم الأطباء) تبين أن هذه المسألة تقع على الصور الآتية:

الصورة الأولى: امرأة سليمة المبايض ولكن هناك خلل ما في قناة فالوب يمنع وصول البيضة (البويضة) من المبيض إلى الرحم فتؤخذ البييضة وتلقح بماء زوجها وتحفظ فترة ما في أنبوب خاص ثم ترد هذه البييضة الملقحة إلى رحم هذه المرأة.

وهذه لا مانع منها شرعاً على أن لا يتجاوز إطلاع الطبيب المعالج على أكثر مما تقتضيه الضرورة.. والطفل الذي يولد من هذه العملية ينسب قطعاً إلى الزوج

وإلى أمه صاحبة البييضة وهي كذلك الحاضنة.

وعلى أني أتحفظ في هذه المسألة أيضاً وأرى وجوب الاحتياط الشديد جداً في حفظ هذه البييضة من أن تختلط بغيرها من البييضات الملقحة فكلنا يعلم ما يجري في معامل التحليل (دم وبول إلى آخره) من أخطاء شنيعة مهما بلغت شناعتها فإنها لا تبلغ شناعة اختلاط البييضات الملقحة بعضها ببعض فإن الخطأ في اختلاط عينات الدم أو البول لا تتجاوز صاحب العينة التي وقع فيها الخطأ بينما أدنى خطأ في اختلاط بييضة ملقحة بأخرى تمتد آثاره إلى أجيال وأجيال.

فإذا فتح هذا الباب فلابد أن يكون هناك رقابة شديدة جداً على من يقوم بهذه العمليات وإلا فالأولى سد هذا الباب أخذا بمبدأ سد الذريعة على أنه يجب أن يكون مع الطبيب المباشر زوج أو محرم أو مع التسامح الشديد أن لا يختلي الطبيب بالمرأة بما يسمح للشيطان أن يدخل بينهما، هذا ما أدين الله عليه.

الصورة الثانية: رجل تزوج أكثر من امرأة وكانت إحداهن عقيماً مع سلامة مبيضها فتؤخذ بييضتها وتلقح بماء زوجها وترد البييضة الملقحة إلى رحم إحدى ضراتها السليمة الرحم فيتربى في رحمها حتى يولد.

ولا بد من بيان حكم هذه المسألة من ناحية الحل والحرمة ومن ناحية الآثار المترتبة على هذه العملية.

وأرى البدء ببيان الآثار المترتبة على هذه العملية أولاً ليتضح الحكم التكليفي ثانياً.

مما لا شك فيه أن هذا الطفل ينسب إلى زوج صاحبة البييضة وضرتها التي حملت هذه البيضة الملقحة وهذا أمر واضح لقيام الفراش وهو الزوجية. أما إلى من ينسب هذا الطفل من ناحية الأم، ألصاحبة البيضة أم التي حملته؟

إن الذي أدين الله عليه أن هذا الطفل ابن أو بنت التي حملته لا صاحبة البييضة لقوله تعالى: ﴿إِنْ أُمَّهَٰتُهُمْ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔى وَلَدْنَهُمْ﴾ (المجادلة: ٢) وهذا نص قطعي الثبوت والدلالة ولا سيما أنه جاء على صيغة الحصر، فليست صاحبة البييضة إلا كالدجاجة تبيض بيضتها ولكن لا ينسب فرخها إليها بل إلى الدجاجة التي حضنته.

فالفرخ المتخلق من هذه البيضة لا يعرف إلا أمه التي حضنته، ويقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ﴾ فهل صاحبة البييضة حملته وهنا على وهن؟ وكذلك يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا﴾ فهل صاحبة البييضة كذلك؟!

هذا من ناحية النص ومن ناحية المعنى أن البييضة الملقحة إنما نمت وتغذت بدم التي حملتها وتحملت الأم الحمل وآلام المخاض.. فهل يعقل أن ينسب الولد لغيرها؟

بقي الكلام على علاقة صاحبة البييضة كالأم المرضعة وذلك لأن الحنفية اعتبروا علة التحريم في الرضاع هي الجزئية أو شبهتها فأقل ما يقال إن هذا الطفل فيه جزئية من صاحبة البييضة توجب حرمة الرضاعة.

على أني لا أستريح إلى هذا التخريج وأرى أن عملها هدر لا تترتب عليه أحكام.

ألا ترى أن امرأة ما لو غذت طفلاً رضيعاً بدمها بالطرق المعروفة الآن هل يثبت بين صاحبة الدم وبين هذا الطفل حرمة الرضاع؟ والذي يبدو لي من قوله تعالى ﴿وَأُمَّهَٰتُكُمُ ٱلَّٰتِيٓ أَرْضَعْنَكُمْ﴾ أن الإرضاع فيه معنى الجزئية.

والذي أقطع به أن هذه المرأة لا تتجاوز أن تكون زوجة أب هذا الطفل أما ما وراء ذلك من تعلق حرمة الرضاع بها بأصولها وفروعها وحواشيها فأمر موهوم أكثر مما هو مظنون.

وإن القول الذي يهب إليه بعض الباحثين في هذه المسألة بأن الأم هي صاحبة البييضة قول مردود للأدلة النقلية والعقلية السابقة ولما يترتب عليه من آثار خطيرة من أن امرأة تبيض وأخريات يحملن ويتألمن ويعانين آلام الحمل والمخاض ثم لا يتمتعن حتى ولا بصفة الأمومة.. ويمكن لمثل هذه المرأة أن يكون لها في كل شهر جنين أو أجنة ومن هنا يتبين أن الآثار المترتبة على هذا التصرف خطيرة وهذا يرجح القول بحظر هذه العملية لما يترتب عليها من مشاكل أو على أقل تقدير الاشتباه بعلاقة هذا الطفل بصاحبة البييضة. والله أعلم.

الصورة الثالثة: أن تلقح ببيضة امرأة ما بماء غير ماء زوجها ثم ترد إلى رحمها.

فهذه الصورة محرمة قطعاً لما فيها من اختلاط الأنساب.. ولكن هل يقام حد الزنا في هذه الصورة؟ الجواب.. لا، ولكن يعزر كل من اشترك في هذه العملية تعزيراً شديداً.

ثم إلى من ينسب هذا الولد؟ والجواب أن هذه المرأة إن لم تكن زوجة فالولد ينسب إليها كولد الزنا ولا ينسب إلى صاحب الماء لأن ماءه هدر أما إذا كانت زوجة فقد حسم رسول الله ﷺ هذه القضية بقوله «الولد للفراش وللعاهر الحجر» فينسب الولد إلى الزوج فإن كان الزوج يقطع بأنه ليس منه فالمخلص له أن ينفي النسب ويلاعن هذه الزوجة ويفسخ النكاح بينهما ويقطع نسب الولد من الزوج ويلحق بأمه فقط.

وإن علم أنه ليس منه ورضي به ثبت نسبه منه ولكن يكون آثماً وعلى بنات هذا الرجل وأخواته أن يحتجبن من هذا الولد إن كان ذكراً وإن كانت أنثى فللاحتياط لا يتزوج أبناء هذا الرجل منها والأصل في ذلك أن رسول الله بالرغم من أنه ألحق ابن وليدة زمعة بزمعة إلا أنه قال لزوجته أم المؤمنين سودة رضي الله عنها احتجبي عنه يا سودة بالرغم من أنه ألحقه بزمعة أبيها.

ولعلي أكون قد بينت ما في هذه المسألة من صور وإشكالات فإن كنت قد وفقت في ذلك فذلك من الله وإلا فمني ومن الشيطان.. والله أعلم.

* * *

٣٠ مقالات

الشيخ د. عبد الله كنون

- ❑ **ترجمة الشيخ.**
- ❑ **المقالات:**

١- آية الإسراء والمعراج.

العدد (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

٢- مدرسة الاحسان.

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) - أكتوبر (١٩٧١م).

٣- المعراج رحلة إلى السماء.

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢م) - أغسطس (١٩٧٢م).

ترجمة الشيخ

د. عبد الله كنون

● **مولده ونشأته:**



ولد الشيخ عبد الله كنون بفاس سنة **١٣٢٦** هـ - **١٩٠٨**م رحل إلى طنجة مع عائلته بسبب الحرب، فحفظ القرآن على يد أبيه عبدالصمد كنون وعلى يد الشيخ أحمد بن محمد الوسيني وحفظ الأحاديث النبوية فأصبح عالماً بالشريعة وباللغة العربية في وقت قصير، ونال درجة الدكتوراه الفخرية من جامعة مدريد المركزية.

كان الأستاذ عبد الله كنون من ألمع جيل الرواد الذين بنوا النهضة وناضلوا من أجل الاستقلال بالفكر والعلم والقلم، تميز منذ وقت مبكر من حياته، بالنبوغ والتفتح والقدرة على مسايرة الركب الحضاري والثقافي الذي قدر أن تبدأ انطلاقته من المشرق العربي.

عُين وزيراً للعدل، ووكيلاً لمجلس الدستور، وأميناً عاماً لرابطة علماء المغرب، ومديراً للمعهد الإسلامي بطنجة ومنشئ أول مدرسة حرة بها، وعين رئيسا للمجلس العلمي الإقليمي بطنجة.

● **مؤلفاته وانتاجه الفكري**

خلّف كنون أثراً واضحاً في الدراسات الأدبية، وفي كتابة التراجم، وفي تحقيق المخطوطات، وفي إصدار الصحف والمجلات وإدارتها والإشراف عليها وتزويدها بالمادة المتنوعة الغنية، وفي العمل الأكاديمي والمجمعي، ومن أهم مؤلفاته:

«النبوغ المغربي، مدخل في تاريخ المغرب، معارك، الجيش المجلب على

المدهش المغرب، أربع خزائن لأربعة علماء من القرن الثالث عشر، التعاشيب، أدب الفقهاء».

● **وفاته**

توفي رحمه الله تعالى في التاسع من يوليو عام ١٩٨٩م.

❋ ❋ ❋

آية الإسراء والمعراج

العدد: (٧٩) رجب (١٣٩١هـ) - أغسطس (١٩٧١م).

إن الإسراء والمعراج من معجزات سيدنا محمد العظمى وخصائصه الكبرى، وهما ثابتتان ثبوتا قطعيا لا مجال للشك فيه، بنص القرآن الكريم والأحاديث النبوية الصحيحة، وهذا مما اتفقت عليه الأمة ولم يخالج صدور المؤمنين ريب في حقيقته.

وقد كانا معا في عام واحد، وشهر واحد، وليلة واحدة، هي على المختار ليلة السابع والعشرين من رجب عام اثني عشر من البعثة النبوية وهو ﷺ ابن إحدى وخمسين سنة وتسعة أشهر.

واختلف السلف والعلماء، هل كان ذلك بروحه وجسده على ثلاث مقالات، فمعظمهم على أنه بالجسد وفي اليقظة، وهذا هو الحق، وهو قول ابن عباس وجابر وأنس وحذيفة وعمر وأبي هريرة ومالك بن صعصعة وأبي حبة البدري وابن مسعود والضحاك وسعيد بن جبير وقتادة وابن شهاب وابن زيد والحسن وإبراهيم ومسروق ومجاهد وعكرمة وكثير من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمفسرين.

وذهبت طائفة إلى أنه بالروح فقط، وأنه رؤيا منام، مع اتفاقهم على أن رؤيا الأنبياء وحي وحق، مستدلين بقوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلرُّءْيَا ٱلَّتِيٓ أَرَيْنَٰكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ﴾ (الإسراء: ٦٠)، ولكن استدلالهم بهذه الآية على ما ذهبوا إليه لا يصح، لأن الآية لم يثبت نزولها في الإسراء، بل قيل إن المراد بها رؤيا النبي ﷺ المبشرة بفتح مكة.

ولما كانت الرؤيا في الآية غير نص في الإسراء، أصبحت الآية غير صالحة أن تكون لهم دليلا، فلا تقوم لهم بها حجة على ما ذهبوا إليه، ولو كان الإسراء رؤيا

منام، ما دهش المشركون وملكهم العجب لما سمعوا النبي ﷺ يخبر بذلك، وما سارعوا إلى تكذيبه، وما ارتد ضعفاء الإيمان عند سماع ذلك ورجعوا بعد إيمانهم كفارا.

على أن الرؤيا المنامية لا تستبعد من أي إنسان كائنا من كان، فإذا حدث الناس شخص بأنه رأى في منامه أنه انتقل إلى البلاد الشاسعة والأقطار البعيدة، أو صعد إلى السماء ودخل الجنة، ورأى من العجائب ما لا يخطر ببال، لا يجد من بين سامعيه إنكارا ولا جحودا ولا تسفيها له، ولا تكذيبا، إذ كل ذلك ممكن ومقبول عقلا من غير استبعاد ولا استحالة، فإنكار المنكرين لقول النبي ﷺ لما أخبرهم بما عاين دليل صريح وبرهان واضح على أن الإسراء كان بجسمه وروحه الطاهرين.

وقالت جماعة أخرى كان الإسراء بالجسد يقظة إلى بيت المقدس، وإلى السماء بالروح، واحتجوا بقوله تعالى ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (الأسراء: ١)، فجعل المسجد الأقصى غاية الإسراء الذي وقع التعجيب منه بعظيم القدرة والتمدح بتشريف النبي ﷺ به، وإظهار الكرامة له بالإسراء إليه.

وقال هؤلاء: ولو كان الإسراء بجسده إلى زائد على المسجد الأقصى لذكره، فيكون أبلغ في المدح، وكأن هذا جمع بين القولين، ولكن الاعتماد على القول الأول كما علمنا، والآية لم تشر أصلا إلى زائد على الإسراء إلى المسجد الأقصى لا بجسد ولا بغيره، فكيف يكون ذكر الإسراء إلى السماء دليلا على وقوعه بالروح فقط، وهو إنما استفيد من آية أخرى في سورة النجم، ومن الأحاديث لا غير.

وفوق هذا فإن الرؤيا تكون بمعنى الرؤية في اليقظة، ولا تختص بالنوم كما في قول الشاعر يصف صائدا:

وكبر للرؤيا وهش فؤاده ... وبشر قلبا كان جما بلابله

وقد أصبحت الآن أكثر ما تستعمل في عبارات الأدباء والنقاد بالألف لا

بالتاء، وهم يريدون بها الرؤيا البصرية.

إن الاختلاف في هذا الأمر بين علماء المسلمين، هو في نظرنا دليل على تحكيمهم العقل، حتى في أخص أمور الدين، وإلا فإننا اليوم لا نكاد نشك في أن الإسراء والمعراج معا كانا بذاته الشريفة، وفي حالة اليقظة، وقد رأينا من قدرة الإنسان وتدرعه بما أوتي من علم قليل أنه استطاع أن يخرق الأجواء، ويصل إلى القمر، أفتعجز قدرة الله غير المحدودة وعلمه المحيط أن يعرج بنبيه إلى السماء، ويسري به إلى بيت المقدس في بعض ليلة؟

لقد حكى لنا القرآن من قصة سليمان عليه السلام مع بلقيس، وقول عفريت من الجن له: أنا آتيك بعرشها قبل أن تقوم من مقامك، وقول الذي عنده علم: أنا آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك، حكى لنا القرآن ما فيه مقنع وبلاغ، لأن تكون قضية الإسراء والمعراج، قبل صعود الإنسان إلى القمر بعشرات القرون، قضية لا غرابة فيها بالنسبة إلى قدرة العزيز الحكيم، ولكن النزعة العقلية عند علماء المسلمين، التي كان القرآن نفسه أعظم مذك لها في نفوسهم، جعلتهم يطرقون جميع الاحتمالات فيها مع إيمانهم الراسخ بالمعجزة وصدق المبلغ عن الله عز وجل، حتى الذين قالوا إنها رؤيا منام محض، قد حكموا بأن رؤيا الأنبياء وحي وحق، وذلك هو الخيط الرفيع الذي يفرق بين رؤياه ﷺ ورؤيا غيره من الناس.

وإذا كنا قد ألمعنا إلى الصعود للقمر، على سبيل المثال والتقريب، فلا بد أن ننبه على الفرق العظيم بين المعراج وهذا الصعود، فالأمر هنا لم يخرج عن المدار الفضائي لمجموعتنا الشمسية التي نعيش على ظهر كوكب من كواكبها، أما المعراج فكان إلى السماء الحقيقية، السماء التي ورد ذكرها في كتب الأنبياء جميعا لا السماء اللغوية التي هي ما علا الإنسان، بل السماء التي هي مقر الملائكة والأرواح، وعالم الملكوت المحفوظ من كل إنس وجان، إلا من أكرمه الله بدخوله، فأين الثرى من الثريا؟

ولهذا قال تعالى منبها ذوي العقول لما في هذه الآية العجيبة من الدلالة على عظيم قدرته وبليغ حكمته ﴿سُبْحَٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ﴾ (الإسراء: ١)، وسبحان

علم للتسبيح، والحكمة في التعبير به هنا كما قال ابن الجوزي: أن العرب تسبح عند الأمر العجيب، فكأنه تعالى يعجب خلقه مما أسدى إلى نبيه بالإسراء به من الأيادي والنعم، وأسرى مأخوذ من السرى، وهو سير الليل خاصة، وبعبده، المراد به النبي محمد ﷺ، فهو المتحقق بكمال العبودية لله ﷻ، وبذلك يكون وصف تشريف كما قال القائل:

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

و«ليلا» ظرف وهو للتوكيد، إذ الإسراء لا يكون إلا بالليل، وفائدته رفع توهم المجاز، لأنه قد يطلق على سير النهار، مع الإشارة بتنوينه إلى أن ذلك وقع في بعض الليل لا في جميعه، وإنما كان الإسراء ليلا لأنه وقت الخلوة والاختصاص والتقريب على ما قيل، ﴿مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ (الإسراء: ١)، وهو مسجد مكة ﴿إِلَى ٱلْمَسْجِدِ ٱلْأَقْصَا﴾ (الإسراء: ١)، وهو بيت المقدس، ووصف بالأقصى لبعده عن المسجد الحرام، وذلك محط العجب ومناط الإعجاز﴿ٱلَّذِى بَٰرَكْنَا حَوْلَهُۥ﴾ (الإسراء: ١)، صفة أخرى للمسجد الأقصى، وبركته بما خصه الله به من كونه مقر الأنبياء ومتعبدهم ومهبط الوحي والملائكة، وإنما قال حوله لتكون بركته أعم وأشمل، فإنه إذا بارك فيما حوله من البقاع لأجله، فهو مبارك بطريق الأولى.

والمسجد الأقصى بمدينة القدس من أرض فلسطين، هو أحد المساجد الثلاثة التي لا تشد الرحال إلا إليها، وهو أولى القبلتين، ومسرى النبي ﷺ ومكان عروجه، والصلاة فيه بألف صلاة، كما في الحديث الذي أخرجه أحمد وأبوداود وابن ماجة، وفيه: «ائتوه وصلوا فيه، فإن صلاة فيه بألف صلاة»، وفي رواية لأحمد عن بعض نسائه ﷺ أنها قالت يا رسول الله: «فإن لم تستطع إحدانا أن تأتيه، قال: فلتبعث إليه زيتا يسرج فيه، فإن من بعث إليه بزيت يسرج فيه كان كمن صلى فيه».

ومهما يكن من درجة هذه الرواية وصحة اعتبارها فإن المسلمين اليوم قد أضاعوا القدس بتهاونهم وتخاذلهم، وقد مرت على سقوطه في أيدي الصهاينة

سنوات أربع، وهي في نظر الغُيَّر من أهل الإسلام بمثابة أربعين سنة، وبضياع القدس بطلت زيارة المسجد الأقصى والصلاة فيه على سبعمائة مليون مسلم، فأقل ما يجب على المسلمين لاسترداده أن يبذلوا المال للفدائيين والفئة المؤمنة القائمة بالجهاد لرفع السيطرة الصهيونية عنه، فلو بعث كل من كان يزور القدس من المسلمين وخصوصا الحجاج، بما كان يصرفه في سبيل زيارته من مال إلى من ذكرنا لحصل له ثواب الزيارة والصلاة على حسب ما جاء في هذا الحديث، ولأسهم في إنقاذه بحسب وسعه، وما أصدق ما قال المشركون لسلمان: لقد علمكم نبيكم كل شيء، فياحسرتا على المسلمين! كيف فرطوا في دينهم وتعاليمه التي بها نجاتهم، وتمسكوا بالأوهام والأضاليل، ثم قال تعالى ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، أي لنظهره على عجائب قدرتنا، وبدائع حكمتنا، أو يكون المعنى لنرفعه إلى السماء حتى يرى ما يرى من آياتنا الباهرة، فتكون في الآية إشارة إلى عروجه ﷺ وخصوصا إذا جعل معاد الضمير في قوله ﴿إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ (الإسراء: ١)، عليه ﷺ، كما قيل به والمعنى أنه هو السميع لكلامنا البصير لآياتنا.

ومن هنا ينصرف بنا القول إلى المعراج، وقد ألمت به سورة النجم في الآيات الكريمة القائلة: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩﴾ (النجم: ١-٩).

ونأتي بالحديث المفسر لها، ولقضية الإسراء معا، ففيه غنى، وهو ما أخرجه مسلم من طريق ثابت البناني عن أنس رضي الله عنه وقال فيه القاضي عياض: جود ثابت رحمه الله هذا الحديث عن أنس ما شاء، ولم يأت أحد بأصوب من هذا، قال أنس: قال رسول الله ﷺ: أتيت بالبراق، وهو دابة أبيض، طويل فوق الحمار، ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، قال: فركبته حتى أتيت بيت المقدس، فربطته في الحلقة التي يربط بها الأنبياء، ثم دخلت المسجد فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت، فجاءني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن، فاخترت اللبن، فقال

جبريل اخترت الفطرة، ثم عرج بنا إلى السماء فاستفتح جبريل، فقيل له: من أنت؟ قال جبريل، قيل من معك؟ قال محمد. قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثانية، فاستفتح جبريل، فقيل: من أنت؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك. قال: محمد قيل: وقد بعث إليه؟ قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فإذا أنا بابني الخالة، عيسى ابن مريم ويحيى بن زكريا فرحبا بي ودعوا لي بخير.

ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة فذكر مثل الأول، ففتح لنا فإذا أنا بيوسف عليه السلام واذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، وذكر مثله، فإذا أنا بإدريس عليه السلام، فرحب بي ودعا لي بخير، قال تعالى ﴿وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾، ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة فذكر مثله، فإذا أنا بهارون، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة، فذكر مثله، فإذا أنا بموسى، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السابعة فذكر مثله، فإذا أنا بإبراهيم، مسندا ظهره إلى البيت المعمور، وإذا يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون إليه، ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، وإذا ورقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال.. قال: فلما غشيها من أمر الله ما غشي، تغيرت فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، فأوحى الله إلى ما أوحى، ففرض علي خمسين صلاة في كل يوم وليلة، فنزلت إلى موسى، فقال: ما فرض ربك على أمتك، قلت: خمسين صلاة، قال ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فإن أمتك لا يطيقون ذلك، فإني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال فرجعت إلى ربي، فقلت يارب خفف عن أمتي، فحط عني خمسا، فرجعت إلى موسى، فقلت: حط عني خمسا، قال: إن أمتك لا يطيقون ذلك، فارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، قال فلم أزل أرجع بين ربي تعالى وبين موسى حتى قال: يا محمد إنها خمس صلوات في كل يوم وليلة، فكل صلاة عشر، فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة، فإن عملها كتبت له عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شيئا، فإن عملها كتبت سيئة واحدة، قال:

فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فاسأله التخفيف، فقال رسول الله ﷺ رجعت إلى ربي حتى استحييت منه.

فهذا الحديث قد جمع قصتي الإسراء والمعراج معا، واستوفاهما أحسن استيفاء، واستوعبهما بيانا، وإن كان قد خلا من بعض الزيادات التي ثبتت في غيره مما هو أقصر منه، ولا تخلو من فائدة.

ومنها شق صدره الشريف قبل الإسراء، وقد ثبت في الصحيح، فلا عبرة بمن أنكره، قائلا إن ذلك كان في صباه ﷺ فذاك كان لإخراج حظ الشيطان منه، وهذا للتهيؤ لدخول الملأ الأعلى، ومنها صلاته بالأنبياء في بيت المقدس، قبل أو بعد العروج على اختلاف الروايات في ذلك، مثلوا له، وصلى بهم ركعتين، ولعلهم الأنبياء الذين لم يلقهم في السماء، وإن كان لفظ الحديث يدل على العموم، وقد تكرر ذكر هذه الكرامة في شعر المديح كقول العلامة اليوسي:

وتقدمت للصلاة فصلوا   كلهم مقتد وأنت الإمام

ومنها أنه لما أتاه الملك بالخمر واللبن، اختار اللبن وقال له: اخترت الفطرة، زاد: ولو شربت الخمر لغوت أمتك ولم يتبعك منهم إلا القليل، وكفى بهذا ذما للخمر وردعا لشاربيها.

ومنها أنه لما لقي إبراهيم في السماء السابعة، قال له: مرحبا بالابن الصالح، وقال له: مر أمتك أن يكثروا من غراس الجنة، فإن تربتها طيبة، قال: وما غراس الجنة، قال: لا حول ولا قوة إلا بالله.

ومنها في وصف سدرة المنتهى: إنها في السماء السابعة، إليها ينتهي ما يعرج به من الأرض فيقبض، وإليها ينتهي ما يهبط من فوقها فيقبض منها.

ومنها أنه قال: ثم عرج بي حتى ظهرت بمستوى أسمع فيه صريف الأقلام، أي صوت حركتها، جارية بما تكتب من القضاء والقدر.

وقوله فيه: وقد بعث إليه؟ أي للعروج إلى السماء، وأما بعثته أي رسالته إلى أهل الارض فإنها لا تخفى على أهل السماء.

والحكمة في تردده للتخفيف من عدد الصلاة بين موسى والحق سبحانه

وتعالى، تقدير ذلك الفضل العظيم والعطاء الجسيم الذي أتحفه به ﷻ، وهو كون الحسنة بعشر أمثالها، والسيئة بواحدة فقط، بصورة عملية محسوسة، ليكون ذلك أدعى لتقديره، والاعتراف بواسع كرمه تعالى، وجزيل ثوابه لعباده المؤمنين.

ثم إنه ﷺ رجع من ليلته، فلما أصبح غدا إلى نادي قريش، فحدثهم بأمره، فصاروا بين مصفق وواضع يده على رأسه تعجبا وإنكارا، وارتد أناس ممن كان آمن به من ضعاف النفوس، وسعى بعضهم إلى أبي بكر فقال له: أرأيت إلى صاحبك، يزعم أنه أسري به إلى بيت المقدس ورجع في ليلته! فقال: إن كان قال ذلك لقد صدق، قالوا: وكيف؟ قال إني لأصدقه على أبعد من ذلك، على خبر السماء في غدوة وروحة، فسمي من ذلك اليوم الصديق.

وقوله تعالى في سورة الإسراء: ﴿لِنُرِيَهُۥ مِنْ ءَايَٰتِنَآ﴾ (الإسراء: ١)، وفي سورة النجم ﴿لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِ ٱلْكُبْرَىٰٓ ﴿١٨﴾﴾ (النجم: ١٨)، هو مما يصدق بما تقدم من معجزة الإسراء نفسها، ومعجزة المعراج، وما رآه فيهما من الآيات والعجائب، وناهيك بمقام القرب والدنو، وما غشي سدرة المنتهى مما عبر عنه بقوله: فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت فما أحد يستطيع أن ينعتها من حسنها.. وما كان بعد ذلك من الوحي كفاحا دونما زيغ من البصر ولا طغيان، كما قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴿١٧﴾﴾ (النجم: ١٧).

وإلى ذلك فقد وردت في بعض روايات الحديث أشياء ومشاهد أخرى، مما رآه في ليلته تلك، ومجرد وصفها يدل على صدقها، إذ إنها من عالم الغيب الذي سكتت عنه جميع الكتب والصحف، وخرست ألسنة الحكماء والفلاسفة.

ومن ذلك أنه أتى على قوم يزرعون في يوم ويحصدون في يوم، كلما حصدوا عاد كما كان، فقال يا جبريل، ما هذا؟ قال هؤلاء المجاهدون في سبيل الله تضاعف لهم الحسنة بسبعمائة ضعف، وما أنفقوا من شيء فهو يخلفه.

ثم أتى على قوم ترضخ رؤوسهم بالصخر كلما رضخت عادت كما كانت، قال يا جبريل: من هؤلاء؟ قال: الذين تثاقلت رؤوسهم عن الصلاة.

ثم أتى على قوم على أقبالهم رقاع وعلى أدبارهم رقاع يسرحون كما تسرح

الإبل والنعم، ويأكلون الضريع والزقوم، ورضف جهنم، قال ما هؤلاء يا جبريل؟ قال: هؤلاء الذين لا يؤدون صدقة أموالهم.

ثم أتى على قوم بين أيديهم لحم نضيج طيب، ولحم آخر نيء خبيث، فجعلوا يأكلون من النيء الخبيث، ويدعون النضيج الطيب، قال ما هؤلاء؟ قال: الزناة.

ثم أتى على خشبة في الطريق لا يمر بها ثوب إلا شقته ولا شيء الا خرقته، قال: ما هذا يا جبريل؟ قال: هذا مثل أقوام يقعدون على الطريق فيقطعونه، ثم تلا: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ (الأعراف: ٦٨).

إلى آخر ما في هذا الحديث، وهو مما رواه البيهقي عن أبي هريرة. ونقدم ما فيه من وعد وجزاء حسن، هدية إلى إخواننا المجاهدين من أهل فلسطين، وما فيه من وعيد ومثال سيء إلى عملاء العدو وحلفاء الصهاينة، الذين يعملون على تصفية الثورة الفلسطينية بالقول أو الفعل، فإن الصد في الآية الكريمة حسي ومعنوي.

وبعض هذه الأحاديث، وإن لم يرتق إلى درجة الصحة، فإنه عامل في الترغيب والترهيب، كما تقرر عند العلماء، وقد كانت أحاديث المعراج نبعا ثرا، استقى منه حتى الأدب الأجنبي، ومن أعظم الأمثلة على ذلك ما تضمنته قصة الكوميديا الإلهية لشاعر إيطاليا دانتي الليجيري من أوصاف ومناظر تكاد تنطق بأنها مقتبسة من المصادر الإسلامية، والأحاديث النبوية، بالخصوص، الواردة في هذه المعجزة، فما أعظم الإسلام، وأوسع رسالته التي لم يبق أحد لم ينل من خيرها، حتى من يكفرون بها!.

ونسأله تعالى أن ينفحنا بروح من عنده، تعمر من هممنا ما خرب، وتجدد من مآثرنا ما دثر، وتحيي من قلوبنا ما مات، وتبعث من عزائمنا ما خمد، حتى تنتبه لعمل ما فيه صلاحنا وفلاحنا، معاشا ومعادا، دينا ودنيا، والله ولي التوفيق.

* * *

مدرسة الإحسان

العدد (٨١) رمضان (١٣٩١هـ) - أكتوبر (١٩٧١م).

قيل إن العرب لما نقلوا أسماء الشهور عن اللغة القديمة سموها بالأزمنة التي وقعت فيها، فوافق شهر رمضان أيام رمض الحر، فسمي بذلك.

وسواء صح هذا أم لم يصح، فمعنى المادة التي اشتق منها ذلك الاسم يصححه، فإن الإسلام قد جعل لهذا الشهر رمض حر معنوي لا يفارقه مدى السنين، ولو جاء في أشد الأوقات بردا وقرًّا، وذلك هو الصيام الذي افترضه الله على المؤمنين وجعلهم يرتمضون فيه بحر الجوع ليذوقوا مما يذوقه الفقراء والمساكين في كل شهر، لا في شهر رمضان فقط فيواسوهم ويحسنوا إليهم في شهر رمضان وفي كل شهر آخر، لأن الإحساس بالجوع غير وصفه، والشعور بالخصاصة غير الخبر عنها.

وقد يكتب الكتاب ويعظ الواعظون في الحض على المواساة والإحسان إلى الفقراء والمساكين، ولكنهم لن يبلغوا من النفس البشرية ما يبلغ منها صيام يوم واحد، وتجويعها على النحو الذي أمر به الشارع في شهر رمضان للرياضة والتربية، لا للتطبيب والاستجمام.

والصيام وإن كانت له فوائد صحية لا تنكر، ويصح أن يكون الشارع قصدها فيما قصد إليه من فرض هذا الركن العظيم من أركان الإسلام، ولكن مسألة الإحسان هي منه في الطليعة، وربما كانت هي المرادة منه بالقصد وبالذات، ألا ترى إلى ما روي في الصحيح من أنه ﷺ كان أجود الناس، وأجود ما يكون في رمضان، حين يلقاه جبريل فيذاكره بالقرآن، فالرسول ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة.

وكيف لا يكون الرسول ﷺ أجود الناس وهو الذي بعث ليتمم مكارم الأخلاق؟ وكيف لا يكون أفضل أكوانه بالنسبة إلى الجود في رمضان، وقد اجتمعت فيه ثلاثة دواع كل واحد منها كاف لمضاعفة أثر ذلك الخلق الكريم، وهي الصيام، ولقاء جبريل، ومذاكرة القرآن؟

فالصيام عامل طبيعي لإثارة عاطفة الإحسان بسبب ما يشعر به الصائم من الحرمان الذي يعيش فيه الفقراء دائمًا، ويستوي فيه الرسول ﷺ وغيره، إلا أن أثره فيه ﷺ أعظم من غيره، ولقاء جبريل هو صلة مباشرة بالملأ الأعلى يصفو معها جوهر النفس وتسمو معنوياتها إلى أبعد حد ممكن لبشر. ومذاكرة القرآن، وهو معدن الأسرار والأنوار، لا تأتي إلا بأعظم النتائج في باب التخلق لعموم الناس، فأحرى بالرسول الكريم ﷺ.

وعلى كل حال فالغاية من الجميع هي الجود، وذلك ما يجعل من رمضان مدرسة إحسان، يتخرج فيها ملايين المحسنين كل عام، من الصائمين الذين يكونون على قدم الرسول ﷺ في الاتصاف بالجود أيام السنة كلها وفي أيام رمضان أكثر.

ومما يدل على أن فرض الصيام حكمته معالجة آلام الحرمان بالفعل، لتربية عاطفة الإحسان في الإنسان، ما روي في الصحيح أنه ﷺ قال «بينما رجل يمشي بطريق، اشتد عليه العطش، فوجد بئرًا فنزل فيها فشرب، ثم خرج فإذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش، فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذي كان بلغ بي، فنزل البئر فملأ خفه ثم أمسكه بفيه فسقى الكلب، فشكر الله له فغفر له».

فهذا الحديث يرشد إلى أن الحرمان يولد العطف، والعطف يبعث على الإحسان، فما شعر بما يجده المحروم من ألم نفسي وبدني إلا من حرم مثله من لذاته ومشتهياته، وإذ ذاك ترق عاطفته ويسخو بما لم يكن يسخو به من قبل هذا التمرين.

ولو لم يوخذ هذا الرجل بتجربة العطش الشديد الذي حمله على النزول في البئر، لما رق قلبه لذلك الكلب ولو رآه مندلع اللسان من العطش، فكذلك يكون

الذي عانى الصيام شهرًا في كل عام، إذا رأى جائعا أو عطشان أو محرومًا من ضرورية من ضروريات العيش على العموم، ولعل هذا هو ما يفسر قوة عاطفة الإحسان الفردي عند المسلمين برغم تخلفهم في ميادين الإحسان العام لضعف تربيتهم الاجتماعية والسياسية.

على أن هذا المعنى الذي ذكرنا أنه المقصود الأهم من الصيام وهو تنمية عاطفة الإحسان، وقد وقع التصريح به في حديث سلمان ﷺ قال: خطبنا رسول الله ﷺ في آخر يوم من شعبان فقال «يأيها الناس قد أظلكم شهر عظيم مبارك، فيه ليله خير من ألف شهر، شهر جعل الله صيامه فريضة، وقيام ليله تطوعًا، وهو شهر الصبر وشهر المواساة، من فطَّر فيه صائمًا كان مغفرة لذنوبه وعتق رقبته من النار» (رواه ابن خزيمة في صحيحه).

ولا معنى لكونه شهر المواساة إلا هذا بدليل ما بعده من الحض على تفطير الصائم الذي لا يجد ما يفطر عليه، وناهيك أن كتاب الله العزيز لما عذر العاجز مطلقا عن الصيام لم يجعل له مندوحة من إطعام المساكين.

وتختم هذه الدروس التي تدوم شهراً كاملاً بامتحان جعله الشارع علامة النجاح في هذه المدرسة الإحسانية العظيمة، وهو زكاة الفطر التي ورد في الصحيح أنها طهرة للصائم من اللغو والرفث، وروي أنه ﷺ قال «صوم رمضان معلق بين السماء والأرض لا يرفع إلا بزكاة الفطر».

فختمت دروس الإحسان بامتحان عملي في الإحسان، مما لا يبقى معه شك في أن رمضان ما هو إلا مدرسة للإحسان.

إن الصيام مواساة وإحسان قضى بذلك قرآن وبرهان
نِعمَ الصيام مع المعروف تبذله وليس فيه مع الحرمان حرمان

* * *

المعراج
رحلة إلى السماء

العدد (٩١) رجب (١٣٩٢هـ) - أغسطس (١٩٦٧م).

كان الكلام في المعراج، مع المؤمنين طبعاً، يقتضينا البحث في أدلته، وإمكانيته، وصفته، والآيات الكبرى التي شاهدها النبي ﷺ في عروجه، والمغزى العظيم الذي ينكشف عنه هذا الحدث العجيب، من حيث ثبوت المعجزة، وصدق الرسالة، وأثر القدرة الباهرة التي لا يمتنع عليها شيء.

والآن بعد ريادة الفضاء، والرحلة إلى القمر، أصبحنا في كلامنا على المعراج، بحاجة إلى رفع الالتباس عند بعض المؤمنين الذين ظنوا أن الصعود إلى القمر، صعود إلى السماء، ومن ثم فإن منهم من وقع في شبهة عقائدية، ومنهم من أحالوا وقوعه، وجزموا بأن كل ما يقال عن الرحلات الفضائية، إنما هو دعاية كاذبة وزعم باطل.

وقد كنت أدليت بحديث إلى وكالة المغرب العربي للأنباء، بمناسبة نزول مركبة أبوللو ١١ فوق سطح القمر سنة ١٩٦٩ حول نظر الإسلام في هذه القضية جاء فيه: ليس في الإسلام ما يعارض صعود الإنسان إلى القمر، وليس في وصول الإنسان الى القمر ما يناقض أي تعليم من تعاليم الإسلام.

ذلك أن القمر ما هو إلا كوكب من كواكب مجموعتنا الشمسية السابحة في الفضاء، والوصول إليه كالوصول إلى أميركا ذلك الجزء من كوكبنا الأرضي الذي بقي مجهولا للإنسان آلافا من السنين.

والالتباس الذي يقع في أذهان بعض الناس إنما يجيء من الاشتراك في لفظ السماء بين مدلولها اللغوي ومدلولها الغيبي أي الديني، فالسماء في اللغة هي كل ما علاك، ومنها الكواكب السيارة مثل الشمس والقمر، وفي الدين هي عالم

الملكوت المحفوظ المحروس مقر الملائكة والعرش، والذي لا يصل إليه ولا يدخله إلا من أكرمه الله بذلك، وهو الذي عرج إليه نبينا محمد ﷺ وعاد منه، ليلة السابع والعشرين من رجب السنة الثانية عشرة بعد النبوة، فأين هذا من السماء اللغوية التي معناها المكان العالي لا غير؟

ومع هذا فإن صعود الإنسان إلى القمر، مأثرة علمية جليلة، وهي مما يستدل به على صحة وقوع المعراج، وهكذا نرى العلم دائما يسير في ركاب الدين.

ومن المعلوم أن السموات في النصوص الدينية سبع، مثل الأرضين، وهي من خلق الله وصنعه، ويجب الإيمان بها كما نؤمن بعالم الغيب وإن لم نره، ولا يصح تنزيلها على هذه الكواكب المشاهدة من عالمنا الأرضي المعروف، فالكون غير محصور في هذا العالم، والعلم لم يحط بهذه الكواكب، فكيف بالكون كله؟ وفي عالم المجرة وحده ما حير عقول العلماء، علماء هذا العصر، والمختصين منهم بالدراسات الفلكية قبل غيرهم.

وقد روي عن ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ (الطلاق: ١٢) أنه قال لو حدثتكم بتفسيرها لكفرتم، وكفركم تكذيبكم بها، ولعله أشفق عليهم من أجل أن عقولهم لم تكن لتتصور عظمة هذا الكون وسعته، بالنسبة إلى ما كان عندهم إذ ذاك من علم قليل بهذه الشؤون.

وإذا كان هذا العصر على ما بلغ إليه من رقي في العلوم الكونية ما يزال يتعثر في الاتصال بأحد الكواكب السابحة في الفضاء، فضائنا الأرضي المعدود والمحدود بغاية الدقة، فما بالنا بآلاف، بل ملايين النجوم والكواكب، بل المجموعات الشمسية والأفلاك التي لا يحصي عددها إلا خالقها؟ فما بالنا بالسموات السبع والأرضين السبع التي لا نعلمها إلا غيبا، ولا نعرفها إلا وحيا؟

ولئن قال بعض علمائنا إن المراد بالسموات السبع طرائق السيارات ومداراتها، وقالوا في الأرضين السبع إنها السبعة الأقاليم، فإن مما ينقض هذا القول أنه ثبت علميا وجود سيارات أخرى، غير السيارات السبع المعروفة

كأورانوس ونبتون، وأن الأقاليم السبعة لا يصح أن يقال في كل واحد منها أنه أرض إلا على ضرب بعيد من المجاز.

على أن النصوص المتواترة تفيد أن خلق السموات هو من قبيل البناء والتشييد ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيۡنَٰهَا بِأَيۡيْدٖ﴾ (الذريات: ٤٧)، ﴿وَبَنَيۡنَا فَوۡقَكُمۡ سَبۡعٗا شِدَادٗا ۝١٢﴾ (النبأ: ١٢)، حتى إن العلماء يتطرقون إلى إمكانية الخرق والالتئام، عند الكلام على المعراج، فأين هذا من اعتبار طرائق السيارات ومداراتها هي السموات، بل جعلها هي هذه الكواكب، مع أن الكواكب إنما هي زينة للسماء الأولى ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِزِينَةٍ ٱلۡكَوَاكِبِ ۝٦﴾ (الصافات: ٦).

وعلى كل حال فإن المعراج كان رحلة إلى السماء، السماء الحقيقية بالمعنى الشرعي، أي باعتبار الحقيقة الشرعية، لا السماء اللغوية التي هي كل ما علاك، وهي رحلة فريدة في تاريخ الإنسانية لم تقع لبشر حي من غير خلاف، إلا لنبينا محمد ﷺ، ولن تقع لأحد بعده على الإطلاق.

والريادة القمرية إنما هي استكشاف فضائي، وفي عالمنا الأرضي، لا يعدو أن يكون مثل استكشاف أميركا واستراليا على ظهر البسيطة، بعدما بقيتا مجهولتين لنا آلاف السنين كما قلنا في الاستجواب المشار إليه من قبل.

ومن الغرور أن يعتقد أحد رواد الفضاء، وهو الرائد السوفياتي الأول يوري جاجارين، أنه صعد إلى السماء وأنه لم ير الله هناك، فإن مجرد الزمان الذي يقضيه الرواد في الرحلة إلى القمر، وقياسه بالزمان الذي قضاه الرسول ﷺ في معراجه، مما يبين الفرق العظيم بين الرحلتين، وهذا بقطع النظر عن نهايتي الرحلة: القمر والسماء، السماء التي قدر القرآن بعدها من الأرض بخمسين ألف سنة ﴿تَعۡرُجُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَٱلرُّوحُ إِلَيۡهِ فِي يَوۡمٖ كَانَ مِقۡدَارُهُۥ خَمۡسِينَ أَلۡفَ سَنَةٖ ۝٤﴾ (المعارج: ٤)، فهذه المسافة التي تكاد لا تتصور، قد قطعها الرسول الكريم في سويعات من ليلة، مع ما صحبها من الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

فتبارك الله ما أعظم قدرته، وأجل حكمته!

وأختم هذه الكلمة بقصيدة رجزية كنت قلتها لما قال جاجارين كلمته النكراء

آنفة الذكر:

وقال رائد الفضا من جهله ... ما إن رأيت الله في السماء
أي سماء رادها وهل درى ... أن السما ليست من الفضاء
وهل درى بأنه سبحانه ... ما إن يرى بهيكل الفناء
قال لموسى الطهر لن تراني ... فكيف بالحصاد والبناء
وهل درى أن السماء لم تكن ... قط مكان الله ذي السناء
فالله فوق عرشه قد استوى ... وأين عرشه من الأجواء
وقد نهى نبينا محمد ... فيما روى عنه ذوو الأنباء
عن المفاضلة بين من رقى ... إلى السما ومن هوى في الماء[1]
فإن ربنا تعالى معنا ... بعلمه المحيط بالأشياء
في كل ما أينٍ نكون فيه ... وكل ماء آنٍ من الآناء
يا زلة ما إن لها إقالة ... وهل لداء الهذر من دواء؟
فقسما لو أن «لايكا» نطقت ... لما أتت بهذه العوراء[2]

* * *

(١) إشارة إلى الحديث: لا تفضلوني على يونس بن متى.

(٢) العوراء: الكلمة الشنيعة، ولايكا هي الكلبة التي كانت أول مخلوق أرضي حي نزل على القمر.

٣١ مقالات

الشيخ أبي الحسن الندوي

- ترجمة الشيخ
- المقالات:

١- القرآن بين الإيمان والتطبيق.

العدد (٨٤) ذو الحجة (١٣٩١هـ)- كانون الثاني (١٩٧٢م).

٢ - محطم الأقفال.

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).

٣- كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم.

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - أكتوبر (١٩٧٢م).

٤- دور الإسلام في العصر الحديث.

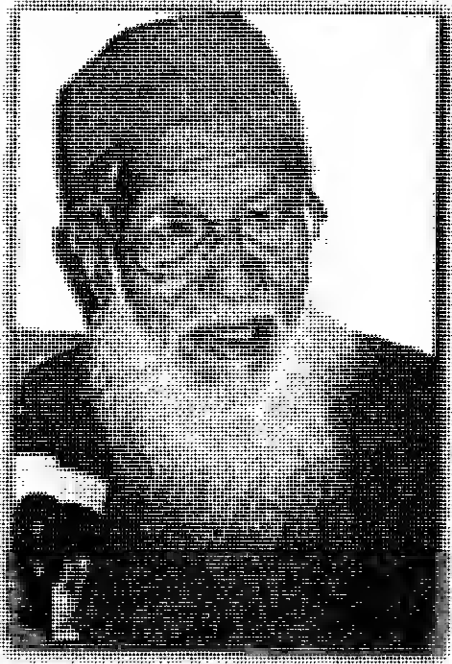
العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٩هـ) - سبتمبر (١٩٧٨م).

٥- الدعوة إلى الله وبعض سماتها.

العدد (١٦٩) محرم (١٣٩٦هـ) - ديسمبر (١٩٧٨م).

ترجمة الشيخ

أبو الحسن الندوي



• مولده ونشأته

هو عليٌّ أبو الحسنِ بنُ عبد الحي بن فخر الدين الحسني المعروف بأبي الحسن الندوي.

ولد بقرية تكية، مديرية رائي بريلي، الهند عام ١٣٣٢هـ - ١٩١٣م.

أبوه علامة الهند ومؤرِّخُها السيد عبدالحي بن فخر الدين الحسني صاحب المصنَّفات المشهورة.

بدأ رَحِمَهُ اللَّهُ تعلُّمَه للقرآن الكريم في البيتِ تُعاوِنُه أمُّه، ثم بدأ في تعلُّم اللغتَينِ الأرديةَ والفارسيةَ، وتعلُّم العربية على الشيخ خليل بن محمد الأنصاري اليماني وتخرَّج عليه، ثم تعلم وأتقن اللغة الإنجليزية.

تَعيَّن مُدَرِّساً في دار العلوم لندوة العلماء عام ١٩٣٤م، وقام بتأسيس مركزا للتعليمات الإسلامية عام ١٩٤٣م، ونظَّم فيها حلقاتِ درسٍ للقرآن الكريم والسنَّة النَّبوِيَّةِ، اختير عضواً في المجلس الانتظامي أو الإداري لندوة العلماء عام ١٩٤٨م، وعُيِّن وكيلا لندوة العلماء للشؤون التعليمية.

دُعِي أستاذاً زائِراً في جامعة دمشق عام ١٩٥٦م

ألقى محاضرات في الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، وفي غيرها.

• أهم مؤلفاته

«سيد أحمد شهيد، القراءة الراشدة، ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، وضع منهاج لطلبة الليسانس في التعليم الديني أسماه إسلاميات، رجال الفكر والدعوة، - فيما بعد- إلى كتابه الكبير رجال الفكر والدعوة في الإسلام» وغيرها،

وشارك في تحرير العديد من المجلات كالضياء، والندوة.

تم اختياره كعضو ورئيس في العديد من الجامعات والهيئات العالمية كجامعة أكسفورد وجامعة كشمير ومنح درجة الدكتوراه الفخرية منها، ومنح جائزة الشخصية الإسلامية لعام ١٩٩٨م.

- **وفاته**

يوم الجمعة ٢٣ رمضان ١٤٢٠ هـ الموافق ٣١ ديسمبر ١٩٩٩م، ودفن بالهند.

* * *

القرآن بين الإيمان والتطبيق

العدد (٨٤) ذي الحجة (١٣٩١هـ) - يناير (١٩٧٢م)

إن الله ﷻ لما أنزل كتابه على آخر أنبيائه ﷺ أنزله معلنا بأنه أكمل دينه، ولن يبعث بعد ذلك نبيا جديدا ولن ينزل كتابا جديدا من عنده، وهذا الإعلان نفسه يتضمن حقيقة ناصعة هي أن القرآن هداية ثابتة خالدة لكافة النوع البشري في جميع الأزمنة والأمكنة، إذ لو ثبت أن هدايته غير كافية أو أصبحت مفتقرة إلى الإكمال والتنمية في عصر من العصور أو في قطر من الأقطار أو في وضع من أوضاع المجتمع الإنساني لكان يعني ذلك عدم صحة ما أعلنه الله، ومعاذ الله سبحانه وتعالى عن أن يكون في كلامه شائبة من الخطأ، ولأجل ذلك يجب علينا، كمسلمين، أن نقرر في كل شأن من شؤون حياتنا، كنقطة الانطلاق، أن هذا الكتاب هو المصدر الحقيقي للهداية نستمد منه كل ما نحتاج إليه من التوجيه.

والسؤال عن «نقطة الانطلاق» هذا هو الموضوع الوحيد الذي له أهمية بالغة اليوم بالنسبة لجميع أهل العلم والرأي من المسلمين في أنحاء العالم، وإن كانت مهمتنا الرئيسية تتركز على أن ندعو الدنيا إلى هداية الله، إلا أنه من سوء حظنا أن السيطرة الشاملة للحضارة المادية في العصر الحاضر أثارت فينا معشر المسلمين تساؤلا: هل حقا نعتبر القرآن مصدرا حقيقيا للهداية في جميع شؤوننا للحياة؟

وإذا اعتبرناه كذلك، فهل نعتبر جادين مخلصين؟ وإننا مادمنا لا نجيب على هذا السؤال في حد أنفسنا لا نستطيع أن نحقق مهمتنا العالمية التي كلفنا بها كأمة أخرجت للناس.

إن هناك عناصر في الطبقات التي بيدها أزمة التوجيه والقيادة لا تعتبر القرآن مصدرا للهداية في الحقيقة، أو تشك فيه على الأقل.

فهؤلاء يفتقرون إلى دلائل تقنعهم على أن الإنسان كائن لا مندوحة له من هداية الله تعالى، وأن القرآن كتاب منزل منه سبحانه، وهو كتاب شامل مأمون يحتوي على توجيه خالد أبدي.

وهناك أناس آخرون سولت لهم أنفسهم الفكرة القائلة بفصل الدين عن الدنيا، وكل فرد منهم يجعل هداية الله مقصورة في إطار تصوره المحدود للدين. ولن تزول شبهات هؤلاء القوم مادامت لا تواجه ضربة قاضية على فكرة فصل الدين عن الدنيا، ومادام لا يثبت بدلائل ناصعة قوية كون الإنسان في حاجة إلى هداية الله، في جميع شؤون حياته، وكون القرآن كتابا يهدي إلى سواء السبيل في جميع شؤون الحياة من أصغرها إلى أكبرها.

وهناك نوع ثالث من الناس يقرون بشمول هداية القرآن وكماله وخلوده إلا أنه لما ينشأ السؤال حول استمداد الهداية منه، رأينا بعضهم يلتفت إلى مصادر غير القرآن يستورد منها الأفكار والمبادئ، ثم يكرس جهوده في جعل القرآن يؤيدها ويصادق عليها، ورأينا بعضهم يحاول أن يستخرج من القرآن التعاليم التي تصل إليها عقليته هو من خلال ألفاظ القرآن، لا بقطع صلة القرآن بسنة الرسول ﷺ فحسب، بل بصرف النظر عما حققه علماء هذه الأمة وفقهاؤها ومفسروها من أعمال جسيمة في شرح معاني القرآن واستنباط الأصول والفروع من تعاليمه، وهذه الاتجاهات في باب الارتشاف من النبع الإلهي لا تجد أي رجل عنده حظ من العقل أن يراها صورة صحيحة سليمة من الاستنارة بنور الهدى الإلهي، كما لا يمكن أن ينشأ على أساسها نظام موحد من الفكر والعمل للأمة الإسلامية، لأنه من المستبعد أن يقبل ضمير الأمة هذا النوع من التفسير في جانب، وفي الجانب الآخر لا يمكن أن يجمع هذا النمط من المفسرين على تفسيراتهم، ولن يتولد من ازدهار هذه الاتجاهات إلا المزيد من الخلافات في الأمة المسلمة وإثارة شبهات وعقد جديدة في أذهان المسلمين نحو دينهم وكتابهم، وبدل أن يلعبوا دورهم العظيم في دعوة الناس إلى هداية الله يصبحون هم أنفسهم ضحية الحيرة والتخبط في حقيقة هداية الله نفسها، وليس من العلاج لما يعاني هؤلاء القوم في باب

القرآن، أن يوجه إليهم الطعن أو التقريع أو التأنيب، بل إنهم- في الحقيقة- يحتاجون إلى من يرشدهم إلى الطريق القويم للاستفادة من هداية القرآن بوسائل وبراهين معقولة، ويكشف لهم خطأ الطريق الذي يسلكونه في هذا الشأن.

والذين قد ضنت بهم رحمة الله من أن يقعوا في هذه الزلات ينشأ السؤال في شأنهم أيضا، وهو: إلى أي مدى هم جادون في اعتبار القرآن مصدرا حقيقيا للهداية؟ ولا يقتصر معنى «الجدية» في هذا الصدد أن نكون مخلصين في إيماننا بالقرآن ككتاب للهداية فقط، أو أن نكتفي بإعلان هذا الإيمان والبوح به، بل الذي يقتضيه كوننا جادين كل الجدية في هذا الباب أن نرجع إلى هذا المصدر في كل ما يتعلق بحياتنا الفردية والجماعية في واقع الأمر، وأن نفرغ فعلا أخلاقنا وسلوكنا في الحياة، وقوانيننا وحضارتنا، ونظمنا للتعليم والتربية، ونظمنا للاقتصاد والسياسة في قوالب الهداية التي يأخذ بنا القرآن إليها. والذي أشعر به وأشاهده: أنه ينعدم هذا المستوى من الجدية في طبقات تتولى أمر هذه الأمة مع كونهم على اعتقاد صحيح بالقرآن، أو لا تصل هذه الجدية المستوى المطلوب إن لم ينعدم فيهم كليا، وعلينا أن نستنفد جهدنا، قبل كل شيء في خلق الجدية هذه فيهم، لأنه مادامت لا تولد فلا تعدو جميع بحوثنا العملية، في تطبيق تعاليم القرآن في مسائل الحياة، حبرا على الورق حيث لا تجدي بشيء في دنيا الواقع. وأن الدنيا لن تقتنع أبدا بحقيقة الإسلام من خلال البحوث التجريدية الفارغة بل لابد من إقناعها بذلك من أن يتمثل الإسلام في حياتنا القومية الواقعية، وبدون ذلك مهما بذلنا جهودنا في تبليغ الإسلام لا تجد الدنيا أمام أعينها إلا علامة الاستفهام التي تنم عن تساؤل: هل إن هذه الأمة التي لا يتجاوز دينها حدود المساجد، والتي تتبع مبادئ الأجانب وأفكارهم، وتنتهج نهجهم في الحضارة والتشريع والتصورات للحياة هل إن هذه الأمة تؤمن بحقيقة الإسلام في واقع الأمر؟

هذه بضعة أمور أريد أن ألفت إليها الأنظار آملا أن تنال من عناية المفكرين المسلمين ما تستحق من الاهتمام.

محطم الأقفال

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م)

وقف الأستاذ الكبير أبوالحسن الندوي وقفة تأمل عند غار حراء بمكة المكرمة، وتحدث إلى نفسه بهذه الكلمات المضيئة:

كانت الحياة كلها أقفالا معقدة، وأبوابا مقفلة، كان العقل مقفلا أعيا فتحه الحكماء والفلاسفة، كان الضمير مقفلا أعيا فتحه الوعاظ والمرشدين، كانت القلوب مقفلة أعيا فتحها الحوادث والأيام، كانت المواهب مقفلة أعيا فتحها التعليم والتربية والمجتمع والبيئة، كانت المدرسة مقفلة أعيا فتحها العلماء والمعلمين، كانت المحكمة مقفلة أعيا فتحها المتظلمين والمتحاكمين، كانت الأسرة مقفلة أعيا فتحها المصلحين والمفكرين، كان قصر الإمارة مقفلا أعيا فتحه الشعب المظلوم والفلاح المجهود والعامل المنهوك، وكانت كنوز الأغنياء والأمراء مقفلة أعيا فتحها جوع الفقراء وعري النساء وعويل الرضعاء. لقد حاول المصلحون الكبار والمتشرعون العظام فتح قفل من هذه الأقفال ففشلوا وأخفقوا، فإن القفل لا يفتح بغير مفتاحه، وقد ضيعوا المفتاح من قرون كثيرة، وجربوا مفاتيحه من صناعتهم ومعادنهم فإذا هي لا توافق الأقفال، وإذا هي لا تغني عنهم شيئا، وحاول بعضهم كسر هذه الأقفال فجرحوا أيديهم وكسروا آلتهم.

ففي هذا المكان المتواضع المنقطع عن العالم المتمدن على جبل ليس بمخصب ولا بشامخ، تم ما لم يتم في عواصم العالم الكبير ومدارسه الفخمة ومكتباته الضخمة. هنا مَنّ الله على العالم برسالة محمد ﷺ وفي رسالته عاد هذا المفتاح المفقود إلى الإنسانية، ذلك المفتاح هو الإيمان بالله والرسول واليوم الآخر ففتح به هذه الأقفال المعقدة قفلا قفلا، وفتح به هذه الأبواب المقفلة بابًا

بابًا، وضع هذا المفتاح النبوي على العقل الملتوي فتفتح ونشط واستطاع أن ينتفع بآيات الله في الآفاق والأنفس، ويتوصل مع العالم إلى فاطره، ومن الكثرة إلى الوحدة، ويعرف شناعة الشرك والوثنية والخرافات والأوهام.

وكان قبل ذلك محاميا مأجورا يدافع عن كل قضية حقا وباطلا.

وضع هذا المفتاح على الضمير الإنساني النائم فانتبه، وعلى الشعور الميت فانتعش وعاش، وتحولت النفس الأمارة بالسوء مطمئنة لا تسيغ الباطل ولا تتحمل الإثم، حتى يعترف الجاني أمام الرسول بجريمته، ويلح على العقاب الأليم الشديد، وترجع المرأة المذنبة إلى البادية، حيث لا رقابة عليها، ثم تحضر المدينة وتعرّض نفسها للعقوبة التي هي أشد من القتل، ويحمل الجندي الفقير تاج كسرى، ويخفيه في لباسه، ليستر صلاحه وأمانته عن أعين الناس ويدفعه إلى الأمير، لأنه مال الله الذي لا تجوز الخيانة فيه.

كانت القلوب مقفلة لا تعتبر ولا تزدجر ولا ترق ولا تلين، فأصبحت خاشعة واعية تعتبر بالحوادث وتنتفع بالآيات وترق للمظلوم وتحنو على الضعيف.

وضع هذا المفتاح على القوى المخنوقة والمواهب الضائعة، فأشعلت كاللهيب وتدفقت كالسيل، واتجهت الاتجاه الصحيح فكان راعي الإبل راعي الأمم، وخليفة يحكم العالم.

وأصبح فارس قبيلة وبلد قاهر الدول وفاتح الشعوب العريقة في القوة والمجد.

وضع المفتاح على المدرسة المقفلة، وقد هجرها المعلمون، وزهد فيها المتعلمون، وسقطت قيمة العلم فذكر من شرف العلم وفضل العالم والمتعلم والمربي والمعلم وقرن الدين بالعلم، حتى كانت له دولة وأصبح كل مسجد وكل بيت من بيوت المسلمين مدرسة، وأصبح كل مسلم متعلما لنفسه معلما لغيره، ووجد أكبر دافع إلى طلب العلم وهو الدين. وضعه على المحكمة المقفلة فأصبح كل عالم قاضيا عادلا، وكل حاكم مسلم حكما مقسطا، وأصبح المسلمون قوامين لله شهداء بالقسط ووجد الإيمان بالله وبيوم الدين فكثر العدل وقل الجدل وفقدت شهادة الزور والحكم بالجور.

وضعه على الأسرة المقفلة وقد فشا فيها التطفيف بين الوالد وولده والأخ وإخوته والرجل وزوجته، وتعدى من الأسرة إلى المجتمع فظهر بين السيد وخادمه والرئيس والمرؤوس والكبير والصغير، كل يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وأصبحوا مطففين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون، فغرس في الأسرة الإيمان وحذرها من عقاب الله، وقرأ عليها قول الله﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ (النساء: ١)، وقسم المسؤولية على الأسرة والمجتمع كله فقالﷺ «كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته» (صحيح البخاري). وهكذا أوجد أسرة عادلة متحابة مستقيمة، ومجتمعا عادلا، وأوجد في أعضائه شعورا عميقا بالأمانة وخوفا شديدا من الآخرة، حتى تورع الأمراء وولاة الأمور وتقشفوا وأصبح سيد القوم خادمهم، ووالي الأمة كولي اليتيم، فزهّدهم في الدنيا ورغبّهم في الآخرة، وأضاف الأموال لله، وقرأ عليهم ﴿وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾ (الحديد: ٧)، ﴿وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ ۚ﴾ (النور: ٣٣).

وحذرهم من اكتناز وادخار الأموال وعدم الإنفاق في سبيل الله، فقرأ عليهم ﴿۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَـٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۗ وَٱلَّذِينَ يَكْنِزُونَ ٱلذَّهَبَ وَٱلْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٤﴾ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِى نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَىٰ بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ ۖ هَـٰذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا۟ مَا كُنتُمْ تَكْنِزُونَ ﴿٣٥﴾﴾ التوبة: ٣٤-٣٥)، أبرز رسول الله ﷺ برسالته ودعوته الفرد الصالح، المؤمن بالله، الخائف من عقاب الله، الخاشع، الأمين، المؤثر للآخرة على الدنيا، المستهين بالمادة المتغلب عليها بإيمانه وقوته الروحية، يؤمن بأن الدنيا خلقت له وأنه خلق للآخرة، فإذا كان هذا الفرد تاجرا فهو التاجر الصدوق الأمين، وإذا كان فقيرا فهو الرجل الشريف الكادح، وإذا كان عاملا فهو العامل المجتهد الناصح، وإذا كان غنيا فهو الغني السخي المواسي، وإذا كان قاضيا فهو القاضي

العادل الفهم، وإذا كان واليا فهو الوالي المخلص الأمين، وإذا كان سيدا رئيسا فهو الرئيس المتواضع الرحيم، وإذا كان خادما أو أجيرا فهو الرجل القوي الأمين، وإذا كان أمينا للأموال العامة فهو الخازن الحفيظ العليم. وعلى هذه اللبنات قام المجتمع الإسلامي وتأسست الحكومة الإسلامية، ولم يكن المجتمع والحكومة بطبيعة الحال إلا صورة مكبرة لأخلاق الأفراد ونفسيتهم، فكان المجتمع صالحا أمينا مؤثرا للآخرة على الدنيا، متغلبا على المادة غير محكوم لها، انتقل إليه صدق التاجر وأمانته، وتعفف الفقير وكدحه، واجتهاد العامل ونصحه، وسخاوة الغني ومواساته، وعدل القاضي وحكمته، وإخلاص الوالي وأمانته، وتواضع الرئيس ورحمته، وقوة الخادم وحراسة المخازن، وكانت هذه الحكومة حكومة راشدة، مؤثرة للمبادئ على المنافع، والهداية على الجباية. وبتأثير هذا المجتمع وبنفوذ هذه الحكومة وجدت حياة عامة كلها إيمان وعمل صالح وصدق وإخلاص وجد واجتهاد وعدل في الأخذ والعطاء وإنصاف النفس مع الغير.

وقد ذهلت في حديثي لنفسي وتمثلت إلي الجماعات الإسلامية الأولى بجملها وتفاصيلها، كأني أشاهدها وأتنفس في جوها، وانقطعت الصلة بيني وبين العالم المعاصر.

وحانت مني التفاتة إلى هذا العصر الذي نعيش فيه، فقلت إني لأرى أقفالا جديدة على أبواب الحياة الإنسانية، وقد قطعت الحياة مراحل طويلة، وخطت خطوات واسعة، وتعقدت الحياة والتوت، وتطورت المسائل وتنوعت، وتساءلت: هل يمكن فتح هذه الأقفال الجديدة بذلك المفتاح الضيق؟ وأبيت أن أحكم بشيء.. هل أختبر هذه الأقفال وأضع عليها المفتاح؟ ولمست هذه الأقفال بالبنان فإذا هي الأقفال القديمة بتلوين جديد، وإذا المشاكل نفس مشاكل العصر القديم، وإذا المشكلة الكبرى وأساس الأزمة هو الفرد الذي لا يزال لبنة المجتمع وأساس الحكومة، ووجدت أن هذا الفرد قد أصبح لا يؤمن إلا بالمادة والقوة، ولا يعنى إلا بذاته وشهواته، وأنه يبالغ في تقدير هذه الحياة، ويسرف في عبادة

الذات وإرضاء الشهوات وقد انقطعت الصلة بينه وبين ربه ورسالة الأنبياء وعقيدة الآخرة، فكان هذا الفرد هو مصدر شقاء هذه المدنية، فإذا كان تاجرا فهو التاجر المحتكر النهم الذي يحجب السلع أيام رخصها ويبرزها عند غلائها ويسبب المجاعات والأزمات، وإذا كان فقيرا فهو الفقير الثائر الذي يريد أن يتغلب على جهود الآخرين بغير تعب، وإذا كان عاملا فهو العامل المطفف الذي يريد أن يأخذ ما له ولا يدفع ما عليه، وإذا كان غنيا فهو الغني الشحيح القاسي الذي لا رحمة فيه ولا عطف، وإذا كان واليا فهو الوالي الغاش الناهب للأموال، وإذا كان سيدا فهو الرجل المستبد المستأثر الذي لا ينظر إلا إلى فائدته وراحته، وإذا كان خادما فهو الضعيف الخائن، وإذا كان خازنا فهو السارق المختلس للأموال، وإذا كان أكبر من ذلك فهو المادي المستأثر الذي لا يخدم إلا نفسه وحزبه، ولا يعرف غيره، وإذا كان زعيما أو قائدا فهو الوطني أو الجندي الذي يقدس وطنه ويعبد عنصره ويدوس كرامة البلاد الأخرى، والشعوب الأخرى وإذا كان مشرِّعا فهو الذي يسن القوانين الجائرة والضرائب الفادحة، وإذا كان مخترعا اخترع المدمرات والناسفات، وإذا كان مكتشفا اكتشف الغازات المبيدة للشعوب والمخربة للبلاد والقنبلة الذرية التي تهلك الحرث والنسل، وإذا كان فيه قوة التطبيق والتنفيذ لم ير بأسا بإلقاء هذه القنابل على الأمم والبلاد.

وبهؤلاء الأفراد تكوّن المجتمع وتأسست الحكومة فكان مجتمعا ماديا اجتمع فيه احتكار التاجر وثورة الفقير وتطفيف العامل وشح الغني وغش الوالي واستبداد السيد وخيانة الخادم وسرقة الخازن ونفعية الوزراء ووطنية الزعماء وإجحاف المشرع وإسراف المخترع وقسوة المنفذ. وبهذه النفسيات المادية تولدت أزمات طريفة ومشاكل معقدة تشكو منها الإنسانية بثها وحزنها كالسوق السوداء وفشو الرشوة والغلاء الفاحش واختفاء الأشياء والتضخم النقدي، وأصبح المفكرون والمشرعون لا يجدون حلا لهذه المشاكل وأصبحوا إذا خرجوا من أزمة واجهوا أزمة أخرى، بل إن حلولهم القاصرة ومعالجتهم المؤقتة هي التي تسبب أزمات جديدة، وتنقلوا من حكومة شخصية إلى ديموقراطية إلى دكتاتورية ثم إلى

ديموقراطية، ومن نظام رأسمالي إلى نظام اشتراكي إلى شيوعي، وإذا الوضع لا يتغير لأن الفرد الذي هو الأساس لا يتغير، ويجهلون أو يتجاهلون في كل ذلك أن الفرد هو الفاسد المعوج ولو عرفوا أن الفرد هو الأساس وأنه فاسد معوج لما استطاعوا إصلاحه وتقويمه، لأنهم على كثرة مؤسساتهم العلمية ودور التعليم والتربية والنشر لا يملكون ما يصلحون به الفرد ويقومون اعوجاجه ويحولون اتجاهه من الشر إلى الخير ومن الهدم إلى البناء، لأنهم أفلسوا في الروح وتخلوا عن الإيمان وفقدوا كل ما يغذي القلب ويغرس الإيمان ويعيد الصلة بين العبد وربه وبين هذه الحياة والحياة الأخرى وبين المادة والروح وبين العلم والأخلاق، وفي الأخير أدى بهم إفلاسهم الروحي وماديتهم العمياء واستكبارهم إلى استعمال آخر ما عندهم من آلات التدمير التي تبيد شعبا بأسره وتخرب قطرا بطوله حتى استهدفت الحضارة والحياة البشرية إذا تبادلت الدول المتحاربة استعمال هذه الآلات للنهاية الأليمة.

* * *

كيف يستعيد المسلمون مجدهم القديم؟

العدد (٩٣) رمضان (١٣٩٢هـ) - اكتوبر (١٩٧٢م).

إن الإيمان بالله وحده هو الذي يجمع عشرات الألوف من المسلمين، على اختلاف لغاتهم وجنسياتهم وألوانهم؛ لأداء فريضة الحج، وزيارة المصطفى ﷺ كل عام، وهو الذي وحد بينهم، وجعلهم إخوة في الإيمان إرضاءً لله، وجمعهم في المسجد الحرام.

إن المسلمين الأول كانوا يؤمنون بالله إيمانًا قويًا، ويثقون بالله ثقة لا نهاية لها، ولا يخافون إلا الله، ولا يخشون في الحق لومة لائم، وكانوا يضحون بأنفسهم وأموالهم وأولادهم في سبيل الله، وابتغاء مرضاته، ولذلك كان النصر حليفهم، وقد نصرهم الله على أعدائهم، وفتحوا العالم، ونشروا الإسلام في مدة قصيرة لا تذكر.

لقد كان المسلمون في علمهم وأخلاقهم وإنسانيتهم ووحدتهم، وتضامنهم وتعاونهم، وإيمانهم بالقدرة الإلهية، والعظمة الربانية-خير أمة أخرجت للناس.

كان المسلمون في العصور الأولى متحدين اتحادًا قويًا، يفكرون في إخوانهم في مشارق الأرض ومغاربها، ويحبون لهم ما يحبون لأنفسهم، ويستهينون بالموت، ويطلبون الاستشهاد، ويقولون: احرص على الموت توهب لك الحياة. ويعملون بقوله ﷺ «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا»، فانتصروا، وهابهم العالم كله، وقادوا العالم في العدالة والحرية، والإخاء والمساواة، والحضارة والمدنية.

ولكن أين المسلمون اليوم؟ وأين الأمة الإسلامية العظيمة؟ وأين الأخوة المحمدية؟ وأين الوحدة الإسلامية؟ وأين الرابطة القوية التي كانت تربط

المسلمين بعضهم ببعض في عصور العظمة الإسلامية؟

إن المسلمين اليوم مع الأسف الشديد في عزلة وتخاذل، وتنازع واختلاف، وعداء أحيانا، لأنهم الآن محبون لأنفسهم، ولا يفكرون إلا في أنفسهم، ولا يعيشون إلا لأنفسهم، ولا يحيون إلا لأنفسهم، ولا يفكرون في غيرهم من المسلمين، ولا يعبدون إلا المال والمركز والجاه والسلطان، وأصحاب المال والمركز والجاه والسلطان.

فهل نعجب إذا صاروا ضعفاء بعد أن كانوا أقوياء، وأذلاء بعد أن كانوا أعزاء، ومتأخرين بعد أن كانوا يقودون العالم فيما مضى من الزمان؟.

ولن يستعيد المسلمون مجدهم القديم، وعصرهم الذهبي إلا إذا آمنوا بالله إيمانًا صادقًا، واتحدت كلمتهم، وتعاونت قلوبهم وأرواحهم، وقضوا على الفساد الخلقي، وأعطوا السائلين والمحرومين حقوقهم، وأحب كل مسلم أخاه كما يحب نفسه، وكوَّنوا وحدة إسلامية قوية شاملة للعالم الإسلامي كله، بعيدة عن الاستعمار كل البعد، ونبذوا الأهواء والأغراض، والمنافع الخاصة التي يجرون وراءها، ويفكرون فيها.

إذا استطعنا أن نصل إلى تحقيق الروح الإسلامي الحق، وآمنا بالعظمة الإلهية، ونظمنا حياتنا الإسلامية، وكونا وحدتنا القوية، أمكننا أن نستعيد مجدنا التليد، وقوتنا السالفة. ولن تستطيع أي أمة أن تقف أمام الأمة الإسلامية المتحدة، المؤمنة بالله وعظمته وحده لا شريك له. لن تستطيع أي قوة في العالم أن تستهين بالمسلمين، أو تتحكم فيهم، أو تسيطر عليهم إذا اتحدوا وفكروا في الموت أكثر من تفكيرهم في الحياة كأجدادهم السابقين.

لكي يستعيد المسلمون مجدهم في صدر الإسلام يجب أن ينشروا التعليم في بلادهم، حتى لا يبقى فيها أمي واحد، ويعملوا على رفع مستوى معيشة الفقراء بإعطائهم حقوقهم التي فرضها الله لهم، حتى لا يكون هناك سائل أو محروم بين المسلمين، ويتخلصوا من الفقر، ويعنوا بالتربية الدينية الخلقية المثالية، حتى تقضي على الأثرة، وحب النفس، والفساد الخلقي، ويهتموا بالناحية الصحية

حتى يجد كل مريض وسائل العلاج ميسرة أمامه، ويعنوا بالتربية الجسمية عنايتهم بالتربية العقلية والروحية والوجدانية والعملية.

وبهذا كله نقضي على الجهل والفقر والمرض وفساد الخلق، وهي المشكلات الاجتماعية التي خلفها الاستعمار وراءه قبل أن يرحل من البلاد الإسلامية التي احتلها عشرات السنين، وامتص خيراتها، وخلف لها الجهل والفقر والمرض والفساد.

إن الإسلام قد منح الإنسان حقوقًا، مثل الحرية الشخصية، وحرية العقيدة، وحق المساواة، وحق التعليم، وحق الحياة، وحق الأخوة. وكما منحه كثيرًا من الحقوق فرض علية كثيرًا من الواجبات الدينية التي تتعلق بالدين، والواجبات الإنسانية التي تتصل بالحياة، وأمر بالعدل والإحسان وبر ذوي القربى، والصدق والأمانة والوفاء، ونهى عن الظلم والغدر وحرمان الفقير، والعقوق والكذب والخيانة والسرقة والقتل والزنى ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِي ٱلۡقُرۡبَىٰ وَيَنۡهَىٰ عَنِ ٱلۡفَحۡشَآءِ وَٱلۡمُنكَرِ وَٱلۡبَغۡيِۚ يَعِظُكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾ (النحل: ٩٠).

ومن العيوب المنتشرة بيننا أننا نفكر فيما لنا من حقوق، ونسعى لأخذ هذه الحقوق، ولكننا لا نؤدي ما علينا من واجبات، فنحن نأخذ ولا نعطي، ولا نشعر بالواجب، ولا نفكر في أدائه، ولا نحاسب أنفسنا على ما قمنا به من عمل، ويجب أن نرضي الله في السر والعلانية. وقد خاطب الله رسوله ﷺ بقوله: ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَٰلِمِ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (التوبة: ١٠٥). يجب أن نعمل الخير ونفكر في الخير دائما، ونقوم بما علينا من واجبات لله ثم للوطن وللأسرة والجيران، والإنسانية.

فلكي يستعيد المسلمون مجدهم الماضي، وعظمتهم السالفة، يجب أن يتمسكوا بروح الإسلام، ومبادئه المثالية، وأخلاقه الكريمة، ويعودوا إلى إيمانهم القوي بالله، ويكونوا يدا واحدة ووحدة قوية متماسكة متعاونة، ضد المستعمرين والمحتلين، ويتركوا المظاهر الكاذبة، ويدافعوا عن بلادهم، متحدين بقلوبهم وأعمالهم، ويبتعدوا عن الخلاف والنزاع والشقاق، والرياء

والتملق والنفاق، والجري وراء الحكم والجاه والسلطان. عندئذ سينتصرون على الأعداء المغتصبين، ولن يستطيع الاستعمار أن يقف في سبيلهم مهما تكن عدده وأسلحته، وسيكون النصر حليفهم، كما كان حليفًا لأجدادهم من المؤمنين السابقين الأولين.

الاستعمار هو السبب في إضعاف المسلمين

إن الاستعمار قد مزق البلاد الإسلامية، حتى يسهل عليه احتلالها، ويتخذها مناطق نفوذ له، وأسواقًا تجارية لمصنوعاته، ويتحكم في أهلها بما نال من سيطرة وامتيازات، ويسلب ما فيها من خيرات، بجشع وشراهة، وينهب ما فيها من الآثار.

ولهذا كان الاستعمار السبب الأول في إضعاف المسلمين، والتفرقة بينهم، بعد أن كانوا أمة واحدة تتمتع بالحرية، وتسود العالم.

والحمد لله قد تخلص المسلمون في معظم البلاد الإسلامية من القراصنة، وعصابة اللصوص المستعمرين، ومظالمهم واعتداءاتهم، وطغيانهم، وصاروا أحرارا في بلادهم، مستقلين في حياتهم، يعملون لإعادة مجدهم السالف، وقوتهم السابقة، ليكونوا خير أمة، كما كان آباؤهم وأجدادهم في صدر الإسلام.

الشيخ محمد عبده والإسلام

قال المرحوم الإمام الشيخ محمد عبده: «ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الأديان، ولقي من أعدائه أنفسهم أشد ما يلقى حق من باطل، أوذي الداعي ﷺ بضروب الإيذاء، وأقيم في وجهه ما كان يصعب تذليله من عقبات، لولا عناية الله، وعذب المستجيبون له، وحرموا الرزق، وطردوا من الدار، وسفكت منهم دماء غزيرة، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تنفجر من صخور الصبر، يثبت الله بمشهدها المستيقنين، ويقذف بها الرعب في نفس المرتابين، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب، وهي ذوب ما فسد من طباعهم، فتجري في مناحرهم جري الدم الفاسد من المفصود على أيدي الأطباء الحاذقين ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ

أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾ (الأنفال: ٧٣).

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الإسلام، ليحصدوا نبتته، ويخنقوا دعوته، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء، والفقير للأغنياء، ولا ناصر له إلا أنه الحق بين الأباطيل، والرشد في ظلمات الأضاليل حتى ظفر بالعزة، وتعزز بالمنعة.

ضم الإسلام سكان القفار العربية إلى وحدة لم يعرفها تاريخهم، ولم يعهد لها نظير في ماضيهم، وكان النبي ﷺ قد أبلغ رسالته بأمر ربه إلى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان، فهزأوا وامتنعوا، وناصبوه وقومه الشر، وأخافوا السابلة، وضيقوا على ا لمتاجر، فغزاهم بنفسه، وبعث إليهم البعوث في حياته، وجرى على سنته الأئمة من صحابته، طلبًا للأمن وإبلاغًا للدعوة، فاندفعوا في ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم، وانهالوا به على تلك الأمم في قوتها ومنعتها، وكثرة عددها، واستكمال أهبتها وعددها، فظفروا منها بما هو معلوم، وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها، واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين، وأباحوا لهم البقاء على أديانهم، وإقامة شعائرهم آمنين مطمئنين، ونشروا حمايتهم عليهم يمنعونهم بما يمنعون منه أهلهم وأموالهم، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة.

ولم يعهد في تاريخ فتوح الإسلام أن كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة، يأخذون على أنفسهم العمل على نشره، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم، ومحاسنتهم في المعاملة، وشهد العالم بأسره أن الإسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا وإحسانًا عندما كان يعدها الأوروبيون ضعة وضعفا.

رفع الإسلام ما ثقل من الإتاوات، ورد الأموال المسلوبة إلى أربابها وانتزع الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة في الحق عند التقاضي بين المسلم وغير المسلم. بلغ أمر المسلمين فيما بعد ألا يقبل إسلام من دخل فيه إلا بين يدي قاض شرعي بإقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا إكراه ولا رغبة في دنيا.

ووصل الأمر في عهد بعض الخلفاء الأمويين أن كره عمالهم دخول الناس في دين الإسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية، وكان في حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة، ولذلك أمر عمر بن عبدالعزيز بتعزير مثل أولئك العمال، وأجاب عامله بمصر حينما شكا إليه ذلك «إن محمدًا ﷺ بعث هاديًا، ولم يبعث جابيًا».

ونحن نقول: هذا ما كان من أمر المسلمين في معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم، لم يفعلوا شيئا سوى أنهم حملوا إلى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته، وألقوا بذلك بين أيديهم، وتركوا الخيار لهم في القبول وعدمه، ولم يقوموا بينهم بدعوة، ولم يستعملوا لإكراههم عليه شيئًا من القوة، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه، فما الذي أقبل بأهل الأديان المختلفة على الإسلام، وأقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجا، وبذلوا في خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم؟

لقد دخل أهل الأديان المختلفة في دين الله أفواجًا لأنهم أحسوا أنه دين الطبيعة والفطرة، دين العقل والمنطق، دين الرأي الحر، والتفكير السليم، دين الرحمة والشفقة، دين الإنسانية والنبل، دين الفضيلة والكمال، دين قضى على الرذائل الخلقية، والنقائص البشرية، دين الحرية «والديموقراطية»، دين الدنيا والآخرة، دين يدرك معنى الحياة، ويعنى بالجسم كما يعنى بالروح، دين يدعو إلي الإخلاص في السر والعلانية، وصفاء النية والسريرة، دين ألغى الامتيازات بين الطبقات، ورفع العبيد إلى منزلة الأشراف، وسوى بين الأغنياء والفقراء، ونادى باحترام الشرف والعرض وحقوق الجار، دين يسهل على كل إنسان فهم أحكامه وأسراره، ومعرفة الحكمة في كل تشريع من تشريعاته، دين العدالة المطلقة، وقف بجانب المظلوم ليأخذ له حقه من الظالم، مهما يكن مركز ذلك الظالم وسلطته، دين أخذ للفقراء حقوقهم من الأثرياء.

دين أجاز لامرأة مصرية فقيرة غير مسلمة أن ترفض بيع بيتها الصغير بأي ثمن لحاكم مصر وهو عمرو بن العاص، مع أنه لم يفكر في شرائه لنفسه، بل أراد أن

يشتريه ليوسع به ناحية من المسجد، فرفضت بيعه مع أن ابن العاص عرض عليها أضعاف ثمنه، وشكته إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمر ابن العاص برد البيت إلى صاحبته، ولامه على ما فعل، دين سمح ليهودي بالوقوف ضد علي بن أبي طالب - كرم الله وجهه - أمام القاضي المسلم، فكان حكمه بينهما مثلا عاليا للعدالة والنزاهة والمساواة.

لهذه المثل السامية دخل الناس في دين الله أفواجًا، وصاروا من أكبر أنصاره، وأنار الله قلوبهم، فاعتنقوا الإسلام برغبة قوية، وعقيدة روحية، ووازع نفسي، لا سيف من ورائهم يخيفهم، ولا مبشر أمامهم يكرههم على اعتناقه.

* * *

دور الإسلام في العصر الحديث

العدد (١٠٥) رمضان (١٣٩٣هـ) - سبتمبر (١٩٧٣م).

بلغ العصر الحديث ذروة العلوم الطبيعية، والكيماوية، والكهربائية، والبيولوجية، فهو عصر الذرة والصاروخ وغزو الكواكب، إلا أن الذرة يقابلها الحضيض، فالعصر ينحط إلى الحضيض في الفوضى الفكرية والخلقية. تتجلى الفوضى الفكرية في المادية، والروحية، والاشتراكية، والرأسمالية، والرجعية، والتقدمية، واليمين، واليسار، والأثرة والإيثار، والحرية، والعبودية، والفرد والأمة، والنسبية، والإطلاق، والناس في ذلك بين إفراط وتفريط، وكل يدعي أنه صاحب الحق، وكل حزب بما لديهم فرحون.

وتتجلى الفوضى الخلقية في المظالم الفردية والجماعية والأنانية المزرية التي تتضاءل أمامها غرائز الوحوش، والإباحية المطلقة التي فتحت أبواب الزنا، والربا، والخمر، والميسر، والسرقة، فنتج عن المظالم الفردية فساد ذات البين، واكتظاظ المحاكم بملايين الدعاوى حتى مل الناس القوانين والقضاء، ونتج عن المظالم الجماعية حروب أحرقت الأخضر واليابس، فمن الحرب العالمية الأولى إلى الحرب العالمية الثانية إلى حرب كوريا، إلى حرب فيتنام، إلى حرب فلسطين، إلى ثورات متوالية في جميع أنحاء المعمورة، وهذه نذر حرب عالمية ثالثة حتى لكأن الأرض قدر يغلي على النار، أو بركان دائم الانفجار يأبى الهدوء والاستقرار، ونجم عن الأنانية عدوان أمة على أمة، واستعباد شعب لشعب، واستغلال القوي للضعيف حتى لكأن البشر أصبحوا وحوشا كاسرة لا هم لها إلا السطو والافتراس، ونتج عن الإباحية ترجل المرأة، وتخنث الرجل، وضياع العفاف، وهدم الأسرة، وأمراض الزهري، وأمراض الكحول والانتحار،

واللصوصية المنظمة، والدجل الهادف، والكفر بجميع المثل.

وإنك لتجد هذه الصورة القبيحة التي تشكل فاجعة القرن العشرين تلف الأكثرية الساحقة من البشر ولم يبق إلا القليل القليل ممن يؤمن بالعدل والإيثار، والعفاف، والأمانة، والصدق، والوفاء حتى لكأن هذه المثل ألفاظ تحتاج إلى ترجمة لكي تستسيغها عقول أبناء الجيل وضمائرهم.

هذه حال العصر اليوم فما هو الدواء؟

إننا حين نقدم الإسلام علاجا لهذا السقم الفكري والخلقي لسنا بمغالين ولا متعصبين، وإنما هي الحقيقة المشفوعة بالحجة والبرهان.

امتاز الإسلام على سائر المبادئ والأديان بدعائم راسخة جعلته الدواء الناجع، والبلسم الشافي، والنظام الصالح لكل زمان ومكان.

مجال الإسلام في العقيدة والفكر

١- الإيمان بالله

إن تعلق المخلوق بعقيدة راسخة معناه الاستقرار الفكري، ومنع الاضطراب والتقلب والتردد، حتى إن حياة بعض الأفراد غير المؤمنين تنقضي، ولما يصلوا إلى اطمئنان أو استقرار، ولم يقدموا خيرا لأنفسهم أو لأمتهم إلا نزاعا أو نقمة، أو ما تمليه عليهم الريبة والضياع، هذا هو الفرق بين حال المؤمن وبين حال الملحد، فكيف إن كان مؤمنا بإله واحد منزه عن الشبيه والشريك، ليس كمثله شيء، محيط بكل شيء، قادر على كل شيء، يحاسب على الصغيرة والكبيرة، ولا بد من لقائه والوقوف بين يديه.

وقد خلت عقيدة الإسلام من أوهام وخيالات الشعوذة وسيطرة رجال الدين، وأقامت في داخل النفس وازعا لا يفارقها، فهو توحيد نقي يؤيده العقل، ويستسلم له المنطق فلا يصطدم بتعقيد التعدد، وتناقضات الآلهة، وما ينشأ عن ذلك من اضطراب فكري وفساد خلقي، ولا يتسع مجال المقال للاستطراد في

إشباع هذه الفقرة أكثر من ذلك، قال تعالى ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ (الملك: ٢٢) وقال تعالى حكاية عن يوسف عليه السلام ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ (يوسف: ٣٩) وقال عز من قائل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا ۚ فَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٢٢﴾﴾ (الأنبياء: ٢٢).

٢- بين المادية والروحية

ما من دين ولا مبدأ استطاع أن يجمع بين الروح والمادة كما جمع بينهما الإسلام، والمادة والروح كلاهما حقيقة واقعة، ولذلك وجدنا المبادئ المتعلقة بالمادة وحدها اتصفت بالقسوة، والبلادة، والظلم، وجفاف الحياة من البهجة، وخلوها من الرحمة والتعاون والتسامح حتى يمسي الإنسان فيها آلة صماء لا حس لها ولا شعور، ولا راحة لها ولا هناء ولا امتياز، ولا كيان يتحرك بغير إرادته، ويسكن بغير اختياره. ويا له من قتل بشع لذاتية الإنسان التي امتاز بها على الحيوان فهو مسخ تدريجي، وموت لا شعوري، وكيف لا يكون موتًا وقد خلا من الروح، وهل الموت إلا نزع الروح؟

كما نجد المبادئ التي تعلقت بالروح وحدها على غير هدى، وأهملت شأن المادة كل الإهمال عزفت بأتباعها عن الحياة بما فيها من العلوم والصناعة، والزراعة والعمران، وما يتصل بذلك من الاكتشافات والاختراعات التي تتفجر فيها الطاقات الفكرية الكامنة، وقدرة الإنسان العجيبة التي تخرج على العالم كل يوم بأصناف الفنون وأنواع الصنائع، وتبارك الذي دفع الإنسان إلى ذلك دفعًا حينما أنزل عليه قوله تعالى ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥).

إذن تجد أن هذه النزعة الروحية المتطرفة هي فرار من الحياة، فلا الأولى أصابت، ولا الأخرى أجابت، ولكن الإسلام وحده هو الذي أصاب الهدف، وأجاب مطالب البشر، فجمع بين المادة والروح، وألح على كل منها بنصوص

صريحة، وخطوط عملية، وحدود واضحة، يتجلى ذلك في الصلاة، جسم يتحرك وروح خاشعة، وفي الصيام، ترويض للبدن وتزكية للأخلاق، وفى الحج سعي وهرولة، ودعاء وتلبية، وفي الزكاة نظام اقتصادي، وعمل أخلاقي، وفي قوله تعالى﴿وَزَادَهُۥ بَسۡطَةٗ فِي ٱلۡعِلۡمِ وَٱلۡجِسۡمِۖ﴾ (البقرة:٢٤٧) وفي قوله تعالى﴿إِنَّ خَيۡرَ مَنِ ٱسۡتَـٔۡجَرۡتَ ٱلۡقَوِيُّ ٱلۡأَمِينُ﴾ (القصص:٢٦) وفي قوله تعالى ﴿وَٱبۡتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلۡأٓخِرَةَۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنۡيَاۖ﴾ (القصص:٧٧) وفي قوله تعالى ﴿وَقُلِ ٱعۡمَلُواْ فَسَيَرَى ٱللَّهُ عَمَلَكُمۡ وَرَسُولُهُۥ﴾ (التوبة: ١٠٥) وفي قوله تعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك: ١٥).

٣- سبيل الاعتدال

يتجلى اعتدال الإسلام بتوسطه بين الإفراط والتفريط، ويبدو ذلك واضحًا بتوسطه بين الاشتراكية العلمية والرأسمالية، وبين الرجعية والتقدمية، وبين الفرد والأمة.

أ- بين الاشتراكية والرأسمالية

قد يطول البحث إذا أردنا التفصيل فيه، فلا بد من الإجمال. فمعايب الاشتراكية العلمية تظهر في نزع الملكية، والقضاء على عنصر المبادرة الشخصية، الأمر الذي يصادم أعمق غريزة بشرية، وهي حب البقاء المرتبطة كل الارتباط بحب التملك، فالإنسان الذي لا يملك لا يعمل، والذي لا يعمل لا ينتج ولا يحسن الإنتاج، مما أدى إلى تراجع في بعض البلاد الشيوعية بإباحة الملكيات الصغيرة ورسم علاوات لمن يزيد في الإنتاج، وهذا التراجع وحده طعنة في صميم هذا النظام ينذر بالقضاء عليه في المستقبل إن لم يفرض على الإنسان بالحديد والنار، فالإنسان ليس مجرد آلة يعمل ولا يملك أو يندفع لتحسين الإنتاج باضطراب، ولو كان الإنتاج لغيره وهو فوق ذلك محروم الحرية مكبوت الأنفاس، إن مثل هذا الاندفاع ضرب من المستحيل، ولذلك وجدنا أن كل نظام

يصادم فطرة الإنسان وغريزته صائر حتمًا إلى زوال طال الزمن أو قصر.

وأما معايب الرأسمالية فتتمثل في تضخم المال، وما ينشأ عنه من فروق طبقية مخيفة، وباستغلال الغني للفقير، وما ينشأ عنه من الربا الفاحش والظلم الفادح والاحتكار والتلاعب بالأسواق لحساب طبقة خاصة على حساب سواد الناس، والربح غير المشروع كالربح الفاحش، والقمار، والغش، تلك المعايب التي أحدثت ردود فعل عنيفة كانت من جملتها النظم الاشتراكية، ولا بد لكل رد فعل ألا يتصف بالاتزان، لذلك اشتملت الاشتراكية على عيوب أخرى هي نقائض عيوب الرأسمالية، وفي كلتا الوجهتين غلو وتطرف، كما بين الإفراط والتفريط.

ولكن الإسلام- على ضوء هذا المخطط المجمل- هو الذي خلا من عيوب الوجهتين، والتزم طريق الاعتدال، فلم يحرم الملكية فيصادم فطرة البشر، ويقضي على طاقاتهم وفعالياتهم، وتسابقهم الشريف، وتنافسهم المضطرد، ذلك العنصر الأساسي في المبادرة الشخصية التي هي أساس كثرة وتحسين الإنتاج وهذا أساس لا بد منه لصلاحية كل نظام اقتصادي، ولكنه لم يدع الباب مفتوحًا على مصراعيه شأن الرأسمالية حتى احتاط دون تضخم المال، وما يجر إليه من سيئات فعالج الأمر بشرطين على رأس المال، وشرطين على الربح، إجمالا دون تفصيل.

أما الشرط الأول المضروب على رأس المال فهو الزكاة التي تبلغ في النقد ٢,٥٪ بحيث يتحول أصل أي ثروة كانت، مهما عظمت، إلى الأمة خلال أربعين سنة، ومعنى هذا أن الفرد يهب أصل ماله كله للمجتمع خلال دورة زمنية لا تمتد أكثر من أربعين سنة فتأمل، ومثل هذا لا يوجد في الرأسمالية.

أما الشرط الثاني المضروب على رأس المال فهو الإرث، وهو كفيل بتفتيت الثروات وتحويلها من فرد واحد إلى عدة أفراد حسب عدد الورثة، ومثل هذا غير متوفر في النظام الرأسمالي في أكثر البلاد.

وأما الشرط الأول المضروب على الربح فهو تحريم الربا الذي يكدس ثروات طائلة بأيدي الأشخاص بغير جهد ولا نصب إلا استغلال الفقراء والضعفاء، ولو

أحصينا عدد الأثرياء في البلاد الرأسمالية لوجدنا أكثرهم مرابين، أساس ثرواتهم الفاحشة مبني على الربا.

وأما الشرط الثاني المضروب على الربح فهو تحريم القمار و كل ما يشبهه من الأرباح الفاحشة غير المشروعة التي كثيرًا ما تؤدي إلى الثراء الفاحش والتضخم المالي بيد طبقة على حساب طبقة أخرى بغير حق.

واحتاط الإسلام أيضًا وراء هذه الشروط الأربعة بقواعد عامة خلت منها النظم الرأسمالية، وهي تحريم الاحتكار، وتواطؤ التجار والاستغلال والربح الفاحش، والغش، والتلاعب بالأسعار، إلى آخر ما هنالك من سيئات النظام الرأسمالي، الذي لم يكن له أساس من العقيدة يرجع إليه في تهذيب اقتصاده، وفرض نظام على هدى ومنطق سليم.

إذن يجد المنصف أن الإسلام جاء العالم بخير الحلول الاقتصادية عدلا واتزانًا وإنتاجًا وخلوًا من الأحقاد، وبعدًا عن ردود الفعل المتوالية المتمثلة في الإفراط والتفريط.

ب- بين الرجعية والتقدمية

تلك النغمة التي قسمت العالم فريقين، واستغلتها السياسة أبشع استغلال حتى كاد يضيع مفهومها ومدلولها، فكل أمة مالت إلى اليسار فتجلى ذلك لديها بالإلحاد، والإباحية، والعنف، والقسوة والتحلل من القيود والريبة فهي تقدمية، وكل أمة مالت إلى الجمود والثبات على بعض المفاهيم، والاصطباغ بصبغة الدين والتغني بنوع من الأخلاق، والارتباط بالقديم فهي رجعية، ولكن السياسة كما قلنا مسخت حتى هذا التمييز على ما فيه من باطل في دوامتها السريعة، واستغلالها المغرض، فإن إنجلترا مثلا رجعية بالنسبة لروسيا، وإن روسيا مثلا رجعية بالنسبة للصين، وهكذا يجري التسابق الرخيص دون معايير منطقية، حتى أمسى سبابًا وشتائم قبل أن يكون تقويمًا حقيقيًا مبنيًا على معايير صحيحة ومنطق سليم.

والحق في هذه المسألة أن كل إنسان عاقل يجب أن ينشد التقدم، والذي لا

يتقدم يتأخر حتمًا، ولكنه يجب أن يتقدم إلى القمة لا إلى الهاوية، إذن فثمة تقدم محمود، وهو الصعود المتمثل في رقي العلوم والزراعة والعمران وما يتصل بذلك من اكتشافات واختراعات لا تقف عند حد، حتى أوصلت الإنسان إلى القمر، فمهما تقدم الإنسان في هذا المضمار فهو تقدم محمود وسير غير محدود ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ (يوسف: ٧٦)، وثمة تقدم مذموم وهو الانحدار المتمثل في القضاء على المثل العليا، والفضائل المجمع عليها، والانغماس في الرذائل المجمع على قبحها وإيذائها، كالكذب، والخيانة، والمكر، والغش، ونقض العهد والسرقة، تلك السيئات التي وجدت لها مرتعًا خصبًا في أوساط أدعياء التقدمية العصرية، لأنهم كفروا بنقائضها من المثل العليا خشية أن يوصموا بالرجعية.

وكما أن للتقدم نوعين، محمودًا ومذمومًا، كذلك الأمر في الرجعية، فثمة رجوع محمود يتمثل في الرجوع إلى الحق مهما كان قديمًا، ورجوع مذموم يتمثل بالرجوع إلى القديم ولو كان خطأً أو نقصًا.

أما الأول فإنه الرجوع إلى الصدق، والوفاء، والأمانة، والعدل مهما تقادم الزمن، والرجوع إلى ما ثبت من الحقائق الرياضية، والهندسية، والجغرافية، وما شاكلها مهما تقادم عليها الزمن، ذلك أن ثمة أمورًا لا يمسها التطور إلى أن تقوم الساعة، ومن الغباوة المخجلة تركها والجنوح إلى نقائضها بداعي التقدمية والخلاص من الرجعية، والظاهر أن التعبير بالرجعية كان قديمًا يتعرض له أصحاب الدعوات في كل عصر، حتى وجدنا بعض مناوئي الإسلام يرمون الدعوة الإسلامية بالرجعية إبان ظهورها وتقدمها، فيقولون، كما حكى القرآن عنهم، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾ (المؤمنون: ٨٣)، ﴿إِنْ هَٰذَآ إِلَّا خُلُقُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٣٧﴾ (الشعراء: ١٣٧) ﴿وَقَالُوٓا۟ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٥﴾ (الفرقان: ٥) ولم يحل هذا التعبير بالرجعية دون تقدم الإسلام وظهوره.

وأما الرجوع المذموم فهو التمسك بكل قديم مهما كان، ولو تبين خطؤه، أو ظهر خير منه، وأجدى على الفرد والمجتمع، كمن يصر على وسائل الزراعة

والصناعة والعمران التي كانت تستعمل قديمًا، ويحول دون العلوم العصرية التي قطعت شوطًا عظيمًا في التقدم، فهل لمثل هذا مبرر من عقل أو شرح؟

لا يمكن أن يوصف مثل هذا بغير الغباوة والجريمة، ولمثل هذا يقال بحق: إن دولاب الزمن لا يرجع إلى الوراء.

وعلى ضوء هذا التقسيم الواضح المنطقي في التقدمية والرجعية نجد أن الإسلام كان وسطًا بين النظرتين الجائرتين بعيدًا عن أكاذيب السياسة، محفوظًا من التسابق غير الشريف، لا يوزع الألفاظ جزافًا، ولا يتغنى بالألحان الفارغة، فهو ينشد التقدم المحمود، ويحض عليه، ويرجع إلى الحق مهما كان قديمًا، ويصر عليه، وبذلك تضمن أسباب البقاء والخلود، واشتمل على عناصر الحياة الباقية للفرد والمجتمع، وإن شئت فاقرأ قوله تعالى ﴿أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِىَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ﴾ (النمل: ٦١) ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (البقرة: ١٦٤) ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾﴾ (يس: ٣٨) ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ وَيُكَوِّرُ ٱلنَّهَارَ عَلَى ٱلَّيْلِ ۖ﴾ (الزمر: ٥) والآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الدالة على ذلك من أمور الزراعة، والصناعة، والفلك وما إليها تكاد لا تحصر، ولا يتسع المجال للتفصيل في ذلك أكثر.

ج- بين الفرد والأمة

غالت بعض النظم في قيمة الفرد حتى جعلته إلها يعبد من دون الله، فنشأ من ذلك الحكم الدكتاتوري والفاشي والنازي، وكانت الأمة فريسة لطغيان الفرد، فكم ديست كرامات، وانتهكت حرمات، وكبتت حريات بسبب ذلك الحكم الفردي الجائر الذي هدر حقوق الأمة وسلبها كرامتها وحريتها، وادعت بعض النظم أن الحكم للأمة، ولا قيمة للفرد، فهو مسمار في عجلة الجماعة، فلا رأي له ولا قدسية، ولا حرية، ولا كرامة، فاقتيد الناس كالبهائم، وحشروا حشر

السوائم، وسجنت جحافل فوق جحافل، كتل بشرية تزجر كما تزجر الآلات الصماء، وتسخر كما يسخر الأرقاء، ويتمنون لو استطاعوا الصراخ.. الصراخ فقط للتعبير عن الألم فلا يستطيعون.

أما الإسلام، وهنا تتجلى العظمة والإعجاز البالغ، فهو الذي ألف بين حقوق الفرد والجماعة دون أن يهدر كيان الفرد، أو يعتدي على الجماعة، الخليفة يحكم وله على الناس الطاعة، ولكن إن اعتدى وظلم فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، وإن زل وأخطأ قامت إليه امرأة تصحح له فيقول «أصابت امرأة وأخطأ عمر» وإن أراد أن يستبد فالأمة له بالمرصاد، وإن أراد أن يستأثر برأيه، ويضرب بآراء الناس عرض الحائط خوطب بالآيات الكريمة ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ (آل عمران: ١٥٩)، ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ (الشورى: ٣٨)، وإن أراد أن يستهين بفرد واحد باعتداء أو حرمان حق أو هدر دم زجرته الآية الكريمة التي تشير إلى قدسية النفس الإنسانية وحمايتها ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة: ٣٢)، للفرد حقوقه وحدوده، وللأمة حقوقها وحدودها، والجميع يعملون يدًا واحدة في وحدة متماسكة كالجسد الواحد﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ۝٤﴾ (الصف: ٤) وكما أخبر- عليه الصلاة والسلام- «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى».

مجال الإسلام في الأخلاق

لا أحد يستطيع أن ينكر الواقع البشري المنحط من الناحية الأخلاقية.

فالظلم والإباحية والأنانية وكل رزية من هذه الرزايا لعبت دورها الكبير في المجتمعات الحاضرة، وانحط فيها الخط البياني إلى الحضيض.

تعال معي إلى دور القضاء، ومكاتب المحامين، وسجلات الجرائم في كل

العالم لترى إلى أي حد بلغت المظالم الفردية، وأي رقم بلغت الجريمة، فالفرد اعتاد الظلم، ودرج عليه، والقضاء فاسد ليست فيه عقوبة رادعة في الأغلب، والمحامون كثير منهم تجار مادة على حساب ضمائرهم، أضرموا نيران الجرائم لكي تمتلئ جيوبهم، والحكام كثير منهم زور عن الحق، ولو ظهر جليًّا لأعينهم، كل أطراف القضية متواطئون على الجريمة، وكل أسوار الحمى منتقضة حتى ضجت الأرض من ظلم أهلها، فأين يجد العدل مأمنه ويحظى الحق بحماه؟

هنا يبرز دور الإسلام العظيم في تهذيب الفرد، وإقامة وازعه الداخلي الذي يرافقه حتى الممات، مبنيًّا على مراقبة الله، وخشية الوقوف بين يديه، واليقين بزوال الدنيا، وبقاء الآخرة، وفي صلاحية مادة القضاء التي تضع الأمور في نصابها ﴿وَلَكُمْ فِي ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَـٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ (البقرة: ١٧٩)، وفي تقويم الضمائر حتى تحكم بالعدل، وتقول الحق، ولو كان على النفس أو الوالدين والأقربين ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، فالمحامي، والحاكم، والشاهد إنما هم موازين حق يحاسبون على الذرة والقطمير ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝٧ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ ۝٨﴾ (الزلزلة: ٧-٨)، ذلك أن الحاكم يتمثل قول الرسول- عليه الصلاة والسلام - «إن المقسطين على منابر من نور عن يمين الرحمن»، وقوله- عليه الصلاة والسلام- «قاضٍ في الجنة وقاضيان في النار»، والشاهد يتمثل قوله تعالى ﴿وَلَا تَكْتُمُوا۟ ٱلشَّهَـٰدَةَ ۚ وَمَن يَكْتُمْهَا فَإِنَّهُۥٓ ءَاثِمٌ قَلْبُهُۥ﴾ (البقرة: ٢٨٣)، ووعيد رسول الله ﷺ حينما جعل شهادة الزور من أكبر الكبائر، وأصبح المحامي يخشى إن دافع عن ظلم وباطل أن يكون رزقه سحتا «وكل لحم نبت من سحت فالنار أولى به» فما أحوج العصر لنور الإسلام.

ثم تعال معي نحص حصاد الإباحية إن كان يمكن الإحصاء.

كم فتكت الإباحية في كيان البشرية بالزنا والربا والخمر والميسر بداعي الحرية الزائف وسرابها الخادع، تعال معي إلى عيادات الأطباء وسجلات المستشفيات في شرق الأرض وغربها لترى ما يذهل العقول من أرقام ضحايا

الزنا، والربا، والخمر، والميسر، إن أنواع الأمراض الزهرية من الإفرنجي والسيلان والقرحة اللينة، وأنواع التسمم الغولي من تشمع الكبد، وقرحة المعدة وتصلب الشرايين، وعدد ضحايا الانتحار من جراء الربا، والقمار انتشرت في جميع أنحاء المعمورة، وتزايدت أرقامها باضطراب حتى عجز الطب عن المعالجة، وسرى المرض من الآباء إلى الأبناء، ومن الأجداد إلى الأحفاد، ويكفي أن تعلم أن أكثر أسباب السكتة القلبية (الجلطة) والسكتة الدماغية عائد إلى الخمر والإفرنجي حتى تعلم ما تجره هاتان الغائلتان على العالم من شرور، وهنا تذكر دور الإسلام العظيم الذي ينادي بأعلى صوته﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾، (المائدة: ٩٠)، ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾﴾ (الإسراء: ٣٢).

وشرع العقوبة الرادعة حتى لا يبقى الحكم نظريًّا لا فائدة منه فقال ﴿ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾﴾ (النور: ٢).

ثم شرع عقوبة التعزير لشارب الخمر، كما ثبت في السنة الصحيحة، بل ورد وجوب قتله إن أصر على المعصية جهارًا ولم يرتدع.

والأثرة (وهي الأنانية) ذلك الداء الوبيل الذي أصبح يتحكم بتصرفات الأفراد والجماعات حتى كاد يكون أس جميع المفاسد، وطابع جميع الأعمال، بل تأصل في النفوس، وطغى عليها حتى نسيت عاره، وانسجمت معه، فاحتكمت إليه، فأصبح مقياسًا للاندفاع في العمل، أو الإحجام عنه، فالعمل بمقدار ما يؤمّن لك مصلحتك الخاصة يكون عملاً صالحًا يجب الإقدام عليه، وبمقدار ما ينافي مصلحتك الخاصة يجب الإحجام عنه ولو كان فيه نفع غيرك أو نفع الأمة قاطبة، يا سبحان الله! كيف انقلبت المفاهيم ومسخت الأخلاق؟

ولك أن تتصور بعد ذلك هول الانحدار الذي تتردى فيه الإنسانية إلى هوة سحيقة عرفت أولها، ولا يمكن أن تعرف آخرها، لأن قعر جهنم لا يعرف له مدى إلا في علم الله تعالى، هنا تبدو عظمة الإسلام أيضا الذي يأبى إلا أن يبني

الأخلاق على أساس متين، وإلا أن يحل المشكلات حلولا جذرية ﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَـٰنَهُۥ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَٱنْهَارَ بِهِۦ فِى نَارِ جَهَنَّمَ﴾ (التوبة: ١٠٩).

فإذا كانت حضارة العصر تبنى أخلاق بنيها على الإنسانية الممقوتة فإن أخلاق الإسلام مبنية على الإيثار والغيرة ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ (الحشر: ٩) وقال ﷺ: «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه».

وبهذا الدستور الخالد تحسم أكثر الجرائم التي إن بحثنا عن أسبابها العميقة وجدناها ترجع إلى أنانية ممقوتة تخفي تحتها أقبح صور الحقد على الناس، ولا يتسع المجال لضرب كثير من الأمثلة العملية التي تفضح سوآت الأنانية، وتفصح عن مجال الغيرة، فذلك يستقل وحده بموضوع، وإنما كان البحث على مستوى الأصول لا الفروع.

بهذا العرض السريع المجمل يتبين ما للإسلام من دور عظيم في إصلاح حياة الأفراد والجماعات، لا سيما العصر الذي نعيش فيه، فإنه بقدر ما تكون الأرض عطشى تحتاج إلى الماء، وبقدر ما تحتبس الأنفاس تحتاج إلى الهواء، وإن نظرة فاحصة مجردة تتمتع بالنزاهة كافية للاقتناع بصلاحية هذا الدستور الإلهي العظيم ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، وإن غدًا لناظره قريب، وما ذلك على الله بعزيز.

* * *

الدعوة إلى الله

بعض سماتها المطلوبة في هذا العصر

العدد (١٦٩) محرم (١٣٩٩هـ) - ديسمبر (١٩٧٨م).

سأتناول في هذه الكلمة، بعض السمات البارزة التي يجب أن تتسم بها الدعوة والدعاة في هذا العصر، حتى يستطيعوا أن يقوموا بدور الدعوة في أتم وجه، ويبلغوا رسالة الرسل عليهم السلام، ويؤثروا التأثير المطلوب.

أما الدعوة الإسلامية، فيجب أن تكون هذه الدعوة، جامعة بين تحريك الإيمان في نفوس المخاطبين والمجتمع الإسلامي، وإثارة الشعور الديني، وبين إكمال الوعي وتنميته وتربيته، فإن المتتبع لأحوال العالم الإسلامي اليوم، وواقع الأقطار الإسلامية وحكوماتها وشعوبها، يعرف أن تمسك هذه الشعوب والجماهير بالإسلام، وحبها له، هو الحاجز السميك، والسد المنيع، لكثير من القيادات التي خضعت للحضارة الغربية وقيمها ومفاهيمها، وفلسفاتها ونظمها، وآمنت بها إيماناً كإيمان المتدينين بالديانات، والمؤمنين بالشرائع السماوية، وفقدت الثقة بصلاحية الإسلام لمسايرة العصر الحديث وتطوراته وأحداثه، وكرسالة خالدة عالمية، فإسلام هذه الشعوب والمجتمعات، وكونها لا تفهم إلا لغة الإيمان والقرآن، ولا تندفع إلا لما يجيء عن طريقهما، ولما يمس قلبها ويخاطب ضميرها، يعوق كثير من هذه القيادات عن نبذ الإسلام نبذاً كلياً وإعلان الحرب عليه.

وقد لجأ بعض هذه القيادات في ساعات عصيبة، إلى إثارة هذا الإيمان والحماس الديني، واستخدامهما لكسب المعركة أو الانتصار على العدو حين رأت أن لا ملجأ من الله إلا إليه، وإلى إيمان هذه الشعوب السليمة المؤمنة، فرفعت هتاف التكبير «الجهاد» و«الشهادة» في سبيل الله، ومحاربة العدو الكافر

المهاجم كما فعلت الجزائر في حربها مع الفرنسيين وباكستان في حرب ١٩٦٥م، وجربت فائدة هذا الإيمان وقوة هذه العاطفة.

فأصبح إيمان هذه الشعوب وتمسكها بالإسلام وتحمسها له، هو السور القوي العالي الذي يعتمد عليه في بقاء هذه البلاد، وكثير من القيادات والحكومات الإسلامية في حظيرة الإسلام، فإذا تهدم هذا السور- لا سمح الله بذلك- أو تسوره دعاة الكفر واللادينية، أو تيار الردة الفكرية والحضارية، فالخطر كل الخطر على الإسلام في هذه البلاد، ولا يمنع هؤلاء القادة المحاربين للإسلام، والمضمرين له العداء والحقد شيء من أن يخلعوا العذار ويطرحوا الحشمة والتكلف، ويجردوا هذه الأقطار والشعوب العريقة في الإسلام من كل ما يمت إلى الإسلام بصلة، فإن الشيء الوحيد الذي يخافون معرته، ويحسبون له حساباً، هو ثورة هذه الشعوب على هذه القيادات بدافع الإيمان والحماس الإسلامي، فيفقدهم ذلك ما يتمتعون به من كراسي الحكم ومركز القيادة، فإذا زال الحاجز لم يقف في وجههم شيء!

إذن فيجب على دعاة الإسلام والعاملين في مجال الدعوة الإسلامية، الاحتفاظ بهذه البقية الباقية من الإيمان في نفوس الشعوب والجماهير، والمحافظة على الجمرة الإيمانية من أن لا تنطفئ.

ولا يصح الاقتصار على تحريك الإيمان، وإثارة العاطفة الدينية في نفوس الشعوب والجماهير، بل يجب أن تضم إليه تنمية الوعي الصحيح وتربيته، والفهم للحقائق والقضايا، والتمييز بين الصديق والعدو، وعدم الانخداع بالشعارات والمظاهر، فقد رأينا أن الشعوب التي يضعف فيها هذا الوعي أو تحرمه، يتسلط عليها- رغم تمسكها بالإسلام وحبها له- قائد منافق، أو زعيم ماكر أو عدو جبار، فيصفق له الشعب بكل حرارة ويسير في ركابه، فيسوقها بالعصا سوق الراعي لقطعان من الغنم، لا تعقل ولا تملك من أمرها شيئاً، ولا يمنعها تمسكها بالإسلام وحبها له، من أن تكون فريسة سهلة، أو لقمة سائغة للقيادات اللادينية، أو المؤامرات ضد الإسلام.

وقد كان ما يمتاز به المجتمع الإسلامي الأول، الصحابة رضي الله عنهم بفضل التربية النبوية الدقيقة الشاملة وبالجمع بين الدين المتين الذي لا مغمز فيه، والإيمان القوي الذي لا يعتريه وهن، وبين الوعي الناضج الكامل، فكانوا لا يخدعون ولا ينخدعون، ولا يسيغون شيئاً ينافي الإسلام وينافي العقل، والذي يضرهم ويجني عليهم، أو يوقعهم في خطر أو تهلكة، أنهم قد بلغوا من الرشد، واستكملوا الحصافة والنضج، فلا يؤخذون على غرة، ولا يقعون في شرك ينصبه العدو الماكر، يخطئون ولكن لا يصرون، ولا تتكرر منهم غلطات وتورطات، وقد جاء في حديث صحيح «لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين» رواه البخاري، بخلاف الشعوب الفاقدة الوعي فهي تلدغ مرة بعد مرة، وذلك لأن رسول الله ﷺ أخذ صحابته الكرام بتربية وتعاليم آمنوا بها عن الوقوع في الشباك، وامتنعوا بها عن قبول ما لا يتفق مع تعاليم الإسلام، وآدابه والفطر السليمة والعقول المستقيمة، فكان مجتمعاً نموذجياً مثالياً في كل شيء.

وأعرض - على سبيل المثال - مثالين من هذا العقل الحصيف والوعي الكامل الأول:

أن النبي ﷺ قال مرة «انصر أخاك ظالما أو مظلوما» وهو مثل جاهلي قديم، وعرف من أعراف العرب الأولين، تمسك به العرب في جاهليتهم كما قال العلامة الحافظ ابن حجر في شرح هذا الحديث في كتابه الجليل فتح الباري، فكان المتوقع المعقول أن يتلقاه الصحابة - وقد نشأوا في الجاهلية وعاشوا في الجزيرة - إما بالقبول، وإما بالسكوت. وقد صدر هذا الكلام من النبي المعصوم الذي زكى الله قوله فقال في حقه: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ ۝٤﴾ (النجم: ٣-٤) وقد عرف حبهم لنبيهم ﷺ وفداؤه له بالنفس، والنفيس، وكان حباً لا نظير له في تاريخ الديانات والرسالات، وفي تاريخ الحب والطاعة العالمي، وكان تفسيراً للحديث المشهور «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» (متفق عليه) وجاء في بعض الروايات «من نفسه» ولكن كل ذلك لم يمنعهم عن التساؤل أو الاستيضاح، فإن ظاهر الكلام

كان ينفي ما فهموه من تعاليم الإسلام، وما شاهدوه من تربية الرسول وأخلاقه، وما آمنوا به من مبدأ الإنصاف والمساواة وقوله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوا۟ قَوَّٰمِينَ بِٱلْقِسْطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمْ أَوِ ٱلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ﴾ (النساء: ١٣٥) وقوله تعالى: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ۚ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ (المائدة: ٨)، قيل يا رسول الله، كيف أنصره ظالماً؟

هنالك فسره رسول الله ﷺ تفسيراً يتفق مع تعاليمه السابقة الدائمة فقال «تحجزه عن الظلم فإن ذلك نصره» والحديث رواه أحمد والبخاري والترمذي. هنالك اقتنع الصحابة رضي الله عنهم، وشفيت صدورهم، فازدادوا إيماناً على إيمان، وهو مثال بليغ رائع من أمثلة الوعي الإيماني العقلي الذي كان شعاراً لصحابة الرسول ﷺ والصدر الأول.

والمثال الثاني:

أن رسول الله ﷺ أرسل سرية، وأمر الصحابة بطاعة الأمير، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير، وقد كان في هذه السرية ما لم يرض الأمير، وشك في انقيادهم له، فأمر بالحطب، فجمع، وأمر بالنار فأشعلت، ثم قال: خوضوها، فامتنع الصحابة رضي الله عنهم عن طاعته في ذلك لأنه «لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق» (حديث رواه أحمد والحاكم وإسناده صحيح) وقالوا: إنما فررنا من النار، ولما رجع إلى المدينة شكا على رسول الله ﷺ فصوب فعلهم، وقال: «لو دخلوا فيها، لم يزالوا فيها، وقال: لا طاعة في معصية الله، إنما الطاعة في المعروف (ذكرت القصة بطولها في سنن أبي داود، كتاب الجهاد).

وكانت نتيجة ضعف بعض الشعوب المسلمة القوية في إيمانها، الغنية في مظاهرها الإيمانية، ومراكزها الدينية، وثروتها العلمية أنها كانت فريسة سهلة للهتافات الجاهلية، اللغوية والثقافية، ولعبة القيادات المداهنة والمؤامرات الأجنبية، وذهبت ضحية سذاجتها وضعفها في الوعي الديني، والعقل الإيماني، كما وقع في باكستان الشرقية في (١٩٧٠م)، فقد قامت فيها مجزرة إنسانية هائلة

وما ذلك إلا بسحر دعوات العصبية اللغوية والعصبية الوطنية على هذا الشعب المسلم المؤمن الذي كان له تاريخ مجيد في البطولات الإسلامية وخدمة الإسلام والعلم ونهض فيه علماء كبار ودعاة إلى الله، وغصت بلادها بالمساجد والمدارس وكانت عاصفة هوجاء، هبت ثم ركدت، ونار حامية التهبت ثم انطفأت، ولكنها زلزلت أركان الإسلام في هذه المنطقة، وأضعفت الكيان الإسلامي، وكانت حجة لأعداء الإسلام الذين يقولون إن الإسلام لا يستطيع أن يقاوم العصبيات القومية ولا يقتلع جذورها من نفوس أتباعه.

وواجب ثالث مقدس من واجبات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية، هو صيانة الحقائق الدينية، والمفاهيم الإسلامية من التحريف، وإخضاعها للتصورات العصرية الغربية، أو المصطلحات السياسية والاقتصادية، التي نشأت في أجواء خاصة، وبيئات مختلفة، ولها خلفيات وعوامل وتاريخ، وهي خاضعة دائماً للتطور والتغيير، فيجب أن نغار على هذه الحقائق الدينية والمصطلحات الإسلامية غيرتنا على المقدسات وعلى الأعراض والكرامات، بل أكثر منها وأشد، لأنها حصون الإسلام المنيعة، وحماه وشعائره، وإخضاعها للتصورات الحديثة أو تفسيرها بالمصطلحات الأجنبية، إساءة إليها لا إحسان، وإضعاف لها لا تقوية، وتعريض للخطر لا حصانة، ونزول بها إلى المستوى الهابط لا رفع لشأنها كما يتصور كثير من الناس، فإذا قلنا الحج مؤتمر إسلامي عالمي، لم ننصف للحج، ولم ننصف لمن نخاطبه، ونريد أن نفهمه حقيقة الحج وروحه ولما شرع له ولم ننصح لكليهما، وإن روح الحج وسر تشريعه، غير ما تعقد له المؤتمرات صباح مساء، ولو كان الحج مؤتمراً إسلامياً عالمياً لكان له شأن ونظام غير هذا النظام، وجو غير هذا الجو، ولكان النداء له مقصوراً على طبقات مثقفة واعية فقط وعلى قادة الرأي وزعماء المسلمين.

كذلك حقيقة العبادة وحقيقة الصلاة، وحقيقة الزكاة والصوم، فلا يجوز العبث بهذه المصطلحات والتجني عليها، وإخضاعها للفلسفات الجديدة، وتفسيرها بالشيء الذي لا ثقة به ولا قرار له، وقد استخدمت هذه «الإستراتيجية

الدعائية» الباطنية في القرن الخامس الهجري فما بعده ففسروا المصطلحات الدينية بما شاءوا وشاءت أهواؤهم ومصالحهم وتفننوا فيه، وأتوا بالعجب العجاب، وحققوا به غرضهم من إزالة الثقة بهذه الكلمات المتواترة التي هي أسوار الشريعة الإسلامية وحصونها، وشعائرها، ونشر الفوضى في المجتمع الإسلامي، والجماهير المسلمة، وإذا فقدت هذه الكلمات التي توارثت فهمها الأجيال المسلمة وتواتر في المسلمين، وأصبح فيها مساغ لكل داع إلى نحلة جديدة، ورأي شاذ، وقول طريف، فقد أصبحت قلعة الإسلام مفتوحة لكل مهاجم ولكل منافق، وزالت الثقة بالقرآن والحديث واللغة العربية، وجاز لكل قائل أن يقول ما شاء ويدعو إلى ما شاء، وهذه فتنة لا تساويها فتنة وخطر لا يكافئه خطر.

إن مفاهيم هذه الكلمات معينة - على اتساعها وبلاغتها وعمقها وكثرة معانيها- وإن الأمة توارثت هذه المفاهيم المعينة كما توارثت أشكال الصلاة والصوم والحج ونظمها الظاهرة، وتناقلتها وحافظة عليها من غير أقل انقطاع أو أقصر فترة، وإنه معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿٩﴾﴾ (الحجر: ٩) و﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ (المائدة: ٣) وهو معنى الحديث المشهور الذي صح معناه «لا تجتمع أمتي على الضلالة» وقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن سنة واحة من السنن الكثيرة لم ترتفع من هذه الأمة بشكل كلي، وإنها لا تزال طائفة من أمتي ظاهرة على الحق.

والكلمات هي الوسيلة الوحيدة لنقل المعاني والحقائق من جيل إلى جيل ومن عصر إلى عصر، ومن إنسان إلى إنسان، فإذا وقع الشك في مدلول هذه الكلمات ومصداقها، أو صار التلاعب بها هيناً اضطربت دعائم الدين وتزلزلت أركانه، وهذا يعم التاريخ والشعر والأدب، لذلك كانت الفوضى اللغوية Linguistic Anarchy ومن أمثلة هذا التلاعب بالمصطلحات الدينية، أن أستاذاً في إحدى جامعات الهند الكبرى، وهو يدرس اللغة العربية وآدابها، ألقى محاضرة في دورة مؤتمر الدراسات الإسلامية الأخيرة قال فيها أن المراد بكلمة

«الصلاة» حيثما وردت في القرآن مطلقة «الحكومة المحلية» أو «الإقليمية» والمراد «بالصلاة الوسطى» الحكومة المركزية أو «الخلافة العامة» وكان المقال باللغة العربية، وقد رددت عليه في حينه وقلت في تعليقي عليه أنه تلاعب بالقرآن وبالعقل وتمهيد لفوضى لغوية فكرية، وفتح الباب للإلحاد على مصراعيه.

وليست قضية الأسماء والمصطلحات من البساطة بالمكان الذي يتصوره كثير من الناس، فإنها تؤثر في النفس تأثيراً خاصاً وتثير معاني وأحاسيس ذات الصلة بالماضي، وذات الصلة بالعقائد والأعراف أحياناً ولذلك كره رسول الله ﷺ أن يقال «العتمة» مكان العشاء «ويوم العروبة» بدل الجمعة، واستبدال كلمة يثرب بمدينة الرسول أو بالمدينة، وله أمثلة أخرى في الشريعة الإسلامية.

وكذلك أحذر المسلمين مما لوحظ من بعض الكتاب من الضغط على أن هذه الأركان الدينية، وفرائض الإسلام، كالصلاة والزكاة والصيام، والحج، وسائل لا غايات، إنما شرعت لإقامة الحكم الإسلامي وتنظيم المجتمع المسلم، وتقويته، وأحذر من كل ما يحط من شأن روح العبادة والصلة بين العبد وربه وامتثال الأمر، ومن التوسع في بيان فوائدها الخلقية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية أحياناً توسعاً يخيل للمخاطب أو القارئ أنها أساليب تربوية أو عسكرية أو تنظيمية، قيمتها ما يعود منها على المجتمع من قوم ونظام، أو صحة بدنية وفوائد طبية، فإن أول إضرار هذا الأسلوب من التفكير أو التفسير، أنه يفقد هذه العبادات قيمتها وقوتها وهو امتثال أمر الله وطلب رضاه بذلك، والإيمان والاحتساب والقرب عند الله تعالى وهي خسارة عظيمة لا تعوض بآية فائدة، وفراغ لا يملأ بأي شيء في الدنيا .

والضرر الثاني أنه لو توصل أحد المشرعين أو الحكماء المربين إلى أساليب أخرى قد تكون أنفع، أو يخيل أنها أنفع، لتحقيق هذه الأغراض الاجتماعية أو التنظيمية أو الطبية لاستغنى كثير من الذين آمنوا بهذه الفوائد عن الأركان والعبادات الشرعية، وتمسكوا بهذه الأساليب أو التجارب الجديدة، وبذلك يكون الدين دائماً معرضاً للخطر ولعبة للعابثين والمحرفين.

وهذا لا ينافي الغوص في أعماق هذه الأركان والأحكام والحقائق الدينية، والكشف عن أسرارها وفوائدها الاجتماعية، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، وقد أفاض علماء الإسلام قديماً وحديثاً في بيان مقاصد الشريعة الإسلامية، وأسرار العبادات والفرائض والأحكام الشرعية، وألفوا كتباً مستقلة وكتبوا بحوثاً جليلة، كالغزالي والخطابي، وعز الدين بن عبد السلام وابن القيم الجوزية، وأحمد بن عبد الرحيم الدهلوي، ولكن كل ذلك من غير تحريف لحقيقة هذه العبادات والأحكام، والغاية الأولى التي شرعت لها، وهي امتثال الأمر الإلهي، والتقرب إليه بذلك، والإيمان والاحتساب فيها ومن غير إخضاع لها للفلسفات العجمية أو الأجنبية في عصرهم، ومن غير خضوع بسحرها وبريقها.

وأحذركم ثانية أيها الشباب من كل ما يقلل من شناعة الوثنية العقائدية والشرك الجلي من عبادة غير الله والسجود له وتقديم النذور والقرابين وإشراكه في صفات الله من قدرة وعلم، وتصرف، وإماتة وإحياء، وإسعاد وأشقاء، وأحذركم من الاكتفاء بالتركيز على شناعة الخضوع للحكومات والنظم الإنسانية والتشريعات البشرية، وتحويل حق التشريع للإنسان، وإن ذلك هو وحده عبادة الطاغوت والشرك، وإن الوثنية الأولى وعبادة غير الله، قد فقدت أهميتها، وإنما كانت لها الأهمية في العصر القديم، العصر البدائي، وإنه لا يقبل عليها الآن إلا الرجل الجاهل، الذي لا ثقافة له، ففضلاً عن أن هذه الوثنية والشرك الجلي، لا يزال له شيوع وانتشار ودولة وصولة يجربه كل إنسان في كل زمان ومكان، فإنها الغاية الأولى التي بعث لها الأنبياء وأنزلت لها الكتب السماوية، وقامت لها سوق الجنة والنار. وكانت دعوة جميع الأنبياء تنطلق من هذه النقطة، وكانت جهودهم مركزة على محاربة هذه الجاهلية، والقرآن مملوء بذلك بحيث لا يقبل تأويلاً ويكفي أن تقرأ على سبيل المثال، سورة «الأعراف» وسورة «هود» وسورة «الشعراء» والحديث عن كل نبي ودعوته.

أما ما يتصل بصفات العاملين في مجال الدعوة الإسلامية وجنود الدعوة إلى

الله فإنني أركز في هذا الحديث الموجز على نقطة واحدة، وهو أنه يجب أن يكون الدعاة يمتازون عن الدهماء والجماهير، ودعاة النظم الجديدة والفلسفات السياسية والاقتصادية بقوة إيمانهم وحرارة قلوبهم، وزهدهم في زخارف الدنيا، وفضول العيش ونهامة للمادة، ومرض التكاثر، فإنهم لا يستطيعون أن يؤثروا فيمن يخاطبونهم، ويحملوهم على إيثار الدين على الدنيا والآجلة على العاجلة، وتلبية نداء الضمير والإيمان على نداء المعدة والنفس والشهوات، وإشعال مجامر قلوبهم التي انطفأت أو كادت تنطفئ، إلا إذا شعر الناس فيهم بشيء لا يجدونه في قلوبهم وحياتهم فإن الناس ما زالوا ولا يزالون مفطورين على الإجلال لشيء لا يجدونه عندهم، فالضعيف مفطور على احترام القوي، والفقير مفطور على احترام الغني، والأمي مفطور على احترام العالم، حتى اللئيم مفطور على احترام الكريم، أما إذا رأى الناس علماء ودعاة لا يقلون عنهم في حب المادة والجري وراءها والتنافس في الوظائف والمناصب والإكثار من الثراء والتوسع في المطاعم والمشارب، وخفض العيش ولين الحياة، فإنهم لا يرون لهم فضلاً عليهم، وحقاً في الدعوة إلى الله وإيثار الآخرة على الدنيا، والتمرد على الشهوات، والتماسك أمام المغريات، وقد قيل: «إن فاقد الشيء لا يعطيه» وكذلك القلب الخاوي لا يملأ قلباً آخر بالإيمان والحنان، وإن الموت لا ينشئ الحياة. وإن البرودة لا تعطي الحرارة وإن الرماد الذي لا تكمن فيه جمرة لا يلهب القلوب الخامدة، ولا يحيي النفوس الميتة، والكشاف لا ينير الطريق إذا كانت قد نفدت شحنته، فلا بد أن تشحن القلوب لشحنة جديدة، وإذا كانت «بطارية» من غير شحنة كانت أقل عناء وقيمة من عصا يحملها الإنسان، فقيمة «البطارية» الشحنة وقيمة الشحنة النور، فإذا لم تكن شحنة أو كانت شحنة ولا نور فالعصا خير منه.

ثم إني أتساءل:

أليس هذا العصر هو العصر الذي انتشر فيه العلم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية، وازدهرت فيه الخطابة والكتابة، وبلغت حد الشعر والسحر، وعمت الجامعات في كل مكان، وتدفق السيل من المطبوعات والمنشورات من المطابع

ودور النشر، ونبغ فيها علماء وباحثون ووعاظ ومرشدون. فلماذا فقد العلماء والموجهون التأثير في النفوس والقلوب في صد تيار المادية والاستغلال والجشع والنهامة للمال؟ هذه البلاد العربية بما فيها البلاد المقدسة- أصبحت مصداقاً لما أخبر به الرسول ﷺ في إحدى خطبه قبل وفاته «ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخاف أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم».

وأخوف ما نخاف أن تكتسح هذه البلاد الموجة العارية من التكاثر في الأموال، واستغلال حاجة الناس وضعفهم والانتهازية، وهي الموجة التي لا تعرف الرحمة والهوادة، ومكارم الأخلاق التي عرف بها العرب في العصر الجاهلي، وربما يعود ذلك خطراً كبيراً على الحج ومركزه، ويمكن أن يشكل محنة للوافدين إليهن فيضطر الدعاة في صد هذه الموجة إلى مكافحة خلقية، وحملة دعوية تربوية تنظم لإصلاح الحال، وإيقاظ الضمير، وإثارة الغيرة الإسلامية والشعور النبيل، وتنطلق من المنابر والصحف والإذاعة ووسائل الإعلام، وتجند لها الطاقات والألسن والأقلام.

وسمة الدعوات الحية المخلصة التي تقتبس النور من مشكاة النبوة، وتسير على نهجها، أنها تجس نبض المجتمع جساً صحيحاً أميناً، وتهتدي إلى الداء الحقيقي ومواضع الضعف في جسم هذا المجتمع، وتضع أصبعها عليها، وتضرب على الوتر الحساس، من غير محاباة أو مداهنة، ولا تكترث بألم هذا المجتمع أو ملامه، كما فعل شعيب في دعوته، فوجه دعوته- بعد الدعوة إلى التوحيد- إلى إيفاء الكيل، والوزن بالقسطاس المستقيم، وشنع على التطفيف، إذ كان ذلك عيب المجتمع الذي بعث فيهن وسمته البارزة، وكذلك فعل غيره من الأنبياء.

وهذه كانت سنة الدعاة إلى الله من المخلصين الربانيين في تاريخ الإسلام، فكانوا ينتقدون المجتمع في الصميم، ويصيبون المحز، ولذلك كان وقع كلامهم في النفوس عظيماً وعميقاً، وما كان يسع المجتمع أن يتغافل عنهم، أو يمر بهم

مراً سريعاً، أو يسلي نفسه بأنهم إنما يعنون غيره من المجتمعات التي سبقت، أو المجتمعات التي لم تخلق بعد، وهذا كان شأن الحسن البصري في مواعظة إذ كان دائماً يشير إلى النفاق الذي كان داء المجتمع الإسلامي، وهو في أوج مجده ورخائه، ويذم حب الدنيا وطول الأمل، وهذا كان شأن الشيخ عبد القادر الكيلاني، فيدعو إلى التوحيد الخالص وقطع الرجاء، والخوف من غير الله وأنه لا يضر ولا ينفع سواه.

لأن الناس كانوا قد ربطوا مصيرهم بالخلفاء والأمراء وأصحاب الحول والطول والأمر والنهي في العاصمة، وهذا كان شأن ابن الجوزي في مواعظه الساحرة، ومجالسه المزحومة، فإنه كان يشنع على الحياة اللاهية الماجنة التي كان يحياها كثير من الناس في بغداد، وعلى الذنوب والمعاصي التي كانت تقترف جهاراً، والمنكرات التي شاعت، فكان مئات وآلاف من الناس يتوبون ويقلعون عن الذنوب، وكان نشيج يعلو وقلوب ترق، وعيون تدمع، وموجة من الإنابة والرقة تكتسح الجموح الحاشدة لأنه كان يمس القلوب ويصور الواقع، ولا يكتفي بالكلام العام والوعظ التقليدي. ولك أن تقرأ تفاصيل مجالس ابن الجوزي وتأثيرها في كتاب «صيد الخاطر» و«رحلة ابن جبير».

وهنا أنقل إليكم قطعة من كتابنا «رجال الفكر والدعوة في الإسلام» والمؤلف يتحدث عن الإمام أحمد بن حنبل وزهده.

«وقد رأينا الزهد والتجديد مترافقين في تاريخ الإسلام، فلا نعرف أحداً ممن قلب التيار وغير مجرى التاريخ، ونفخ روحاً جديدة في المجتمع الإسلامي أو فتح عهداً جديداً في تاريخ الإسلام، وخلف تراثاً خالداً في العلم والفكر والدين، وظل قروناً يؤثر في الأفكار والآراء، ويسيطر على العلم والأدب، إلا وله نزعة في الزهد، وتغلب على الشهوات، وسيطرة على المادة ورجالها، ولعل السر في ذلك، أن الزهد يكسب الإنسان قوة المقاومة، والاعتداد بالشخصية والعقيدة، والاستهانة برجال المادة، وبصرعى الشهوات، وأسرى المعدة. ولذلك ترى كثيراً من العبقريين والنوابغ في الأمم، كانوا زهاداً في الحياة، متمردين على

الشهوات، وبعيدين عن الملوك والأمراء والأغنياء في زمانهم، ولأن الزهد يثير في النفس كوامن القوة، يشعل المواهب، ويلهب الروح، وبالعكس إن الدعة والرخاوة تبلد الحس وتنيم النفس وتميت القلب.

وهناك تعليلات أخرى يوافق عليها علم النفس وعلم الأخلاق، ولا أطيل بذكرها، وأقتصر على هذه الملاحظة التاريخية، والح على أن منصب التجديد والبعث الجديد يتطلب لا محالة زهداً وترفعاً عن المطامع وسفساف الأمور ويأبى الاندفاع إلى التيارات، ويتنافى مع الحياة الوادعة الرخية والعيشة الباذخة الثرية، إنما هو خلافة للرسول الأعظمﷺ، وقد قيل له: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾﴾ (طه: ١٣١).

وأمر بأن يقول لأزواجه ﴿إِن كُنتُنَّ تُرِدْنَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا فَتَعَالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وَأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا﴾ (الأحزاب: ٢٨) وهذه سنة الله فيمن يختاره لهذا الأمر العظيم، ومن يرشح نفسه ويمنيها بهذا المنصب الخطير، ولن تجد لسنة الله تحويلاً.

ومن أبرز سمات الدعوة التي يقوم بها الأنبياء وخلفاؤهم، أنها تقوم على الإيمان بالآخرة، والتحذير من عقابها، والترغيب في نعمائها وثوابها ويكون مناط العمل فيها الإيمان والاحتساب والأجر والثواب، لا على الإغراء بالفوائد الدنيوية والجاه والمنصب والمال والملك، فإنه أساس ضعيف منهار، ولا يتفق مع طبيعة دعوات الأنبياء، والمساومة فيه سهلة، وقد يملك أعداؤهم وخصومهم والقادة السياسيون مثله أو أكثر منه، ومن ضع بلبان هذه المطامع لم يمكن فطامه عنها، ولا يصح الاعتماد عليه، وإنما يبنون دعوتهم على رضى الله وثوابه، وما أعده الله لعباده المؤمنين، وما وعدهم به على لسان أنبيائه، من نعيم لا يزول ولا يحول، والصحف السماوية- غير صحف العهد القديم التوراة- مملوءة بالحديث عن الآخرة والاهتمام بها والبناء عليها وقد جعل لإسلام الإيمان بها عقيدة أساسية وشرطاً لصحة الإيمان والنجاة، وقد جاء في القرآن صريحاً: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿٨٣﴾﴾ (القصص: ٨٣).

وهنا أستعير لنفسي من نفسي ما قلته في إحدى محاضراتي تحت عنوان «النبوة والأنبياء في ضوء القرآن» وأختم به هذا الحديث مؤملا في أن تكون هذه السمات التي تحدثت عنها شعار الدعوة التي يقوم بها الدعاة المتخرجون في كل مكان، أو القائمون بأعباء الدعوة في كل ناحية من نواحي العالم الإسلامي، قلت وأنا أتحدث عن الفرق بين منهج الدعوات النبوية وبين الدعوات الإصلاحية.

«ولم تكن دعوة الأنبياء إلى الإيمان بالآخرة، أو الإشادة بها كضرورة خلقية أو كحاجة إصلاحية لا يقوم بغيرها مجتمع فاضل ومدنية صالحة فضلاً عن المجتمع الإسلامي. وهذا وإن كان يستحق التقدير والإعجاب، ولكنه يختلف عن منهج الأنبياء وسيرتهم ومنهج خلفائهم اختلافاً واضحاً. والفرق بينهما أن الأول منهج الأنبياء إيمان ووجدان، وشعور وعاطفة وعقيدة تملك على الإنسان مشاعره، وتفكيره وتصرفاته، والثاني اعتراف وتقدير وقانون مرسوم وإن الأولين يتكلمون عن الآخرة باندفاع والتذاذ ويدعون إليها بحماسة وقوة وآخرون يتكلمون عنها بقدر الضرورة الخلقية والحاجة الاجتماعية وبدافع من الإصلاح والتنظيم الخلقي، وشتان ما بين الوجدان والعاطفة وبين الخضوع للمنطق والمصالح الاجتماعية.

* * *

٣٢

مقالات

الشيخ أبي الأعلى المودودي

❑ **ترجمة الشيخ.**

❑ **المقالات:**

١- نكاح نساء أهل الكتاب.

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).



ترجمة الشيخ
أبو الأعلى المودودي

● مولده ونشأته



وُلِدَ أبو الأعلى المودودي سنة (١٢٦٦هـ، ١٨٥٠م) في أسرة تمتد جذورها إلى شبه الجزيرة العربية، وقد هاجرت أسرته إلى الهند في أواخر القرن التاسع الهجري.

أوقف الشيخ حياته على الدعوة إلى الإسلام، وجعل رسالته في الحياة إعلاءَ كلمة الحق، والتمكين للإسلام في قلوب أتباعه قبل ربوعه وأوطانه، فالتفَّ الكثير حوله.

تعلم الشيخ في طفولته على يد أبيه الذي حرص على تنشئته تنشئة دينية شاملة حيث كان يصحبه إلى مجالس أصدقائه من العلماء؛ فتفتحت ملكاته وظهر نبوغه وذكاؤه منذ حداثة سنه، ثم اجتاز امتحان مولوي، أي ما يعادل الليسانس.

عمل الشيخ مديرًا محرراً للعديد من الجرائد والمجلات، وسعى المودودي إلى تعلم اللغة الإنجليزية حتى أتقنها.

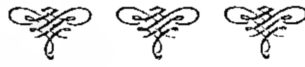
أسس المودودي الجماعة الإسلامية في لاهور، وتم انتخابه أميرًا لها في (٣ من شعبان ١٣٦٠ هـ - ٢٦ من أغسطس ١٩٤١م). ثم انتقلت الجماعة إلى دار السلام وكان المودودي طوال هذه الفترة لا يكف عن الكتابة والتأليف، فأصدر عدة إصدارات بلغت الـ (٧٠) منها:

«الجهاد في الإسلام، والإسلام والجاهلية، ودين الحق، نظرية الإسلام السياسية، وغيرها».

اعتُقِلَ الشيخ رَحِمَهُ ٱللَّهُ عدة مرات وحُكِمَ عليه بالإعدام ثم أطلق سراحه، واستقال الشيخ من إمارة الجماعة الإسلامية عام ١٩٧٢م.

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ سنة (١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م)، تاركاً العديد من الأفكار والتعليمات والمؤلفات الجليلة لتظل نبعًا صافيًا من منابع الإسلام الصافي والعقيدة الخالصة.



حول نكاح نساء أهل الكتاب

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م)

لقد طلب منا أحد إخواننا المخلصين، بإلحاح شديد، أن ننشر كلمة مفصلة عن زواج المسلمين بنساء أهل الكتاب، مستندين في ذلك إلى أحكام الكتاب والسنة، لأن فتنة «الإفرنجيات» كما يقول هذا الأخ الكريم، في تفاقم وانتشار هذه الأيام. وقد اتخذ المسلمون من الإذن الشرعي في هذا الباب حيلة للاستمتاع بهن، واستيرادهن بكثرة لا يوجد لها مثيل في تاريخهم الماضي.

ومما لا مجال فيه للريب أن هذه فتنة كبيرة في واقع الأمر، ظهر من تأثيرها الكثير في الهند ومصر وسوريا والكويت وغيرها من بلاد المسلمين.

إن «السيدات الغربيات» ولجن في حياة المسلمين الاجتماعية، ثم عملن ما في وسعهن لاستئصال الحضارة الإسلامية، وأخطر من ذلك ما ظهر من النتائج السياسية مما لا يستطيع مسلم- إن كان في قلبه حب للإسلام والمسلمين- أن يسكت عليه.

وعلى هذا، إن كان المخلصون من أفراد المسلمين اليوم يشعرون بحاجة إلى أن يقوموا في وجه هذه الفتنة، ويضعوا لها حدا معلوما، فلا شك أن ذلك إن دل على شيء فإنما يدل على حبهم للإسلام، ونصحهم للمسلمين.

ولكن كيف يكون عندنا التغيير والتعديل في قضية شرعية ثابتة؟

إن الذي قد أنزل القرآن حكيم عليم على الإطلاق، لا ينظر إلى كل المصالح والضرورات والحاجات إلا بغاية من التوازن والتناسب، فلا بد لإدراك أحكامه وتطبيقها على الظروف الراهنة تطبيقا سليما من أن نوسع دائرة نظرنا بقدر الإمكان، ثم نستعرض المصالح كلها- ما جل منها وما دق- استعراضا تفصيليا

شاملا، حتى لا ننزل كل واحدة منها إلا بدرجة من الرعاية والأهمية قد أنزلها بها الشارع نفسه.

فالآية التي تبيح للمسلمين أن يتزوجوا بنساء أهل الكتابين من اليهود والنصارى هي ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِٱلْإِيمَٰنِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ۝٥﴾ (المائدة: ٥)

● اختلاف السلف حول تفسير هذه الآية

لا شك أن السلف - رحمهم الله - قد اختلفوا كثيرا حول تفسير هذه الآية، إلا أن جمهور العلماء في كل زمان إنما حملوا حكمها على ظاهر ألفاظها وعموم إطلاقها، إذ لا بد من أن يكون أكثر حكمة في تشريعه وتقنينه لأنه مِن الذي أنزل على عبده الفرقان ليكون للعالمين نذيرا، ولو كانت هناك حاجة إلى استثناء أو تخصيص في حكمه ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥)، لقيده به بنفسه، إذ مما لا يجتمع مع حكمته في التشريع ألا يستعمل في بيان الأحكام القانونية ولا مثل اللغة الرصينة المتقنة التي يستعملها واضعو القوانين في الدنيا، فكيف يجوز أن نعتقد إذن أن كل مقصوده بهذا الحكم أن يحل للمسلمين التزوج بنساء طائفة خاصة من أهل الكتاب، وقد اختار لبيان هذا الحكم ألفاظا عامة شاملة لأهل الكتاب كلهم لا إشارة فيها قطعا إلى استثناء أو تخصيص، لأجل هذا فإن جمهور الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين من السلف قد حملوا هذه الآية على الإذن العام في التزوج بنساء أهل الكتاب بدون قيد ولا شرط، بل قد تزوجهن جماعة منهم ولم يروا بذلك بأسا لعموم هذا الإذن، فقد تزوج عثمان بن عفان بنائلة بنت الفرافصة الكلبية وهي نصرانية، وتزوج طلحة بن عبيدالله يهودية من أهل الشام، وتزوج حذيفة بن اليمان وكعب بن مالك والمغيرة بن شعبة بنساء من أهل الكتاب أو خطبوهن للزواج.

رأي عبدالله بن عمر

ولكن عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- من الصحابة وحده هو الذي كان لا يرى التزوج بنساء أهل الكتاب مطلقا، وكان يقول: إن الله حرم على المؤمنين النساء المشركات في قوله تعالى ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١)، وكان يقول «لا أعلم شركا أشد من أن تقول - أي المرأة - إن ربها عيسى أو عبد من عبيدالله»، ولذا فإنه يحرم التزوج بنساء كل من يوجد الكفر والشرك في اعتقادهم من أهل الكتاب، وقد فسر كلمة «والمحصنات» بالمسلمات، فمعنى الآية بموجب رأيه: إن لكم أيها المسلمون أن تتزوجوا أيضا باللاتي يدخلن في الإسلام من نساء أهل الكتاب.

رأي غير صحيح

ولكن لا يصح من هذا الباب رأي ابن عمر-رضي الله عنهما- وذلك لأسباب نذكرها بالاختصار فيما يلي: إن الله سبحانه وتعالى بنفسه قد بين في كتابه من معتقدات أهل الكتاب ما هو مبني على صريح الشرك كقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ (المائدة: ١٧)، وكقولهم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ (المائدة: ٧٣)، وكقول اليهود «عزير ابن الله» وقول النصارى ﴿ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ (التوبة: ٣٠)، بل قد نسب إليهم كلمتي الشرك والكفر، ولكنه على ذلك لم يذكرهم في أي موضع من كتابه بكلمة «المشركين» كاصطلاح لهم، وإنما ذكرهم في كتابه كله بكلمة «أهل الكتاب»، أو بكلمات أخرى لها نفس هذا المعنى. اقرأ القرآن من أوله إلى آخره تجد فيه ثلاث طوائف مستقلة بعضها عن بعض: طائفة المشركين والكفار، أي الذين ليس عندهم كتاب سماوي على وجه محرف أو غير محرف. وطائفة أهل الكتاب، أي الذين يؤمنون بنبي من الأنبياء وبكتاب من الكتب السماوية، على كل ما هم فيه من الضلالات الاعتقادية أو العملية. وطائفة أهل الإيمان، وهم المؤمنون برسالة محمد ﷺ بصرف النظر عما إن كانوا ولدوا في الإسلام أو دخلوا فيه من طائفة أهل الكتاب، أو طائفة المشركين والكفار.

والقرآن في ذكره هذه الطوائف الثلاثة يميز بعضها عن بعض بما لا مجال فيه

للاشتباه والاختلاط مطلقا، فلا يقول: «أهل الكتاب» ويريد بهم المشركين، أو يقول: «المشركين أو الكفار» ويريد بهم اليهود والنصارى، أو يقول «الذين أوتوا الكتاب» ويريد بهم المسلمين، فلما قال تعالى في موضع من كتابه﴿وَلَا تَنكِحُواْ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾ (البقرة: ٢٢١)، ثم قال في موضع آخر ﴿ٱلْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ﴾، إلى أن قال ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ (المائدة: ٥)، فلا بد من القول بأنه ليس المراد بالمشركات في الآية الأولى نساء أهل الكتاب، وإنما المراد بهن نساء الوثنيين وغيرهم من الأمم غير الكتابية.

ونحن إذا لم نفسر كلمة ﴿ٱلْمُشْرِكَٰتِ﴾ و﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بهذا المعنى فإن ذلك يستلزم تعارضا صريحا بين آيتين في القرآن، لا يمكن رفعه بمجرد أن يقال إن المراد بالمحصنات من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم أولئك اللاتي كن قد دخلن في الإسلام من نساء اليهود والنصارى، أو أن المراد بهن نساء الفرق الكتابية المتنزهة عن الشرك والكفر، وذلك:

١- لأن الله ﷻ قد قال ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ قبل أن يقول ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾، وليس المراد «بالمؤمنات» اللاتي قد ولدن في الإسلام فحسب، بل المراد بهن كذلك اللاتي قد دخلن في الإسلام تاركات أديانهن السابقة، فلما كان قد أحل الزواج بالمؤمنات عموما وفيهن من كن يهوديات أو نصرانيات قبل الإسلام، فأية حاجة اقتضت إذن ذكر المسلمات من الذين أوتوا الكتاب بالذات بعدهن؟ إذ لو كان الأمر هكذا لما كان لهذه الجملة أي معنى أبدا.

٢- وقد قيل قبل هذه الآية كذلك ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ﴾، فهل المراد بهم هنا أيضا أولئك المسلمون الذين قد دخلوا في الإسلام من اليهودية أو النصرانية؟ فإن قيل: لا، فعلى أي أساس جاز أن يفسر ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ﴾ في جزء من آية بمعنى غير المعنى الذي يفسر به في جزء آخر من الآية نفسها؟

٣- أية فرقة من فرق أهل الكتاب هي بريئة من الشرك أو الكفر؟ ومتى وجدنا فيهم الاعتقاد السليم عن الله؟ ومن أين كان لهم أن يهتدوا إليه؟ لقد كانوا حرفوا أصل تعاليم موسى وعيسى عليهما السلام، فأنى كان لهم أن يجدوا سبيلا إلى

صحة الاعتقاد حتى تكون فرقة منهم على الصراط المستقيم؟ إذن لا يصح القول أبدا بأن المراد «بالذين أوتوا الكتاب» في قوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ فرقة من اليهود أو النصارى سليمة في اعتقادها.

أما الآيات التي قد يخيل إلى الإنسان عند قراءتها أنه كان في أهل الكتاب فرق سليمة في اعتقادها، فإنها تشير في حقيقة الأمر إلى أناس من أهل الكتاب كانوا قد آمنوا بالقرآن واتبعوا النبي ﷺ، أو كادوا بناء على طهارة قلوبهم وسلامة فطرتهم.

٤- وإذا فرضنا أن اليهود والنصارى فيهم طائفة مثل هذه، فإن الله تعالى ما قيد ﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ بشيء يجوز الاستدلال به على أن هذا الحكم خاص بتلك الطائفة وحدها، وليس بشامل لسائر أهل الكتاب، فما لنا إذن نشغل أنفسنا بفحص معتقدات أهل الكتاب، ونقضي بقياسنا أنه يجوز للمسلمين أن يتزوجوا بنساء الفرقة أو الفرق «الفلانية» من أهل الكتاب، ولا يجوز لهم أن يتزوجوا بنساء سائر فرقهم؟

دليل آخر غير سليم

والذين قد أيدوا ابن عمر- رضي الله عنهما- في رأيه يستدلون كذلك بقوله تعالى ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾ (الممتحنة: ١٠)، مع أن هذه الآية إنما نزلت خاصة في أولئك الرجال والنساء الذين قد هاجروا من دار الحرب إلى دار الإسلام، والذين بقيت زوجاتهم أو أزواجهن على الكفر في دار الحرب. والمقصود من الآية بيان أن نكاح الجاهلية ينفصم مع مجرد دخولهم في دار الإسلام، ويكون من حق الرجل المهاجر أن ينكح غير زوجته السابقة، ومن حق المرأة المهاجرة أن تنكح غير زوجها السابق، هذا المعنى يتحقق باعتبار شأن نزولها، أما إذا اقتصر أحد على نفس ألفاظها، فنقول: إن الله ﷻ أنزل في موضع حكما عاما بقوله: ﴿وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ﴾، وبين في موضع آخر أن جماعة من الكفار وهم من أهل الكتاب، مستثنون من هذه الحرمة العامة وذلك بقوله: ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾، وإنكم إذا كنتم لا تقولون بأن هذا الحكم الثاني قد خصص الحكم العام الأول، فلا بد أن تقولوا بأن هناك تناقضا

في أقوال الله ﷻ، يحل شيئا في موضع، ويحرمه في موضع آخر والعياذ بالله.

رأي ابن عباس

والصحابي الثاني الذي حاول أن يضع حدا لإباحة الزواج بنساء أهل الكتاب هو عبدالله بن عباس -رضي الله عنهما- إذ يقول: إن هذا الحكم خاص بالذميات دون الحربيات، فلا يجوز الزواج إلا بنساء اليهود والنصارى الذين هم من رعايا دار الإسلام، مهما كانت عقائدهم فاسدة. وأما أهل الحرب منهم- أي الساكنون خارج حدود دار الإسلام- فلا يجوز الزواج بنسائهم، ودليله على ذلك أن الله قد أمر المسلمين بقتال هذه الطائفة من أهل الكتاب، وذلك حين قال: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾﴾ (التوبة: ٢٩)، وأيضا قد حرم على أهل الايمان أن يُوَادُّوا مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ، هذا من جانب. ومن جانب آخر فالعلاقة الزوجية لا تقوم إلا على المودة والرحمة: ﴿خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (الروم: ٢١). فعلى هذا كانت علاقة الزواج توجب المودة والمحبة، وإذا كانت مودة الحربيين من المشركين وأهل الكتاب محرمة على المسلمين، وكان قتالهم واجبا عليهم، فإنه ينبغي أن يكون زواج الحربيات، سواء أكن من المشركين أم من أهل الكتاب، محظورا.

هذا ما يحتج به سيدنا عبدالله بن عباس- رضي الله عنهما- إلا أن جمهور الصحابة والتابعين والأئمة الفقهاء لم يوافقوه على رأيه، كما لم يوافقوا سيدنا عبدالله بن عمر- رضي الله عنهما- على رأيه، وهم وإن كانوا كلهم يكرهون الزواج بامرأة من أهل الكتاب، إذا كانت من دار الحرب أو دار الكفر، ولكن ما قال بحرمته أحد منهم، لأن إباحته المذكورة في قوله تعالى ﴿وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ عامة شاملة لأهل الكتاب جميعا، سواء أكانوا من أهل الحرب أم من غيرهم، والله تعالى ما قيدها بشيء.

هذا بالنسبة للجواز القانوني والمقصود مما قلنا إن هذا الجواز القانوني يجب

أن يبقى على عمومه وشموله الموجودين في آية القرآن، أما عدم تناسب الزواج وكراهيته على اعتبار المصالح القومية أو الظروف الشخصية، فهذا أمر آخر، لا يجوِّز لنا أن نحرم الحلال، غير أنه من حقنا، ولا ريب، أن نتجنب فعلا حلالا إذا كان لا يناسبنا في وضع خاص، إذ ليس معنى الحل والإباحة الأمر واللزوم

رأي جمهور الصحابة والأئمة واختلافهم

والذين لا يوافقون عبدالله بن عمر وعبدالله بن عباس- رضي الله عنهم جميعا- على رأيهما، ويقولون بأن حكم الآية شامل لأهل الكتاب كلهم، يدور الخلاف بينهم في معظمه حول تفسير كلمتين وهما: المحصنات﴿ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ﴾

فالمحصنات عند جماعة منهم «العفائف»، وعند جماعة أخرى «الحرائر» دون الإماء، فلا يجوز الزواج عند الجماعة الأولى إلا بالعفائف من نساء أهل الكتاب دون الفاحشات والمومسات منهن، ولا يجوز الزواج عند الجماعة الأخرى بالإماء من نساء أهل الكتاب ولو كن عفائف، ويجوز بالحرائر منهن ولو كن فاحشات.

رأي الشافعي

أما أهل الكتاب فيقول الإمام الشافعي رحمه الله: إنهم اليهود والنصارى من بني إسرائيل، وأما الأمم الأخرى التي قد انتحلت اليهودية أو النصرانية، فلا تطلق عليها كلمة «أهل الكتاب»، لأنه ما أرسل موسى ولا عيسى عليهما السلام إلا إلى بني إسرائيل، وما كانت دعوتهما لغيرهم من أمم الأرض.

رأي الأحناف والجمهور

ويقول الأحناف وجمهور الفقهاء: إن كل أمة إذا كانت مؤمنة بنبي من الأنبياء وبكتاب من الكتب الإلهية تعد من أهل الكتاب، وليس كونها من اليهود أو النصارى شرطا في ذلك، فلو كانت في الدنيا طائفة مؤمنة بصحف إبراهيم وحدها، أو الزبور وحده لكانت طائفة كتابية.

رأي جماعة آخرين

وقد ذهبت جماعة قليلة من السلف إلى أن كل أمة عندها كتاب يجوز الظن بأنه سماوي هي من أهل الكتاب كالمجوس مثلا، وهذه الفكرة قد وسّعها في هذا الزمان جماعة من المجتهدين الجدد، حتى قالوا إن الهنادك والبوذيين أيضا من أهل الكتاب، فيجوز الزواج بنسائهم لأنه لا بد أن يكون قد جاءهم نبي من الأنبياء، ولابد أن يكونوا قد أوتوا كتابا من الكتب السماوية.

• الرأي الصحيح

وأصح رأي في كل هذه الاختلافات عندنا الرأي القائل بأن المراد من أهل الكتاب اليهود والنصارى، سواء أكانوا من بني إسرائيل أم من غيرهم، فإن كلمة «أهل الكتاب» ما وردت بالقرآن إلا لهاتين الطائفتين، وقد صرح في موضع آخر بأنهما هما أهل الكتاب، وذلك حيث يقول عز من قائل: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ أَن تَقُولُوٓا إِنَّمَآ أُنزِلَ الْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾﴾ (الأنعام: ١٥٥- ١٥٦). أما الأمم الأخرى التي أنزلت إليها الكتب، فهي لما قد أضاعت كتبها ولم يبق شيء من معتقداتها وأعمالها يتفق مع تعاليم الأنبياء فلا يجوز أن تطلق على إحداها كلمة أهل الكتاب، ولذا فإن الرسول ﷺ ما جعل المجوس من أهل الكتاب على اعتقادهم بزرداشت، فلما أخذ الجزية من مجوس هجر قال: «سنوا بهم سنة أهل الكتاب»، ولم يقل إنهم من أهل الكتاب.

ولما كتب إليهم يدعوهم إلى الإسلام قال بكل صراحة «فإن أسلمتم فلكم ما لنا وعليكم ما علينا ومن أبى فعليه الجزية غير أكل ذبائحهم ولا نكاح نسائهم». فلا مجال للشبهة بعد ذلك بأنه يجوز أن تعد أمة غير اليهود والنصارى من أهل الكتاب، فتؤكل ذبائحها وتنكح نساؤها.

• الرد على مخالفي هذا الرأي

أما رأي الإمام الشافعي رحمه الله، أي اشتراطه بالإسرائيلية، فلا يصح كذلك، لأنه وإن كان الخطاب في دعوة موسى وعيسى عليهما السلام لبني إسرائيل

وحدهم إلا أن الله ورسوله قد عدا من أهل الكتاب حتى الأمم غير الإسرائيلية التي انتحلت النصرانية، ويدل على ذلك أن الرسول عليه الصلاة والسلام لما كتب إلى قيصر الروم يدعوه إلى الإسلام ضَمّن في رسالته هذه الآية ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ﴾ (آل عمران: ٦٤) مع، أنه لم يكن الروم من بني إسرائيل.

أما الذين فسروا المحصنة بالعفيفة أو الحرة وجعلوا العفة أو الحرية شرطا لتزوج الكتابية، فلا يصح رأيهم أيضا عندنا، إذ لا شك أن الإحصان يشمل مفهومه كلا من العفة والشرف، وما المحصنة إلا عفيفة وشريفة معا، ولكن ليس من مقصود الشارع بقوله ﴿وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ﴾ أن يجعل العفة أو الشرف شرطا لجواز الزواج بنساء أهل الكتاب، وإنما مقصوده به إظهار الأفضلية والأولية، ويقصد في حقيقة الأمر بيان أنه وإن كان لكم أيها المسلمون أن تتزوجوا أية امرأة من المؤمنات أو من أهل الكتاب، ولكن الأولى والأفضل أن تكون تلك المرأة محصنة، أي عفيفة وشريفة.

وقد قيدت كثير من أحكام القرآن بأمور ليست بشروط لثبوت الحكم، وإنما هي كقيود زائدة لإظهار أفضل ناحية في فعل من الأفعال المباحة، أو لإظهار أرذل ناحية في فعل من الأفعال المحرمة، حتى يبذل أهل الإيمان اهتمامهم لاختيار الأفضل واجتناب الأرذل، وهذا عين ما رآه سيدنا عمر بن الخطاب -]- في هذا الباب حين تزوج حذيفة بن اليمان بيهودية، فكتب إليه عمر «أن خل سبيلها»، فكتب إليه حذيفة: «أحرام هي؟» فكتب إليه: «لا، ولكني أخاف أن تواقعوا المومسات منهن».

فأصح رأي عندنا أن نجعل السماح الشرعي بتزوج نساء أهل الكتاب عاما، من الحربيات كن أو من الذميات، ومن العفائف كن أو من غير العفائف، ومن الإماء كن أو من الحرائر.

* * *

٣٣ مقالات

الشيخ عبد الله عبد الرحمن السند

- ❑ ترجمة الشيخ.
- ❑ المقالات:

١- العلم والتعلم.

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) - مارس (١٩٧٢م).

٢- اعرفوا أعداءكم.

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يونيو (١٩٧٣م).

ترجمة الشيخ
عبد الله عبد الرحمن السند

● **مولده ونشأته**

هو الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن بن علي ابن سليمان بن محمد بن أحمد بن راشد بن سند العنزي.

ولد في الزبير من عائلةِ علم، وذلك عام ١٣١٨هـ.

تلقى مبادئ القراءة والكتابة في الكتاتيب، ثم رافقَ أخاه في تلقي العلم على العديد من العلماء أمثال: الشيخ محمد بن عوجان، والشيخ عبدالله بن حمود، والشيخ محمد الأمين الشنقيطي، وغيرهم.

ولما حفظ أطرافا من الفقه وفنونا من العربية قام بالاهتمام بدراسة التفسير.

عمل الشيخ مدرساً بمدرسة «النجاة» أيامَ الشيخ الشنقيطي، فدرَّسَ الفِقه والقرآن كما أسندت إليه إمامة أحد المساجد، سافر إلى الكويت فالتقى بعلمائها، وفتحت له المجلات الدينية في الكويت والعراق رحابها لنشر المقالات، وكان له نشاط واهتمام بعلم الحديث.

وحرص المترجَم له على تنشئة أبنائه تنشئة إسلامية فوفق إلى ذلك، وبارك الله له في الذرية.

● **مؤلفاته:**

للشيخ العديد من المؤلفات منها: «الأحكام المفيدة، الخطب المنبرية، منسك الحج والعمرة، مجالس رمضان، المرأة المسلمة والحجاب، من مائدة النبوَّة» وغيرها.

● **وفاته**

توفي الشيخ عبد الله السند في الكويت، وذلك في ١١ ذي القعدة من عام

١٣٩٧هـ، فحزن الناس لفقدهم شيخاً جليلاً نذر نفسه لخدمة الإسلام والمسلمين، لا سيَّما وقد كان محبوباً من الخاص والعام وذلك لطلاقة وجهه ودماثة خلقه وحسن تأدبه.

* * *

العلم والتعلم

العدد (٨٦) صفر (١٣٩٢هـ) مارس (١٩٧٢م).

يتساوى الناس عند ولادتهم في خروجهم من بطون أمهاتهم عرايا لا يستر أجسامهم شيء، كذلك يستوون عندما يفدون على هذه الحياة في تجردهم من العلم وخلوهم من المعرفة، لا يقرأون ولا يكتبون ولا يعلمون شيئا، ولكن الله الرازق الكريم الذي كساهم من عري، وأطعمهم من جوع، هو العليم الحكيم الذي تفضل على خلقه فأمدهم بالاستعداد والقوى التي تمكنهم من التعلم، وزودهم بالأدوات والرسائل التي تساعدهم على العلم والمعرفة، وأنزل لهم الكتب وتعهدهم بالوحي، ليخرجهم من الظلمات إلى النور، وأرسل لهم الرسل هادين ومرشدين ومعلمين، قال الله سبحانه وتعالى ﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢﴾ (الجمعة: ٢)، والوسائل التي زود الله بها الإنسان هي السمع والبصر والعقل، هذه هي المنافذ المفتوحة التي يطل منها على هذا الكون الفسيح ليعرف أسراره، وهي الأدوات التي يكتسب بواسطتها العلم والمعرفة، لا نعرف دينا كرم العلم ودعا إليه وأشاد بالعلماء ورفع من قدرهم، مثلما فعل الإسلام وكتابه الكريم، فالقرآن يلفت أنظارنا، ويوجه عقولنا إلى أن نسلك كل طريق للعلم، لأنه الأساس في بناء العز والمجد وحياة الأمم.

العلم وحده هو الذي يميز به الإنسان بين الكفر والإيمان، بين التوحيد والإلحاد، بين الحق والباطل، والخير والشر، والصواب والخطأ، والهدى والضلال، والحسن والقبيح، والضار والنافع.

العلم ضروري لسعادة الإنسان وهناءته ضرورة الهواء لحياته، والضياء لعينيه،

العلم ضروري لعزة الأمة وسيادتها، وعلى قدر نصيبها من العلم يكون نهوضها الحضاري، ورقيها الصناعي، وازدهارها التجاري، واتساعها العمراني.

العلم هو الذي يرقى بالحياة ويجعلها وارفة الظلال، قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ (المجادلة: ١١) أول خطوة للتعلم هي معرفة القراءة والكتابة، ولذلك رفع الإسلام من شأن الكتابة وأعلى قدرها، وهذه أول آيات نزلت من كتاب الله تعالى، قال الله جل شأنه ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾﴾ (العلق: ١-٥)، وهذه سورة «ن» يقسم العلي الأعلى فيها بالقلم وما يسطرون، وهذا محمد رسول الله ﷺ يعلم أصحابه ويدفعهم إلى أن يتقنوا الخط، ويحذقوا الكتابة، ويهيئ لهم سبيلها بكل ما يستطيع، ففي مكة المكرمة اتخذ دار الأرقم بن أبي الأرقم مدرسة للمسلمين، ومركزا ثقافيا يلتقي فيه بأصحابه، ويعلمهم مبادئ الإسلام، ويأمرهم بكتابة ما نزل عليه من القرآن، وبعد الهجرة إلى المدينة المنورة يقيم مسجده مكانا للعبادة، ودارا للقضاء، وساحة للجنود ومركزا للتعليم، تدرس فيه أسس الإسلام وأحكامه وأهدافه، وفي غزوة بدر أسر المسلمون ستين مشركا فطلب رسول الله ﷺ أن يفتدوا أنفسهم بتعليم أصحابه القراءة والكتابة، وجعل فداء الأسير تعليم عشرة من أصحابه.

وكان له ﷺ كتاب يكتبون الوحي، منهم الأربعة الخلفاء ومعاوية، وخالد بن الوليد، وزيد بن ثابت وغيرهم، وعلى يد هذه الصفوة المختارة من صحابته عليه الصلاة والسلام تتلمذ المسلمون الذين جاءوا من بعدهم، فدرسوا كل علم، واقتنوا كل فن، وانتشروا في مشارق الأرض ومغاربها يعلمون ويؤلفون ويبتكرون، وكانوا رسل الحضارة وأساتذة الدنيا.

إن العلم خير من المال، خير من كل الثروات، خير من كل ما في الأرض، وطالب العلم إذا حسنت نيته، وظهرت استقامته مجاهد في سبيل الله تعالى.

روى البخاري في صحيحه أن رسول الله ﷺ أمر زيد بن ثابت بتعلم اللغة السريانية، قال زيد: فتعلمت له كتابة يهودية بالسريانية، وقال. «إني والله ما آمن

يهود على كتابي» قال زيد: فوالله ما مر بي نصف شهر حتى تعلمته وجدت فيه فكتبت له إليهم وقرأت له كتبهم إليه.

إن التعلم والتعليم روح الإسلام، وسر بنائه، وسياج وجوده ومناط عزته وكرامته، وإن أسلافنا الأماجد سبقوا في مضمار العلوم والمعارف بدافع من دينهم، وحافز من كتابهم، فمن الكتابة على الرق وهو جلد رقيق، والكتابة في اللخاف وهي حجارة بيض رقاق، والكتابة في سعف النخل وهي الجريد الذي لا خوص عليه، ومن المسجد والكتاب ملأوا الدنيا علما وفنا واختراعا، وبرهن طالب العلم المسلم على حماسة منقطعة النظير في طلب العلم، فذلل العقبات التي قامت في طريقه، وتغلب على الصعوبات التي اعترضته، ولم يكن الطريق إلى طلب العلم في هذه العصور ممهدا، ولا كانت الحياة ميسرة، ولكن الطالب المؤمن لا يكترث بالشوك، ولا يبالي بالمخاطر، هذا أبوالدرداء رضي الله عنه يقول «لو أعيتنى آية من كتاب الله فلم أجد أحدا يفسرها لي إلا رجل ببرك الغماد - أقصى مكان في اليمن - لرحلت اليه»، وهذا الامام الشافعي رحمه الله يتحدث عن حياته في طلب العلم فيقول: كنت يتيما في حجر أمي، ولم يكن لي مال، وكان المعلم يرضى من أمي أن أخلفه اذا قام فلما جمعت القرآن دخلت المسجد فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث، وكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحته في الجرة.

بهذه الروح الجادة، وبهذه الرغبة القوية، طلب أسلافنا العلم، وأقبلوا عليه لا طلبا للمال ولا رغبة في الجاه، ولكن إرضاء لله واعلاء لدينه.

***

اعرفوا أعداءكم

العدد (١٠٢) جمادى الآخرة (١٣٩٣هـ) - يوليو (١٩٧٣م)

قال اللّه عز وجل: ﴿يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾﴾ (الصف: ٨)، يريدون ليطفئوا نور الله، هذه إرادة أعداء الله في كل عصر وهذا دورهم في كل زمان وهذا مدار تفكيرهم وتدبيرهم في زمن الرسول ﷺ وبعد زمن الرسول وفي أيامنا هذه كل همهم أن يطفئوا نور الله لأنهم لا يطيقون أن يروا هذا النور يشع في كل أفق، ولا يطيقون أن يسمعوا لا إله إلا الله تدوي في كل أذن، ولا يطيقون للإسلام ظلا يمتد، ولا لأهله قوة تحميهم، ولا لكتابه سلطانا عليهم ولا لدولتهم علما مرفوعا، وصوتا مسموعا، وكلمة نافذة، لا يطيقون أن يروا ذلك لأنهم أعداء الله وأعداء الحق وأعداء الإسلام وأعداء الإنسانية، ولأنهم كما يقول الله تبارك وتعالى ﴿لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا وَدُّوا مَا عَنِتُّمْ قَدْ بَدَتِ الْبَغْضَاءُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ وَمَا تُخْفِي صُدُورُهُمْ أَكْبَرُ﴾ (آل عمران: ١١٨)، ولأنهم يعلمون أن قوتنا تنبع من ديننا وهو أبغض شيء إليهم، فهم يحاولون أن يشككونا فيه، وأن يبغضوه إلينا، وأن يوهنوا ما بيننا وبينه من العروة الوثقى التي لا انفصام لها، والله سميع عليم، ويعلمون أن كتابنا فيه سر سعادتنا وعزنا إذا اهتدينا بنوره فلا نضل، وإذا اعتصمنا بحبله فلا نذل، وإذا تزودنا منه كفانا وأغنانا وهدانا إلى الصراط المستقيم فهم يحاولون أن يزهدونا فيه، وأن يعزلونا عنه لأنه في قلوبنا نور وفي صدورهم لظى.

ويعلمون أن أرضنا خير بقاع الأرض وأجمل بلاد الدنيا، وأشرف مكان في الأرض، فيها الكعبة التي تتجه إليها القلوب، وفيها المسجد الأقصى الذي تشد إليه الرحال، إنها الأرض التي كلم الله فيها موسى، وأيد فيها عيسى، وأسرى

إليها بمحمد صلاة الله وسلامه على جميع رسله وأنبيائه، ولكن من الأسف والحزن أن المسجد الأقصى قد اغتصبه أعداء الإسلام والإنسانية اليهود بمساعدة الصليبيين والملحدين، إن أعداءنا يريدون أن يمزقوا التاريخ المكتوب، يريدون أن يدنسوا الأرض الطاهرة، يريدون أن يجعلوا من أرضنا دولة يسكنها القتلة السفاحون بجوار الأنبياء الذين قتلوهم بغير حق.

نعم يريدون ذلك وأكثر من ذلك، يريدونك أنت إلا تقوم لك قائمة، يريدون لك حياة أشبه بالموت، يريدون أن تعيش محروما من نعمتك، مطرودا من أرضك، منبوذا حتى من نفسك، يريدون أن تعيش بلا دين، ولا وطن، ولا أهل، ولا مال، ولا أمل، ولا تاريخ، ولا حضارة، يريدون أن يحرموك من نعمة الإيمان بالله تعالى ونعمة الإسلام التي هي أجل النعم، تستند على العقيدة والدين، لا على التراب والطين.

إن من ضيق النظر وسذاجة التفكير أن نعتقد أن دولة العصابات وحدها هي التي هاجمتنا، فهي أهون من ذلك بكثير، فليست إلا ذنب العقرب الذي أودعوا فيه السم، وليست إلا القناع البشع الذي واجهنا به الشيطان، وليست إلا الدخان الأسود الذي دفعته نار الحقد علينا، وليست إلا الزبد القذر الذي دفعه تيار العداوة والبغضاء على سواحلنا.

وسيأتي إن شاء الله اليوم الذي يختاره الله لنبتر فيه الذنب ويسقط فيه القناع ويتبدد فيه الدخان ويذهب فيه الزبد.

إن العدو الأكبر هو الذي أمد دولة العصيان بالمال وأعانها بالرجال، وأعد لها الخطط، وجعل منها ترسانة مملوءة بأحدث الأسلحة.. العدو الأكبر هو الذي أعطاهم الغطاء الجوي وقنابل النابالم وصواريخ الجو وأسرارنا العسكرية.

العدو الأكبر هو الذي خدعنا بالحيلة وأمدهم بالمخابرات.. العدو الأكبر هو الذي وقف إلى جانبهم بكل قواه بالعتاد الحربي وأجهزة الإعلام، يجب أن تعرف أعداءك الذين أخرجوك من ديارك وظاهروا على إخراجك.. أعداؤك هم أعداء الله الذين حذرنا الله منهم ونهانا عنهم، أعداؤكم هم أعداء الإسلام وتجار

الحروب وسماسرة الشر وزارعو هذه الفتنة في بلادنا، أعداؤكم هم أعداء الحق وقراصنة العالم الذين سرقوا أوطانكم لتسكن فيها الخنازير واغتصبوا دياركم لتسرح فيها القردة وأخذوا أموالكم ليزيدوا غنى ونزيد فقرا، ليزيدوا عتوا ونزيد ذلا، ليزيدوا رخاء وقوة ونزحف على الركب من الهزال.

فما ترون بعد ذلك يا مسلمون يا عرب.. المسجد الأقصى اغتصبوه وإخوانكم في الأرض المحتلة يحكمهم الشياطين، يذيقونهم سوء العذاب، ومآذن مساجدنا يطل منها اليوم من شذاذ الأفاق الذين لا يرقبون في مؤمن إلا ولا ذمة، فماذا بعد الحق إلا الضلال؟ وماذا بعد العزة إلا الهوان؟.

هل ستسلمون بذلك يا أتباع محمد؟ هل ستصبرون على ذلك يا أحفاد خالد؟ هل ستقفون عند هذا الحد يا خلفاء الله ويا حفظة كتاب الله ويا حملة لا إله إلا الله أم ماذا تنتظرون؟ لقد جرت سنة الله تعالى في الكون من قبل رسول الله ومن بعده أن يمنح النصر لمن يتخذ أسبابه من الاستعداد والإعداد ويعمل له حسابه من جميع الوجوه والاحتمالات ولا يترك فرصة لعدوه يعض بعدها بنان الندم.

ومهما كانت أسباب الهزيمة فقد انكشفت لنا حقائق كانت غائبة عنا وأمور كانت لا تخطر لنا ببال ومنافقون مردوا على النفاق لا نعلمهم وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَـٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

* * *

٣٤

مقالات

الشيخ د. محمد أبو زهرة

❑ ترجمة الشيخ.

❑ المقالات:

١- زكاة الأسهم.

العدد (٦٤) ربيع الثاني (١٣٩٠هـ) - يونيو (١٩٧٠م).

٢- الطلاق .

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).



ترجمة الشيخ

د. محمد أبو زهرة

● **مولده ونشأته**

هو محمد أحمد مصطفى أحمد المعروف بأبى زهرة، ولد في المحلة الكبرى عام ١٣١٥هـ - ١٨٩٨م.



درس القرآن في إحدى كتاتيب حفظ القرآن. ثم انتقل إلى المسجد الأحمدي بطنطا لاستكمال تعليمه وبعد ثلاث سنوات في المسجد الأحمدي انتقل إلى مدرسة القضاء الشرعى سنة ١٣٣٥هـ - ١٩١٦م حيث درس فيها ثمان سنوات ثم تخرج سنة ١٣٤٣ هـ - ١٩٢٤م وحصل على عالمية القضاء الشرعى ثم اتجه إلى دار العلوم ليتمكن من معادلتها سنة ١٣٤٦ هـ - ١٩٢٧م

تدرج في الوظائف من مدرس للعربية في المدارس الثانوية إلى التدريس فن الخطابة في كلية أصول الدين ثم كلية الحقوق. بعدها بدأ بتدريس الشريعة الإسلامية وتدرج في كلية الحقوق من رئاسة قسم الشريعة الإسلامية ثم منصب الوكالة حتى أحيل للتقاعد سنة ١٣٧٨هـ - ١٩٥٨م.

اختير عضوا في مجمع البحوث الإسلامية سنة ١٣٨٢هـ - ١٩٦٢م بعد صدور قانون الازهر.

له آثار علمية عديدة تربو على ٣٠ كتاباً، منها:

«تاريخ المذاهب الإسلامية، العقوبه في الفقه الإسلامي، الجريمة في الفقه الإسلامي، علم أصول الفقه، محاضرات في النصرانية، زهرة التفاسير، مقارنة الأديان».

● **وفاته**

توفي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عام ١٣٩٤ هـ - ١٩٧٤م. رحمه الله رحمة واسعة.

زكاة الأسهم

العدد (٦٤) ربيع الثاني (١٣٩٠هـ) - يونيو (١٩٧٠م).

● **السؤال:**

بعض الناس يشتري أسهماً (مدخرات) وينتفع بعائدها، وبعضهم يشتري أسهماً للتجارة، فكيف يزكي كل منهما الأسهم التي يمتلكها؟

وقد تفضل بالإجابة على هذا فضيلة الأستاذ الشيخ محمد أبو زهرة:

إن أسهم الشركات لم تكن في الماضي معروفة بالصورة التي عليها في الحاضر، وإن كان معناها له أصل فقهي.

ولذلك ما نبديه من رأي ليس مأخوذاً من آراء الفقهاء بالنص، ولكنه مستنبط من تطبيق القواعد الفقهية، أو ما يسمى في عرف علماء الأصول بتحقيق المناط.

لقد قرر الفقهاء أن الزكاة تجب في المال النامي، ويقولون سببها مال نام بالقوة، وبتطبيق هذه القاعدة على الشركات نجد أن الزكاة واجبة فيها لأنها أموال نامية بالفعل.. ولكن كيف تجب الزكاة: أتجب بنسبة من رأس المال، إذا حال عليه الحول، أم تجب بنسبة من الغلات التي تخرج كل عام؟

نجد أن النبي ﷺ، أخذ الزكاة من الأموال المنقولة بربع العشر من رأس المال، فعشرون مثقالاً يجب فيها ربع العشر وهو نصف دينار.

والأموال الثابتة وهي الأرض الزراعية والأشجار، تجب الزكاة في غلاتها، وهي الزروع والثمار، يجب العشر إن سقيت بغير آلة، ونصف العشر إن سقيت بآلة، ولما كانت الشركات أشبه بالمال الثابت.. رأينا أن تكون الزكاة في غلاتها بعشر الصافي بعد كل النفقات، فمن يقتني أسهماً، ليأخذ غلاتها عليه عشر ما يؤول إليه بعد الضرائب المستحقة.

وإذا كان يتجر فيها بالبيع والشراء، فإن الأسهم ذاتها تكون سلعة تباع وتشترى، وتجري فيها زكاة عروض التجارة، فتكون زكاتها بربع العشر في قيمتها بعد حولان الحول، وهذا هو حكم الحال الثانية.

هذا ما انتهى إليه رأيي، فإن كان حقاً فمن توفيق الله، وإن كان خطأ فالله تعالى أعلم بالصواب.

* * *

الطـلاق

العدد (٨٧) ربيع الأول (١٣٩٢هـ) - إبريل (١٩٧٢م).

١ - ﴿رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ﴿٨﴾﴾ (آل عمران: ٨).

﴿رَبَّنَا إِنَّكَ تَعْلَمُ مَا نُخْفِي وَمَا نُعْلِنُ وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِن شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ﴿٣٨﴾﴾ (إبراهيم: ٣٨).

ربنا اجعلنا من الذين قلت فيهم: ﴿وَهُدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهُدُوا إِلَىٰ صِرَاطِ الْحَمِيدِ ﴿٢٤﴾﴾ (الحج: ٢٤)

ربنا اجعلنا من الذين يستمعون إلى كتابك الخالد من غير تحريف للقول عن مواضعه، واجعلنا من الذين يدعون إليك سبحانك، وممن ينطبق عليه قولك الحكيم: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ (فصلت: ٣٣- ٣٥).

أما بعد، فقد قرأت في العدد الخامس بعد الثمانين من مجلة «الوعي الإسلامي» التي أعرف أنها لا تنشر إلا ما يتفق مع كتاب الله وسنة رسوله صلى الله تعالى عليه، قرأت في هذا العدد مقالا مسهبا لأستاذنا علي الخفيف، قد كتب بعبارات إنسانية واضحة، تنتهي إلى ضرورة أن يكون الطلاق بعد التحاكم أمام القاضي، وأن من يطلق من غير تحكيم للقضاء يعاقب بالسجن والغرامة، وقد ساق المبررات لذلك في نظره.

وكنت أود مع إخواني أن يبدي هذه المقدمات التي ساقها أمام لجنة الأحوال

الشخصية التي قدمت مشروعها سنة ١٩٦٢، وكان من أبرز أعضائها، لكي يجنبها الخطأ الذي وقعت فيه وهو منع أن تقع عقوبة على المطلق، ولقد قررت ذلك بالإجماع، ولم يعترض الأستاذ على منع عرض أمر الطلاق على القضاء إلا أن يكون بطلب المرأة مما نص عليه القانون، فهو قد وافق مع الموافقين ولم يخالف.

وكنت أود أن يقدم ذلك البيان البليغ لمؤتمر مجمع البحوث الإسلامية ليهدي المجتمعين إلى ما يراه الحق المبين، ولكنه لم يقدم، ووافق على ما رآه أعضاء المؤتمر بالإجماع، وهو منع وجود عقوبة على المطلق وعدم الحاجة إلى أن يكون تحكيم في مجلس القضاء.

ولا ندري لماذا لم يقدم ذلك البيان البليغ في الحالين، ولماذا وافق مع المجتمعين، لما كان معهم، ولما انفرد عنهم رأى ما رأى، والرجوع إلى الحق في زعمه خير من التمادي في الباطل، وسبحان مقلب القلوب.

٢- وإذا كان أستاذنا لم يقدم ذلك البحث المزين بأحسن الألفاظ في وقت الحاجة إليه، ووافق على ما اجتمع عليه إخوانه، فكان معهم فإنا لا نسأل لماذا غير ما أجمع عليه مع إخوانه، ولكن ندرس البحث في ذاته من غير نظر إلى ما أحاط به ولا إلى وقت تقديمه، وإن كان مؤخرا عن وجوب تقديم، ولا نلتفت إلى ما سبق، فسبحان الذي لا يتغير ولا يتبدل، ولا يجرى عليه البداء بأن يبدو له ما لم يكن في اعتباره. ونلاحظ ابتداء على بحثه أنه أحيانا يقتطع الآيات عما سبقها، وأحيانا يقتطعها عما وليها، فمثلا يقول: قال تعالى: ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَاۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾ (البقرة: **٢٢٩**).

والإشارة في تلك إلى حدود الله السابقة، فلم لا يذكرها؟ أليوهم أنها ما يراه هو حدا من حدود الله؟.

ولنتم له الآيات بذكر ما قطعه مما قبلها، حتى صرنا لا نفهم لفظ الإشارة في ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ﴾ (البقرة: **٢٢٩**)، يقول تعالى: ﴿وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍۚ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ فِىٓ أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِۚ

وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِي ذَٰلِكَ إِنْ أَرَادُوٓاْ إِصْلَٰحًا ۚ وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ ۚ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٨﴾ ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ ۖ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ ۗ وَلَا يَحِلُّ لَكُمْ أَن تَأْخُذُواْ مِمَّآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ شَيْـًٔا إِلَّآ أَن يَخَافَآ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا ۚ وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ ٱللَّهِ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٢٩﴾﴾ (البقرة: ٢٢٨- ٢٢٩).

انظر، قد قطع لفظ الإشارة عن المشار إليه، فلم تكن الحدود أن تكون ثمة رقابة من القضاء، ولكن كانت الحدود لمدة الطلاق، وحق المطلق في الرجعة وجوازها عند إرادة الإصلاح والفدية في التفريق إن خيف ألا يقيما حدود الله، هذه هي الحدود وليس منها وضع الطلاق تحت رقابة القضاء.

وقد ذكر بعض هذه الآيات في مقام آخر ليوهم فيه شيخنا مساواة الرجل بالمرأة إلا في حق القوامة عليها، وهي: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ والآية لو تأملها شيخنا لوجد أنها لا تتعرض لمساواة المرأة بالرجل، بل هي تدل على تساوي حقوقها مع الواجبات عليها، فالله تعالى يقول: ﴿وَلَهُنَّ مِثْلُ ٱلَّذِى عَلَيْهِنَّ﴾ أي لهن من الحقوق مثل الذي عليهن من واجبات بدليل التعدية في الأول باللام، التي تفيد الملك، والثاني بعلى التي تفيد الإلزام، ولا نحسب أن ذلك كان يخفى على شيخنا صاحب ذلك البحث البليغ لو تأمله، ولكنه نظر إليه نظرة عابرة، وظنه يفيد مساواة الرجل بالمرأة، وأن ذلك مبدأ خلقي وشرعي فلا واجب إلا وفي مقابله حق، فإذا كانت المرأة عليها تربية ولدها فإنه يقابله حق الحضانة.

والحقوق الشرعية، كما يعلم الشيخ، هي للتمكن من أداء الواجبات الشرعية، والشيخ، حفظه الله تعالى، يقتطع الآية عما يليها، ومن ذلك أنه يستشهد في الإصلاح، وقد نقل قوله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ﴾ (النساء: ١٢٨) وأكتفي بهذا القدر، وما بعده يوضح المعنى أكثر، ولكنه يريد الوقوف عند ذلك، وفيما بعده بيان أن شح النفوس محضر، وأن العدل النفسي غير ممكن، وأنه إذا حضر شح النفس بدل السماحة، والظلم بدل العدل فالتفرق واجب، ولنقرأ الآية

كاملة، لا كما اقتطعها شيخنا، حفظه الله تعالى: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحًاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٌۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمًا ﴿١٣٠﴾﴾ (النساء: ١٢٨- ١٣٠)، ترك الشيخ حفظه الله تعالى ذلك الجزء الأخير من الآية، ولا أدري لماذا أهمله ولم يذكره، لعله لا يريد أن يغضب أحدًا بذكره، ولعله لا يريد أن يذكر أن في القرآن استحسانا للطلاق ولو في بعض الأحوال.

٣- **ولقد استشهد الشيخ، حفظه الله، بأن عمر** رضي الله عنه لما رأى الناس يكثرون من الطلاق بلفظ الثلاث أو يكررونه في العدة جعله ثلاثًا، فقال: روى ابن عباس - رضي الله عنهما - أن الناس تتابعوا في الطلاق، وتعجلوا، فتجاوزوا حدود الله تعالى فيه، وطلق بعضهم مرتين وثلاثا في عدة واحدة أو بلفظ واحد، وكثر ذلك منهم، ظنا منهم فيما أن الطلاق تصرف وُكِّل لهم أن يستعملوه كما أرادوا، فيكون طلاقا معتبرا في وقوعه، وفي عدده، فلما رأى ذلك أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه عده خروجا عن حدود الله، وعصيانا لما شرع الله، فاستشار الصحابة، وقال إن الناس قد استعجلوا في أمر لهم كانت لهم فيه أناة فلو أمضيناه عليهم، فلما وافقوا أمضاه عليهم.

ولنا تعليق على هذا الخبر عن عمر رضي الله عنه من وجوه:

أولها: أن الذي استكثره عمر رضي الله عنه أنهم طلقوا أكثر من مرة في العدة، ولم يذكر أنهم طلقوا ثلاثا بلفظ الثلاث (راجع كتاب الطلاق للمرحوم الشيخ شاكر، وإعلام الموقعين).

ثانيا: أنه زاد في الخبر انه استشار الصحابة ووافقوه، وظاهره أن الموافقة كانت بالقول، والخبر، كما جاء في صحيح مسلم، ليس فيه استشارة ولا موافقة صريحة وإنما الأمر كما جاء في فتح القدير أنهم سكتوا، ولم يعترضوا فعد ذلك

إجماعا، لأن السكوت في موضع الحاجة إلى البيان بيان، وفي الإجماع السكوتي كلام، وأنكره الشافعي وفيه كلام طويل (راجع الإحكام في أصول الأحكام للآمدي).

ثالثا: أن عمر رضي الله تبارك وتعالى عنه لم يقل مع كثرة الطلاق أن يكون بتحكيم بين يدي القاضي، فيكون طلب الشيخ أن يكون بتحكيم القاضي بدعة، وهو تقليد للنصارى، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

رابعا: أنه ادعى أن عمر فعل ما فعل للمصلحة.

وإذا كان الثلاث مصلحة في نظر الشيخ فهو يأتي على أصل دعواه بالنقض، لأنه إذا كان الطلاق لا مصلحة فيه عند التهور، فإن توكيده يجعل الثلاث تمضي إيغالا في البعد عن المصلحة، فكيف يسمي ذلك مصلحة، ولكنه سماه مصلحة لغاية في نفسه، والله عليم بذات الصدور.

خامسا: أن عمر ﷺ لم يجد نصا قاطعا في منع قوله، ولو كان هناك نص قاطع في رد قوله ما وافق عليه أحد من الصحابة، ولا التابعين، ولا الفقهاء أصحاب المذاهب.

٤- **وإن الشيخ ينتهي من بحثه الذي سماه علاجا لحال الطلاق الذي ادعى الإسراف فيه إلى أن الطلاق يكون بعد التحكيم أمام القاضي**، وأحسب أن ذلك داء لا علاج، وهو اتباع للكنيسة لا للقرآن، وللأهواء والشهوات، وليس محاربة للأهواء والشهوات.

يقول الشيخ: «يكون العلاج بوضع تشريع يوجب على الزوجين إذا ما أريد الطلاق الرجوع إلى القاضي، ليقوم بينهما بما أمر الله في كتابه من محاولة الصلح بينهما، وإزالة أسباب الخلاف بالحكمة والموعظة الحسنة، حرصا على بقاء الأسرة، ومحافظة على ما ترتبط به المودة... وإذا أقدم الزوج على التطليق قبل أن يتمكن القاضي من الصلح عوقب لمخالفته ولي الأمر فيما أصدره من قانون ملزم وليس في عقاب من خالف ولي الأمر مخالفة لشرع الله، فإن أمره واجب الطاعة...».

هذا ما قاله فضيلة الأستاذ، وهو متناقض مع ما سبق من قوله من أن الطلاق بيد الزوج، وأن الله تعالى أعطاه ذلك الحق، إذ هو يوجب في قانونه المحترم، أن يذهب الزوجان، ومقتضى كلامه إذا ذهب الزوج وحده لا يلتفت إليه، قد يقول إذا ذهب الزوج وحده دعيت الأخرى، ويحاول القاضي الصلح بينهما. وبقي أمر آخر لم يذكره، إن عجز القاضي عن الصلح، وإعادة المودة، ورأى الزوج أن يطلق، أيمنع من الطلاق ويجبر على الصلح إجبارا؟

وإذا امتنعت هي عن الصلح، وطلق الزوج، أيعاقب أيضا؟ إن قوله هذا تفكير غريب، وإذا كان قانونًا مقترحًا، فهو أغرب.

وإذا كان لدى الزوج أسباب مبررة للطلاق كريبة ارتابها، أو خروج عن جادة الزوجية الصالحة، أو كانت النفرة المستحكمة التي لا يستطيع القضاء أن يجعل منها الصفاء محل الخصام وطلق الرجل في هذه الحال، أيعاقب، والله يقول: ﴿وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغْنِ ٱللَّهُ كُلًّا مِّن سَعَتِهِۦ﴾ (النساء: ١٣٠).

الله يقول ذلك، وقانون الشيخ يقول: بل تبقى الزوجة على دخن، ويكون الكفر في الإسلام، ثم ألا يفصل القاضي إذا تقدم الزوج بأسباب يراها مبررة للطلاق، وألا يكون ذلك عدلا، لئن قال الشيخ ذلك فإنه يكون متناقضا مع نفسه لأنه يمنع أن يكون الطلاق بحكم من القاضي فيقول قبل ذلك لأنه منع التعزير على الطلاق بقوله: بل قد يرى بحق أنها (أي الطلاق) معصية تستوجب تعزير من يقدم عليها، غير أن ذلك قد يكون من الناحية العملية مؤديا إلى ضرر، من المصلحة تجنبه، وهو إشاعة أسرار الأسر، وخفايا البيوت وما قد يتصل بذلك من اختلاق الأسباب وافتراء الكذب، وإشاعة الفحشاء، والعيوب، وغير ذلك مما ينبني عليه طلب الطلاق، وذلك ما يدعو إلى تفاقم النزاع واشتداد البغضاء.. وهكذا نرى أن الشيخ يهدم بيد ما يبنيه باليد الأخرى.

إنه يوجب رفع الأمر إلى القاضي، والقاضي يفصل في الخصومات، ولكن، أيريد مشروعه أن يقتصر على محاولة الإصلاح فقط، ولا ينظر ما لدى الرجل من أسباب للطلاق؟ وقد جاء الأمر إليه، وإلا لا يكون قاضيا جالسا في مجلس

القضاء، وإن نظر ألا يكون في ذلك ما حاول الشيخ أن يتوقاه، أم أنه يجعل مهمته فقط محاولة الصلح؟ وهل يستطيع أن يمنع الزوج مما يراه مبررا للطلاق، وألا يكون أولى من القاضي حينئذ محكمون، أو الموثق الشرعي، اللهم إن هذا لفكر لا جدوى فيه، إلا أن يكون استدراجًا للشيخ ومن معه إلى ألا يكون الطلاق إلا بحكم القاضي كالنصارى.

وكان غريبا أن يقول شيخنا إن العقوبة بالغرامة أو الحبس ليست لأجل الطلاق، إنما هي لمخالفة ولي الأمر.

وقد وجدنا ذلك الكلام يجري على ألسنة كل من لف لفه من أعضاء لجنة وزارة الشؤون الاجتماعية، وإنا نسأله هو ومن معه: لم وضع ولي الأمر هذه العقوبة؟ أليست على الطلاق من غير عرض الأمر على القضاء؟ وحينئذ يكون وضع العقوبة على الطلاق ابتداء، وإن العقوبة على الطلاق تكون مصادمة للنصوص القرآنية، وما أقر الصحابة أنه حلال عند الحاجة النفسية إليه، وتقدير الحاجة نفسي للمطلق لا ينظر أمام القاضي، وخفايا النفوس لا يمكن القضاء أن يتعرفها.

الله تعالى يقول: ﴿تَمَسُّوهُنَّ أَوْ تَفْرِضُوا﴾ (البقرة: ٢٣٦)، ويقول تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطلاق: ١)، يقول الله تعالى ذلك، ويقول ولي الأمر باقتراح الشيخ من طلق من غير محاولة صلح عندي أغرمه أو أسجنه، ألا يكون ذلك معصية، ولو كانت باقتراح الشيخ، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق؟

إن من الإنصاف أن نقول: إن الشيخ قال في بعض الصحف السيارة: إنه يجوز لولي الأمر أن يقيد المباحات، وأنه يبني على هذا القول أنه يجوز له أن يقيد الطلاق بأن يكون بعد محاولة الصلح أمام القضاء، ونقول الحق في هذا القول: إن المباحات قسمان، مباحات بالنص، كالطلاق وتعدد الزوجات وغير ذلك من المباحات التي جاءت بها النصوص المحللة، وهذه لا يصح منعها، ولا تقييدها، وإن من يحاول منعها ينطبق عليه قول الله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ

ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ . . (النحل: ١١٦) وينطبق عليها قول الله تعالى ناهيا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿٨٧﴾﴾ (المائدة: ٨٧)، وقد عاتب الله تعالى نبيه عندما حرم زوجاته على نفسه، فقد قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١﴾﴾ (التحريم: ١).

هذا هو القسم الأول، ومن حرمه، إنما يحرم ما أحل الله، فلا يجوز لشيخ ولا ولي أمر أن يحرمه.

والقسم الثاني ما كان مباحا بأصل الإباحة، وبمقتضى أن الله تعالى خلق لنا كل شيء كالمرور في الطرقات فإن ولي الأمر ينظمه بقيود يقيدها، بحيث لا يصل الأمر إلى درجة التحريم، فليس لأحد أن يحل أو يحرم.

٥- هل كثر الطلاق المفرق للأسرة؟

أكثر الشيخ حفظه الله من ذكر أن الناس يتسرعون في الطلاق، فيطلقون تحت تأثير غضب جامح، أو فكرة عارضة من غير تدبر ولا تفكير ولا مراجعة للنفس، وأن علاج ذلك يكون بأن يكون بين القاضي مصالحا، أو حاكما، والأولى ستجر إلى الثانية لا محالة.

وذلك تقليد مسيحي، فهل الشرع الإسلامي لم يعالج ذلك، وهل المشروعات التي وافق على بعضها الشيخ موافقة تامة لم تعالج ذلك.

إن الشرع الإسلامي بنصوص القرآن وسنة النبي ﷺ عالج ذلك فجعل الطلاق كله يكون رجعيا، وأزواجهن أحق بردهن في العدة، كما قال الله تعالى: ﴿وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ (البقرة: ٢٢٨)، فإن كانت الطلقة الرجعية جاءت تحت تأثير حال عارضة، فهي إنذار، والفرصة قائمة وإن عرض ما جعله يطلق مرة أخرى فهي أيضا رجعية، وهي نذير شديد الإنذار إذ يستمع فيه إلى قوله تعالى: ﴿ٱلطَّلَٰقُ مَرَّتَانِ فَإِمْسَاكٌۢ بِمَعْرُوفٍ أَوْ تَسْرِيحٌۢ بِإِحْسَٰنٍ﴾ (البقرة: ٢٢٩).

فإن لم تجد النذر كانت عقوبة الله تعالى لا عقوبة ولي الأمر التي لا يملكها ويريد الشيخ أن يملكها ﴿فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ﴾ (البقرة: ٢٣٠)،

وهي تجربة نفسية عنيفة لخطأ نفس متكرر، فعيوب النفس تعالج بالنفس لا بالقضاء، والقضاء لا يعالج النفوس.

والقرآن أشار إلى أن الطلاق لا يكون في الحيض، فقال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ (الطلاق: ١)، أي مستقبلات عدتهن وهن الحيض.

والفقهاء قرروا أن الطلاق إذا كان في الحيض، أو طهر دخل بها فيه يكون بدعيا، فالقرآن والسنة، والفقهاء بهديهما عالجوا خطأ النفس بالنفس، لا بالقضاء، لأنه يؤرث العداوات على أني سائل قضاة الأحوال الشخصية - وقد شغل فضيلة الشيخ ذلك المنصب أمدا - هل كانوا يعملون على الصلح في قضايا النفقات والحضانة وغيرها مما يعرض أمام المحاكم الشرعية ونص القانون رقم ٧٨ لسنة ١٩٣١، ولائحة المحاكم الشرعية، قبل أن يدخلها التعديل بهذا القانون كان يدعو إلى الصلح قبل أن يسير في القضية، إبقاء على المودة بين الزوجين، حتى لا تمزقها الخصومات، فهل حاول القضاء ذلك؟ وهل دون في محاضره هذا؟ فلماذا تحمل الآن القضاء ذلك الأمر؟ وهو لم يفعل ذلك من قبل إذ طلب، لأنه حسب نفسه للفصل لا للصلح.

وأنا سائل الشيخ عن أنواع الطلاق الآتية، أتكون العقوبة مقررة فيها؟

أ - وقوع الفرقة بالإيلاء بمقتضى قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢٦﴾ وَإِنْ عَزَمُوا۟ ٱلطَّلَٰقَ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٢٧﴾﴾ (البقرة: ٢٢٦-٢٢٧)، ماذا تقول؟ أيعاقب الحالف الذي تربص أربعة أشهر ولم يأت امرأته فيها ووقع الطلاق نتيجة لذلك؟ فإن كان يعاقب، فإنه يعاقب على حكم الله بالطلاق، إذ لم يطلق، وفوق ذلك فالعقاب مصادمة لحكم الله تعالى، وإجبار على أمر لا يستطيعه، وهو الدخول.

وإن كنتم لا تعاقبون فقد هدمتم ما بنيتم، إذ يلجأ الناس عند المباغضة إلى الإيلاء.

ب - إذا فوض الرجل إلى المرأة أمر طلاقها، فطلقت نفسها، أيعاقب الزوج

أم تعاقب الزوجة أم يعاقبان، هو على تفويضه، وهي على إيقاع الطلاق؟ ولا أحسب أن السيدة الدكتورة وزيرة الشؤون الاجتماعية تعاقب الزوجة لأنها لا تلقي تبعته على امرأة، بل تلقيها على الرجل.

جـ- إذا افتدت المرأة نفسها من عشرة لا تطيقها، ودفعت مالا أو أبرأت عملا بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا ٱفْتَدَتْ بِهِۦ﴾ (البقرة: ٢٢٩) إذا كان ذلك كذلك، وكان الطلاق بالخلع أتكون عقوبة؟ وعلى أيهما أعلى الزوج أم على الزوجة؟ لأنها التي حملته على ذلك حملا، أم عليهما؟ ولا أحسب أن السيدة وزيرة الشؤون الاجتماعية ترضى بتحميل المرأة تبعة.

إني أحسب أن الذين وضعوا المشروع الذي يدافع عنه الشيخ أو يحاول تبريره لم يفكروا في الأمر من كل نواحيه، ولو تدبروا فيه من كل وجوهه لرجونا أن يعدلوا، ولاهتدوا إلى سواء السبيل.

إن الأمر لا يقف عند تحكيم القاضي، بل سيكون منع الطلاق إلا بإذن القاضي، وإنهم يستدرجون الشيوخ إلى ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله.

إنهم يريدون أن تكون الأسرة الإسلامية محكومة بحكم الكنيسة لا بحكم الإسلام، تقليدا وليس حماية للمرأة، بل المرأة في حماية الله، وهو الرؤوف الرحيم.

ولكن لماذا يتهجمون بهذه البدع التي لم يكن لها نظير في الإسلام، ويتحملون تبعة ذلك الابتداع في شرعنا، بل في ديننا؟

قالوا: إن الطلاق المفرق للأسرة قد كثر، وإن تشتيت الأولاد قد عم، وإن الطلاق هو الذي يسبب ذلك، وإن المصلحة تقتضي وضع قيود مانعة من الاندفاع فيه، ذلك قولهم بأفواههم والله يقول الحق، وهو يهدي السبيل.

ولنناقش هذا الذي ادعوه:

إن وقائع الطلاق في مصر أقل من وقائع الطلاق في أمريكا، فقد بلغت نسبة وقائع الطلاق في أمريكا، وهو بيد القاضي نحو ٤٨ في المائة من وقائع الزواج، وقريب من ذلك في البلاد التي أباحت توثيق الزواج غير الكنسي، إنه يكفي عندهم

أن تقول المرأة إنه لم يقبلها في الصباح كعادته في ابتداء الزواج حتى يطلق القاضي، هذا ما ترويه الصحف.

ونسبة وقائع الطلاق في مصر إلى الزواج، كما يدل على ذلك إحصاء ١٩٦٠ هي ٢٣ في المائة.

ونريد أن نقول إن الإحصائية تذكر عدد الطلاق بالنسبة للزواج، سواء أكان قبل الدخول أم بعده، وسواء كان الطلاق رجعيا أم كان بائنا، وسواء أكان بتراضي الزوجين أم بمجرد إرادة الرجل، إن الإحصائية لا تتعرض لذلك، إنما تحصي الوقائع إحصاء، ويجيء فلاسفة العصر المحاربون للشرع والموالون لغيره بتفكيرهم، فيقولون كل طلاق يخرب أسرة، ويفرق بين الأبوين، وهو قول من لم يمحص الحقائق، ولم يدرس الإحصاء.

ونحن، شهد الله، لا نتعصب لفكرة لم نفحص أدلتها، ولا نحارب فكرة من غير بينة من البرهان القاطع في بطلانها، ولكنا نفحص ما يعرض فحصا يليق بمن يدرس أمرا اجتماعيا خطيرا في مبناه ومغزاه.

٦- الإحصاء يدل على أن الطلاق لا يخرب أسرًا.

لقد قمنا بإحصاء سهله لنا بعض أبنائنا من موظفي المحكمة الشرعية بمصر القديمة سنة ١٩٥٦، ولقد دلنا الإحصاء على أن نسبة الطلاق بالنسبة للزواج تزيد على ٣٦ في المائة، وهي تزيد على النسبة العامة في مصر، إذا إنها حول ٢٣ في المائة في عمومها.

وذلك لأسباب اجتماعية اقتصادية، خاصة بمصر القديمة، لأنها مرسى السفن التي تجيء من الوجه القبلي، وفي بولاق، لأنها مرسى السفن التي تجيء من الوجه البحري، والملاحون والحملة في السفن يتزوجون، وعند الرحيل يطلقون.

ومهما يكن السبب، فقد درسنا حال الطلاق الكبير في نسبته في مصر القديمة سنة ١٩٥٦ أيخرب الأسر أم لا يمسها بسوء؟

لقد وجدنا عدد الزواج يصل بالإحصاء إلى ١٦٨٦ (ستة وثمانين وستمائة وألف) عدا.

ووقائع الطلاق عددها ٦٠٥ (خمس وستمائة).

ولاشك أن الطلاق الذي يخرب الأسرة، ويفرق بين الأولاد يجب أن يكون بعد الدخول وألا تكون رجعة بين الزوجين، كما شرع الله تعالى، وألا تستأنف الحياة الزوجية بعقد بين اثنين وقع الطلاق بينهما ولم يتراجعا في العدة، وألا يكون بالتراضي بين الزوجين.

ولنحكم الإحصاء في ذلك، بأن نتعرف عدد الطلاق قبل الدخول ونسقطه من وقائع الطلاق، لأنه طلاق في موضعه، إذ هو منع لحياة زوجية غير صالحة للبقاء، فهو وقاية من حياة زوجية فاسدة.

ولنتعرف عدد الرجعات، فإنه عند الرجعة لا تنفصم العلاقة الزوجية، ولا تفرق في الأسرة، ولا يحتار الأولاد بين أبوين منفصلين.

وكذلك الأمر بالنسبة لتجديد الزواج بين زوج ومطلقته، فإن الأسرة إذا كانت قد تقطعت ابتداء، فقد وصلت انتهاء، ولا تخريب ولا تشتيت في هذا الحال.

ويجب أن نسقط من العدد الطلاق برضا الزوجين، لأن الزواج بتراضيهما، فالطلاق بتراضيهما، وفي أكثر أحواله يكون بطلب المرأة إذا كرهت زوجها، كما كان في أمر النبي بالنسبة للمرأة التي قالت للرسول ﷺ : إني لا أشكو من زوجي خلقا ولا دينا، إني أكره الكفر في الإسلام، إني لا أطيقه بغضا، فأمره النبي أن يطلقها على أن ترد إليه حديقته التي كانت مهرها.

ولأن التراضي بين الزوجين يكون إذا خافا ألا يقيما حدود الله، فكان الافتداء، ولذلك ننزل من عدد الطلاق، الطلاق قبل الدخول، وعدده في سنة ١٩٥٦ بمحكمة مصر القديمة «٣٩»، وعدد الرجعات كان «٣٨» وعدد الزواج بعد الطلاق وانتهاء العدة «١٥٠» وعدد الطلاق بالإبراء أي برضا الزوجة وتقديمها مالا في سبيله «٤٠٤».

وبجمع هذه الأحوال يكون مجموعها (٣٩ + ٣٨+ ١٥٠+ ٤٠٤=٦٣١).

وإذا كان عدد الطلاق ٦٠٥، فإنه يزيد الذي يسقط عن أصل العدد بست وعشرين واقعة، وهي تكون من عدد الطلاق في السنة التي قبلها، ولم تدخل في

حساب سنة ١٩٥٦م.

وإن نتيجة هذا الإحصاء أنه بعد إسقاط الأعداد التي لا يمكن أن تكون تخريب أسرة، إذ يكون الطلاق الذي يخرب أو يظلم المرأة لا وجود له، وإن وجد فبنسبة لا تذكر في حساب يترتب عليه محاربة نظام مستمد من الإسلام، ولا مصلحة في هذه المحاربة، بل هي عبث في عبث، لا خير وراءه.

وإنه يجب أن يعرف أنه كان إحصاء قام به المركز القومي للبحوث الاجتماعية والجنائية، قام به الأستاذ الدكتور عويس أثبت فيه أن الأولاد الذين لا يتربون في ظل أبويهم أكثر مما هم عندنا، ولكن حكوماتهم تقوم بالرعاية والتتبع.

لقد ثبت من إحصاء الدكتور عويس أن أسباب تخريب الأسرة في إنجلترا متعددة منها:

أ- الفراق الجسدي، وهو أكثر من عدد الطلاق عندنا.

ب- اتخاذ الخلائل، وهو أكثر من تعدد الزوجات.

جـ- الهجر الشديد، وهو عندنا يعالج، وإن كان أقل عددا.

د- إدمان الخمر، وهو عندنا لم يبلغ من الفحش درجة تقارب ما عندهم.

هـ- القمار المخرب، وهو عندنا محرم أولا، ولا يقارب ما عندهم، ولذلك كان الأولاد الذين لا يتربون في رعاية أبويهم مجتمعين أكثر مما عندنا، ولكن هناك رعاية للأحداث ليست عندنا كما قلنا، فالعيب في حكوماتنا لا في شعبنا، ولا في شرعنا وديننا.

٧- ومن الغريب أن تكون هذه الحملة الباطلة في الوقت الذي تحاول فيه الحكومات الكاثوليكية أن تتحلل من منع الطلاق، وقد صدر في إيطاليا موطن البطريق الأكبر للكاثوليك قانون يبيح الطلاق.

ولكن لا غرابة فإن عندنا نوعين من الناس يحاربون المبادئ الإسلامية في الأسرة:

أولهما نوع لا حريجة للدين في قلوبهم ولا يجدون حرجا في أنفسهم في تقليد الكنيسة فيما تقضي به، ولذلك يدعون إلى تقييد الطلاق وتقييد تعدد الزوجات،

ويدعون باطلا من القول وزورا وبهتانا أن الطلاق يخرب الأسر، وليس شيء من ذلك إلا قليلا وما عند الأوروبيين أشد وبالا وأقبح مآلا.

ثانيهما طائفة من الناس يظنون أنفسهم أنصارا للمرأة وهم أعداؤها، يظنون أن جعل الطلاق بيد الزوج إهدار للمرأة.

ألا فليعلم هؤلاء أن الطلاق إذا شحت النفوس بالمودة يكون خيرا للمرأة، لأنه إذا لم يكن كان الاعتداء المتكرر عليها، وربما أدى إلى موتها، وأي سعادة مع رجل يبغضها وليعلموا أن كل تضييق في الأسرة يقلل الإقبال على الزواج فتعنس المرأة وتفسد أعصابها، أو تضع نفسها في موضع الافتراش المحرم، وأي مهانة للمرأة أكثر من هذا. فاتقوا الله بهؤلاء الذين رضوا بأن يكونوا إمعات طائعة لهولاء وأولئك، وليعودوا إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، إنهما الوقاية من كل شر، اللهم اهدنا فيمن هديت، وبارك لنا فيما أعطيت، ويسر لنا من أمرنا عسرا، واهدنا إلى الرشاد.

* * *

٣٥ مقالات

د. عائشة عبد الرحمن (بنت الشاطئ)

- ترجمة الدكتورة.
- المقالات:

١- رد وتعقيب: القرآن الكريم وحرية الإرادة

٢-عيدنا وعيدهم.

ترجمة

د. عائشة عبد الرحمن

(بنت الشاطئ)

● **مولدها ونشأتها**

وُلِدَت الكاتبة والباحثة والمفكرة والأستاذة الجامعية عائشة محمد عبد الرحمن، المكناة بـ«بنت الشاطئ» بتاريخ ٦/١١/١٩١٣م، في مدينة دمياط بشمال دلتا مصر، ببيت علم وأدب، فوالدها أحد علماء الأزهر، وقد تربت على يديه تربية إسلامية، فنهلت من جلسات الفقه والأدب.

● **تعليمها**

التحقت رحمها الله بالكتَّاب فحفظت القرآن الكريم، ثم التحقت بمدرسة اللوزي الأميرية للبنات، ثم حصلت على شهادة الكفاءة للمعلمات بترتيب الأولى، ثم حصلت على الشهادة الثانوية عام ١٩٣١م. ثم تخرجت من كلية الآداب قسم اللغة العربية بجامعة عين شمس، ثم نالت شهادة الماجستير بمرتبة الشرف الأولى عام ١٩٤١، وتزوجت خلال فترة دراستها الجامعية من الأستاذ الجامعي أمين الخولي، وأنجبت منة ثلاثة أبناء، ثم حصلت على شهادة الدكتوراه في النصوص بتقدير ممتاز عام ١٩٥٠م، حيث ناقش رسالتها الأديب طه حسين.

● **حياتها العملية**

عملت رحمها الله في عدة وظائف وتبوأت عدة مناصب مهمة، فعملت أستاذة للتفسير والدراسات العليا في كلية الشريعة بجامعة القرويين في المغرب، وأستاذ كرسي اللغة العربية وآدابها في جامعة عين شمس، كما عملت أستاذة زائرة لعدة جامعات كجامعة أم درمان، والخرطوم، والجزائر، وبيروت، وغيرها.

ودرَّست ما يقارب العشرين عاماً بكلية الشريعة في جامعة القرويين بالمغرب في وظيفة أستاذة للتفسير والدراسات العليا، وشغلت عضوية المجلس الأعلى

للشؤون الإسلامية بمصر، والمجالس القومية المتخصصة، والمجلس الأعلى للثقافة، كما كانت أيضاً أحد أعضاء هيئة الترشيح لجوائز الدولة التقديرية بمصر.

● **إنتاجها الأدبي**

أنتجت رحمها الله إنتاجا أدبياً غزيراً ومتنوعاً مثل:

«التفسير البياني للقرآن الكريم، الإعجاز البياني للقرآن، وتراجم سيدات آل البيت النبوي، الإسرائيليات في الغزو الفكري، رسالة الغفران للمعري، والخنساء الشاعرة العربية الأولى، ومقدمة في المنهج، وقيم جديدة للأدب العربي، المرأة المسلمة، ورابعة العدوية، والقرآن وقضية الحرية».

كما كانت تكتب للصحف والمجلات وخصت مجلة «الوعي الإسلامي» بالعديد منها، وقد تبنت الدكتورة عائشة عدة قضايا في حياتها، آخذة على عاتقها الدفاع عن الإسلام بقلمها فوقفت ضد التفسير العصري للقرآن الكريم ذوداً عن التراث.

حصلت رحمها الله على كثير من الجوائز منها جائزة الدولة التقديرية للأدب في مصر، كما حصلت أيضا على جائزة الحكومة المصرية في الدراسات الاجتماعية، ووسام الكفاءة الفكرية من المملكة المغربية، وجائزة الأدب من الكويت عام ١٩٨٨م، وجائزة الملك فيصل للأدب العربي مناصفة مع الدكتورة وداد القاضي عام ١٩٩٤م.

● **وفاتها**

توفيت رحمها الله في ١/ ١٢/ ١٩٩٨م بعد إصابتها بأزمة قلبية حادة، وقد تركت خلفها ثروة هائلة من الكتب والمؤلفات الأدبية التي تعبر عن جهاد هذه المرأة المسلمة.

القرآن الكريم وحرية الإرادة

«رد وتعقيب»

قرأت بعناية بالغة وتقدير صادق، ما كتبه الأستاذ الجليل «الدكتور مصطفى الزرقا» في مجلة الوعي الإسلامي الغراء، تعليقاً على المحاضرة التي ألقيتها في الكويت بدعوة من جمعية الإصلاح الاجتماعي من «القرآن الكريم وحرية الإرادة».

ولقد اغتبطت حقاً، لما بدا من اهتمام الأستاذ الجليل بحاضرتي، وهو الذي نعرف له أصالته في فقه الإسلام، وجهوده السخية في خدمة الفكر الإسلامي.

ولولا يقيني من حسن تقبله لردي عليه عن رحابة صدر وسعة أفق، لتحرجت من مناقشته خشية أن يظن بي الغرور. لكنني تعلمت من أدب الإسلام أن مثل هذه المناقشة إن رفعت قدري فليست بحيث تمس قدر الأستاذ الفقيه أو تجور على مكانته فينا. وقد جادلت امرأة مسلمة مثلي رسول الله عليه الصلاة والسلام واشتكت إلى الله فسمع الله قولها ونزلت فيها آيات «المجادلة» وجادلته أخرى حين هاجرت إليه بدينها وأراد ﷺ أن يرجعها إلى قومها بمقتضى شرط من صلح الحديبية، فنزلت فيها آيتي الممتحنة:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا جَآءَكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتُ مُهَٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِهِنَّ فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ﴾ (الممتحنة: ١٠)

وكذلك جادلت امرأة مسلمة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب على مسمع المسلمين بالمسجد فأصغى رضي الله عنه إليها ورجع إلى المنبر فقال كلمته المشهور التي بقيت ملء سمع الزمان، شاهدة على احترام الخليفة الصالح الفقيه لما كفل الإسلام للإنسان من حرية الفكر والرأي وحق الجدل والمناقشة.

«أصابت امرأة وأخطأ عمر»

* * *

وأحتاج هنا إلى أن أمهر للمناقشة بتلخيص موجز لفكرتي في المحاضرة ومنهجي في تناول مشكلة الجبر والاختيار التي حيرت علماء الإسلام قرونا ذات عدد.

الفكرة تقوم على أساس ما هدى إليه البيان القرآني من التفرقة بين مفهوم إرادة الخالق ومفهوم إرادة البشر.

إرادتنا كسبية مصحوبة بعزم وتصميم عن نية ورغبة.

وليست كذلك إرادة الخالق الذي لا يجوز عليه أي فعل أو صفة كسبية، على ما هو مقرر في علم التوحيد وإنما إرادته تعالى أمر نافذ وقضاء مبرم، سبحانه إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

ومن هذا الفهم المدرك للفرق بين فعل الإرادة مسنداً إلى الخالق، وفعلها مسنداً إلى المخلوقين كان منطلقي في تدبير الآيات التي حكمت الإرادة الإلهية في مصائر الأمم والأفراد، فنراها لم تعفهم من مسئولية ما صاروا أو يصيرون إليه بمشاهد من صريح سياقها:

من هذه الآيات، آية هود (١٠٧) قوله تعالى فيها: ﴿إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ جاء حكما نافذاً على أمة وثنية ضلت وعتت عن أمر ربها فأخذها الله بظلمها:

﴿وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ۖ فَمَآ أَغْنَتْ عَنْهُمْ ءَالِهَتُهُمُ ٱلَّتِى يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ لَّمَّا جَآءَ أَمْرُ رَبِّكَ ۖ وَمَا زَادُوهُمْ غَيْرَ تَتْبِيبٍ ﴿١٠١﴾ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ إلى قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ شَقُواْ فَفِى ٱلنَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَٰلِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ إِلَّا مَا شَآءَ رَبُّكَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾﴾ (هود: ١٠١- ١٠٧).

وآية يس (٢٣) قد أبطلت شفاعة آلهة تتخذ من دون الله أرباباً وهيهات أن تنقذ من حكم الرحمن على من ضل باتخاذها ضلالا مبينا: ﴿ءَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِۦٓ

ءَالِهَةً إِن يُرِدْنِ ٱلرَّحْمَٰنُ بِضُرٍّ لَّا تُغْنِ عَنِّي شَفَٰعَتُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا يُنقِذُونِ ﴿٢٣﴾ إِنِّيٓ إِذًا لَّفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾﴾

وآية الرعد (١١) التي جعلت إرادة الله بقوم سوءا حكما نافذا لا مرد له:

وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له وما لهم من دونه من وال الإرادة الإلهية فيها مسبوقة بقوله تعالى في صدر الآية نفسها: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾.

ومثلها آية الأنفال (٥٢-٥٣) فيمن أصروا على الكفر فحق عليها العقاب:

﴿فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾

وعلى هذا النحو تابعت تخريج آيات الإرادة في القرآن الكريم، فبدا لي- والله أعلم- أن الله تعالى يحكم علينا بما نريد لأنفسنا تقريراً حاسماً للتبعة، وإلزاماً بمسئولية إرادتنا الكسبية الحرة في عملنا ومسعانا، فالجبرية في حتمية المصير لما أرادنا، تتم بها إرادة الله حكا عادلاً وقضاء نافذا. وبغير هذه الحرية في إرادة البشر فتنتفي حكمة إرسال الرسل وتتعطل أهلية الإنسان للتكليف.

وقد وقف الأستاذ الدكتور الزرقا، عند تخريجي لآيتي هود ويس، فقال إن هذه الآيات بقيت محل تساؤل لدى قارئ محاضرتي إذا من الواضح أن مناط الجبرية في آية هود، إنما هو في تسليط الإرادة الإلهية على الإغواء وتعلقها به، فلو كان متعلقها غير الإغواء من عذاب أو سوء عاقبة، لصح التأويل «بأنها حكم الله على الناس بما أرادوا لأنفسهم».

وكذلك آية يسن السياق فيها هو موازنة بين قدرة قادر وإرادته المطلق، وعجز العاجزين.. فيبقى في ظاهر الآية ممسك للجبرية في أن ما يقع للناس من خير وشر ونفع وضر، إنما هو بإرادة الله تعالى التي لا محيص لهم منها.

ولا وجه يما أرى لمثل هذه الوقفة، فلم أقل أن الإرادة الإلهية حين تأتي حكما نافذاً وقضاء مبرماً وفق ما أردنا لأنفسنا، تقتصر على العذاب وسوء العاقبة- أو على الثواب وحسن العقبي- وإنما يصدق حكم الإرادة الإلهية

النافذة، على كل ما أراد الإنسان لنفسه من هدي أو ضلال ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَىٰ وَاتَّقَىٰ ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَىٰ ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَىٰ ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَىٰ ۝١٠﴾ (الليل: ٥-١٠) والله سبحانه قد هيأ للإنسان وسائل البصر والتمييز والهداية ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ۝٢ إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ۝٣﴾ (الإنسان: ٢-٣).

ولا أريد أتردد في قبول ما رآه الأستاذ الجيل من أن تلك الآيات جاءت في مقام التعبير عن قدرة الله تعالى المطلقة في ذاتها، وليست تعبيراً عن واقع، ولذا جاءت في صورة الشرط.

فهو تعالى قادر على العدل والظلم ولكنه لا يغوي ولا يظلم ولا يرضى لعباده الكفر ولا يسوقهم إليه، وكذلك كما تقول إن فلاناً يستطيع أن يفعل كذا وكذا من خير أو شر، ولو أراد أن يقتل فلانا لفعل. ولا يفهم أحد من ذلك أنه فعل أو يفعل ما يستطيعه.

وأضيف إلى هذا الملحظ ما يقرره القرآن الكريم من ثبات السنن الكونية، مع قدرته تعالى على نقضها. فقوله تعالى: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلًا﴾ (فاطر: ٤٣).

﴿لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ۝٤٠﴾ (يس: ٤٠) لا يناقض الآيات المثبت قدرته تعالى على نقض سنن الكون، وقد جاء بها البيان القرآني معلقة على شرط المشيئة الإلهية بحرف «لو» أو «إن».

وكذلك تقرير لحرية الإرادة الكسبية، لا ينفي بحال ما قدرته تعالى على إغواء خلقه لو شاء وإضلالهم إن أراد لكنه سبحانه «لا يريد ظلما بالعباد».

* * *

وعرض الأستاذ الجليل بعد ذلك لآيات: (الأنعام ١٠٨) ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ مَرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

(الأنعام: ١١١) ﴿مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ (الرعد: ٢٧) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ

كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

ورآها مشكلة على ما عرضت من تخريج «وقد أسند فيها أصل السلوك الصالح أو الخاطئ من هداية أو ضلال، إلى فعل الله تعالى ومشيئته».

ولا أراها مشكلة: فآيتا الأنعام في سياق من أصروا على الضلال عمداً وصحت إرادتهم على الشرك والعمى وانعقد عزمهم على العناد.

﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾﴾ (الأنعام: ١٠٤) إلى قوله تعالى ﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُوا۟ ۗ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا ۖ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾ وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾﴾ (الأنعام: ١٠٧ -١٠٨).

والآية كما نرى تقرر حرية العقيدة، وهي متلوة مباشرة بآية عنادهم وإصرارهم على الضلال ولو نزل الله إليهم الملائكة وكلمهم الموتى.

وآية الرعد ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾.

واضح من سياقها أنها تربط الضلال بعناد الكفار ومماراتهم الفاحشة، كما تتعلق هداية الله فيها بمن أناب.

وبعدها في السياق نفسه، تقرر مسئولية الكسب، ويتعلق إضلال الله بمن حق عليهم العذاب. بمكرهم وصدهم عن سبيل الله: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾﴾ (الرعد: ٣٢ - ٣٣).

ولا بأس مع ذلك بما ذهب إليه الأستاذ الجليل من «أن تزيين الأعمال يمكنه فهمه بمعنى تحويطها بما يجذب إليها ويغري بها من متع وملذات ومنافع عاجلة وانفلات من القيود الملجمة في مقابل وضع الله في الإنسان من قوة العقل

والتمييز والتبصير في العواقب وأن مشيئة الله تتعلق بعدم الحيلولة بين مخلوقاته وبين اتباع طريق الهدى أو الضلال وتتحقق مشيئته بألا يريد الله تعالى استعمال قدرته في صرفهم وإن كان قادراً على ذلك. . فهذا القدر من التخلية بين المكلف والمنطلقات التي أمامه في الخير أو الشر يدخل في حدود المشيئة متى كان صاحب هذه المشيئة قادراً على الحيلولة.

أضيف أن تزيين الله للناس أعمالهم وحب الشهوات ومغريات الدنيا، هو أيضاً من قبل الابتلاء الذي يجلو إرادة الإنسان ويؤكد حريتها في الاختيار، تقريراً لتبعة الكسب والسعي وإلزاماً بما يتعلق بهما من هداية أو ضلال.

﴿وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٥).

﴿وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ (النجم: ٣٩ - ٤١).

وللسيد الأستاذ الجليل تحية التقدير الصادق والشكر الجميل.

من تاريخنا الديني

عيدنا وعيدهم

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة: ١٥٨).

أعني بالعيد هنا: عيد الأمومة.. ذلك الذي استوردناه من الغربيين، ونقلنا عنهم يومه المختار للاحتفال به وبعض طقوس هذا الاحتفال به.

ثم أضفنا إليه من عندنا:

ضجة إعلانية في الصحف والمجلات، حيث تنتهز المتاجر هذه الفرصة، فتتفنن في الإعلان عن هدايا للأمهات ترويجاً للبضاعة.

وتهلل الصحف لهذه المناسبة، لأنها تتيح لها الكسب المادي بالثمن الذي تقبضه من المعلنين.. وهو ثمن غال تضيفه المتاجر إلى سعر البضاعة، ثم تزيد عليه مبالغ أخرى، نظير ما تتكلفه في تنسيق الهدايا في واجهات المتاجر، وتغليفها تغليفاً أنيقاً، وربطها بشريط من الحرير الزاهي البراق..

وإلى جانب هذه الضجة الإعلانية، ضجة أخرى عن أخبار احتفال بالعيد يقام هنا أو هناك، تدق له الطبول والأجراس، وتؤخذ صور منه للنشر، نرى فيها السيدة فلانة أو السيد علان، أثناء التفضل بتقديم أكياس من الحلوى إلى نزلاء الملاجئ ممن فقدوا أمهاتهم، أو للأمهات المسكينات في الأحياء الشعبية المنبوذة..

ولا يخلو الأمر من نشر صورة «تلفزيونية» للسيد الكريم وهو يتنازل فيصافح غلاماً مسكيناً، أو للسيدة صاحبة المقام العالي وهي تتواضع فتربت على كتف أم فقيرة، أمام عدسات التصوير «التلفزيونية»!..

على هذا النحو نحتفل بعيد الأمومة:

صور..

وإعلان..

وانتهاز للفرصة..

وترويج للتجارة..

أو هكذا مسخنا عيد الأمومة عندنا، في احتفالنا به على هذا النحو في اليوم الحادي والعشرين من مارس كل عام نقلا حرفياً من الغرب، وليتنا مع ذلك ندرك مغزى اختيار الغرب لهذا اليوم في مستهل الربيع حيث يتفتح الكون، وتدب الحياة في الكائنات إيذاناً ببعث جديد من الأكفان الثلجية التي تكفنها في الشتاء..

ومن ثم يذكرون في هذا البعث الأمومة، واهبة الحياة وصانعة البشر!

أجل نقلنا العيد من الغرب بيومه وطقوسه..

دون أن ندري أن لنا عيدنا الأصيل، يأتي كل عام في موعده الذي لا يتخلف ونحتفل فيه بالأمومة على مدار السنين، منذ ما لا يحصى من دهور وأحقاب.

الزمان: قديم موغل في أعماق الماضي السحيق.

والمكان: «مكة» عندما كانت قفرا يبابا في الوادي الأجرد، لا يعمرها أنس، وإنما تلم بها بين حين وآخر جماعات من الرعاة، يحطون رحالهم عند أطلال البيت العتيق، التماساً للراحة والبركة، ثم لا يلبثون أن يشدوا الرحال ويضربوا في تيه الصحراء بحثاً عن مساقط الغيث ومنازل المطر...

في تلك البقعة المهجورة، وفي ذلك الزمن الغابر وراء التاريخ، جاء «إبراهيم» عليه السلام يسعى من الشمال ومن ورائه «هاجر» تحمل في حضنها وليدها «إسماعيل»..

وفيم كان المسعى؟

كان «إبراهيم» قد بلغ الشيخوخة، وامرأته السيدة «سارة» عاقر لا تلد، وبدا لها يوماً أن تهبه جاريتها المصرية «هاجر» لعلها تعطيه الولد الذي يشتاق إليه، أو لعلها هي أيضاً تعقم فلا تلد، فيسكن «إبراهيم» إلى راحة اليأس ويكف عن التعلق بالسراب.

وحملت «هاجر» فما كادت السيدة تراها أمامها في حملها، حتى خيل إليها أنها مزهوة بهذا العطاء وأحست سيدتها بلواذع الغيرة، لكنها كتمت قهرها، وأقامت تنتظر وهي تعلل النفس بأن التجربة لم تتم بعد، ومن يدري.. لعل الجنين يسقط بإجهاض!

لكن «هاجر» وضعت وليدها إسماعيل، فكأنما أصابت سيدتها العاقر بسهم قاتل، أفقدها تماسكها فحدثت «إبراهيم» عن هذه الأمة التي تتعمد جرح كبرياء الأنوثة في سيدتها، بما تبدي من زهو بالغلام. قال إبراهيم:

- هي أمتك تصنعين بها ما شئت! وشاءت السيدة أن تطرد هاجر وولدها، وآلت على زوجها «ألا يضمها وهذه الجارية سقف واحد».

وخرج إبراهيم من أرض كنعان، ضارباً في طريق الجنوب إلى البلد العتيق ومن ورائه الأم «هاجر» مهزولة في أعقاب نفاسها، منصرفة عن التفكير فيما كان ويكون بهذا الصغير الرضيع الذي يسكن إلى حضنها فينسيها كل الدنيا.

وعند أطلال البيت العتيق حط إبراهيم رحله، ثم تهيأ للعودة من حيث جاء، تاركاً «هاجر» وولدها، مع جراب فيه تمر، وسقاء فيه ماء.

وأدارت هاجر عينيها في هذا التيه القفر فسألت مرتاعة:

- أتتركنا هنا بهذا القفر الموحش؟

قال:

- بلى

فأمسكت هاجر عن الكلام برهة، ثم سألت سيدها إبراهيم:

- آلله أمرك بهذا؟

أجاب:

- بلى.

قالت:

- إذن فالله لن يضيعنا!

ولم تزد.

وسار إبراهيم منصرفاً، حتى إذا بلغ ثنية الوادي رفع رأسه إلى السماء وقال في ضراعة وابتهال:

﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ (إبراهيم: ٣٧).

ومضى.

وظلت «هاجر» تتبعه عيناها حتى غيبه منعطف الوادي، فأقبلت على وليدها تستمد منه الأنس في وحشتها والقوة على احتمال محنتها!

حتى نفد الزاد الضئيل الذي تركه لها سيدها «إبراهيم» ونفد الماء.

وجف ثديها فلم يعد يبض بقطرة.

إذ ذاك بدا لها أن تبحث هنا وهناك عن شيء يمسك الحياة على طفلها، فراحت تضرب فيما حول الأطلال.. دون أن تهتدي إلى شيء..

وسعت إلى جبل «الصفا» فعرجت إلى قمته لتشرف من عل على الوادي، لعلها تلمح من بعيد أثراً لحياة، ولا أثر..

وهبطت من «الصفا» وسعت مهرولة إلى المروة فصعدت وحدقت فيما حولها لعل أحداً غيرها يضرب في التيه.. ولا أحد.

وأعادت الكرة..

ظلت تسعى مهرولة بين الصفا والمروة مرتين وثلاثاً وسبعاً، حتى وهنت قواها وهدها اليأس، فارتمت إلى جانب طفلها، لكنها لم تقو على احتمال رؤيته وهو يلهث ظمأ، والحياة تتسرب من كيانه اللطيف.

«وغطت وجهها بلفاعها، وقالت لا أنظر موت الولد».

ثم استسلمت لما يقضي به الله.

وتفتحت السماء لمشهد «الأم» بما تكابد من هموم أمومتها.

وتجلت رحمة الله في طائر حط قريباً من هاجر وراح يحفر في الأرض المجدبة بمنقاره، فتفجر «نبع» زمزم وهرولت الأم إلى النبع، فارتوت وسقت وليدها وردت الروح إلى الطفل وأمه.

وبعثت الحياة في الوادي الأجرد، وقد استجاب الله لدعاء «إبراهيم»!..

أقبل قوم من الرعاة من جرهم، يضربون في التيه قريباً من موضع هاجر وإسماعيل، فما لمحو الطير محوماً على المكان حتى أيقنوا أنه لا يحوم إلا على ماء.

ونزلوا حيث نزلت الأم «هاجر» واستقروا حول نبع زمزم، فعمر بهم المكان الموحش، وشب «إسماعيل» فأصهر إلى «جرهم» من العرب العاربة الأصيلة، وبدأ تاريخ جديد لمكة والعرب منذ تلقى إسماعيل وأبوه إبراهيم العهد الإلهي بإعداد البيت العتيق لعبادة الله:

﴿وَإِذْ جَعَلْنَا ٱلْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا وَٱتَّخِذُواْ مِن مَّقَامِ إِبْرَٰهِـۧمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَآ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْعَٰكِفِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ﴿١٢٥﴾ وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ ٱجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا ءَامِنًا وَٱرْزُقْ أَهْلَهُۥ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ مَنْ ءَامَنَ مِنْهُم بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُۥ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُۥٓ إِلَىٰ عَذَابِ ٱلنَّارِ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٢٦﴾ وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ (البقرة: ١٢٥ -١٢٨).

من ذلك العهد السحيق، دخلت «هاجر» تاريخنا الديني، فكان مسعاها (مهرولة بين الصفا والمروة) شعيرة من شعائر حج العرب في الجاهلية والإسلام.

﴿إِنَّ ٱلصَّفَا وَٱلْمَرْوَةَ مِن شَعَآئِرِ ٱللَّهِ ۖ فَمَنْ حَجَّ ٱلْبَيْتَ أَوِ ٱعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَن يَطَّوَّفَ بِهِمَا ۚ وَمَن تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ ٱللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ ﴿١٥٨﴾﴾ (البقرة: ١٥٨).

و«هاجر» لم تدخل هذا التاريخ بشيء ما سوى هموم أمومتها، فما كانت سوى أمة منبوذة غريبة عن الأهل والوطن.

وتمضي الدهور والأحقاب، والأم «هاجر» ملء الحياة، فكلما دار عام القمر دورته وأهل عيدنا الأكبر، سعى الألوف من الحجيج بين الصفا والمروة مهرولين سبعة أشواط، كما سعت «هاجر» من قبل التاريخ!.

وهاجر هي أم العرب العدنانية، من بني ولدها إسماعيل، ومنهم بعث محمد ابن عبد الله الهاشمي القرشي العدناني «المصطفى خاتماً للأنبياء».

ونحن المسلمين لا يكمل لنا ديننا حتى نحج بيت الله، وهناك يتكرر المشهد الحي لذكرى الأم الخالدة.

في مكان بعينه بين الصفا والمروة.

وبالحركة نفسها: هرولة بينهما سبعة أشواط.

وفي موعده الذي لا يتخلف، من عام القمر.. على مدار السنين من قديم بعيد وإلى الأبد!.

ذلك هو عيد الأمومة عندنا.

شعيرة من شعائر الله.

فكيف جاز لنا أن نغفل عنه ونستبدل به هذا العيد الطارئ المجلوب، قد مسخت فيه حقيقة عيدنا فصار إلى ضجة إعلان وبريق صور وسوقاً للبضاعة.

وإنه لفي تاريخنا: دين وشعيرة مقدسة!.

ألا هل بلغت.

اللهم فاشهد.

* * *

فهرس الأعلام

فهرس المقالات

للمجلد الثاني

مرتبة حسب الآتي: اسم صاحب المقالات ثم ترجمته، ثم عناوين مقالاته

* * *

بحمد الله تم

2011

تم الصف والإخراج بشركة غراس للطباعة والنشر والتوزيع
هاتف ٢٤٨١٩٠٣٧ - فاكس ٢٤٨٣٨٤٩٥ - الكويت

إصدارات مجلة الوعي الإسلامي

- القدس في القلب والذاكرة.
- حقوق الإنسان في الإسلام.
- المجموعة القصصية الأولى للأطفال.
- الحوار مع الآخر... المنطلقات والضوابط.
- النقد الذاتي... رؤية نقدية إسلامية لواقع الصحوة الإسلامية الراهن ورؤيتها للحاضر والمستقبل.
- المرأة المعاصرة بين الواقع والطموح.
- الحج... ولادة جديدة.
- الفنون الإسلامية تنوع حضاري فريد.
- لا إنكار في مسائل الاجتهاد.
- المجموعة الشعرية الأولى للأطفال.
- التجديد في التفسير، نظرة في المفهوم والضوابط.
- مقالات الشيخ محمد الغزالي.
- مقالات الشيخ عبد العزيز بن باز.
- رياض الأفهام في شرح عمدة الأحكام.
- موسوعة الأعمال الكاملة... للإمام الخضر حسين.
- علماء وأعلام كتبوا في مجلة الوعي الإسلامية الكويتية.
- براعم الإيمان... نموذج رائد لصحافة الأطفال الإسلامية.
- الاختلاف الأصولي في الترجيح بكثرة الأدلة والرواة وأثره.
- الإعلام بمن زار الكويت من العلماء والأعلام.